الثَّورة المصرية

بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار

الثَّورة المصرية

بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار

تأليف
الأستاذ الدكتور/ إبراهيم أبو محمد
المفتي العام للقارة الأسترالية

مكتبة الأديب كامل كيلاني
القاهرة ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الثورة المصرية **بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار**
تأليف **أ.د. إبراهيم أبو محمد** المفتي العام للقارة الأسترالية
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية **٣٥٠٦ / ٢٠١٣** **الترقيم الدولي** **٩-٥٩-٦٣٩٤-٩٧٧-٩٧٨**
الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الناشر: **مكتبة الأديب كامل كيلاني** هاتف: **٢٣٩٦١٤٥٩-٠٢-٢+** العنوان: ٢٨ شارع البستان - باب اللوق - القاهره - جمهورية مصر العربية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهــرس

الصفحة	الموضوع
١٣	**مقدمة:**
٢١	**نوافذ على الثورة:**
٢٣	**النافذة الأولى: إرهاصات الثورة المصرية**
٢٤	المسلمون بين جاذبية الماضي ومرارة الحاضر
٢٧	القوارض الثقافية والاجتماعية.. وقضية التجديد والنهضة (١/٢)
٣٠	القوارض الثقافية والاجتماعية.. وقضية التجديد والنهضة (٢/٢)
٣٣	الأداء الشاذ وتعطيل الكفاءات!
٣٧	وزارة الأوزار ومناهج التربية الإسلامية
٤١	سقوط الثقافة.. ومأزق النظام
٤٦	رسالة إلى موالي وعبيد العم سام
٥١	جرعة من الأمل (١/٢) نصف الكوب
٥٦	جرعة من الأمل (٢/٢) النصف المملوء من الكوب
٦٢	الأمل القادم من رحم الغيب
٦٩	**النافذة الثانية: تغول الكنيسة**
٧٠	خطأ الكنيسة وخطيئة النظام
٧٧	كاميليا شحاتة سيدة الزمن الأولى
٨٣	رسالة إلى رجال الكنيسة
٩٢	دولة الكنيسة.. أم كنيسة الدولة؟

الفتنة الثقافية والفتنة الطائفية	٩٩
مصاب الوطن وقراءة البعد الغائب	١٠٧
أحداث ماسبيرو.. والثقب الأسود	١١٤
النافذة الثالثة: القلم وما يسطرون.. بين الكاتب والقارئ	١١٩
الكاتب عندما يختار السقوط (١/٢)	١٢٠
الكاتب حين يختار السقوط (٢/٢)	١٢٤
القارئ.. عندما يختار الصعود	١٢٨
المصريون.. والفجر الصادق	١٣٦
هنا الدقيق والزيت.. أيها المواطن الحر	١٤١
إلى كتيبة النور لا كتائب التنوير والتزوير	١٤٨
النافذة الرابعة: من تونس كانت البداية (بوعزيزة.. وشرارة الثورة)	١٥٣
التونسيون والثورة على المذلة	١٥٤
خيبة الأمل راكب جمل	١٥٨
الشعب.. يريد	١٦٣
الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (١/٤)	١٧٠
الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (٢/٤)	١٧٧
الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (٣/٤)	١٨٤
الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (٤/٤)	١٩١
عاجل للمجلس العسكرى ورئيس الوزراء الجديد.. ارفعوا العار عن شعب مصر	١٩٨

نداء استغاثة.. من مصر الجريحة والشامخة إلى أبنائها الشرفاء	٢٠٤
المستثنى بإلا	٢١٣
النافذة الخامسة: الديني والسياسي.. مَنْ يقود مَنْ	٢١٧
بين السياسي والديني	٢١٨
فتنة التحذير من ميادين التحرير (٢/١) عتاب لا حساب	٢٢٥
فتنة التحذير من ميادين التحرير (٢/٢) عتاب لا حساب	٢٣١
لعيون مصر ومن أجلها.. رسالة إلى شيخ الأزهر والأنبا شنودة	٢٣٨
النافذة السادسة: المحظورة والمحظور وتبادل المواقع	٢٤٥
المحظورة والمحظور (٣/١)	٢٤٦
المحظورة والمحظور؟ (٣/٢)	٢٥٢
المحظورة.. والمحظور (٣/٣)	٢٥٧
يطاردنا ثم نطارده	٢٦٢
محاكمة عبد الجدار العازل(٣/١) موظف بدرجة رئيس جمهورية	٢٦٧
محاكمة عبد الجدار العازل (٣/٢)	٢٧١
محاكمة عبدَ الجدار العازل (٣/٣)	٢٧٤
سيادة الرئيس المخلوع.. هل يؤلمك ذنبك؟	٢٧٨
الأبوة السياسية بين العرب وبلاد الملايو (٢/١)	٢٨٠
الأبوة السياسية بين العرب وبلاد الملايو (٢/٢)	٢٨٦
النافذة السابعة: بين الربيع العربي والقمع العربي	٢٩٣
الدم العربي والصمت العربي	٢٩٤

نيرون سورية.. حين يفقد البصر	٢٩٩
سورية.. بين الربيع العربي والقمع العربي	٣٠٣
يبقى الشعب ويسقط النظام	٣٠٩
زهرة المجذوب فى حديقة الثورة	٣١٣
النافذة الثامنة: أزمة الدستور.. أم أزمة في الصدور والجذور؟	٣١٩
أول أعراس الحرية.. الاستفتاء على تعديل الدستور	٣٢٠
مصر والسعودية.. بعدما هدأت العاصفة	٣٢٧
أزمة الدستور أم أزمة فى الصدور والجذور؟	٣٣٠
ساعات الخطر وهستيريا الدستور	٣٣٥
القرصنة الدستورية (١/٢)	٣٣٩
القرصنة الدستورية (٢/٢)	٣٤٣
النافذة التاسعة: شغب النخبة.. وإعلام الغواية	٣٤٧
مصر الثورة.. ومصانع الكذب	٣٤٨
النخبة والهياج السياسي	٣٥٢
شخصيات فقدت شراعها (١/٢)	٣٥٧
شخصيات فقدت شراعها (٢/٢)	٣٦٢
الصديق المثقف.. والعمى الإرادى (١/٢)	٣٦٧
الصديق المثقف والعمى الإرادي (٢/٢)	٣٧١
هل يفعلها سعد..؟ (١/٢)	٣٧٥
نعم.. يفعلها سعد (٢/٢)	٣٧٨

رجل الأعمال والنائحة المستأجرة	٣٨٢
ضجة عبد السميع.. والمرجفون في الصحف والفضائيات	٣٨٦
لا تحزني يا مصر.. فهم ليسوا أبناءك	٣٩٠
النخبة والدور السلبي	٣٩٣
النافذة العاشرة: المجلس العسكري.. ومأزق السياسة	٣٩٧
رسالة إلى المشير	٣٩٨
مصر ومحاولات الردة	٤٠٦
الخسارة فادحة	٤١٠
عيون على الوطن	٤١٣
عشاق التلوث.. وجرثومة الاستبداد	٤١٥
حين نصنع الخُطَيْئَةَ.. فنحن نصنع الخَطِيئةَ	٤١٩
من دروس العمالقة	٤٢٣
أم المصريين.. وأم ريكا	٤٢٧
النافذة الحادية عشرة: انتخابات الرئاسة.. وتمزيق الرحم الوطني	٤٣١
عزف جماعي في عرس الوطن	٤٣٢
منصب الرئيس والرحم الوطني	٤٣٦
الكابوس وكامل الأوصاف	٤٤٠
عاجل إلى الشعب المصرى الأبيّ	٤٤٤
انقذوا سفينة الوطن	٤٤٩
الرئيس.. والغرف السوداء	٤٥٢

النافذة الثانية عشرة: دهاليز السياسة.. وكيد الزعامات	٤٥٧
برقية من مفتي أستراليا إلى الرئيس الجديد	٤٥٨
جراح الوطن ونبات اللبلاب السياسي	٤٦٢
عزيز مصر.. وصناعة التاريخ	٤٦٦
العَشَرة الطيبة	٤٧١
كيد النساء.. أم كيد السياسيين؟	٤٧٤
أم الدنيا وعقوق النخبة	٤٧٨
النفق المظلم.. أو الأفق العالي	٤٨٢
النافذة الثالثة عشر: رؤية مستقبلية	٤٨٧
الثورة.. ومنظومة العمل الوطنى (٣/١)	٤٨٨
الثورة.. ومنظومة العمل الوطنى (٣/٢)	٤٩١
الثورة.. ومنظومة العمل الوطنى (٣/٣)	٤٩٥
الخاتمة	٥٠٠

مقدمة:

في كل سفرة لقاهرة المعز، كان الكلام فيها وبغير قصد أو توجيه حول الهمِّ العام، الذى يشغل كل المصريين وهو: مصر إلى أين؟ وهل يمكن أن يكون هنالك تغيير محتمل؟ وإذا كان فمن أين سيبدأ؟ ومَن سيكون مصدره؟.

وقبيل الثورة اصطدمت الرغبة في الحلم، بواقع يخلو من مجرد احتمالات للتغيير، فالأفق يبدو خاليًا من أي ظهور أو تحليق ينبئ عنه أو يخبر عن قرب وقوعه.

ومع العودة من كل رحلة إلى المحروسة أعود مكتئبًا من كثرة ما رأيت الدموع المختنقة في عيون الناس، منْ أعرفهم ومنْ لا أعرفهم..كنت أرى على الوجوه حزنًا دفينًا يعكس حالات من القلق على الحاضر والمستقبل... ربُّ الأسرة مكبل بتوفير إيجار البيت والزيت وما يلزم الأسرة مما لا يجد إلى ثمنه سبيلا.

كانت حالات الخوف من المجهول تكسو الوجوه بمزيج من السخط والخوف المكبوت، وكأن الأجهزة "الجهنمية" لنظام الطاغية وعلى رأسها "جهاز أمن الدولة" تُحَرِّمُ على الإنسان حتى مجرد الإحساس بالسخط أو التبرم بمرارة الحياة، وكان كل شئ يبدو ساكنًا ومنساقًا في الاتجاه المطلوب.

وعلى مدار ثلاثة عقود عجاف زادت الفجوة بين فقراء لا سبيل لديهم للقرب من مغانم السلطة والسلطان، وبين أهل "الفهلوة" الذين استطاعوا أن يلتحقوا بركب المسبحين بحمد الطاغية وأمجاده.. في نزاهته ونظافة يده وانحيازه للفقراء، وقدرته على تحقيق الأمن والاستقرار.. وهكذا رددت مصانع الكذب في مؤسسات هامان الصحفية تليفزيونًا وصحافة وإذاعة.

وظلَّت صحافة النظام وأجهزة إعلامه تمارس المسخ والتضليل بعناوين ثابتة تتغير فقط في المناسبات، حتى حفظها أغلب أبناء الشعب من كثرة تكرارها، وكلها عناوين من نوع "الرئيس يشدد على رفع المعاناة عن الطبقة المتوسطة"، "٥٠٠ ألف وحدة سكنية لمحدودى الدخل"، "خطة خمسية لمواجهة البطالة"، "لا مساس بدعم السلع الضرورية" بتوجيهات من السيد الرئيس: "احتياجات الناس لابد أن تكون أولوية الحكومة الجديدة"

تلك هي العناوين الرئيسة في صحافة هامان ولمدة ثلاثة قرون، فإذا ساء حظ القارئ وساقه لقراءة مقال السيد رئيس التحرير، أو تحليل السيد رئيس مجلس إدارة

الجريدة في أي من هذه الصحف مثلا، فإن حالة من الغثيان مصحوبة بنوع غريب من الاكتئاب تصيب المرء بعد القراءة؛ لكثرة ما احتواه المقال من كذب عن دور مصر في المحيط الإقليمى والدولى، وما قام به السيد الرئيس في هذا المجال، وأن مصر أكبر من أن تتأثر بالطموحات التي تظهر من هنا أو من هناك في المنطقة.. وفقدت الجرائد مصداقيتها ولم تبق فيها صفحة واحدة تحظى بمصداقية باستثناء صفحة الوفيات..!.

واكتشفنا بعد تلك السنين أن دور مصر قد انكمش وتقلص، وأنها مهددة حتى في نصيبها من مياه النيل، شريان الحياة بالنسبة لنا، وأن مصر هبة النيل وقعت فريسة الفوضى والإهمال واللامسؤولية، وأنها على حافة الخطر في زراعتها ومياهها.

لكن المشهد في المحروسة "أم الدنيا" مصر، يخبرك بأن الحاكم الطاغية آمن في سرب أجهزته، لا يعكر صفوه كدر حجم الكوارث التي تنزل بشعبه، مهما كان عدد الضحايا، ومن ثمَّ فهو يمارس مع شعبه ما يعرف بالنباهة و"الاستحمار".

والنباهة و"الاستحمار" تعني أن طرفًا يظن –خطأ– ويستقر في نفسه أنه أذكى من الجميع، وأنه قادر على استغفال الجميع، وإخضاع الجميع، وإذلال الجميع، ومن ثمَّ يمارس عليهم النباهة الغبية. وكأنهم لا عقول لهم، ولا إدراك لديهم، وأن لديهم قابلية "الاستحمار"، فيأكل حقهم ولا يطالبون به، ويظلمهم ولا يغضبون، ويصادر حريتهم، ويزور إرادتهم، ولا يعترضون عليه، ويسلط عليهم "جهازه" جهاز أمن الدولة فيرتعدون ويكادون أن يموتوا خوفًا لمجرد ذكر اسمه.

في المشهد أيضًا كان قطار الهموم اليومية يفرم تحت عجلاته كلَّ أمل في المستقبل، أو حتى كل تطلع أو رغبة في التغيير، وبجانب قطار الهموم الذى يشغل الناس ويستنفد جهدهم ووقتهم، كان قطار التوريث يجرى بسرعة فائقة، محملا بالهتيفة "للفكر الجديد" و"من أجلك أنت" و"مصر بتتأدم بينا".

قطار التوريث هذا، كان أسرع من مترو الأنفاق، يقوده كهنة السياسة وفى أيديهم كل شئ: المال، وأمن الدولة، والحزب، والنخب الثقافية في قنوات التليفزيون الرسمي والقنوات الخاصة، وفي الصحافة القومية، الكل يسوّق ويروج، أما الشفافية فقد بلغت مداها، فالبرلمان –سيد قراره– قد قام بالواجب، وفصَّل القوانين تفصيلا وبالمقاس، وخلا تمامًا من أى معارض يمكن أن يعكر صفو حفل الترسيم المهيب بعد أن أعدت أكاليله واقتربت محطته.

في نظر الأكثرية الغالبة من المثقفين و"المتسكعين"، والمترفهين والجائعين، كان التغيير مجرد حلم من أحلام اليقظة، يُنَفّسُ به المكبوتون المعقدون أمثالنا عن أنفسهم، أو لعله كان مجرد تسلية يلجأ إليها البعض بعدما أغلقت كل مجالات التعبير عن الذات، وأضحت مصر تعاني نوعًا من الانسداد على مستويات مختلفة.

في المستوى السياسى استعيرت نظرية "الفهلوة"، التى يستعملها المستغلون وأهل الجشع من تجار "الخردة" في احتكار الأسواق السياسية، وبدأ الحزب الحاكم يتعامل مع الشعب بلغة مقاولي السباكة في المبانى الخراب، وهى لغة تستحل سرقة صاحب المبنى، وتستغل حاجته، فتبدأ بالحصول على الأنقاض أولا، وتأخذ ثمن إزالتها من صاحب البيت المهدم ثانيا، ثم تتم إعادة بيعها لصاحبها مرة أخرى بعد مجرد تلميعها.

المنظِّرون للثورات دائما يطرحون مجموعة من التساؤلات يتحدد على ضوئها الرؤية والتصورات، هذه الأسئلة تمثل استقراء ذهنيًّا يحاول استشراف المستقبل، كما أنها تمثل عملية قياس نفسي واجتماعي يخبر الباحث بنوعية الحراك القادم وإرهاصاته، ويحدد إنْ كان رحم الغيب يحمل في المستقبل القريب ثورة شاملة مصحوبة بتغيير عام، أم أن القادم مجرد رفض صادر من فئة معينة من الناس لوضع معين؟ إذا تغير هذا الوضع وتحقق المطلوب سكن كل شئ، وعاد الناس كما كانوا؟ وهذا ما يتحقق عادة في حالة المظاهرات الفئوية التي تطالب بتصحيح أو بتغيير واقعة بعينها.

تحليلات الخبراء وتقديراتهم في مصر كانت تحذر كلها، ليس من ثورة منظمة، فكل شئ في قبضة النظام وتحت سيطرته، وكل المؤسسات القادرة على التغيير فُرِّغت من محتواها، وعلى مدى ثلاثين سنة، ومن ثَمَّ كانت التحذيرات من بركان بشري غير واع، وغير مدرك مصحوب بطوفان رهيب من الجياع يدمر كل ما في طريقه.

كان الخوف من الجياع الذين نَهَبَ النظامُ ثروتَهم ليملأ بها خزائنه، وأكل النظامُ كلَّ أقواتهم ولم يستبق لهم شيئا.

التحذيرات تضمنت أيضًا خوفًا مرعبًا ممن يعيشون في العشوائيات، وتعدادهم يبلغ خمسة عشر مليونًا من البشر، ظلمهم النظام وحَوَّل ما يجب أن يكون مساكن لهم، إلى فلل فاخرة، وشاليهات في شواطئ خيالية له ولحاشيته، ومن يمشون في ركابه ويطبلون له ويزمرون.

البعض كان يُؤَمِّل ويُعَوِّل في التغيير على سيدنا "عزرائيل" ويراهن عليه، وهو بالمناسبة ليس زعيمًا إسرائيليًّا من أصدقاء صاحبنا في الكيان الصهيونى، وإنما هو الاسم الشهير "خطأ" لملك الموت لدى عامة الناس البسطاء، فالرئيس قد تجاوز الثمانين من عمره، ولكن حتى هذا الأمل خاب أمام تطلع الابن وإصراره على أن يرثنا نحن أحياء وأمواتا.

وفى قاهرة المعز كان المشهد ساكنًا على السطح ولكنه يغلى في الأعماق.

هناك في مصر المحروسة تستطيع دوما أن تجد بُغيتك، تجد الفكرة النيِّرة والعقل المتوقد، وفيها تجد الضياء والنور، وإن أظلمت الدنيا وغابت النجوم والقمر.

فيها تجد الباحث النابه صاحب الذكاء الفذ، وإن ضاقت يداه وقلَّ رزقه عن الوفاء بمتطلبات البحث والدراسة.

فيها أيضا تجد عزة الفكر وشموخ الرؤية، ودقة التوصيف والتحليل، رغم سقوط المؤسسات الثقافية ووزارتها وأغلب رموزها في حضيض الحضيض.

فيها تجد الرويبضة التافه يطل عليك من شاشات الفضائيات يتحدث في كبريات القضايا، وفيها تجد العبقري المغمور الذى لا يعرفه أحد.

فيها تجد العلماني أو الماركسي المتغطرس، يدُل عليك ببعض ما يعرف من ثقافة، ويستعلى مغرورًا بما يحفظ من مصطلحات: "البلوريتاريا، والتركيبية، والبراجماتية، والعبثية، والبنيوية، وما بعد الحداثة"، وفيها تجد الفلاح الفصيح والعامل البسيط، وسائق التاكسي، وربة البيت الأمية لا تقرأ ولا تكتب، ولكنها بثقافة الفطرة "تفقس" صاحبنا المغرور، وتعرف أن انتماءه ليس لبلدنا، وأنه مغترب في عقله ووجدانه، ومن ثَمَّ تدعو له بالهداية والشفاء مما يعانيه.

فيها أيضا تجد الرافض والمتمرد والثائر على اختلاف درجاتهم، يجمعهم أصل الغضب من وضع معين، ولكنهم يختلفون في كمِّه وفى كيفية توظيفه والاستفادة منه في تغيير الوضع المهين.

حين تتناقش مع هذه العينات كلها من البشر، تتعجب من القدرة الفائقة في النفاذ إلى عمق الحقيقة!! رغم تفاهة ما يكتب في الصحف القومية، ورذالة ما يدور ويقدم ويفرض على الناس في تلفزيون النظام.!!!

تستغرب كيف يعيش هذا البلد، وكيف يتكيف أهله مع تلك الكوارث كلها، ويمارسون حياتهم بتلقائية طبيعية، يتصورها بعض الناس بلادة، بينما هي تمثل في مصر بشكل مخصوص عبقرية المكان وعبقرية الإنسان.

عبقرية المكان في احتفاظه برصيده الحضارى رغم كل عوامل الهدم والنهب والاستلاب.

وعبقرية الإنسان في قدرته ولياقته العالية على الاحتفاظ بذاته، واستعلائه في داخله على الهوان والاستضعاف، ومقدرته الفائقة على إعادة صياغة ذاته والانتصار على كل عوامل التسطيح والإحباط.

في الحالة المصرية كان التغيير يستلزم حالة استبدال كامل تتم في ذهنية المرء وتصوراته، تسبقها قطعا عملية تغيير في الإرادات والهمم والعزائم، وثورات الشعوب عادة لا يمكن أن يقوم بها شعب معين إلا إذا تحققت شروطها وانتفت موانعها.

قلم الباحث في هذا الكتاب رصد مجموعة من الإرهاصات المقلقة تمثل نوعًا من الرصد والتحليل لحالة شعب عريق، وهو يشكل حلمه وسط الظلام، في فترة من أصعب فترات التاريخ المصري، تخبرك أن تحت الرماد لهيبا، وهذه الإرهاصات تمثل شروط الثورة ومقدماتها الضرورية، ومن ثمَّ كان هناك مثلا:

١- كان هناك نوع من تنمية الشعور بالظلم، لكن وجود الظلم لا يكفي لقيام الثورات، وإنما لابد من تنمية الشعور به، وإدراك خطورة استمراره.

٢- تنمية الشعور بالخطر المشترك، وتعميم هذا الشعور حتى تتوفر القاعدة العريضة في الدعم والمساندة.

٣- تنمية الشعور بالواجب المشترك في التغيير، حيث يظن البعض –خطأ– أن مهمة التغيير تقع مسؤوليتها على شخص معين يمثل رأسًا ورمزًا، أو على جهة معينة تمثل مرجعية، ومن ثم فتنمية الشعور بالواجب المشترك في التغيير يجعل لكل فرد نصيبًا في هذا الشرف، كما يوجب عليه واجبًا من التضحيات عليه أن يؤديه.

٤- وجود القدر الكافى من مخزون الغضب، والغضب هو القرار الأزلي الأول للتمرد على أي وضع مهين، ومن ثمَّ فلابد من وجود القدر الكافى من الغضب، حيث يمثل في تلك الحالة وقود الثورة والثوار لتحريك المشاعر في اتجاه التغيير والثورة، ثم تتكون عملية

الحشد الجماعى والجهد الجماعى، والتلاحم الجماعى الذى يساعد على كسر حاجز الخوف، وعندما يبلغ الغضب مداه فتلك هى نفسها البداية في التغيير والثورة.

مظالم النظام لم تكن مجرد مظالم، وإنما كانت مظالم مستفزة لمشاعر الفقراء والمساكين وأهل الكوارث وأهل العشوائيات، ومن هنا فقد تراكمت المظالم حتى تحولت إلى جبال من الظلمات وجبال من الغضب الساكن بعضها فوق بعض.

جرائم النظام وحزبه وأدواته ساعدت كثيرًا على تنمية الشعور بالظلم بعد حادث الإسكندرية الذى قتل فيه الشاب خالد سعيد، وكانت تلك هي القشة التى قصمت ظهر البعير، ومن ثمَّ فقد تجمعت كل أسباب الثورة.

شباب مصر –بنين وبنات– هم أصحاب اليد العليا في الثورة، وكانوا هم القوة العاقلة والمفكرة والهادئة، وقد قرروا أن يمارسوا دورهم الخلاق والمبدع في إعادة صياغة مصر، وإعادة صناعة تاريخها باستدعاء عصر الأمجاد، لا لمصر وحدها وإنما للعرب جميعا. الشباب الذي عولم الغضب وصنع البطولة بصدوره العارية، صمم على هزيمة النظام، والانتصار على أعتى ما قدمته صناعة القمع والقهر والاستبداد، وبهر العالم ببطولته وإصراره وتحضره، وما قدمه في ميدان التحرير، وفي كل ميادين مصر من وحدة قِيَمه الثورية، وشرف وطهارة وسائله في التغيير والثورة.

الشعارات المرفوعة في ميادين مصر كلها دوخت قوة الطاغية وأبطلت وسائله في اللعب على خلق الخلافات الطائفية، واعتماده على ثقافة العبث الذى أشاعها إعلامه بين المسلمين والمسيحيين. الشعارات والنداءات "محمد ومينا، إيد واحدة لينا" عكست بُعدا جديدا في التسامح والمحبة، عاشته الشخصية المصرية عشرة قرون، وحاول النظام مرارا أن يبددها ويخفيها.

عملية الاستعداد والقابلية لهذا التغيير العظيم يساعد عليها أيضًا وجود الفطرة النقية التي لم تلوث لدى الشعب المصري، وبخاصة شبابه وإن غبرت ظاهرها ضغوط الحياة، وثقل الهموم، وتراكم المشكلات.

يساعد عليها كذلك الكامن الحضاري والأخلاقي المتراكم في الوجدان الجمعي للمصريين عبر آلاف السنين، وهذان العنصران "الفطرة النقية والكامن الحضارى والأخلاقي" شكلا معا معلما من معالم ثورة ٢٥ يناير، انفرد به شباب أم الدنيا، وتميزت به مصر وهى تخط بشرف تاريخ ثورتها.

البعض كان يسخر بالطبع من تلك القيم، وينظر إليها بتهكم واستخفاف، وكان يتهم الشباب بأنهم ممولون من الخارج، وتأتيهم وجبات الكنتاكي ساخنة، وتلك كانت إشاعة مَن فقدوا شرفهم من أصحاب النفاق، طويل التيلة، قليل الحياء، كثير التبجح.

وفي المواقف الخطيرة تتوجه بوصلة التوجيه في الإنسان عادة للوجهة الصحيحة وينفض عن فطرته وعقله ووجدانه كل الغبار الذى حجب الرؤية وزكم الأنوف من قبل.

وتتوارى أيضا ضغوط الحياة وثقل الهموم وتراكم المشكلات، ويرى المتابع للأحداث خَلْقًا جديدًا وخُلُقًا جديدًا نفض عن كاهله كل مكبلات الحركة وقيود المظالم، والخوف من الحاضر والمستقبل، وقد تجلت هذه الظاهرة في كل شباب مصر وكل شعبها.

في ٢٥ يناير أصبح المشهد في مصر رائعًا ومبهرًا وخلاقًا؛ فلحظاته كلها، محطات انكسار وانحسار وانتصار.

انكسار لروح الهزيمة، حيث تستبدل في التغيير بإصرار على تحقيق الهدف، مهما كانت قدرات الطرف المستبد، وأدوات القمع لديه، وآليات القتل وعدد الجنود والحرس. وانحسار تام لحاجز الخوف من الموت، والهجوم عليه بالإصرار على الحياة، مهما بلغت التضحيات، ومهما أمعن الطاغية في الوحشية، واجتهد في استعمال كل ما تحتويه خزائن أمنه وحرسه وأتباعه.

وانتصار لروح جديدة، تبدلت فيها الرؤى والأفكار والتصورات القديمة، برؤية أعمق، وأفكار أكثر تطورا، وتصورات أشمل وأدق في معرفة الصواب والخطأ.

الفطرة النقية والكامن الحضاري والأخلاقي عمل عمله في جمع الحشود باختلاف توجهاتها وتياراتها وفصائلها ودينها أيضا في ميدان التحرير، رغم الاحتقان السائد من قبل، لتلتقي كلها وتذوب في إرادة واحدة، حول هدف محدد وموحد، وهو التغيير والثورة.

قبيل الثورة بأيام، ونحن هناك في أم الدنيا، وفي جلسة خاصة ضمت نخبة من الأكاديميين والمحللين كنا نتحاور حول مصر إلى أين؟ استفزني بعضهم، وقال ماذا عندك أنت؟ قلت أنا ضيف لا يحق له أن يتقدم على رب البيت وأنتم أهله وأصحابه، قالوا: أنت أيضًا لستَ بغريب عنّا، أنت واحد من أهل الدار، وأهلها هم أهلك وناسك، فقل لنا ماذا عندك؟ وفكرت قليلا، وأنا أعرف أن أغلب الحاضرين، وأغلب المصريين يعرفون الحل الحقيقي، ويعرفون الطريق إليه، لكنهم يعرفون أيضًا أن التصريح به مغامرة محفوفة

بكثير من المخاطر، التي تبدأ بالعزل من الوظيفة، وربما تنتهي بالسجن والتعذيب، فكل شئ مراقب، وكل شئ مرصود، وحتى الأنفاس في الصدور معدودة ومحدودة، والحبيب العادلي وجهازه يعرف كيف يصطادك. ثم قلت: مختصرًا وضنينًا بالشرح والتفصيل "للقدر مفاجآت" ونظر بعض الزملاء والأصدقاء من الأكاديميين والمحللين ضاحكًا مني وهو يخفى في نفسه ما تبديه عيناه، وكأنما يقول: نحن في انتظار الملائكة لتأتي بهذه المفاجآت للقدر المنتظر.

وبزهو الفدائي الذي يغازل الحياة بتحدي الموت، ويصر على الانتصار، وهو يُقْبِل على تفجير قنبلة، استجمعت شجاعتي واندفاعاتي وتهوري أيضا وقلت لهم:

"إذا ذابت حرية المرء في سلطان الحكم المطلق، وشعر جمهور الأمة بالانطواء والانزواء أمام إرادة واحدة مكنتها المصادفات من السيطرة والامتداد، فمن العبث أن تتجه جهود المصلحين إلى الجماهير الغفيرة، وإنما يجب فض الأمر أولا مع صاحب السلطة؛ لأن بقاءه في وضعه العاتي يتنافى مع كل دعوة للإصلاح".

ساعتها نظر بعض الحاضرين إليَّ مُحَمْلِقًا، والبعض الآخر مشفقًا، وتبسم آخرون في خبث، وانصرفنا لتناول الغذاء. بعدها بأيام قليلة كانت روعة المشهد هناك في ميدان التحرير، ولم تكن تلك الروعة في التنوع فقط، وإنما ظهرت في أعلى تجليات الضبط الإرادي لملايين البشر التي خرجت وملأت شوارع مصر وقُرَاها، دون أن يعكر صفوها حادث واحد –إلا ما قامت به فلول الطاغية وبلطجية النظام– فهل تستمر الفطرة النقية والكامن الحضاري وروح ميدان التحرير في حماية وحراسة الأهداف العظيمة للثورة، وجمع الحشود باختلاف توجهاتها وتياراتها وفصائلها حول تلك الأهداف العظيمة؟ لم أكن أعرف أيضًا أن الحمل الميمون لمصر كان توأما، أحدهما يولد في قاهرة المعز وتمتلئ به فرحًا كل بلاد المحروسة، بينما الآخر يستكمل دورته ليحمل ميلادًا جديدًا لبلدان أخرى تعيش حالة المخاض في ليبيا واليمن وسوريا والباقي على الطريق، وتلك كانت مفاجآت الأقدار التي تخطت تحليلات الخبراء وتجاوزت رؤية المُنَظِّرين للثورات.

أ.د. إبراهيم أبو محمد

المفتى العام للقارة الأسترالية

سيدني أستراليا:

السبت ٦ من ربيع الآخر ١٤٣٤ هـ – ١٦ فبراير ٢٠١٣م

نوافذ

على

الثورة

النافذة الأولى

إرهاصات الثورة المصرية

الحديث عن التغيير يكون لغوا لا معنى له ما لم تستعد الأمة ذاكرتها المفقودة باستعادة ثقافتها من الضياع وحضارتها من الاستلاب وشخصيتها من الانسحاق والهوان والتبعية المذلة.

ومن ثم فالدعوة إلى التغيير تحتاج معراجا جديدا تجتاز به الأحزاب المختلفة حدود المأساة التى تعيشها أمتنا، ويتحرر بها الأفراد من أسر الوثنيات السياسية التى تحالفت مع وثنية رأس المال، تلك التى يعبر البعض عنها بمصطلح زواج السلطة برأس المال، وهو زواج يفقد شرعيته حين يستبيح مصالح الأمة، ويتجاهل صرخات الفقراء والكادحين، وينتهك أبسط حقوق الإنسان، ويقسم المجتمع إلى سادة وعبيد.. سادة يستمتعون بكل شئ، ولهم أن يأمروا وعلى الدنيا أن تجيب.. وإلى عبيد ليس من حقهم شيئا، ولا حتى التعبير عن أنَّاتهم وهم يتوجعون، أو يدور بخلدهم مجرد الرغبة أو الأمل في فك القيود عن أيديهم ورقابهم.

المسلمون بين جاذبية الماضي ومرارة الحاضر (*)

بين جاذبية الماضي ببريقه الصافي ونبعه الألَّاق، وبين مرارة الحاضر، انقسم المسلمون إلى فريقين: فريق اكتفى بالانكفاء على الماضي البعيد، يلوذ به ويستجير، ومن هذا الفريق شرائح وفئات: فئة تجتر ذكريات الماضي، وتعيش في عالم من الوهم المريح خارج حدود عصرها وزمانها، وترضى من الحياة بالقليل الدون، تحت دعوى الزهد الموهوم أو الورع المتصنع لدى المقلين الذين تتطلع نفوسهم، لكن أسبابهم عاجزة فماذا يصنعون؟ وهؤلاء ينسحبون من الحياة بدعوى خاطئة، وشعار مغلوط يعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويترك ساحات الحياة للشياطين الهائجة تفعل فيها ما يحلو لها، وهذا الشعار مضمونه وفحواه أن الله تعالى: (أقام العباد فيما أراد).

وهي دعوى مردودة على أصحابها؛ لأن الله تعالى لا يريد بالناس إلا كل خير، ولأن الدين الذي نؤمن به ونعتنقه وننتسب إليه إنما جاء أصلا ليحرر إرادة الإنسان، وليجعل له دورًا ومكانة في توجيه دفة الحياة نحو الحق والخير والجمال ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

لكن أصحاب هذا التوجه ينسحبون من الحياة ولا يؤدون فيها دورًا رائدًا، ولا يشكلون قوة مؤثرة –لا حجمًا ولا وزنًا ولا دعوةً– رغم أن المسلم يجب أن يكون عنصرًا مشعًّا لمبادئ دينه بالخلق العظيم والسلوك الحسن، والممارسات الراقية، والموقف الإيجابي في كل شيء.

وفئة أخرى حاولت وتحاول أن توفق أوضاعها، وأن تلتزم بما كان عليه السلف الصالح، وهذا موقف رائع في الحقيقة، غير أن أصحاب هذا التوجه قد غالوا في رفض كل جديد مبتكر، وغاب عن وعيهم الفرق الصحيح بين المقاصد والغايات، وبين الوسائل المؤدية إليها، كما أنهم تجاهلوا الفروق الدقيقة بين الثوابت والمتغيرات في شريعتنا الغراء، ولم يلتزموا في خطابهم مع الآخرين بالتي هي أحسن، واتسم خطابهم بالغضب الشديد، والتجهم للآخرين، والتهجم على الرموز، والتفتيش في صدور الآخرين وقلوبهم بحثًا عن وسيلة تصنفهم ضمن أصحاب العقائد المختلة، فنصَّبوا من أنفسهم قضاة على

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٠ – ٤ – ٢٠١٠م

قلوب الناس وعقائدهم، وجعلوا من أنفسهم أوصياء على العقائد ومن ثم فقد انتزعوا لأنفسهم سلطان الله من حيث لا يشعرون، حيث هو وحده الذي يكشف ما في الصدور، ويعلم ما في القلوب، هذا بالإضافة إلى جرأة غريبة لا صلة لها بالعلم ولا بالأدب في تناول العلماء الكبار والطعن في عقائدهم، وجسارة أكبر وأغرب في اقتحام معضلات المتشابهات، دون أن يتوفر لهم أدنى شروط البحث العلمي الرصين، ذلك فضلا عن اصطيادهم للشباب الساذج وحقنهم بتلك الجرعات المخيفة التي تلبي شعور التميز لدى هؤلاء الشباب وتشعرهم أنهم وحدهم هم الطائفة الناجية؛ لأنهم وحدهم أيضًا هم أصحاب العقيدة الصحيحة، ولم يفتحوا صدورهم وعقولهم لقبول الآخر كطرف في الحوار قد يحمل على الأقل بعض الحقيقة، وقد يكون لديه شيء من الحق الذي ليس حكرًا على أحد بذاته.

غير أن الحق عندهم لا يتعدد ومن ثم فلا حاجة لحوار مع الآخرين، وإذا كان الحق لا يتعدد، فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل؛ لأن وحدة الحقيقة لا تمنع من تعدد وجهة النظر إليها، وفي الدين الحنيف الذي جاء ختمًا للرسالات ومصاحبًا لمسيرة الإنسان إلى قيام الساعة، ومستوعبًا لحاجات البشر في الطول والعرض والعمق. في هذا الدين ما يدفع إلى فتح النوافذ والأبواب مع الآخرين، وضرورة الحوار الراشد الذي يستهدف الوصول بالإنسان إلى شاطئ الأمان في بحثه عن الحق والحقيقة معا. إن هذه الفئة لو تخلت عن هذه المثالب، لأدت دورًا رائدًا في رد الناس إلى دينهم ردًّا جميلاً، بدلا من المسارعة إلى اتهامهم بالابتداع والفسوق أحيانًا، والشرك أحيانًا أخرى.

أما الفريق الثاني، فقد انكفأ هو الآخر، لكن في جهة معاكسة.

لقد التوت أعناقه نحو الغرب، وجوهر الفكر الذي يحكم هؤلاء التائهين أنهم لا يرون، ولا يسمعون، ولا يعجبون إلا بما يأتي من هناك، وفي نظرهم لا خلاص ولا مناص إلا بالالتحاق والانسحاق، أي أننا يجب أن نلتحق بهم ونذوب فيهم، وبالتالي تنمحي من الوجود هويتنا وخصائصنا ومقوماتنا كلها، ونصبح خلايا في بنيانهم ونسيجا في لحمتهم الحضارية.

وهم لا يفرقون بين الشيء والفكر، ويفتقدون حاسة التمييز بين عالم الأشياء وعالم الأفكار، وهم بهذه الدعوة التي يبشرون بها ويدعون إليها ويتحمسون لشيوعها

وإشاعتها إنما يريدون منا أن نرفع أيدينا تسليما وانهزاما، وأن نتخلى عن كل ما لدينا من تاريخ وتراث، وبذلك فهم يحملون لنا نحن المسلمين شرًّا كثيرًا.

وبين هؤلاء وأولئك تقف النخبة الواعية الداعية إلى الله بحق، تنير الطريق، وتضيء إشارات الخطر حمراء، وتحاول إعادة الوعي المفقود إلى الشخصية المسلمة باستعادة مقوماتها ومكوناتها، وبعث همتها وإحياء أملها في التطلع إلى حماية الكيان العام، وتحقيق الذاتية الإسلامية المستقلة، وجهود هؤلاء معروفة ومقدرة عند الله وعند المخلصين من خلقه.

القوارض الثقافية والاجتماعية.. وقضية التجديد والنهضة (٢/١)(*)

تجديد الفكر الإسلامى وتجديد الخطاب الدينى دعوات احتلت في الفترة الأخيرة مساحات كبيرة في الساحة الثقافية، وترددت تلك الدعوات بشدة في مقالات وكتابات صحفية محترمة تستهدف وتحمل فعلا دعوة صادقة للتجديد والنهضة، وفي الوقت ذاته امتلأت الساحة أيضا بكتابات تمثل القوارض الثقافية والاجتماعية ولا تبغى سوى استبعاد وإقصاء الفكر الأصيل عن ثقافتنا واستبداله بسخافات فلكلورية لا تمت لا للفكر ولا للثقافة ولا للأدب بصلة من قريب أو بعيد، وحصل بعض هذه السخافات على جوائز تقديرية، الأمر الذى يعنى أن المعايير الثقافية غائبة تماما عن الساحة الثقافية في بلاد العرب الأجاويد وأوطانهم الحرة المستقلة، ولقد كانت العدالة الثقافية تقتضى ونحن نتحدث عن الدعوة لتجديد الفكر الإسلامي وتجديد الخطاب الدينى أن نتحدث أيضا عن الحاجة لتجديد الخطاب السياسي للانعتاق من أسر القهر والذل والاستبداد والطغيان، وكنا ولا زلنا في حاجة أيضا لتجديد الخطاب الاقتصادى الذى حول المواطنين إلى غرباء وأجراء في أوطانهم، وزاد من سطوة وفساد رأس المال حين تم زواجه بالسلطة والسياسة، وكنا أيضا ولا زلنا في حاجة لتجديد الخطاب الإعلامي في صحافتنا وإذاعاتنا وإعلامنا كله من باب احترام النفس وحماية الذات الوطنية حتى لا تتحول إلى مسخ يكيل المديح اليوم لبعض الأشخاص وبعض الأسماء فإذا تغير الهوى السياسى أخرج كل ما في القاموس من صفات النقص والتجريح ليلحقها بنفس الأسماء والأشخاص الذين كنا بالأمس القريب نتباهى بوطنيتهم وعبقريتهم وسعادة الأوطان وفخرها بإنجازاتهم، وكنا أيضا في حاجة إلى خطاب يُضمِّد الجراح الوطنية والقومية ويدعو لاستعادة روح الوحدة وينمى شعور المواطن بالانتماء الكبير لأمته، بدلا من التمزق والضياع في واقع يغرى بالقضم والهضم من قبل قوى كبرى في أوج قدرتها، مجموعة من الدول تتباين فيما بينها،وتختلف في أجناسها ولغاتها وثقافاتها، ومع ذلك تلتقى في وحدة أوروبية،لها قوة دفاع مشتركة،وسوق أوروبية مشتركة، وعملة مشتركة،وتتعامل مع قضايا العالم بتصور مشترك يحمى مصالحها ويحقق أهدافها ويفرض احترامها بين دول العالم، وتسعى وتتطلع دول كثيرة للانضمام إليها.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٣ - ٠٤ - ٢٠١٠م

وفى المقابل أمة بدولها لها دين واحد ولغة واحدة، وهمومها تكاد تكون واحدة، تواجه أطماعا واحدة، ومع ذلك تختلف فيما بينها ولا تتفق ولا على شئ واحد، تملك من الإمكانيات ما يجعلها في مقدمة الأمم، ولديها من الثراء والثروة ما يُمكِّنها من تجاوز كل عقبات التخلف، ومع ذلك تعيش في أحط درجات ضعفها، الآخرون هم الذين يقودونها، فبأمرهم تأتمر، ولإرادتهم تخضع، وفى فلكهم تدور، وحول أهدافهم تتمركز كل حركتها وكل نشاطها، وهذا واقع يدركه العقل الجمعي لمجموع الأمة،كما يدرك معه بأن أمتنا تعيش في عصرها الراهن مرحلة صعبة من مراحل التراجع الحضاري، نتج عنها انفصام فكرى، تسبب في حالة من السبات العميق اختلط فيها حلم النهضة الغائب والمستكن في أعماقها، بضباب الرؤية، وانفصل فيها الواقع المنسحب عن قمة أمجاد الآباء الكبار، فاصطدمت طموحات المنى في التصور والفكر، بأعلى تجليات الخلل والفوضى في الواقع المحسوس، الأمر الذى أفرز حالة من التقوقع على الذات والانكفاء على الماضى، وإن كان مجيدا وعظيما، ولقد كان من الطبيعي أن يستفز هذا الوضع القلق إرادة الأمة عامة، وعلمائها ونخبها الثقافية والأكاديميين فيها بشكل خاص لإعادة النظر في أنساق القيم التي توجه سلوك أبنائها وتكوّن ثقافتهم وتحدد علاقتهم بما تحمله تيارات العولمة من ثقافات تتسم بطابع الكونية، كما تحدد مكانها واتجاهاتها في تلك الكونية الجديدة.

ولم يكن من المقبول ولا من المعقول أن ننكفئ على الذات مكتفين بالماضى التليد، ذاكرين بأنه قد كان لنا مكان الصدارة في يوم ما، وكنا نحن العالم الأول.

غير أن الأماني وأحلام النهار لن تعفي أمتنا من دفع ضريبة الغياب عن الحاضر، وهي فاتورة تكاليفها باهظة وطعمها علقم؛ لأنها تدفع من حرية المسلم وكرامته، وتجعل إرادته رهينة حفنة من قمح يقتات بها، أو قطعة من سلاح يدافع بها عن نفسه وعرضه ووطنه، ومن ثم كانت الدعوة إلى تجديد الفكر الإسلامى لاتعنى نزهة في عالم الثقافة والمعرفة، تسرح فيها العقول بعيدا في عالم الوهم المريح، فترفه عن ذاتها، وتضيف إلى حالة الترهل مزيدا من الكسل الذى يسهم في استبقاء التخلف، وإنما هى دعوة لاستفراغ الوسع والطاقة لخلق صيغ فكرية وفقهية جديدة تعمل على تعديل الصور المعكوسة في نفوس جماهير أمتنا عموما، وشبابنا بشكل مخصوص، وتعلمهم كيفية الموازنة بين النسب والأحجام والأوزان والكتل، فلا يصح ولا يجوز تكبير الصغير ولا تصغير

الكبير، ولايمكن أن يكون مقبولا أن تصنع المعارك حول توافه الأمور، بينما أمهات القضايا تهمل بلا بحث أو اهتمام علمي رصين،

دعوة تجديد الفكر الإسلامى تعنى أولا أن يعطى للجزء مكانه من الكل، وأن نقيم الوزن بالقسط لتعتدل معايير الأمور وتعود سيرة الحياة إلى موازين الاستقامة والاعتدال.

وإذا كان الخطأ في السلوك يمثل خطأ في الوزن، وهو بلا ريب خلل في العدالة، فإن الخطأ في التصور يشكل خطأ مستمرا في الميزان، وتلك كارثة ثقافية تجلب للناس أغلاطا شتى لا يحصيها العد، ولا تمثل خللا في المعايير فقط، وإنما تمثل حالة من غياب المعايير أصلا، ومن ثم فالدعوة إلى تجديد الفكر الإسلامي تعنى أن نعدل ميزان التصور للعقائد وللحقائق وللقيم المنبثقة عنهما، وألا نترك الخلل في الميزان، وإلا تحللت الوحدة الفكرية والعقدية التي تشكل الضمانات لبقاء الأمة داخل الدائرة الإسلامية، وبقاء أفرادها على خط الإسلام الصحيح المستقيم، وهى دعوة من مجموع نتائجها وآثارها يتحدد المنهج والإطار التربوي الذي يصاغ من خلاله عقلية الأجيال ويصنع عبر وسائله وآلياته الرأي العام.

لذلك يتحتم على المثقفين والعلماء الجامعيين والمجمعيين أن يهبُّوا لتلبية تلك الدعوة وأن يبدأو في عملية إعادة بناء لهيكلية منظومة القيم الإيمانية والعلمية والأخلاقية، وهى القيم التى نهضت بالأمة في عصورها السالفة وجعلت من المسلمين العالم الأول، هذه الهيكلية التى تأسست في الأصل على الوحيين قرآنا وسنة، أحلت كل قيمة من القيم محلها المناسب، وأعطتها حجمها في البناء العقدى والبناء التشريعي والبناء الأخلاقى دون مغالاة أو تفريط، ولنا في حديث فقهائنا عن المقاصد والغايات، وعن الضرورات والمصالح والتحسينات، منارة ودليل، فلم يطغ في أذهانهم رضى الله عنهم قيمة على قيمة، كما لم تتجاوز كل قيمة قدرها وحجمها ومكانها ومكانتها في المنظومة التشريعية العظيمة، وكان عمدتهم وأساسهم الذي اعتمدوه هو القرآن والسنة، ثم جاءت فترة التراجع الحضارى والانحطاط الفكرى فأصابت الأمة بحالات من التميُّع وفقدان الهوية، والتمزق وضياع الوحدة الشعورية، الأمر الذى عرَّضها للتآكل الذاتي من داخلها وفتح باب الاختراق والسيطرة من الخارج.

القوارض الثقافية والاجتماعية.. وقضية التجديد والنهضة (٢/٢)(*)

الهيكلية التي تحدثنا عنها وقلنا إنها تأسست في الأصل على الوحيين قرآنا وسنة، أحلت كل قيمة من القيم محلها المناسب، وأعطتها حجمها في البناء العقدى والبناء التشريعي والبناء الأخلاقى دون مغالاة أو تفريط، فالمنظومة العقدية حررت الناس من خوف الخلق ومن همِّ الرزق وعبَّدتهم لله الواحد الأحد، والمنظومة التشريعية أعطت كل قيمة قدرها وحجمها ومكانها ومكانتها، والمنظومة الأخلاقية التى هى نتاج وثمرة للمنظومتين السابقتين العقدية والتشريعة، خلقت في الوجدان الضبط الإرادى والضمير الحى الذى يذكر الإنسان دائما بأن هناك من يراه ويراقبه ويطلع منه على كل خفايا النفس ونواياه وبذلك استطاعت أن تؤسس حضارة الخير والحق والجمال،

حضارة الخير للناس كل الناس باعتبار رسالتها رحمة للعالمين،

وحضارة الحق في العقائد والأخلاق والقيم،

وحضارة الجمال في الفنون والآداب،

ومن ثم تمت صياغة الإنسان الربانى والذى هو قدر الله الغالب وقضاؤه الذي لا يرد فكان بحق عبدا لله سيدا في الوجود والكون، وكان عمدتهم وأساسهم الذي اعتمدوه هو القرآن والسنة.

إن إعادة بناء وترتيب هيكلية منظومة القيم من جديد أضحت مطلبا ملحا تدعو إليه حالة الانكسار التى تعيشها أمتنا، وتفرضها ظروف المتغيرات العالمية التى تجرى حولنا، وهى متغيرات تجرنا جرا وتجرى بنا أيضا نحو مستقبل لم نحدده نحن، ولا نعرف من معالمه وخريطته غير أنه سباحة في محيط عظيم، رياحه عاصفة، وأمواجه عاتية، وتحيط بنا فيه أسماك قرش كثيرة، وتعترض سيرنا شعب مرجانية خطيرة ومدمرة.

والدعوة إلى تجديد الفكر الإسلامي تعنى أن نمسك نحن في هذه الظروف على الأقل بدفة المركب، وأن نحميها من الصدام بالشعب المرجانية، وأن نحافظ عليها وسط هذا الموج العاتى بعيدا عن سمك القرش الذى يتربص بها ويحاول توسيع الخروق ليدخل إليها.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٨ – ٠٤ – ٢٠١٠م

والخلل في ترتيب منظومة القيم، يفقدنا السيطرة على دفة القيادة ويصيب بوصلة التوجيه بالعطب، فيضيع منا الطريق ويفقد المركب شراعه ثم تضيع مراسيه.

بمعنى آخر هى دعوة لتحقيق استقلالية الأمة وحماية قرارها وإرادتها من أن ترتهن للآخرين، وتعفيها من فاتورة الحساب الذي تدفعه تخلفا ومذلة وقهرا وعجزا،

وما لم نعمل جادين على إعادة تجديد منظومتنا الفكرية والمعرفية ومن ثم ترتيب وتنظيم منظومة القيم، فإنها ستتوارى ليحل محلها قيم أخرى مختلة ووافدة، يفرضها الغريب الذي احتل الأفكار والعقول والقلوب، قبل احتلال الأوطان والديار والأرض.

ولئن اعترفنا في حياتنا السكانية بوجود عشوائيات نشأت في غياب التخطيط والمراقبة، تشكل نتوءات وشذوذا في المدائن والقرى، فإن في حياتنا الفكرية والثقافية عشوائيات وفدت إلينا في عصور الانحطاط واستقرت، ثم زادت عن طريق الوافد الثقافى الجديد الذى مكن لها في بيئتنا، وغرس عن طريقها خلايا الفكر المهجَّن والمدجَّن، فنشأت تلك القوارض الثقافية وعشعشت في ثقافتنا، وهى قوارض من نوع خطير لا تشوه الصورة فقط، وإنما تعمل على كسر إرادة الأمة وتحويلها إلى أمة متسولة ملتحقة ومنسحقة، واستقبلت أمتنا تلك الخلايا، وقد هدها طول السبات، فلم يعد لديها في جهاز المناعة من القوة ما تصد به أو تحاصر جراثيم تلك القوارض، ومن ثم تمكنت القوارض من مزاحمة الفكر الصحيح، وعكرت صفو المنابع الصافية في تراثنا الفكرى وعطلت النهضة وأخرت دور التجديد والمجددين.

وفى حادثة غير مسبوقة أوصت تيسى ليفنى وزيرة خارجية إسرائيل السابقة بوضع أغلب المقالات التى كتبت لأعضاء من هذه القوارض على صفحة وزارة الخارجية الإسرائيلية على النت باعتبارهم أصدق تمثيل لوجهة النظر الإسرائيلية، فهم يمثلون سفراءها في أغلب الصحف والمجلات العربية، وقد قرأ الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز واحدة من تلك المقالات ثم هبَّ واقفا ليقول لجلسائه " كاتب هذا المقال يستحق أعلى وسام في إسرائيل.

هذه الواقعة المستفزة تجعل من الضروري قبل الدخول إلى العصر من عملية مراجعة مع الذات نعرف من خلالها من نحن؟

وماذا نريد تحديدًا؟

وما الذي يمكن أن نأخذه وما الذي يمكن أن نرفضه؟

وهل لنا أصلا خيار في القبول أو الرفض؟

وهل لدينا منظومة من القيم تمكننا من التعامل مع المتغيرات مع الاحتفاظ بالخصوصية؟

وما الذي يمكن أن نفعله لنحصن أمتنا ضد تلك العشوائيات؟

الإجابة على تلك الأسئلة تحدد أولا إمكانيات الذات حين تتعامل مع الآخر.

كما لابد أن تكون تلك الاستجابة مؤطرة بسقف معرفي يحمل فى رؤيته بجانب ثوابتنا البعد الإنساني لما تحمله قيم الآخرين، ويأخذ في الحسبان ونحن بصدد الحديث عن منظومة القيم الاعتبارات التالية:

- أن الفطرة قاسم مشترك بين البشر في كل المجتمعات وكل الشعوب والأمم، مهما اختلفت الأجناس والألوان واللغات.
- أن الحضارات تراكمية وبينها تلاقح وأخذ وعطاء ينتج عنه تفاعلات في الأفكار والثقافات تنتقل من عصر لآخر ومن بلد إلى آخر ومن حضارة إلى حضارة أخرى، وكل ذلك له تأثير في نسق القيم السائدة، وخصوصا ونحن نعيش عصر السماوات المفتوحة بفضائيات تفوق العد والحصر.

فإذا أضيف إلى ذلك ما أنتجته وسائل العصر من منظومة اتصالات تجاوزت بالصوت والصورة كل الحواجز والحدود، إذا وضعنا ذلك في الاعتبار فإن قضية الانفتاح على الآخرين والتعرف على مالديهم ثقافة وحضارة تصبح مطلبا ملحا للاستفادة مما تحقق هناك.

والاستجابة للتحدي لابد أن تنطلق من رؤيتنا نحن، وبعيوننا نحن، ووفق ثوابتنا نحن، ثم لابد أن تكون تلك الاستجابة محسوبة بما نملك فعلا، لا بما نتمنى أن نملك.

وإذا كان بعضنا يجد في البحث لطلب العافية لأمتنا ويستنهض همة النخبة من الباحثين ليساهموا في نهضة ثقافية تحاول نفض السبات عن الأمة بتجديد الفكر الإسلامي وصياغة مشروع ثقافي من النوع الثقيل وإنهاء الغيبوبة التى طال ليلها، وذلك مطلب يشكل أمنية وحلما استطابته قلوب المخلصين، ولطالما دعت إليه أقلامهم، فإن على حركة التجديد ودعاتها والملتزمين بها أن يحددوا أولا موقفهم من تلك العشوائيات الثقافية والفكرية التى تملأ الساحة وتساهم في استمرار غيبوبة الأمة،وتصب على عقول

الأفراد سيلا من المخدرات الثقافية التى تدغدغ غرائزهم وتفصلهم عن واقعهم المرير، وتجعلهم يعيشون معزولين عن الزمان والمكان، مفصولين عن تاريخهم وتراثهم.

نقطة البدء هنا تبدأ بتنظيف الحقل الذى اختلط حابله بنابله، وذابت فيه النائحة الثكلى بالنائحة المستأجرة؛ لذلك فقد وجب التخلص من تلك العشوائيات التى تمثل القوارض الثقافية أولا ليكون التجديد على قاعدة صحيحة ومن خلال منطلق صحيح.

ثانيا: منطلق التجديد لابد أن يبدأ من رصيدنا نحن، وذلك يتطلب المصالحة مع الذات الفكرية والثقافية وإنهاء القطيعة بيننا وبين تراثنا.

ثالثا: العودة إلى الذات تتطلب قدرا من الثقة تزول معها حالة الالتباس بين الثوابت والمتغيرات من ذلك التراث، وتتضح بها الفروق بين الوحى المعصوم قرآنا وسنة، وبين المخزون الفكرى والثقافي لعلمائنا،على أن يتم التعامل معه بقدر كبير من الاحترام والتقدير، وبعيدا عن القداسة والعصمة التى لم تثبت لغير القرآن والسنة.

وفي هذا الصدد لن ننطلق من فراغ، فبرغم الضعف والسبات المصحوب بحالات التخلف والعجز والتبعية الممقوتة فلسنا أمة لا جذور لها تقف في مهب الريح، ومن ثم يمكن خلعها من أرض الوجود -كما يتصورالبعض ويتمنى ذلك آخرون- إنما نحن أمة مريضة فقط تعرف سر دائها ويمكنها أن تستعيد عافيتها ودورها ورسالتها وبخاصة أن لديها رصيدًا ضخمًا وعظيمًا حرَّك الدنيا وغير التاريخ، وأعاد للوجود رشده وحرارة الحياة، وهذا الرصيد الملزم لا يمنعنا من الاستفادة من تجارب الآخرين وحكمتهم، ولا يحول بيننا وبين النظر في معطيات الحاضر والأخذ منه، ولكنه يشكل بالنسبة للتراث الإنسانى بعمومه أعلى وأغلى وأغنى رأسمال.

وفى هذا الرصيد الضخم منظومة من القيم تتسع دوائرها وحلقاتها لتشمل كل ميدان في الحياة، كما يتسع تأثيرها ليصل لكل فرد ويصبغ كل سلوك للفرد والمجتمع والأمة. فهل تحمل النخب الثقافية دعوة تبشر بأنه: قد حان الوقت لنستلهمه وننطلق منه..؟.

الأداء الشاذ وتعطيل الكفاءات! (*)

في مجتمعات المسلمين المعاصرة لا تعمل كل المرافق في أداء متواز ولا يربطها عقد واحد، وإنما كل يعمل بطريقته وبأسلوبه الخاص. وإذا كان الأداء المتوازي يصب في مجرى النفع العام للمجتمع، فإن الأداء الشاذ بحركة انعكاسه وتناقضه ضد بعضه البعض يعطل الكفاءات، ويشل الإرادة، ويصيب المجدين بالإحباط، ويحدث نوعًا من الازدواجية والانفصال، كما يتسبب في حرمان الأمة من ثمرة جهود أبنائها.

ولئن كانت هنالك جهود فردية مبدعة ورائعة، فهي لم تلبث أن تصطدم وتتحطم أمام البيروقراطية القاتلة والروتين السام، ومن هنا لا تلبث هذه الجهود أن تموت وتندثر وسط بيئة لا تقدر المجدين والمبدعين، ولا تعرف كيف تستفيد بجهود أبنائها، وبالتالي فالمحصلة النهائية على الناتج العام تحسب بالخصم من رصيد المسلمين وليس بالإضافة.

وهذه الحالة لا تسبب التوقف والجمود في المجتمع فقط، وإنما ترجع به إلى الوراء، وترتد به القهقرى، فيعيش حالة من التخلف المزري الذي يحيله عالة على غيره من الأمم، ويجعله فريسة لكل طامع وأسيرًا لكل معتد أثيم.

ووسط هذا الجو الكئيب والمملوء بآفات التخلف والضياع تبحث العقول المبدعة لنفسها عن منفذ وملاذ فلا تجد مكانًا وتقديرًا إلا في أحضان الغرب، الذي يحرص بدوره دائما على استنزاف عقول أبناء الأمة، والاستفادة منها، وحرمان مجتمعاتها الأصلية من ثمرات جهودها وعبقرية عقول أبنائها.

ومن هنا يظل التخلف لنا والتقدم لهم. وإذا كانت طبيعة الحياة لا تعترف بحق إلا للأقوياء، فإن الضعف والهوان يكون من نصيب المسلمين وحدهم.

وهكذا يخطط ويراد لأمتنا أن تعيش على هامش الحياة دون أن يكون لها حضور أو تأثير.

وإذا كان الدين الذي نزل من السماء قد رفع أمتنا قديما إلى مكان القيادة والريادة، وبوأها مكانة التقدير والإعزاز، فإن المسلمين في عصرهم الحالي قد تخلوا عنه،

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٤- ٥ - ٢٠١٠م

وهبطوا دون مستواه، وفرطوا في قيمه ومبادئه، وذابت هويتهم ومكوناتهم النفسية، ومقوماتهم المعنوية، وبالتالي فقد تحولوا –رغم الكم العددي الكثير (قرابة مليار ونصف نسمة)– إلى شيء لا طعم له، ولا لون، ولا رائحة، يستهلك ولا ينتج، ويأخذ ولا يعطي، وينفعل ولا يفعل، ويتأثر ولا يؤثر، ويستقبل فقط ولا يرسل.

نعم هم من حيث الكم كثير، ولكنهم كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) "غثاء كغثاء السيل". فهل هذه الأمة هي التي أرادها الله أمة وسطًا، واختارها لتكون شهيدة على أمم الأرض كلها؟ أم أن شيئا خطيرًا قد حدث، غيَّر الملامح والقسمات، وأحال أحرار الأمس، ورواد النهضة، وقادة الحرية، ومشاعل النور، إلى قطيع من الأسرى، يعيشون التخلف والضياع، ويعانون التعثر والتمزق، ولا يجيدون إلا العراك ضد بعضهم، ولا يتحركون في كل شيء إلا بإشارة وتصريح ممن ليسوا من دين الله على شيء.

وإذا كان هذا هو وضع المسلم المعاصر، فكيف يتحقق له التمكين في الأرض، وكيف يستعيد مكانته وهو يعيش هذه الحالة، ولا تتوفر فيه شروط الخلافة عن الله؟ ولا حتى عناصر الإيمان الصحيح؟ فهو بهذا الوضع لم يفلح في دين ولا دنيا، بل قد أضاع دينه ودنياه وضيع نفسه وأمته. وفي المقابل فإن غير المسلم –الذي لا يؤمن أصلا أو يؤمن على نحو منحرف– ويلتزم بسنة الله في الأسباب، ويحترم بكده وكفاحه قوانين المادة، ويبذل الجهد والعرق في إتقان فنون الحياة وشئون الدنيا، فإن عدالة الله تأبى أن يحرم من ثمرة هذا الكفاح في الدنيا، ولو كان كافرًا فعليه كفره، وسيحاسب عليه عند الله في الدار الآخرة.

وإذا كان الآخرون يحترمون قوانين الطبيعة، ويجدّون في التعرف على المادة وخصائصها وقوانينها، ويستفيدون من كل دقيقة في حياتهم، ويوظفون عنصر الزمن ممثلا في احترام الوقت، وعنصر العلم ممثلا في احترام العقل، وتوفير الإمكانات له، وعنصر المادة ممثلا في احترام المال وحسن استخدامه صرفًا واستثمارًا. فإننا دون أمم الأرض جميعًا أكثر الناس تفريطًا في هذه العناصر واستهانة بها. وإذا كان ديننا ينشيء علاقة تكاد تكون عاقلة بين الكائن والكون، ويقيم البناء الحضاري على تلك الركائز التي استفاد منها أعداؤنا وسخروها لخدمتهم، فهو لم يكتف بلفت الإنسان إليها وتنبيهه إلى خطورتها في تقدم الأمم ورقي المجتمعات فقط، وإنما جعلها محل حساب دقيق في أحرج المواقف وأشدها خطرًا في تحديد مستقبل الإنسان أمام الله في الدار الآخرة.

يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به" (صحيح الجامع الصغير وزيادته). فهل يمكن أن تكون هناك دعوة لاستثمار الطاقات وتوظيف العناصر أفضل من هذه الدعوة؟.

إن الآخرين الذين لا يؤمنون بالله، أو يؤمنون به على نحو منحرف قد انصرفوا إلى إجادة أعمالهم، وإتقان فنونهم، والاستفادة من كل ما هو متاح لديهم، فكان من حقهم بمقتضى قوانين العدالة الإلهية أن يتقدموا، وأن ينتصروا، وأن يحققوا أقوى الإنجازات وأعظمها في عالم المادة، وأن يمسكوا -بموجب هذا التقدم- بكل خيوط اللعبة السياسية وتوجيه دفتها لصالح قضاياهم، وأن يسخروا كل المنظمات والمحافل الدولية لتحقيق أهدافهم، فهل يلامون إن فعلوا ذلك؟ وإذا كان هذا هو حالهم فما هو حال المسلمين في المقابل؟

إنك إن نظرت يمنة أو يسرة لا تجد غير التسيب وتبديد الطاقات وضياع الوقت، وبالجملة لا تجد غير أمة تعيش على أطلال آبائها، وتحسن الحديث عنهم بكلام طويل عريض، لكنها لا تحسن اقتفاء آثارهم أو الاقتداء بهم.. تجيد سرد تاريخ البطولة لكنها تعجز عن محاكاة البطل. تلك هي حالة المسلمين، نقول ذلك في محاولة لفهم الواقع وتحديد نقاط السلب والإيجاب، وليكون واضحًا في الذهن طبيعة العلاقة بين التخلف والقيم السلبية السائدة والتي أفرزها الواقع الغائب عن منظومة القيم الإسلامية الحقيقية ولتكون دعوة التجديد والنهضة على بصيرة تستحضر كل جوانب المشكلة ولا تغفل عن جانب منها، ثم نقول ذلك أيضا من باب الصدق مع النفس وليس من باب جلد الذات.

وزارة الأوزار ومناهج التربية الإسلامية(*)

الوزير في اللغة هو السند والمعين. والوزر بكسر الواو وسكون الزاي هو الذنب والخطيئة يرتكبها الإنسان وينوء بها كاهله وعندنا في بلاد العرب الأجاويد (البلاد الحرة المستقلة) فإن أغلب الوزارات تحمل نقيض معناها، وتعمل في كثير من الأحيان ضد الأهداف التى أنشئت أصلا من أجلها. وبعض الوزراء في بلاد العرب الأجاويد، البلاد الحرة المستقلة أيضا من فصيلة القوارض، والقوارض الاجتماعية مصطلح أطلقه المفكر الإسلامى مالك بن نبى رحمة الله عليه في كتابه "ميلاد مجتمع"

والقوارض الاجتماعية والثقافية في حياة أمتنا هى عينات من البشر احتلت عقولها واختلت ثقافتها وتمادت في سخافاتها، وهذه القوارض كثيرة ومتعددة، لكن أكثرها خطرا وأشدها فتكا بالأمة طوائف ثلاث، لكل طائفة منها أدواتها وآلياتها وأساليبها في التشكيك والوقيعة بالخصوم وخداع الفريسة، ولها أيضا معاولها في التخريب والهدم. وتمثلت هذه القوارض في تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين،وقد عطلت مسيرتنا الحضارية زمنا وأثارت حول شريعتنا الإسلامية كثيرا من الغبار يحجب الرؤية ويزكم الأنوف، لكن العلماء الأجلاء والربانيين من أهل الإسلام كانوا وما زالوا لهم بالمرصاد، يدافعون عن دينهم ويردون كيد خصوم الشريعة في نحورهم وينفون عن الإسلام والمسلمين تهمة الشراسة والعدوان، وهذه الطوائف الثلاث عبر عنها وجمعها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين". رواه البيهقي وحققه الألباني / مشكاة المصابيح كتاب العلم الفصل الأول الجزء١ ص/ ٥٣

وهذه القوارض فئة تختبئ تحت ستار الحداثة وتحاول جاهدة أن تروِّج وتُشيع مصطلح "العقل في مقابل النص"، وتسعى لتكريس هذا الفهم بالمغالطة والتدليس، وهذه الفئة –مع الأسف الشديد– هى الأعلى صوتا والأكثر تشويشا وضجيجا، فهم يملئون الساحة عبر صحف ومجلات وفضائيات بكلام عن الحداثة والتنوير، ولا يرون حداثة تتحقق إلا بسلخ الأمة عن دينها وتراثها وحضارتها، ولا يرون تنويرا يحدث إلا إذا انطفأت أنوار الشريعة والتحقت أمتنا وانسحقت في مناهج الغرب ونظمه وقيمه كلها،

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٩ – ٠٥ – ٢٠١٠م

وذريعتهم واحدة تتكرر في كل لقاء وعلى ألسنتهم جميعا، وهى ضرورة التحرر من قيود النص وقيود التراث،

ودور القوراض الثقافية هنا هو العمل على انفصال الأمة التام عن دينها، وهنالك توزيع للأدوار بين هؤلاء، فبعضهم يجاهر سافرا بدائه وكراهيته، والبعض الآخر يرتدى ثوب الإسلام المستنير، ويبدى إعجابه به وبما فيه من قيم... لولا...... لولا... جمود علمائه على النصوص وتمسك القائمين على شؤونه بالظواهر والقشور، وأنه لا بد من مراعاة المصالح، ولا بد للعقل أن يأخذ دوره في فهم النصوص بعيدا عن أى قيود. ولابد من تنقية مناهج التربية الإسلامية مما يحرض على ثقافة العنف ورفض الآخر وما إلى ذلك من الاسطوانة المشروخة التى تعودنا على نغمها القبيح كلما أتيحت الفرصة وجاء دور موسم بداية الحملة، ومن ثم يطرحون القضايا تباعا وبأدوار مختلفة وتحت حجج متنوعة فتسمع منهم مثلا النص في مقابل العقل،فإما العقل وإما النص، ومن ثم فنحن أمام خيار مر، نتخلى عن العقل ونلتزم بشكلية النصوص ونعيش في عزلة عن الدنيا، أو ننطلق في دنيانا ونلحق بركب الحضارة ويكون لنا بين أمم الأرض مكان ومكانة؟ وهكذا تبدو دعوى الجمود على النصوص ووقوف الذين احتكروا تفسيرها لأنفسهم، هى أم المشكلات كلها، وأصحابها -الإسلاميون طبعا- هم سبب التخلف وسبب العجز وسبب التبعية، وسبب ما حل بالأمة من أزمات وسبب ماسيستجد في حياتها من كوارث في مستقبل الأيام، ولا مانع من دس كلمة من نوع " ثقافة رفض الآخر" أو "ثقافة الكراهية" أو "ثقافة العنف والتطرف" أو "الجماعة المحظورة" وإدخالها ضمن السياق بغير مناسبة حتى يفهم من يعنيه الأمر أن الكاتب لاخوف منه ولا خوف عليه؛ لأنه من حظيرة كتاب الحزب أو كتاب الشرطة كما يطلق عليهم البعض، وبناء على الطرح الذي يطرحه هؤلاء يكون على الأمة أن تختار وقد برح الخفاء، إما أن نختار التقدم والحداثة والالتحاق بركب الحضارة والتحرر من قيود النصوص، وإما أن نعيش قابعين في معتقل الماضى البعيد نستحضر من القرون الماضية خرافات التراث ونجتر حكايات عن السلف لا تثمن ولا تغنى من جوع، وعلى الأمة أن تحدد مصيرها فإما العقل وإما النص.

وهذا في الحقيقة كلام مغلف؛ لأن المراد هو التفلت من ضوابط الشريعة، والتمرد على كل قيم الإسلام، وتحويل مجتمعاتنا إلى كيانات تابعة ملتحقة ومنسحقة ومتجردة من كل خصائصها، لا تستهدف غير أن تعيش الحياة بأي شكل وعلى أى لون، ولو على فضلات ما يلقى إليها من موائد الآخرين، ولا ندرى لصالح من يراد لنا أن ننسلخ من

ديننا وهويتنا ونتحول إلى أمة تائهة. وهكذا يبدو الإجحاف في طرح القضايا، بل يبدو التدليس والغش والتشويه واغتيال الحقائق وتحريض الناس بشكل سافر للتمرد على الأصول العقدية والهوية الفكرية والثقافية، والخروج على الثوابت التى تلاقت عليها إرادات الشعوب باختيارها لدين الله عقيدة وشريعة ومنهاجا، وإذا كان لكل أمة من أمم الأرض ثوابت اتفقت عليها وارتضتها هوية لها ودونتها في دستورها ووضعت نصوصا قانونية لحمايتها وعاقبت كل من يخرج عليها، فما بال أمتنا تترك ثوابتها (سداحا مداحا) مستباحة من قِبل هؤلاء دون تحذير أو نكير؟.

وليس هذا بالطبع شأن الأحرار من الأمم، وليس هذا شأن أمة لها رصيد حضارى أثَّر في تحضر الدنيا، وأسهم في نهضة علمية عالمية لا يزال العالم يعيش بعض خيراتها، ويجنى ثمراتها حتى الآن، ولا شك أن أكبر الموضوعات التى تثير حفيظة هؤلاء وتحدث نوعا من الذعر لدى بعضهم هو الاقتراب من الشريعة، ليس فقط من ناحية الدعوة إلى تطبيقها والاحتكام إليها، وإنما حتى من ناحية دراستها والبحث فيها والإشادة بما فيها من قيم تحرر الإنسان وترقى الوجود وتحمى الحياة.

ومن ثم كانت المطالبات بتغيير مناهج الدراسة فى الأزهر وحذف موضوعات الحدود وضرورة الالتحاق بركب الحداثة، ثم كان آخرها ما نشرته الصحف وبشكل مثير ومستفز تحت عنوان "إحالة مناهج التربية الإسلامية إلى فضيلة المفتى" ولقد ذكرنى هذا العنوان بعناوين أخرى تحمل في خلفياتها معنى الموافقة على إعدام المجرم بعد إدانته بالجريمة وحكم المحكمة عليه، وطبيعى أننا جميعا نعرف أن الموضوع مختلف، وأن ثقتنا في سماحة الإمام المفتى ومعرفتنا به تجعلنا على ثقة ويقين أن الرجل بعلمه الواسع وثقافته الشاملة وذكائه الحاد لن يبلع الطعم الذي أراد البعض أن يصطاده به، وأنه أكبر وأجل من ظنونهم المخبولة،وأن ورعه وخشيته لله تحول بينه وبين أغراضهم المشبوهة في تمرير ما يطلب منهم، غير أن الدلالة في العنوان خطيرة جدا ومستفزة لكل حر وشريف وأبيّ، فسماحة المفتى ليست مهمته مراجعة المناهج، ومن ثم فقد أدرك سماحته حجم الاستفزاز فيما يحمله العنوان من محاولة الفتنة والوقيعة بين مؤسستين هما الأزهر ودار الفتوى وكلاهما يمثل الرأس والرمز والمرجعية، وهما أيضا آخر ما تبقى لمصر أرض الكنانة من الزمن الجميل بعد بيع وخصخصة كل شئ، ثم تأميم الدين لصالح الدولة وإخضاعه لعمليات تشريح وتجريح تقوم بها العلمانية المزورة التى ليس لديها مؤهلات علمية ولا تملك أية أدوات أو آليات للبحث، ومع ذلك تحصد جوائز الدولة التقديرية من أموال

هذا الشعب المسكين، وكأن ذلك إغاظة وإمعانا في معاقبة هذا الشعب الذى لا زال يتمسك بدينه وهويته ويعتز بهما معا ويراهما الملاذ الآمن لحماية ذاته من طوفان الالتحاق والانسحاق والدمج والذوبان التى تدعونا إليه العلمانية وتحاول فرضه بالضغط والقهر والإكراه.وقد أدركها سماحة المفتى وتنبه بذكائه إلى ملعوب وزارة الأوزار ومن ثم صرح بعد ذلك بأن الأزهر الشريف هو جهة الاختصاص في مراجعة المناهج وليست دار الفتوى. التصريح رد غيبة المؤسسة التى تخرَّج منها المفتى وتلقى العلم في أروقتها، ولكن المؤسسة الدينية الكبرى وهى الأزهر أضحت بعد هذا الموقف في حاجة إلى ما يسمى برد الاعتبار في لغة القانون، لكن القانون غائب وإذا غاب القانون فلا اعتبار لكل شئ ولا لأي شئ.

وفى ثنايا تلك الحملة تأتى إحالة أوراق مناهج التربية الإسلامية لفضيلة المفتى سعيا لإعدامها والتخلص منها وكأنها مجرم ضبط متلبسا بجريمة شنعاء وعليه أن يواجه الموت بموافقة المفتى حتى لا يعترض معترض.

المناهج موضع الاتهام والتى حكم الوزير بإحالة أوراقها لفضيلة المفتى تمهيدا لإعدامها كانت قد راجعتها من قبل لجنة في مجمع البحوث الإسلامية -وهو جهة الاختصاص التي تضم مجموعة من كبار العلماء المتخصصين منهم العلامة المرحوم الشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد سيد طنطاوى والدكتور أبو الوفا التفتازانى والدكتور شوقى ضيف والدكتور أحمد عمر هاشم وغيرهم- وقد قالت اللجنة كلمتها وقدمت توصياتها، ولكن يبدو أن المخطط هو استبعاد الإسلام وقص جذوره من حياة أمتنا جملة وتفصيلا على مراحل وبأدوار مختلفة لكل مرحلة سماتها ومهمتها ورجالها ولكن على طريقة التقسيط المريح، فهل نضجت الطبخة وجاءت مرحلة البداية من الجيل الجديد؟ وإلا فما الداعى للمراجعة الجديدة؟ ثم أليس ذلك معناه التشكيك في مصداقية اللجنة السابقة والتشكيك في كفاءة أصحابها؟أم أنها الرغبة في الفتنة والوقيعة بين المؤسستين الأزهر ودار الإفتاء؟أم أن القضية برمتها ليست سوى مجرد رد فعل طبيعى على طريقة الاستجابة للارتباط الشرطى الذي يقول به علم النفس في تلبية الهوى الأمريكى ومحاولة الحصول على رضا السيدة هيلارى كلينتون قبل أن تفوت الفرصة وتغيب عن الساحة؟

وذلك هو الدور الذى تمارسه القوارض الثقافية عندما تطالبنا أن نستجيب في كل شئ لمن ليسوا من دين الله على شئ، حتى ولو كان الأمر يتصل بتعاليم ديننا وعقائدنا ومناهج تربية أبنائنا؟.

سقوط الثقافة.. ومأزق النظام (*)

حين تسقط ثقافتنا نضل الطريق وتضيع البوصلة ولا يعرف الإنسان من هو، ولا ابن من، ولا من أين جاء، ولا إلى أي حضارة ينتمى، ولا إلى أين تكون وجهته.

والحديث عن التغيير يكون لغوا لا معنى له ما لم تستعد الأمة ذاكرتها المفقودة باستعادة ثقافتها من الضياع وحضارتها من الاستلاب وشخصيتها من الانسحاق والهوان والتبعية المذلة. ومن ثم فالدعوة إلى التغيير تحتاج معراجا جديدا تجتاز به الأحزاب المختلفة حدود المأساة التى تعيشها أمتنا، ويتحرر بها الأفراد من أسر الوثنيات السياسية التى تحالفت مع وثنية رأس المال، تلك التى يعبر البعض عنها بمصطلح زواج السلطة برأس المال،وهو زواج يفقد شرعيته حين يستبيح مصالح الأمة ويتجاهل صرخات الفقراء والكادحين وينتهك أبسط حقوق الإنسان. ويقسم المجتمع إلى سادة وعبيد، سادة يستمتعون بكل شئ ولهم أن يأمروا وعلى الدنيا أن تجيب، وإلى عبيد ليس من حقهم شيئا ولا حتى التعبير عن الرغبة أو الأمل في فك القيود عن أيديهم ورقابهم.

ولا أتجاوز حدود الواقع المر حين أقرر وأعترف بأن الليل قد طال وأن صبح العرب الذي كاد أن يشرق مزهوا بميلاده قد مزقوه بأيديهم حين تخلوا عن دينهم ثم تخلى بعضهم عن بعض وأسلم بعضهم بعضا.

ولا أتجاوز الحد أيضا حين أعترف صارخا أن الظلام قد لفَّ بالفعل كل بقعة من ديار المسلمين لدرجة حولتهم إلى غثاء كغثاء السيل لا يصلح شيئا حتى ولا حطبا للنار، تلك مأساة من باب الصدق مع النفس لا بد من الاعتراف بها، ففي تضاريس واقعنا يستلفت الانتباه أن الأخطار التي تحيط بأمتنا أكثر من أن تحصى أو تعد، لكن أشدها خطورة و أبشعها تدميرا سقوط الثقافة، وسقوط الثقافة يعنى فقدان الطريق وغياب الانتماء، ولعل الباحث يلحظ أن فترة السبعينات من القرن الماضى شهدت تحولات كثيرة، فبعض الأنظمة في الدول الإسلامية كانت تصلى ولكن لغير قبلتها، بعضها كان يصلى ويتوجه إلى سماء الكريملن، يستحلفها بحق نجومها الحمراء أن تسقط عليه مزيدا من بركاتها في التنوير والعدالة الاجتماعية والتطبيقات الاشتراكية وحماية حقوق الكادحين حتى تتمكن البيروليتاريا من دحض الإمبريالية والعملاء والثورة المضادة وتحقق انتصاراتها

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٣ – ٠٧ – ٢٠١٠م

في الداخل والخارج معا، وما إلى ذلك من الشعارات التي باتت معروفة وثبت فشلها وسقط مروجوها بعد سقوط الماركسية في البيئة التى ولدت فيها.

شطر آخر من هذه النظم كان ولا يزال يصلى في الاتجاه العكسي، فهو يُسبِّح بحمد البيت الأبيض وأهله، ويهتف بأمجادهم في الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ويهيم بحبهم في الصباح والمساء، ويبشر مع المبشرين بانتصارهم في خلق كونية جديدة يصبح العالم فيها قرية متحابة يسودها السلام والأمن، وينعم الناس فيها بفردوس جديدة يتحقق فيها ما يتمناه الإنسان وأكثر مما يتمنى. وهكذا نام العالم الإسلامي –ومنه مصر– بالطبع على حلم جميل، بدأت الغفوة الأولى فيه بالانفتاح وما يجلبه من خير ينعم فيه المشردون بالاستقرار، ويئوب الغائبون عن ديارهم، وفيه تتحقق أحلام المحرومين والفقراء والبائسين وهكذا امتلأت النوتة الموسيقية بمعزوفة حلوة عزفتها صحف الدولة وتبارى كُتَّابُها في شرح أنواع النعيم والرخاء الاقتصادى الذى يجلبه الاستثمار والانفتاح والخصخصة، وانخدعت أسماع الحيارى وهفت أفئدة المتعبين وأغمض الشعب عيونه الجريحة بعد حرب طويلة علي أحلام وردية توشك أن تتحقق، فإذا به يصحو وقد ضاع منه كل شئ في المدائن والقرى، الناس والزرع والحيوان والبنية التحتية والمستشفيات، فقد وضع الوافد الجديد بماله ومعه بعض الفاسدين أيديهم على كل أساسيات الحياة للفقراء والكادحين بعد أن اغتالوا من الدنيا كل ما يملكه الفقراء والمتعبون، حتى الحلم الذي عاشوه في غفوتهم وغفلاتهم حولوه إلى كابوس من نوع مخيف.

وصحا النائمون من غفوتهم وغفلتهم، والمنساقون وراء خدعة الانفتاح والخصخصة فوجدوا أنفسهم أسرى لصاحب السيادة الذي لا راد لقضائه ولا يعلو صوت فوق صوته. بدأت رحلة جديدة من المعاناة في قيود و أغلال السادة الجدد الذين يقيدون أيدى العالم وأقدامه بسلاسل من ذهب، يفرح المسجونون بالنظر إلى بريقها اللامع، كما يتلهون كل يوم بسعرها في السوق والبورصة بين صعود هبوط، ثم لا يبذلون جهداً في سبيل الخلاص والحرية؛ لأن سماسرة البنك الدولي وصندوق النقد قد أحكموا ربط الأعناق ومعها الأيدي والأرجل حتى يتمكن السيد من كل شئ في العبيد، ومن ثمّ يتعامل معهم و كأنهم قطيع من الغنم، فهو وحده الذي يحلبهم متى شاء، ويذبح منهم متى شاء، وهو وحده الذي يمدهم بآلات الحرب، وهو وحده الذي يرعى لهم السلام،وعصاه دائما جاهزة لأي شاة شاردة.

وقد وصلت بنا حالة الوحل السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي وما يصحبها من فساد مستفز حتى أصبحت تمسك بخناقنا وتحدث في جسد الأمة أنواعا من الخروق والعاهات التى قطعت روابط الأخوة والأصل الواحد واللغة الواحدة والدين الواحد وجعلتنا نتحاور بالنار بدل الكلمة، ونمزق إطارنا، ونتحالف مع العدو على حساب الشقيق، ونحكم إغلاق المعابر عن أشقاء فيهم أيتام وأرامل تحت الحصار، وندمر أنفاق التنفس ومحاولات التفلت من هذا الحصار الظالم ونبنى أسوار العار والكراهية تحت دعاوى وعناوين تسئ إلى الذات وتسر العدو وتحبط الصديق والشقيق ولا تقنع طفلا غرا، فضلا عن حرٍّ مدرك لأبعاد الصراع وأهدافه ومجالاته، الأمر الذى يجب أن يدفعنا بقوة إلى البحث عن منفذ للخروج من هذا الوحل، وإلى وسيلة إغاثة وإنقاذ لا لمركبة الوطن فقط، وإنما لسفينة الأمة كلها التى أوشكت أن تغرق لكثرة ما فيها من خروق بفعل أبنائها في الداخل أولا ثم بفعل أعدائها في الداخل والخارج معا.

وسقوط الثقافة يعنى أننا كمصريين نفقد الذاكرة فلا نعرف من نحن ولا أين موقعنا في ذلك العالم المتغير مع كل يوم،والذى يتحرك في قفزات جريئة نحو المجهول فى مستقبل لاندرى ما الله فاعل به.؟

فعلى مستوى الداخل هنالك تمرد معلن صدر من رأس الكنيسة يرد أحكام القضاء ويهزأ بالنظام ويعلن في صلف أنه لن ينفذ أحكام القضاء وليس قلقا من أي شئ، وكان رد فعل النظام مشينا ومخزيا تجاه هذا التمرد، فبدلا من مواجهته بالغ النظام في طمأنة المتمرد وبعث له ببعض رموزه في حالة من استجداء رضاه والبحث له عن مخرج، ثم كانت الكارثة الكبرى أن المادة الثانية من الدستور والتى حرص النظام على تجميدها طوال فترة حكمه هى التى أنقذته من هذه الورطة،فعلى مدار ما يقرب من ثلاثة عقود والنظام يعادى مضمون تلك المادة ويعاقب بسجونه ومعتقلاته كل من يدعو لتفعيلها وتحويلها إلى واقع ويطلق كلابه لتصفهم بالظلاميين مرة وبجماعة طالبان مرة ثانية وبدعاة الإمارة الإسلامية ثالثة وبالجماعة المحظورة مرة رابعة وخامسة وما إلى ذلك من الأوصاف الأمنية المعروفة في قاموس صحافي الشرطة وكتاب الأمن داخل الصحافة القومية وخارجها، ولم نسمع من العلمانيين تعليقا على هذا التمرد أو وصفا له بالظلامية والدعوة إلى دولة مسيحية دينية كما يصفون الإسلاميين في كتاباتهم، الأدهى والأمر أن السلطة نفسها والنظام ذاته تغاضى عن فعل الكنيسة وكافأها على تمردها بتفعيل المادة الثانية من الدستور وهى المادة التى جمدها النظام واجتهدت الكنيسة كثيرا بالطعن فيها

ومحاولة تغييرها باعتبارها تكرس الانقسام والفرز الطائفي، ولنا أن نتخيل مثلا أن مؤسسة دينية كالأزهر رفض حكما لمحكمة بفوائد البنوك بحجة أنها تصادم المادة الثانية من الدستور كيف يكون الحال؟ ساعتها ستخرج علينا كل أجهزة النظام لتعطيه درسًا في التطور والتقدم وضرورة الخروج من كهوف التخلف والكف عن الجمود والتحرر من عقلية البدو ورعاة الإبل، أما إذا كان هذا الحكم يتصل بشأن من شؤون النساء فساعتها سيندب الرجال والنساء معا وستنعى صحافتنا الحرة المستقلة الإسلام كله بمؤسساته التى لا تتماشى مع روح العصر ولا تستجيب لحاجات الناس وتعيش في عزلة عن الزمان والمكان والدنيا.

الواقعة الثانية: كارثة الشاب خالد سعيد، وتلك الكارثة ليست جديدة وإنما هى حلقة في سلسلة من المعاناة التى يعيشها الفقراء والكادحون ومن لا ظهر لهم ولا مال لديهم ليشتروا به ذمم البعض وضمائرهم وما أكثرها في أسواق النخاسة والتزوير وتلفيق التهم للأبرياء وبراءة المفسدين إذا تعرضوا لمساءلة أو محاكمة من باب ذر الرماد في العيون، والقضية بقدر ما تحمل من مأساة بقدر ما تكررت من قبل وذهب الضحايا دون أن تنعيهم بواكي بينما الجناة نعموا بمكافآت وترقيات وشهادات تقدير حتى ولو كانت جرائمهم ضد الشرفاء من بعض رجال القضاء.

في القضية الجديدة لا عبرة بهتاف الجماهير ولا بالتظاهرات ولا بأنَّات أهل الفقيد ولا حتى بشهادة من رأوا الضحية يُقتل في الشارع وفى وضح النهار، فكل هؤلاء لا قيمة لهم وما يصدر عنهم هو عبارة عن عاصفة في فنجان وانتهى الأمر، ويكفى بيان واحد يصاغ بدقة في التزوير وقلب الحقائق فتتلقفه صحافتهم لتلوث به تاريخ شاب مكافح فتسخر منه وهو بين يدى ربه بشكل فج وممجوج، ثم يأتى تقرير الطب الشرعى ليؤكد ما صرح به همام الداخلية وليثبت أن الشرطة فى هذه الواقعة بالذات كانت في خدمة الشعب وأنها دائما على استعداد لتحمل كل التضحيات حتى توصله إلى مثواه الأخير، وهذا ما فعلته مع الشاب الفقيد خالد سعيد، هكذا وبلا خجل.

وتتوالى أحداث القضية، والحكومة وحزبها الحاكم وكل المسئولين فيها لم يحركوا ساكنا ولم ينطقوا ببنت شفه وكأن أحداث القضية قد وقعت في المريخ. وسكت النظام كالعادة، ألم يطالب أحد نواب الحزب الغضنفر قوات الداخلية بإطلاق الرصاص على المطالبين بحقوقهم أمام مجلس الشعب؟ فلم العجب إذن في هذا السكوت؟

غير أن الرياح قد جاءت هذه المرة بما لايشتهى النظام والحزب والحكومة، فالدنيا قد ضجت وتحركت منظمات حقوقية ومنظمات مدنية دولية وأصدر الاتحاد الأوروبي بيانه المعروف، ثم أعربت الخارجية الأمريكية عن قلقها تجاه ما يحدث من انتهاك لحقوق الإنسان، عندها فقط بدأ البحث عن ضحية لإنهاء الضجة والخلاص من هذا الصداع، الرقيب فلان والجاويش فلان هم من ارتكب الجريمة.

حسنا، وهل تصرف هؤلاء من رأسهم أم أنهم يتحركون بأوامر؟ وهل كانوا يتجرأون على فعل ما فعلوه لولا شعورهم بأنهم دائما فوق القانون؟ وأن سادتهم ورؤساءهم لن يسلموهم لشئ ولو كانت إرادة القانون، ومن ثم كانت المحاولات المستمرة في طرمخة القضية بأساليب متعددة بحثا عن غطاء من التزوير يحمى الجناة ويدين الضحية.

ثم كانت المفاجأة التى لم يتعود الناس عليها أبدا ولم نسمعها من قبل أن لجنة السياسات أصبحت تصرح بأن العدالة لابد أن تأخذ مجراها في قضية خالد سعيد وأن الحزب الوطنى لا يقبل بانتهاك حقوق الإنسان. ونحن طبعا لا نشكك في صدق التصريح ولا في نوايا من أطلقوه،فقد يكون نجل الرئيس السيد جمال مبارك صادقا ويعمل من أجل تحقيق العدالة، غير أن المحللين وأغلب الناس يرون أن التصريح جاء باهتا وقد جاء بعد فوات الأوان ولا يحمل غير دلالة واحدة في نظر هؤلاء وهى: أن التحرك لم يأت استجابة لرغبات الجماهير الغاضبة ولم يكن ترضية لأهل القتيل، بل ولا حتى نزولا على رغبة المستشارين لكسب ثقة الجماهير في مثل تلك المحن كما أشار الصحفي النابه الأستاذ جمال سلطان في مقال سابق، وإنما جاء تماهيا مع ما صدر عن الخارجية الأمريكية والاتحاد الأوروبي، ويقدم هؤلاء حجة على ما يقولون بحالات الظلم الفادح الذى تفوح روائحها القبيحة في كل مكان، فهل تتحرك لجنة السياسات ومعها الحزب الذى لا يقبل بانتهاك حقوق الإنسان لنصرة هؤلاء ورفع الضيم عنهم، إن كانوا جادين فليذهبوا إلى ضواحى حلوان وعشوائيات الدويقة وطرب الخفير ومجاهيل المطرية والزاوية الحمراء ومنطقة الرشاح وغير ذلك من الأماكن التى يعيش أهلها عيشة لا يقبلها حتى الحيوانات. وتستدعى الذاكرة على عجل تلك الحكمة العمرية في سياسة الناس حين قال عمر بن الخطاب لولاته "ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الحياض فتهلكوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم".رحم الله عمر بن الخطاب وآجرنا في خالد سعيد ورفاقه ومن سبقوه ومن سيلحقون به وكل مصاب أمتنا خيرًا.

رسالة إلى موالي وعبيد العم سام (*)

المنهجية الوضعية التى نشأت في الغرب هى أشد المناهج تأثيرًا في حياتنا وأكثرها التصاقا بالحالة الثقافية في مجتمعات العرب والمسلمين، ومصر بالطبع في مقدمتها، فلدينا هنا في أرض الكنانة عشاق لها مؤمنون بها مدافعون عنها، يدعون إليها ليلا ونهارا ولا يرون تقدما يحدث أو نهضة يمكن أن تبدأ بمعزل عنها، ومن ثم فهى تشكل لهم قبلة ثقافية إليها يتجهون، ومنها يتلقون، وعنها يأخذون، فهم بها مغرمون، ولمبادئها وأفكارها يروجون ويدعون.

ومن المهم في البحث المجرد أن يعرف الباحث السياق التاريخى والمناخ الثقافى الذى نشأت فيه تلك المنهجية حتى يتمكن من الحكم عليها صوابا أو خطأ، صوابا نأخذ به وندعو إليه مع الداعين له، أو خطأ فنتجنبه وننبه إخواننا إليه ونصوب وجهتهم إن كانوا يبحثون عن الحقيقة ويريدون نهضة وإصلاحًا.

وفى السياق التاريخى يلحظ الباحث ما يلى:

١) أن الفترة التى سبقت ظهور المنهجية الوضعية كانت الكنيسة قد سيطرت برجالها ومفاهيمها على مصادر القرار والتوجيه.

٢) أن الصيغ الثقافية السائدة في تلك الفترة كانت محكومة بقيود السكون الرافض لأي حراك والجمود المتأبي على أي تغيير، والثبات المعادي لكل جديد عقلي أو علمي.

٣) أن هذه المرحلة انتهت بتمرد العقل على تعاليم الكنيسة، وثورته بعد صراع طويل على تلك الصيغ الجامدة.

٤) كان من الطبيعي أن يولد هذا الضغط المتزايد فكرًا مناقضًا تمامًا يعادي فكرة الثبات فى حد ذاتها"، وأنه لا مطلقات أبدًا في هذا الوجود.

٥) أن المنهجية الوضعية نشأت في أحضان هذا الظرف التاريخى المأزوم ثقافيا وعلميا.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٣ – ٨ – ٢٠١٠م

٦) وبموجب قانون رد الفعل، انطلقت المدارس الوضعية فى دراستها للظواهر الطبيعية أو الاجتماعية من منطلق أن كل شيء نسبي.

٧) أن الرؤية في المنهجية الوضعية انحصرت في جانب صغير من عالم المادة "العالم المحسوس أو ما يسمى بعالم الملك أو عالم الشهادة" دون أن تضع في الاعتبار عالم الغيب أو حتى تفكر فيه.

ومن هنا انطلقت هذه المدارس في إنكارها للثوابت في كل شيء، العقائد والقيم والأخلاق، ونشأت العلمانية الطبيعية كما يطلق عليها أستاذنا العظيم الدكتور عبد الوهاب المسيري –رحمه الله– "العلمانية الشاملة"، والتي يمكن أن نسميها أيضا "العلمانية الطبيعية / المادية" أو "العلمانية العدمية"، وهي رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة وحسب، وإنما تفصل كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الأمر، ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته، إلى أن يتم نزع القداسة تماما عن كل العالم (الإنسان والطبيعة) وعن كل شئ في الحياة العامة والخاصة، الرموز والمرجعيات ومن ثم تذوب وتتلاشى شيئا فشيئا كل الفروق بين المقدس والمدنس.

هذا هو السياق الزمني الذي نشأت في ظله المدارس الوضعية في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية والإنسانية وما احتواه هذا السياق من دوافع وبواعث وردود أفعال تجاوزت كل الثوابت والمطلقات ونظرت إلى كل شيء من منظور نسبي هروبًا من جبروت الكنيسة وتمردًا على السكون والجمود الذي صادر حق العقل في التساؤل والاستفهام، كما صادر حرية الفكر في الانطلاق حتى نحو الجوانب المادية.

غير أن هذه المنهجية الوضعية استبدلت قيدا بقيد ووثاقا بوثاق رغم ثورة العقل وتحطيمه لقيود الكنيسة إلا أنها استبدلت قيود الكنيسة بسعار الشهوات حين انطلقت في الحياة بغير ضوابط الأخلاق والقيم فنشأت النزعة الاستعمارية وانطلق الوحش الكامن في أعماق الإنسان للسيطرة والاستعلاء وبسط النفوذ وإلغاء الآخر أو تدميره وتدمير ثقافته.

في بلادنا بلاد العرب "الأجاويد الحرة المستقلة" كان تلاميذ المنهجية الوضعية على أتم استعداد للعمل في بلاط العلمانية الجديدة،ونقل بضاعتها المزجاة كلها بغثها وسمينها

إلى بلادنا الحرة المستقلة التابعون في كل شئ لمن ليسوا من دون الله على شئ من أبناء جلدتنا، فتحوا دكاكينهم أطلقوا على أنفسهم لقب المبدعين والمثقفين من باب الترويج للبضاعة الجديدة، ولم يفرقوا بين دين ودين ولا بين مجتمع ومجتمع فاستنسخوا تلك الحالة من هناك وأتوا بها معلبة رغم انتهاء صلاحيتها، لكنهم أرادوا أن يبيعوها في أسواقنا الثقافية حيث الأبواب مشرعة بغير رقيب أو حسيب.

وعلا صراخهم أنه لا نهضة ولا تقدم بغير الخروج على الثوابت والتحلل من كل الأصول. ولعل هذا يفسر لنا إصرار "خفافيش النار" عندنا على تهميش دور المؤسسات الإسلامية ومحاولات تحجيمها وتخويف النظام والمجتمع منها وقطع الصلة وبتر العلاقة بينها وبين مؤسسات المجتمع المدنى، ولعله يفسر لنا أيضا سر الحملات المحمومة طويلة اللسان على دين الله ودعاته ومن ينتسبون إليه، بينما تخرس ألسنتهم أمام تطاول الكنيسة ورجالها على كل شئ بما في ذلك تحدى القوانين وإحراج النظام والضغط على رموزه وممارسة كل وسائل الابتزاز ضد سلطات الدولة والتلويح بتجييش المظاهرات والاستقواء بالخارج على حساب الأغلبية المسلمة.

ولما كان الموالى التابعون في كل شئ لمن ليسوا من دين الله على شئ تشمئز قلوبهم إذا قلنا لهم قال الله وقال رسوله بينما تتفتح أساريرهم ويستبشرون إذا ذكرنا لهم أسيادهم وولاة أمورهم وأولياء نعمتهم، فإننا هنا سنسوق لهم جملة من النصوص تمثل شهادات علمية وتاريخية موثقة جاءت على ألسنة العدول من مفكرى الغرب آملين أن يفكروا فيها بعقول متحررة لعلهم في لحظات صدق –وما أقلها في حياتهم– يراجعون أنفسهم ويغيرون قبلتهم ويكفون عن الإغارة على دين الأغلبية وعلى ثوابت الأمة ويريحون الدنيا من عويلهم المستمر، ولعل كبيرهم يعدل عن بث فحيح الأفاعى حول الإسلام والمسلمين بمناسبة وبغير مناسبة.

فى كتابه "حفارو القبور" يقول المفكر الفرنسى روجيه جارودى:

أعطى الغرب الاستعماري، منذ خمس قرون – والعرض مستمر– مثال التطرف الأكثر فتكا، وهو الادعاء بامتلاك الثقافة الوحيدة الحقيقية، الدين العالمي الوحيد، نموذج التنمية الوحيد، مع نفي أو تدمير الثقافات الأخرى، الديانات الأخرى، النماذج الأخرى للتنمية. ص ٢٢

جعلوا في بعض الأحيان من الإلحاد مكونا أساسيا للاشتراكية، مما حرمها دائما من بعدها الخاص بالبحث فيما وراء المادة لصالح تسميتها ب"الاشتراكية العلمية"، متناسين أن الثورة يمكن أن تكون علمية في وسائلها، لكن لا يمكن لأي علم أن يمنحنا أهدافا نهائية.

أصبحت "الحقيقة" سلعة تباع وتشترى، ويتم تكييفها طبقا للهدف المطلوب. يعتمد الإعلام من الآن فصاعدا على دعم الإعلان، الذي يتحكم في تمويل البرامج واختيار مقدميها. ص ٧٨

السياسة الكبرى هي كيفية إعداد الشعب إعدادا جيدا للعبودية – من اليمين أو من اليسار– عن طريق الشاشة الصغيرة وهو يبتسم في سعادة وغفلة! وإذا كان من السهل حكم الشعب الجاهل، فما أسهل ذلك عن طريق التلفزيون. ص ٧٩

تولد الرغبة في الهروب من مجتمع بلا معنى، نوعا من الجنون أو التدمير، أو على الأقل نسيان العالم وأنفسنا أيضا. ص ٨٢

مثلما حدث في زمن انحلال الرومان وألعابهم للسيرك، نعيش مرة أخرى من جديد عصر "فساد التاريخ"، المتميز بالسيطرة التقنية والعسكرية الساحقة لإمبراطورية لا تحمل أي مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للحياة والتاريخ. استلزم الأمر حينذاك ثلاثمائة عام لبناء مجتمع إنساني جديد.

هذا الميلاد لعالم إنساني، انطلاقا من "ما قبل التاريخ" الحيواني والذي عدنا لنعيش فيه، لم يكن ليولد إلا من الوعي، على مستوى الشعوب، من سوءات وحدانية السوق وأنبيائها المزيفين. ص ٨٥

كتاب فوكوياما، المستشار في الإدارة الأمريكية، حول نهاية التاريخ، هو التعبير النموذجي لما أسميه "أعراض ٩٢". إنه نموذج لأيدولوجية تبرير "الفوضى العالمية الجديدة" ص ٨٦

لم ينجح النظامان الاجتماعيان في الشرق والغرب، لا الأول ولا الثاني، في الإجابة عن هذه الأسئلة الخاصة بالأهداف النهائية؛ فشلت الرأسمالية لأنها لا ترى أي هدف سوى النمو الكمي لإنتاج السلع والخدمات وأرباحها. ص٨٨

وفشلت اشتراكية الدول في نموذجها السوفيتي. اتخذت لنفسها هدفا، لكن اتضح أنها غير قادرة على الوصول إليه بالوسائل التي استخدمها.

ولدت كل منهما على نفس التربة الثقافية الغربية. اشترك النظامان في اليقين الزائف نفسه، الصادر من غرور النهضة، وهو أن "العلم" التجريبي والرياضي يمكن أن يجيب عن كل المشكلات ويحلها. الوسائل الهائلة التي خلقها ستضمن السعادة.

فشل العلم التجريبي في ذلك، مثلما علم الاجتماع الوضعي. أفلست هذه الفرضية الأولى، مثلما فشلت في أن تحل محل الأخلاق. وبالطبع فشل العلم التجريبي والتكنولوجيا في أن يقودا وحدهما الإنسانية بنجاح.

هكذا، ولد نوع جديد من البشر: الإنسان المبرمج ويعني هؤلاء الذين يشبهون العقول البشرية بالكمبيوتر، متناسيين أن خاصية الإنسان هي طرح الأسئلة النهائية، وقبلها أسئلة لماذا وما الأهداف النهائية. ص ٨٩

في كتابه "مجتمع خارج حدود السيطرة" يقول الكاتب الأمريكى زبيجنيو بريزينسكى، وكان مستشارا للأمن القومى في الولايات المتحدة الأمريكية يقول: "أصبح المواطن يعاني من حالة ضياع وتشتت. فهو لايدري هل يعود للالتزام بالتعاليم الدينية في حين يجد حوله مجتمعًا بأكمله، استبعد تلك التعاليم واستباح المحرمات، أم يواكب ذلك المجتمع ويعاني من التمزق والتناقض الداخلي".

فهل يعى الموالى والعبيد معانى تلك المقولات؟ وهل يتحررون من ربقة العبودية؟

أم ينطبق عليهم قول الشاعر:

ولقد أسمعت إذ ناديت حيا — ولكن لا حياة لمن تنادى

ولو نار نفخت بها أضاءت — ولكن أنت تنفخ في رماد

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان٤٤).

جرعة من الأمل (١/٢)

نصف الكوب (*)

أستأذن القارئ الكريم أن نمزج التهنئة بهذا الشهر المبارك بجرعة من الأمل تفتح ثقبا للضوء في جدارالتخلف الأسود الذى أحاط بأمتنا في عصرها الراهن.

ونود مع جرعة الأمل هذه أن نبدأ بتوصيف الحالة، وتوصيف الحالة يقتضينا أن نتحدث في محيطين:

الأول: هو محيط الذات، بقوته وضعفه، وصعوده وهبوطه، وعزته وهوانه.

والثانى: هو محيط الآخر الذى نعيش معه ومعرفة المشترك الذى يربط علاقة الذات بالآخر ومدى تأثير وتفاوت تلك العلاقة فينا وعلينا إيجابا وسلبا، لأننا كأمة لا نعيش في جزر معزولة وإنما نحن جزء من هذا العالم، ونشكل جغرافيا أهم مناطق الثروة والجذب، كما نشكل تاريخيا رافدا حضاريا هاما أثر في ذلك العالم وساهم في بناء حضارته، كما أننا نشكل خمس سكانه من حيث العدد، وإذا كان بعضنا معجبا بالآخر إلى حد الهيام والعشق، والبعض الآخر كارها له إلى حد الغضب والمقت، فإن كلا الأمرين مظهر للاهتمام البالغ، ومن ثم فتحديد الداء ومعرفة أسباب العلة في المشترك بيننا أول المفاتيح في مراحل الشفاء واستعادة العافية.

توصيف الحالة، نحن والعالم:

من نحن؟: نحن أمة المسلمين، حالتنا اليوم يرثى لها، فأغلب بلادنا محتلة بالأنظمة الدكتاتورية التى لا تعرف غير القهر والقبضة الحديدية في تعاملها مع الشعوب، والشعوب أغلبها ساكن ومستكين وخانع، تقدم لحامها الطاعة وتأخذ في مقابلها الهوان، وأحزاب المعارضة مهترئة وليس لها رؤية واضحة، والحاضر بائس والمستقبل مظلم، وعدد القفراء والعاطلين عن العمل في زيادة مستمرة، ونهب الأموال العامة لا يقف عند حد ولا يردعه رادع، والسرقات تعدت حدود الأرض والسكان لتصل إلى الجغرافيا والتاريخ، أعنى الأرض والحاضر والمستقبل، أما الماضى فجزارة العلمانية ودكاكين الماركسية

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٤ – ٠٨ – ٢٠١٠م

الساقطة كفيلتان بتشويهه وتنفير الناس منه حتى تعيش الأمة حالة الاستلاب الحضارى في أحط تجلياتها من حيث الفوضى والتمزق واللامسؤولية واللا أخلاق، فهى أمة يراد لها أن تنفصل عن الماضى وتعيش الحاضر البائس والمستقبل المظلم، إحابط عام علي جبين الجماهير الغفيرة والسواد الأعظم من كل المسلمين، فبعد أن كنا يوما من الأيام نحن العالم الأول، دار الزمن وتحول عنا، وتغير الحال فصرنا العالم الثالث أو الرابع أو الخامس أو قل ما شئت في ذيل القائمة البشرية التى تعيش كالقطط الضالة على فضلات حضارة الآخرين، وكنا في القرن الماضى نعانى من الاحتلال، فصرنا في القرن الحالى نعانى من الاحتلال والاختزال والاختلال، فالدولة اختزلت فى شخص واحد اسمه الحاكم، ملك أو رئيس، والحكومات اختلت عقولها ولم تعد ترعى في شعبها إِلّاً ولا ذمة، وبدلا من الحرص على تحقيق مطالب الشعب، ورعاية حقوقه، باعت حكوماتنا كل الشعب وتبرعت بثروته غازا وبترولا لأعدائها وأصدقائها معا، ولم تعبأ بصراخ الملايين من الفقراء والكادحين والمطحونين، بينما تحولت ثروة البلاد لتملأ جيوب وخزائن الاقطاعيين الجدد، وعاشت الأمة قرن التقهقر بامتياز "القرن العشرين" ولعلى أستعير عبارة شاكر النابلسى " عشنا نصف قرن من التقهقر حيث خسر العرب في النصف الثاني من القرن العشرين أكثر مما ربحوا، ولو توقف الزمن عند العام ١٩٥٠م لكان حال الأمة أفضل بكثير مما كانت عليه.

فعلى الصعيد السياسي كانت هناك أحزاب فَحُلَّت، وكانت صحافة معارضة فأغلقت، وكانت مجالس نيابية فزيفت، وكان مفكرون أحرار فسجنوا وعذبوا وقتلوا، وكان الحكام يخافون الشعوب فصاروا يخيفون الشعوب.

وفي المجال الاقتصادي كنا في النصف الأول من القرن العشرين جياعا فصرنا في النصف الثاني جياعا وعراة، وكنا فقراء جياعا فصرنا أغنياء جياعا، فقد ذهبت أموالنا التي منحتها لنا السماء من تحت الأرض دخانا لحروبنا المجانية، فقد خسرنا في عشر سنوات (١٩٨١ - ١٩٩١) فقط ٩٥٠ مليار دولار، وكنا فقراء متخلفين فصرنا أغنياء متخلفين.

وفي المجال الثقافي تراجعت الثقافة العربية حتى أصبح العرب في الدرجة السفلى من السلم الثقافي الشرقي، ويقل ما يُنشر في الدول العربية مجتمعة من بحوث علمية وكتب

عما يُنشر في إسرائيل، وأهدرت دماء المثقفين وأعدم بعضهم وسجن الكثير منهم". انتهى

ولعلى أضيف، وكان لدينا في القرن الماضى مثقفون ينقدون الملك ويهددون أركان النظام، فصار لدينا مثقفون يعبثون بعقول الشعوب، يفرغونها من طاقة الغضب المقدس، ويدغدغون غرائزها إلى حد الإثارة، ويتعاملون مع إنساننا وكأنه لم يرث عن أبويه آدم وحواء غير خصائص الذكورة والأنوثة، ويزحمون صحفهم وأجهزة إعلامهم بتوافه القضايا وأخبار الراقصات ومغامرات المشاهير، ويتبنون سياسة السلطة في إلهاء الشعوب، فهم عونها وعيونها وذراعها الطويلة في تشويه الخصوم، وأقلامهم جاهزة للتبرير والتزوير والتدوير والتحوير.

فكيف ننطلق ونتحرر من قيودنا أومن القيود التى كبلونا بها في ظل هذا الواقع المأزوم، ونحن أمة لا حضور لها ولا تأثير وليس لها دور أو تميز، وهى في الزمن الراهن تستقبل ولا ترسل، وتأخذ ولا تعطى، وتتأثر ولا تؤثر، تلك هى معطيات الواقع بكل ما فيه من حسرة ومرارة، فكيف يتفق ويتسق هذا الواقع مع مدلول النصوص القرآنية ومنطوقها وهى التى تتحدث عن نصر المؤمنين والتمكين لهم، وثمة مجموعة من الأسئلة يطرحها العقل بإلحاح كيف ينطلق الإسلام لإنقاذ العالم من خلال حالة المسلمين المتأزمة وتسلط الآخرين علينا وسيطرتهم على كل مقاليد الأمور لدينا؟ وهل لهذه السيطرة وهذا التسلط من فكاك؟ وهل يمكن تجاوز هذه المحنة والخروج منها واستعادة العافية الإسلامية مرة أخرى؟ أم أن الأمور ستؤول إلى فناء الأمة ويستبدل بها غيرها بعد سقوطها إلى الهاوية، أو سقوطها في البعد الثالث كما يقول العلامة الدكتور جمال حمدان، حيث يرى أن من يتخلف لن يظل مستمرا في تخلفه إلى الأبد، فهو إما أن يتمرد على هذا التخلف، وينفض عن نفسه غبار هذا السكون وينهض، وإما أن يسقط إلى الهاوية ويجرى عليه قانون الاستبدال ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨).

هذا على مستوى الأمة وفي محيط الذات، فماذا عن محيط الآخر الذى نعيش معه ويتحكم فينا ويحول حكامنا وحكوماتنا إلى مجرد جندى لحماية مصالحه فى بلادنا أو ساعى البريد الذى يحمل رسالته إلى الشعوب دون أن يكون من حقه فتح الرسالة أو

معرفة مضمونها إلا أن يكلفه المرسل بتفيذ ما فيها، وما هو المشترك الذى يربط علاقة الذات بالآخر ومدى تأثير وتفاوت تلك العلاقة فينا وعلينا إيجابا وسلبا.

إن قادة الفكر ورواد الفلسفة في القرن العشرين يجمعون على ظهور مأزق حضارى كارثى مشترك بيننا وبينهم، وسبب هذا المأزق هو أيديولوجيات اعتنقها البشر وروجوا لها حتى انتشرت وسادت في العصر الحديث، وكانت نتيجتها وثمرتها إنسان الحيرة والقلق والاكتئاب، إنسان لا يأخذ من الدنيا بقدر حاجته، وإنما يأخذ منها بقدر شهواته، ولا يكتفى بمجرد الأخذ منها وإنما يمتد طموحه وتطلعه بدوافع الطمع والجشع إلى أن يأخذها كلها وفى أقصر زمن ممكن وبأقل تكلفة، وبكل وسيلة ممكنة مشروعة أو غير مشروعة، كما يريد -إن ملكها- أن يستأثر بها وحده، ويحتكرها لنفسه فقط، سعار من الشهوات يحركه، والشهوات كالنار لا تشبع أبدا، وإنما تشتد سعارا ولهيبا كلما وجدت وقودا؛ ولذا فهو لا يشبع في استهلاكه ويبحث عن الرفاهية والثراء بأمور يصنعها هو، ويفتعلها هو، فهو الذى يحتكر، وهو الذى يصنع أزمة السلع، وأزمة الاقتصاد،وأزمات الحروب العبثية وهو الذى يختلق بؤرا للصراع وبؤرا للحاجة، وهو الذى يشيع الرعب بشئ ما، في محيط ما، لخلق أسواق لمنتجاته بأعلى الأسعار كما حدث في موضوع الإنتراكس "الجمرة الخبيثة" وإنفلونزا الخنازير وغيرها من الموضوعات، وهو الذى يسخر الأبحاث العلمية من حيث النتائج لخدمة أغراضه ومنفعته حيث تخضع لشروط الممول، وهو الذى يصيغ السياسة الكبرى في كيفية إعداد الشعب إعدادا جيدا للعبودية – من اليمين أو من اليسار- عن طريق الشاشة الصغيرة وهو يبتسم في سعادة وغفلة!

ومن غرور النهضة نشأ افتراض أن "العلم" التجريبي والرياضي يمكن أن يجيب عن كل المشكلات ويحلها. وأن الوسائل الهائلة التي خلقها ستضمن السعادة، واشترك النظامان الرأسمالى والماركسى في نفس هذا اليقين الزائف.

لكن العلم التجريبي والتكنولوجيا فشلا في أن يقودا وحدهما الإنسانية بنجاح.

وتولد الرغبة في الهروب من مجتمع بلا معنى، نوعا من الجنون أو التدمير، أو على الأقل نسيان العالم وأنفسنا كما يقول جارودى

وهكذا، ولد نوع جديد من البشر، إنسان لم يعد ذا إنسانية، لم يعد ذا عواطف يحب ويكره ويتعب ويستريح ويحقق ذاته، وإنما هو إنسان محسوب، كل مشاعره الداخلية تجنح إلى من يبثها فيه بوسائل مصنعة، إنه الإنسان المبرمج.

وهكذا يعيش العالم مرة أخرى من جديد عصر "فساد التاريخ"، المتميز بسيطرة التقنيات العسكرية الساحقة لامبراطورية لا تحمل أي مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للحياة والتاريخ.

إحباط شامل على جبين الإنسان، بل إحباط شامل على جبين العلم ذاته الذى حولته الحضارة المادية الحديثة إلى إله تدخر في مخازنها من منتجاته وإبداعاته ما يزيد على عشرة أطنان من المتفجرات لكل إنسان على ظهر الكوكب الأرضى.

ولقد أجاد الفيلسوف الألمانى هايدغر مارتن (١٨٨٩-١٩٧٦) " Martin Heidegger ") عميد فلسفة القرن العشرين حين وصف هذا العصر بقوله: "إنه عصر يبدو كقصر مشيد شامخ في منظر كئيب،سادته يعانون الأرق والقلق والاكتئاب وغرور القوة، بينما خدامه يعانون من الجهل والجوع والمرض ومذلة الخوف ".

هذ هو النصف الفارغ من الكوب وهو يشكل أحد أهم الهموم لكل مثقف ومفكر ومهتم.

فما هو لون النصف المملوء من الكوب، وكيف الخروج من هذا المأزق الحضارى الراهن؟.

ذلك هو موضوع المقال القادم بمشيئة الله إن كان في العمر بقية.

جرعة من الأمل (٢/٢)

النصف المملوء من الكوب (*)

مرة أخرى أستأذن القارئ الكريم في نقطتين اثنتين:

النقطة الأولى:أن أجعل لهذا المقال متنا وحاشية على أن يكون المتن متصلا بتعليقات السادة القراء حول المقال السابق والذى يشكل الجزء الأول من هذا الموضوع،

فقد كنت في الماضى أكتفى بقراءة تعليقات السادة القراء محترما لرؤية أصحابها ومقدرا لهم تفاعلهم ومداخلاتهم ومكتفيا بالقراءة دون تعليق على أي منها لأنى أعلم أنها مقياس لدرجة الوعى ودليل حي على أن أغلب جماهير الأمة يبحثون عن فكر جاد وأصيل وأن الناس تعرف بحق الفرق بين الثقافة والسخافة، ومن هنا كان حرصى الدائم على قراءة تعليقات السادة القراء. ومع خالص شكرى لكل القراء من اكتفى منهم بالقراءة فقط، ومن قرأ وعلَّق، فإن تعليقًا واحدًا اقتضى مني أن أخالف العادة وأتدخل هذه المرة، وهو تعليق الداعية الشيخ أحمد علي سليمان حفظه الله.

وبداية أعرف أن الله أكرمنى وستر عيوبى وذنوبى عن عباده، وجمَّل صورتى في نظر إخوانى ومن يعرفونى، لكنى في نهاية الأمر أدرى الناس بنفسى من كل أحد، والله جل جلاله أعلم بنفسى منى، ومن ثم فحكاية أننى أعلم أهل الأرض كما جاء في تعليقه، فذلك حسن ظن أخى بى، وأرجو الله أن يغفر لى ولأخى، فقد أضفى عليّ شرفا لم تتطاول إليه رأسى، ولم ولن أدعيه على الإطلاق، ومن هنا أقرر أننى لست إلا طالب علم يعرف أقدار شيوخه وأساتذته ضمن ملايين المسلمين الذين يتشرفون بالانتساب لهذا الدين ولاء ودعوة،وكما يقولون فيما تعلمناه من قبل "الفضل للسابق وإن أجاد اللاحق" وأعلم بيقين أن ما يشغلنى وأهتم به من قضايا ديننا وقضايا أمتنا يشغل بال غيرى ويهتم به أيضا وربما أكثر منى، وما أنا إلا واحد من هؤلاء، يحاول جاهدا أن يؤدي واجبه تجاه سيده ومولاه الذى شرفه بالانتماء والولاء والدعوة إليه، ومن ثم فجهود الجميع تتراكم في خدمة الدين والأمة لتكون رصيدا ومنطلقا يمكن الانطلاق منه نحو

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٩ – ٠٨ – ٢٠١٠م

استعادة العافية الدينية والثقافية والإقلاع الحضاري، ومن هذه الجهود المباركة يمكن لأمتنا استعادة الدور الرسالى بين أمم الأرض جميعا.

النقطة الثانية:

وأنا أتابع النصف المملوء من الكوب وقائع ونصوصا وأحداثا وجدت الأمل قد فاض وبدا أنه أكبر من أن تحتويه مساحة مقال واحد، فقررت بعد استئذان القارئ الكريم أن يكون هنالك جزء ثالث أخذا بمبدأ " لن يغلب عسر يسرين " وعلى طريقة كثر خير الله وطاب.

هذا هو المتن الذى أردت التمهيد به قبل الدخول في الجزء الثانى من جرعة الأمل "النصف المملوء من الكوب" وهو صلب موضوعنا في هذا المقال.

في النصف الفارغ من الكوب والذى عرضناه في المقال السابق كانت العتمة شديدة، والأمل بعيدا، والثقب المفتوح في جدار التخلف الأسود لا يكاد ينقل إلينا شعاعا من ضوء.

وفي النصف المملوء من الكوب إذا نظر الباحث بتمعن وبعيدًا عن التأثر بمحاولات التشويه التى تحط من قدر هذه الأمة، وتهون من إمكانياتها، وتسلبها قدراتها الذاتية، وتمارس معها ما يعرف بالاستلاب الحضارى الذى يجرد الضحية من كل مزاياها، ولا يستبقى فيها شيئا ذا بال، بل يضفى عليها من الصفات السلبية ما ليس فيها ليبرر استعمارها واحتلالها، إذا تجرد الباحث ونظر بتمعن إلى مسيرة أمتنا متحررا في البحث غير متأثر بالعوامل السابقة سيجد نفسه أمام أمة شامخة "قيما وحضارة وتاريخا وعطاء"،فحجم المؤامرات والعدوان الذى تعرضت له هذه الأمة، كان جديرا بأن يحطم كل جبال العالم، ويمحو كل أثر لحضارة أو بشر، غير أن الأمر كان بالنسبة لأمتنا الإسلامية على العكس من ذلك تماما، فبدلا من أن تنمحى هذه الأمة من الوجود كما خططوا لها، بقيت وتحاملت على جراحها، وظلت تصارع المحن وتعارك الحياة، تنهزم وتنتصر، وتعلو وتهبط، تتعثر أحيانا فتسقط، ويظن أعداؤها أنهم قد أجهزوا عليها وأنها قد ماتت، فإذا بها تصحو، وفى أحلك فترات تاريخها ضعفا واستذلالا لا تذوب في الآخر المنتصر، بل تقاومه وتحتويه وتحوله إليها دينا وقيما.

ومن ثم فالنظر إلى مسيرة هذه الأمة في سياقها التاريخى العادل، يضعنا أمام مجموعة من الحقائق يجب أن تستقر في أذهان الجميع، مسلمين وغير مسلمين، وهذه الحقائق بعضها يتصل بذاتية الأمة وطبيعة ارتباطها بدينها ورسالتها، وأثر ذلك الارتباط إيجابا وسلبا على قوانين التقدم والتخلف، والنصر والهزيمة، ويمكن أن نحددها في دائرتين:

الدائرة الأولى: ما يتصل بذاتية الأمة وطبيعة ارتباطها بدينها ورسالتها.

الدائرة الثانية. المستقبل المنتظر لعلاقة الأمة بالآخر إيجابا وسلبا في ضوء الحقائق التى أشرنا إليها من قبل.

في الدائرتين الأولى والثانية تتداخل وتتقاطع مجموعة من الحقائق يجب ألا تغيب عن أذهاننا ونحن نتحدث عن ذاتية الأمة وطبيعة تكوينها وهذه الحقائق هى:

* الحقيقة الأولى: ضرورة ملاحظة الفروق بين الجنس وبين الأمة، فالجنس قد يفنى ويباد إذا هبط وتدنى وفقد صلاحية بقائه، أما الأمة الإسلامية فهى لا تفنى ولاتباد، نعم تمرض وربما تصاب بالغيبوبة وتدخل غرفة الإنعاش، لكنها لاتلبث أن تستعيد وعيها وعافيتها، ومن ثم فلا يجرى عليها قانون الاستبدال الذي يجرى على الأجناس والأتباع.

* الحقيقة الثانية: أن المشكلة ليست في الإسلام كمنهج، وإنما المشكلة في المسلمين كأجناس وأتباع، فهم حين يهبطون ولا يرتفعون عن المستوى الذى رفعهم الإسلام إليه وشرفهم وأعزهم به، حينئذ يفقدون صلاحيتهم للحياة كأجناس وأتباع، ومن ثم يجرى عليهم قانون الاستبدال عند انتهاء الصلاحية، قال تعالى" (هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد: ٣٨).

* الحقيقة الثالثة: أن كلمة غيركم تعنى أن الأمة مازالت موجودة وحاضرة وهى كالشجرة الحية، تسقط أوراقها الميتة عند الخريف، لكنها تجدد نفسها، ويهيئ الله لها على رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (المائدة: ٥٤).

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) (رواه أبو داود).

* الحقيقة الرابعة: يجب أن نفرق بين الإسلام وبين المسلمين، أي بين الرسالة والأتباع، فالإسلام شئ والمسلمون شئ آخر، والأمة تبقى محفوظة القدر مصونة الجانب، مهابة في نظر الآخرين طالما بقيت في حضانة الوحى المعصوم تحميه وتحتمى فيه، فإذا تنكرت له، وعطلت تعاليمه، وعاشت بعيدة عنه، فالمسلمون حينئذ ناس من الناس، قد يفرطون ويهبطون دون المستوى المراد منهم بشكل عارض، وهذا وارد جدا، وقد حدث حتى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد، ومن ثم فلابد من أن يطبق عليهم القانون فيدفعون ثمن هذا التفريط من كرامتهم ويذوقون مرارة الهزيمة، ومن ثم تجرى عليهم السنن والقوانين، فيتقدمون وينتصرون إذا أحسنوا، ويتخلفون ويدفعون فاتورة الحساب إذا أساءوا، لكنهم لا يستأصلون ولا يمحون من الوجود لهذا التفريط العارض، وقد تمرض الأمة وتدخل مرحلة الغيبوبة، لكنها لا تموت، فطبيعة دينها تحيل الضعف قوة، واليأس أملا وتوطن في النفوس أن دقيقة واحدة باقية في العمر هى أمل كبير في نصر الله ورحمته.

قال تعالى: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (يوسف: ١١٠).

* الحقيقة الخامسة: وتتأسس وتتكامل على الحقيقة الرابعة:

وهى: أن على المسلمين في حومة الصراع بين الحق والباطل أن يوثقوا ارتباطهم بالله، وولاءهم له ولرسوله، وأن يكون الامتثال لأمره إيجابا وسلبا هو سمتهم وصفاتهم وديدنهم في الحياة.

وهذا يتطلب الاستعداد لتعبئة الأمة، كلها وتنمية القدرة على استثمار كل جهد في كل الميادين، وفى مقدمتها الميدان العلمي والثقافي والتربوى بالإضافة للاستعداد للبذل والتضحية وقبول التحديات بكل صنوفها، لأن الباطل لا يريد لأنوار دينهم أن تنتشر وأن تسود، ولن يتركهم ليتمددوا في مساحاته بقيمهم ومنهجهم بسهولة ويسر، مهما تجنبوا الصراع وحاولوا تلاشيه والبعد عنه، وإنما سيمارس معهم ما يسمى بسياسة تكسير المصابيح، وسيحاول حرمانهم من أى تقدم علمى أو تقنى، بينما يمد عدوهم بأحدث ما

أنتجته المصانع من سلاح ليضمن تفوقه الدائم كما يحدث الآن، ومن ثم فعليهم أن يستعدوا لتحمل كل أنواع التضحيات العظيمة، قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٦).

وستكون العاقبة للمسلمين إذا هم صبروا وتحملوا وضحوا واستقاموا على الطريق كما أراد الله، ولابد أن نلاحظ أن الأداء الدنيوي المنقوص ينعكس سلبا على المسلمين بالتخلف، وأن الأداء الحضارى المتميز لمجموع المسلمين يعجل بالنهضة ويساهم في تقدم الأمة ويصب في مجرى عمارة الحياة التى طالبنا الإسلام بها وكانت جزءا من خلافة الإنسان في الأرض، ومن ثم يتم التوافق مع سنن الله في التمكين وهى سنن تشريعية وكونية واجتماعية، وهذا التوافق وإن كان وسيلة لغاية إلا أنه يعد من الواجبات، لأن ما لا يتم الواجب به فهو واجب، ورجع الصدى لهذا كله سيكون النصر والتمكين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٥-٥٦).

وقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران:١٦٠).

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧٣).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١).

* الحقيقة السادسة: بناء على ما سبق فإن كل محاولات العلمانيين والماركسيين ومعهم كل الأعداء حتما ستبوء بالفشل، لا لقدرة المسلمين على إفشالها فقط،وإنما لأنها

معاندة لسنن الله في الكون، ومناقضة لحكم القدر الأعلى وحكمته في القوانين التى تحكم حركة الصراع في الانحسار والانتشار والهزائم والانتصارات بين الحق والباطل.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (الأنفال: ٣٦).

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (الصف: ٨).

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة: ٣٣).

أحسب أن الدائرة الثانية.علاقة الأمة بالآخر، وأثر قوتها أو ضعفها إيجابا وسلبا على حركة انتشار الإسلام في العالم، تحتاج منا إلى وقفة نتأمل فيها نبوءات الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، ما تحقق منها وما سيتحقق بعد، وسيكتشف القارئ الكريم أنه لم ولن يغلب عسر يسرين، ولم ولن تغيب شمس الإسلام عن الحياة ما بقيت الحياة حتى وإن اعتراها بعض الكسوف.

الأمل القادم من رحم الغيب (*)

في المقال السابق وهو الجزء الثانى من جرعة الأمل وفى ضوءالحقائق التى أشرنا إليها من قبل يدور حديثنا اليوم عن الدائرة الثانية. المستقبل المنتظر لعلاقة الأمة بالآخر إيجابا وسلبا.

وكنا قد فصلنا القول فيها ضمن المقال السابق، (النصف المملوء من الكوب) وجدير بنا أن نوجز هنا وباختصار شديد هذه الحقائق حتى تتكامل الصورة ويرتبط السياق وهذه الحقائق هي:

الحقيقة الأولى: ضرورة ملاحظة الفروق بين الجنس وبين الأمة.

الحقيقة الثانية: أن المشكلة ليست في الإسلام كمنهج، وإنما المشكلة في المسلمين كأجناس وأتباع،

الحقيقة الثالثة: أن الأمة كالشجرة الحية لا تموت، وإنما تسقط أوراقها الميتة عند الخريف، لكنها تجدد نفسها، ولا تموت ولا تستأصل.

الحقيقة الرابعة: أن الأمة تبقى محفوظة القدر مصونة الجانب، مهابة في نظر الآخرين طالما بقيت في حضانة الوحى المعصوم تحميه وتحتمى فيه.

الحقيقة الخامسة: وتتأسس وتتكامل على الحقيقة الرابعة.

وهى: أن على المسلمين في حومة الصراع بين الحق والباطل أن يوثقوا ارتباطهم بالله، وولاءهم له ولرسوله، وأن يكون الامتثال لأمره إيجابا وسلبا هو سمتهم وصفاتهم وديدنهم في الحياة.وهذا هو حصن الحماية الأول وسلاح الأمة الفعال فى مواجهة التحديات.

الحقيقة السادسة: بناء على ما سبق فإن كل محاولات العلمانيين والماركسيين ومعهم كل الأعداء حتما ستبوء بالفشل، لا لقدرة المسلمين على إفشالها فقط،وإنما لآنها معاندة لسنن الله في الكون، ومناقضة لحكم القدر الأعلى وحكمته في القوانين التى تحكم حركة الصراع بين الحق والباطل.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١ – ٩– ٢٠١٠م

ستة حقائق عبارة عن وجبة واجبة، قدمتها للقراء الكرام في جرعة الأمل الثانية، (النصف المملوء من الكوب) راجيا أن يجد فيها القارئ الكريم بعض ما يزيل هموم الواقع وآلامه، ويفتح أفقا لفجر جديد طالت غيبته وطال انتظاره.

وليسمح لي القارئ الكريم أن أضيف في جرعة الأمل الثالثة مجموعة أخرى من الحقائق تمثل الروح والريحان والأمل المطرز بالمنى يهفو إليها القلب المُعنّى في زمن الهزائم بالجملة والانكسارات بغير حدود.

وأول هذه الحقائق: أن الإسلام دين الله (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (يوسف:٢١).

ومن ثم فهو كالشمس، أو كضوء النهار، لا يستطيع أحد أن يخفيه أو يحجبه عن الناس. والذين يحبون الظلام ويكرهون النور ويؤججون نيران الصراع، يمكنهم أن يغلقوا أعينهم، أو يغلقوا نوافذهم، ولهم أيضا أن يسدلوا الستائر حتى لا يغشى وجوههم النور، ولكن من المستحيل عليهم أن يحجبوا عن الدنيا ضوء النهار.

وثاني هذه الحقائق: أن الإسلام دين تكفل الله بحفظه، ومن ثم فلا داعي للقلق عليه، وهو يعيش بمكوناته الذاتية وسط كل تلك العواصف، ولا يحتاج إلى دفاع، ولكن علينا أن نتذكر الفرق بين حفظ الله لهذا الدين، وبين جهود البشر المكلفين أولا بتطبيقه ليكون دعوة بالحال لا بالمقال فقط، حتى يتحقق كنموذج ماثل أمام الدنيا كلها، ثم بعد ذلك تبدأ مسؤوليتهم في توصيله إلى الناس دعوة بالمقال، وذلك ببيانه وشرح تعاليمه، لا باعتباره حربا على الحضارات وتهديدا لأمن البشر وتدميرا للحياة، وإنما باعتباره سفينة النجاة للدنيا، وراعيا للحياة، وملاذا أمنا للناس، ورحمة الله للعالمين.

وثالث هذه الحقائق: أن الغرب لم يستطع منذ الحروب الصليبية، وبداية عصر الاستعمار –رغم كل التفوق– أن يمحو الإسلام من الوجود أو يكسر شوكته، ربما سيطر على أنظمة واحتل بلادا، وربما أدمى من الإسلام بعض الأطراف، ولكنه لا يمكن أبدا أن يمحو هذا الدين من الوجود.

ورابع هذه الحقائق: أن سنة الله جرت في هذا الدين أنه لا ينتصر إلا من ضعف، ولا ينتشر إلا من قلة، قال تعالى: (وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الأنفال: ٢٦).

وقال سبحانه: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (يوسف: ١١٠).

وفيما رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ).

قال السندي في حاشية ابن ماجه:

(غَرِيبًا) أَيْ لِقِلَّةِ أَهْله وَأَصْل الْغَرِيب الْبَعِيد مِنْ الْوَطَن (وَسَيَعُودُ غَرِيبًا) بِقِلَّةِ مَنْ يَقُوم بِهِ وَيُعِين عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ أَهْله كَثِيرًا (فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ) الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ، و"طُوبَى" تُفَسَّر بِالْجَنَّةِ وَبِشَجَرَةٍ عَظِيمَة فِيهَا. وَفِيهِ تَنْبِيه عَلَى أَنَّ نُصْرَة الإِسْلام وَالْقِيَام بِأَمْرِهِ يَصِير مُحْتَاجًا إِلَى التَّغَرُّب عَنْ الأَوْطَان وَالصَّبْر عَلَى مَشَاقّ الْغُرْبَة كَمَا كَانَ فِي أَوَّل الأَمْر اهـ.

وخامس هذه الحقائق: أن الإسلام قادم لا محالة:

عندما كان هنرى كيسنجر وزيرا للخارجية ومستشارا للأمن القومى في أمريكا صرح الرجل تصريحا جديرا بالتأمل، فقد قال:

"إن الحضارة الغربية تعيش الآن مرحلة الأفول، ونحن نعرف أن البديل الحضارى والمنافس الاقتصادي لها هو الإسلام، ونحن ندرك يقينا أنه قادم لا محالة، ولكننا نعمل على تأخير عودته زمنا ما"

فهل لدينا في عتمة الحاضر ومرارة الواقع وحرقة قلوب المخلصين من صدق الخبر ما يؤكد تصريح الرجل؟

نعم، وفي النصف المملوء من الكوب خبر يقين " ووالله إن في السماء لخبرا وإن لقدر الله لمفاجآت " وبرغم الحصار والشتات و عدوان النهار الفاضح ومؤامرات الليل الأسود سينبثق الظلام عن فجر جديد للإسلام، وسيدخل نوره كل البيوت ويعم كل الآفاق.

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لَيَبْلُغَنّ هذا الأمرُ (يعني الإسلام) ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذليلٍ، عزًّا يُعِزّ الله به الإسلام، وذلاًّ يُذِل الله به الكفر) (رواه أحمد والطبراني).

وسادس هذه الحقائق: أنه لن يغلب عسر يسرين. ففي أشد لحظات الحصار والضيق، وفى أكثر المواقف حلكة وظلاما، كان برق الأمل مع كل ضربة فأس في

الصخرة،يخترق جدار اليأس الأسود، ويضيئ شرارة عصر قادم، يفتح أفاقا للعزة والحرية يعلن باسم الله عطاء ممدودا وبغير حدود.

يروى الهيثمي عن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحفر الخندق وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسبه وضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا ثم قال بسم الله وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا ثم قال بسم الله وضرب ضربة أخرى فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا" (مجمع الزوائد ١٣٣/٦)

وإذا كان الحاضر مرا وهابطا وذليلا فإن المستقبل –إن شاء الله– أحلى وأعلى وأغلى، فعبق التاريخ يحدثنا عن وعد صادق، "في القسطنطينية" قد تحقق في الماضى نصفه، وبقى النصف الآخر "رومية" أملا منتظرا في نصف الكوب المملوء ليجد مكانه من وعد الله، وتأكيدا لنبوءة الصادق المصدوق رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

عن أبي قَبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وسئل: أيّ المدينتين تفتح أولاً؛ القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوقٍ حَلَقٍ، قال: فأخرج منه كتاباً، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نكتب، إذْ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيّ المدينتين تفتح أولاً؛ قسطنطينية أو رومية؟ فقال: مدينة هرقل تفتح أولاً (رواه أحمد) مدينة هرقل هي القسطنطينية و قد فتحت على يد محمد بن مراد الفاتح، وبقي الجزء الثاني من البشرى و هو فتح رومية أي روما عاصمة ايطاليا ، وبه يدخل الإسلام أوربا مرة أخرى.

امتلأ النصف المملوء من الكوب وفاض، وأشرق الأمل الأخضر نورا يسطع من ملأٍ أعلى يملأ كل الأرض عدلا وضياء.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه) وسلم:

(إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زُوِي لي منها) (رواه مسلم).

يجيئ الغد ومعه ربيع الإسلام فتأمن الدنيا ويزول الخوف، وتزهر أشجار العدل وتخضر الأرض.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهارا) (رواه مسلم).

وزاد أحمد في روايته، "وحتى يسير الركب بين العراقِ ومكةَ لا يخاف إلا ضلال الطريق"

وعن معاوية (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:

(لا تزال طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله، لا يضرُّهم من خَذَلَهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس) (رواه أحمد والشيخان).

وتقطع أمتنا -بين مد وجزر- مراحل شتى من تاريخها، ينفصل فيها الإسلام عن دفة الحكم، فيغيب العدل ويسود الاستبداد والظلم، وتغتال الحريات وتعانى الشعوب الإسلامية كل ألوان التخلف والقهر والاستذلال والاحتلال، فتعيش تحت قبضة ملك عضوض مرة، أو ملك جبرى لايعرف غير قانون الطوارئ ويعامل الناس كقطيع من الغنم الشاردة مرة أخرى، لكنها تنتهى في النهاية بخلافة على منهاج النبوة، حيث يسود العدل والحرية وكرامة الإنسان،

ومن وراء الحجب أرقب خلف هذا الليل فجرا، ليت هذا الفجر لاح.

عن حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:

(تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضّاً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبريّاً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) (رواه أحمد).

إنه صبح الأمل الذى طال انتظاره، حيث ينقلب فيه الإنسان إلى أهله وأمته مسرورا بعد حزن، وعزيزا بعد قهر، وسيدا حرا بعد استرقاق وعبودية، وكريما بعد مهانة وإذلال.

فلينفض المسلمونعن أنفسهم إحساسهم بالضعضعة والوهن والهوان والاستضعاف وقلة الحيلة، وليخلصوا أنفسهم من الشعور بالدونية، وليكفوا عن التنازلات المهينة التى

تسرف وتجتهد في إرضاء الآخر –ولو كان عدوا– وعلى حساب الثوابت. فها هو الليل يسارع في طي ثيابه، يحمل معه أوزار عصور ماتت فيها العزة، وعصفت فيها رياح التخريب خصخصة للأرض، وبيعا للعرض، وفضا لبكارة شعب موجوع بالجوع.... وبالحرمان وقتل الإنسان، ينذر فئة السادة في المخمل داخل قصر مسحور أن كفوا عن نهب المال المغصوب، من عرق جبين العامل، ودم الفلاح المغمور، وملايين الموجوعين والمسكونين بأمراض فتاكة، جلبتها صفقات الظلم الأسود، سرطنة للشعب وللأمة، والفاعل "والي" يرفل بأمان في ظل السلطان، يحميه إخوة يوسف، فينام قرير العين لا يخشى لوما أو حرمان..

مولود قادم من رحم الغيب،
ينذرهم برحيل عن صدر بلادي
كي تتنفس مثل البشر العادى في كل الدنيا
بنسيم هواء غير ملوث أو مسموم
وبشربة ماء، ورغيف مطحون من قمح بلادى
أيام حبلى في الزمن القادم
مولود قادم من رحم الغيب
عملاق يهزم جند القهر
يهتك حجب الليل،
يمسك بيمينه أنوار الفجر
يعيد البسمة والنسمة لأرامل كثر
داخل شعب محروم من خير بلاده
ويتامى داخل كهف الفقر الموجع
وعجائز داخل جحر مهجور
وشباب يهتف من عمق القاع...... يُسْقِط ليل الظلم ويُسْقِط الاستضعاف
ويُحْيِ في الناس رجولة أمة تأبى الجور...وتأبى الفحش والاستخفاف.

النافذة الثانية

تغول الكنيسة

نحن في الوطنية أصدقاء حتى لو اختلفنا في الرؤية، أو كان البعض بعيدا قد تناءت به الديار وتباعدت به المسافات، فمع السفر وإن طال، ومع الغربة وإن بعدت، يسافر الوطن في كل منا بأفراحه وأتراحه، ومن ثم فهموم الوطن لا تعرف حدود التاريخ من حيث الزمن ولا تعترف في الجغرافيا بالحواجز ولا بنقاط التفتيش.

خطأ الكنيسة وخطيئة النظام (*)

المجتمع المصري يعيش حالة من الغليان تنبئ بخطر شديد،وهنالك عوامل لا يمكن تغافلها ستتسبب في كارثة اجتماعية ووطنية مالم يتم تدارك الموقف، وهذه العوامل تشكل قسمات عامة لظاهرة مرضية استفحل خطرها في المجتمع المصرى وأول هذه العوامل هو سخونة الحوار الدائر في الأوساط المصرية والعالمية حول موضوع السيدة كامليا شحاته زوجة الكاهن تداوس سمعان كاهن كنيسة دير مواس بالمنيا وموقف الكنيسة المتشدد فيه،والذى طفح منه الكيل

والعامل الثانى هو خضوع النظام للابتزاز، ومشاركته للكنيسة في الخطيئة بالقبض على الضحية كامليا شحاتة ومن قبلها وفاء قسطنطين ومن سبقها من زميلات أعلن إسلامهن وتم تسليمهن للكنيسة واختفائهن تماما عن الأنظار، وما أثاره هذا الموضوع من جدل وما كشف عنه من عورات ساعدت هى الأخرى في زيادة الطين بلة كما يقولون.

وثالث هذه العوامل هو دخول بعض الكتاب الشرفاء الغيورين على وطنهم وبعض الحقوقيين الصادقين على خط المواجهة، بتحريك القضايا في محافل دولية.

ورابع هذه العوامل هو سكوت المؤسسات التى يفترض فيها أنها تمثل ضمير المجتمع وتكشف عن أوجه القصور والخلل وتشير إلى الخطأ وتقاوم الفساد حماية للوطن والمواطن وقياما بدورها ورسالتها، كل هذه العوامل تحتم على الفكر الأصيل مناقشة هادئة وصادقة لقضية من أخطر القضايا التى قد تكلف مصر الكثير مالم تتداركها رحمة الله، ونظرا لخطورة القضية وجديتها فإن الأمر لا يحتمل المجاملة، وإنما لابد أن يتم طرح القضية فى جو من الوضوح والصراحة ولو كانت مرة وجارحة، ولعلى أمهد هنا بالحكمة العظيمة التى تقول: "صديقك من صدقك لا من صدقك"، ونحن في الوطنية أصدقاء حتى لو اختلفنا في الرؤية أو كان البعض بعيدا قد تناءت به الديار وتباعدت به المسافات، فمع السفر وإن طال، ومع الغربة وإن بعدت، يسافر الوطن في كل منا بأفراحه وأتراحه، ومن ثم فهموم الوطن لا تعرف حدود التاريخ من حيث الزمن ولا تعترف في الجغرافيا بالحواجز ولا بنقاط التفتيش.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٩ – ٩- ٢٠١٠م

ومن هذا المنطلق وفي هذا السياق يأتى هذا المقال مناقشة هادئة لبعض الأحداث التى رافقت الظواهر الخطيرة وارتبطت بها، ومحاولة فهم الجذور في تلك الأحداث كشفت أمورا كانت خفية في علاقة الكنيسة بالنظام ثم جاءت حالة الغليان الشعبى بسبب احتجاز المواطنة كاميليا شحاتة في أقبية الكنيسة لتزيد الأمر وضوحا وتعرى تماما حالة ازدواجية السلطة والسلطان بين الكنيسة والنظام، وما يتبعها من الابتزاز والفوضى التى تمر بها مصر.

ومن ثم فهذا المقال ليس اتهاما لأحد ولا يعنيه غير الصدق والموضوعية في توصيف الحالة تطبيقا للحكمة التى أشرنا إليها من قبل "صديقك من صدقِك لا من صدّقك".

علماء الاجتماع يقولون: بأنه "عندما يتكرر السلوك الخاطئ باستمرار وعن قصد وإصرار، فإنه في هذه الحالة يتحول إلى ظاهرة تستحق الدراسة".

وخروج الكنيسة على دورها كمؤسسة دينية وممارستها الفجة لإثارة التعصب والكراهية تكرر كثيرا، فكلما غابت فتاة أو امرأة عن بيتها أعلنت الكنيسة أن هناك حالة اختطاف، وألقت بالمسؤولية على أجهزة الأمن وهددت بالمظاهرات والاحتجاجات العابرة للمحافظات والمدن، وقد حدث ذلك فعلا دون اعتراض أو توقيف لتلك الحشود من سلطات الأمن ولو بمنعهم من عبور المحافظات.

هذه الظاهرة فضحت جهتين معا وجعلتهما شركاء في الخطأ والخطيئة،

الجهة الأولى هي الكنيسة: حيث مارست الخطأ متعمدة وعن قصد وسبق إصرار حين تصورت أن ضعف السلطة الحكومية يمنحها الفرصة لتكون دولة داخل الدولة، وأن علاقتها ببعض رموز النظام يرفعها فوق القانون ويحيل طلباتها إلى أوامر ينصاع لها الصغير والكبير، وتنفذ رغم مخالفتها للدستور والقانون، ومن ثم تمادت الكنيسة وتحولت من دورها الدينى لتشكل قوة ضغط سياسية تلوى أذرعا وتدير أعناقا وتطيح أحيانا ببعض الرؤوس والرموز التى لا تخضع لها ولا ترضى عنها، ذلك لا شك سلوك غريب لم يكن مألوفا من قبل ولم تمارسه الكنيسة إلا في ظل ولاية الأنبا شنودة، وكان يفترض أن يقابل هذا السلوك بحزم النظام وفرض سيادة القانون والدولة، غير أن الأمر كان عكس ذلك تماما، فقد خضعت الجهات الرسمية لأوامر الكنيسة وقامت بالبحث والتحرى عن المسلمات الجدد وتسليمهن للكنيسة وكأنها جهة قضائية سيادية خول لها القانون حبس الضحايا واحتجازهم ومحاكمتهم.

والأشد غرابة أن الجهات الرقابية التى تشكل ضمير المجتمع كالبرلمان والأحزاب السياسية والمؤسسات الصحافية والإعلامية وجمعيات حقوق الإنسان ومنظمات المرأة لم تحرك ساكنا، ولم يتناول القضية إلا قلة نادرة من الصحافة والصحفيين الشرفاء والأحرار والمحامين الذين يحبون وطنهم ويغارون على كرامة دولتهم ويحافظون على الدستور والقانون.

لكن الكنيسة تمادت في غيها وتحول تمردها إلى عصيان،ثم تحول عصيانها إلى فرض لإرادتها على الأمة كلها في محاولة لإخضاع الأمة وإخضاع النظام، ومن ثم فقد ارتكبت الكنيسة مجموعة من الأخطاء يمكن أن نجملها فيما يأتى:

– أنها غامرت بتاريخ مشرق ومضئ بين أقباط مصر أغلبية مسلمة وأقلية نصرانية عاشوا معا قرونا من التسامح لم يعكر صفوها كدر التعصب، ضحت الكنيسة بكل تلك القرون وبدأت في غرس بذور الفتنة الطائفية وبذور الكراهية بين أبناء مصر.

– أنها خطفت أغلب نصارى مصر لصالح نزق وطموحات شخصية تصورصاحبها أنه يمكن أن يبنى لنفسه امبراطورية تلوى ذراع الكثرة وتخضع الأغلبية لصالح الأقلية مستغلة لضعف النظام ومبتزة لرموزه ومستقوية بالخارج المشبوه في اختراق الداخل وفرض الإرادة وتقسيم الأمة.

– تحت إغراء المال والتلويح بصفقات مع بعض الأحزاب قفزت أطماع الكنيسة لتصبح بغير سقف حين استجابت رموز الأحزاب وذهبت إليها مسترضية ومطمئنة وخاطبة لأصوات أتباعها في انتخابات رئاسية قادمة.

– الكنيسة بدورها وجدتها فرصة لفرض إرادتها وعرض عضلاتها في تحد صارخ لقانون المحكمة الإدارية العليا، ومن ثم تطور تخويف النظام وتحدى أحد رموزه في مغاغة وهو المحافظ،وصرح البابا "أن الكاتدرائية ستبنى غصب عن عين الجميع" وقال" لست قلقا من أي شئ" وبدلا من فرض سلطان الدولة بتطبيق القانون نُصِحَ المحافظ بالذهاب إلى الكنيسة وذهب الرجل إلى مقر البابوية في العباسية راجيا ومستعطفا ومعتذرا.

– في المحروسة مصر لم يشهد تاريخ العلاقات بين أقباطها أغلبية مسلمة وأقلية نصرانية حالة من التشنج والالتهاب وإثارة التعصب إلا في بداية السبعينات من القرن الماضى، وبالتحديد منذ جلس على كرسي البابوية الأنبا شنودة، حيث عاشت الكنيسة حالة من الهياج المنظم وزعت أدوارها إدارة البابا على أغلب شرائح المسيحيين

باستنهاض هممهم في تكرار شكاوى لا مبرر لها وادعاء باضطهاد متوهم لا وجود له إلا في خيال كبار القساوسة ورجال الكنيسة، وبعض المرتزقة من تهييج الفتنة.

– عقب هذه الفترة بدأ أغلب القساوسة في تكريس مفهوم الاحتلال العربي لمصر وضرورة التخلص منه بعودة مصر إلى أصلها وأصحابها، ومن ثم طرحت الهوية المسيحية بديلا عن الهوية الوطنية التى تجمع بين المسلمين والنصارى، وكانت أغلب أحاديث الكهنة ورجال الكنيسة في الداخل والخارج تدور حول تلك المفاهيم،وتحرض عليها،الأمرالذى دفع بعض العقلاء من النصارى إلى التحذير بشدة من هذا النهج غير المبرر، ورأو أن إثارة التعصب وزرع بذور الفتنة ستكلف مصر الكثير، ولن يجنى أقباطها مسلمين ونصارى غير المرار والعلقم.

– هذه الأصوات العاقلة كانت صيحة في صحراء غطاها ومحى آثارها أطماع كبرت في نفوس أصحابها وتورمت في عقولهم فأضحوا يرون أنفسهم دولة لا في داخل الدولة وإنما دولة فوق الدولة وفوق القانون، وهو نوع من جنون العظمة وتضخم الذات يوهم أصحابه أحيانا أنهم ملء الوجود ويحجب عن عيونهم المعايير الحقيقية في الثقل والحجم والوزن والكثافة وعوامل المكان والزمان.

– بدأت الكنيسة في الاستقواء بالخارج، ومن ثم سمعنا من أقباط المهجر من يطالب بوضع مصر تحت الوصاية الدولية، بل سمعنا من يطالب وزير الخارجية الإسرائيلية بالتدخل لحماية أقباط الداخل من اضطهاد المسلمين.

– وأمام ضعف النظام وقابليته للابتزاز والاستخفاف مارس التيار المتطرف نوعا من البلطجة عن طريق التظاهرات كلما تحول منهم شاب أو فتاة، والغريب أن عمليات التحول من المذهب الأرثوذوكسى إلى غيره من مذاهب المسيحية تتم يوميا وبالمئات، غير أن عمليات الهياج والتظاهر وتهديد الأمن والنظام يحدث فقط إذا تحول شاب أو فتاة بمحض اختيارهما إلى الإسلام،هنا يجن جنون الكنيسة وتبدأ عمليات الغضب على أشدها، وترى الكنيسة أن هؤلاء المتحولين يجب أن يكونوا عبرة لغيرهم في الحبس والتنكيل والقتل أحيانا، وقد مارست مليشيات مسيحية هذه البلطجة في أكثر من منطقة وخطفت بعض المتحولين إلى الإسلام في وضح النهار.

الأمة المصرية بسكانها جميعا مسلمين ونصارى وجدت نفسها إذًا أمام محاكم تفتيش جديدة تمارس في الكنيسة المصرية وبسلطة للكهنة ورجال الدين تخترق الدستور والقانون

وسيادة الدولة، وتصادر حق المواطن في الاختيار الحر وتمارس الاحتجاز بغير سند من القانون أو سلطة مخولة من الدولة، بل تجبر مؤسسات من الدولة نفسها أن تقبض على مخالفيها وتسلمهم إليها وكأنهم مجرمون دوليون، ثم تتم محاكمتهم داخل الكنيسة في انتهاك صارخ لا لحق المواطن في حريته الدينية فقط، وإنما لسيادة الدولة ذاتها وإسقاط هيبتها وإهدار كرامتها وسلبها لأول واجباتها في رعاية مواطنيها وحماية حريتهم وأشخاصهم من تجاوز الغير أو عدوانه عليهم.

حالة من الاستخفاف والهوان تمثل جريمة في حق الدولة بكل مؤسساتها ورجالها ورموزها لم يحدث لها في تاريخ الدول نظير أو شبيه.

تلك هي أخطاء الكنيسة فما خطيئة النظام؟

خطيئة النظام:

قبول النظام لهذا الوضع المشين والمخزى أفضى إلى خطيئة أخرى في حق الدولة مورست هذه المرة من قلة قليلة في هيكل النظام كشفت عن عوار في تكوينه وخلل في تركيبته.

القلة القلية تأولت أن استجابة النظام لطموحات الكنيسة والتى هى بغير سقف أو حدود، وأن تسليم مواطنين أحرار لرجال الكنيسة لتحبسهم أو تعذبهم أو حتى تقتلهم ربما يساعد في تمرير مشروعها في التوريث، لكنها غفلت أنها بهذا الخضوع والخنوع تقوض أركان دولة بكاملها وتقامر بهيبتها وكرامتها وتدفع بها نحو انهيار كامل يدفع ثمنه كل المصريين الشرفاء مسلمين وأقباط معا.

أما الخلل في تركيبة النظام فإن مؤسسات الرقابة وفى مقدمتها البرلمان والمؤسسات الصحفية والإعلامية وحتى مؤسسات أخرى محترمة لا زالت تحمل مصداقية، هذه المؤسسات كلها خضعت للهوى السياسي لتلك القلة القليلة، ولم تنبه إلى خطورة الوضع ولم تشر في قليل أو كثير لما يترتب على ذلك من كوارث، بل إن بعضها تجاهل بلاغات بالحالة قدمها بعض الغيورين على هذه الأمة، وحفظت البلاغات وكان الجدير بها أن تحظى بالعناية والرعاية والبحث والتقصى المستفيض، لا باعتبارها مجرد احتجاز أو خطف لمواطنة، وإنما باعتبارها إعلانا للتمرد على سلطة الدولة وممارسة لجرائم خطف يعاقب عليها القانون المصرى، وينكرها ويرفضها ويجرمها الميثاق الدولى لحقوق الإنسان التابع لهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

ترتب على تلك الخطيئة أن المواطن المصرى فقد المصداقية في مؤسسات بلده، ولم يعد يثق في أن لديه دولة ونظاما ودستورا،فكل شئ مستباح في وضح النهار وعلى عينك يا تاجر كما يقولون في المثل المصرى.بعدما فقدت مؤسسات النظام مصداقيتها في حماية الوطن دولة وعقيدة وهوية.

هذا الأمر الخطيركثيرا ما يدفع الكثيرمن الشباب ليأخذ دور الدولة ومن ثم يرى أن عليه وحده تقع مسؤولية حماية الذات، ثم حماية الوطن عقيدة وهوية من هذا الاختطاف الذى تمارسه الكنيسة ويتواطأ معها فيه النظام برؤوسه ورموزه.

مكمن الخطر هنا بموجب قانون رد الفعل أن يتنامى شعور المواطن بالتعصب وأن يتولد لديه شعور بأن عقيدته في خطر وهي مهددة من اتجاهين:

الأول: اتجاه تمارسه الكنيسة عيانا بيانا دون اعتبار لشئ أو خوف من شئ

الثانى: اتجاه آخر يصب في نفس المجرى السئ وهو أنه لا وجود لدولة تحمى المواطن والوطن، وإنما الموجود نظام ثبت تواطؤه ساهم ويساهم في تكريس سيادة الأقلية على الأغلبية، وخرق الدستور والقانون، وأهان دولة كريمة وعريقة كان يفترض أنه يمثلها خير تمثيل، في حين أنه تخلى عنها في أول صدام، وباعها في أول مساومة من أجل قلة قليلة أرادت وفق هواها السياسى أن تمرر مشروعا لها في توريث الحكم.

هذا الوضع الكارثى يكلف الوطن الكثير، ويخلق مبررات للعنف، ويعطى المتربصين بالوطن فرصتهم السوداء في تمزيق الأمة وإشعال الحريق، وهم كثر في الداخل والخارج معا ليصبح في مصر دارفور أخرى.

فهل تعي الكنيسة ومعها القلة القليلة من حلفائها من رموز النظام أبعاد تلك الكارثة؟.

الكنيسة بلا شك ارتكبت أخطاء، ولعبت على وتر يمكن أن يفجر البيت المصري على سكانه، ومن ثم فقد أغضبت المواطن المصري المسيحي والمسلم على حد سواء.

والنظام من جهته لم يكتف بارتكاب خطأ التقاعس في الدفاع عن حرية المواطن في اختياره للدين الذي يرغبه، وإنما ارتكب خطيئة أخرى حين تواطأ مع الكنيسة وسلمها هذا المواطن لتغتال حقه وحريته وتنال منه بالحبس والتعذيب وربما القتل، فمن يدرى؟ ومن هنا فقد كان شريكا للكنيسة في الجرم. ولذلك فقد أغضب المواطن وأغضب

الدولة، وقد أوشك الوطن أن يغضب، وحذارى من غضبة الوطن فتحت الرماد اللهيب ومن يزرع الشوك يجنى الجراح.

دوامة جديدة كنا في غنى عنها، صنعتها وتصنعها لنا قلة قليلة، في جانب الوطن خرجت بالكنيسة عن دورها الروحى لتمارس لعبة السياسة بما فيها من تحالفات لا تتناسب مع الحيادية والعدالة التى يتحلى بها رجال الدين، حيث يقفون من الجميع على مساحة واحدة، ثم لا تكتفى الكنيسة بهذا الدور، وإنما تسلب الدولة هيبتها حين تمارس الضغط والإكراه والحبس والاعتقال لمن يخالفها وكأنها دولة داخل الدولة.

في الجانب الآخر من الوطن استغلت قلة قليلة مواقعها في هيكل النظام فجيَّرت مؤسسات الدولة لصالحها ولصالح هواها السياسي، وتحالفت مع الكنيسة لتلبى طموحاتها والتى هي بغير سقف أو حدود، ثم استجابت لرغباتها وسلمتها كل المخالفين لها لتعاقبهم وتحبسهم وتعتقلهم في تكريس لمفهوم ازدواجية السلطة والسلطان، وكأن مصر المحروسة لها حاكمان وسلطتان ودولتان.

هذه الخطيئة الفادحة نتيجتها لم تظهر بعد، لكن نذر الخطر فى الأفق تبدو ظاهرة، فهل ستدفع الأمة المصرية فاتورة استهتارالقلة القليلة، وخطأ الكنيسة وخطيئة النظام؟ أم أن الجميع سيتخلص من غيه وهواه ويعود لنقطة العدل المفقود، وتبسط الدولة سلطتها على مؤسساتها ومواطنيها مسلمين ونصارى دون تمييز، ودون السماح لأحد بأن يكون فوق القانون ولو كبرت رأسه وتضخمت ذاته وظن أنه ملء الوجود؟

أرجو الله أن يجنب مصر شر الفتن ما ظهر منها وما بطن.

كاميليا شحاتة سيدة الزمن الأولى (*)

محنة كاميليا شحاتة في سوق الثقافة والسخافة سودت الوجوه وقزّمت الزمن، ونزعت وصف الرجولة عن كثيرين كنا نظن بهم خيرا.

المحنة صفعت الكثيرين على وجوههم وأدبارهم، وعرّت وأظهرت سوءات منظمات مدنية وحقوقية صدَّعت رؤسنا وكانت مستترة تحت شعارات براقة، وكشفت عن عوار وهوان ومذلة لم تر الشعوب مثلها إلا في عهود التتار.

الشعب المصري الأمى الفقير الذى لا يقرأ ولا يكتب كان أكثر شرفا وغيرة وحمية على بلده من أصحاب الترهل الفكرى والرفاهية الثقافية وشفافية الحيض التى يتحلى بها مثقفو الطبقة المخملية أصحاب مسيرات التأييد بالروح والدم،هؤلاء الذين جاءت بهم على رؤس الصحف وقنوات الإعلام قرارات الولاء وبدلات السكوت والسفر.

العمى الثقافى والفكرى أصاب عيونهم وعقولهم عما يجرى على أرض المحروسة من إهانة للدولة وتجريح للنظام تمارسه الكنيسة كل يوم بتصريحات قادتها في تحد سافر لكل من هو في موضع المسؤولية.

هؤلاء الكتاب لم يكونوا أمناء حتى مع النظام الذى استوظفهم واستكتبهم، فقد أهين النظام وهم سكوت، وجيرت قلة قليلة في هذا النظام مؤسسات الدولة لتعمل في إعارة داخلية لصالح الكنيسة، فتقبض على مواطنين شرفاء وتسلمهم إلى الكنيسة لتحبسهم وتعذبهم في معسكراتها وربما تقتلهم، وهؤلاء الكتاب خرست ألسنتهم وتجمدت أقلامهم، وبدلا من قول الحقيقة والنطق بها راحوا يبحثون عن مبررات لستر عوراتهم الثقافية بكلام ليس له لون ولا طعم، بل تفوح منه رائحة الخيانة لوطن ونظام أعطاهم وأغدق في العطاء، وأكرمهم وبالغ في الكرم، ومنحهم وزاد وأفاض، وطن قدم لهم كل وسائل التمكين والشهرة ولم يتلق منهم غير السكوت في وقت يجب فيه الكلام، والتخلى في وقت يجب فيه الإقدام، والتورط مع الجانى في جنايته بالسكوت عليه حينا، وحينا آخر بتبرير الجريمة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٥ - ٠٩ - ٢٠١٠م

في زمن اليقظة من حياة أمتنا كان المفهوم هو قتل الفتنة والقضاء عليها في مهدها قبل أن يتطاير شررها ويستفحل ضررها، وقيل في ذلك "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها". أما في زمن النوم والغفلة زمن النباهة والاستحمار أو زمن التراجع والانكاسارات فقد تبدل المفهوم وانعكس ليصبح هكذا" الأمة نائمة لعن الله من أيقظها"..

وهكذا بدأ الإنسان يدخل عصر السقوط ضمن أمة طال ليلها وطال نومها، ولم يبق متيقظ فيها إلا أعداؤها يخططون وينظمون لتبقى الغفلة، ويبقى الليل ويستمر الظلام؛ لأنهم في ظله يفعلون بالإنسان والأمة ما يحلو لهم، والويل لمن يشير إلى الخطأ.. أو ينبه إلى الخطر أو يحذر الأمة من الكارثة، أو يوقظ النائمين ولو بكلمة.

وأمام هذا الوعيد والتهديد دخلت الكلمة دوامة الدوران حول الذات وأضحت لا تنطق ولا تشير، وإنما تجيء وتروح حول نفسها في حالة دوران وغموض وهروب ليبقى قائلها يرفل في رغد عيشه الحرام بعيداً عن غضب الممول، وفي مأمن عن المؤاخذة والعقاب، ومن هنا فقدت الكلمة مدلولها ومعناها وتحولت إلى لا شيء فلا طعم ولا لون ولا رائحة لأكثر ما يكتب أو يقال، ولعله من المفيد هنا أن أستعير كلمات الشاعر الطريد أحمد مطر وهو يعبر عن هذه المأساة والملهاة في قصيدة له بعنوان الأرمد والكحال

قال أحمد مطر:

قد

عسى

لا

إنما

من

إلى

في.

ربما.

هكذا سلمك الله قل الشعر

لتبقى سالما.

هكذا لن تشهق الأرض

ولن تهوى السما.

هكذا لن تصبح الأوراق أكفانا ولا الحبر دما.

هكذا وضح معاليك دواليك

لكي يعطيك واليك فما

وطني يا أيها الأرمد ترعاك السما

أصبح الوالي هو الكحال، فأبشر بالعمى.

وهكذا في زمن النوم دخلت الكلمة الشريفة مرحلة التحريم، وفصلت تفصيلاً قوانين جديدة للمطبوعات تحرم النقد وتحظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنكل بكل من ينطق أو يشير إلى اللصوص الذين يسرقون مقدرات الأمة، ويبيعون حاضرها ومستقبلها في سوق النخاسة الدولية ويعبثون بمقوماتها ومكوناتها في الداخل والخارج معاً.

وفي الوقت الذي تصادر فيه الكلمة الصادقة وتقصف فيه الأقلام الشريفة تجزل العطايا وتفتح كل الأبواب للشياطين الخرص الساكتين عن الحق، أو المنافقين الذين يجيدون التبرير والتزوير والتحوير ويتقنون فن التصفيق والهتاف وتصدير مسيرات التأييد والمبايعة بالروح والدم، ويحتكرون حق المواطنة والوطنية لصالحهم ولصاح سادتهم وحدهم.

ولما كانت العملة الرديئة والمزيفة تطرد العملة الصحيحة من الأسواق فقد خلت الساحة من الكتابات الجادة، وسيطر على التوجيه وصياغة الرأي العام كتّاب يمثلون ظلال الأصنام السياسية وأبواق السلطان، وهؤلاء هم سدنة كل عصر. يعيشون – وكأنهم جراثيم– على جراح أمتنا فيأكلون على كل مائدة، ويرقصون في كل فرح،

وينوحون في كل مأتم. إنهم جاهزون في كل الأحوال ما دامت تفتح لهم الأبواب وتجزل لهم العطايا ويحتكرون لأنفسهم ولسادتهم فقط وصف المواطن الصالح.

وهكذا صارت بلادنا بلاد الإسلام عموماً وبلاد العرب خصوصاً أوطاناً بلا وطنيين، ومن ثم فقد انقلبت الصورة رأساً على عقب حتى بدا الاقتراب من الحق شبهة، والتصريح به بدعة وضلالة، ودعوة الناس إلى التمسك به مغامرة مفخخة بالكثير من المخاطر التي تجلب لصاحبها الكثير من المتاعب والمضايقات التي تبدأ عادة بمنعه من السفر وتنتهي باعتقاله وسجنه وإعلان الحرب عليه باعتباره متمرداً يجب مصادرة حريته وتجويعه؛ لأنه عدو للبلاد ومفسد للعباد وملحد لا يؤمن بسلام المتحضرين ولا بثقافة التطبيع... وهكذا يتم المسخ والتشويه وقلب الحقائق ويغرق الإنسان وتغرق الأمة بكاملها في محيط صنعه أعداؤها ومغتصبو أرضها وكرامتها، وسارقو أحلامها..

وأمام هذه المأساة تستدعي الذاكرة على عجل تلك الأبيات الشعرية الساخرة التي تصور حالة الغفلة أو حالة النوم التي تسيطر على الأمة وتطالب الإنسان البائس وسط هذه البيئة الملوثة ثقافةً وأخلاقاً، أن يتراجع ويتخلى عن مواقفه وعن هواجسه وحتى عن حواسه التي منحها الله له، وأن يتحول إلى أعمى وأن يسكت ولو على مضض كي يحظى بأبسط حقوقه... وإلا فالويل له إن تكلم أو أشار، وكأن الشعار المرفوع هو: "في الزمن الردئ تغَيَّب الرجولة ويفقد الشرف قيمته ومعناه ويكون السكوت من ذهب وينادي منادي الباطل:

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ودعوا التحدث جانباً فالخير ألا تفهموا
وتشبثوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم
من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرم
فليمش لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
لا يستحق كرامة إلا الأصم الأبكم

وهكذا اختارت كامليا شحاتة وزميلاتها وفاء قسطنطين وغيرهما الزمن الخطأ لتعلن فيه اختيارها الحر وكأنها أرادت وزميلاتها أن يعلن تقزيم الزمن وأن يكنَّ شاهدات عيان على موت المرجعيات الدينية، وأن يكون صمودهن إدانة صريحة لدعارة الثقافة وسخافة الأقلام،ونفاق شعارات المجتمع المدنى ومنظمات المرأة وحقوق الإنسان.

صمت يشبه إلى حد كبير صمت القبور، ويزيد عليه أن لأصحابه ألسنة حدادا في كل ما يخص الإسلام ورموزه،فتراهم يجدون ويجتهدون في الكتابة عن الإمارة الإسلامية في غزة، أو عن المحظورة، أو عن التطرف الإسلامي أو رضاع الكبير،بينما يخرسون أمام انتهاك الكنيسة لحقوق الإنسان ورفضها لأحكام القضاء وسلبها لسطان الدولة وسلطتها وإصرارها على ضياع هيبة الدولة وفقدانها للمصداقية أمام مواطنيها، وكأنما خلت مصرالمحروسة من قلم شريف وصوت جرئ يحذر الأمة من رياح الخماسين التي تهب عليها محملة بجراثيم التطرف الكنسي والتمرد الوطنى وفتنة الطائفية وعصيان الكنيسة وفقدان الدولة لهيبتها وسلطانها أمام هذا التحدى؟

لقد خرست أقلام سدنة الإيدز الفكرى ورواد ثقافة التطبيع وسلام المتحضرين، ودعاة تسليم كل المفاتيح للاستعمار الجديد الذين يطبلون له، ويزمرون، ويدعون إليه، ويمهدون له الأرض، ويؤهلون النفوس لقبوله واستقباله والتأثر به والتعايش معه، والتكيف مع أهدافه ومطالبه!

وسكتت ألسنة نواب يقال عنهم أنهم نواب "الشعب" عن سؤال بسيط ومشروع وهو: من الذى يملك حق احتجاز مواطن وحبسه وتقييد حريته وتعريضه للتعذيب والتنكيل؟ الدولة أم الكنيسة؟

حالة من الجنون الفكرى والانتحار الثقافي تعيشه مصر المحروسة بسبب تمادى رؤس الكنيسة في تحديها، وسكوت المثقفين وتخاذل مؤسسات الدولة، فهل يمكن أن يعود العقل المصرى لأداء وظيفته؟

أما السيدة العظيمة كاميليا شحاتة فمواقفها وبطولتها وصمودها جديرة بأن تستنهض قلم الغزالى، وسيف صلاح الدين،واستجابة المعتصم، غير أنها اختارت الزمن الخطأ، فهل يمكن أن يستدير الزمن كهيئته الأولى؟

خلف هذا الليل فجر ليت هذا الفجر لاح

إن للقدر مفاجآت.. ونحن في الانتظار.. وعلى أحر من الجمر..

حتى وإن طال الليل، واشتدت برودته، وطال ظلامه.

ومعذرة يا سيدة الزمن الأولى كاميليا شحاتة فشكرا لك، ولزملائك وزميلاتك ممن يعيشون قيد الأسر في سجون دولة الكنيسة، وأرجوكم، أرجوكم: أن تبْقوا هناك في علياء أمجادكم، فمواقفكم وصمودكم قد نزع القناع عن قبح وجوه فقدت شرفها وحياءها.

رسالة إلى رجال الكنيسة (*)

تؤكد حقائق التاريخ أن مصر تحت الحكم الرومانى كانت تعانى الأمرين، وكانت كل عائلات النصارى تقبع تحت الأسر البيزنطى، كانت الكنائس قد تحولت تحت الحكم البيزنطى إلى مرابض للخيل، وكان القائد الروحى الأب بنيامين مطاردا في الصحراء لمدة ثلاثة عشر عاما هو وأهله، فلما جاء الفتح الإسلامى حررهم، وحرر لهم كنائسهم، وأعاد الأب بنيامين إلى كنيسته بعدما نظفها ورممها وأعاد بناء ما تهدم منها.

أغلب عائلات الأقباط المصريين بعد معاناتهم تحت الحكم الرومانى اختارت الإسلام لما رأت عدالته ورحمته وتسامحه، يشهد بذلك المثقفون الأقباط قبل غيرهم، وتؤكد حقائق التاريخ ذلك في كل مراجعه العربية والأجنبية على حد سواء، ويمكن لمن يريد التأكد من هذا الكلام مراجعة كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى للكاتب الكبير والمؤرخ الألمانى آدم ميتز،وكذلك المستشرق الإنجليزى السير توماس أرنولد ١٨٦٤-١٩٣٠م في كتابه "الدعوة إلى الإسلام" وهو يتحدث عن سماحة المسلمين وكيف عاش النصارى أزهى عصور تاريخهم في ظل الدولة الإسلامية ونقل على ألسنة كبار الكهنة والقساوسة شهادات بذلك.

فلما جاء الإسلام فك أسر المصريين وحررهم وأعتق رقابهم، وكانت عائلة كاتب هذه السطور ضمن آلاف العائلات النصرانية الكثيرة التى سبقت لها من الله العناية، فأسلمت بعد الفتح الإسلامي، ولذلك فقد تكون عائلتى فرع من عائلة الأنبا بيشوي أو العكس فمن يدرى؟ إن كان من أهل مصر الحقيقيين، على كل حال العائلات المصرية بعد الفتح الإسلامى أصبحت تنعم بالحرية واستقلال الإرادة، ومن ثم فأغلبها أسلم واختار الإسلام وبعضها الآخر بقي على نصرانيته، وكان أبناء الأسرة الواحدة والبيت الواحد من الإخوة بعضهم مسلم والآخر نصرانى، ولم يكن هنالك إكراه لا على الإسلام ولا على المسيحية، فقد عاش الناس أحرارا في اختيارهم لدينهم، وكانت الكنيسة تمارس دورها الروحى العظيم بعيدا عن التعصب والكراهية، ولم تكن هنالك سجون أو معتقلات ووسائل تعذيب للمخالفين في أقبية الكنائس.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٣ - ٩ - ٢٠١٠م

في العصر الحديث يعيش النصارى أزهى عصورهم التاريخية، فالرئيس المصري رغم أنه طيار ومقاتل شرس إلا أنه على مدى ثلاثة عقود تحلى بالسماحة والصبر الطويل على مواطنيه النصارى وكنيستهم، ولم يتعامل الرجل مع رأس الكنيسة وهو الأنبا شنودة كما تعامل من سبقوه من رؤساء مصر جمال عبد الناصر وأنور السادات،مستندا في ذلك على المعايير الحقيقية في الثقل والحجم والوزن والكثافة وعوامل المكان والزمان، وأن هذا التسامح يعضد من روح الأخوة ويساعد على تماسك المجتمع المصرى ويدفع بوطنية الإخوة النصارى إلى الأمام في التلاحم مع إخوانهم المسلمين ليظل البيت المصرى الكبير المتمثل في الوطن على تماسكه بجناحيه المسلم والنصرانى.

وعلى خطى الرئيس صارت مؤسسات الدولة كلها بما فيها المؤسسات السيادية والأمنية فكانت العقود الثلاثة الماضية أزهى عهود النصارى بشهادتهم هم.

من جانبها فإن مؤسسات الدولة وفى مقدمتها المؤسسة الأمنية مارست أقصى درجات ضبط النفس مع الكنيسة ورموزها وأتباعها، فمع كل يوم مظاهرة من الكهنة والقساوسة، وعندما يتغيب تلميذ في مدرسة أو فتاة عن بيتها تقوم مظاهرة تتهم المسلمين بخطف الفتاة ثم تتهم الأجهزة الأمنية بالتراخى في أداء واجبها بالبحث عن الفتاة المخطوفة أو التلميذ الغائب، ويعقب ذلك حشود يتوافد إليها مئات الكهنة من شرق البلاد وغربها إلى منطقة العباسية إثر بلاغ كاذب بخطف امرأة دون أن تستوقفهم قوات الأمن، ثم مظاهرات في كاتدرائية العباسية، ولم نسمع أن قسا سقط مغشيا عليه بفعل الهراوات، أو أن كاهنا حدث له اختناق بفعل الغازات المسيلة للدموع، أو أن أحدا من المتظاهرين تضرر من أثر خراطيم المياه المستعملة في فض المظاهرة، أو أن أجهزة الأمن اقتادت أحدا من رموز الكنيسة في الثلث الأخير من الليل كما يحدث عادة مع بقية أبناء الشعب، لم يحدث أبدا شئ من هذا، وإنما مارست أجهزة الداخلية أقصى درجات الضبط الإرادى في في مشهد بات عظيما وغير معهود، لا في مصر وحدها، وإنما في منطقتنا العربية كلها، فلم يحدث أن تعاملت قوات مكافحة الشغب بهذا المستوى الرفيع الذى تفوقت فيه بحق على أعرق الدول الديمقراطية في العالم.

هذا التدليل الأمنى للكنيسة ورموزها ورجالها، وضع الكنيسة المصرية وأتباعها موضع الحسد من جماهير الشعب، وما يتبع ذلك الوضع من اتهام بالتحيز للنصارى والكيل بمكيالين والإسراع في تلبية رغباتهم حتى شاع في أوساط الشعب أن الأجهزة

الأمنية تتواطأ مع الكنيسة وتعمل لحسابها، وليس ذلك صحيحا بالطبع وهكذا تحملت الأجهزة الأمنية ضغوطا نشهد أنها كانت هائلة وفوق الاحتمال في كثير من الأحيان، ولم يثبت أن تلك الأجهزة تبرمت من تصرفات الكنيسة، بل ظلت تواصل عملها في إطار ما لديها من توجيهات وبقدر كبير من التسامح الذى وصل إلى حد الاتهام.

لكن الكنيسة بأذرعها في الداخل والخارج راحت تشوه صورة مصر بالحديث عن اضطهاد موهوم للنصارى في مصر، ونشرت إعلانات مدفوعة الأجر في صحف أجنبية كثيرة تتحدث عن خطف للنساء واعتداء واغتصاب في محاولات لاستعداء تلك الدول على مصر وتسهيل عمليات الهجرة لمن يريد من النصارى تحت دعوى الاضطهاد الدينى.

من باب توزيع الأدوار الأنبا شنودة في المجالس الوطنية يقول كلاما شديد التأثير، ولكنه في مواضع أخرى يفعل أفعالا شديدة الخطورة وشديدة الاستفزاز، وكنيسته تمارس دورا خرج بها عن المسار الدينى ليشكل قوة ضغط سياسية تنال من كرامة النظام الذى كان كريما معهم ومتسامحا إلى حد الغرابة، وعجيب جدا أمر كنيسة تأخذ من وطنها كل هذه المزايا ثم تقدم له في مقابلها الهوان والاستفزاز والاستخفاف.

رسالة الدولة ومؤسساتها السيادية والأمنية فهمت بشكل خاطئ وخطير، فالكنيسة ظنت أن الدولة شاخت، وأن قبضتها تراخت، وأن الفرصة سانحة للضغط والكشف عن النوايا وتفريغ مشحون الصدور، ومن ثم كانت تصريحات الأنبا بيشوى الذى اعتبر أن المسيحيين هم أهل البلد الحقيقيون وأن المسلمين مجرد ضيوف وتهديده الواضح للنظام والدولة، ومن قبله كان كلام أسقف القوصية ولسنوات طويلة وهو يدلى بتصريحات غير مسؤولة ويكتب التقارير ويحاضر عن اضطهاد الأقباط في معاهد مشبوهة، الأمر الذى دفع الكثيرين من عقلاء النصارى إلى الاعتراض على هذا السلوك وكان من هؤلاء من كتب إلى الأنبا شنودة مستنكرا فعل قس القوصية ومبينا أنه يستقوى ويكتب تقارير لجهات مشبوهة بالخارج.

الفعل الثقافى من جانبه تخلى عن دوره وترك الدولة في مواجهة الكنيسة،وكف المثقفون أيديهم وأقلامهم عن الكتابة في الموضوع ظنا منهم أنهم يجاملون الدولة والنظام بهذا السكوت، بينما هم قد خذلوا الدولة وخذلوا أيضا إخواننا المسيحيين حين سكتوا

على تجاوزات تؤزم الموقف وتلهب المشاعر وتستفز الأغلبية المسلمة، وتصب في تأجيج الصراع، ومن ثم فهى تؤذى المسلمين والمسيحيين على حد سواء.

وإذا كانت قاعدة العدل في التعامل تقرر أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، بمعنى أن لهم ما لنا من الحقوق، وعليهم ما علينا من الواجبات، إلا أن هذه القاعدة قد استبدلت بقاعدة أخرى ذهبت في التسامح مذهبا مذهلا فكان لهم أكثر أموالنا وكان عليهم أقل مما علينا بكثير، وشهدت القرون الثلاثة الماضية ثراء للكنيسة ولكثير من النصارى وصل إلى حد الخيال.

وأمام الشكاوى المستمرة عن الاضطهاد والإصرار على تشويه الوطن في الخارج وبعدما طفح الكيل، اضطرت الحكومة على غير عادتها تحت ضغط الشكاوى المستمرة واستعداء الخارج والاستقواء عليها بأقباط المهجر أن تعلن على لسان وزيرة القوى العاملة بيانا للرد على الاتهامات بتصريح في جريدة الأهرام بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠٠٧م.

وإذا كانت العقلية الغربية والعقلية العلمية عموما تحترم لغة الأرقام فقد اضطرت الدولة من جانبها أمام هذا التجنى أن تواجه سيل الأكاذيب التى تتحدث عن مظالم الأقباط وهمومهم بحقائق الأرقام والإحصاءات التى لا تكذب.حيث أكدت الوزيرة أن الأقباط الذين لا تزيد نسبتهم حسب آخر الإحصاءات الرسمية المعلنة عن ٦ % من مجموع السكان يسيطرون على مايزيد على ثلث الثروة في مصر، إضافة إلى كبريات الشركات كالسيارات وشركات البناء وكبريات المقاولات العامة والاتصالات والاستشارات وغيرها، وقالت الوزيرة إن تقرير مجلة فوركس الأخيرة أشارت إلى أن وجود ثلاثة أقباط مصريين ضمن عشرة مليارديرات ليس بينهم مسلم واحد

وبرغم أن نسبتهم في عدد السكان لا يزيد عن ٦ % إلا أنهم: يسيطرون في النقابات على ٢٥ % من المهن الممتازة كالطب والصيدلة والهندسة وغيرها، رغم أن عددهم لا يتجاوز نسبة ٦ % من مجموع السكان.

وتشير بعض الإحصاءات إلى أن نصيب الأقباط في الإيداعات المالية يصل إلى نسبة ٤٠ % من مجموع الإيداعات. وأن لهم:

٢٢% من الشركات التى تأسست بين عامى ١٩٧٤ - ١٩٩٥م

٢٠% من شركات المقاولات في مصر

٥٠% من المكاتب الاستشارية

٦٠% من الصيدليات

٤٥%من العيادات الطبية الخاصة

٣٥% من عضوية غرف التجارة

٦٠% من عضوية "منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين

٢٠% من رجال الأعمال المصريين

٢٠% من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادى بمصر

وأكثر من ٢٠ % من المستثمرين في مدينتى السادات والعاشر من رمضان

وأكثر من ٢٠ % من وظائف وزارة المالية

٢٥% من المهن الممتازة مثل الصيادلة والأطباء والمهندسين والمحامين والبيطريين

ومعنى ذلك أن ٦ % من سكان مصر من النصارى يملكون ما يتراوح بين ٣٠ – ٤٠ % من ثروة مصر وامتيازاتها، ومن ثم فأقباط مصر "النصارى تحديدا" هم أبعد الناس عن معاناة الشعب المصرى، ولا يعانون مما تعانى منه الأكثرية المسلمة من هموم حقيقية مثل البطالة والأمية وسكن المقابر والعشوائيات وأزمة الزواج بسبب الفقر وضيق ذات اليد وأزمة الإسكان وغير ذلك من الهموم التى تطحن المواطن المصرى المسلم.

وحتى في نسبة الكنائس إلى عدد السكان تلك التى جعلوا منها فضيحة ولبانة يمضغونها في كل مجلس ليشوهوا بها المجتمع المصرى وطنا وقيادة ودولة ومؤسسات حتى هذه قد حققوا فيها مالم يتحقق لهم طوال التاريخ كله، فالإحصاءات تؤكد أن نسبة النصارى في مصر يشكلون ٦% ورغم ذلك فهناك كنيسة لكل ١٢٥٠ مسيحي والنسبة ذاتها تقريبا بالنسبة لمساجد المسلمين مسجد لكل ١٢٢٧ مسلم.

الأزمة المعاصرة والحالية هى نتيجة طبيعية مرة لحالة التلوث الثقافى والفكرى التى عاشتها مصر خلال العقود الثلاثة الماضية حيث بدأت جرثومتها بنغمة شاذة تسللت إلى مفردات الثقافة الكنسية تتحدث عن احتلال عربى قدم من الصحراء لغزو مصر، ويجب العمل على تحرير البلد وعودتها إلى أهلها وأصلها، وشاعت هذه اللوثة على ألسنة الكهنة ثم انتقلت إلى الجيل الجديد لتغرس في حسه وشعوره أن بلده محتل وأن

عليه مهمة تحريرها، لكن هؤلاء الكهنة لم يقولوا لأبنائهم وبناتهم في مدارس الأحد كيف كانت أحوالهم وأحوال كنائسهم وصلبانهم إبان الحكم الرومانى، ولم يشرحوا لهم كيف تحول الشعب القبطى قبل الفتح الإسلامى إلى عبيد للرومان؟ لم يذكروا هذه الحقائق لأبنائهم.

لم يخبروهم أن الفتح الإسلامى حررهم من العبودية للرومان، ولم يخبروهم أن عمرو بن العاص هو الذى أعاد إليهم كنائسهم بعد أن كانت قد تحولت إلى مرابض لخيول الرومان، فنظفها ورممها وأعاد بناء ما تهدم منها على حساب خزينة الدولة الإسلامية.

لم يذكروا لهم مثلا أن عمرو بن العاص هو الذى أعاد الأنبا بنيامين إلى مصر بعد أن ظل مشردا في الصحراء ثلاثة عشر سنة، فأعاده عمرو بن العاص إلى مصر معززا ومكرما وأعاد إليه كنيسته، لم يخبروا أبناءهم أن كاتدرائية العباسية التى يتظاهرون فيها ضد الدولة، وفيها تتخذ قرارات الانتقاص من هيبتها،ومنها تصدر التصريحات الاستفزازية، لم يخبروهم أن هذه الكنيسة بُنيت بأمر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ومن أموال الشعب المصرى الفقير الذى يشكل ٩٤% من مجموع السكان الذين وصفهم بيشوي بأنهم ضيوف.

فصيل كبير من كهنة العصر الحديث انجروا وراء دعوات التعصب والكراهية، واستجابوا لنعرات الطائفية وأعماهم التعصب ونسوا حقائق التاريخ ومن ثم فهم ليسوا أمناء مع أنفسهم ولا مع أجيالهم الجديدة، ولقد كنا نتمنى أن يكون هؤلاء الكهنة قنوات جيدة لنقل روح التسامح التى حظيت بها أجيالهم ونعم في ظلها المسيحيون والمسلمون بالأمن والأمان عبر التاريخ، لكن الأمر بدا عكس ذلك تماما وبخاصة مع بداية السبعينيات من القرن الماضى.

ثم حملت الأيام القليلة الماضية حالة من الاستفزاز والترقب بعد لقائين فضائيين كان الأول للأنبا بيشوى وصل فيه التحدى والاستفزاز مدى لا يطاق، وأعلن الرجل خلاله أن الأغلبية التى تزيد عن ٩٤% من المسلمين هم مجرد ضيوف وأنه هو وأهل كنيسته هم السكان الأصليون. كما أبدى الرجل استعداده للاستشهاد إذا تدخلت الدولة في شؤون الكنيسة.

وصف الأغلبية من المسلمين بأنهم ضيوف ليس وصفا دقيقا لأنه يجافى حقائق التاريخ ويناقض شهادة المنصفين من المؤرخين عربا وأجانب.

والأنبا بيشوي حين هدد بالاستشهاد إذا بسطت الدولة سلطان القانون على كنيسته، نسى أن كنيسته هى التى تتدخل في شؤون الدولة وتسلبها سلطاتها وسلطانها حين تصر على احتجاز مواطنين داخل أقبيتها المظلمة، وتصر على حبسهم وتسلبهم حريتهم وتعتقلهم وتعذبهم وتصر على عدم ظهورهم في وسائل الإعلام.

انتظر الرأي العام أن يصدر تصريح من الكنيسة يعالج الخطأ ويخفف من حدة التوترات والاحتقانات التى سببتها تصريحات الأنبا بيشوى، لكن المفاجأة التى حلت بالناس كالصاعقة أن الرجل الأول في الكنيسة وهو الأنبا شنودة استضيف في برنامج لقناة فضائية تابعة للكنيسة وعندما طرحت قضية السيدة المختفية كاميليا شحاتة وأين هى قال الأنبا شنودة: وأنت مالك، وعندما سأله المذيع قائلا:الرأى العام يريد أن يعرف، فرد الأنبا:وهم مالهم؟...... هكذا.

تصريحات الرجل الأول والثانى في الكنيسة تتكامل فيما بينها لتكشف عن مخطط لتفجير الوطن تبدأ بالعدوان على سلطاته بسلبها لدورها وتحويل أجهزتها إلى مؤتمر بأمر الكنيسة، ومن ثم يعقبها تصريحات مملوءة بالغرور والغطرسة تنتقص من حقوق الأغلبية وتصورهم على أنهم في أحسن الأحوال ضيوفًا إن لم يكونوا محتلين، وعليهم أن يحترموا أنفسهم أو يغادروا، وإلا فإن السكان الأصليين على استعداد للاستشهاد، وهكذا يتم إعلان الحرب على لسان بيشوى ثم يعقبه الكاهن الكبير ليقول لكل أهل مصر "وأنتم مالكم"، ولما كان الإيمان الدينى لا يقوم على الإكراه وإنما لابد أن يستند على يقين وإقناع فإن إيمان المكره لا قيمة له، واحتجاز كاميليا شحاتة ووفاء قسطنطين وزميلاتهن نوع من العبث، ومن ثم فلا يصح أن يجرى على لسان نيافتك " ليس من حق أحد أن يسأل عن كاميليا شحاتة أو عن مكانها" لأن ذلك استفزازا للدولة التى أكرمتك وتسامحت معك، وهو في نفس الوقت إهانة لكافة الأجهزة التى لا زالت تمارس معكم أقصى درجات الضبط الإرادى، ولم تزعج كنائسكم بتفتيش ولم تقبض على من تظاهر ضدها واتهمها بالتراخى في أداء واجبها، ولم تحقق في بلاغ كاذب من زوج كاميليا حين ادعى أنها مخطوفة، ثم تبين أنها تركت البيت بمحض اختيارها وإرادتها.

الكنيسة لم تكن تفعل ذلك لولا أنها متأكدة من إعداد العدة في مخزون القوة لديها وخصوصا بعدما كشفت أجهزة الأمن عن سفينة قادمة من إسرائيل ومملوكة لنجل رئيس كاتدرائية بورسعيد والمسمى جوزيف بطرس الجبلاوى وكانت محملة بالأسلحة والمتفجرات. وإلا لماذا تغضب الكنيسة إذا تطرق الحديث لتطبيق القانون عليها..؟

أمور الوطن بهذا الشكل تنحو منحى خطيرا يشكل في الوجدان المصرى ولأول مرة إحساسا بالخطر يدفع كل طرف بحكم غريزة حماية الذات للتعبئة والاستعداد لمعركة قادمة تنفخ الكنيسة في كيرها وتوقد شرارتها، وبذلك فهى تغرس بذور الفتنة الطائفية وتؤجج نيران الصراع وتهدد وحدة الوطن.

الأغرب من كل ذلك أن الكنيسة تستعلى على النقد وتجعل من نفسها ورموزها خطوطا حمراء لا يجوز نصحها أو نقدها أو الاقتراب منها. وكلما توجه واحد من الوطنيين الغيورين ليحذر من الخطر ويشير إلى مصدر الحريق ويتوجه لهم بنصيحة صادقة ليكفوا عن إزكاء روح الكراهية، راحت أجهزتهم الإعلامية وانطلق القساوسة يكيلون له الاتهام ويتهمونه بأنه معارض غير شريف وينزعون عنه الوطنية، وكأن الوطنية والمواطنة أضحت بيد الكنيسة تمنحها من تشاء وتنزعها عمن تشاء، وكان آخر هؤلاء هو المفكر الحجة والعالم القانوني الكبير الأستاذ الدكتور محمد سليم العوا ومن قبله كان المفكر القبطي الحر جمال أسعد عبد الملاك والمفكر القبطى الحر أيضا كمال زاخر موسى وغيرهم من الوطنيين الأحرار.

ذلك بجانب ما يحمله البريد الإلكترونى من رسائل الوعيد والتهديد والمحملة بما لا يمكن قوله من البذاءات التى نربأ بأذن القراء وعيونهم من سماعه ورؤيته مكتوبا عبر هذه السطور الشريفة.

الوطن المصرى أعطى لأبنائه الكثير والكثير وفى مقدمة من حظى بأمنه وأمانه وأكثر خيراته هم الإخوة المسيحيون، وكان يفترض فيهم أن يكونوا أحرص الناس على تماسك هذا الوطن وعلى أمنه وعلى وحدة نسيجه الاجتماعي، ومن ثم وحدة أراضيه، لكن الشواهد تنبئ أن مصر قادمة على كارثة وطنية ستفجر البيت المصرى الكبير على سكانه من المصريين مسلمين ومسيحيين بعدما عاشوا معا مئات السنين دون أن يعكر صفوهم كدر التعصب الممقوت الذى تتبناه الكنيسة.

لذلك نقول للإخوة المثقفين من النصارى: كنيستكم تلعب بالنار وتخرج عن دورها الديني ورسالتها الروحية، وتعتمد لغة التحدى والاستفزاز والتصادم والقفز فوق مصالح الوطن العليا بما فيه من مسيحيين ومسلمين معا،فاكبحوا جماحها قبل أن تقع فتنة في مصر وفساد كبير.

ونقول لكل عموم الإخوة النصارى الذين تربينا معهم ودخلوا بيوتنا ودخلنا بيوتهم وأكلوا على موائدنا وأكلنا على موائدهم نقول لهم انتبهوا: رؤوس كنيستكم، يؤججون نيران فتنة تأكل الأخضر واليابس، ويريدون أن يوقعوا بينكم وبين إخوانكم من المسلمين، أنتم والمسلمون تشكلون نسيج الأمة المصرية، وأنتم والمسلمون تشكلون قسمات هذا الوطن الآمن على مدار السنين، وتذكروا أنكم ما زلتم تعيشون في مكان القلب من هذا الوطن وتشلكون بعضا من حناياه، فحذار من فتنة رؤوس تضخمت أحلامها فتصورت أنها يمكن أن تبنى إمبراطورية على جثث المساكين من أبناء هذا الشعب مسلمين ومسيحيين معا.

ونقول لرؤوس الكنيسة: في مصر عبر تاريخها الطويل وعلى مدار القرون السابقة لم يكن هنالك توترات وصلت إلى حالة الالتهاب كما يحدث الآن وفى أزهى عصور التسامح من ناحية المجتمع المصرى بنظامه ومؤسساته ودولته، أمر محير ذلك الذى تمارسه الكنيسة في عصرها الراهن وكان يفترض فيها أن تكون بما تحقق لها من امتيازات أحرص مؤسسات الدولة على سلامة الوطن الذى وفىّ وزاد في عطائه وتقديره.

غير أن هذا العصر نفسه هو أشد عصور الكنيسة تعصبا وكراهية واستفزازا فلماذا؟ وماذا تريدون بهذا الوطن وماذا تريدون منه؟

هذا هو الوطن الجميل، فلماذا تريدون أن تفجروه، لقد أعطاكم الكثير، ونعمتم في ظله بأعلى مستويات الثراء والأمن، وتطاولتم عليه وعلى رموزه بما فيه الكفاية، وسلبتم دولته سلطاتها ومهابتها، وبسطتم ألسنتكم وأيديكم بالسوء، وتحدثت قيادات منكم مهددة بالاستشهاد وكأننا في حربٍ وسكتت السلطة، وسكت الشعب حماية للوطن، فهلا كففتم أيديكم وألسنتكم عنه، بلا شك أن الأمر مؤسف ومحزن للغاية فما كنا نتمنى أبدا أن نفتح هذه الصفحات السوداء من تاريخ الكنيسة في العصر الحديث، غير أننا مرغمين لذلك أمام هذا التجاوز الذى قابل المعروف والتسامح والكرم بالجحود ونكران الجميل، واستعراض العضلات والتحدى، ومن ثم أصبحت مصر بقيادتها ومؤسساتها وأبنائها مسلمين ومسيحيين على سواء في حاجة إلى ما يسمى برد الاعتبار في لغة القانون.

دولة الكنيسة.. أم كنيسة الدولة؟ (*)

رغم كل الحقائق التى يعترف بها المؤرخون والمفكرون حول الفتح العربى لمصر وإنقاذ أهلها من الأسر الرومانى وبعد أن ظلت مستعمرة من الرومان لمدة عشرة قرون وتم تحريرها من الاستعمار بالفتح الإسلامي، ومعه وبه عادت الحرية للناس وعادت كنائس النصارى إليهم، وعاد الأب بنيامين إلى كنيسته بعد أن كان مطاردا في الصحرا لمدة ١٣ عاما.

منذ ذلك الحين ومصر ينعم فيها النصارى والمسلمون بالأمن والأمان، ولم تكن هنالك تجاوزات أو اضطهادات، بل إن التاريخ يسجل لنا أن طفلين تسابقا وكان أحدهما ابن عمرو بن العاص والآخر ابن لقبطى من نصارى مصر، فسبق ابن القبطى ابن عمرو، فما كان من ابن عمرو بعد أن سبقه الصبي القبطى إلا أن ضربه وقال له: أتسبقنى وأنا ابن الأكرمين؟....ووصلت الواقعة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فاستدعى الرجل القبطى وولده كما استدعى عمرو بن العاص وولده وأمسك بدرته وأعطاها لابن القبطى ليضرب بها ابن عمرو قصاصا عادلا منه، ثم يقول لابن القبطى اضربه كما ضربك ثم أدرها على صلعة أبيه فما ضربك إلا بسلطانه، والتفت إلى عمرو ابن العاص ليقول قولته المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

الواقعة ليست الوحيدة في ذاكرة التاريخ ووعى النصارى والمسلمين معا، وإنما كتب التاريخ ومصادره تحتوى آلاف القصص التى تشهد بعدالة لم ينعم بعشرها النصارى حتى تحت حكم الذين يدينون بدينهم ويختلفون معهم في المذهب.

مصادر التاريخ تشهد أيضا أن عمرو بن العاص بعدما ضاق المسجد بالمصلين طلب من امرأة نصرانية أن تبيعه دارًا كانت لها بجوار المسجد ليضمها إلى المسجد على أن يشتري لها دارًا أخري بالمبلغ الذي تريده، وفى المكان الذى تريده، لكن المرأة رفضت فعرض عليها أضعاف ثمن بيتها، ولكنها صممت على الرفض فضم البيت إلى المسجد وأمر بوضع ثمنه في بيت المال باسمها تأخذه متى شاءت،لكن المرأة لم تسكت وصعّدت الأمر إلى عمر بن الخطاب الذى أرسل رسالة إلى والى مصر عمرو بن العاص وأمره في

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٧ – ١٠ – ٢٠١٠م.

تلك الرسالة أن يهدم المسجد وأن يعيد الدار للمرأة القبطية، وأن يبنيها من جديد كما كانت وأفضل مما كانت عليه، وأن يعوضها عن الأضرار المادية والأدبية التى لحقت بها، وأن يسترضيها لتعفو عنه، وختم الرسالة بالتحذير لعمرو بن العاص قائلا: والويل لك ياعمرو إن جاء إلى أحد شاكيا.

منذ ذلك الوقت ومساجد المسلمين وكنائس النصارى تؤدى للناس الخدمة الدينية وتمارس وظيفتها الروحية كمؤسسات ضمن النظام العام للدولة.

إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية وحدها دون غيرها من الكنائس تصر على أن الفتح الإسلامى كان احتلالا ولابد أن يزول، ومنذ سبعينات القرن الماضى وتحديدا بعد تولى الأنبا شنودة اختطفت الكنيسة الأرثوذكسية الإخوة النصارى، ولكى تتمدد في مساحة الوجدان المسيحى وحددت عملية تلقى المعلومات لتكون عن طريقها فقط، وعبر كهنتها وحدهم، ومن ثم اعتمدت مبدأ "الجيتو" وفرضت سياسة العزلة على الأتباع، ولكى تمسك بكل خيوط الحركة في العقل الجمعى للأقباط ربطت الخلاص الروحى برضى الكهنة وغضبهم، ومن ثم تحكمت حتى في مساحة السلوك الحركى لجموع المسيحيين وغرست في أبناء النصارى أنهم ضحايا الاحتلال العربى الذى جاء من صحراء العرب غازيا، ومن ثم تولد لديهم شعور بضرورة التحرر من هذا الغزو، ووجد الكهنة في هذا الادعاء بيئة خصبة دفعتهم لمزيد من السيطرة على وجدان رعاياهم، فراحوا يغذون روح العزلة ويمحورون طاقة النصارى ضد عدو مفترض، وتربت أجيال جديدة على هذا الفكر، ومن ثم تضاعف إحساسهم بأنهم ضحايا وكثرت دعاوى الاضطهاد، وسمعنا عويلا لم ينته بعد، فقد كان هناك من يهتف في الكنيسة مستنجدا بشارون ومن يستعدى الأجنبى على بلده ومن يطلب من وزير الخارجية الإسرائيلى أن يتدخل لحماية الأقباط، ومن يطلب أن يكون وطنه تحت الحماية الدولية.

وسكت الشعب المصرى وسكتت مؤسسات الدولة لاعتبارات كلها ترجع بالطبع لحماية السلم الاجتماعى بين أبناء الأمة، غير أن الكنيسة كلما طال السكوت كلما تمادى أبناؤها في الاستفزاز وصدرت التصريحات الصادمة من بعض كهنتها.

في هذا الإطار كانت تصريحات الأنبا بيشوى الرجل الثانى في تلك الكنيسة، ومن ثم كانت ردود الأفعال.

تصريحات بيشوى سبقتها احتقانات كثيرة بسبب احتجاز كاميليا شحاتة ومن قبلها وفاء قسطنطين وماري عبد الله وعبير ناجح ابراهيم وكريستين مصري قليني وماريان كامل عياد و تريزا ابراهيم.

ردود الكنيسة على هذا الاحتجاز اتسمت بالصلف والتجاهل وضربت عرض الحائط لا بالرأى العام وحده، وإنما أيضا برجاء رموز من الدولة في محاولة لحل المشكلة وكانت الإجابات مستفزة للغاية، الشعب سينسى كاميليا كما نسى وفاء قسطنطين؟. ولما سئل الأنبا شنودة عن مكان المحتجزين على شاشات التليفزيون كانت الإجابة "وانت مالك"، ولما قال المذيع: الرأى العام يريد أن يعرف، رد مكررا "وهم مالهم"

ولما اشتدت غضبة الرأى العام وبدأت المظاهرات ضد الكنيسة ورأسها تعم البلاد وبخاصة بعد تصريحات بيشوى تلك التى جاءت لتلفت الأنظار عن قضية كاميليا شحاتة وزميلاتها خرج علينا البابا شنودة في مقابلة بثتها قناة التلفزيون المصري، بناء على تعليمات من جهة سيادية، في محاولة لاحتواء الأزمة التي فجرتها تصريحات الأنبا بيشوي، بعد أن اعتبر الأقباط "أصل البلد" وأن المسلمين "ضيوف عليهم" والتي استتبعها بتصريحات تطعن في القرآن الكريم، حاول البابا شنودة الثالث، التهوين من تصريحات "الرجل الثاني" بالكنيسة، مبديًا شكوكه في أن يكون قد أدلى بها.

توقع الناس أن يهدأ الجو بعد اللقاء الأول للأنبا شنودة مع تليفزيون الدولة وأبدى فيه أسفه على تصريحات نائبه بيشوى، لكن الرجل فاجأنا بعد يومين بلقاء آخرعلى قناة الحياة أثار جدلا جديدا قال فيه: إنه لم يعتذر للمسلمين لأنه لم يخطئ، وإنما كان يهدئ الوضع، ثم وصف د. العوا ود. عمارة ومعهم الإعلام والصحافة بأنهم يحرضون على الفتنة، ومن يحرضون على الفتنة فهم ضد أمن البلد وأن السبب في هذا التحريض إنما هو انعدام المحبة، ولما سأله مقدم البرنامج ولماذا فقدنا المحبة؟ أجاب الرجل نحن من جانبنا لم نفعل شيئا ضد المحبة،

اللقاء كان مليئا بالمناورة والمراوغة والهروب من أصل المشكلة، والرجل يعتقد أن من ينتقده يكون ضد البلد، فكأنه هو البلد، وكأن على الناس أن يسكتوا على تجاوزات بيشوى ووصفه للمسلمين بأنهم ضيوف، وحديثه عن تحريف القرآن ثم لابد لهم أيضا أن يسكتوا عن حبس كاميليا ووفاء قسطنطين ميرى عبد الله وغيرهم، وإلا فهم يحرضون

وهم ضد الدولة. هو بهذا الفعل وهذه الدعوى يجعل من نفسه زعيما لدولة ويمارس دور الدولة فوق الدولة ويضيق صدره إذا انتقده أحد، ومن ثم كان وصفه للدكتور العوا والدكتور عمارة على أنهم يحرضون، هذا الوصف ينطوى على خداع وتدليس، فسر الغضب من الرجلين ليس التحريض على فتنة، كما يدعى، وإنما لأن الرجلين كشفا المصدر الحقيقى للفتنة، وأن ما قاله بيشوى عن القرآن قاله شنوده في كتابه المسيحية والقرآن المطبوع في مطبعة المجد بمحرم بك في الإسكندرية،وما قاله بيشوى عن كون المسلمين ضيوف ووافدين هونفسه ما قاله شنودة في مجلة مدارس الأحد بتاريخ ١ يناير ١٩٥١، وأن الأنبا شنودة في مجلة الإسبوع في حوار مع السيدة سناء السعيد يلوى عنق الآيات القرآنية لتشهد للعقائد المسيحية كما صنع بيشوى.

ومن ثم فالدكتور العوا والدكتور عمارة عالمان كلاهما حجة تفخر بهما مصر، ويعتز بهما العالم العربي والإسلامي، وتزهو مجتمعات العالم المتحضر أن البشرية تضم من أبنائها أمثال هذين الرجلين. وكلاهما قد حدد الداء ومصدر العلة ووضع النقاط على الحروف في تلك القضية الشائكة.

والملاحظ أن التعاون بين دولة شنودة وحكومة الدولة لن يكون بالقطع في صالح حكومة الدولة، وإنما هو تكريس لدولة شنودة وتواطؤ معها ومن ثم فلن يكون هذا التداخل لصالح الوطن، وإنما سيكرس مفهوم دولة الكنيسة، كما جاء بعبارات ذكية للغاية في اللقاء الذى تم، فالأنبا قد ذكر أن القساوسة إذا أساءوا وخرجوا على القانون فإنهم يحاكمون داخل الكنيسة أي إنهم لا يخضعون لقوانين حكومة الدولة، وإنما يخضعون لدولة الكنيسة بينما الشيوخ يحاسبون أمام محاكم الدولة إذا أخطأوا، ومن ثم فنحن أمام جهتين سياديتين:

– دولة الكنيسة ويخضع لها رعاياها وتحاكمهم وفق قوانينها هى ولا علاقة لهم بقوانين حكومة الدولة.

– الجهة السيادية الثانية هى حكومة الدولة ويخضع لها كل الشعب المصرى بما فيه الكنائس والطوائف المسيحية كلها البروتستانت والكاثوليك باستثناء الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها وأتباعها.

الفرق بين السيادتين أن سيادة حكومة شنودة على رعاياها مكتملة، بينما سيادة حكومة الدولة على رعاياها منقوصة بهذا الاستثناء الذى أخرج أبناء المذهب الأرثوذكسى من تحت سيادة حكومة الدولة.

محامى الكنيسة قد يرد بأن مؤسسات كثيرة لديها لوائح للثواب والعقاب الداخلى، وهذا كلام مفهوم، ولكن هذه اللوائح لأى مؤسسة تظل في إطار القانون العام للدولة ويمكن الاعتراض عليها كما يمكن نقضها، بينما قوانين الكنيسة ليست في إطار قوانين الدولة ولا تخضع لها لا من قريب ولا من بعيد، بل إن الكنيسة نفسها وعلى لسان رأسها الأنبا شنودة رفضت حكما قضائيا صدر من أعلى جهة في القضاء الإدارى وهو حكم المحكمة الإدارية العليا.

الأمر مربك ومحير ويشكل مأزقا للدولة لا للكنيسة، لأن الكنيسة تحرص بالطبع على تحقيق أكبر قدر من المكاسب لنفسها ولأتباعها، بينما تفرط حكومة الدولة في سلطانها وتسمح لمؤسسة يفترض أنها ضمن مؤسسات الدولة كلها أن تسلبها سلطانها وترفض الخضوع لرعايتها القانونية والدستورية وتعتقل وتحتجز وتسجن وتعاقب، وهذا أمر معيب ويشكل ازدواجية لا في السلطة وحدها وإنما في المعايير القانونية التى تخضع لها الأغلبية الساحقة

الأغرب من هذا أن الحكومة بدلا من أن تسترد حقها القانونى في إخضاع كل المؤسسات لسلطتها وسلطانها ومنها الكنيسة طبعا راحت الحكومة تبحث للكنيسة عن مخرج يسوغ هذا الخروج تحت دعوى التهدئة فأرسلت جهازها الإعلامى لدولة الكنيسة لتؤكد فيه الكنيسة قدرتها من جديد على هزيمة الحكومة وخداع الأغلبية الساحقة من شعبها والتى تشكل ٩٦% من مجموع السكان ومن ثم جاءت تصريحات الأنبا شنودة لتؤكد ذكاء الأنبا بيشوى وتدفع في الاتجاه بتكميم أفواه المسلمين وحتى الأكاديميين منهم في المستقبل حول الحديث عن الإنجيل بحجة ازدراء الأديان.

قراءة الأحداث الأخيرة تسفر عن مجموعة من الحقائق يمكن أن نجملها فيما يأتى:

توزيع الأدوار بين رجال الكنيسة والتنسيق بكفاءة بين الداخل وأقباط الخارج.

تطور دور المال الطائفي في دعم الكنيسة ماديًّا ومعنويًّا ودور الإعلام الطائفى أيضا، بينما تراجع دور إعلام الدولة في مواجهة الإعلام الطائفى.

دور رأس الكنيسة الأنبا شنودة في توجيه الأحداث وإدارة الأزمة في حين غاب دور الدولة بمؤسساتها بل جُيِّرت بعض المؤسسات لتكون في خدمة أهداف الكنيسة، ومن ثم تغولت الكنيسة مقابل انكماش الدولة.

ظهور أمبراطورية الأطماع بوضوح وتوظيف النصارى لتحقيق هذا الهدف وذلك باستعمال أقباط المهجر وسياسة الضغط والتخويف والتهويل.

العمل على اغتيال المعارضين معنويا عن طريق الإعلام، وذلك بتشويه السمعة واستعداء الدولة عليهم ونزع صفة الولاء والإخلاص للوطن عنهم.

غياب القانون في حماية الحدود بين الكنيسة والدولة فهنالك عشرات البلاغات تقدم بها محامون للتحقيق في جرائم اعتقال واحتجاز الكنيسة لمواطنين ومواطنات بغير وجه حق، وسكوت أجهزة الأمن على تجاوزات القساوسة والكيل بمكيالين في التعامل مع رجال الدين حيث يتم تمييز المسيحيين بالسكوت على ما يفعلون وعدم محاسبتهم بينما تشتد قبضة الدولة ضد علماء المسلمين.

الرهان على أصواتهم في مقابل الأغلبية المسلمة، يشكل مقامرة خاسرة محفوفة بالمخاطر، حيث يؤكد منتدى بيو التابع لمركز أبحاث الدين والحياة التابع للولايات المتحدة الأمريكية أن الأقليات الدينية تشكل ٥.٤% من الشعب المصري وهذا يعنى أن عدد النصارى باختلاف طوائفهم هو ٤.٣ مليون وهذه الأرقام تتوافق مع ما كشف عنه الفاتيكان هذا العام من أن عدد النصارى في مصر لا يتعدى ٤.٥ مليون مسيحي بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس، وعلى المستوى المذهبي فإن نصيب الأرثوذكس من هذا التعداد سيكون ٣ ملايين نصرانى أكثر من نصفهم أطفال دون السن القانونى للتصويت. ثم إن الانتخابات لا يجوز استعمال الدين فيها وإلا كان للأزهر أو للإخوان المسلمين الأكثرية الساحقة لأنهم يمثلون الأغلبية المسلمة.

المحاور الرئيسة في هذا الحوار أن الرجل يستغفل الدنيا كلها وعلى تليفزيون الحكومة، فهل يمكن أن تكون الحكومة شريكا له في هذا الغش؟.

والسؤال المحورى والذى لم تتم الإجابة عليه، إذا لم تكن أنت وكنيستك دولة داخل الدولة، فلماذا تحتجز مواطنين في كنيستك، وتفرض عليهم الاعتقال وتمنعهم من الظهور وتقيد حريتهم؟.

وإذا كان الإيمان الدينى مسألة قلبية ونحن أيضا نوافق على ذلك، لكن لماذا تمنع المحتجزات من أن يتحدثن بأنفسهن عن اختياراتهن الإيمانية لكل الناس، ويُفصحن عن دينهن حتى تنتهى العاصفة ويهدأ الرأي العام إن كنت حريصا على التهدئة؟.

إن كنت حريصا على التهدئة فلتعد الكنيسة لدورها ورسالتها في الخلاص الروحى، وأن يكف الكهنة عن العويل وبذر بذور الفرقة بين أبناء الشعب الواحد.

إن كنت حريصا على التهدئة فلتغلق باب الاختراق من الخارج وأن يكف نصارى المهجر عن الاستقواء بالخارج وتشويه الوطن واستعداء الآخرين عليه، وأن تكف أنت شخصيا عن ممارسة دور الدولة لا في داخل الدولة وإنما دولة فوق الدولة.

بقيت نقطة على حرف مضيئ، وهى أن قضية أمن مصر التى تتعلل بها، فنحن على يقين أن مصر محروسة بعين الله ورعايته، وأن في هذا البلد عيونا ساهرة ترقب الأحداث عن كثب، وبوعى يدرك أبعاد الخطر المحدق، ويعرف أطرافه وخيوطه وشباكه جيدا، كما يعرف الأصابع التى تحرك الأحداث خلف الكواليس المظلمة، وولاء هذه العيون الساهرة عندما يجد الجد لن يكون لغير الله ورسوله والوطن، وعلى الذين يراهنون على تقسيم الوطن أن يُريحوا أنفسهم، فمخطط التقسيم لن يتم، وسيموت قبل أن يولد، ولن يكون إلا أوهامًا في نفوس تنكرت لأفضال وطنها فباءت بوزر الخيانة وتبعتها لعنات أبناء هذا الوطن مسلمين ونصارى معا.

الفتنة الثقافية والفتنة الطائفية (*)

في غياب المنظومة الاجتماعية التي يفترض فيها ضبط المسار العام واحترام العقل والكيان الإنساني وحماية الفكر من توغل رأس المال وسيطرته على أقلام الكتاب وتوجيهه لهم، وفي غياب الإطار القانوني العام، أو السقف الاجتماعي الذي يحمي الكاتب من جور أصحاب النفوذ والسلطان الذين يملكون المال والقوة ولا يملكون معهما الضمير والخلق.. في ظل هذا الغياب تتعرض قيم المجتمع وأصوله وثوابته وعقول الناس وثقافتهم لحالة من التميع الخطر حيث تسود السخافات ويستبد الجهل بأصحابه.

ولأن حجم التنازلات في قيمنا الوطنية والإنسانية بدأ في التراجع منذ زمن وبشكل مخيف، ولأن النخب أضحت مشغولة بالشأن الخاص عن الشأن العام والمصلحة الذاتية عن المصلحة الجماعية، فإن الفتنة الطائفية الأخيرة أفرزت فتنة ثقافية سقط فيها من سقط،ونجح فيها بتفوق وامتياز كل من الدكتور محمد سليم العوا والدكتور محمد عمارة وغيرهما من الكُتَّاب الشرفاء الذين رفضوا الصمت والسكوت على جرائم ضد الحرية وضد الدستور والقانون وضد الدولة بكل مؤسساتها.

الفتنة الثقافية الأخيرة عكست حجم التناقض وأزمة الازدواجية التى تعيشها مؤسسات المجتمع المدنى وحقوق الإنسان ومعهم جوقة الصحافة الطائفية.

الحالة الثقافية في مصر قد أشاعت بيننا مفردات جديدة في الألفاظ والمصطلحات غطت على عقول أصحابها فعكست أصل القضية في تفكيرهم وتصوراتهم، فبدلا من مناقشة أسباب الظواهر ودوافعها وبواعثها، دار النقاش كله حول مظاهر العلة، ولم يتعرض من سقطوا في الفتنة الثقافية للأسباب الحقيقية في الفتنة الطائفية، ناقشوا ردود الأفعال ولم يناقشوا الأفعال ذاتها، فانقلبت الحقائق في أذهانهم وأصبح المجرم ضحية والضحية مجرما وفق رؤيتهم المقلوبة.

رأس المال الطائفي هنا بما له من علاقة بالصحافة والكُتَّاب والقنوات الفضائية كان له تأثيره في حجب الحقيقة، والتغاضى عن جناية الفاعل الأصلى، بينما سال المداد نقدا وتجريحا لرموز وقيم وقامات فكرية وثقافية تشكل دعائم للأمن القومي المصرى على

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٤ – ١٠ – ٢٠١٠م

المستوى الفكري والثقافى،وكان لأقلامها وكلماتها الأثر الأول في توضيح الحقائق ورد الاعتداء الفكرى والعقدى، ووقف التجاوزات المخلة بميزان العلاقة بين الدولة والكنيسة، الأمر الذى ساهم في تحجيم الفتنة الطائفية بعد أن أطلت برأسها في هذيان وصراخ يشبه فحيح الأفاعى في الليل البارد داخل الجحور المظلمة.

رأس المال الطائفي حين تمدد في المساحات الثقافية وفى الساحات الصحافية والفضائيات حولها إلى ميادين للسخافات والترهات والكلام البذئ، وخول لمن لا يحسنون كتابة جملة مفيدة واحدة أن يتناولوا كبار المفكرين بالنقد والتجريح، وأن ينزعوا منهم مؤهلاتهم العلمية التى شهدت بها ولها أعرق الجامعات والأكاديميات العلمية وساحات القضاء في العالم كله.

في الزمن الأغبر والمملوء بعبارات التزييف يتمطى الكوخ أمام القصر الشامخ ويقول: أنا الأعلى.

بين الذمم الخربة والضمائر المسجونة في سجن التحريف يعلو نهيق الحمير لينتقص من أقدار الرجال العظماء.

في قنوات رأس المال الطائفي الفضائية تمت اكتشافات عظيمة تفيدنا بأن الدكتور العوا (مش دكتور ولا حاجة ولا مفكر ولا شئ)

القنوات إياها ومعها الصحف على استعداد أيضا أن تعلمنا وتؤكد لنا بأننا لا نعيش على الأرض وأن السماء ليست فوقنا، وأن الكرة الأرضية محمولة على قرن ثور، وأن الرجل العظيم الذى إذا تحدث استمع له أكابر العلماء وأنصتوا هذا الرجل ليس دكتورا ولا مفكرا ولا حاجة.

وأن الدنيا كلها والعالم بأجمعه كان مغفلا ومخدوعا حين استمع لهذا الرجل وأصغى لكلماته واستفاد من قوله وكتاباته. حيث اكتشفت لنا تلك القنوات أن الرجل (مش دكتور ولا مفكر ولا حاجة).

أرأيتم كيف بلغ السخف والاستخفاف بالعقول مداه ممن جاءت بهم جيوبهم المملوءة بأموال الشعب المسلم وليست كفاءاتهم فألغت عقولهم ليمسكوا بدفة الإعلام ويجرحون رموز الفكر الأصيل والثقافة الحرة الشريفة وهم يلوحون بدفاتر الشيكات؟.

تلك هي الفتنة الثقافية التى مرت وتمر بها مصر خلال فترة الاحتقان السابقة والتي لم نزل نعيش تداعياتها.

وفى مثل هذا الجو الملوث ثقافة وأخلاقا،تتحول الثقافة إلى سوق وتاجر وسمسار ويصبح كل شئ قابلا للبيع والشراء والمساومة، ومن ثم تهتز ثوابت المجتمع وتضطرب هويته الفكرية وأصوله العقدية ويتزلزل فيه كل شئ وتتحول القيم إلى بضاعات في الأسواق.

في هذه الحالة تصبح حاجة المجتمع إلى الفكر الأصيل والمفكرين الشرفاء كحاجته إلى الماء والهواء، فهم البلسم الذى يداوى الجراح الثقافية التى تحدثها خربشات أدعياء الثقافة وصبيان رأس المال في سوق الصحافة والسخافات.

ما يميز المجتمعات المتحضرة أن لأهل الفكر والثقافة فيه مكانة القلب والأعصاب، فبهم تصحح الأفكار وعليهم تقوم حركة الدفع الحضارى وفى ذاكرتهم يكمن تراث الأمة، وبعيونهم يرقب المجتمع خطوط مستقبله، وعلى منوال أفكارهم تنسج الخيوط الحية والمتماسكة لنسيج المجتمع. فهم عقل المجتمع وضميره الحى وعيونه المبصرة ومداد أقلامهم أعظم وأغلى من كل مخزون البترول في كل بلاد العروبة، وكلماتهم أيضا أغلى من رصيد الذهب في كل خزائن الشرق والغرب.

الكلمة تنطلق من أفواههم وكأنها حبات الجمان منظومة في عقدها، بريقها وبرقها يحمل نورا ونارا، نورا يهدى الحيارى ويظهر الحقائق ويجلى الغوامض، ونارا تحرق صدأ التخلف وتقض مضاجع الظالم، وترفع عن كاهل المظلوم ظلامته، يسمعها المرء معها أو يقرأها فتغير فكرا وتصيغ وجدانا وتكوّن رأيا وتحدد موقفا وتشكل ضغطا.

فهم يؤمنون أن:

الموت أشرف من عيش بلا شرف والقبر أكرم من قصر بلا كرم

وهم يؤمنون أن القلم الحر خير له أن يقصف من أن يكتب لظالم تأييدا.

وأن يجف مداده أو يسكب المداد على الأرض خير من أن يكتب تبريرا وتزويرا

وأن يرتجف المرء بردا خير له من أن يستدفئ بظلال الأصنام.

الدكتور العوا والدكتورعمارة كلاهما قد حدد الداء ومصدر العلة ووضع النقاط على الحروف في تلك القضية الشائكة. ومشكلة الرجلين أن أقلامهما ليست للبيع، وقد نجحا بمهارة وبامتياز في انتزاع السكين من يد الجانى البلطجى قبل أن تجرى على عنق الضحية.

قلم الرجلين أثبت بكفاءة واقتدار أن الكلمة الشريفة لا تقتلها ألف قذيفة، ولا تخاف تحريض الإعلام الطائفي، ولا الاستقواء بالخارج، وأنها قادرة على أن ترد عن الوطن غارات الزور والبهتان من القول، وأن تغسل الساحة الثقافية من جناية مفردات مفخخة تحض على التعصب والكراهية من عينة " الغزو العربى، والاحتلال الإسلامي،والغرباء والضيوف،وتحرير الوطن منهم " وما إلى ذلك من المفردات التى لوثت أفكار جزء من أجيال هذا الوطن حين عبثت بها عقول لها في الفتنة سوابق سلفت، وكانت تحلم يوما ما في عالم الوهم بحلم الامبراطورية، لكن أصوات الحق وأقلامه كانت جاهزة لتلقف ما يأفكون.

أثبت الدور العظيم الذى قام به كل من العوا وعمارة، ومعهما غيرهما أنهم حماة للوطن ولقيمه وثوابته وأصوله الفكرية والعقدية في الساحة الثقافية والفكرية..

وتعى الذاكرة الثقافية للمصريين الشرفاء أنه في عز عين الحرب الإسرائيلية على غزة نشر مقال لكاتب عربى مهزوم من كتاب الخيانة والعار يشيد بتحضرالحرب الإسرائيلية ويصف العدوان بأنه حرب حضارية ضد الهمج والرعاع في غزة،

شيمون بيريز هب واقفا بعدما فرغ من قراءة المقال ليقول لجلسائه، هذا الكاتب يستحق أعلى وسام في إسرائيل.

وإذا كان هذا تقدير شيمون بيريز لكاتب الخيانة والعار، فإن مصر بشعبها وقيادتها أولى بالوفاء وذكر الجميل، ومن ثم فالدكتور العوا والدكتورعمارة ومعهما غيرهما يستحقون أعلى وسام في مصر، فبأقلامهما وكتاباتهما وأحاديثهما انطفأ حريق كان يمكن أن يكون أخطر على مصر وأكبر في تأثيره من حريق القاهرة الكبرى قبيل ثورة ٢٣ يوليو.

كلمات الرجلين ألجمت تيارا غاضبا لدينه ووطنه كان يمكن أن يشكل عاصفة تثأر لدينها ووطنها ووطنيتها فتحول مصر بقراها ومدنها إلى إعصار ونار.

كلمات الرجلين أشعرت شباب الأمة أن فيها من يدافع عن ثوابتها، فكف يده ولسانه عن رد الإهانات التى لحقت بدينه وبلده ومؤسسات وطنه، واكتفى بمظاهرات سلمية يطالب فيها بتحرير الأسيرات دون سند من القانون في أقبية الكنائس وسجونها.

كلمات الرجلين بعثت برسالة إلى جيل بأكمله أن مصر لا زالت عفية، وأنها آمنة في فكرها وثقافتها، وأن ثقافة العبث التى شاعت يمكن أن تُكنس من عقول شبابنا وإن شاخت عليها عقول، ويمكن أن يُخنَس شيطانها إذا جد الجد، وأن سكوت الشعب وسكونه عن طيبة وتسامح لا عن ضعف ومهانة كما يتصور البعض.

ثقافة العبث بمفرداتها المسمومة الغزو العربى، البدو، القادمون من الصحراء، احتلال الوطن، أقباط في الأسر، الاستشهاد، الضيوف، غزاة، اختطاف، اغتصاب ثقافة العبث هذه جنايتها يمكن أن تشكل كارثة، وانتزاع فتيلها يحتاج لمبضع جراح ماهر يحمى البيت المصرى الكبير من انفجار يأكل الأخضر واليابس.

وقد فعلها العوا وعمارة والأخوان سلطان ورفيق حبيب وجمال أسعد عبد الملاك وغيرهم. فهم الذين يحمون أمن مصر القومى على مستوى الثقافة والفكر من تطاول كبار كهنة الكنيسة وشغب صغار القساوسة من أتباعهم.

العيون الساهرة اليقظانة في الجهاز العصبي لأمن مصر القومي، والتى تعرف أبعاد اللعبة في ثقافة العبث بأمن الوطن وتعرف من وراءها ومن يمولها ومن يمسك بخيوطها السوداء ويحرك رموزها ورؤوسها من خلف الكواليس، هذه العيون الساهرة كان يقابلها عقول ساهرة يقظانة ونيرة، تدرك ببصيرة إيمانها خطورة الفتنة وتقتل على الفور جراثيمها في المهد قبل أن تتكاثر لتأكل الجسد المصري بظن خائب أنه في أضعف حالاته، وأن الفرصة سانحة للضربة القاضية.

ظن السوء بالوطن هذا مني بضربة قاصمة كشفت أبعاد اللعبة وكشفت كهنتها في الساحات الدينية والثقافية والسياسية، وكشفت حجم المؤثرات التى يستخدمها من يريد إشاعة الفوضى في وطن ظن المتربصون به أنه في غيبوبة عما يدبر له، فإذا بهذا الوطن يصحو كالمارد وكالطود الأشم الشامخ ليتصدى للفتنة بعقول المخلصين من مفكريه ومثقفيه. وبذلك فقد قطعت الطريق وردت كيد الطائفية التي ما برحت تخطط وتدبر.

كتابات المثقفين الشرفاء العوا وعمارة وطارق البشرى ورفيق حبيب وكمال زاخر، ونادية مصطفى وسيف الدين عبد الفتاح وسمير مرقص وحسن أبو طالب وهبة رؤوف عزت وفاروق جويدة والقاعود ومحمد عوض وعبد الحليم عويس والأخوين محمود وجمال سلطان وكمال غبريال وجمال أسعد وغيرهم، تشكل عقل المجتمع وضميره الحى وعيونه المبصرة، فهم نجوم في سماء المعرفة، بأفكارهم تستضئ العقول وتهتدى القلوب، تتجمل العيون برؤيتهم، ولكن لا تلامسهم يد، ولا تطالهم أو تنال منهم سفاهة الصغار، وإن ملكوا صحفا وقنوات فضائية، وحتى لو ملكوا خزائن قارون.

إنهم يشكلون السند الحضارى لقيم الأمة وثوابتها وأصولها الفكرية والعقدية، وهم الذاكرة الحية الواعية والحافظة لقيم المجتمع وأخلاقه، تتفق معهم أو تختلف فهذا شأنك، ولكنك لا تملك إلا أن تحترمهم، وهم بالنسبة لمصر كالنيل وكقناة السويس وعلى الذين يشوهونهم أو يكرهونهم أن يجففوا مياه النيل أو أن يغلقوا قناة السويس.

كلماتهم كانت بمثابة الأشعة التى كشفت الورم الطائفي المتضخم في جسد الوطن فأزاحت النقاب وكشفت العلة وأثبتت أن طبطبة المجاملات تحدث خدرا مسكنا لكنها لا تستأصل الداء.

بينات الرجلين "العوا وعمارة" المدعمة بالوثائق والتواريخ أثبتت أن ذاكرة مصر لم تصب بالزهايمر كما يتصور البعض، وأنها لن تنسى أبنائها وبناتها كما يدعى البعض أنها نسيت من قبل.

روعة الرجلين أنهما مستوعبان لحجم مصر دورا ورسالة وتاريخا وحضارة، ومن ثم فإن أحدا منهما لم ولن تطاوعه وطنيته أن يسكت حيث يجب الكلام، ولهذا كان اختيار توقيت ردود الأفعال، لا لتحدث فتنة وإنما لتكسر السكين قبل أن تجرى على عنق الضحية.

القضية إذن ليست قضية فتنة طائفية كما يروج البعض، وإنما هي قضية وطن أعطى ووفِّى وزاد ثم هو يهان من بعض أبنائه.

قضية هوية فكرية وعقدية لأغلبية مسلمة تتعرض لعدوان فج وغير مبرر، ومن ثم كان حديث الرجلين رد فعل لاستفزازات كبار الكهنة وصبيانهم، والقيادة السياسية وبعض الجهات السيادية تعرف ذلك جيدا، ولن يغيب عن وعيها وإدراكها حاجة الوطن

وحاجة أمنه القومى في تلك اللحظة إلى أن يقول الفكر كلمته، لا سجالا وإنما بيان للحقيقة وتوضيح للبس وكشف لتدليس ورد لاعتبار وطن قدم لأبنائه الخير كله ولم يأخذ في مقابله الولاء.

رد الاعتبار هنا كان الوطن في حاجة إليه، لا بقرار سيادى، ولا بحماس يشتعل بين الجماهير فيخرج عن السيطرة ويدمر ويخرب، وإنما بفكر مضئ ومشرق ومستنير، يضع النقاط على الحروف ويرد المعتدى المتجاوز في حق الشعب والوطن دولة وسيادة ومؤسسات إلى نقطة العدل المفقودة في علاقة الكنيسة بالدولة ومؤسساتها، ليعتدل ميزان المواطنة بين أبناء مصر مسلمين ومسيحيين، وهذا أيضا ما دعى إليه وطالب به ورddه كل المفكرين الأقباط من أمثال جمال أسعد عبد الملاك ورفيق حبيب وغيرهم ممن انتصرت وطنيتهم ولم يعبأوا بوعيد الحرمان والطرد، وأثبتوا بحق أنهم ليسوا سواء.

الأحداث الأخيرة أثبتت أن مصر تعيش في وجدان أبنائها حية نابضة مهما اشتدت المحن وتنوعت النوائب والخطوب.

الاحتقانات الأخيرة كما يسميها البعض أظهرت أن أقلام الأحرار من كبار المثقفين المصريين مسلمين ومسيحيين معا ليست معروضة للبيع مهما كان إغراء المال الطائفي وبريقه، ومهما امتلأت الساحة الثقافية بالسوق والتاجر والسمسار، ومهما برع المخرجون في فيلم توزيع الأدوار واختبارات القوة وردود الأفعال.

الاحتقانات الأخيرة أثبتت أيضا أن مصر بقلبها الكبير وتسامح أبنائها ستظل وطنا للجميع مسلمين ومسيحيين، ولن تكون دارفور أخرى كما توعد البعض.

وأن الذين نفخوا وينفخون في الكير الطائفي هم أول من تحترق بالنار أصابعهم.

وليتذكر الجميع: أن لا أحد فوق القانون مهما جنح به الخيال، أو سرح به الوهم بعيدا.

المفكرون الكبار حين كتبوا وتكلموا وعلى رأسهم العوا وعمارة، كتبوا لمصر ومن أجل مصر وتعرضوا لابتزازات الإعلام الطائفى واتهموا بإثارة الفتنة في حين أنهم هم الذين نزعوا فتيلها.

ولعيون مصر ومن أجلها تحملوا وصبروا وصمدوا لأنهم بحق أبناء مصر وليسوا ضيوفا فيها أو غرباء عنها.

يقال والعهدة على الراوي من أهل الدراية والخبرة بشؤون تشويه السمعة:(أن عوالم شارع محمد على وعماد الدين عندما يستأجرهن أحد لتشويه سمعة خصم شريف، فإنهن يدرسن حياة هذا الخصم ويتعرفن على خصائصه ومواهبه وملكاته ليخترن له كذبة مساوية وإشاعة مقبولة.

ترى هل كان عوالم شارع محمد علي أذكى من قنوات وصحافة رأس المال الطائفي؟.

مصاب الوطن وقراءة البعد الغائب (*)

المصاب الجلل الذي جرح قلب الوطن وأسال في شوارع الإسكندرية دماء أبنائه مسلمين ومسيحيين بعمل إرهابي خسيس في الإسبوع الماضى، يجعلنا نبدأ بتقديم العزاء لأهل الضحايا الذين هم أهلنا جميعا في الوطن كله، وأن نعتذر عن الحديث في سلسلة الهجرة التى كنا نتحدث فيها لنعيد قراءة البعد الغائب في ذلك المصاب.

مهمة رجال الأمن والقانون هي البحث عن الفاعل الذي نفذ، وتقديمه للمحاكمة العادلة والقبض على من ساعده ومن أمده ومن وراءه، بينما مهمة رجال الفكر في مثل تلك الظروف هى بحث أسباب الظاهرة والمناخ الذى أوجدها.

وإذا كان البكاء على اللبن المسكوب لا فائدة منه كما يقال في المثل، إلا أن المسكوب هنا ليس لبنًا وإنما هو دماء بشرية بريئة طالتها أيد التعصب الخسيس والإرهاب الملعون.

ومن ثم فالأمر جد لا هزل فيه، وخطر لا لعب فيه، ونعرف أن جهودا أمنية مضنية تبذل الآن في البحث عن المجرمين والأخذ بثأر الوطن ممن قتلوا أبناءه في صلواتهم، لكن جهودا فكرية وثقافية أكبر يجب أن تبذل في تناول القضايا الحيوية المتصلة بأمن الوطن في الحاضر وتأمين مستقبله من الانفلات والفتن، وتجنب ثقافة العبث والشحن الطائفي والكراهية، وكلها ممارسات ساعدت وتساعد على وجود مناخ الفتنة والفرص المواتية للمتربصين بالوطن لينفسوا عن حقدهم وينفذوا خططهم.

ويفترض في كل منا وفي هذا الظرف بالذات أن يتجرد من أهوائه ومطامعه وأن تكون الدماء التى سالت في أحداث الإسكندرية قد طهرت نفوسنا من الكبرياء وطموحات الزعامات الشخصية، لتجعل من كبرياء الوطن الجريح مظلة تجمعنا تحت رايته وتذيب ما كان من خطايا الماضى، وما تم من شحن عقول الأجيال الجديدة خلال الأربعين سنة الماضية بسخافات معروفة ومتداولة جرت على ألسنة الكثيرين في الداخل والخارج تتحدث عن اضطهاد موهوم واغتصاب واحتلال وغير ذلك من ثقافة الكراهية والعبث، وما يتبعها من سخافات بالطبع ليس هذا مجال ذكرها اليوم.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٦ – ١ – ٢٠١١م

في مثل تلك الظروف يجب أن نتحامل جميعا على جراحنا ونعلو على كل توابع وآثار الفقد والحزن، وأن نعي خطورة المرحلة القادمة، وأن نساعد على تنظيف جراح الوطن قبل تضميده لتكون المعالجة على أسس صحيحة، وحتى لا تكون هنالك فرصة أخرى لجراثيم الإرهاب لتنمو وتتكاثر.

تحقيق ذلك يقتضى وقفة صادقة مع الذات ولا أقول مع الذات والآخر؛ لأن مكونات هذا الوطن ذات واحدة وإن اختلفت عقائدها، ومن ثم يجب ألا يكون له إلا قيادة واحدة ولا يحكمه إلا قانون واحد، الوقفة مع الذات هنا تتطلب تحقيق شروط وانتفاء موانع كما يقولون.

أما الشروط ففي مقدمتها تحقيق أعلى قدر من الصدق والموضوعية مع النفس.

أما انتفاء الموانع فأولها ترك المراوغات والتخلى عن مواهب الخداع والكلام المعسول والحديث عن مصطلحات يقصد منها عكس معناها.

فكثيرون هم من يتحدثون عن المحبة وهم يبثون الكراهية، ويتحدثون عن الوحدة وهم يقصدون الانفصال، ويملأ الدنيا بحديث رائع عن الوطن بينما أفعالهم تحض على تمزيق وحدته.

الحد الأدنى في حديث المكاشفة يتطلب الوعي بأن الذات المصرية واحدة في مكوناتها النفسية والخلقية والبيولوجية، وأن الطبيعة الاجتماعية والبيولوجية للإنسان تشكل جهازا غاية في الوحدة، ومن ثم فلا فرق بين إنسان وإنسان، بصرف النظر عن دينه والبيئة التى نشأ فيها، في الصعيد أو في الأسكندرية، في الشمال أو في الجنوب، وإذا كان الأمر كذلك فمن المهم أن يحدث هذا التقارب على مستوى الأفكار في الإنسان ذاته، وأخطر ما يهدد الإنسان أو الجماعة ويعزلها هو الشعور بالاكتفاء الذاتي فكريا، وعدم الرغبة في قراءة أخيه والتعرف عليه، وهو شعور خطير ومكلف، قد يؤدي للتقوقع على الذات، أو للصدام مع الآخر والخروج عليه، ما دام سوء الفهم وسوء الظن هو سيد الموقف.

حتى الآن وعلى مدى ستة أيام تم تناول الموضوع بكثير من الفوضى على يد إعلاميين ومتثاقفين أشارت إليها وحذرت منها مقالات في جريدة المصريون ببراعة.

العدوان الإرهابي الغاشم كشف عورات الثقافة السائدة لدى النخب التى تولت معالجة القضية، فبدا التسطيح والتمييع والالتفاف حول الحقائق وترك الأسباب الحقيقية التى أدت بنا إلى هذه الحالة.

إعلامنا الهمام بدلا من أن يستدعي على عجل عقلاء الأمة وكبار مفكريها استدعى المطربين والفنانين والفنانات وتحولت القضية الوطنية التى سالت فيها دماء بريئة إلى جزء من مسرحية هزلية أبدى فيها الفنان عادل إمام رأيه وكذلك فعل غيره من الفنانين، وتحولت المسألة إلى وصلة فنية من النوع الهابط مارس فيها البعض هوايته في البكاء على طريقة التمثيل في الدراما الهابطة.

في إعلامنا الهمام أيضا تمت اكتشافات مهمة على أيدى الفنانين المحترمين ظهر منها أن التدين والالتزام والمصليات الصغيرة مع عدم وجود قانون موحد هو سبب كل المشكلة، ومن ثم فالحل سهل وميسور، صدور قانون موحد لدور العبادة وترك التدين والالتزام وإغلاق الزوايا الصغيرة، ويجب أيضا ألا يتحدث في الإسلام ويدعو إليه إلا من يرضى عنهم عزت العلايلى وعادل إمام، ولا أدرى أين وكيف تكون الاختبارات لمن يريد أن يمارس واجب الدعوة إلى الله وأين تكون، في نقابة السينمائيين أو في مدرسة المشاغبين أو في مقر الواد سيد الشغال أو في مهرجان كان؟. (شك من المصنف في معرفة مكان الاختبار).

من المسلمات التى لا تحتاج لتأكيد أن مصر لها رئيس واحد، ومن الضروري حتى لا يتكرر ما حدث أن تبسط الدولة يدها على كل مؤسساتها بما فيها الكنيسة والمسجد، وأن يخضع للقانون كل الرؤوس وكل الرموز، وألا يكون هنالك استثناء لجهة أو لرأس أو لرمز وهذا هو مقتضى العدالة التى يتساوى في ظلها المسلم والمسيحي.

في الأحداث الأخيرة تكرس مفهوم سلطة الكنيسة، وبدلا من توجيه واجب العزاء لرئيس الدولة باعتباره المسؤول الأول عن رعاية هذا الشعب، توجهت الوفود للأنبا شنودة، وبدلا من الذهاب إلى بيوت أسر الضحايا حدث نفس الخطأ وتوجهت الوفود إلى الكنيسة.

قد يرد على هذا الكلام بأن الرئيس يوفد مندوبين لينوبوا عنه في تقديم العزاء في بعض حالات الوفاة.

ونقول نعم، واحد من واجباته مواساة أهل الفقيد من أبناء شعبه ولا مانع أبدا من أن يواسى الأخ إخوانه، لكن الأمر هنا مختلف وملتبس وحوله كلام كثير، وتحدثت جهات مختلفة وكثيرة عن ممارسة الكنيسة لدور الدولة، وحذرت من مغبة هذا الأمر، ومن ثم فقد كان من المتوجب أن يتوجه الجميع بما فيهم الأزهر والكنيسة لتقديم واجب العزاء لرئيس مصر حيث المصاب مصاب مصر والجريمة وقعت على أهل مصر كلهم.

خطورة شعور البعض بالتمييز السلبي يقوض ثقة المواطن في مؤسسات دولته، ومن ثم يبحث عن مظلة أخرى تشكل في العقل الجمعى هوية بديلة لا تدين بالولاء للوطن، وإنما تدين بالولاء للجهة التى تدافع عنها وتتبنى قضاياها، ومن ثم تحدث ازدواجية السلطة والسلطان.

هذه الخطورة بدت واضحة في الأزمة الأخيرة بين الكنيسة وسلطات الدولة في أحداث العمرانية وتكررت بعد الهجوم على كنيسة القديسين.

في أحداث العمرانية استعملت قنابل مولوتوف واعتدى على عدد من لواءات الشرطة وكانت هناك محاولات لاحتجاز المحافظ وأخذه رهينة وتم تحطيم واجهات المحافظة وبعض المحلات، والنتيجة وعد من البابا بالإفراج عن كل المحتجزين على ذمة تلك القضية، وكان له ما أراد دون الكشف حتى عن الوضع القانونى لهؤلاء.

هنا ظهر التمييز السلبي الذي يقوض ثقة المواطن في مفهوم العدالة ومؤسسة القضاء ويجعل ترسانة القوانين بما فيها قانون الطوارئ مجرد حبر على ورق.

بعد اجتماع الوفود المعزية بالأنبا شنودة وخروج الوفد الذي جاء ليؤدي واجب العزاء حدثت محاولة الاعتداء على الإمام الأكبر وتفوه بعض الحاضرين بكلمات بذيئة ولم يكبح أحد من الكهنة جماح الفاعلين، بعض أهل الخبرة بشؤون الكنيسة فسر ما حدث بأنه توزيع أدوار، لكن الإمام الأكبر رفض هذا الكلام، البعض الآخر فسر هذا الأمر على أنه انفعال وغضب " لكن أحدا لم يكلف نفسه بالاعتذار لرموز الدولة ولا لشيخ الأزهر باعتباره رمزا لأكبر مؤسسة إسلامية في مصر، ورمزا لمليار ومائتى مليون مسلم على وجه الأرض.

جهات سيادية أغضبها هذا التصرف وعندما سألت الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر عما حدث رد الرجل بكبرياء العلماء وسعة قلوبهم وعزة التسامح

في أخلاقهم وتربيتهم فقال " هم مجموعة من الشباب وعلينا أن نتحملهم " بينما راوغ آخرون وهربوا من مجرد الاعتذار وادعوا بأنه تصرف من جهة مندسة خرجت على النص.

في الجانب الآخر وبطريقة فجة طالب الحبر الأعظم في الفاتيكان بنديكت السادس عشر بالتدخل لحماية المسيسحيين في مصر، بينما لم نسمع له صوتا حول إبادة ملايين الأطفال والنساء في العراق وفي فلسطين وفي أفغانستان عندما قامت دول تحت رعايته الدينية بالعدوان وبتدمير تلك البلاد، ولم نسمع منه إدانة للتطرف الصهيوني الذي لا يكف عن العدوان كل يوم على شعب فلسطين بما فيه من المسيحيين ولم نسمع أن بابا الفاتيكان طلب حمايتهم من اليمين الصهيوني الذى هو سبب لكل حالات العنف في المنطقة بأسرها.

نغمة الحبر الأعظم في الفاتيكان ليست جديدة وإنما هي صدى لادعاءات وشكاوى مستمرة عن الاضطهاد وإصرار على تشويه الوطن في الخارج يقوم به أقباط المهجر به يتاجرون ومنه يتكسبون.

بعض دوائر المحللين رأت أن حادث الإسكندرية سيكون تتويجا لكثير من حالات الضغط على الدولة وابتزاز النظام وقد بدأت بوادر ذلك في اجتماع مجلس الشورى حين قام عضو معروف بهوايته في الإثارة واستعمال المؤثرات الصوتية، لكن تصريحات لكبار رجال الدولة ردت عليه ومنهم رئيس الوزراء السابق عاطف صدقى ود. مفيد شهاب وزير الدولة لشؤون مجلس الشعب حيث صرح الرجلان بأن عدد الكنائس التى بنيت في عصر الرئيس حسنى مبارك تفوق عدد الكنائس التى بنيت في كل عصور المسيحيين منذ الخديوي إسماعيل، هذه الواقعة نهديها للحبر الأعظم ليتعرف على عدد كنائس المسيحيين في مصر.

نهديه أيضا ونضع بين يديه بيانا أصدرته الحكومة المصرية على لسان وزيرة القوى العاملة في جريدة الأهرام بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠٠٧م وقد أشرنا إليه من قبل في مقال سابق، للرد على الاتهامات ومواجهة سيل الأكاذيب التى تتحدث عن مظالم الأقباط وهموهم بحقائق الأرقام والإحصاءات التى لا تكذب. حيث أكدت الوزيرة أن الأقباط الذين لا تزيد نسبتهم حسب آخر الإحصاءات الرسمية المعلنة عن ٦% من مجموع

السكان يسيطرون على مايزيد على ثلث الثروة في مصر، إضافة إلى كبريات الشركات كالسيارت وشركات البناء وكبريات المقاولات العامة والاتصالات والاستشارات وغيرها، وقالت الوزيرة إن تقرير مجلة فوركس في عددها الأخير أشار إلى وجود ثلاثة أقباط مصريين ضمن عشرة مليارديرات في منطقتنا ليس بينهم مسلم واحد.

وهذه الإحصائيات قد أشرنا إليها من قبل غير أنهم لا يكفون عن الشكوى ولذلك نذكرهم دائما أن نسبتهم في عدد السكان لا تزيد عن ٦% موزعين على الطوائف المختلفة، البروتستانت والكاثوليك والأرثوذكس حسب إحصائيات معهد "بيبو" إلا أنهم يسيطرون في النقابات على ٢٥% من المهن الممتازة كالطب والصيدلة والهندسة وغيرها، كما تشير بعض الإحصاءات إلى أن نصيب الأقباط في الإيداعات المالية يصل إلى نسبة ٤٠ % من مجموع الإيداعات. وأن لهم ٢٢ % من الشركات التى تأسست بين عامي ١٩٧٤م – ١٩٩٥م، ويمتلكون ٢٠% من شركات المقاولات في مصر، و٥٠% من المكاتب الاستشارية، و٦٠% من الصيدليات، و٤٥% من العيادات الطبية الخاصة، و٣٥% من عضوية غرف التجارة، و٦٠% من عضوية "منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين، و٢٠% من رجال الأعمال المصريين، و٢٠% من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادى بمصر، وأكثر من ٢٠ % من المستثمرين في مدينتى السادات والعاشر من رمضان، وأكثر من ٢٠% من وظائف وزارة المالية، و ٢٥% من المهن الممتازة مثل الصيادلة والأطباء والمهندسين والمحامين والبيطريين، ومعنى ذلك أن ٦ % من سكان مصر من النصارى يملكون ما يتراوح بين ٣٠ –٤٠ % من ثروة مصر وامتيازاتها.

أما قضية الكنائس التي يتحدثون عنها وجعلوا منها فضيحة في كل مجلس ليشوهوا بها المجتمع المصرى وطنا وقيادة ودولة ومؤسسات حتى هذه قد حققوا فيها ما لم يتحقق لهم طوال التاريخ كله، والإحصاءات تؤكد صدق ما نقول، ويمكن للقارئ أن يقارن بين النسبتين؛ فنسبة النصارى في مصر ٦% ورغم ذلك هناك كنيسة لكل ١٢٥٠ مسيحي تقريبا، أما بالنسبة لمساجد المسلمين الذين يشكلون ٩٤% من مجموع السكان في مصر فهناك مسجد لكل ١٢٢٧ مسلم.

هذا التقرير يفخر به كل مصري مسلم ومسيحي لأن لنا وطنا يعطى ويمنح ولا يفرق بين أبنائه ولو كانوا أقلية.

فإذا كانت هذه هي مصر بتسامحها وعظمة أبنائها وحالة المسيحيين فيها، فهل حالة المسلمين في الدول التى تقع تحت رعايتك الدينية يا قداسة الحبر الأعظم لهم معشار تلك الحقوق؟

نُذكِّر أيضا بابا الفاتيكان بمقولة الأنبا شنودة عن بلده "بأن مصر وطن لا نعيش فيه، وإنما هو وطن يعيش فينا".

فإذا كانت هذه هي مصر بتسامحها وعظمة أبنائها وحالة المسيحيين فيها، فما هو المبرر للاعتداء على رموز الدولة ووزرائها ومفتيها وشيخ أزهرها وهم يقدمون واجب العزاء؟

وهل هذا الأمر لا يستحق عناية واحد من الكهنة ليخرج معتذرا للناس عما بدا من اعتداء على تلك الرموز؟

يتردد في بعض الأوساط أن حادث الإسكندرية سيكون وسيلة جديدة للضغط والابتزاز، وقد ظهرت بوادره في اجتماع مجلس الشورى من أحد الأعضاء ونكاد نجزم بالنفي لأنه يفترض فينا جميعا أننا تعلمنا الدرس وأن مصر وطن لنا جميعا وليس لها إلا رئيس واحد وأن آلام الفقد علمتنا أن حياة ووجود كل منا مرتبط بحياة أخيه ووجوده وأن الشعور بالتمييز السلبي لا يجلب لنا غير الخراب والدماء والعلقم. وأن اللعب في تغيير الهوية يشكل نوعا من انتحار الذات، ثم هو خيانة لمفهوم الوطنية وخروج على قواعد المواطنة وزراعة صناعية لأشجار الفتنة الطائفية المرة التى لم تجن منها دول كثيرة غير المرار والعلقم.

أسأل الله أن تكون أحزان الاسكندرية هي آخر أحزان الوطن.

ولذلك نقول لبابا الفاتيكان ولكل من يراهن على هذه النقطة، من فضلك كف لسانك عنا، ودعنا وشأننا في مصر، فمصر وطن يعيش فينا حتى قبل أن نعيش فيه.

أحداث ماسبيرو.. والثقب الأسود (*)

في كل الجرائم المتعارف عليها تكون مهمة رجال الأمن والقانون هي البحث عن الفاعل الذي نفذ، وتقديمه للمحاكمة العادلة والقبض على من ساعده ومن أمده ومن وراءه.

وبعض الجرائم التى تتكرر وتتحول إلى ظاهرة تنضم فيها جهود رجال الفكر والثقافة والتحليل العلمي إلى جهود رجال الأمن ورجال القانون للبحث في مثل تلك الظروف عن أسباب الظاهرة والمناخ الذى أوجدها.

ونعرف أن جهودا أمنية مضنية تبذل الآن في البحث عن المجرمين والأخذ بثأر الوطن ممن قتلوا أبناءه جنودا ومتظاهرين في ماسبيروا، لكن جهودا فكرية وثقافية أكبر يجب أن تبذل في تناول القضايا الحيوية المتصلة بأمن الوطن في الحاضر وتأمين مستقبله من الانفلات والفتن، وتجنب ثقافة العبث والشحن الطائفي والكراهية، وكلها ممارسات ساعدت وتساعد على وجود مناخ الفتنة والفرص المواتية للمتربصين بالوطن لينفسوا عن حقدهم وينفذوا خططهم.

وإذا كان البكاء على اللبن المسكوب لا فائدة منه كما يقال في المثل، إلا أن المسكوب هنا ليس لبنًا وإنما هو دماء بشرية بريئة طالتها أيدى التعصب الخسيس والتهور الأعمى وغرر بها البحث الملعون عن دور في عالم الزعامة المستقبلية لدى القمص الذى هدد المحافظ بالقتل وتوعد أن ينفذ تهديده خلال ٤٨ ساعة مالم تنفذ مطالبه.

كان يجب أن يحمل هذا التصريح على محمل الجد لدى سلطات الأمن ورجال الرصد والمتابعة، وأن الأمر جد لا هزل فيه، وخطرا لا لعب فيه.

المصاب الجلل الذي جرح قلب الوطن وأسال في ماسبيرو دماء أبنائه مسيحيين ومسلمين بعمل همجى يجعلنا نبدأ بتقديم العزاء لأهل الضحايا الذين هم أهلنا جميعا في الوطن كله، وأن نعتذر لمصر ولكل أبناء مصر عن عقوق بعض أبنائها وشرودهم عن جادة الطريق في التعبير عن مطالبهم حتى وإن كانت محقة ومشروعة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٣ – ١٠ – ٢٠١١م

الاعتذار هنا لأسر الضحايا ولمصر كلها مسلمين ومسيحيين فقط وليس لرموز ولا لمؤسسات؛ لأن الرموز هم الذين غرروا بهؤلاء الضحايا وشحنوهم بثقافة العبث والكراهية حتى قسموا الوطن في نفوسهم وعقولهم إلى "أقلية مهضومة الحقوق مسلوبة المواطنة تعيش تحت الضغط والإكراه من غرباء جاءوا إليها محتلين من جزيرة العرب".

لست هنا في مجال الاستطراد لما قاله وكتبه البعض موثقا في مظانه ومكانه، كما أنى لست أبحث عن دليل الإدانة لأسوق الاتهام مقرونا به، بقدر ما أعرض نماذج لثقافة العبث التى تشبعت بها شرائح من المجتمع المصرى على مدار العقود الأربعة الفائتة.

الطرح هنا اليوم لتضميد الجراح ودعوة العقلاء ليتدارسوا أسباب الفتنة وينزعوا فتيل الحريق قبل أن يبدأ.

تضميد الجراح يتطلب حوارا يبحث في المشترك القائم فيعظم دوره ويتفاعل مع قيم الجماعة الوطنية التى تعارف الوطن عليها وأقرها في وجدانه ومارسها تطبيقا متسامحا وأخوة في البيت الكبير بيت الوطن الواحد لأكثر من عشرة قرون.

الحوار تفاعل يبحث عن حق يضيئ، وهو لغة المتحضرين وأسلوب الأقوياء، بينما التعصب انفعال وحماس يشتعل يدفع بالمرء أحيانا للخروج على قيم الإخوة والمواطنة.

الحوار يعتمد العقل ليناقش، ويحترم المنطق ويسوق الحجة والبرهان، بينما التعصب يعتمد الهياج ويسوق الحشد والتجييش، ويعتبر المنتصر هو الأعلى صوتا والأكثر هرجا وضجيجا.

الأول يبحث عن الحقيقة وينحاز إليها وينضم للطرف الآخر إن كان الحق معه والعدل بجانبه، بصرف النظر عن الاختلاف أو حتى عواطف الحب والكره.

بينما الثانى انتهازى لا يعنيه إلا تحقيق الأجندات الخاصة، والضغط للحصول على أكبر قدر من المكاسب ولو بغيرحق.

أبناء مصر "مسلمون ومسيحيون" يحتاجون إلى تفريغ شحنات العبث التى امتلأت بها عقولهم على مدار ٤٠ سنة في بعض دور العبادة.

تلك الثقافة التى لم تعتمد مقولة الدين لله والوطن للجميع،وإنما اعتمدت نظرية الفوضى الخلاقة التى تتخذ من الدين وسيلة للسيطرة على الناس وتجعل منه سبوبة

للكسب الحرام،واعتلاء الظهور وتحقيق النجومية والبحث عن دور في عالم الزعامة وتعلن شعار الدين ديننا، والوطن وطننا، ونحن أهله وأصله،وأهلا بالفتنة والتقسيم.

ثقافة العبث والكراهية على مدار السنين الأربعين الماضية ولدت أجيالا لا تعبد الله بقدر ما تعبد أهواءها، فكلام الله يقرر التعددية في الأجناس والعقائد والرؤى ويجعل من ذلك وسيلة للتعارف والتعاون والبر بخلق الله ومحبتهم وليس كراهيتهم واعتبارهم غرباء على أرض الله.

يفترض في كل منا وفي هذا الظرف بالذات أن يتجرد من أهوائه ومطامعه وأن تكون الدماء التى سالت في أحداث ماسبيرو قد طهرت نفوسنا من الكبرياء وطموحات الزعامات الشخصية، لتجعل من كبرياء الوطن الجريح مظلة تجمعنا تحت رايته وتذيب ما كان من خطايا الماضى، وما تم من شحن عقول الأجيال الجديدة خلال الأربعين سنة الماضية بسخافات معروفة ومتداولة جرت على ألسنة الكثيرين في الداخل والخارج تتحدث عن اضطهاد موهوم واغتصاب واحتلال وغير ذلك من ثقافة الكراهية والعبث، وما يتبعها من سخافات بالطبع ليس هذا مجال ذكرها اليوم.

في مثل تلك الظروف يجب أن نتحامل جميعا على جراحنا ونعلو على كل توابع وآثار الفقد والحزن، وأن نعي خطورة المرحلة القادمة، وأن نساعد على تنظيف جراح الوطن قبل تضميده لتكون المعالجة على أسس صحيحة، وحتى لا تكون هنالك فرصة أخرى لجراثيم التطرف والتعصب لتنمو وتزداد.

تحقيق ذلك يقتضى وقفة صادقة مع الذات ولا أقول مع الذات والآخر؛ لأن مكونات هذا الوطن ذات واحدة وإن اختلفت عقائدها، ومن ثم يجب ألا يكون لثقافة العبث وجود بين أبنائه ولا يحكمه إلا قانون واحد يطبق على الجميع وبلا استثناء.

الوقفة مع الذات تتطلب تحقيق أعلى قدر من الصدق والموضوعية مع النفس وذلك بترك المراوغات والتخلى عن مواهب الخداع والكلام المعسول والحديث عن مصطلحات يقصد منها عكس معناها.

فكثيرون هم من يتحدثون عن المحبة وهم يبثون الكراهية، ويتحدثون عن الوحدة وهم يقصدون الانفصال، ويملؤون الدنيا بحديث رائع عن الوطن بينما أفعالهم تحض على تمزيق وحدته.

الحد الأدنى في حديث المكاشفة يتطلب الوعي بأن الذات المصرية واحدة في مكوناتها النفسية والخِلْقية والبيولوجية، وأن الطبيعة الاجتماعية والبيولوجية للإنسان تشكل جهازا غاية في الوحدة، ومن ثم فلا فرق بين إنسان وإنسان، بصرف النظر عن دينه والبيئة التى نشأ فيها، في الصعيد أو في الأسكندرية، في الشمال أو في الجنوب، خطورة شعور البعض بالتمييز السلبي يقوض ثقة المواطن في مؤسسات دولته، ومن ثم يبحث عن مظلة أخرى تشكل في العقل الجمعى هوية بديلة لا تدين بالولاء للوطن، وإنما تدين بالولاء للجهة التى تدافع عنها وتتبنى قضاياها، ومن ثم تحدث ازدواجية السلطة والسلطان.

التمييز السلبي يقوض ثقة المواطن في مفهوم العدالة ومؤسسة القضاء ويجعل ترسانة القوانين بما فيها قانون الطوارئ مجرد حبر على ورق.

العمل الهمجى الذى تم وأدمى أطراف مصر وجرح قلبها كشف عورات الثقافة السائدة لدى النخب التى تولت معالجة القضية إعلاميا، فبدا التسطيح والتمييع والالتفاف حول الحقائق وترك الأسباب الحقيقية التى أدت بنا إلى هذه الحالة.

يجب أن نتعلم من آلام الفقد أن حياة ووجود كل منا مرتبط بحياة أخيه ووجوده، وأن الشعور بالتمييز السلبي لا يجلب لنا غير الخراب والدماء والعلقم. وأن اللعب في تغيير الهوية يشكل نوعا من انتحار الذات، ثم هو خيانة لمفهوم الوطنية،وخروج على قواعد المواطنة،وزراعة صناعية لأشجار الفتنة الطائفية المرة التى لم تجن منها دول كثيرة غير المرار والعلقم.

النافذة الثالثة

القلم وما يسطرون

بين الكاتب والقارئ

يفترض في كل كاتب شريف يؤمن بحرية الكلمة وقدسية الحرف المضيئ أن يقف بكل قوته ضد الباطل، وأن ينحاز للحق من أول لحظة.

لكن مهنة الكاتب في ميدان الثقافة تواجهها معوقات ومثبطات تكون بمثابة الجراثيم التى تشل الإرادة وتصيب الكاتب بالازدواجية والانفصام، وذلك حين تكون العاطفة في جانب، والموقف والحركة والقلم والكلمة في جانب آخر جناية الكاتب هنا ليست على نفسه فقط، بل على كل الذين يقرءون له ويتأثرون به ويثقون فيه،ومن ثم يسقط من عين الله أولا، ثم يُذهب الله بهاءَ كلماته من عقول الخلائق، ولو كان يملك عبقرية العقاد ومواهب شكسبير.

الكاتب عندما يختار السقوط (٢/١) (*)

الأحداث الأخيرة التى مر ويمر بها الوطن الحبيب سواء على مستوى مصر أو على مستوى الوطن الكبير تجعل الإنسان يتساءل عن مواقف رؤوس ورموز كثيرة في السياسة والثقافة أخذت من الدنيا كل حظوظها، وتشبعت من خيرات الوطن ومتاعه حتى الثمالة، ومع ذلك فهذه الرؤوس والرموز يرون الحق يهان وأحيانا يذبح ومع ذلك لا ينطقون، ويرون الوطن ينزف ويستباح ومع ذلك لا يتحركون، فلماذا..؟ لماذا يسكتون فيسقطون؟ لماذا يختارون السقوط بإرادتهم...؟

سؤال يطفو على سطح الوجدان والفكر، ويطرح نفسه أحيانا في خجل وعلى استحياء، وأحيانا أخرى في جرأة وجسارة من يصر على معرفة الخفايا وبواطن الأمور.

وفي الحقيقة تقتضى الإجابة على هذا السؤال المشكلة متنا وشرحا، أما الشرح فلا تتسع له تلك المساحة؛ لأنه يقتضى جهدا علميا أكاديميا يبحث تلك الظاهرة المفجعة فعلا، ولعل الله يعيننا أن نقدم جهدا علميا في هذا المجال يحلل الدوافع والبواعث والأسباب ويستخلص النتيجة التى تجنبنا تلك الفواجع.

وأما المتن فإني أستأذنك عزيزي القارئ أن أعرض عليك خطوطه العريضة دون الدخول في تفاصيله:

العقل والقلب والإرادة أجهزة في الكيان الإنساني تميزه عما عداه،

فهى تشكل المقومات الأساسية في بناء شخصية الإنسان، ومن ثم فالشخصية السوية تتكامل فيها هذه المقومات وتنسجم فيما بينها لتؤدى دورها في تكوين رؤية الإنسان وتصوراته حيال القضايا المختلفة التى تواجهه في ميادين الحياة المختلفة.

فالعقل يصدر عنه الرأي وهو خلاصته.

والقلب تصدر عنه العاطفة وهو مصدرها، ويعبر عنها إيجابا وسلبا بالحب أو الكره.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢١ - ١٠ - ٢٠١٠م

والإرادة يصدر عنها الموقف بعد اجتماع قناعة العقل بطمأنينة القلب حيال موقف ما.

وفي حالة التناقض والتضاد بين العقل والقلب، تقوم الإرادة بترجيح إحدى الكفتين على الأخرى.

وفي المجتمعات التي تنعم بالحرية والاختيار الحر تتكامل هذه العناصر الثلاثة في شخصية الفرد، وتعمل في اتجاه واحد، مما يدفع بعجلة المجتمع إلى التقدم والنمو.

بينما في المجتمعات التي تعيش الحرية المزيفة، أو تعيش الديمقراطية ذات العصا الغليظة كما يقولون، قد توجد هذه العناصر في شخصية الفرد، وتعمل داخل الكيان الاجتماعي، ولكنها تعمل بلا توافق ولا انسجام، وقد تتعطل عن أداء وظائفها، وقد تنعدم تماما تحت ضغط القهر والطغيان وسحق شخصية الفرد نهائيا.

وبغير هذه العناصر الثلاثة لا تتكامل شخصية الفرد ولا يتطور المجتمع.

وعندما تكون الرؤية ضبابية، والأشياء غير واضحة المعالم يحار الكاتب في اتخاذ المواقف، وقد يصيبه نوع من التردد فلا يعرف لأية جهة ينحاز.

وفي دوامة الصراع بين الحق والباطل، يفترض في كل كاتب شريف يؤمن بحرية الكلمة وقدسية الحرف المضيئ أن يقف بكل قوته ضد الباطل، وأن ينحاز للحق من أول لحظة.

لكن مهنة الكاتب في ميدان الثقافة تواجهها معوقات ومثبطات أخرى غير ضبابية الرؤية تكون بمثابة الجراثيم التى تشل الإرادة وتصيب الكاتب بالازدواجية والانفصام، وذلك حين تكون العاطفة في جانب، والموقف والحركة والقلم والكلمة في جانب آخر.

هذا الانفصام يحول بين الإنسان وبين اتخاذ القرار الصحيح في مواجهة الباطل ومناصرة الحق في الوقت المناسب.

فالكاتب كثيرا ما تكون لديه قناعة عقلية يدرك من خلالها عن طريق البرهان والدليل والحجة أنه الحق، وأنه الأولى بالتأييد والنصرة، والأولى بالولاء والانتماء،ولديه الانفعال العاطفي الذي يكون مع الحق بموجب أنه حق، إلا أن الإرادة تأخذ موقفا آخر

متأثرة في ذلك بمجموعة العوائق أو المثبطات التي تجعل الإنسان يحجم عن مناصرة الحق والوقوف بجانبه حرصا على مصلحة، أو جبنا عن التحدي، أو عجزا عن مواجهة.

وتحت وطأة تلك الضغوط – يصاب الكاتب بانشطار في الذات، فالعقل يعاني الحيرة والتردد، فهو يعرف الحق جيدا، لكنه يعرف أيضا أن تكاليفه باهظة، وأن تأييده ومناصرته ليست مسألة هينة، ولكنها مكلفة جدا، ومن ثم فهو لا يريد أن يضحي بالمال والموقع والجاه والشهرة والحضور الدائم في القنوات الفضائية والصحف اليومية، باختصار لا يريد أن يضحي بكل متع الأبهة والنجومية.

حينئذ يؤثر الإنسان الخنوع ويتخذ أحيانا موقف الحياد البارد، أو الحياد السلبي، ظنا منه أنه بهذا الموقف لم يساند الباطل صراحة، وإن لم يعلن بوضوح أنه مع الحق.

وكنت قد أشرت في مقال سابق إلى أن الحالة التى يعانى فيها الكاتب غياب التوافق والانسجام الذاتى في داخله ناشئة بسبب غياب المنظومة الاجتماعية التي يفترض فيها ضبط المسار العام، واحترام العقل والكيان الإنساني وحماية الفكر من توغل رأس المال وسيطرته على أقلام الكتاب وتوجيهه لهم، بالإضافة إلى غياب الإطار القانوني العام أو السقف الاجتماعي الذي يحدد بوضوح حق الكاتب في التعبير عن رأيه ويحميه من جور أصحاب النفوذ والسلطان الذين يملكون المال والقوة، ولا يملكون معهما الضمير والخلق.

وهذه إحدى سوءات رأس المال غير الشريف حين يتمدد في المساحات الثقافية والفكرية مستعينا بزواجه مع السلطة ونفوذه في السيطرة على المؤسسات الإعلامية وصياغة الرأي العام.

حيال هذه المواقف يؤثر الإنسان الخنوع – كما أشرنا سابقا – فينحاز للباطل وقلبه مع الحق والذى جعله ينشطر هذا الانشطار هو تلك المثبطات التى تتمثل في الحرص والجبن واستبقاء وضعية معينة، والخوف على المغانم والأبهة.

وكثيرا ما يترتب على اتخاذ القرار الصحيح بعض ما يهدد هذه الأشياء، وبالتالي فهي تشكل مثبطات تضعف من عزيمة الفرد، وتشل إرادته حيال مواقف ما كان يود أن يتردد فيها أبداً، ولا أن يتردى إلى مستوى السكوت عليها لو أنه مستقل الإرادة حر الاختيار،لا يشغله خوف الخلق، أو هم الرزق، أو هما معا.

عناصر التكامل تعمل إذن، ولكن كل عنصر يعمل في اتجاه يعاكس العنصرين الآخرين ويتضاد ويتناقض معهما في الفعل والنية والحركة، والسبب المباشر في هذا التناقض والتضاد هو جراثيم المعوقات والمثبطات التى تشل الإرادة وتحول بين الإنسان وبين اتخاذ القرار الصحيح.

في الجانب الآخر يقف الباطل بطغيانه وإغرائه، يصادر في الإنسان كل شيء حتى عواطفه، ويحاول أن يتسلل إليها، يصنف الناس تبعا لاتجاهاتهم، ومواقفهم وعواطفهم وأفكارهم، وأحيانا نواياهم وضمائرهم أيضا.ومن ثم فهو لا يتركك حرا تمارس إرادتك في الاختيار، وإنما يريدك معه في ساحة الصراع.

الموقف الذى يتصوره الإنسان حيادا لن يبقى طويلا؛ لأن ساحة الصراع لا تحتمل مثل هذه المواقف دائما، ذلك لأن الباطل يستغل نقاط الضعف فيشد الإنسان إلى جانبه شدا، ويستخدم في ذلك وسائل متعددة، منها القوة، والنفوذ، والإغراء، كما يستخدم السياط والتهديد والوعيد والحديد والنار.

الباطل يجذب الإنسان إليه، ويشده إلى جانبه شدا، وشيئا فشيئا، تحدث الردة في المواقف والانتكاس في الاتجاه.ومن هنا تنشأ الخطورة ويبدأ التردي

القضية إذن واضحة، فأطراف المعادلة حق وباطل، وعلى الإنسان أن يختار.

وبالتميع والتنازل والتفريط تبدأ أول مراحل السقوط القهرى، وما يستتبعها وينشأ منها ويتفرع عنها من مذلة ومهانة، ثم ينتهى به الأمر في نهاية المطاف إلى التنازل عن كل شئ حتى عن الهوية والدين.

جناية الكاتب هنا ليست على نفسه فقط، بل على كل الذين يقرءون له ويتأثرون به ويثقون فيه، ومن ثم يسقط من عين الله أولا، ثم يُذهب الله بهاءَ كلماته من عقول الخلائق، ولو كان يملك عبقرية العقاد ومواهب شكسبير.

الكاتب حين يختار السقوط (٢/٢) (*)

حتى نكون على تواصل بمقالنا السابق أستأذن القارئ الكريم أن أكرر السؤال المعضلة والذى نحاول الإجابة في هذا المقال على الجزء الثانى من متنه.

الأحداث الأخيرة التى مر ويمر بها الوطن الحبيب سواء على مستوى مصر أو على مستوى الوطن الكبير تجعل الإنسان يتساءل عن مواقف رؤوس ورموز كثيرة في السياسة والثقافة أخذت من الدنيا كل حظوظها، وتشبعت من خيرات الوطن ومتاعه حتى الثمالة، ومع ذلك فهذه الرؤوس والرموز يرون الحق يهان وأحيانا يذبح ومع ذلك لا ينطقون، ويرون الوطن ينزف ويستباح ومع ذلك لا يتحركون، فلماذا..؟ لماذا يسكتون فيسقطون؟ لماذا يختارون السقوط بإرادتهم...؟

سؤال يطفو على سطح الوجدان والفكر، ويطرح نفسه أحيانا في خجل وعلى استحياء، وأحيانا أخرى في جرأة وجسارة من يصر على معرفة الخفايا وبواطن الأمور.

وقد قلت في المقال السابق أن الإجابة على هذا السؤال المشكلة تتطلب متنا وشرحا، أما الشرح فلا تتسع له تلك المساحة؛ لأنه يقتضى جهدا علميا أكاديميا يبحث تلك الظاهرة المفجعة فعلا، ولعل الله يعيننا أن نقدم جهدا علميا في هذا المجال يحلل الدوافع والبواعث والأسباب ويستخلص النتيجة التى تجنبنا تلك الفواجع.

وأما المتن فإنى أستأذنك عزيزي القارئ أن أعرض عليك الجزء الثانى من خطوطه العريضة دون الدخول في تفاصيله:

ساحة الصراع بين الحق والباطل تفضح كل يوم الكثير من المواقف وتنزع الأقنعة عن وجوه قبيحة كان البعض يحسن الظن بها ويحسبها على الحق ويعدها من رجاله، ومع كل يوم تشاهد كثيرا من المواقف التي تنشطر فيها الذات الإنسانية على نفسها، وذلك حين يكون القلب في جانب والمصالح والمنافع والمغانم في جانب آخر.

وعندما تكون عواطف الإنسان مع الحق فهي قطعا في الاتجاه الصحيح.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٨ - ١٠ - ٢٠١٠م

غير أن الإنسان ينحاز للباطل وقلبه مع الحق. أي أنه ببساطة شديدة لا يعيش متصالحا مع نفسه وإنما ينقسم على ذاته.

وخداع النفس أو ما يسمى بالوهم المريح أسلوباً يمارسه بعض الكتاب مع نفسه، فهو يقنع نفسه بتبريرات لمواقفه حتى يظل بعيدا عن محاسبة النفس أو وخز الضمير، هذا إن بقي لديه بقية من ضمير.

وقد عبر الفرزدق عن هذه الحالة قديما تعبيرا دقيقا حين سأله الإمام الحسين ابن علي رضي الله عنهما عن الناس وموقفهم من الصراع بينه وبين يزيد بن معاوية... فقال الفرزدق: (الناس يا أبا عبد الله قلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أمية).

وهنا يأتي التساؤل المر: لماذا لا تكون القلوب والسيوف في اتجاه واحد؟

والجواب: أن بني أمية يملكون القوة والنفوذ والإغراء والسياط والوعيد.

وهذه حالة يعاني فيها الكاتب غياب التوافق والانسجام الذاتي في داخله وسببها المباشر فساد البيئة الثقافية فكرا وممارسة، ودخول الطفيليات الثقافية حقل المنافسة، وسيطرتها على أكبر مساحات الانتشار في عالمنا العربي التى هبطت ثقافته وأضحت على شفا حفرة من السقوط بعدما تحول المثقف من عين على السلطة إلى عين للسلطة

هذا الوضع فرخ لدينا وعلى ساحات الانتشار صحافة وفضائيات ما تعارف البعض على تسميتهم ب "كتّاب الأمن"، وهم أولئك الذين يتولون كبر الحشد الشعبى عن طريق الخداع والتخدير والتنويم والتبرير والتزوير.

هذا الموقف أصاب بعض الكتاب وبعض الرموز في رجولته، وقد هبط به حتى أصبح مائع الإرادة ليس في موقف واحد فقط، بل أصبحت هذه الميوعة عادة له في كل موقف، وقد تدنى بالبعض ليصل إلى درك النفاق الاجتماعي أو العقدي، وتلك مصيبة يخسر فيها الإنسان كل شئ حتى نفسه. وماذا يتبقى للإنسان إن خسر نفسه حتى وإن كسب الدنيا كلها.

وهكذا تتسلل دوائر المثبطات لتشل الإرادة عن اتخاذ القرار الصحيح في مواجهة الباطل ومناصرة الحقيقة في الوقت المناسب.

وإذا تقصينا تلك الدوائر – الجهنمية – التي تتسبب في هذا الموقف المخجل فسنجدها قد اجتمعت وتلخصت كلها في جزء من عبارة الحديث الشريف... (الوهن) الذي هو.. (حب الدنيا... وكراهية الموت).

خطر الانزلاق النفسي:

وما لم يتدرب الإنسان ويروض النفس ويوطنها دائما على أن تتحمل تبعات الحق وتكون دائما معه وبجانبه في ساحة الصراع، فإن موقف الحياد لن يدوم وسيزداد خطر التردد، ويلمع بريق المصالح أمام النفس، فيثير فيها لعاب المطامع، فتؤثر جانب الباطل؛ وهنا يحدث الانزلاق النفسي، وينتقل الإنسان من مكان الحياد ليكون مساندا للباطل، لأن المنطق في طرفي المعادلة لا يقبل التمييع والحياد، فإما حق.. وإما باطل.

أما موقف التميع أو ما يسمى بالحياد البارد فهو موقف نظري، لا يلبث أن يتحول سريعا، وغالبا ما يكون هذا التحول في جانب الباطل وإن بقيت العاطفة الداخلية تميل إلى الحق؛ لأن المثبطات والمعوقات ذات أثر كبير في التأثير على الإرادة.

ولما كانت المعوقات والمثبطات جراثيم تشل الإرادة وتحول بين الإنسان وبين اتخاذ القرار الصحيح. فإن القرآن الكريم قد حسم الموقف حتى لا يترك مجالا للتردد وتمييع المواقف، فقال تعالى:

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) (يونس: ٣٢).

فإما أن يكون الإنسان مع الله. وإما أن يكون مع الشيطان.

فهما موقفان لا ثالث لهما وحزبان لا ثالث لهما.

والإنسان كثيرا ما يختلق الأعذار لنفسه كي يبرر الموقف المائع حتى لا يظل طويلا تحت وطأة التأنيب ووخز الضمير، ومن هنا تحدث عملية الانفلاق في الذات الإنسانية وتنشطر على نفسها.

وحتى يتلاشى الإنسان هذا الموقف الخطير لابد له أن ينحاز إلى الحق من اللحظة الأولى وأن يتمسك به وأن يتعصب له وأن يدافع عنه وأن يكافح دونه، وألا يترك إرادته للتردد والتميع في مهب الريح تميل معها حيث مالت ومن هنا نفهم نفاسة عبارتين من توجيهات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

الأولى: قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا".

والتوجيه النبوي هنا يريد من الإنسان أن يكون حرا لا تابعا، مستقل الإرادة مستقل القرار.

أما الثانية:.. فهى قوله (صلى الله عليه وسلم) في دعائه: "ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا "

ترى هل هناك أبلغ في تحرير الإنسان من هذا الكلام؟

وهل يوجد في البيان العربي ما يحمى ذات الإنسان من الانشطار والتمزق أفضل من هذه الدعوة...؟

عندما يخون الكاتب والرمز مبادئ قناعاته يتحول إلى تافه أو إلى ساقط.

تافه يرتفع كما ترتفع الفقاقيع.

أو ساقط يرسب كما يرسب الطين.

أما الشرفاء من الكتاب والرموز، فيبقون دائما على ولائهم لدينهم ومبادئهم، ومن ثم فلا تدنيهم رغبة، ولا تقصيهم رهبة، فكلهم مجاهد يبحث عن الحق في محيط الحق، يعلو تارة ويهبط أخرى.. ألا وإن رجل الحق لمثوب، إن سقط فله أجر الجهاد، وإن علا فقد توجته يد الله.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ) (الروم٦٠).

الزبد سيذهب حتما، وستبقى الكلمة النافعة والمواقف الصادقة، والشرفاء ربح بيعهم، فهم على ولائهم للحق وموعدهم مع الله، يبقون صابرين وصامدين، وإن تخلت الدنيا وتهافت الساقطون.

القارئ.. عندما يختار الصعود (*)

في الأسبوعين الماضيين كتبت مقالا من جزأين تحت عنوان: الكاتب حين يختار السقوط. لم أكن أتوقع أن تكون ردود أفعال القراء في تعليقاتهم على الجزء الأخير من المقال وهو الذى نشر يوم الخميس الماضى ٢٨-١٠-٢٠١٠م بهذا الحجم من الغضب المقدس.

فبين اليأس المطبق وبريق الأمل وبين المديح والثناء، والعتاب واللوم دارت تعليقات القراء. وبرغم أن التعليقات تضمنت عتابا وصل إلى حد اللوم إلا أنها تستحق أن نقف عندها لسببين:

الأول: أن رأى القارئ هو المرآة التى تعكس صدق كلمات الكاتب من عدمه.

الثانى: أن تفاعل القارئ وانفعالاته تجاه المقال المكتوب بقدر ما تعكس احتياجات الواقع الثقافي، بقدر ما تكون معيارا صادقا للرباط الذي يربط بين الكاتب وقرائه، كما أن هذه الانفعالات وهذا التفاعل يجسد القاسم المشترك في الغاية الكبرى التى يعمل لها ومن أجلها الكاتب والقارئ معا.

ولقد رأيت من خلال تعليقات السادة القراء أنهم يرفضون بشدة سقوط الكاتب، ويرون أنه لا بديل عن الصعود مهما كان الثمن، ولذلك فقد آثرت بأن يقتسم قلم الكاتب وأقلام القراء أنفسهم هذا المقال، على أن تكون البداية منهم ولهم، فهم لها أهل، وبها أحق وأولى.

وليسمح لى القارئ الكريم أن أعرض بعض النماذج من التعليقات كما هي، وحتى بما فيها من أخطاء لغوية،"غير مقصودة بالطبع" وأن أعقب عليها في نهاية المقال.

فالأستاذ فارس" يرى أنه "ليس لدينا كتابا ولا مثقفين ولا صحفيين ولا مذيعين ولا إعلاميين ولا حكام" بل إمعات مرتزقة أرزقية مرتشون".

ونكتفى من تعليقه بهذا القدر.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٤ – ١١ – ٢٠١٠م

أما الأستاذة ماجدة من أمريكا فترى أن الاختلاف فى الرأى لا يفسد فى الود قضية، وأن (الحفاظ على الحق والمبادئ له ثمن، والكاتب أو غيره ليس عندهم الاستعداد للتضحية، ولكن لابد من الوقوف مع الحق مهما كان الثمن، وذلك نوع من الجهاد والحمد لله، أما الكاتب وأمثاله فهو إنسان غير سوى طالما رضى أن يكون إمعة وأن يكون عبدا لإنسان وعبدا لدينار قولا وعملا ولن يجد الراحة ولا السكينة والطمأنينة فى حياته.

الدكتور سامر إسماعيل: أستأذن في أن يختلف مع الكاتب ويرى أن موقف التميع أوالحياد البارد لا يلبث أن يتحول في جانب الباطل، وإن بقيت العاطفة الداخلية تميل إلى الحق، ويرى أن هذا الكلام ينطبق على بعض الكتاب ممن يعرفون الحق، لكن فيه فريق كبير جدا حكاية الحق دى مش واردة له على بال أصلا، هو تشبع بالباطل وعايش عليه، تفتكر ده عنده ضمير يؤنبه أصلا؟ ومع الأسف يادكتور الجماعة دول كتير ومسيطرين على الجرايد الكبرى ومؤسسات الثقافة في العالم العربي كله، ولذلك أقترح أن تكتب دراسة حول هذه الظاهرة كما وعدت وكما كان يفعل المرحوم أنور الجندى.

الأستاذ رأفت عمار يرى أن تراثنا مملوء بشخصيات عظيمة،والأهم ألا نفقد الثقة في علمائنا، وإذا كان العلماء الرسميون يتحرجون فإن غيرهم يصدع بالحق ولا يهاب أحدا، على كل حال فرج الله قريب، والحق لن يعدم أتباعه أبدا والفرزدق وصف الأقزام والمهزومين، وكلامه كان حقيقي لكن كان في المجتمع من يقول الحق وينطق به في مواجهة الحكام، وفيه نماذج كثيرة من العلماء المجاهدين مثل العز بن عبد السلام وابن تيمية والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، وإن لم يكونوا جميعا في عصر واحد.

الأستاذ كامل على يلومنى لأننى قلبت عليه المواجع كما يقول، ويرى أن بطش الحاكم وسطوته واستباحة أعراضنا فقتلوا فينا الرجولة والنخوة، وكل من نحسبه رجل ونتلمس منه الضوء نكتشف بعد أنه وهم، ورجل من رجال السلطة، والمسألة كلها ضحك على الذقون ونحن معشر السذج بلعنا الطعم، أما الشرفاء فقد ثبطت همتهم أمام البطش مع خزلاننا فرضينا بالدنية وأخذنا بمبدأ التقية وللأسف لم نتمتع بها، بل زاد هواننا وزاد بطش المستبد، حتى ضاعت بوصلتنا وتاه منا الطريق، وأظلمت حياتنا فلا أمل يرجى أو إصلاح مأمول وأصبح الموت راحة من كل شر سامحك الله قلبت علينا المواجع.

تعليق آخر باسم المحترم وتحت عنوان نفاق ورياء وأقلام وسيوف يقول صاحبه: الفرزدق أراد أن يقول إن الناس منافقين لأنهم بالنتيجه سينحازون ليزيد النفاق والرياء وشيوخ السلطان وحراسه وكتاب التخدير أو التدخل السريع أو التدخل الاستئصالي أو ارمي ورا ظهرك أو طبيعة الشعب الحلوة المصاب بها وهي النسيان المؤسس للزهايمر والعمى والطرش، ولا تنسى عمليات الإسقاط التي لا تسمح بتوبه او صحوة بل ارتهان وانحطاط واستعباد بل احتقار، إنه جحر الضب من دخله لا حيلة له من الفكاك منه.

أما الدكتور عبد السلام فقد وجه رسالته إلى الأخ المحترم وإلى الأخ كامل على قائلا:

أنا متفائل جدا والله، وأتمنى من الإخوة ألا يسيطر اليأس عليهم فلحظات الظلام أشد ما تكون قرب طلوع الفجر، فلا يصح أن نيأس،ووجود هؤلاء الكتاب يبشر بكل خير، أنا متابع لما تنشره المصريون ومتابع لمجموعة من كتابها ويكفيهم أنهم فضحوا تسلط الكنيسة وفضحوا موقف السلطة، يمكن تكون النتيجة لم تظهر بعد، لكنها بالتأكيد ستحدث، المهم أن نصر على الموقف والمقاومة وعلى أن نكون دائما مع الكتاب الشرفاء والحمد لله أفكارهم وكتاباتهم تصل إلينا ولم يعد في مقدور الاستبداد أن يحجب الرأي الحر.

الأخت أمل من مصر طالبتنا قائلة أروا الله تعالى من أنفسكم عزمًا على الطاعه؛ولا تجعلوا أرخص شيءٍ فى اليد طاعة الله، وقالت إن هذه الكلمات جاءت على لسان الرائع شيخنا الجليل حازم صلاح أبو إسماعيل:

العزم على قول وفعل الحق طاعةً لله؛ ومَن يتق الله يجعل له مخرجا ليس فقط بل ويرزقه من حيث لايحتسب أى أن الطاعة لها ثمن فادح يجد مَن يدفعه من الخالق وعداً قاطعاً بأن يُخرجه من تبعات دفع الثمن بل ويعوضه خيراً خارج نطاق الحسابات والأسباب؛ لو آمن كل كاتب بهذه الآية حقا لحفَزَّه ذلك على الوقوف فى وجه الظلم والفساد؛ فالصحفى والبرلمانى مجدى أحمد حسين فى السجن منذ سنتين؛ لأنه أصرَّ على كشف الفساد وعزم على كسر حصار غزة وسافر إليها؛ ودفع الثمن حريته؛ وسنرى رزق الله له قريبًا.

أما د. ربيع سلام فيقتبس من المقال ويقول: العز كله لمن كان له أجر الجهاد إن سقط، وإن علا فقد توجته يد الله ولا حرج على فضله، شكرا لك أخي الحبيب، وسلم قلمك وأنت منهم،الشرفاء من الكتاب،قلة قلية في هذا الزمن، ولكنهم يملكون بصدقهم التأثير في القلوب والعقول، وعلى كل حال فأهل الخير دائما قلة، ولكنهم قلة مباركة وميمونة، وعين الله ترعاهم وترعى جهودهم، وكما يقول كاتبنا الرائع فهم يبقون على ولائهم لدينهم ومبادئهم، ومن ثم فلا تدنيهم رغبة، ولا تقصيهم رهبة، فكلهم مجاهد يبحث عن الحق في محيط الحق، يعلو تارة ويهبط أخرى.. ألا وإن رجل الحق لمثوب، إن سقط فله أجر الجهاد، وإن علا فقد توجته يد الله.

ولفت نظرى عتاب للدكتورة منال عثمان وصل إلى حد توجيه اللوم لى ولأمثالى من الكتاب،ونستأذن القارئ الكريم أن نعرض تعليقها كاملا والذى ورد في ثلاث فقرات، فقط سنحذف أسماء من قالت في رسالتها "إنهم خدعوها. وهذا هو نص الرسالة:

تقول د. منال عثمان: أنا متحسرة وأوجه اللوم لهذا الكاتب، أين كنت أنت منذ زمن؟ لماذا لم نقرأ لك من قبل؟ وهل كنت مع الساكتين الصامتين الذين تلومهم اليوم؟ أنا لا أظلمك ولا أحاكمك، لكنى أعاتبك وأمثالك على الغياب عن الساحة، أنتم لم تتركوها فقط، أنتم تركتموها للدجالين والمخادعين وتجار الشعارات ليلعبوا بالناس ويلوثوا أفكارهم، ويروضوهم كما تروض البهائم والحيوانات؟ أنا متحسرة على الزمن الذى ضاع من أعمارنا في قراءة التفاهات، ربما يكون لكم عذر، لكن الساحة ظلت فارغة لمدة طويلة لينعق فيها البوم والغربان فلا تغضب.

أنا وأمثالى ومن هم في سنى ضحايا التهريج الثقافى، أدركنا مؤخرا أنه فيه شئ تانى وفيه ثقافة أخرى وفيه ناس بتفكر بشكل صح بس فات من العمر كتير والميدان الإعلامى فارغ، مؤخرا تعرفنا على عالم آخر وعتابى على الكتاب المحترمين لماذ لم يقاوموا الشر وينشروا كتاباتهم الجادة؟ أنا مثلا وبعض زميلاتى لم نتعرف على د. عمارة والعوا ووجمال سلطان ومحمود سلطان وحضرتك إلا في أزمة الكنيسة؟ كنت فين من قبل كده، فلا تغضب منى أرجوك.

أستكمل حديثى وعتابى عليكم، أنا محتاجة أكتب حاجات كثيرة، على كل حال سؤالى للكاتب المحترم ولكل الكتاب أصحاب الرسالة والقلم النظيف سؤالى هو: لماذا تركتونا لـ............و........ وجماعة فتوى الأحلام والأبراج، وذكرت اسمين هنا في الفراغ المتروك بينما غاب الفكر الأصيل؟ أنا غضبانة لأننى خدعت واضحك عليَّ بعدما تعرفت على الكتاب الحققيين، فلا تغضب منى أرجوك، وياريت تقدّر موقف سيدة كانت تظن أنها مثقفة لمجرد حصولها على شهادة علمية؛ لأن الساعات التى قضيتها في الثقافة الهابطة تعمل شهادة دكتوراة.

رسالة أخرى وصلتنى على بريدي الخاص من الصديق الأكاديمي الأديب والطبيب المرموق الأستاذ الدكتور جمال طاشكندى حملت إلينا تحليلا آخر يتوافق تماما مع تحليل الدكتور سامر إسماعيل.

مضمون الرسالتين يرى أن عملية الصراع بين العقل والقلب وقرار الإرادة ذلك يحدث في داخل نفسية الكتاب وليس في داخل نفسية الكتبة ومن ثم فهنالك فرق بين الكتاب والكتبة، يقول الدكتور جمال طاشكندى"

الكاتب يختار السقوط...نعم إنه عمل باختيار ووعي وإدراك، سأل أحدهم كاتبا هو "رمز" في عالم الثقافة متعجبا من تزويره للتاريخ والحقائق الثابتة في كتاب هو مرجع يرجع الناس إليه، فقال وبكل إصرار على تزويره.....يا عم خلينا نأكل عيش!

المعوقات والمثبطات عادة هي وقود لأهل العلم والفكر والثقافة الأصليين منهم فقط أما عند غيرهم ممن يملكون أدوات الكتابة فقط ولكن لهم عقول بلا فكر وقلوب بلا حب ويفتقدون، بل لا يعرفون، معنى الإرادة التي بها تتخذ المواقف، فهؤلاء كتبة وليسوا كتابا!

هم من تملى عليهم معاني الحروف قبل رسمها، وتملى عليهم بنات الأفكار قبل صياغتها، وهم من سلموا دفة مراكب أقلامهم وباختيارهم لمن هم له خاضعون ولجود عطائه يتوسلون.

الكاتب الأصلي هو الذي ليس لحروف كلماته ثمن؛ لأنها حروف حرة وليس للحر ثمن في سوق العبيد والنخاسة، وهو الذي لا تغريه "جوائز" وهمية و لا ألقاب تزوير وخداع ولا شهرة في عالم الفضاء الافتراضي وليس الحقيقي.

كتبة هذا الزمن هم من ملأوا سماءه وأرضه بعفن حبر حروفهم، ولا أرى أي عراك حقيقي بين أفكارهم وعواطفهم ومواقفهم، بل هم من توافقت هذه الثلاثية المقدسة عند غيرهم، مع أفكار وعواطف ومواقف أسيادهم من المتحكمين في مصائر أمتنا حتى تستمر ديمومتهم إلى حين. والله أعلم

هذه عينة من تعليقات القراء تعكس بصدق الحالة النفسية التى يعيشها المواطن العربى في منطقتنا، حيال ما يحيط به من أوضاع، وهى حالة تتردد بين الشعور باليأس والشعور بالغدر، وبقية من التعليقات تحمل بشائر الأمل.

الشعور باليأس أو بالغدر مبعثهما واحد، وهو فقدان المصداقية والثقة من قارئ كان ينتظر من كاتبه أن يدافع عنه، وأن يتبنى قضاياه وحقوقه الفكرية والثقافية والاجتماعية، في مواجهة سلطات غاشمة تسيطر على عالمنا العربي كله وتجتاح كل يوم حقوقه وتهدر كل يوم كرامته، فإذا بهذا الكاتب يخدر بقلمه وفي أسلوب غير نظيف آلام ومعاناة قارئه، وبدلا من أن يفضح من اغتصب حقوقه وأهدر كرامته ويشهر قلمه لاسترداد حقوق المواطن الضائعة، ينحاز إلى السلطة ويبرر تصرفاتها وغشومتها ويكتب تبريرا وتزويرا، أو يهرب من المواجهة ويتجه إلى ساحة الضعيف المسلوب والمقهور فيلهيه عن حقه ويخدر إرادته بدغدغة شهواته وعواطفه، وينقله عبر خطاب لا يعرف من صفات الإنسان غير خصائص الذكورة والأنوثة إلى عالم الحس الرخيص، وهوعالم تغيب فيه المبادئ والقيم واحتياجات الإنسان الروحية والأخلاقية ولا يتمحور فيه نشاط المرء إلا حول الطعام والجنس، ولعل هذا هو ما أشارت إليه تعليقات الإخوة الأستاذ كامل، وتعليق آخر باسم المحترم تحت عنوان نفاق ورياء وأقلام وسيوف، وكذلك تعليق الكريمة الغاضبة الدكتورة منال عثمان.

غضب السادة القراء هنا مبرر ومقدر ومقدس؛ لأنه غضب من عرف أنه خُدِعَ ممن وضع فيهم ثقته ومنحهم وقته وطوع عقله ووجدانه لما يكتبون.

رسالة الأكاديمي المرموق الأديب والطبيب الأستاذ الدكتور طاشكندى والدكتور سامر إسماعيل لفتت أبصارنا وبصائرنا أيضا لفارق جوهرى بين الكتَّاب والكتَبَة.

مضمون الرسالتين يرفض اختيار السقوط للكتاب، بينما يوافق من البداية على سقوط الكتبة.

المشكلة أن الكتاب قلة كما اشار الدكتور ربيع سلام في تعليقه بينما الكتبة يملأون ساحات الصحافة والفضائيات، ويصدر عنهم كثير من الدخان يحجب الرؤية ويزكم الأنوف ويحدث طنينا يشبه طنين الذباب الهائج.

العملة الرديئة بطبيعتها تطرد العملة الصحيحة من الأسواق وتفسد علاقات التعامل بين البشر، وهذا ما تفعله الثقافة المغشوشة في عقول الجماهير.إنها تفعل بالعقول ما يفعله الطعام المسموم بالجسد حين يتناوله الإنسان الصحيح فيعتل ويختل وربما يموت على الفور، والرهان هنا على مناعة القراء وقدرتهم على الفرز والغربلة.

أذِّكر هنا بما قلته وكتبته في المقال السابق:أن الكاتب عندما يختار السقوط " فإن جنايته ليست على نفسه فقط، بل على كل الذين يقرءون له ويتأثرون به ويثقون فيه، ومن ثم يسقط من عين الله أولا، ثم يُذهب الله بهاءَ كلماته من عقول الخلائق، ولو كان يملك عبقرية العقاد ومواهب شكسبير.

وأضيف هنا اليوم: أن خطيئة الكاتب وجنايته الأكبر حين تصور أنه ببريق كلماته ومعسول خطابه ودغدغته لعواطف القارئ حينا وشهواته أحيانا يمكن أن يخدع القارئ طول الوقت، وأن المخدرات الفكرية والثقافية التى يغطى بها عقول القراء ستبقى أبدا، وأن عملية الاستفاقة من تلك الغيبوبة ربما تستغرق زمنا يطول.

خطيئة الكاتب هنا لا تنحصر فقط في خداع القارئ والمتلقى للكلمة مقروءة كانت أو مسموعة ومرئية، وإنما تتعدى ذلك لتخلق أنواعا من القناعات الزائفة، تحشد جماهير الناس في جانب الباطل، وتولد قناعات سلبية ترضى بالواقع المر وتقبل الخنوع والخضوع والذل، وتجعل من عملية التغيير والنهضة أمرا مستحيل المنال، ومن ثم تخرج جناية الكاتب من نطاقها الفردى لتصبح جناية اجتماعية وأخلاقية في حق الأمة بكاملها.

القارئ والمتلقى للكلمة عندما يكتشف ذلك فمن حقه أن يوجه اللوم وأن يغضب ويثور؛ لأن ما كان يعتقد أنهم رموز ثقافية حرة سقطت بجدارة وتبين خيانتها لمبادئ وشعارات طالما صدعت بها رؤوس القراء وملأت بها صفحات الجرائد والمجلات.

تعليقات القراء هنا يجب أن تحترم لأنها تعبير عن رد فعل لشريحة كريمة.

مستهدفة، وثقت في شرف كاتبها، ومنحت قلمه وكلماته وقتا ثمينا من حياتها، ولولاها ما وجد الكاتب أحدا يخاطبه أو يكتب له.

قرارات الكاتب في خياره الثقافى هى التى تحدد أين سيقف ومع من؟

وهذا حديث يتصل بمنطلق الكاتب وغاية قلمه وكلماته،

وذلك هو عنوان لمقالنا القادم إن شاء الله.

منطلق الكاتب وغاية قلمه وكلماته يتصل أيضا بصميم ما نناقشه مع السادة القراء ونتحاور فيه.

قرأت بعناية واهتمام تعليقات القراء، وأحسب أنهم في أول استبيان قرروا أن ينحازوا إلى الكاتب لا إلى الكتبة، وأن يختاروا الصمود والصعود،

الشكر الجزيل للجميع قراء ومعلقين على وعيهم وإدراكهم العالي والذى استفدت منه شخصيا، غير أنى أريد قبل أن أنهي المقال أن أجيب هنا عن سؤال طرحته الكريمة الغاضبة الدكتورة منال عثمان قائلة "أين كنت أنت وأمثالك من قبل؟ هل كنت مع الساكتين الذين تلومهم اليوم؟

وبالطبع فلست مفوضا أن أجيب عن أمثالى ممن توجه لهم السؤال، كما أننى لا أملك أن أشغل هذه المساحة الحرة التى هي ملك للقارئ وحده بحديث عن نفسى وأين كنت من قبل.

كل ما أستطيع قوله والتأكيد عليه أننى بحمد الله لم أكن مع الساكتين، وبفضله وستره أيضا لن أكون يوما ضمن الشياطين الخرس.فاطمئنى يا عزيزتى. فسأظل ضمن الكتّاب لا مع الكتبة.

المصريون.. والفجر الصادق (*)

القلم الحر يرتبط الحرف فيه بقدسية الحقيقة فلا يحيد عنها، كما ترتبط الكلمة فيه بإنصاف المظلوم والدفاع عنه، هذا الموقف يجعل الكاتب في موقع القاضى الذى يعشق العدالة ويرى أن تحقيقها هو مقصد القانون وغايته

والكاتب يخون أمانة القلم حين ينحرف بالكلمة ليكتب زورا ويغشى فجورا،فيضرب المجتمع بمعول الهدم وينحاز لا للحقيقة، وإنما لأهواء من يدفع أكثر.

المثقف هنا يتحول إلى "بياع " تحت طلب "الزبون" ومن هنا يكون قد اختار السقوط بجدارة، وبعض الكتاب بعد ثورة ٢٥ يناير تحولت أقلامهم وكتاباتهم إلى سلعة في مزاد خسيس.

الكتابة لدى الكاتب الملتزم أخلاقيا ووطنيا ليست نزهة ترفيهية، وإنما هى التزام تجاه الحق يوجب عليك أن تؤدى واجبك ولو بتوجع من النوع المؤلم، لكنه لذيذ، أشبه بإحساس ولادة الحامل حين يستطيب سمعها صرخات ضيف جديد حملت فيه وانتظرت مجيئه تسعة أشهر، مولود الكاتب هنا هو موضو ع كتابته بكلماته وحروفه تلتقى فيها بالآخرين في متعة من نوع خاص هى صحبة وصداقة الحروف والكلمات التى تشكل حولك مجتمعا لا يحاكيك فقط وإنما يشاغب ويختلف ويتعارك أحيانا معك كأنه العاشق الغيور، ولكنه لا يلبث أن يعود إليك ويعانق قلبك ووجدانك.

لحظات الفرح لدى الكاتب حين يوثق فكرته في عقول قرائه ويجد لها في عالم الحقيقة أنصارا وأعوانا.

القهر والنفى والمصادرة والإبعاد وسائل المستبد في كتم أصوات الأحرار وحرق أوراقهم.

مفردات الكاتب هى قذائفه التى توجه سهام نقدها للحاكم وحاشيته وتحاكم في جسارة خياراتهم السياسية العجيبة التى تنفى وجود أى مشاكل وأن كل شئ على ما يرام، وأن الوطن ليس محتلا احتلالا داخليا ولا فاقدا للسيادة أصلا، هنا تكون الحروف

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٤ – ١١ – ٢٠١١م

وسيلة تفضح مواقفه وتكشف مواقعه في الخيارات البلهاء ودوره في تكريس هذه المفاهيم المضللة.

ثلاثية المتاعب والمصاعب والتى تتمثل في استمرار حالة الاستلاب، والغربة الثقافية في مجملها، والشعور بالظلم في أحط تجلياته، هذه الثلاثية تخلق أزمة لدى الكاتب وتطرح عليه السؤال الثقافي الشاق "كيف يولد المصل الواقى من رحم الواقع المؤلم؟"، وفي البحث عن إجابة عبر محيط الحروف يتداخل الإحساس الخاص بالهم العام وتمتزج روح الكاتب بوجع الواقع القاسى فتتمرد حروفه على هذا الواقع ويتولد لديه الإصرار على الغوص والبحث فيه عن وسائل الإغاثة والإنقاذ من داخله وليس من الخارج.

كلمات الكاتب الملتزم أخلاقيا ووطنيا وحروفه النبيلة تتحول إلى سواعد عفية وقوية تشد لنا الصباح من الدجى، وتفرق بالوعى بين الفجر الصادق والوهم المريح، وتدرك طبيعة العروة الوثقى بين الخبر الصادق والقول الصادق والوعد الصادق.

كما تكشف طبيعة الخداع بين الفجر الخادع والخبر الكاذب والقول الباطل، وأنها كلها تشكل معاول لاغتيال الحقيقة وتضليل الناس.

والخبر الكاذب هو لون من الادعاء ينسب لبعض الناس بغرض الدعاية الإيجابية أو السلبية،الدعاية الإيجابية.

والأخبارالكاذبة بما تضمنته من نوعى الدعاية الايجابية والسلبية انتشرت بكثرة خلال العقود الثلاثة الماضية حتى تسببت في إفساد الذوق العام وبشكل مخيف.

خطيئة الكاتب وجنايته الأكبر حين يتصور أنه ببريق كلماته ومعسول خطابه ودغدغته لعواطف القارئ حينا وشهواته أحيانا يمكن أن يخدع القارئ طول الوقت، وأن المخدرات الفكرية والثقافية التى يغطى بها عقول القراء ستبقى أبدا، وأن عملية الاستفاقة من تلك الغيبوبة ربما تستغرق زمنا يطول ومن ثم فهو في أمان.

وقد استطاع النظام السابق عن طريق بعض كتابه "وهم مثقفون تحت الطلب " أن يجند فرقا من الكتبة عن طريق أجهزة أمن الدولة في كبريات الصحف والمجلات القومية، كانت مهمتهم الأساسية ليس فقط تبرير الكذب وتسويقه وإنما اختلاقه وتمريره بين

الناس وإقامة الدليل عليه عن طريق استعمال التكنولوجيا الحديثة كالفيديو والفتوشوب وغيره.

هذا الوضع فرخ لدينا في مصر خاصة وفي عالمنا العربي عموما وعلى ساحات الانتشار صحافة وفضائيات تعارف البعض على تسميتهم بـ "كتّاب الأمن"، وهم أولئك الذين يتولون كبر الحشد الشعبى عن طريق الخداع والتخدير والتنويم والتبرير والتزوير.

وهناك حوادث أربعة شهيرة في هذا الموضوع تشكل فضائح العصر.

الأولى: صورة لم تكن أصلية وإنما تم إخضاعها للتعديل بفضل برنامج "فوتوشوب" لإظهار الرئيس حسني مبارك وهو في غاية الحيوية والنشاط يتصدر القادة الآخرين في المفاوضات ويمشى أمامهم وهم خلفه، وقد نُشرت الثلاثاء ١٤ سبتمبر ٢٠١٠م، على صفحة إحدى الجرائد المصرية، وكانت هذه "سقطة مهنية" أو "فضيحة" الصحيفة، وبخاصة أن الصورة الأصلية ظهرت على باقي وسائل الإعلام الدولية. وأظهرت الحقيقة أن الرئيس كان خلفهم وليس أمامهم وكان يمشى متعثرا.

الفضيحة الثانية: وكانت لكريمة الدكتور محمد البرادعى حين أراد النظام أن يشوه صورته فأحال عليه أحد كلابه الضالة فنقل إلى الناس صورة مختلقة لكريمته بالمايوه مع الادعاء بأنها متزوجة من غير مسلم.

الإمعان في التزوير لم يقف عند رموز الحاضر في عالم السياسة فقط، وإنما تعامل بنفس القدر من الإهانة لعقلية المواطن المصرى مع رموز سابقة شهد لها التاريخ بالنزاهة والتجرد والوطنية

الفضيحة الثالثة، وكانت منذ فترة ليست بعيدة حين وظف النظام السابق ووجهت أجهزة أمن الدولة أحد كتاب السيناريست المعروفين وفتحت له كل الأبواب ليغتال جماعة الإخوان المسلمين أو ما كان يطلق عليها ب"المحظورة" اغتيالا معنويا، واعتكف الرجل وأطلق العنان لخياله تحت تأثير الدخان الأزرق ليصول في أعراض الجماعة ويجول، ويلصق بها شر الأكاذيب باختلاق أحداث وحكايات لم تقع، ولما راجعه بعض المؤرخين بأن ذلك لم يحدث ولم يقع من تلك الرموز التى تناولها المسلسل كانت إجابته أنا كمبدع يجب أن تكون لى رؤيتى الخاصة وبصمتى ولمستى الفنية.

المذكور بهذا الكلام يؤسس لنظرية في الكذب وليست في الفن ولا حتى في أدب الخيال الجامح، ولم يقل بها أحد من الأدباء لا في الأولين ولا في الآخرين، كأنه من حق المبدع في نظره أن يكذب على خلق الله ويغتال الحقيقة.

أما آخر الفضائح الأربعة فهى وثيقة د.على السلمى ومنْ هم خلفه، حيث يضع من لا يستحق وصاية على شعب بكامله، ويصادر بوثيقة العار حق برلمان لم ينتخب بعد، ثم إنها تخترع وتبتدع شيئا جديدا لا يعرفه كل فقهاء القانون في العالم كله، ولا يوجد له في كل دساتير العالم شبيه أو نظير، فليس هنالك شئ يسمى في عرف فقهاء القوانين والدساتير "مبادئ فوق الدستورية" الوثيقة بجانب أنها بدعة جديدة تسجل لصاحبها كبراءة اختراع لصناعة الدكتاتور، كادت أن تحول مصر إلى حريق راح ضحيته حتى كتابة هذه السطور قرابة ٣٠ قتيلا وأكثر من ألف جريح، بجانب ذلك فهى فتنة كشفت عوار وعجز وسر تباطؤ وتواطؤ المجلس العسكرى، وفضحت البنية الثقافية لدى كثيرمن الكتبة ممن يحسبون من الفلول الثقافية، ومواقف هؤلاء وأولئك فضحت منظومة القيم التى تحكمهم وفي مقدمتها قيمة الحرية ذاتها.

جموع الشعب المصري لم ولن تهتز ثقتهم في جيشهم، فهو في الوجدان الجمعى لكل المصريين الحارس الأمين لمصالح الوطن العليا، لكن حالة الغضب المبرر من الشعب المصرى موجهة ضد النخبة الحاكمة بعدما انكشفت الحقائق بممارسات الشرطة مع ضحايا الثورة في ميدان التحرير،حيث ظهر أن ثقافة الاستبداد والقمع لم تتغير، وأن الطمع في فرزنة الثورة والعودة بالشعب لما قبل ٢٥ يناير، واعتبار ثورته مجرد موجة غضب واحتجاج وليست ثورة.

جموع الشعب هنا من حقها أن تغضب، وغضبها مقدر ومقدس؛ لأنه غضب مَن أدرك بأنه خُدِعَ ممن وضع فيهم ثقته ورآهم سنده،وشكر لهم مواقفهم، وأراد أن يخلد تاريخهم،ومنحهم وقته وطوع عقله ووجدانه لما يقولون.

الغريب أن الفضائح الأربعة، والأخيرة منها بالذات والتى تسببت في الحريق المشتعل الآن في ميدان التحرير وجدت من الكتاب من يدافع عنها.

خطيئة الكاتب هنا لا تنحصر فقط في خداع القارئ والمتلقى للكلمة مقروءة كانت أو مسموعة ومرئية، وإنما تتعدى ذلك لتخلق أنواعا من القناعات الزائفة، تحشد

جماهير الناس في جانب الباطل، وتولد قناعات سلبية ترضى بالواقع المر وتقبل الخنوع والخضوع والذل، وتجعل من عملية التغيير والنهضة أمرا مستحيل المنال، ومن ثم تخرج جناية الكاتب من نطاقها الفردى لتصبح جناية اجتماعية وأخلاقية في حق الأمة بكاملها.

المصريون كشعب عرف طريقه بعد ٢٥ يناير ولن يخدع بعد اليوم، ولا يتجاهل ذلك إلا أولئك الذين لا يعقلون

والمصريون كموقع إخبارى تبنت قضايا الناس ووقفت بجوارهم وضمت من الكتاب الشرفاء فريقا سخر قلمه وحروفه لقضاياهم والنيل ممن ظلمهم وسلب حقوقهم رغم المخاطر والتبعات.

وها هى اليوم تصدر مطبوعة ورقية لتلبى رغبة كل المصريين الشرفاء الذين يتعشقون الكلمة الصادقة والمخلصة، ويؤمنون بطهارة الحرف المضيئ وبأن القلم الصادق أقوى من ألف قذيفة

إلى كل المصريين شعبا وقراء الذين يعرفون للكلمة قيمتها ومعناها ويدركون من خلال أثرها أنها تخلق موقفا وتحدد دورا وتشكل ضغطا وتضيئ طريقا.

إلى كل هؤلاء أقدم التهنئة بالموجة الثانية من الثورة، وبصدور الأعداد الأولى من جريدتكم" المصريون " والتى تمثل الفجر الصادق.

هنا الدقيق والزيت.. أيها المواطن الحر (*)

ارتبط الليل في حياة الناس بالسكون والنوم، وارتبط النهار بالحيوية والحركة.

بداية الليل غروب، والغروب يعني النهاية.

وبداية النهار فجر وشروق، وهذا يعني البداية.

طبيعة الليل ظلامية، ويمكن أن يكون فيه قمر يضئ.

وطبيعة النهار نور وضياء، ويمكن أن تغيب شمسه، وتخفيها سحب وغيوم محملة بماء المطر الطهور يتنزل غيثا فيغسل الأرض من أدرانها، وينبت الله فيها زرعا وكلأ ويسقي منه أنعاما وأُناسيَّ كثيرا.

وبما أن النوم قد ارتبط بالليل فمن الطبيعي أن ينام المرء ليستيقظ ويستعيد مع النهار نشاطه وحركته، ومن ثم فالنوم جزء السكون الذي يقابل الحركة في حياة الإنسان.

والنوم يستغرق ٣٣,٣٣% من عمر الإنسان عمومًا، لكنه يستغرق ١٠٠% من عمر أمتنا في الوقت الراهن.

والليل بسكونه وظلامه يستهوي طوائف أربعة، ثلاثة أذكرها ورابعة أغض الطرف عنها؛ لأن غايتها علوية وأكتفي فقط بالإشارة إلى أبرز صفاتها حين تتجافى جنوب أهلها عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا، ومن ثم فلن أذكرها هنا لأني لا أحب أن تجاور الطوائف الثلاثة، اللص والعاشق والدكتاتور.

فاللص يستهويه الليل ليسرق ويستتر في ظلامه بسرقته.

والعاشق يستهويه الليل ليختلس شيئا من الوصال بمحبوبته في جنح ظلامه بعيدا عن عيون الناس، فإن ضنت الظروف بمثل هذا اللقاء، فإن العاشق يستحضرها في ذاكرته وخياله ليعيش مُسَهَّداً في ليله بعشق حبيبته.

أما الدكتاتور فيستهويه الليل؛ لأنه في ظلامه قد جاءت به المصادفات، وفي ظلامه يحكم ويتحكم، وفي ظلامه يغدر بمعارضيه، وفي ظلامه يقامر في سبيل بقائه بشعبه وأمته،

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠١ - ١٢ - ٢٠١٠م

وفي ظلامه يرهن إرادة الأمة وكرامتها، وفي ظلامه يُكمِّم أفواه الشرفاء، وفي ظلامه يملأ جيوبه، وفي ظلامه يملأ سجونه ومعتقلاته، وفي ظلامه يسكن كل شئ تحت تهديد الحديد والنار، وفى ظلامه تنطلق مردة إعلامه لتعبث بالعقول والوجدان، فتعزف على أوتار الفقر والعوز والحاجة،وتخدع الناس بحديث عن خطط لرفع المعاناة عن الجماهير، وبينما يزداد الناس فقرا تتضخم خزائن الأغنياء المُوالين للطاغية بالمال الحرام، وفي ظلامه تولَد الأساطير وتنمو الخرافة، وفي ظلامه يتلاعب ترزيةُ القوانين بتفصيل الرداء القانوني الذي يوافق الطاغية، وفي ظلامه يستبد الجهل بأصحابه فيُحلِّون الحرام، ويحرمون الحلال، ويجعلون المعروف منكرا ومحظورا، والمنكر المحظور معروفا ومباحا، وسَداحا ومَداحا.

وهكذا يعملون بهمة ونشاط،الطغاة والدكتاتور، ليبقى الليل ويستمر الظلام، لأنهم في ظله يفعلون بالإنسان والأمة ما يحلو لهم.

وفي زمن اليقظة من حياة أمتنا كان المفهوم هو قتل الفتنة والقضاء عليها في مهدها قبل أن يتطاير شررها ويستفحل ضررها، وقيل في ذلك " الفتنة نائمة.. لعن الله من أيقظها".

أما في زمن النوم والغفلة، زمن النباهة والاستحمار، أو زمن التراجع والانكسارات فقد تبدل المفهوم وانعكس ليصبح هكذا "الأمة نائمة لعن الله من أيقظها".

وهكذا بدأ الإنسان يدخل مرحلة الغيبوبة وسط أمة نائمة، طال ليلها وطال نومها، ولم يبق متيقظ فيها إلا المتربصون بها، ينتظرون الفرصة ليجهزوا عليها بعيدا عن عيون من يراقب، ليظل الفاعل مجهولا ولتحفظ أوراق الجريمة وتقيد ضد مجهول.

والأمة لكي تستيقظ وتستعيد وعيها تحتاج إلى نوعين من الجراحة في عصرها الراهن.

الجراحة الأولى تتم في عقول ساستنا وضمائرهم، تستأصل منها جرثومتين اثنتين:

هما: سوء الفهم التقليدي للإسلام، وسوء النية المبيتة للدعاة إليه والعاملين له، وهما جرثومتان متوطنتان في عقول وقلوب هؤلاء الساسة حتى توارثوهما جيلا عن جيل، كأنهما مرض وراثي يصعب الخلاص منه إلا بجراحة في العقول والقلوب والضمائر.

والغريب العجيب أن هؤلاء الساسة يدَّعون الانتماء إلى الإسلام، ولكن كل على طريقته هو، فهو ينتمي إلى إسلام من صنعه هو، يفصِّله تفصيلا، وبمقاسات تلائم ذوقه، وأهواءه، وطموحاته، وآماله، وشهوته في التجبر والاستعلاء والقهر. وهذا هو صحيح الإسلام في نظره..

ترى من يقوم بهذه الجراحة في عصور هيمنة الأجهزة الجهنمية؟.

ومن يخبر هؤلاء الساسة أنهم مرضى يحتاجون إلى جراحة عاجلة؟.

من يقوم بهذه المهمة؟، من يخترق تلك الأجهزة وتلك الدوائر المغلقة، والمضروبة حولهم..؟

وأما الجرثومة الثانية فهي:

جرثومة المذلة بين يدي أعداء الله والكارهين لدينه والمتآمرين عليه، تلك الجرثومة التي تدفعهم إلى الهرولة وإراقة ماء الوجه والكرامة على أعتاب الأعداء، وطلب ودهم ومحبتهم بكل وسيلة ممكنة، ولو كانت على حساب الحقوق، أو على حساب الشعوب، أو حتى على حساب العقائد والهوية.

وهؤلاء الطغاة المصابون بجرثومة المذلة هذه نراهم قد تنمروا واستأسدوا وكشروا عن أنيابهم وتكبروا وبطشوا بمن يخالفهم في الرأي أو يختلف معهم في الفكرة والمبدأ، فالطاغية يريد لكل الناس أن يفكروا بطريقته، أو يتولى هو شخصياً التفكير نيابة عنهم.

يريد منهم أن يذوبوا في شخصه، وأن يتحللوا من ذواتهم في ذاته هو.

فلا وطنية ولا انتماء إلا ما يحدده هو.

ولا مصلحة للوطن والمواطن إلا ما يحدده هو...

فهو الرمز، والرأس، والفكرة، والمبدأ، والولاء، والانتماء، والقضية، والمرجعية..

وهو الحاضر، وهو الغائب، وهو الماضي والمستقبل..

وباختصار يختزل الوطن، والمواطن، والتاريخ كله، والحاضر كله، والمستقبل كله في شخصه هو.

فنحن به، ونحن معه، ونحن منه، ونحن فيه، وبدونه لا نحن ولا شيء.

إنْ كنا كذلك فكل شيء على ما يرام، وكل شيء تمام التمام.

وعندئذٍ فقط، عندما تذوب الأمة كلها في شخص الطاغية، ويتلاشى الجميع في ظله، يتحقق السلام الاجتماعي والوحدة الوطنية، ويتم الإنجاز ويتخلص الشعب من المعاناة وتتم حماية المكتسبات...؟.

هذا ما يروجه مردة إعلام الطغاة والدكتاتور في مواقعهم المختلفة بأقوالهم وأقلامهم وأفعالهم، في طول الوطن العربي والإسلامي وعرضه.

وهكذا يكون لتلك الجرثومة وجهان:

الوجه الأول وجه يظهر به الطاغية أمام أعداء الله... يحابيهم ويطلب ودهم ويتمنى رضاهم... ويرتمي في أحضانهم، ويمسح في بلاطهم، ويسارع بتنفيذ ما يصدر عنهم من توجيهات لعله بتلك المذلة ينال التأييد والنصر على أعدائه، أعداء الوطن، ودعاة الظلام وخفافيش الليل. كما يروج إعلامهم عمن يخالفهم الرأي أو يرفض أن يبيع نفسه وكرامته وأرضه.

والوجه الثاني وجه يظهر أمام الرعاع، من أبناء شعبه وكلهم – في نظر الطاغية– رعاع لا تردعهم غير العصا الغليظة، ولا تردهم غير القوة، ولا يعرفون مصلحة أنفسهم.

ماذا يريد هؤلاء؟

ألم يكفهم فخراً وعزاً أن يفكر لهم ونيابة عنهم السيد السلطان الكبير ذاته، أو حتى أحد معاونيه.. ولو كان تافها؟

وأن يعبر هو سيادته بنفسه، لنفسه نيابة عنهم.؟ وأن يختار بعينه البصيرة وببعد نظره من النواب من يراه مناسباً لهم!!! هذا هو العز كله، فماذا يريدون عزا أكثر من ذلك؟

تلك هي الديمقراطية الحقيقية: أن نفكر لك نيابة عنك أيها المواطن الحر، وأن نعبر نحن عن رأيك أنت أيها المواطن الحر!! وأن يتم الاختيار –الحر –بطريقتنا –وعن طريقنا– بالنسبة والعدد الذي نحدده لك أيها المواطن الحر.

أيها المواطن الحر،إن الديمقراطيات في الغرب فاشلة، انظر: إنها لا تحقق ولا تصل في نتائجها إلى ما نصل إليه نحن هنا في بلدك الحرة أيها المواطن الحر.

إن ديمقراطيتنا الحرة المستقلة: تصل في نتائجها ٩٩,٩٩ % فهل يستطيعون في الغرب أن يصلوا إلى هذه النتيجة؟... إننا نتحدى..

وأنت أيها المواطن الحر.. ألا تؤمن أن ديمقراطيتنا هي المتفوقة؟؟!!!

وهي الأُولى في الدنيا كلها على ديمقراطيات العالم؟ وبالتالي فهي الأَوْلى بالاتباع والتطبيق؟.

ثم إن ديمقراطية الغرب بدعة وليست من الإسلام في شيء، وأنت بالقطع وبغير شك عربي– وتدعي أنك مسلم– فكيف تقبلها وتدعو إليها؟ وكيف تتطلع إليها أصلاً وتتحدث عنها أيها المواطن الحر؟

وكيف تستطيع أن تمارسها حتى لو جاءت بك الانتخابات الحرة، واختارك الشعب كما تقول؟.

إنها لا تصلح للتطبيق والممارسة في بيئتنا العربية... افهم يا هذا إفهم أيها المواطن الحر؟

إننا أدرى بمصلحتك، وأعلم بما يفيدك وما يضرك، فدع نفسك لنا.. ونحن نحقق لك ما نتمناه لك، وما نتمناه فيك،.وما نتمناه منك، لا ما تتمناه أنت أيها المواطن الحر.

فأنت غير ناضج أيها المواطن الحر، وليست لك تجربة كافية أيها المواطن الحر... فكن معنا، وكن بنا، وكن فينا، وكن لنا، تربح الكثير وتحصل على الكثير وتفتح أمامك الكثير من الأبواب والمغاليق أيها المواطن الحر.

أيها المواطن الحر، لدينا هنا الدقيق والزيت، دقيق من قمح أمريكي أصيل، وزيت من شجرة زيتون مسروقة، اغتصبها لص صديق في وطن محتل، وقد استوردناها خصيصا لك، أعطنا حريتك وكرامتك وخذ الدقيق والزيت، وعِشْ لحظتك هادئ البال، بعيدا عن منغصات التفكير والثقافة والحرية، تلك البدع التي اخترعها أعداؤك لينالوا بها منك. فدعك منها، وعِشْ مستريح البال بنا ومعنا وفي ركابنا أيها المواطن الحر.

أما النوع الثاني من الجراحة: فهو يتصل بنفسية وعقل مجموع أفراد وجماهير الموطن الحر، الجماهير التي تحولت إلى دواب لا هم لها، ولا اهتمام لديها إلا الطعام والجنس

وشيئاً كثيراً من الثرثرة الفارغة، وضاعت منها في غمرة البحث عن ذلك هويتها وثقافتها ودينها، فلم تعد تسمع إلا نداء البطون، ولم تعد تتحرك إلا لمطالب البيت والزيت وهمِّ الرغيف والمسكن، وتحاول الحصول على ذلك بشتى الوسائل والأساليب ولو كان الثمن من عفة الإنسان وشرفه وكرامته.

ودعك من قضية الحلال والحرام فقد تلاشى الإحساس بها، ونُسيت تماماً تحت وطأة الحاجة وضغط الحرمان، ودبت جرثومة الذل في نفوسهم بعد أن غرست أنيابها وبذورها في ضمائرهم، وسيطرت على قلوبهم فجعلتهم يقبلون العيش وسط مهانة العار، ويرضون من الحياة بما لا ترتضيه القطط والكلاب الضالة من بقايا الموائد في ليالي الشتاء الباردة المظلمة.

وغابت عن حياتهم قيم العزة والعفة وكرامة الإنسان.

وتراجعت عواطف الإيثار والحب ليحل محلها الوصولية والشللية والنفعية، وقد عبر أحد الزجالين عن هذه الحالة بقوله:

شيِّلْني وشيَّلكْ، وأنا برضه فرحتلك! وأنا بتاعك يا بيه! وأقدر ما اقدرش ليه! وأنفع ما انفعش ليه!

وبسقت أغصان الذل في كل ناحية،بعد أن غرست القيم السلبية الجديدة بذور الطمع في كل بيت، وفي كل مؤسسة وبين كل شخصين.. حتى ولو ربطتهما أخوة نسب ورحم، مما يستدعي تدخلاً بجراحة سريعة، تستأصل هذا الداء، وتقضي على تلك الجراثيم الفتاكة، وتعيد للإنسان توازنه المفقود، وإنسانيته الضائعة، كما تعيد إليه رشده وحرارة الإيمان فيه.

تُرى من يقوم بهذه الجراحة غير علماء الأمة؟ وأين هم من هذا الدور؟

وهل لديهم آليات الخطاب الديني الحي الذي يوقظ في الإنسان شعوره بإنسانيته وآدميته وبالمسئولية ودوره في خلافة الأرض وعمارة الحياة..؟

إنه لدور كبير، يزداد حجمه وضرورته كلما زادت كثافة الظلمات، واستمر الليل بظلامه، ويتحتم وجوده كلما زادت شراسة أطباق الشر، تلك التي تمسك بخناقنا وتنتشر

فوق البيوت لتجلب إلينا -بالصوت والصورة- أعتى وأشرس ما صنعته شياطين هوليود، وأحدث ما أنتجته عصابات شيكاغو..

فمن لهذه الأمة غير العلماء؟ ومن يقود الركب غير العلماء؟ ومن يرفع كفاءة جهاز المناعة لدى الجماهير فيحصِّن الجيل الحالي والأجيال القادمة غير العلماء؟

ومن يعطي المصل الواقي من جراثيم الأيدز الفكري والثقافي والاجتماعي الذي يفد إلينا مرتديا ثوب الحضارة الحديثة، ومتوشحاً بوشاح النظام العالمي الجديد والعولمة غير العلماء؟

ومن يحذر الأمة من رياح الخماسين التي تهب عليها محملة بجراثيم الوضاعة والمعصية وفقدان المناعة غير العلماء؟

ومن يشير إلى الداء، ويصف الدواء، ويحصن المجتمع من سدنة الإيدز ورواد ثقافة التطبيع وسلام المتحضرين، ودعاة تسليم كل المفاتيح للاستعمار الجديد الذين يطبلون له، ويزمرون، ويدعون إليه، ويمهدون له الأرض، ويؤهلون النفوس لقبوله واستقباله والتأثر به... والتعايش معه، والتكيف مع أهدافه ومطالبه!

من غير العلماء يفعل ذلك ويقف في وجه هؤلاء؟ من لهذه الأمة يا ترى غير العلماء؟.

إنهم عقل الأمة وإرادتها..فهل يعود العقل لأداء وظيفته؟

وهل ستسمع الدنيا مرة أخرى صوتا يشبه صوت العز بن عبد السلام ويحاكي مواقفه حين قرر أن الطاغية لا يجوز أن يحكم لأنه مملوك والشعب حر، والمملوك يجب بيعه في سوق النخاسة ليعود ثمنه لبيت مال المسلمين؟

وهل يعود قلم الغزالي وعقل ابن تيمية ليبعث الوعي الذى غاب وافتقدناه.؟

وهل يبعث من جديد سيف صلاح الدين ورجولته ليعيد العزة التى ولت وراحت، ويقيم الفرض ويحرر الأرض ويطهر المقدسات والعِرْض؟

ذلك كله لا يحدث في النوم ولا يحدث ليلا، فاستيقظ أيها المواطن الحر.

إلى كتيبة النور لا كتائب التنوير والتزوير (*)

رغم ما يحمله مصطلح التنوير من معانٍ جميلة إلا أنه أصبح بالتحريف وصفًا لكل من يحبر ورقة بقلم معتل وفكر مختل ومحتل، يخرج به صاحبه على ثوابتنا ويجرح به عقائدنا ويتمرد فيه على ديننا الحنيف؛ لذلك سنعدل عن وصف كتيبتنا فى جريدة "المصريون" من التنوير لتكون كتيبة النور.

والتنوير فى اللغة جاء بوزن تفعيل، فكأنه يحمل معنى التصنع والتكلف، وربما الضغط والقسر والإكراه، بينما النور بطبيعته يكشف لك الأشياء ويترك إرادتك حرة فى المقارنة والتفكير والاختيار.

وإذا كان لى شرف المشاركة والانتماء لتلك الكتيبة العظيمة بمقال أسبوعى على مدار السنوات الماضية، ومن ثم فإنى أعتبر نفسى واحدًا من أسرتها الكريمة، فإن هنالك مالكًا أصليًّا لهذه الجريدة وشريكًا مرفوعًا هم مجموع القراء، حيث هم شركاء فى الفكر والأهداف والغاية يكفلوننا فى الأزمات ويتحملون معنا المخاطر؛ لذلك فكل التهنئة والتقدير والحب لهم لأنهم هم محور العلاقة ومركز الدائرة فى الحب بين كتيبة النور فى جريدة "المصريون" وقرائها.

وفى داخل كتيبة النور، وبشكل غريب وعجيب، تتجذر علاقة الإنسان بالناس وبالمكان، فهنالك أناس تحبهم ولكنك لم تلتق بهم يومًا إلا عبر الأفكار والرؤى والتصورات والغايات الكبرى.. وهناك من يكون قريبًا منك فى الدار ولكنك لا تلتقى به ولا تحب ذلك أو تتمناه، وجريدة "المصريون" لا أعرف فيها إلا شخصين اثنين ارتبطت علاقتى بهما قبل أن تتحول من موقع إلكترونى يرتاده الباحثون عن المعلومة الهادفة والخبر الموثق، ومن كانوا بالأمس القريب ينتظرون فجر الثورة الصادق أيضًا، إلى جريدة تملأ السمع والبصر، وتحظى بتقدير الخصوم وخوفهم منها قبل تقدير الأنصار والأعوان، ويبدو أن حب الحقيقة والانحياز إليها يولد بين عشاقها نوعًا من الود والألفة تجعلك تشعر أن هؤلاء هم أهلك وعشيرتك، وأن رحمًا جديدة تتخلق بينكم فترتبط بالحب بين

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٤ – ١٠ – ٢٠١٢م

من يخدمون الحقيقة فى هذه المهنة العظيمة "مهنة العمل الصحفى"، ويقدمونها للناس طاهرة من محاولات العبث ونقية من رتوش التزييف.

اللقاء المتجدد عبر كل مقال تقرأه للزملاء يوميًّا أو أسبوعيًّا لا يحدث لك تراكمًا فى المعلومات فقط، وإنما يحدث تراكمًا ونموًّا فى الحب أيضًا، فتجد نفسك بإرادة من قلبك تحب فراج وموافى والبسيونى والعركى والقاعود وسيف الدولة ومختار نوح ويوسف عدس والرطيان وحسام فتحى ومحمد هشام راغب وصلاح الإمام ومحمد حلمى ومحمد خضر الشريف، بالإضافة إلى أبناء سلطان، وكل الصفوة من فرسان الكلمة والقلم فى كتيبة "المصريون" التى تبنى لمصر فكرًا جديدًا يناسب ثورتها ومقامها وقامتها، وتغار عليها وتدافع عنها ضد غزو التتار الجديد الذين يريدون تغيير هويتها وملامحها وينخرون فى ثوابتها.. الكتيبة الشريفة فى "المصريون" تقدم للأمن القومى المصرى وللوطن الكبير أعظم ما يحتاج إليه فى حماية اللحمة الحضارية لأبناء الوطن واستبقاء جيناتهم الاجتماعية نقية من أى عبث.

جنود الحقيقة، والذين هم فرسان كتيبة النور فى الجريدة الغراء، يستحقون كل أوسمة التقدير والشرف لأنهم لا يحمون الحقيقة فقط، وإنما يدافعون عن الوطن شعبًا وثورة وتاريخًا وحضارة، ومداد أقلامهم لا يقل قيمة وتقديرًا عن دماء الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم لتحيا مصر، وماتوا وفارقوا حياتنا ليعيش شعبها بكرامة وحرية.

قلم الكاتب الحر وكلماته تؤرق ليل الظالمين وتقض مضاجعهم رغم ما يملكه الظالمون من أجهزة القمع والترويع وحرق الأوراق ومصادرة الأفكار والحريات.

فى قلم الكاتب الحر وذاكرة القارئ الواعى تُختزن كل قيم وثوابت المجتمع النبيلة، كما يختزن فى وعى التاريخ كل مواقف الشرف التى كلفت أصحابها المعاناة ومصادرة الكتابة والمنع من السفر والترويع بالليل، حتى جاء الفجر الصادق بثورة ٢٥ يناير وهو يحمل نسيم الحرية يستنشقه الأحرار ويعانقونه عناق الحبيب المشتاق للحبيب العائد من بعيد صاحب القلب المعَنَّى.

كتيبة النور كان لفرسانها إسهاماتهم الفاعلة فى تحريك مخاض الثورة، وهو مخاض حمل معه بعض الآلام ولكنه عجل بولادتها ولادة طبيعية، نجت فيه الأم بحمد الله وأنجبت مولودها صحيحًا سويًّا.

المالك الأصلى لهذه الجريدة وهم "مجموع القراء"، يستحق كل التقدير لصبره وصموده وبقائه واستمراره فى تقديم أعظم الدعم المعنوى حين يستعلى بوعيه على كل الإشاعات المغرضة، ويفضح بإدراكه العالى كل مخططات الثورة المضادة.

ولذلك أستأذن كتيبة النور أن أهنئ أولاً القارئ الكريم الذى كان النور خياره الأوحد حين تخبط آخرون وضاعت بوصلتهم وانحرف طريقهم، وأن أزف إليه التهنئة بالعيد مع بداية فرحته، وأن أفرد بساط تلك الفرحة ليشارك فيها بالتبادل كل الكتاب وكل العاملين فى "المصريون" باعتبارهم تيار النور الموصول دائمًا حين كانت مصر تعانى قطعًا لكل تيار الوعى، ولا تسمح إلا لكتائب العبث التى تتصف زورًا بالتنوير لتقذف بسمومها الملوثة فى كل البيئة المصرية فتغتال عقول أبنائها وتشل قدرتهم على الحركة الثورية بضربات استباقية، وتجفيف لمنابع الفكر الأصيل حتى لا يبقى فى الحظيرة إلا شر البقر.

المال الحرام كان قد مال بأصحابه وانحرف بهم، ولأنه تَكَوَّن من زواج بالسلطة غير شرعى استمتع به بعض المنفذين فقد أنتج فسادًا فى التصرف وسوءًا فى التوزيع، فما كان يجب أن يصرف فى إغاثة الفقراء وسد حاجتهم وإنقاذ سكان العشوائيات، ونهضة الشعوب وتقدمها، وحماية كرامة الإنسان، ونصرة المظلومين والمحاصرين، وبناء المعاهد العلمية والمستشفيات، ما كان يجب أن يصرف فى كل ذلك تحول بالسفه والإسراف وسوء التربية وسوء الخلق ليكون وقودًا لسهرات الليالى الحمر بين أحضان البغايا، فصرفت الملايين فى استمالتهن وتدليلهن تارة، وإرضائهن بعد غضب تارة ثانية، ثم صرفت الملايين مرة ثالثة فى الانتقام والثأر منهن بعد عصيان وهجران.

زواج رأس المال بالسلطة هنا أتاح الفرصة لطلاب المتعة الحرام والثراء السريع أن يغتصبوا أموال الدولة وأرضها بعقود تحمل معنى الاستهبال والاستعباط واستحمار الشعوب.

فى ذلك الزمن الأغبر كانت مصر فى فكرها كمصر فى جسدها، أصابتها سموم المبيدات المسرطنة فضربت الأكباد والكلى، وتسلط على فكرها وثقافتها كتائب الشر ممن كانوا يتحركون بأوامر أمن دولة الظالم ويكافئون برئاسة تحرير صحفها الصفراء والحمراء والسوداء والرمادية، فكان احتلال الثقافة قبل احتلال الأرض، وكان احتلال

الضمائر والمشاعر مقدمة التفريط فى العرض والمقدسات، لكن رحمة الله قريبة من المحسنين دائمًا، فقيضت لها تلك الرحمة بعض أبنائها وبناتها ورجالها وخرج الجميع متمردين على القهر وثائرين على العدوان والظلم، وكانت كتيبة النور قد مهدت لهم ميدان تحرير المعرفة وأضاءت لهم سماء الحرية بنور اليقين فى نصر الله والثقة فى وعده وحكمه وحكمته فكانت الثورة.

إلى القراء الكرام الذين هم أصدقائى فى القضية وشركائى فى الفكر والتصورات، وإلى أهلى وعشيرتى من أسرة التحرير وكل الفرسان فى "المصريون" صحيفة الفكر النظيف والقلم الحر والكلم الطيب، أهنئكم جميعًا يا جنود كتيبة النور، كل عام والوطن حر، والفرحة أكثر والعطاء أكثر وأكثر، كل عام وأنتم بخير.

النافذة الرابعة

من تونس كانت البداية

(بوعزيزة.... وشرارة الثورة)

في مجتمع الطغيان لا يتأتى الفساد من الرأس الكبير فقط، وإنما من الحاشية التى تحيط به، وهذه الحاشية هي مؤسسات هامان، المرتبطة بوجود الطاغية والمتجذرة بجذوره، مؤسسات المنكر هذه تتولى هندسة الرأي العام لقبول كل ما يصدر عن قصر الطاغية، تفلسف للطغيان، وتنظر لتأليه الطاغية، وتقلب الحقائق فتصور غضب الشعب بأنه ترنيمة صلاة بالدعاء للحاكم، ومعزوفة غناء بالنشيد الوطنى تحية له، وتحول بكاء الثكالى والأرامل بأنه بسمات الرضا المتبتلة بالثناء عليه، تعطيه دائما تقارير بأن كل شئ تمام التمام، وأن كل تصرفاته تلقتها الأمة بالقبول والرضا، وأن المعترضين ما هم إلا فئة قليلة ضالة وحاقدة رافضة للتنمية والتخطيط للمستقبل، إنهم الظلاميون الذين يرفضون المدنية والحداثة.

التونسيون والثورة على المذلة (*)

من خصائص الطاغية أنه:

يقرب الدنئ. ويبعد البريئ، ويصنع البذيئ، ويصطفى المنافق، ويمنح الموافق.

وقد يعجب المرء لهذا الاختيار الغريب، لكن يجيبنا المفكر الإسلامي الكبير الدكتور مصطفى السباعي رحمة الله عليه فيقول: "إن لله سيوفا يقطع بها رقاب الظالمين، منها أخطاؤهم" والناس في تونس قد اختصروا كل الطرق ولخصوا بذكاء فطري شديد وبشكل عملى كل النظريات في الإصلاح والتغيير ومقاومة الطاغية.

ففي مجتمع الطغيان لا يتأتى الفساد من الرأس الكبير فقط، وإنما من الحاشية التى تحيط به، وهذه الحاشية هي مؤسسات هامان، ومؤسسات هامان تمثل مؤسسات المنكر المرتبط بوجود الطاغية والمتجذر بجذوره، مؤسسات المنكر تتولى هندسة الرأي العام لقبول كل ما يصدر عن قصر الطاغية، تفلسف للطغيان، وتنظر لتأليه الطاغية، وتقلب الحقائق فتصور غضب الشعب بأنه ترنيمة صلاة بالدعاء للحاكم، ومعزوفة غناء بالنشيد الوطنى تحية له، وتحول بكاء الثكالى والأرامل بأنه بسمات الرضا المتبتلة بالثناء عليه، تعطيه دائما تقارير بأن كل شئ تمام التمام، وأن كل تصرفاته تلقتها الأمة بالقبول والرضا وأن المعترضين ما هم إلا فئة قليلة ضالة وحاقدة رافضة للتنمية والتخطيط للمستقبل، إنهم الظلاميون الذين يرفضون المدنية والحداثة، ويريدون منا أن نعود لعصر الصحراء والإبل، وأن الفقر والجوع والأطعمة الفاسدة والمياه الملوثة وسرقة أراضى الدولة وبقاء الخريجين عشرات السنين بلا عمل، كلها مشكلات ليست محلية، وإنما هى مشاكل دولية تعانى منها كل الدول والمجتمعات حتى أمريكا نفسها.

مؤسسات هامان تصدر البيان تلو البيان تحذر الانتهازيين من استغلال معاناة الشعب للحديث عن ضرورة التغيير أو التفكير فيه، وأقلامهم ترتعش عند ذكره، وألسنتهم تتعثر عند النطق به، وقلوبهم ترجف من الخوف على زوال الطاغية.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٧ – ١ – ٢٠١١م

الطاغية هو إلههم الذي يعبدونه، فبحمده يسبحون، وبذكائه يشيدون، ويذَكِّرون الشعب دائما بأن السماء قد اختارته حين وضعت هذا الطاغية في طريقه، وأن العناية قد اصطفته لنا من دون البشر، فهو الملهم، وهو العبقري، وهو القائد المعجزة.

مؤسسات هامان تمارس التكذيب والتزييف وقلب الحقائق وبعض أعضائها بلغت نسبة عمولاته في اليوم الواحد أكثر من ٣٦ ألف جنيه في اليوم الواحد، نعم في اليوم الواحد فقط وليس في الشهر، فلماذا يكون التغيير،التغيير يعنى ضياع مزاياهم وزوال سلطاتهم.

بعض الناس يحمل في جوانحه طباع الأحرار وأخلاقهم، فإذا رأى الحق سارع إليه وآمن به، ودعا الناس لتصديق رجاله وللإيمان به: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس: ٢٠-٢١).

وأغلب الناس يحملون في جوانحهم طبائع العبيد وأخلاقهم.

والذين يحملون طبائع العبيد هم بالقطع للبيع،لا يبيعون أنفسهم فقط وإنما أيضا يبيعون شرفهم وكرامتهم وضمائرهم، ويبيعون أوطانهم.

بعض هؤلاء يتخذ الطاغية من جلودهم نعالا ومن شعورهم حبالا،ويمركزطوائف منهم حول سلطانه حتى يرتبط وجودهم ببقائه، ومن ثم يدافعون عنه حتى الرمق الأخير من حياتهم.

وبعضهم كالبائع المتجول لا يعنيه إلا أن يبيع، ومن ثم فهو يأكل على كل مائدة وينوح في كل مأتم، ويرقص في كل فرح،وقد يمارس كل هذه السلوكيات المتناقضة في يوم واحد.

بعض هؤلاء مثل قباقيب الميضة أيام العهد العثمانى، يرتديه كل من يريد أن يدخل بيت الراحة " الحمام "ولذلك فهم جاهزون للخدمة وتحت الطلب في كل وقت، فإذا ذهب الطاغية الذى كان يعطيهم وتغيرت الأوضاع بحثوا عن طاغية آخر ليخدموه.

من هؤلاء مع الأسف الشديد من يستخدمه نظام الطاغية لا ليكون ككلب الحراسة، وإنما ليكون كالكلب العقور، يغمز إليه الطاغية فيتحرك بالهجوم سبا وقذفا

وردحا من كل لون، المهم أن يرضى سيده عن الأداء وأن يكون لنباحه أثر وصدى في جرح خصوم سيده.

كتبة وإعلاميون كثيرون يمارسون هذا الدور، وهم على استعداد لتأجير أقلامهم لمن يدفع.

ظاهرة من يحملون طبائع العبيد كانت واضحة في الأحداث الأخيرة، ظهرت بعد حادث الإسكندرية، وعلا نباحهم بعد أحداث تونس في محاولة لحجب تأثير الثورة التونسية فراحوا يشوهونها ويدعون أنها حالة خاصة، وأننا لسنا كتونس وظهر الذعر واضحا فى ارتعاش كلماتهم وأقلامهم.

وهذه الأقلام هى نفسها التى استأجرها طاغية تونس من قبل، فالرجل كان طاغية من النوع الخبيث؛ ولذلك استأجر من يحملون طبائع العبيد في الداخل والخارج لتلميع صورته وتقديمه على أنه حاكم مدنى ديمقراطي من طراز فريد.

هؤلاء قد تواتيهم الفرصة فيختار الطاغية منهم قادة في بعض المواقع، لكنهم يظلون عبيدا وإن ملكوا القرار، وإن تولوا أعلى المناصب، وسكنوا ناطحات السحاب، وكانت بأيديهم كل وسائل النفوذ والسيطرة والسلطة، فلا تعود العقول إلى رؤسهم الفارغة إلا أمام الصواعق وبعد فوات الأوان، وفي هؤلاء يقول ربنا: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الاوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا) (الكهف: ٥٥).

إنهم صنف عجيب من البشر، عبيد لشهواتهم، متعجرفون على خلق الله، إذا حكموا ظلموا، وإذا خولت الأرزاق إليهم منعوا وقطعوا، وإذا دانت لهم رقاب العباد أسروا وسجنوا وأهانوا وجوعوا وعذبوا، تعظهم فيسخرون ولا يتعظون، وتحدثهم فلا يستمعون،وتنصحهم فلا ينتصحون، وتذكرهم فلا يتذكرون، فهم قد ظلموا أنفسهم، وظلموا أمتهم ومجتمعاتهم، وعرَّضوا أنفسهم والجميع معهم لسوء المصير وسوء الخاتمة، ومصيبة هؤلاء في الدنيا كبيرة وخيبتهم يوم القيامة أخزى وأذل. (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) (الكهف: ٥٧).

ألا ترى معي عزيزي القارئ أن مواقف الطغاة تتكرر في الزمن الراهن؟ وأن سعار القهر والدكتاتورية يرتفع لهيبه ويتطاير شرره؟ وأن الطموح والكبرياء الغبي يدفع أصحابه إلى رفض النصيحة والتشبث بجوقة النفاق وحراق البخور والمبشرين بآيات وتراتيل الفكر الجديد والعهد الجديد؟

ثبت بالتجربة أن كل الطغاة مصابون بالعمى الإرادي والعته الفكرى وعدم إدراك عبر التاريخ. (أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ) (التوبة: ١٢٦).

قد يستطيع الباطل يوما أن يسكت صوت الحق، وقد يستطيع فترة من الزمن أن يحاصر أهله، ولكن هيهات تُكتمْ في الظلامِ مشاعل.

خيبة الأمل راكب جمل (*)

الثورة التى قام بها الشباب في ٢٥ يناير الماضى أحدثت نقلة نوعية في عالم العلاقات الدولية، وبقدر ما كانت رائعة ومبهرة، بقدر ما كانت مذهلة ومزلزلة. وكان هذا هو حجم المفاجآت فيها.

فهي رائعة لأنها صدرت عن شباب يفترض فيهم بمقاييس المنطق وعلم الاجتماع أن يكونوا بلا هوية ولا هدف ولا غاية، فمن طبائع الاستبداد أنه يخرج أسوأ ما في البشر، ولقد جثم هذا الاستبداد على أنفاس مصر بأجيالها ثلاثة عقود، وكان يفترض بعد عقود الكوارث الثلاث هذه أن يكف قلب مصر عن النبض والخفقان، لكن الثورة كشفت عن إحساس مرهف في الجسد المصرى المعنَّى، وأن القلب ينبض بكفاءة واقتدار، وأن المنتج البشري في عقود الكوارث هو المصل الواقى، وهو الذى يحمل في فكره ووجدانه الترياق من سموم الفساد وشرور القهر والاستبداد واللصوصية، وكان المنتج الجديد بعكس ما أراد النظام يحمل أنبل وأنقى وأطهر ما في البشر،ففى وجدانهم وفكرهم الجديد تجلت حضارة مستكنة، ظهرت أخلاقها في السلوك الراقى والإصرار على حماية الممتلكات الخاصة والعامة، ثم المحافظة على النظام في مجتمع عرف بالفوضى واشتهر بها لأكثر من ربع قرن.

وبجانب ذلك كان الإصرار على المبدأ العظيم بتغيير النظام بداية بسقوط رأسه، دون أن يفرط أو يساوم، وكل ذلك على عكس ما أراد النظام وخطط، ومن ثم كانت رائعة.

وهى مبهرة لأن النظام قد حرص طوال ثلاثين سنة أن يسلط على عقولهم كل وسائل وآليات التخدير والفساد التى تصب على رؤوسهم من وسائل إعلامه، ومن ثم كان يفترض فيهم أن يتجردوا من إنسانيتهم، وأن يكونوا مثالا للانحراف والغواية والضياع، وأن يتحولوا إلى مجرد حيوانات لا تبحث إلا عن الطعام والجنس، لكن الشباب كانوا مثالا للجدية والقدرة الفائقة على التخطيط والتنظيم والحشد، وهذا مالم يكن في حسبان النظام ولا حتى في حسبان غيره، ومن ثم كانت مبهرة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٠ - ٠٢ - ٢٠١١م

وهى مذهلة لأنها من جانب قلبت موازين قياسات الرأي العام لدى أجهزة الرصد والاستخبارات واستشراف المستقبل في العالم كله، حيث أحدثت شيئا أشبه ما يكون بالصدمة في نظام رأى الجميع أنه من أكثر النظم ثباتا واستقرارا في المنطقة، وفى مقدمة من كان يرى ذلك الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، ومن ثم كان التردد في تقدير الموقف والتخبط في التصريحات خصوصا لدى الإدارة الأمريكية، ومن ثم كانت مذهلة.

وهى مزلزلة لأنها والثورة التونسية قبلها جعلت الغرب كله ومعه الولايات المتحدة الأمريكية لأول مرة في موقع رد الفعل، وهذا جانب.

ومن جانب آخر أنها صدرت من شريحة شبابية حُبسَتْ أمامها أنفاسُ الدنيا وهى تخط لمصر وللمنطقة كلها دورا جديدا وتاريخا جديدا في ميدان حر، هو ميدان التحرير وليس في الغرف المغلقة لأجهزة C. I. A ومن ثم كانت مزلزلة

وإذا كان الشعر ديوان العرب يسجلون فيه المآثر والأمجاد، فإن المثل الشعبي ذاكرة دونت حدثا في الماضى، كثيرا ما يستدعى في ظروف مشابهة لأخذ العبرة واختصار شروح طويلة، وفيه تكمن خبرة الأيام وتجارب السنين، وفى قرى مصر المحروسة يختزن المثل الشعبي كل هذا الرصيد، فهم عندما يعبرون عن حالات الفشل المتكرر الذى لم يصادفه الحظ ولو لمرة واحدة يقولون: " خيبة الأمل راكبة جمل"

والأحداث الأخيرة في قاهرة المعز أثبتت بالدليل الذى رأته عيون العالم كله فشل الحزب الوطنى المتكرر وأنه بما فعل في تلك الأحداث وثَّق تلك الخيبة حين ركَّبَها على جَمَل، بل إنه إمعانا في إظهار الفشل وسوء الطالع استعان مع الجمل بالخيول والبغال أيضا فكانت خيبته وغياب عقل بعض أعضائه لا يحملها الجمل فقط؛ لأنه ينوء بحملها، وإنما يحملها البغال والخيول والإبل، فكانت الفضيحة بخلاخيل وجلاجل، الأمر جعل الحزب يستحق بجدارة وصف "خيبة الأمل راكبة جمل" الثورة أظهرت أيضا وكشفت حجم العاهات والإعاقات العقلية لدى أركان النظام.

فمصر الحضارة والتاريخ والإنسان المبدع،ومصر الفلاح والعامل والفنان،ومصر الإنسان الطيب والبسيط،ومصر العقل والفكر والثقافة، ومصر الرشد والطيبة والخلق، ومصر الشباب العفي والعفيف والطاهر.

مصر كل هذا دخلت مرغمة وكارهة في مواجهة منطق أصحاب نظرية حرب الخيل والبغال والإبل، وهوالمنطق الذى حكم مصر لمدة ثلاثين سنة.

منطق السكين والمطواة، والبلطة والهراوات، والأسلحة البيضاء والسلوك الأسود. منطق التزوير والتحريف والكذب، منطق البلطجية هوالذى ساد وعلى مدى ثلاثين عاما.

والبلطجية بالمناسبة جمع بلطجى، والبلطجى ليس لصا يسرق في الخفاء وتحت جنح الظلام، وإنما هو لص يسرق بالقوة تحت تهديد السلاح وفي وضح النهار.

ارتبط هذا الوصف في الوجدان المصري المعاصر بانتخابات الحزب الوطنى

والجديد في الأمر أن تطورا عظيما طرأ على هذه المهنة "مهنة البلطجي" لتستخدم في مهمات وطنية لخدمة الشعب لدى وزارة الداخلية.

بعض البلطجية من عتاة المجرمين المحترفين، ومنهم من يقضى أحكاما في سجون المحروسة، ويفرج عنه مؤقتا عند الحاجة إليه ليؤدي تلك المهام المتصلة بأمن البلاد وحماية العباد من شرور المتظاهرين وأعداء التيار الوطنى، وبعضهم فقير وعاطل ولديه ظروف اجتماعية ضاغطة كما جاء في اعترافاتهم.

النظام استغل حاجة هؤلاء جميعا وأخرجهم في مقابل مبالغ مالية ومعهم بعض ضباط أمن الدولة، فكانت تلك الكارثة التى كادت أن تحرق مصر كلها وأن تدخلها في بحور من الدماء لولا عناية الله ثم يقظة المتظاهرين وأبناء البلد.

مقتضيات السلوك الحضارى:

من مقتضيات السلوك الحضارى في عالم العلاقات الإنسانية أن الخبر مقدس، وأن الرأي حر.

الخبر مقدس، بمعنى أنه يجب أن ينقل الحقيقة كما هى، فلا يصح أن يلونه القارئ أو المحرر بلون فكره واتجاهه وأيديولوجيته.

لكن بعض المحررين ومن ينقلون الخبر يضفون عليه رؤيتهم ورؤاهم ليحقق لهم هدفا معينا ولو كان مجافيا للحقيقة.

الرأى حر بمعنى أن الرأي يعبر عن رؤية صاحبه وهو حر في اختياره، واختياره يجب أن يُحترم، سواء توافقْت معه أو اختلفت، لكن هذه الحقائق لا يعرفها تلفزيون أنس الفقى والحزب الوطنى "خيبة الأمل راكب جمل".

ومن مقتضيات السلوك الحضارى في التعبير عن الرأى أن تبدى رأيك مؤيدا أو معترضا، ولكن ليس من حقك أن تعتدى على من يخالفك الرأى وأن تسلط عليهم البلطجية، وأن تقذفهم بقنابل المولوتوف، وأن تدخل في حربك معهم بالخيول والبغال والإبل في زمن لا يمكن فيه حجب الصورة عن العالم، ثم لا ينقل التليفزيون الرسمى شيئا عن هذه الغزوة الفاشلة والتى استعمل فيها كل أسلحة "خيبة الأمل راكب جمل" فجلب العار لنفسه ولأهله، ولمن ركبوه وركبهم.

ثورة الشباب بدأت بالإيميل والفيسبوك والتويتر، بينما يقابلهم الآخرون بقطع وسائل الاتصال، بداية بالهاتف المحمول وإلغاء الرسائل النصية والإنترنت، ثم يتطور سلاحهم في مواجهة الثوار إلى سكاكين البلطجية والخيول والبغال والإبل.

غباء النظام هنا نسي أن قبضته بحكم التطور قد شاخت، وأن يده في حجب المعلومة قد تراخت، وأن الدنيا قد تغيرت وتحولت، بينما هو لا يزال يعيش في كهوف التخلف والغباء الذى أراد أن يفرضه على شعبه، لكن الثورة قد أطاحت به وبغبائه واستطاعت أن تواجه قنابل الغاز والمولوتوف وهراوات البلطجية بكاميرا في هاتف صغير ينقل لكل الدنيا فضائحه وفظائعه.

أركان النظام هنا ومن يواليهم ويفلسف تصرفاتهم الغبية كان الأجدر بهم أن ينتحروا احتراما لأنفسهم وفرارا من فضيحة ستلاحقهم إلى الأبد.

تلك هي العقلية التى تحكم مصر منذ ثلاثين سنة، عقلية البغال والخيول والإبل، فماذا تنتظر من نظام هذه هي أركانه.

الحزب الذى حكم مصر بمنطق البغال والخيول والإبل يجب أن يحاسب على تلويثه لشرف مصر والمصريين.

هذا الفعل الفاضح، والسلوك المشين الذي لا ينتمى إلا لعصور ما قبل الميلاد، لا يشوه ولا يتنافى مع مقتضيات السلوك الحضارى فقط، بل إنه يشكل جريمة كافية وكاملة

الأركان لإدانة عصر بكامله، يجعل الدنيا تضحك ساخرة مما يحدث عندنا، ويسقط مكانة مصر حضارة وتاريخا من عين العالم.

المسؤولون عن هذا الفعل المشين أساءوا إلى مصر تاريخا وحضارة وبشرا.

فضائح النظام لم تتوقف عند الرشوة والمحسوبية ونهب الأموال العامة وسلب حرية المواطن وإهانة كرامته وشتى أنواع الفساد، بل أضافو إلى كل ذلك فضيحة جديدة تسيئ إلي الوطن فكرا وثقافة وحضارة؛ ولذلك يجب محاسبتهم على هذه الفضيحة. كان هنالك إصرار على حرق المتحف المصري ولا أدرى لماذا؟

مدى علمى أن المتحف المصري بمحتوياته التاريخية والحضارية الثمينة لم يعلن أنه مع "المحظورة" ولم ينضم إلى صفوف المعارضة الهزيلة، ولم يكن مع المعتصمين الشرفاء في ميدان التحرير، فلماذا كان الإصرار على حرقه.؟

لقد حان الوقت للمصريين ولمصر أن تقتص من نظام وحزب أهانوا كرامة أبنائها ونهبوا ثرواتها، وباعوها في سوق النخاسة الدولية، ثم عروها وهتكوا سترها وجردوها حتى من ورقة التوت، ونقلوها في آخر المطاف إلى العصور الوسطى حيث إخرجوا على مدى ثلاثين عاما أسوأ ما في البشر فكانت حروب الخيول والبغال والإبل، بينما أخرجت الثورة أطهر وأشرف ما في الإنسان حيث ربطته بجذوره الحضارية فتجلت خلقا وسموا وتضحية ونبلا.

أيها الثوار في ميدان التحرير وكل أرض مصر الآن ميدانًا للتحرير.

اطمئنوا: فمن خلفكم الآن كل مصر، بما فيها الإنسان والحيوان والنبات والشجر والحجر والأرض والسماء، واحذروا: فإن من حولكم الآن ذئاب السياسة، ودهاليز الحوار بما فيها من دهاء لا حدود له، وألاعيب أجهزة الاستخبارات التى تعمل في خبث على تشتيت الثوار وإنهاك قواهم وتغيير مسارهم، وعواجيز الفرح الذين جاؤوا فقط ليحصلوا على نصيبهم من الغنيمة، ومن يجيدون القفز على كل الحبال، وقناصة الفرص الذين هم كنبات اللبلاب. احذروا هؤلاء جميعا وعيوننا عليكم، وقلوبنا معكم، ودعاؤنا لكم أن يحفظكم الله ويرعاكم بعنايته من كل هؤلاء.

الشعب.. يريد (*)

"الشعب يريد" دواء جديد سريع المفعول، يتركب من كلمتين بدأ اختراعه في تونس وتم تطويره في مصر.

"الشعب يريد" اختراع جديد حصل على براعته التونسيون ثم أجرى عليه المصريون تعديلات مهمة، فبدلا من استعماله لمدة أربعة أسابيع يمكن مع التعديلات الجديدة أن يقضى على مرض الطغيان والاستبداد في ثلاثة أسابيع فقط.

التعديلات الجديدة جعلت هذا الاختراع سريع المفعول في مقاومة وإسقاط الطغاة، وقللت في الوقت نفسه من آثاره الجانبية التى قد يستغلها بعض فلول النظام المخلوع. خصائص هذا الاختراع وطريقة استعماله. "الشعب يريد": اختراع رائع يجهد الطاغية فيحيل ليله أرقا، كما يجعل صباحه ثورة.

من خصائص هذا الاختراع الرائع بعد استعماله من ثلاثة إلى أربعة أسابيع.أنه يزيل غباء الحكام المطعمين ضد الفهم، وخصوصا ضد فهم شعوبهم فيجعلهم يفهمون وينطقون ويقولون فهمت، فهمت، فهمت.

من خصائص هذا الاختراع الجديد "الشعب يريد" أن له تأثير السحر، فمجرد التلويح باستعماله على الفيسبوك يجعل الحكام يفعلون في أسبوع واحد مالم يفعلوه في عشرات السنين.

"الشعب يريد" هو اختراع جديد ومن أخص صفات هذا الاختراع أنه يحدث صدمة دماغية في رأس الطاغية تغير ساعته البيولوجية، وتجعل استجابته للأحداث ووعيه بها متأخرا ربما أيام، ومن ثم تأتى ردود أفعاله دائما بعد فوات الأوان.

الاختراع الجديد من خصائصه أيضا أنه عندما يدوى صوته ويصل إلى أذن الطغاة يحدث على الفور ارتجاجا وارتجافا في حركة قلب الطاغية وأعوانه فتستجيب له بقية الأعضاء حيث ينهار جهازه العصبي ويفقد قدرته على التحكم والحركة، فترتعد فرائصه ويتصرف بشكل هستيري ويصاب بنوع خطير من أنواع الجنون الذى يدفعه إلى ارتكاب أعتى الجرائم الإنسانية، ويستعمل كل ما لديه من أدوات الإيذاء والتدمير والقتل، بداية

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٧ – ٠٢ – ٢٠١١م

بخراطيم المياه يطلقها على الناس ولو كانوا في صلواتهم، ومرورا بالرصاص المطاطي وقنابل الغاز، ثم الضرب في مقتل وبالرصاص الحي.

من خصائص هذا الاختراع الجديد "الشعب يريد" أنه إذا تم استعماله ضد الطاغية لأكثر من يوم فإنه يصيب سمعه وبصره بنوع غريب من التلف يعزله عن الزمان والمكان والناس، فيعزل نفسه ويحاول أن يعزل جماهيره عن الأحداث الجارية في الزمن الراهن فينقل إليهم عبر شاشاته أفلام كوميدية ومباريات كرة القدم ليلهيهم عما يحدث من زلازل حوله.

ورغم وجود كاميرات العالم كله وعيونه ومندوبيه لنقل أحداث الثورة ومراحل تطوراتها في ميدان التحرير إلا أن تلفزيون النظام حرصا من الطاغية على أهله وناسه ووطنه ولكى يريح أعصابهم فإنه ينقل إليهم عبر شاشاته وصحافته صورا خالية من أي إثارة عما يحدث قريبا منهم وعلى مسافة أمتار قليلة ولا مانع لديه أن يستعين بصور قديمة للميدان مع تعليقات جديدة لبعض المذيعين المعروفين كي تبدو الصور طبيعية، بينما قال الخبراء إن الصور قديمة أخذت لميدان التحرير حين كان الحنطور أفضل وسائل الانتقال.

تجاهل أجهزة إعلام النظام لما يحدث في ميدان التحرير وكأنه يحدث بعيدا عنهم في كوكب زحل والمريخ وعطارد، أصاب بعض المذيعين والصحفيين بشيزوفرينيا في شخصياتهم الأمر الذى دفع بعضهم إلى البحث عن طبيب نفسي، بينما قدم الآخرون استقالاتهم وذهبوا على أقدامهم ليلتحقوا بالثوار وليشهدوا ميلادا جديدا لحياة مصر.

"الشعب يريد"، دواء جديد يصيب الطغاة بنوبة فقدان للذاكرة فيرتد خياله إلى القرون الوسطى، ومن ثم ينتقل بتصرفاته وكأنه يعيش في ذلك الزمان فيدخل معاركه مزودا ومستعينا بالسيوف والخيل والبغال والحمير والإبل.

الشعب يريد: من خصائه أيضا أنه عندما يستعمل ضد الطاغية وأعوانه فإنه يصيب الخدم والحراس والمتمحلسين في أجهزة إعلامه من صحافة وتلفزيون وإذاعة بإسهال غير مسبوق من الجهتين، من فوق ومن تحت، فمن فوق لوحظ حالات إسهال يختلط فيها الهذيان بكم هائل من الإفرازات المخجلة تفوح منها روائح كريهة تزكم الأنوف وتلوث البيئة وتتهم الثوار المعتصمين في ميدان التحرير بأن وراءهم الجماعة

المحظورة وهم عملاء للخارج يتلقون الدولارات واليورو وتصل إليهم وجبات الكنتاكى ساخنة من إيران وحزب الله وجماعة حماس.

أما من تحت فمعروف أنها إفرازات لا تبلل ولا تلوث الملابس فقط، وإنما يحتاج أصحابها إلى نوعين من التطهر: الأول هوالدخول في مصحات أخلاقية تقوم بعملية تطهير وتعقيم لباطنهم من الكذب والنفاق والخسة، الثانى هو الالتحاق بمصحات طبية تقوم بعملية تطهير وتعقيم لملابسهم وأجسادهم تتم في مناطق عزل صحي وعلى أيدى متخصصين في التعقيم حتى لا تنتشر عدواها.

"الشعب يريد": من خصائصه أيضا أنه عندما يستعمل في منطقة معينة تحمل الرياح لقاحه فتصيب مجتمعات أخرى بشئ من العدوى تجعل حكامه والمستبدين فيه ينظرون إلى شعوبهم نظر المغشى عليه من الموت، وعند كل إفاقة يتحسسون حراسهم ورؤوسهم ليطمئنوا أنهم لا زالوا على قيد الحياة، وعندما يدركون أنهم ما زالوا أحياء تغشاهم صحوة ما قبل الموت فيسارعون إلى فتح سجونهم وإطلاق سراح المعتقلين والصراخ بأعلى ما تملكه حناجرهم لا سجون ولا معتقلات ولا تهليب، ولا تجديد ولا توريث.

الآثار الجانبية على المستعمل:

من الآثار الجانبية لهذا الدواء "الشعب يريد" أنه يزيد من يستعمله عنادا وإصرارا وثباتا وصلابة.

إنه يكسر حاجز الخوف لدى من يستعمله بكثرة، ويولد لديهم شعورا بالعزة والكرامة ويجعلهم يستهينون بكل ما يمتكله الطاغية من سلاح فيقدمون على مواجهته في شجاعة نادرة ولو كانوا عزل من كل سلاح ويتصدون له بصدور عارية، ومن ثم يسقط بعض الشهداء.

"الشعب يريد" اختراع من خصائصه أنه يصيب حراس الطاغية وأجهزة أمنه بحالات من الهلع فيفرون هاربين ويتنكرون في أزياء مدنية حتى لا ينكشف أمرهم.

"الشعب يريد" اختراع من آثاره الجانبية أيضا التشويش على القنوات الحرة وقطع إرسالها وإلغاء تصريحات مندوبيها إذا لزم الأمر، وضرب الصحفيين والمراسلين المحلّيين والأجانب ومنع المصورين ومصادرة الكاميرات.

"الشعب يريد" من فوائده أيضا أنه عند استعماله بكثرة يُخلِّص خدم النظام من فقدان الذاكرة، ويعيدهم إلى وعيهم الطبيعي فيدركون أنهم هنا وليسوا هناك، وأن زمن الطغيان قد ولى وراح، وأن وطنهم الذى خانوه قد استعاد ذاته، وهو الآن يعيش عهدا جديدا، ومن ثم يعود إليهم وعيهم شيئا فشيئا ويتعافون من حالات فقدان الوعي، وربما يساعدهم الدواء الجديد على الشفاء أيضا من حالات النفاق والوضاعة والكذب المتوطنة في نفوسهم.

الشعب يريد: لا تقتصر آثار هذا الاختراع العظيم على من يستعمله فقط بل تمتد تلك الآثار لتشمل المشاهدين أيضا ومن ثم تظهر آثاره عليهم فيما يأتى:

كان الوصول إلى سدة الحكم أملا يتطلع إليه بعض الطامحين، فأصبح بعد هذا الاختراع العجيب كابوسا مرعبا في حلم مخيف يصرخ فيه الإنسان مختنقا ويود أن يستيقظ منه ولوتحت دش حمام بارد.

"الشعب يريد" من أثاره الجانبية على من يشاهدون استعماله أنه يولد فيهم شعورا حادا بالحسرة والندم لأنهم ليسوا في موقع الأحداث وأنهم حرموا شرف المشاركة الفعلية فيها.

من آثاره أيضا أنه ينقل المشاهد إلى لحظات قلما تحدث في حياة الإنسان حيث تمتزج الفرحة والدمعة في عيون ومشاعر المشاهدين للحدث.

أن نتائج استعمال هذا الدواء تجعل القلب المعنَّى لم يستفق بعد من تلك الفرحة الممزوجة بالدمع، دموع العين هنا ليست ضعفا يكشف سر الإنسان وستره، وإنما هى قطرات تسيل من عمق الوجدان فتنفض عن القلب الموجوع كل مظاهر الضعف وتغسله من كل معنى للخوف أو السكوت على ظلم ومهانة فيشعر ابن الستين من عمره أنه شاب في العشرين عفي قوي، وبيمينه وفي داخله كل قوى الكون، وفي وطنه فرح يغمر النبات والحيوان والشجر والحجر والأرض والسماء.

من آثاره الجانبية هروب الكلمات وعجز اللسان والقلم أن يكتب عن تصوير تلك اللحظة التى يُسْقِط فيها هذا الدواء كل مهابة للطاغية وطغيانه فتنتابك دموع الفرح ممزوجة بكبرياء ثورة شعب عانى وتحمل وصبر واحتسب، حتى ظن بعض أبنائه أن سكوته على ضيم ومهانة، وأن مشاعره وأحاسيسه غابت ولم تتململ،فتمادى الطاغية واستبد وتجاوز.

وعلى قرب قريب من هذا الشعب، ومن بلد شقيق وصل إليه هذا الاختراع العظيم المكون من كلمتين "الشعب يريد"

الشعب يريد، نغمة تونسية تلقاها المصريون فاستطابتها أسماعهم.

"الشعب يريد" غناها المصريون لحنا جميلا ورائعا للحرية، وكانت المرة الأولى التى تتردد على ألسنة المصريين "الشعب.. يريد.. إسقاط النظام"

فقد كان الطاغية وحده هو صاحب الإرادة، وكان المنافقون يرددون على سمعه وبصره ما كان يردده قديما جدهم المنافق الكبير حين قال للحاكم:

ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنما أنت النبي محمد   وكأنما أنصارك الأنصار

فحيح الأفاعي تردد وتكرر على سمع الطاغية وبصره حتى ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة.

"الشعب يريد".

نعم الشعب الذى عانى وصبر واحتسب وتحمل ثار ونطق وغضب وهو الآن يريد، وكان له بفضل الله وعونه ما أراد.

سقط الطاغية ونظامه، ومن هنا كانت الفرحة أكثر اتساعا وامتدادا من وجدان الإنسان، وكان البكاء حيزا جديدا تتمدد فيه الفرحة مع قطرات الدمع التى فاضت بها عيون كل من سمع وشاهد الحدث العظيم.

"الشعب يريد"، كان هتاف ثورة فقأت عين اليأس وتحلى فيها الثوار بأقصى درجات الحكمة والحنكة، وتجلت في أخلاق أصحابها أسمي أنواع التحضر والالتزام والمسؤولية.

الشعب الآن يتنفس فرحا يفوق كل حدود.

وبين كل أوطان العالم تقف مصر الآن مزهوة بأبنائها، الكل يهنؤها ويهديها ويقتدى بها ويشهد بنبل وعظمة أبنائها.

"الشعب يريد" نداء ثوار وثورة استجابت لها الأقدار، وامتزجت فيها وفيهم قوة العقل حين يعمل مسيجا بقوة الأخلاق.

"الشعب يريد" هتاف لثورة شعب امتزج فيها الكامن الحضارى المستكن حين يربط بين الإنسان وبين تاريخه عبر سبعة آلاف سنة، فتتجلى قوة الإرادة مدعومة بعمقها الحضارى فتستعصي على أحدث أدوات وآليات القمع التى استجلبها الطاغية من أسياده الذين خدمهم على مدار ثلاثين سنة.

قوة العقل، وقوة الأخلاق، والكامن الحضاري المستكن، ظهرت كلها في الشخصية المصرية هنا فأنتجت ثوارا وثورة.

ثوارا وثورة،لا تنظف ميدان التحرير فقط، وإنما تكنس مصر كلها وتنظفها من الغباء الحزبى والعمالة السياسية والقهر والتخلف والفوضى والرشوة واللصوصية، وتبنى "مصر جديدة" المواطن فيها يعتز بانتمائه،ويمارس حريته بلا خوف، ويأخذ حقه غير منقوص بلا مَنٍ ولا أذى، ويعيش حياته بلا قهر ولا رشوة ولا محسوبية.

"مصر الثورة الجديدة والشريفة" الحاكم فيها إنسان يخدم شعبه ولا ينعزل عنه ولا يستعلى عليه. وطن ودولة، الحق فيها فوق القوة، والعدل فوق الخصومة، وإنسانية الإنسان فوق كل اعتبار.

"الشعب يريد" هذا هو ما يريده الشعب في المرحلة القادمة، "الشعب يريد" وهذا هو الدواء الجديد، وأنعم به وأكرم من ترياق يقضى على كل الطغاة والمستبدين، الكبار منهم والصغار الذين يخدمونهم.

فلول النظام من الكبار والصغار القابعين الآن في جحورهم ينتظرون الفرص ليثيروا الفتن ويقسموا الصف، وهم الآن يجمعون كل المستندات والأدلة التى تدينهم ليعدموها ويتخلصوا منها بطرق مختلفة وهم خبراء في التزوير والتحريف ولا يزالون أصحاب نفوذ وبعضهم في السلطة وبعضهم في وزارة أحمد شفيق.

"والشعب يريد" من المجلس الأعلى لقواته المسلحة وهو الذى يتولى الأمور الآن أن يكون على وعي بألاعيب هؤلاء، وألا يسمح لأي أحد منهم بالوصول إلى تلك المستندات مهما كان، حتى لا تضيع حقوق شعب تحمل المعاناة ثلاثين سنة ولذلك نكرر الشعب يريد أن تكون عيون الثوار والثورة عليهم، وكذلك عيون المجلس العسكرى مفتوحة بوعي يرصدهم ويحول بينهم وبين ما يشتهون.

"الشعب يريد" اختراع تقدمه تونس ومصر بمناسبة مولد الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، هدية لكل الشعوب المقهورة التى تتوق إلى الحرية والكرامة فقد جرب وثبتت فعاليته ويأتى بنتائج هائلة ومبهرة في أقل من أربعة أسابيع.

"الشعب يريد" اختراع هائل، كل الشكر والامتنان لمن اخترعوه في تونس الحبيبة. وفي عيون مصر وقلبها ومهجتها مَنْ طوروه وأدخلوا عليه من التعديلات ما يجعله سريع المفعول في اختصار عمر الطاغية.

الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (٤/١) (*)

ليعذرني القارئ إذا اختلط في هذا المقال ما هو خاص بما هو عام، وما هو شخصى بما هو موضوعى، ففى الأحداث الكبيرة تتداخل المشاعر ويصعب فصل العاطفة عن العقل، كما يصعب فصل الرؤية بالعين عن الحلم والأمل الذى تهفو إليه النفس، ويتطلع إليه القلب والفؤاد.

وبألوان هذا الحلم يصبغ الوجدان سحاب السماء وفجاج الأرض وشعاع الشمس وضوء القمر.

ومن ثم فإنى أستبيح القارئ عذرا إن احتوى الحديث عن العام بعض ما هو شخصى.فأنا أعرف أنه ليس من حق الكاتب أن يشغل المساحة الممنوحة للقارئ ليعرف عن طريقها كل الحقائق بحديث عن النفس وعرض ما هو شخصي، وعذرى أن بعض ما هو شخصى يستعمل هنا كمفاتيح للأحداث وكتمهيد لما هو عام، وكل ذلك بالقطع يصب في خدمة الحقيقة وتوضيح جوانبها المختلفة، ومن ثم يكون ما هو شخصى في خدمة العام والموضوعى أيضا والذى هو في مصلحة القارئ بالدرجة الأولى.

أتذكر أننى منذ حوالى ثلاث سنوات كنت في سفرة لمصر المنهوبة والمحروبة، تشرفت في بيتى في القاهرة باستقبال بعض الأصدقاء من الأساتذة الأكاديميين، وكان أحدهم يعمل مساعدا لوزير الخارجية لشؤون القنصلية والهجرة، واثنين من كبار أساتذة العلوم السياسية المرموقين،واثنين من كبار كتاب الأهرام الشرفاء.

اللقاء تنوع ليضم شخصية إعلامية وأستاذة للإعلام معروفة ومشهورة، وواحد من كبار الاقتصاديين المرموقين وأستاذة في مجال التربية.

وكان يفترض أن ينضم إلينا ويزيد ليلتنا بهجة وجمالا المفكر الكبير الدكتور محمد عمارة، غير أنه كان على موعد مع طبيب الأسنان الأمر الذى حرمنا من وجوده في تلك الليلة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٤ - ٢ - ٢٠١١م

السهرة أو الأمسية دار الكلام فيها وبغير قصد أو توجيه حول الهم العام الذى يشغل كل المصريين وهو مصر إلى أين؟ وهل يمكن أن يكون هنالك تغيير محتمل..؟ وإذا كان فمن أين سيبدأ ومن سيكون مصدره؟

خلاصة الحوار الثقافي والذى امتد وقته إلى ما قبل الفجر بقليل، أن ليل الطغيان سيطول، وأن فجرالتغيير بعيد بعيد، ولا يبدو في المدى المنظور علامة تدل على قرب وقوعه، على الأقل في الأفق القريب.

حتى الرغبة في الحلم اصطدمت في تلك الليلة بواقع يخلو من مجرد احتمالات للتغيير، فالأفق يبدو خاليا من أى ظهور أو تحليق ينبئ عنه أو يخبر عن قرب وقوعه.

"لاحل" كان هو النتيجة لسهرة ليلة ثقافية تبادل فيها الخبراء تحليلاتهم على الأقل في الأفق القريب، وعادة ما يكون الأفق القريب في عمرالدول يتجاوز عشر سنوات عجاف.

وحين اتصلوا في اليوم التالى ليعبروا عن شكرهم للدعوة، دار حوار عبر الهاتف بينى وبين بعضهم، كانت خلاصته رغم أنه لا يبدو شئ في الأفق إلا أنى أؤمن أن "لقدر الله مفاجآت"

هذه الجملة "مفاجآت القدر" كنت قد سمعتها من شيخنا العلامة الشيخ محمد الغزالى رحمة الله عليه ونحن في دولة الإمارات العربية، وكنا أيضا نناقش نفس القضية ولكن بشكل يتناول الأمة وليس مصر وحدها.

وقتها كان هنالك قطبان كل منهما يمسك بزمام نصف الكرة الأرضية، الولايات المتحدة من ناحية والاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى فكيف تجد الأمة الإسلامية مكانا لها بين هذين القطبين؟

بعدما طرح كل منا رؤيته المحدودة نظر إلينا الإمام الغزالي من خلف نظارته وكأنه يغوص في عمق تاريخ الدول والحضارات ليقول لنا "دعوة الإسلام بدأت على يد رجل أعزل في أم القرى" وكان هناك أيضا قوتان عظيمتان هما الفرس والروم، ولو أن النبي اعتمد الحسابات المادية والعقلية فقط وفكر بطريقتكم لما خرجت الدعوة من مكة وما فارقت سفوح جبالها، ثم أردف قائلا "اعلموا يا شباب الدعوة أن لقدر الله مفاجآت"

ولأنها مفآجات قدرية فهى لاتخضع للحسابات المادية بمقاييس البشر في موازين القوى من حيث الأحجام والأوزان والكتل والوزن والثقل والتفاعلات، فمن تجليات القدرة الإلهية لربنا سبحانه وتعالى أنه "يخرج الحي من الميت".

هذه العبارة "مفاجآت القدر" كانت مفتاح الأمل دائما على الأقل بالنسبة لى في كل حوار يدور حول تلك القضية.

بعض الزملاء والأصدقاء كان يضحك منى وهو يخفى في نفسه ما تبديه عيناه وكأنما يقول: نحن في انتظار الملائكة لتأتى بهذه المفاجآت للقدر المنتظر.

هذه الأمور كلها كانت تنعكس على قلمى حين يكتب حتى اتصل بى يوما صديق عزيز كان يعمل سفيرا سابقا ليخبرنى أنه وبعض أصدقائه عادة ما يتحاورون معا حول مقالى الأسبوعى وقد خلصوا في النهاية إلى أن كاتبهم وهو "العبد لله " محبط مثلهم. وقال لى ثم ماذا بعد؟

وطلب منى راجيا أن أكتب شيئا يحمل بعض التفاؤل ويعد ولو بقليل من الأمل.

راجعت بعض ما كتبته فوجدت الرجل وأصدقاءه على حق، ووجدت أن روح اليأس كدبيب النمل يمكن أن تتسلل إلى النفس دون أن يدرى صاحبها، وكأنها الشِّرْك الأصغر الذى يجب على الإنسان أن يحمي نفسه منه وأن يحذره دائما.

استجبت شاكرا وممتنا لرغبة الصديق العزيز وأصدقائه وكتبت سلسلة مقالات تحت عنوان "جرعة من الأمل" كان ختامها مقالا بعنوان" الأمل القادم من رحم الغيب" نُشر في جريدة "المصريون" وبتاريخ ١ /٩ /٢٠١٠م.

نهاية المقال كانت إرهاصا بقدوم مولود من رحم الغيب، إشارة وتحقيقا لمفاجآت القدر وتجلياته في المقدور حين يخرج الحي من الميت.

هذه النهاية التى تحمل باقات الأمل الأخضر،أقدمها للسادة القراء اليوم احتفالا بالثورة والثوار في وقت امتزجت فيه الفرحة بالدمعة؛ لأن الحلم الجميل قد بدأ يتحقق، وبرغم ذلك فلا يكاد المرء يصدق نفسه أن الطاغية قد ذهب رغم شروق شمس الثورة وزوال ليل الطغيان. ثم كانت نهاية المقال هى:

امتلأ النصف المملوء من الكوب وفاض، وأشرق الأمل الأخضر نورا يسطع من ملإٍ أعلى يملأ كل الأرض عدلا وضياء.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زُوِي لي منها) (رواه مسلم).

يجئ الغد ومعه ربيع الإسلام فتأمن الدنيا ويزول الخوف،وتزهر أشجار العدل وتخضر الأرض. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهارا" رواه مسلم.

وزاد أحمد في روايته، (وحتى يسير الراكب بين العراقِ ومكةَ لا يخاف إلا ضلال الطريق).

وعن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (لا تزال طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله، لا يضرُّهم من خَذَلَهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس) (رواه أحمد والشيخان).

وبين مد وجزر تقطع أمتنا مراحل شتى من تاريخها، ينفصل فيها الإسلام عن دفة الحكم، فيغيب العدل ويسود الاستبداد والظلم، وتغتال الحريات وتعانى الشعوب الإسلامية كل ألوان التخلف والقهر والاستذلال والاحتلال، فتعيش تحت قبضة مُلْكٍ عضوض مرة، أو مُلْكٍ جبرى لايعرف غير قانون الطوارئ ويعامل الناس كقطيع من الغنم الشاردة مرة أخرى، لكنها تنتهى في النهاية بخلافة على منهاج النبوة، حيث يسود العدل والحرية وكرامة الإنسان.

ومن وراء الحجب أرقب خلف هذا الليل فجرا.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضّاً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلْكًا جبريّاً،

فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة" (رواه أحمد).

إنه صبح الأمل الذى طال انتظاره، حيث:

ينقلب فيه الإنسان إلى أهله وأمته مسرورا بعد حزن.

وعزيزا بعد قهر.

وسيدا حرا بعد استرقاق وعبودية.

وكريما بعد مهانة وإذلال.

فلينفض المسلمون عن أنفسهم إحساسهم بالضعضعة والوهن والهوان والاستضعاف وقلة الحيلة.

وليخلصوا أنفسهم من الشعور بالدونية.

وليكفوا عن التنازلات المهينة التى تسرف وتجتهد في إرضاء الآخر – ولو كان عدوا– وعلى حساب الثوابت.

فها هو الليل يسارع في طي ثيابه،

يحمل معه أوزار عصور ماتت فيها العزة،

وعصفت فيها رياح التخريب خَصْخَصةً للأرض،

وبيعا للعرض،

وفضا لبكارة شعب موجوع بالجوع.... وبالحرمان وقتل الإنسان،

ينذر فئة السادة في المخمل داخل قصر مسحور

أن كفوا عن نهب المال المغصوب، من عرق جبين العامل، ودم الفلاح المغمور،

وملايين الموجوعين والمسكونين بأمراض فتاكة،

جلبتها صفقات الظلم الأسود، سَرْطنةً للشعب وللأمة،

والفاعل وال يرفل بأمان في ظل السلطان،

يحميه إخوة يوسف، فينام قرير العين لا يخشى اللوم أو الحرمان
مولود قادم من رحم الغيب،
ينذرهم برحيل عن صدر بلادى
كى تتنفس مثل البشر العادى في كل الدنيا
بنسيم هواء غير ملوث أو مسموم،
وبشربة ماء، ورغيف مطحون من قمح بلادى
أيام حبلى في الزمن القادم.
مولود قادم من رحم الغيب،
عملاق يهزم جند القهر،
يهتك حجب الليل،
يمسك بيمينه أنوار الفجر،
يعيد البسمة والنسمة لأرامل كثر
ولشعب محروم من خير بلاده،
ويتامى داخل كهف الفقر الموجع،
وعجائز داخل جحر مهجور،
وشباب يهتف من عمق بلادى
يُسْقِط ليل الظلم ويُسْقِط الاستضعاف
ويحي في الناس رجولة أمة
تأبى الجور،وتأبى الفحش والاستخفاف.

بدأت الثورة بمائة وخمسين شابا خرجوا رافضين للظلم والاستبداد، نظر البعض إليهم بهزء واستهتار وقالوا عنهم "شوية عيال بيتسلوا"

ثم كانت مفاجآت القدر أن انضمت إليهم كل مصر بشعبها وكل أطيافها صغارا وكبارا رجالا ونساء مسلمين ومسيحيين.

وكانت المرة الأولى التى يستيقظ فيها التاريخ ليكتب أعظم فصوله وأعلاها مجدا وعزا وفخارا لتبدأ من مصر وتنتهى إليها.

ومرة أخرى توارت الفوضى واختفت السلبية، وتحطم حاجز الخوف،وفرت قوات النظام أمام إصرار الشباب وتحديه لهم بصدور عارية، وبدأ تفكك النظام.

ومرة أخرى خرج المخزون الحضارى في الشخصية المصرية ليقول للدنيا هذه هي مصر الحقيقية لا تعرف عنفا أو إرهابا، لاتعرف إلا المروءة والإيثار والخلق.

لاتعرف الفوضى ولا الهمجية، وما كان سائدا ومنتشرا من قبل إنما كان إفراز الفساد والطغيان والظلم، وأن الحلم الجميل بدأت مراحل تحقيقه

وأن مصر والمصريين يستعيدون دورهم ويستعيدون رسالتهم لا ليقولوا لكل مصرى فقط، وإنما ليقولوا لكل عربى بل ولكل إنسان ارفع رأسك يا أخى فأنت إنسان وأنت حر. وكانت مفاجآت الأقدار

شباب يهتف من عمق بلادى....

يُسْقِط ليل الظلم ويُسْقِط الاستضعاف

ويحي في الناس رجولة أمة تأبى الجور

وتأبى الفحش والاستخفاف.

الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (٢/٤) (*)

في كل سفرة للوطن الغالي كنت أعود مكتئبا من كثرة ما رأيت الدموع المختنقة في عيون الناس، منْ أعرفهم ومنْ لا أعرفهم.

كنت أرى على الوجوه حزنا دفينا يعكس حالات من القلق على الحاضر والمستقبل.

رب الأسرة مكبل بتوفير إيجار البيت والزيت وما يلزم الأسرة مما لا يجد إلى ثمنه سبيلا.

كانت حالات الخوف من المجهول تكسو الوجوه بمزيج من السخط والخوف المكبوت، وكأن الأجهزة الجهنمية لنظام الطاغية "وعلى رأسها جهاز أمن الدولة" تُحَرِّمُ على الإنسان حتى مجرد الإحساس بالسخط أو التبرم بمرارة الحياة، وكان كل شئ يبدو ساكنا ومنساقا في الاتجاه المطلوب.

وعلى مدار ثلاثة عقود عجاف زادت الفجوة بين فقراء لا سبيل لديهم للقرب من مغانم السلطة والسلطان، وبين أهل الفهلوة الذين استطاعوا أن يلتحقوا بركب المسبحين بحمد الطاغية وأمجاده في نزاهته ونظافة يده وانحيازه للفقراء وقدرته على تحقيق الأمن والاستقرار. وهكذا رددت مصانع الكذب في مؤسسات هامان الصحفية تليفزيونا وصحافة وإذاعة.

وظلت صحافة النظام وأجهزة إعلامه تمارس المسخ والتضليل بعناوين ثابتة تتغير فقط في المناسبات حتى حفظها أغلب أبناء الشعب من كثرة تكرارها، وكلها عناوين من نوع "الرئيس يشدد على رفع المعاناة عن الطبقة المتوسطة" ٥٠٠ ألف وحدة سكنية لمحدودى الدخل "خطة خمسية لمواجهة البطالة" لا مساس بدعم السلع الضرورية "بتوجيهات من السيد الرئيس "احتياجات الناس لابد أن تكون أولوية الحكومة الجديدة"

تلك هي العناوين الرئيسة في صحافة هامان ولمدة ثلاثة قرون، فإذا ساء حظ القارئ وساقه لقراءة مقال السيد رئيس التحرير أو تحليل السيد رئيس مجلس إدارة

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٣ - ٠٣ - ٢٠١١

الجريدة في أي من هذه الصحف مثلا، فإن حالة من الغثيان مصحوبة بنوع غريب من الاكتئاب تصيب المرء بعد القراءة لكثرة ما احتواه المقال من كذب عن دور مصر في المحيط الإقليمى والدولى وما قام به السيد الرئيس في هذا المجال، وأن مصر أكبر من أن تتأثر بالطموحات التى تظهر من هنا أو من هناك في المنطقة، وفقدت الجرائد مصداقيتها ولم تبق فيها صفحة واحدة تحظى بمصداقية باستنثناء صفحة الوفيات.

واكتشفنا بعد تلك السنين أن دور مصر قد انكمش وتقلص، وأنها مهددة حتى في نصيبها من مياه النيل شريان الحياة بالنسبة لنا، وأن مصر هبة النيل وقعت فريسة الفوضى والإهمال واللامسؤولية، وأنها على حافة الخطر في زراعتها ومياهها.

الطبقة الكادحة والمتوسطة تحت ضغط الفساد والحرمان من حقوقها فقدت دورها في إحداث التوازن الاجتماعي، وانتقلت في سلم الترتيب إلى الغالبية الفقيرة أو التى تعيش تحت خط الفقر، الأمر الذى يدفع الناس إلى التفريط في أخلاقهم ومن ثم تنتشر مظاهر الفساد المختلفة التى تتمثل في التحايل على القانون واغتصاب الحقوق والغش والاستغلال والرشوة وغير ذلك مما يجلبه الفقر معه من أنواع الفساد المختلفة، وقد استطاع النظام أن يغرس فسادا تحت كل طوبة في مصر، حتى الحاشية التى تعمل معه ويفترض فيها أن تكون قنوات جيدة التوصيل لهموم الشعب ومعاناته ومصدر النصيحة والتوجيه للحاكم جعلها تنشغل بعضها ببعض ولكى يبقى كل واحد منهم في مكانه بالقرب من الفرعون الأكبر كان عليه أن يجتهد في رصد ومتابعة الآخرين ليجمع أكبرعدد من الأخطاء والخطايا والنقائص عنهم ليقدمها في تقارير وملفات جاهزة للفرعون الأكبر أو لزوجته أوللفرعون الصغير حتى يضمن البقاء، وكأن لسان حال الجميع يقول لسيدهم"، "كلنا لصوص يا سيدى".

المعيشة الضنك التى سبَّبها الفساد لم تكن فقط أزمة في الزيت والسكر ومواد التموين المختلفة، ولم تكن فقط أزمة في المساكن والمواصلات وبطالة الشباب والعنوسة بالإضافة إلى الأزمات الصحية والأمراض التى حلت بالمصريين نتيجة المواد الغذائية المسرطنة والمعروفة المصدر، والمياه غير النقية، وصفقات الدم الملوث التى تمت وخرج أصحابها من القضية، وإنما انضم إليها أزمات أخرى تمثلت في اختلاسات بلغت المليارات وصفقات لرجال أعمال مقربين من النظام طالت ثروة الشعب في البترول والغاز وبيع المصانع والقطاع العام وأراضى الدولة ليتحول كل ذلك إلى جيوب قلة قليلة

أصبحت نتيجة تزاوج السلطة ورأس المال تمسك بمقدرات الأمة المصرية وتتحكم في حاضرها ومستقبلها ومن ثم همش الشعب كله بملايينه الثمانين وبقيت السلطة بحاشيتها وأزلامها تمارس الفساد والاستبداد والقهر، تزور إرادة الشعب وتعبث بأصوله ومقوماته وتُهمِّش الأكفاء وتقرِّب الدنئ وتتهم البرئ وتخوِّن الأمين وتُخيف الآمن ومن ثم خلقت أزمة أخرى في المبادئ والأخلاق كانت نتيجتها أنها:

جعلت من الناس تماثيل نفاق، والقيم بضاعات في الأسواق، والشوك استهزأ بالزهر وقال أنا الأفضل، وتمطى الكوخ أمام القصر وقال أنا الأعلى، وضاق الناس ببعضهم وظنوا أنه لا حل أبدا.

فشل النظام في تقديم أي حل لأية مشكلة، لكنه نجح في تأزيم المواقف بين الناس والطبقات والفئات والمسلمين والأقباط.

نجح النظام في أن يبث كراهية المواطن لنفسه ولإخوانه وحتى لوطنه الذي يقدم له الولاء والتضحيات ثم يأخذ في مقابلها الهوان.

تمادى الطاغية والطغيان، الفرعون الكبير والفراعنة الصغار في غيهم، وأغراهم صبر الشعب وطول تحمله، وحجبهم عن الحقيقة هتاف المنافقين بالروح والدم، وما رددته مصانع الكذب في مؤسسات هامان حتى صدقوا أنفسهم، وتحدثوا عن إنجازات تحققت في عالم الوهم فقط ومن ثم تجاهلوا تراكم الغضب لدى الجماهير.

هذا التمادى للطاغية والطغيان، للفرعون الكبير والفراعنة الصغار من حوله يضغط عادة على مشاعر الشعب حتى يدفع به من حيث لا يدرى ولا يقصد إلى حافة الخطر في تهديد الهوية، وهى الملاذ الآمن في لحظات الخطر والتى يتساوى فيها الموت والحياة وغالبا ما يكون الموت في سبيل حمايتها والمحافظة عليها هو الخيار الأفضل.

ذلك بالضبط والتحديد كانت الأحوال في مصر، فماذا عن الأمة كلها؟

الباحث المراقب للأحداث كان يلحظ أن الأمة خارج نطاق العقل والتصور فيما تبديه من أفعال خارقة للعقل والعادة.

فأنت تتصور مثلا أنها قد ماتت، فإذا بها تزلزل الكون كله بمفاجآت لا تخطر لبشر على بال.

ظاهرها يبدو لك وكأنه صفحة الأفق في صفائها، أو كسطح الماء في بحرر اكد ولكن لا تدرى ماذا يختبئ في الأعماق.

السكون والسكن والاستكانة تسود سطحها ومناخها ومساحتها من المحيط إلى الخليج حتى يظن المرء أنها قد ماتت أو أوشكت على الموت، فإحساسها لا يستجيب لكل أنواع الوخز وجهازها العصبى قد فقد الترابط بين أجزائه وخلاياه، أما قلبها فقد كف هو الآخر عن النبض والخفقان، فهى لا تحيا وإن كانت تعيش، لكنها تعيش خارج قوانين الحياة والحركة.

هكذا تبدو الأمة للناظرين إليها والمهتمين بشأنها وأغلب من يعيشون على أرضها وتحت سمائها،وكل يوم يمر كسابقه ولا جديد تحت شمها المحرقة وظلام ليلها الدامس.

وفجأة وبغير مقدمات يتحول السكن إلى زلزال، والسكون إلى حركة يكاد العقل من سرعتها يعجز عن متابعتها، أما الاستكانة فتتحول إلى غضب وثورة وتحد وإصرار وإعصار.

غريبة وعجيبة هذه الأمة بمفردات بلادها وأبنائها، والأكثر غرابة منها والأشد عجبا هم زعماؤها الذين حكموها دهرا ولم يفهموا طبيعتها وخصائصها الدفينة وطول صبرها وقدرتها على ضبط ذاتها وتجديد نفسها ونفض غبار النوم والكسل والوهن والاستضعاف عن كواهلها.

هؤلاء الزعماء تعاملوا معها كما يتعاملون مع أرقام الحساب رغم أن بعضهم لا يزال عاجزا عن عد وإحصاء ثروته المسروقة ومقتنياته المنهوبة من عرق أبنائها والموضوعة سرا في مصارف السادة الكبار.

زعماؤها أكثر غرابة منها وأشد عجبا، فهم خارج سياق التاريخ والجغرافيا، وخارج نطاق العقل والمنطق، وحتى خارج حدود الخيال في كل ما يفعلونه.

خارج نطاق العقل والخيال في استبدادهم،

وخارق نطاق العقل والخيال في سرقاتهم للشعوب،

وخارج نطاق العقل والخيال في الكذب على شعوبهم.

وخارج نطاق العقل والخيال في محابات أعداء هذه الأمة على حساب وهدر مقدرات الشعوب، وخارج نطاق العقل والخيال في تعذيبهم للشعوب، وخارج نطاق العقل والخيال في عزلتهم عن هموم الناس وحركة التاريخ وطبائع الأشياء.

وإذا استعرضت حياة وسلوك كل واحد من هؤلاء الزعماء تجد نفسك أمام شخصية معقدة ومركبة من كل أنواع النواقص والتناقضات، الخوف الشديد، والبطش الشديد، والقهر الشديد، والظلم الشديد، والصلف الشديد، والكذب الشديد.

يظهرون للناس أنهم باقون في أماكنهم استجابة لرغبة الشعب وليكونوا في خدمة الشعب،بينما يطيحون بكل رغبة للشعب في زوالهم.

يدعون أنهم في خدمة الشعب بينما هم يسخرون كل مقدرات الشعب لخدمة مصالهم وحدهم ومصالحهم حاشيتهم.

الواحد منهم يحكم الدولة ما يزيد عن ربع قرن وخلال ربع القرن الأسود يمن على شعبها ويذكرنا بالليل والنهار وفي الصباح والمساء بأنه صاحب الضربة الجوية الأولى وكأنه مثلا كان يعمل طبيبا ثم سمع منادي الجهاد فخلع ملابس الطب وخرج وركب الطائرة وراح يقوم بعمليات فدائية لينقذ الوطن، ولم تكن هذه وظيفته التى أعده الوطن لها أصلا.

بعضهم قارب نصف قرن في التسلط على الناس فلما طالبه الناس بالتغيير وترك الحكم قال لهم: أنا التاريخ وأنا العزة وأنا المجد ولولاى ما عرفتم عزة ولا كرامة ولا سمعت بكم الدنيا.

المظاهرات ضده تملأ الأرض وتسد الأفق وهو يكذب ويقول لا توجد مظاهرات، كل الشعب يحبنى ويهتف لى ويؤلف كلمات المدائح في حبى ويفدينى بحياته.

الغرباء الذين تناولوا حبوب الهلوسة هم من خرجوا علينا وقد جاءت بهم القاعدة،وهم بقايا المعتقلين في جوانتنامو.

هؤلاء الزعماء يحار العقل في تحليل شخصياتهم الممجوجة والكريهة والسخيفة.

تنظر إلى أشخاصهم السمجة وتحاول التحليل فتجد عقولهم صنعت من جلد الأحذية المِيرِى المصنعة في روسيا أيام حكم ستالين. فهم مطعمون ضد الذكاء في فهم شعوبهم.

الشعوب استنفدت كل رصيدها التاريخي من الهتاف ضدهم واستنفدت أيضا في تفهيمهم كل وسائل الإيضاح وبكل الإشارات الساخرة، وبكل اللغات حتى يفهموا، ارحل، إذهب، تنح، خلصنا، إرحل يعنى إمش، إمش يعنى غور.

خرجت الشعوب وبالملايين ومن كل الطوائف لتقول لهم "حِلُّوا عنا" دعونا نتنفس نسيم الحرية، فإذا بكل هذه الملايين في نظر الطغاة وخدمهم مجرد عناصر أجنبية مندسة يجب سحلهم وتأديبهم ليكونوا عبرة لكل من يتمرد على الحكم الرشيد.

وهكذا بدأت رحلة جديدة من معاناة الشعوب في ظلال زعمائهم حيث مارس الزعماء دورهم مع الشعوب بتطبيق رؤيتهم لما تعلموه من أفلام رعاة البقر،

فالزعيم وحده هو الذى خاض بهم الحروب،

وهو وحده صاحب الضربة الجوية القاضية،

وهو وحده الذى يمدهم بالخبز وبالطعام والشراب وأنفاس الحياة،

وهو وحده الذى يرعى لهم السلام والأمن، وهو وحده الذى من حقه أن يستثمر لهم ثروة البلاد في حسابات سرية وفى بنوك يختارها هو، وهو وحده الذى يستنزف خيراتهم متى شاء، ويحتل عقولهم وأفكارهم متى شاء، ويسجنهم أو يعفو عنهم متى شاء، وكل ثرواتهم ملك له وحده، يصادرها متى شاء، وله وحده أن يعطي منها بعض الفتات مِنَّةً ومكرمة لمن شاء، ومن حق أعوانه ومساعديه أن يعاملوا الشعوب وكأنهم أبقار يحلبونهم متى شاؤا ويذبحون منهم متى شاؤا، وعصاهم دائما جاهزة لمعاقبة المخالف وتأديب كل بقرة شاردة أو ثور يتمرد.

يتحدثون عن الديمقراطية وهم يمارسون أقسى وأشد أنواع الاستبداد، يقولون إنهم حماة لحرية التعبير ولن يقصف قلم حر فى تاريخهم، بينما هم لا يتركون على الساحة إلا أقلاما تهتف بأمجادهم وتسبح بحمدهم وتدعى أن أمريكا والاتحاد الأوروبى وحتى الملأ الأعلى يستشيرهم ويأخذ بمشورتهم ويدرك قيمتهم لفرط خبرتهم وحكمتهم وبعد نظرهم.

بعض الطغاة والفراعنة سقطوا بالفعل،وبقية الطغاة والفراعنة ينتظرون الآن دورهم ويشعرون بدوار شديد، وتقض مضاجعهم بأكبر الكوابيس وأخطرها مهما كان حجم الجنود والخدم، ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، وهم من شدة الفزع مع كل طلعة شمس يتحسسون رؤوسهم ليتأكدوا أنهم لا زالوا على قيد الحياة.

حكام لا قلوب لهم وليسوا من جنس البشر، إنهم نوع غريب وعجيب من القوارض يتمتع بأنواع من الأسلحة القذرة شديدة الفتك والتقطيع.

غير أن سلاحا جديدا اكتشفه الشعب العربى وبدأ يدخل الخدمة الآن " إسمه الشعب يريد" وهو سلاح يقضى على كل أسلحتهم وألغامهم وأحلامهم في التجديد أو التوريث.

ولكي لا ننسى يجب أن نتذكر دوما أن رحمة الله ومفاجآت الأقدار وإرادة الشعوب أسبق وأحدُّ من كل أساليبهم الخسيسة وأسلحتهم القذرة إذا كان "الشعب يريد".

الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (٤/٣) (*)

الرافض والمتمرد والثائر على اختلاف درجاتهم يجمعهم أصل الغضب من وضع معين، ولكنهم يختلفون في كمه وفى كيفيفة توظيفه والاستفادة منه في تغيير هذا الوضع المعين.

المنظرون للثورات دائما يطرحون مجموعة من التساؤلات يتحدد على ضوئها الرؤية والتصورات، هذه الأسئلة تمثل استقراء ذهنيا يحاول استشراف المستقبل، كما أنها تمثل عملية قياس نفسي واجتماعي يخبر الباحث بنوعية الحراك القادم وإرهاصاته، ويحدد إنْ كان رحم الغيب يحمل في المستقبل القريب ثورة شاملة مصحوبة بتغيير عام، أم أن القادم مجرد رفض صادر من فئة معينة من الناس لوضع معين، إذا تغير هذا الوضع وتحقق المطلوب سكن كل شئ وعاد الناس كما كانوا؟ وهذا ما يتحقق عادة في حالة المظاهرات الفئوية التى تطالب بتصحيح أو بتغيير واقع بعينه.

هنالك مجموعة من الأسئلة شبه الإجرائية يطرحها المنظرون على المستوى الفردى وعلى المستوى الجماعي فيتساءلون:

من أنت؟، ماذا تريد؟ من هم أصدقاؤك على هذا الطريق؟ ومن هم أعداؤك وخصومك؟ كم يبلغ حجم ولاء الأصدقاء لفكرتهم؟ وهل هى مجرد فكرة في الذهن أم أنها قضية محورية يتمركز حولها كل النشاط والحركة في الواقع المعاش؟ ما درجة ولاء أعدائك وخصومك لفكرتهم ولمبادئهم؟ ماهي أدواتك وآلياتك ووسائلك في التغيير والثورة؟

على ضوء تلك التحليلات لم تكن هنالك إرهاصات في مصر المحروسة بثورة قادمة لها عقل ورأس ولها تنظيمات وتشكيلات ولها أهداف واستراتيجيات وأيديولوجية معينة.

فقط هنالك تحليلات للخبراء وتقديرات كانت تحذر كلها ليس من ثورة منظمة، فكل شئ في قبضة النظام وتحت سيطرته، وكل المؤسسات القادرة على التغيير فرغت من محتواها وعلى مدى ثلاثين سنة،ومن ثم كانت التحذيرات من بركان بشري غير واع وغير مدرك مصحوب بطوفان رهيب من الجياع يدمر كل ما في طريقه.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٤ - ٠٣ - ٢٠١١م

الجياع هؤلاء نَهَبَ النظام ثروتهم ليملأ بها خزائنه، وأكل النظام كل أقواتهم ولم يستبق لهم شيئا.

تضمنت التحذيرات أيضا خوفا مرعبا ممن يعيشون في العشوائيات وتعدادهم يبلغ خمسة عشر مليونا من البشر ظلمهم النظام وحَوَّل ما يجب أن يكون مساكن لهم إلى فلل فاخرة، وشاليهات في شواطئ خيالية له ولحاشيته ومن يمشون في ركابه ويطبلون له ويزمرون.

مظالم النظام لم تكن مجرد مظالم، وإنما كانت مظالم مستفزة لمشاعر الفقراء والمساكين وأهل الكوارث وأهل العشوائيات، فلم يكتف بما حل بهم من مصائب الفقر والعوز والبطالة وتكرار الكوارث وضياع الحاضر والمستقبل وجور السلطان والسلطة، وإنما أضاف إليها السخرية وتجاهل مشاعرهم بعد تجاهل ضرورات حياتهم، ومن ثم تراكمت المظالم حتى تحولت إلى جبال من الظلمات وجبال من الغضب الساكن بعضها فوق بعض.

الغريب أن الرئيس كانت تذكر له هذه المظالم فلا يحرك ساكنا، وكأنها تقع في جبل قاف، الأمر الذى جعل البعض يشكك في مشاعر الرجل، وأنه لا قلب له، بينما التمس له آخرون عذرا بأنه دخل غيبوبة أرذل العمر تلك التى تفصل صاحبها عقلا وذاكرة وقلبا ومشاعر عما يجرى حوله.

الشعب المصرى الطيب والمتسامح وصاحب البال الطويل تحمل وصبر، وصبر،وغفر وحاول كعادته أن ينسى وأن يتناسى، لكن حجم المظالم وحجم الغضب المتراكم كان أكبر من كل احتمالات البشر.

سلوك النظام نجح بتفوق غير مسبوق في استجماع وتراكم كل أسباب الغضب لدى الشعب الحليم الطيب، فجهازه وحزبه السياسي مارس على شعبه ما يعرف بالنباهة والاستحمار، والنباهة والاستحمار تعنى أن طرفا يظن خطأ ويستقر في نفسه أنه أذكى من الجميع، وأنه قادر على استغفال الجميع، وإخضاع الجميع، وإذلال الجميع، ومن ثم يمارس عليهم النباهة الغبية.

في النباهة الغبية يتعامل النظام مع شعبه وكأنهم لا عقول لهم ولا إدراك لديهم، وأن لديهم قابلية الاستحمار فتأكل حقهم ولا يطالبون به، وتظلمهم ولا يغضبون، وتصادر

حريتهم وتزور إرادتهم ولا يعترضون عليك، وتسلط عليهم "جهازك " جهاز أمن الدولة فيرتعدون ويكادون أن يموتوا خوفا لمجرد ذكر اسمه.

في النباهة الغبية يظن الطاغية أنه قد تمكن من شعبه، وأنه قد شغلهم بهمومهم حتى جعلهم يقتاتون الجوع، ويطوون بطونهم على حرمان، وتمتلئ مشاعرهم بالرعب من "أمن الدولة" أما عقولهم فيكفيها الانشغال بقطار الهموم الذى يفرم تحت عجلاته كل أمل في المستقبل أو حتى كل تطلع أو رغبة في التغيير، ومن ثم فالحاكم الطاغية آمن في سرب أجهزته، لا يعكر صفوه كدر الكوارث التى تنزل بشعبه مهما كان عدد الضحايا.

أكثر من ألف وأربعمائة من أبناء شعبه يغرقون بسبب عبَّارة فقدت صلاحيتها ولا تصلح للاستعمال، ووجودها في الموانى كان مظهرا من مظاهر الفساد ودليلا عليه، وهو فساد زاد انتشاره حتى طال حياة الناس وأصبح يهدد وجودهم، ثم لا يقدم كلمة عزاء لأسر الضحايا.

في الحادثة نفسها يهرب الجانى خارج مصر وبتوصية من أحد مرافقى الرئيس ومعاونيه ولا يقدم الرئيس كلمة اعتذار أو يأخذ موقفا ممن ساعد الجانى وسهل له عملية الهروب من مصر حتى لا يخضع للمحاكمة.

تليفزيون سيادته في يوم وفاة حفيده أعلن الحداد العام وكسى وجوه كل المصريين بالحزن وظهرت مذيعاته وعيونهن متورمة من شدة البكاء وقد ارتدين اللباس الأسود علامة الحداد حزنا على الحفيد الفقيد، بينما تبرع نفس الجهاز يوم أن غرقت العبارة الكارثة وضحاياها الألف وأربعمائة بإذاعة مبارة كرة قدم وفيلم كوميدى حتى يرفه عن الناس ويخرجهم من حالة الحزن؟"

الرئيس نفسه في واحد من حواراته ذكر المذيع أمامه أنه كان يعمل في عَبَّارة، فيعلق ضاحكا وساخرا " عَبَّارة من بتوع اليومين دول إللى بيغرقوا..؟"

جرائم النظام وحزبه وأدواته ساعدت كثيرا على تنمية الشعور بالظلم بعد حادث الإسكندرية الذى قتل فيه الشاب خالد سعيد، وكانت تلك هى القشة التى قصمت ظهر البعير.

دخلت أدوات العصر التكنولوجية وفي مقدمتها الفيسبوك والتويتر والإيميل على الخط لتقلل من قبضة النظام في السيطرة على المعلومة والخبر وتوجيههما الوجهة التى يريد، الأمر الذى ساعد على توضيح الحقائق وكشف المستور من الانحرافات، ثم كانت عملية عولمة الغضب.

حادثة قتل الشاب خالد سعيد وموقف النظام اللا مبالى منها، وعدم أخذ موقف ممن قتلوه أمام أعين الناس، وتلفيق التهم للقتيل الشاب ومحاولة تشويه صورته والتدليس في القضية، وتحويل الضحية إلى مجرم وتوظيف الإعلام في تكريس هذا الافتراء الكارثى، كل ذلك ساعد أيضا على تنمية الشعور بالخطر المشترك لكل شباب مصر، ومن ثم تنمية الشعور بالحق المشترك في التغيير الذى لا يكون ولن يأتى إلا منا ولا ينمو إلا بتضحياتنا نحن، ومن ثم فقد تجمعت كل أسباب الثورة المتمثلة في:

فساد النظام وحزبه وأجهزته.

تنمية الشعور بالظلم،فلا يكفى وجود الظلم لقيام الثورات، وإنما لابد من تنمية الشعور به، وإدراك خطورة استمراره.

تنمية الشعور بالخطر المشترك وتعميم هذا الشعور حتى تتوفر القاعدة العريضة في الدعم والمساندة.

تنمية الشعور بالحق المشترك في التغيير، حيث يظن البعض خطأ أن مهمة التغيير تقع مسؤوليتها على شخص معين يمثل رأسا ورمزا، أو على جهة معينة تمثل مرجعية، ومن ثم فتنمية الشعور بالحق المشترك في التغيير يجعل لكل فرد نصيبا في هذا الشرف، كما يوجب عليه واجبا من التضحيات عليه أن يؤديه.

وجود القدر الكافى من مخزون الغضب، والغضب هو القرار الأزلي للتمرد على أي وضع مهين، ومن ثم فلا بد من وجود القدر الكافى من الغضب حيث يمثل في تلك الحالة وقود الثورة والثوار لتحريك المشاعر في اتجاه التغيير والثورة، ومن ثم تكون عملية الحشد الجماعى والجهد الجماعى والتلاحم الجماعى الذى يساعد على كسر حاجز الخوف، وعندما يبلغ الغضب مداه فتلك هى نفسها البداية في التغيير والثورة.

بعد البداية والتلاحم وكسر حاجز الخوف بدأ سقوط كل آليات النظام في التعامل مع الغضب الشعبي وفرار فلول الداخلية في محاولة لإثارة الرعب والفوضى داخل البلاد.

لم يكن أمام النظام غير اللجوء لآخر حصونه القوية، القوات المسلحة التى تشكل مصدر القوة بالنسبة له، وكانت حيثياته أنه فيها تربى، وفيها قد حكم، ومنها قد ترفع وارتقى، ثم هو قائدها الأعلى على مدى ثلاثين سنة.

لكنه نسي أنه وعلى مدى ثلاثين سنة، حاول تهميش دور القوات المسلحة، وتفريغها من محتواها، وحاول إغراءها وإغواءها.

نسى أيضا أن الحصن الأخير الذى لجأ إليه وهو القوات المسلحة، لا تتكون من أفراد جاءوا من المريخ، ولكنهم أبناء هذا الشعب ويشكلون درعه وذراعه، ولم تكن ولم يكن أبناؤها بعيدا عن المشهد في معاناته وضغطه على أبناء شعبه، واستخفاف النظام بعقول أبنائه، واحتكاره واحتكار حزبه وحاشيته للحكمة المطلقة، والحقيقة المطلقة، والقرار المطلق.

من صفات الطغاة عادة أنهم ينسون عبر التاريخ ولا يذكرونها، كما أنهم أيضا يجهلون سنن التاريخ والسنن الاجتماعية التى تحكم حركة الناس والمجتمعات، فقديما قد تربى موسى في بيت فرعون، لكن فراعنة العصر الحديث لا يعرفون ذلك، وأنى لهم بقراءة التاريخ والثقافة والعلم، يكفيهم من يقرأون لهم الفنجان والكف ويضربون لهم الرمل.

يكفيهم أن تأتيهم أجهزتهم بتقارير عمن يريدون فضحه والغدر به ليكون عبرة لكل من يعارضهم أو يخالفهم في رأي، أو يتجرأ ويقول لهم لا. ولو كان ممن حولهم،أو كانت لا في مكانها وزمانها.

هذه العوامل كلها تؤدى إلى نتيجة واحدة هى السقوط الاضطرارى أو السقوط القهرى، ومن ثم كانت الثورة.

الثورة لا تعنى فقط تغييرا في النظام السياسي واستبداله بنظام آخر وانتهى الأمر، إنما تعنى تغييرا في الرؤى والأفكار والتصورات، يوازيه ويعقبه تغيير في السلوك والحركة، ولا يمكن أن يتم هذا التغيير بثنائيته في الأفكار والرؤى والتصورات ومن ثم في السلوك والحركة فحسب، وإنما لابد أن يسبقه ويتقدم عليه تغيير في الهمم والعزائم والإرادات.

وبالقطع التَّغِيير ليس هو التَّغَيُرُ، التغير يعنى تبدلا فى المواقف مواءمة لموقف أو لشئ طارئ خوفا من آثاره في التغيير، وما يصاحب ذلك من فقدان المزايا، ومن ثم فصاحبه لا يعود فقط لما كان عليه بعد انتهاء هذا الطارئ، وإنما يتوافق في الظاهر مع شكل وحرفية المواقف الجديدة، ولكنه لا يلبث أن يلتف عليها في الظاهر بالحيل الخادعة، وهذا هو النفاق طويل التيلة قليل الحياء، لا يخجل من أفكاره القديمة ومواقفه القديمة وهو على استعداد لأن يعود إليها ويكرر مواقفه المخجلة إذا حانت الفرصة وسمحت الظروف.

أصحاب هذه المواقف خطر على الثورة، وخطر على الحياة نفسها؛لأنهم يحملون في أنفسهم جراثيم نوع من النفاق الوضيع، لأصحابه ألف وجه وألف لون وألف شكل، وهم يجيدون وبِحِرْفِيةٍ كبيرة ركوب الموجة والجري مع التيار وربما في مقدمته.

هؤلاء هم الذين يأكلون على كل مائدة،ويرقصون في كل فرح وينوحون في كل مأتم، وغالبا ما يكونون هم وراء المآتم كلها وفي كل الميادين.

وهم أيضا لا يزالون في أماكنهم داخل المؤسسات الصحفية وفى أجهزة الإعلام المختلفة وبخاصة التلفزيون والصحف القومية، الوجوه هى هى لم تتغير، تغيرت الجلود وبقيت القلوب والعقول والوجدان بعفنها وفسادها، وذلك ليس تغييرا ولكنه تغير فقط لمقتضيات المواقف.

أما التغيير فيعنى أن هناك أفكارا جديدة وتصورات جديدة ورؤى جديدة حلت محل القديم وأخذت مكانه، فكأن هنالك حالة استبدال كامل تمت في ذهنية المرء وتصوراته سبقتها قطعا عملية تغيير في الإرادات والهمم والعزائم.

عملية الاستعداد والقابلية لهذا التغيير العظيم يساعد عليها وجود الفطرة النقية التى لم تلوث، وإن غبرت ظاهرها ضغوط الحياة وثقل الهموم وتراكم المشكلات.

يساعد عليها أيضا الكامن الحضارى والأخلاقى المتراكم في الوجدان الجمعى للبشر عبر آلاف السنين، وهذان العنصران "الفطرة النقية والكامن الحضارى والأخلاقى" مفقودان لدى أصحاب النفاق طويل التيلة قليل الحياء.

في المواقف الخطيرة تتوجه بوصلة التوجيه في الإنسان للوجهة الصحيحة وينفض عن فطرته وعقله ووجدانه كل الغبار الذى حجب الرؤية وزكم الأنوف من قبل.

تتوارى أيضا ضغوط الحياة وثقل الهموم وتراكم المشكلات، ويرى المتابع للأحداث خَلْقًا جديدا وخُلُقًا جديدا نفض عن كاهله كل مكبلات الحركة وقيود المظالم والخوف من الحاضر والمستقبل.

المشهد يصبح رائعا ومبهرا وخلاقا،فلحظاته كلها محطات انكسار وانحسار وانتصار.

انكسار لروح الهزيمة حيث تستبدل في التغيير بإصرار على تحقيق الهدف مهما كانت قدرات الطرف المستبد وأدوات القمع لديه وآليات القتل وعدد الجنود والحرس.

وانحسار تام لحاجز الخوف من الموت والهجوم عليه بالإصرار على الحياة مهما بلغت التضحيات ومهما أمعن الطاغية في الوحشية واجتهد في استعمال كل ما تحتويه خزائن أمنه وحرسه وأتباعه.

وانتصار لروح جديدة تبدلت فيها الرؤى والأفكار والتصورات القديمة برؤية أعمق وأفكار أكثر تطورا وتصورات أشمل وأدق في معرفة الصواب والخطأ.

الفطرة النقية والكامن الحضارى والأخلاقي عمل عمله في جمع الحشود باختلاف توجهاتها وتياراتها وفصائلها ودينها أيضا في ميدان التحرير رغم الاحتقان السائد من قبل لتلتقى كلها وتذوب في إرادة واحدة حول هدف محدد وموحد وهو التغيير والثورة.

روعة المشهد هنا لم تكن في التنوع فقط، وإنما ظهرت في أعلى تجليات الضبط الإرادى لملايين البشر التى خرجت وملأت شوارع مصر وقراها دون أن يعكر صفوها حادث واحد إلا ما قامت به فلول الطاغية وبلطجية النظام،وتلك كانت مفاجآت الأقدار التى تخطت تحليلات الخبراء وتجاوزت رؤية المنظرين للثورات، فهل تستمر الفطرة النقية والكامن الحضارى وروح ميدان التحرير في حماية وحراسة الأهداف العظيمة للثورة وجمع الحشود باختلاف توجهاتها وتياراتها وفصائلها حول تلك الأهداف العظيمة؟.

الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار (٤/٤) (*)

في قاهرة المعز تشرئب الأعناق نحو الأعلى والأغلى دائما وإن هبطت بفعل النظام وفساده كل مناحي الحياة.

وفى قاهرة المعز تستطيع دوما أن تجد بُغيتك، تجد الفكرة النيِّرة والعقل المتوقد، وفيها تجد الضياء والنور، وإن أظلمت الدنيا وغابت النجوم والقمر.

فيها تجد الباحث النابه صاحب الذكاء الفذ وإن ضاقت يداه وقلّ رزقه عن الوفاء بمتطلبات البحث والدراسة.

فيها أيضا تجد عزة الفكر وشموخ الرؤية ودقة التوصيف والتحليل رغم سقوط المؤسسات الثقافية ووزارتها وأغلب رموزها في حضيض الحضيض.

فيها تجد الرويبضة التافه يطل عليك من شاشات الفضائيات يتحدث في كبريات القضايا. وفيها تجد العبقري المغمور الذى لا يعرفه أحد.

فيها تجد العلمانى أو الماركسي المتغطرس، يدُلى عليك ببعض ما يعرف من ثقافة، ويستعلى مغرورا بما يحفظ من مصطلحات البلوريتاريا والتركيبية والبراجماتية وما بعد الحداثة، وفيها تجد الفلاح الفصيح والعامل البسيط وسائق التاكسي وربة البيت الأمية لا تقرأ ولا تكتب، ولكنها بثقافة الفطرة تفقس صاحبنا المغرور، وتعرف أن انتماءه ليس لبلدنا، وأنه مغترب في عقله ووجدانه ومن ثم تدعو له بالهداية والشفاء مما يعانيه.

حين تتناقش مع هؤلاء البسطاء تتعجب من القدرة الفائقة في النفاذ إلى عمق الحقيقة رغم تفاهة ما يكتب في الصحف القومية ورذالة ما يدور ويقدم ويفرض على الناس في تلفزيون النظام.

تستغرب كيف يعيش هذا البلد، وكيف يتكيف أهله مع تلك الكوارث كلها ويمارسون حياتهم بتلقائية طبيعية يتصورها بعض الناس بلادة، بينما هى تمثل في مصر بشكل مخصوص عبقرية المكان وعبقرية الإنسان.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٣١ – ٠٣ – ٢٠١١م

عبقرية المكان في احتفاظه برصيده الحضارى رغم كل عوامل الهدم والنهب والاستلاب.

وعبقرية الإنسان في قدرته ولياقته العالية على الاحتفاظ بذاته واستعلائه في داخله على الهوان والاستضعاف، ومقدرته الفائقة على إعادة صياغة ذاته والانتصار على كل عوامل التسطيح والإحباط.

فيها تجد قيمة الثبات على المبدأ والإصرار على الحق رغم شيوع الباطل وشيوعية الإلحاد.

فيها تجد صدق الحديث ودفء الصداقة وتفانى الأخ في خدمة أخيه، رغم كل محاولات الاستبداد في تحريك المطامع وإثارة الشهوات.

في قاهرة المعز تلتقى أيضا بأساطين الثقافة الأصيلة والفكر الحر فيستمتع عقلك بأحدث ما أنتجته عقول العباقرة من رؤى وتحليلات، وما استحدث من مصطلحات ثقافية جديدة طرأت على الساحة تجرى على ألسنة مثقفيها وتتداولها أقلامهم الرشيقة والعميقة.

في المحروسة أيضا رغم زحام المواصلات وفوضى المرور وضيق العيش وأزمات التموين ومشكلة الإسكان، يرطب وجدانك حديث روحى بين إخوة تذكرك بالله رؤيتهم ويدلك على الله حالهم ومقالهم، فتتغذى روحك وتسمو فوق الحياة، وكأنك في زيارة إلى الجنة.

كنت في قاهرة المعز قبل الثورة بثلاثة أسابيع تقريبا، ولم أكن أدرى أن الحمل الميمون لأمنا مصر سيحمل مع مجيئه إلى الدنيا ميلادا جديدا للحياة.

وفى داخل مؤسسة أكاديمية مرموقة يرتبط بها عشرات الجامعات العلمية في العالم وتضم صفوة من الأكاديميين المحترمين، كنت في زيارة لأمينها العام وهو أستاذ لنا وصديق نعتز بصداقته ونستفيد من خبراته العلمية والعالمية، فالرجل أستاذ في القانون الدولى مرموق ومعروف.

مكتبه عادة لا يخلو أبدًا من الزوار، وقد أسعدنى الحظ وكنت أحدهم في تلك الجلسة المتميزة.. اللقاء ضمَّ أستاذا آخر في القانون الدولى له في عالم التربية الروحية

وتزكية النفس والوجدان باع طويل، وكان بصحبته مستشار نابه وخلوق يعمل نائبًا لرئيس محكمة النقض، كان ضمن الحضور أحد الدبلوماسيين المتميزين بثقافتهم الثائرة، ترك الحياة الدبلوماسية ويعمل الآن أستاذا للأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة، ضم اللقاء كذلك أحد الأساتذة الكبار ويعمل نائبًا لرئيس جامعة الأزهر.

كان بصحبتنا أيضا باحث شاب، معروف بدماثة خلقه، واجتهاده العلمي، وعلو همته، وتطلعاته العلمية المحمودة، هو المدير التنفيذى لتلك المؤسسة المحترمة.

الحوار كان عفويا لم يسبقه تحضير لأنه جاء عبر زيارة تلاقى فيها الأحباب كل وهواه.

وفي مصر المحروسة يتداخل الخاص والعام لأن كليهما مرتبط بالآخر، وكل حديث ولو بين الزوجين وحتى لو كنت في جلسة رومانسية سيؤدى حتما لحديث عن الأوضاع العامة للبلد،إذ كيف تتخلص مما ينوء به العقل والوجدان من فوضى الفساد والتسيب وأزمة البيت والزيت؟ ومن ثم كان من الطبيعى أن يتناول الحوار أوضاع مصر العامة والخاصة.

وفي القاهرة دائما ستجد كل جديد ليكون موضوعا لحديث بين طرفين.

التغيير والتوريث وشؤون السياسة واحتقاناتها، وما يستجد في الحياة اليومية من فساد أو كوارث هي القاسم المشترك بين كل متحدثين.

وفى نظر الأغلبية الغالبة والكثرة الكاثرة أن قطار الهموم الوطنية يحمل الكثير من القضايا التى تثير النقاش الحاد والمصحوب بالغضب أحيانا، لكنه لا يلبث أن يتحول بعد ذلك إلى حدث مضى، حيث يطغى عليه ويُغَطِّيه حدث آخر يحتل صدارة المشهد من جديد، وهكذا، وكأنما كان المراد أن يكون لدى الناس دائما ما يشغلهم ويستنفد طاقتهم ويستفرغ غضبهم وجهدهم.

كأنما أريد لهم أن يظلوا في حالة من المعاناة والإجهاد الاجتماعى والاقتصادى والنفسي ليظل اهتمامهم بعيدا عن شأن التوريث وما يجرى له من إعداد على قدم وساق وقد انطلق قطاره على الطريق محملا بالهتيفة "للفكر الجديد" و "من أجلك أنت" و" مصر بتتأدم بينا"

كان قطار التوريث يجرى بسرعة فائقة يقوده كهنة السياسة وفى أيديهم كل شئ، المال وأمن الدولة، والحزب، والنخب الثقافية في قنوات التليفزيون الرسمى والقنوات الخاصة، وفي الصحافة القومية الكل يسوق ويروج، وقد أعدوا له أكاليل الترسيم بعد أن اقتربت محطته.

القوانين أعدت بالتفصيل والمقاس، والبرلمان سيد قراره خلا تماما من أى معارض يمكن أن يعكر صفو الحفل المهيب ولو بتصريح فارغ، والقرية الذكية التى أنشأها وأعدها النجل المبجل قائد ثورة التحديث وصديقه عز الحديد قد أدت واجبها واستبعدت في الانتخابات كل من يشغب على النظام أو يعكر الصفو بالاعتراض تحت قبة البرلمان، فقوة الحديد تفل الحديد، وتستبعد كل معارض عنيد، ومشروع إقامة الألف قرية الموالية للنجل والمزمع تنفيذه يمهد الطريق، ويمنح إعلام السلطة فرصة ومادة يمارس فيها مع الناس لعبة شد الحبل ويدور بهم بين توجهات الوجوه الجديدة بمشروعاتها واستعداداتها لاستلام السلطة، وبين محاولات الحرس القديم وتشبثه بالبقاء.

فمرة لا مرشح للرئاسة غير الرئيس، ومرة تمتلئ الساحة السياسية بالسيد النجل المبجل جمال مبارك يسبقه حديث عن تحديث مصر والفكر الجديد تمهيدا لتتويجه ملكا جديدا على مصر، ليكون امتدادا واستمرارا لعصر الاستقرار والرخاء والنظر إلى المستقبل. ومن ثم فقد بلغت الشفافية مداها وتمت الانتخابات بنزاهة منقطعة النظير، وبقي دور الشعب في ممارسة إرادته عن طريق الاختيار الحر بين الإبن وأبيه.

وهكذا كانت تعيش مصر وشعبها في دوامة بين الوالد والولد في لعبة يسميها ظرفاء العامية "دوخينى يا لمونة"، أو، "دوخينى يا طاحونة " شك من الراوى.

في نظر الأكثرية الغالبة من المثقفين والمتسكعين، والمترفهين والجائعين كان التغيير مجرد حلم من أحلام اليقظة ينفس به المكبوتون المعقدون أمثالنا عن أنفسهم، أو لعله كان مجرد تسلية يلجأ إليها البعض بعدما اغلقت كل مجالات التعبير عن الذات، وأضحت مصر تعانى نوعا من الانسداد على مستويات مختلفة.

فعلى المستوى السياسى استعيرت نظرية الفهلوة التى يستعملها المستغلون وأهل الجشع من تجار الخردة في احتكار الأسواق السياسية، وبدأ الحزب الحاكم يتعامل مع الشعب بلغة مقاولى السباكة في المبانى الخراب، وهى لغة تستحل سرقة صاحب المبنى

وتستغل حاجته فتبدأ بالحصول على الأنقاض أولا وتأخذ ثمن إزالتها من صاحب البيت المهدم، ثم تتم إعادة بيعها لصاحبها مرة أخرى بعد مجرد تلميعها.

نظرية تجار الخردة ومقاولى السباكة السياسية استبعدت كل أطياف المعارضة بنوع غريب من الفجور الجرئ على التزوير والتبجح، وبدأنا نسمع مصطلحا جديدا اخترعه كهان السياسة الجهلة وأصبح خاصا بمصر وحدها وهو مصطلح المعارضة الوطنية،وكأن المعارضة من غير الحزب وخارج أعضائه ليست بريئة وليست وطنية،

وتحت هذا المصطلح صال وجال السيد زكريا عزمى تحت قبة البرلمان ليتحدث عن قضايا الفساد الذى بلغ الركب وهو لمن لايعرف أنواع الفساد نوع من الفساد "المستأنس" أي أنه مدجن وتحت السيطرة أيضا.

والفساد المستأنس والمدجن بتعبير آخر هو نوع من الفساد الشخصى، نعم هو مخرب ومدمر ولكنه تحت السيطرة ومتفق عليه بين كبار الفاسدين المفسدين وهواتهم، وهو فساد يقوم به صبيان السادة الكبار، ويكون الهدف منه أنه يخزى العين ويبعدها عن الفساد المركب والمتورم لدى السادة الكبار، أي أنه نوع مما يسميه ظرفاء العوام "فاسوخة" ولا مانع من التضحية في الفساد البسيط بواحد من المفسدين الصغار في المحليات مثلا من باب ذر الرماد في عيون حساد النظام وحاشيته.

في اللقاء المميز الذى جمعنى بالسادة الأعلام في مكتب الأمين العام. كانت كل هذه الإحداثيات حاضرة لدى السادة الحضور.

وكان أحد الأساتذة الحاضرين قد أعد لمؤتمر عن الإصلاح تأجل لظروف معينة، ومن ثم طرح موضوع المؤتمر نفسه ليكون مادة الحديث بين السادة الحضور.

طرح كل رؤيته وتوقعاته حول المستقبل القريب.

في الحوار كان بعض الحاضرين يعتمد نظرية الإصلاح على المدى البعيد، وكنت أرى أن النظام بلغ من الفساد حدا لا يمكن أن يجدى معه إصلاح ولا يمكن أن يسمح به أصلا.

تحدث البعض عن حاجتنا لثورة تربوية ثقافية تعلم الناس كيف يعرفون حقوقهم ويحافظون عليها ويدافعون عنها، وكنت أرى أيضا أن الثقافة تحولت في هذا العهد وفى

ظل هذا النظام إلى نوع من السخافة الممجوجة شكلا وموضوعا، وأن مؤسساتها تحولت في مصر المحروسة إلى "مولد يا دنيا " فهى سوق كبير والعاملون فيها إما بائع لأئ شئ ولكل شئ وإما تاجر وسمسار، وأن أغلب من يتصدرون المشهد الثقافي في التوجيه وصياغة الرأى العام يتلقون تعليماتهم من أمن الدولة، وبعضهم ربما يحمل رتبة ضمن فريق الجهاز، وأما المثقفون حقيقة فهم مبعدون عن مؤسسات الثقافة أصلا، أو مطاردون ومعزولون داخلها، ولا يظهر على السطح ويطفو كالجثث الميتة إلا أصدقاء السيد الوزير الفنان ومن يرضى عنهم، والأمر ذاته في كل المؤسسات الصحفية والإعلامية.

البعض كان يُؤَمّل ويُعَوِّل في التغيير على سيدنا "عزرائيل" ويراهن عليه، وهو بالمناسبة ليس زعيما إسرائيليا من أصدقاء صاحبنا في الكيان الصهيونى، وإنما هو الإسم الشهير "خطأ" لملك الموت لدى عامة الناس البسطاء، فالرجل قد تجاوز الثمانين من عمره، ولكن حتى هذا الأمل خاب أمام تطلع الإبن وإصراره على أن يرثنا نحن أحياء وأمواتا.

كنت أستشعر أن أغلب الحاضرين يعرفون الحل الحقيقي ويعرفون الطريق إليه، لكنهم يعرفون أيضا أن التصريح به مغامرة محفوفة بكثير من المخاطر التى تبدأ بالعزل من الوظيفة وربما تنتهى بالسجن والتعذيب، فكل شئ مراقب وكل شئ مرصود، وحتى الأنفاس معدودة ومحدودة، والحبيب العادلى وجهازه يعرف كيف يصطادك.

استفزنى بعضهم وقال ماذا عندك أنت؟ قلت أنا ضيف لا يحق له أن يتقدم على رب البيت وأنتم أهله وأصحابه، قالوا: أنت أيضا لست بغريب عنا، أنت واحد من أهل الدار، وأهلها هم أهلك وناسك، فقل لنا ماذا عندك؟

وبزهو الفدائي الذى يغازل الحياة بتحدى الموت، ويصر على الانتصار وهو يُقْبِل على تفجير قنبلة، استجمعت شجاعتى واندفاعاتى وتهورى أيضا وقلت لهم: إذا ذابت حرية المرء في سلطان الحكم المطلق، وشعر جمهور الأمة بالانطواء والانزواء أمام إرادة واحدة مكنتها المصادفات من السيطرة والامتداد، فمن العبث أن تتجه جهود المصلحين إلى الجماهير الغفيرة، وإنما يجب فض الأمر أولا مع صاحب السلطة؛ لأن

بقاءه في وضعه العاتى يتنافى مع كل دعوة للإصلاح، ساعتها نظر بعض الحاضرين إليَّ مُحَمْلِقا، والبعض الآخر مشفقا، وتبسم آخرون في خبث، وانصرفنا لتناول الغذاء.

يومها كنا قبل الثورة بثلاثة أسابيع، ولم أكن أعرف ساعتها أن مصر بعد أيام قليلة بشبابها وثورتها وقواتها المسلحة قررت أن تفض الأمر مع رأس السلطة، لأن بقاءه في وضعه العاتى يتنافى مع كل دعوات الإصلاح.

لم أكن أعرف أيضا أن الحمل الميمون لمصر كان توأما، أحدهما يولد في قاهرة المعز وتمتلئ به فرحا كل بلاد المحروسة، بينما الآخر يستكمل دورته ليحمل ميلادا جديدا لبلدان أخرى تعيش حالة المخاض في ليبيا واليمن وسوريا والباقى على الطريق.

وتلك كانت مفاجآت الأقدار التى غلبت تحليلات الخبراء.

عاجل للمجلس العسكرى ورئيس الوزراء الجديد..
ارفعوا العار عن شعب مصر (*)

في الفقه السياسي هنالك فرق بين الدولة والحاكم، فالدولة مجموعة من المؤسسات تعمل في تناسق وانسجام لتشكل كيانا محترما يعيش الناس في ظله وإليه يحتكمون ثم هم يحمونه أولا ليحتموا فيه ثانيا.

فكأن هذه المؤسسات أو السلطات تستمد شرعية وجودها وبقائها من إرادة الأمة، وهذا هو معنى من معانى "الأمة مصدر السلطات".

أما الحاكم فهو رجل من أبناء هذه الدولة اختاره الناس ليكون أمينا على مصالحهم، حارسا لقيمهم وثوابتهم، قائما على خدمتهم نظير أجر محدد ولمدة محددة تُجدد إن أحسن وأجاد، ويُعزل إن قصر وأساء، ومن ثم ينفسخ العقد بين الدولة والحاكم.

بفسخ العقد بين الدولة والحاكم يفقد الحاكم شرعيته كحاكم وبعد أن يحاسب على تقصيره وإساءته يعود لصفوف المواطنين يمارس دوره العادى.

بقاء الحاكم في الحكم مستمد من إرادة الشعب ورغبته من ناحية ومن ناحية أخرى مرتبط بقدرته على القيام بمهامه المحددة ومنوط بتحقيقه لمصالح شعبه، وفي الدولة أجهزة رقابية مهمتها الأصلية تصحيح المسار وتوجيه الحاكم إن أخطأ وإمداده بما يحتاج إليه ويساعده على أداء مهامه.

الجهات الرقابية هذه لا يجوز أن تكون تبعيتها الأصلية للحاكم وإنما لابد أن تكون مستقلة في أصل قرار تكوينها، فلا يختارها الحاكم وإنما يختارها أهل الحل والعقد الذين أنابهم الشعب عنه وفوض إليهم البت فيما تحتاجه مصلحة البلاد من قرارات سيادية، وهذا ما يطلق عليه في الفقه السياسي مصطلح "استقلال السلطات"، و"الفصل بين السلطات"

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٦ - ٠٣ - ٢٠١١م

الجهات الرقابية التى اختارها الشعب يجب أن تكون مستقلة في تكوينها فلا تخضع لرغبة الحاكم، كما يجب أن تكون مستقلة في طريقة أدائها لعملها وفى قرارها حتى تكون متحررة من كل أشكال الضغوط.

في مقدمة هذه الجهات مؤسسة القضاء، وعلى رأسها رئيس المحكمة الدستورية والنائب العام.

منها أيضا جهاز الرقابة الإدارية، والجهاز المركزى للمحاسبات، وجهاز الكسب غير المشروع وجهاز أمن الدولة.

من خطايا الأنظمة الدكتاتورية البائدة –وخصوصا الأنظمة المستبدة– الاندماج التام بين مفهوم الدولة والحاكم، فالحاكم ليس هو الدولة في الاعتبار الصحيح ويجب التفريق بينهما.

النظم المستبدة لا تفرق بين الحاكم والدولة وإنما تدمج الدولة كلها بكل طاقاتها وإمكانياتها ومؤسساتها في الحاكم ومن ثم اختصرت واختزلت الدولة كلها في شخص الحاكم فقط.

هنا تضاءلت الدولة وانكمشت وتقلصت بل واحتقرت واحتكرت لتكون هي شخص الحاكم، وهذا لا يحدث إلا في النظم الدكتاتورية فقط والتى ابتليت بها بلادنا.

جهاز أمن الدولة والذى تورم وتضخم دورا وحجما وتشعبا حتى أمسك بمقاليد كل الأمور، ولم يعد هناك موقع واحد أو وظيفة صغيرة أو كبيرة يتم التعيين فيها إلا عن طريقه وبموافقته بداية بأصغر الوظائف وانتهاء بأكبرها، ومن أصغر مرفق في البلديات وحتى رئاسة الجامعة، بل وحتى موقع الوزير ومن هو أكبر، في أقل المواقع البسيطة وحتى أكثرها حساسية ولا يستثنى أحدا من كبار الشخصيات إلا ويعد لهم ملفات خاصة لتكون جاهزة للاستعمال عند اللزوم إذا خرجوا عن الهوى السياسي أو ظهرت عليهم طموحات في زعامة أو استقلال برأي، أو تمردوا على أخلاق القطيع وثقافته.

التضخم الخطير لهذا الجهاز حول جموع الشعب لتكون عيونا للنظام بدلا من أن تكون عينا عليه.

والفرق كبير جدا بين أن يكون الشعب عينا للحاكم، وبين أن يكون الشعب عونا له في أداء مهامه، وعينا عليه إذا انحرف وتجاوز.

أن يكون الشعب عينا على الحاكم تعنى أن هنالك أجهزة رقابية تعمل بكفاءة تصوب الأخطاء وتصحح المسار الوطنى بشكل دائم ومستمر وتعين الحكم على أداء مهامه بشرف وأمانة واقتدار.

أن يكون الشعب عينا على الحاكم تعنى أن تحولا مستمرا يحدث إلى الإمام في العلاقة بين الحاكم والشعب، يحمى الحاكم من قوة ونفوذ السلطة وسطوة الحكم وما يتبع ذلك من إغراء الطمع في الحصول على ما لا يستحق؛ لأنه يؤمن أن كل عيون الشعب عليه،وأن غضبهم جاهز إذا انحرف وتعدى أو تجاوز،

كما أنه من ناحية أخرى يرفع عن المحكوم هواجس اللبس وسوء الظن حول كل جديد يطرأ في حياة الحاكم، ومن ثم يتحقق القدر المطلوب من الثقة المتبادلة بين الطرفين، وهذا أمر مطلوب وحيوي جدا؛ لأنه يساعد على تنمية شعور المواطن بمسؤولياته ويزيد من حجم ولائه وانتمائه لهذا الوطن الذى يسود فيه العدل والكرامة والحرية، ويتساوى في ظله الجميع، ولا يزيد فيه نصيب مؤيد على نصيب معارض الأمر الذى يظهر التميز الحضارى في الأداء العام وينعكس بالإيجاب على الأمة حكاما ومحكومين، وطنا ومواطنين.

بينما الأخرى أن يكون الشعب بطوائفه وأطيافه ومثقفيه عينا للحاكم تعنى أن يتحول الجميع من تخصصه الأصلى إلى مجرد مرشد لأجهزة الأمن، مهمته التجسس على الآخرين ورفع التقارير المطلوبة، ومن ثم يتحول الجميع إلى مهنة مخبر بمسمى وظيفى مختلف وبلباس مدنى.

الجميع في ظل الحزب الوطنى وذراعه القوية ويده الباطشة وهى جهاز الإفساد هذا، يتحولون إلى جواسيس بعضهم على بعض، ومن ثم فلكل منهم ملف خاص يمتلئ بما يمليه الهوى السياسي ليكون تحت الطلب للاغتيال المعنوى لأية شخصية قيادية وتشويه صورتها وتاريخها، حتى ولو كانت شخصية تقود جهاز مشابه في العمل وشريك في القرار إذا لزم الأمر.

جهاز أمن الدولة وهو أكثر الأجهزة خطورة، وأكبرها نفوذا وأشدها تأثيرا وأعظمها طاقة وقدرة وإمكانات، لم تكن مهمته في عصر الرئيس المخلوع حسنى مبارك حماية الدولة وهى المهمة الأساسية المنوطة به، وإنما تحول إلى جهاز لحماية الحاكم وأسرته فقط، ومن ثم تخلى عن مهامه الأساسية والتحق أو ألحقه شخص ما بشعبة في سكرتارية الرئيس، مهمته الأساسية أن يصول ويجول في شرق البلاد وغربها ليؤدب الذين تتعارض ميولهم مع الهوى السياسي لشخص الرئيس.

لكل مواطن شريف مع هذا الجهاز سئ السمعة قصص وروايات وحكايات مليئة بالأحزان وبعضها ملئ أيضا بالمآسى.

هذا الجهاز حرم كثيرا من الباحثين الشباب الشرفاء من حقهم في التعيين كمعيدين في الجامعة رغم توافر كل الشروط العلمية فيهم لمجرد أن بعضهم رفضوا أن يتحولوا إلى جواسيس على زملائهم وأساتذتهم، والبعض الآخر كان ممن لا يتوافق مع الهوى السياسى للرئيس أو للحزب الوطنى، بينما عَيَّنَ مَنْ قبل المهمة ولا تتوافر فيهم الشروط العلمية، بل إن بعضهم في السنة النهائية راسب في مادتين ومع ذلك تم تعيينه.

عندما فاحت الرائحة وتحدث الطلاب تدخل جهاز أمن الدولة وعدل النتيجة بعد التعيين بعام كامل، واستقال وقتها بعض الأساتذة والعمداء الشرفاء اعتراضا على ما حدث وتركوا الجامعة ومصر كلها.

بعض من عينوا بغير حق أساتذة كبار الآن، وبعضهم يشغل مواقع قيادية كبرى في الحزب الوطنى، وبعض مؤسسات الدولة عن طريق الحزب.

هذا الجهاز به فرق سرية لصناعة الأزمات بداية بإثارة الفتن وإعداد التفجيرات والاغتيالات السياسية ويمكنكم فتح ملف اغتيال الدكتور رفعت المحجوب، وكيف سدت وأغلقت طرق بعينها وبأوامر خاصة، ليتحول موكبه إلى طريق محدد حتى تتم عملية الاغتيال.

هذا الجهاز كان يصول ويجول في كل خصوصيات المصريين من أكبر رأس بعد رئيس الجمهورية وعائلته إلى أصغر موظف في بلدية أو وابور للطحين. وحرق مبنى الأدلة بما فيه من ملفات وفرمها والتخلص منها ليضيع كل شئ، دليل على ذلك.

هذا الجهاز تجسس على كل رجال مصر وكل نساء مصر وكل شباب مصر، وجاب البلاد طولا وعرضا من شرقها لغربها منتهكا كل الخصوصيات ليعد ملفات جاهزة لإذلال الناس وإخضاعهم عند اللزوم، ومن ثم حول الدولة كلها بكل رجالها ومؤسساتها من أن تكون عيونا على الحكم تراقبه وترده وتوجهه وتصوب أخطاءه، حولها من أن تكون عيونا على الحاكم لتكون عيونا له يتجسس بعضها على بعض ويكيد بعضها لبعض ويعد كل واحد تقاريره عمن يعرفهم أو يعرفوه.

بقاء هذا الجهاز يعنى بقاء العار، يعنى بقاء المظالم يعنى بقاء السوء والشر والزور. هذا الجهاز هو رمز للقهر والذل ومصادرة الحريات وانتهاك الحرمات والخصوصيات، وبقاؤه يعنى بقاء مصر كلها تحت الاحتلال والأسر لمؤسسة أعضاؤها يأخذون رواتبهم وامتيازاتهم التى هى بغير حدود من قوت الشعب الفقير وعرقه ومن نصيب أبنائه البائسين.

هذا الجهاز بقاؤه يعنى بقاء الظلام وزوار الفجر والاعتداء على الكرامات وإذلال الحريات وانتهاكها، وأغلب رجاله آلهة لا يعرفون ربهم ولا يعترفون به، وليس لمظالمهم أو صلفهم أو عدوانهم سقف أو حدود لا قانونى ولا أخلاقى ولا دينى ولا حتى إنساني، فهم يحاسبون كل أحد ولا يحاسبهم أحد.

بقاء هذا الجهاز يعنى بقاء مبارك وولده وأسرته بشحمهم ولحمهم، ويعنى بقاء الحزب الوطنى برموزه ورؤوسه وفساده،

بقاء هذا الجهاز يعنى أنه لا ثورة، يعنى أنه لاتغيير، يعنى الرجوع إلى عصر مبارك ونهجه ورجاله وحاشيته ولكن بالتقسيط المريح.

والحزب ورجاله ورموزه مع رموز ورؤوس هذا الجهاز يضغطون الآن بلعبة مكشوفة عن طريق إطلاق البلطجية والمجرمين ليعيثوا في مصر فسادا حتى يضج الناس ويقولون: أين جهاز الأمن؟، نريد جهاز الأمن كما صرح علانية بذلك مدير أمن البحيرة المخلوع. بقاء هذا الجهاز يعنى أن كل رموز النظام السابق يمسكون بأيديهم كل الخيوط، ويعنى أنهم على الطريق قادمون، ويعنى أنهم ينظمون صفوفهم وبمساعدة هذا الجهاز ليعودوا كما كانوا.

هذا الجهاز لديه وسائل للتعذيب، وأماكن للتغييب، وأخرى للقتل لا يدرى أحد عنها شيئا ولا وزير العدل ولا النائب العام وربما حتى ولا وزير الداخلية نفسه.

هذا الجهاز لم يسلم من تجسسه أحد ولا القوات المسلحة ورجالها وحتى جهاز الأمن القومى نفسه لم يسلم رجاله من هذا الجهاز.

هذا الجهاز هو الجحيم بعينه، وبقاؤه يعنى أن مصر لم تتغير وأنها لا زالت في الأسر، وأن ٨٠ مليون لا زالوا تحت خط القهر والأيدى الباطشة والليل الأسود.

أوقفوا هذا الجهاز بعد تصفيته واستخراج ما فيه من أسرار وستجدون مظالم وجرائم يشيب لها الولدان، وليس لها في تاريخ البشرية نظير أو شبيه.

حاكموا رموزه وابحثوا في ملفاتهم وستجدونهم شركاء في كل فساد، وشركاء في كل عملية نهب لثروة مصر وتاريخ مصر وحضارة مصر وثقافة مصر وشرف مصر وعرض مصر.

احصوا ثروة كبار رجاله والعاملين فيه والمنتسبين إليه وسَتُرَوِّعكُمُ الأرقام المذهلة.

هذا الجهاز هو الذى سهل خراب مصر ونهب ثرواتها وهو الذى أفسد الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية.

هذا الجهاز هو الذى خرَّب ذمم الناس وعقولهم وأخلاقهم على كل المستويات، في المؤسسات المختلفة والقطاعات المختلفة والجامعات ولم تسلم منه هيئة أو مؤسسة وحتى القوات المسلحة ورجالها الأبطال.

افحصوا هذا الجهاز وستجدون مظالم لم تحدث في تاريخ البشر وحتى في أكثر العصور ظلما وفرعنة واستبدادا.

التضخم الخطير لهذا الجهاز حول أغلب الناس وفي أغلب مؤسسات الدولة لتكون عيونا للنظام بدلا من أن تكون عيونا عليه.

والفرق كبير جدا بين أن يكون الشعب عينا للحاكم، وبين أن يكون الشعب عينا عليه. من فضلكم يا رجال المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

ويا رئيس الوزراء يا حراس مصر الثورة وياحراس مصر الحضارة والثقافة والتاريخ العريق حرروا مصر من هذا الجهاز، لترفعوا العار عن مصر وثورتها وشعبها.

نداء استغاثة..

من مصر الجريحة والشامخة إلى أبنائها الشرفاء (*)

عزيزى القارىء: كان من المفترض أن يكون اليوم هو موعد الجزء الثالث من سلسلة مقالات الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار، غير أنى سمعت ما أساءنى عن حبيبة القلب ومهجة الفؤاد ورفيقة الروح.

سمعت أن فلول النظام المخلوع بدأت تعبث بأمنها وتروع أهلى وإخوتى فيها.

سمعت أنهم من خلف ستار يريدون أن يعطلوا الحياة في مصانعها ومزارعها ومعاملها وجامعاتها.

سمعت أن شللهم يريدون أن يصيبوها بشلل في مرافقها العامة والخاصة، وأنهم لم يكتفوا بسرقتها من قبل ولمدة ثلاثين سنة، وإنما أرادوا أيضا أن يجوعوا أبناءها بتعطيل كل مصادر الإنتاج ليثوروا على الثورة، وأنهم من خلف ستار يحاولون تحريك الفئات المختلفة لتطالب بحقوقها المشروعة، وأنهم أيضا يحاولون عن طريق البلطجية وبعض الإشاعات السوداء والرمادية أن يثيروا الرعب والفزع في ربوعها.

سمعت أن كهنة السياسة السابقين الذين كانوا يستعملون الدين مطية وقنطرة لتنفيذ مخططهم في التوريث، مع كهنة الدين الذين يستعملون السياسة والسياسيين مطية أيضا لتحقيق أحلامهم الإمبراطورية التقت مصالحهم في إحياء احتقانات قديمة بين الإخوة في الوطن،المسلمين والمسيحيين وكانت قد ماتت في ميدان التحرير غير أنها بدأت تطل برأسها من جديد وأن فلول النظام السابق تستعمل البلطجية في إحيائها لإرباك الحكومة الجديدة والقوات المسلحة ولتحويل أنظار الناس عن المحاكمات لكبار الفاسدين.

لكل هذه الأسباب فعلت ما يتوجب على كل ابن بار أن يفعله تجاه أمه حين يحيط بها الخطر فينادى إخوته ويستصرخ أهله الذين هم أبناؤها لينقذوها قبل أن يتمكن اللصوص من خنقها والقضاء على الشرفاء من أبنائها ومن ثم عدلت عما كنت أكتبه

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٠ – ٠٣ – ٢٠١١م

وأجلته لأسبوع قادم وقدمت تلك الاستغاثة؛ لأنها في نظرى وفى نظر كل العقلاء تشكل "واجب الوقت".

وعنها نقول:

في تاريخ الثورات قديما وحديثاً لم تحدث ثورة بالنقاء ولا بالطهر الذى قامت به ثورة ٢٥ يناير

ثورة مصر الشريفة والطاهرة، قام بها شباب مصر وساندها ووقف من ورائها شعب مصر وقواته المسلحة.

الشباب الذى خطط للثورة، والشعب الذى ساند وعبأ وحشد لها، والقوات المسلحة التى حمت ووقفت شامخة بجانب أبنائها وبجانب شعبها، الكل دخل التاريخ، والكل حقق إنجازا والكل لفت أنظار الدنيا، والكل جعل الجميع يقولون هاهى مصر، وهاهم أبناؤها، وهذا هو شعبها.

ها هى مصر خرجت كلها بعمالها الطيبين وفلاحيها ونسائها ورجالها مسلمين ومسيحيين صغاراً وكباراً وكلهم في نظر الدنيا كبار، ها هم قد خرجوا جميعا رغم الأزمات والفقر والحرمان والحاجة في مظاهرات سلمية ومتحضرة ومنضبطة ولم تحدث حادثة واحدة تعكر الصفو، إلا ما قام به فلول النظام.

ها هى مصر بتاريخها وحضارتها، وها هى بأخلاقها وانضباطها رغم العشوائيات والذين يسكنون المقابر، ها هم في الشوارع ثائرون ولم تحدث حالة سرقة واحدة، أو حالة تحرش واحدة، أو حالة خروج عن قانون الدين والأخلاق رغم غياب الشرطة وانعدام الأمن.

وفي مؤامرة أريد بها إشاعة الفوضى وبث الرعب والزعر بين الجماهير انسحبت الشرطة فجأة.

كان المراد هو إفشال الثورة، والمقارنة بينها وبين العهد البائس البائد، كان الخيار هو بقاء الذل والاستبداد أو الفوضى.

وظهر الكامن الحضارى في روح هذا الشعب العظيم وفى وجدانه العام وعقله الجمعى، فتصرف الناس بتحضر ليس له في التاريخ مثيل أو شبيه.

كانت تجليات الضبط الإرادى في أعلى صورها، وكانت الأخلاق المتحضرة في قمة تجلياتها، كان السلوك فوق ما يعرف الجميع وفوق ما ينتظره الجميع، كان الإيثار هو القانون السائد، وكانت الأخوة هى الضامن والحارس، وكان إحساس الواحد بالكل وإحساس الكل بالواحد هو صمام الأمان رغم غياب الرقيب وانعدام الأمن وغياب رجال الشرطة.

ونجح الشعب بعماله وفلاحيه وفئاته المختلفة مسلمين ومسيحيين وثواره وقواته المسلحة، نجحت الأمة المصرية في أشد وأصعب اختباراتها على مدار التاريخ، وتعجب العالم وانبهرت الدنيا، وقال الجميع أي شعب هذا؟ أي ثورة هذه؟ أي بشر ألئك الناس؟

لقد انقطع التيار الكهربائى في مدينة نيويورك لمدة ١٤ساعة فوقعت مليون جريمة وتحولت عاصمة الحضارة والمدنية والتقدم إلى عاصمة للرعب والأشباح.

ما قمتم به أيها المصريون الشرفاء دخل التاريخ من أوسع أبوابه، وجعل الدنيا تتغنى بأخلاقكم رغم الفقر والحاجة، رغم السنين الثلاثين العجاف.

ما قمتم به جعل ثورتكم تدرس في مناهج الغرب ليتعلم منها أبناؤهم في معاهدهم وجامعاتهم، فاحذروا أن تسلب ثورتكم وأن ترتدوا إلى الوراء مرة أخرى.

هنالك محاولات للترويع وإثارة الفوضي والرعب بين الجماهير فلا تستجيبوا لها.

هناك رهان على صبركم وقدرتكم على التحمل وتوقعات بأن القادم أسوأ فلا تستجيبوا وخيبوا ظنونهم.

مصر اليوم في حاجة ماسة إلى وعيكم، إلى فطرتكم النقية، إلى مشاعر الوطنية المتدفقة من وجدانكم.

مصر اليوم في حاجة إلى المصانع لتعمل بأقصى قدرة لها حتى نكتفى ذاتيا ولا نمد أيدينا.

مصر اليوم في حاجة إلى فلاحيها ليزرعوا أرضها ويستخرجوا خيراتها ويستنبتوا نباتها الطيب ليأكل أبناؤها بكرامة.

نعرف أن هنالك أزمات ونعرف أن لكل فئة مطالب تجاهلها النظام السابق ولم يستمع إليها، نعرف كل ذلك، لكنكم أيضا تعرفون أن الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها،

وأن الإنسان الأصيل لن يستدفئ بأصنام العهد البائد مهما كان ظلام الليل وبرودة الجو.

نعرف أن مستوى الأجور يشكل عارا في جبين الذين سرقوا مصر ونهبوا ثروتها، وأنه لا بد من تحقيق العدالة الاجتماعية، وأن المرتبات التى تجاوزت المليون والمليون ونصف شهريا لبعض الناس بينما آخرون لا تتجاوز مرتباتهم الألف جنيه شهريا رغم خدمتهم لعشرات السنين، هذا التفاوت الظالم والذى كان يمثل رشوة مقنعة للبعض لا بد أن ينتهى.

ولكنكم تعرفون أيضا أننا يجب أن نتحامل على جراحنا وأن نصبر، وأن نعمل لنكفي أنفسنا وأهلينا.

نعرف أن لكل فئة مطالب مشروعة وحقيقية، وأن مظالم كثيرة قد ورثتها الثورة نتيجة العهد المظلم.

ولكنكم تعرفون أيضا أن المصانع متوقفة، وأن الأعمال متوقفة، وأن عجلة الحياة يجب أن تعود لطبيعتها لتعمل وبأقصى إمكانيات ممكنة،وأن أخطر التحديات التى تواجهنا اليوم هي توفير القوت الضرورى لكل الشرفاء أصحاب هذه الثورة وأهلها. وأن المطالب لا يمكن أن تتحقق وكل مصادر الإنتاج معطلة والحياة متوقفة في المصانع.

نعرف وتعرفون أن الإنسان الشريف يكدح ليله ونهاره ليكفى نفسه وأخاه، وأنه يطوى بطنه على جوع، ولكنه لا يفرط في بلده، فهى وطنه وعرضه وتاريخه وحاضره ومستقبل أولاده.

مؤامرات فلول النظام السابق تحاول أن تهيج الجماهير ليقوموا بمظاهرات ويعطلوا مصادر الإنتاج وليوقفوا عجلة الحياة حتى يضج الناس في مصر، لكن وعيكم سيكون أسبق من تدبيرهم، وإقبالكم على الأعمال وزيادة الإنتاج سيفشل مؤامراتهم، فكونوا على حذر، فمصر اليوم تمر بأخطر مراحلها، وفلول النظام القديم يحاولون لملمة عقدهم الذى انفرط، ويجمعون فلولهم التى ولت وهربت أمام إصراركم، لكنهم يريدون أن يعودوا من جديد ليكملوا على ما تبقى من مصر.

يريدون أن يعود النظام المخلوع في نسخة جديدة وبلون جديد ليغتال نسيم الحرية الذى استنشقناه واشتقنا إليه وأحببناه بكل حواسنا ومن كل قلوبنا.

يريدون أن يعود النظام المخلوع في صورة جديدة ليسرق ما تبقى لنا من شرف ويقضى على ما لدينا من إصرار.

النظام سرق في الماضى ثروتنا، وباع أرضنا وقامر بمصيرنا الدولى، وهاهو يحاول أن يعود ليسرق ما تبقى لنا من أرض، ويبيع ما تبقى في أرضنا من غاز، ويقامر بما تبقى لنا من إرادة، ويهدم ما تبقى لنا من دار.

كهنة السياسة السابقون الذين كانوا يستعملون الدين مطية وقنطرة لتنفيذ مخططهم في التوريث، ومعهم كهنة الدين الذين يستعملون السياسة والسياسيين مطية أيضا لتحقيق أحلامهم الإمبراطورية التقت مصالحهم في إحياء احتقانات قديمة تبين أنها كانت مصطنعة ومزورة ومن تنفيذ وإخراج أمن الدولة، ونحمد الله أنها كلها قد ماتت في ميدان التحرير،غير أنها بدأت تطل برأسها من جديد وأن فلول النظام السابق تستعمل البلطجية في إحيائها بهدم الكنيسة مرة، وسب المسلمين وقذفهم بالحجارة مرة أخرى لإرباك الحكومة الجديدة والقوات المسلحة، ولتحويل أنظار الناس عن المحاكمات لكبار الفاسدين.

فلول النظام أيضا ومن خلف ستار يحركون عمالنا الطيبين في كل المرافق ليتظاهروا، ويطالبوا بحقوقهم، والسؤال هو: مَنْ يطالب مِنْ مَنْ؟

كلنا يعرف أن مصر قد خرجت من تجربتها الثورية جريحة، فالنظام البائد قبل أن يغادر قرر أن يفكك كل مفاصل الدولة، فالشرطة قد غابت عن الشارع فجأة، وفجأة خرج المجرمون من السجون، وفجأة أيضا ظهر البلطجية في الشوارع ليروعوا الناس، وفجأة أيضا خرجت المظاهرات الفئوية تطالب بحقوقها، وبغير مبرر أيضا حرض بعض الكهنة على التظاهر والحشد والتعبئة وقطع الطرق الرئيسة في القاهرة.

والسؤال هو: كيف عادت الاحتقانات؟ ومن وراءها؟ ولماذا في هذا الوقت بالذات؟

هل المراد هو إثارة الرعب والفزع وترويع الناس وإظهار الحكومة والقوات المسلحة بالعجز والفشل

حتى يكره الناس الثورة والثوار ويترحموا على النظام المخلوع؟

وإذا كانت القوات المسلحة قد وعدت بحل كل المشكلات وأمرت بالبدء في بناء الكنيسة فما معنى الاعتصامات والتهديدات والاستفزاز والتطاول على كبار المسؤولين؟

هذه اللغة غريبة بعد **٢٥** يناير وما ظهر فيها من وحدة وتلاحم وأخوة بين المسلمين والمسيحيين رآها الناس ونقلتها كل وسائل الإعلام العالمية في مشهد مهيب يشهد بتحضر مصر وروعة إنسانها وشعبها.

هذا التصرف مشين بعد **٢٥** يناير لأنه يمثل ردة وانتكاسة إلى عقلية حبيب العادلى وأجهزة أمنه وتواطؤ كهنة السياسة وبعض كهنة الدين وما كانوا يرتبونه من صناعة للفتن وتأزيم للعلاقة بين المسلمين والمسيحيين.

ماتم ويتم ليس وليد المصادفة وعلينا أن نتساءل في تعقل وتدبر وتفكير مَنْ يطلب مِنْ مَنْ؟...ألسنا كلنا الثورة؟... ألسنا كلنا الشعب؟...، ألسنا كلنا القوات المسلحة؟ ألم تعلمنا ثورة **٢٥** يناير هذا الدرس العظيم؟ أن كلنا واحد؟ وأن واحدنا هو الكل وهو الجميع؟

وكيف تتحقق المطالب والوزارة الجديدة لم يمض عليها سوى أربعة أيام؟ والثورة لم تستكمل شهرين اثنين؟، والمصانع مغلقة والحقول والمزارع متروكة، والمرافق العامة تكاد تكون متوقفة، والمرافق الخدمية أصحابها يتظاهرون مطالبين بحقوقهم.؟

والسؤال هو: كيف يمكن تحقيق المطالب وكل مصادر الإنتاج معطلة؟، والاقتصاد مهدد بالانهيار، والقوات المسلحة لا تستطيع أن تفتح الملفات كلها في وقت واحد، والنظام السابق قد وضع تحت كل طوبة في مصر قنبلة موقوتة من الفساد الأسود، فَمَنْ سيحقق لنا المطالب مالم تعمل مصانعنا ومزارعنا ومعاملنا وجامعاتنا ومدارس أبنائنا.؟

مَنْ يطالب مَنْ؟ ومَنْ يسأل مَنْ؟ ألسنا كلنا مسؤولون؟

إن الثورة ليست ثورة فئة بعينها، وهذا أروع ما فيها، صحيح أن الشباب هم أول من أوقد شرارتها المباركة، ولكنهم هم أنفسهم يقولون إنها ثورة الشعب كله بأطيافه

وفئاته كلها، ومن ثم فكلنا مسؤول عنها وعن استمرارها وعن حمايتها وتحقيق كل أهدافها.

ولن يكون صحيحا ومفيدا ومنطقيا أن يتحول أحدنا أو فئة منا إلى مُطالِب بحقوقه وعلى الآخرين أن يستجيبوا له.

الهم العام هنا يجب أن يتقدم على الهم الخاص، ومصلحة الوطن يجب أن تكون عليا وأعلى من المطالب الفئوية والهموم الخاصة لكل منا.

هذه الثنائية يمكن أن تكون مقبولة ومنطقية وصحيحة بعد أن تتعافى مصر مما أصابها من الفساد الذى عطل رئاتها لمدة ثلاثين سنة، واستنزف خيراتها ونهب ثرواتها وأكل حقوق الغلابة من أبنائها وحولها إلى مليارات في خزائنه السرية.

مصر اليوم جريحة في اقتصادها وجريحة في مصانعها ومزارعها ومعاملها وجامعاتها وكل ميادين الحياة فيها، لكنها شامخة بعزتها وستتعافى بتوكلها على الله أولا، ثم باعتمادها على سواعد أبنائها، ولن تفرط في حريتها وكرامتها، ولن تسمح لمن سرقوها من قبل أن يعودوا ليسرقوها مرة أخرى، فهى واعية ومدركة ولن تلدغ من جحر الحية مرتين.

وعلى كهنة النظام وفلوله وكهنة الدين أيضا الذين لا زالوا يعيشون في الماضى أن يتعلموا أن مصر قبل ٢٥ يناير ليست هي مصر بعد ٢٥ يناير، وأن حليفهم الفرعون الكبير وخليفته الذى كانوا ينتظرونه قد ذهبوا إلى غير رجعة وأن ثورة طاهرة وشريفة قد قامت وغيرت الحياة بكاملها، وأن محاولاتهم مكشوفة ومفضوحة، وأن وعي الشعب مسلمين ومسيحيين سيسحقهم وسيتجاوز باقتدار ما تقوم به فرق البلطجية المستأجرة من احتقانات مصطنعة، وعلى الكنيسة برؤوسها ورموزها أن توضح موقفها من هذا الذى يحدث.

أيها الشعب المصري الأبى، ما سرق منا يمكن أن يعوض بجهودنا، ويمكننا أيضا أن نستعيده بالقانون الدولى، ولكن على سواعد أبنائنا أن تبرهن بالعمل الجاد والجهد الشريف أننا أقوياء في إرادتنا، وأقوياء في تصميمنا، وأقوياء في اقتصادنا، ولن نحتاج إلى الآخرين.

علينا أن نعرف أن الآخرين لن يعترفوا بنا ونحن ضعفاء ولن يستجيبوا لنا ونحن مهمشين، ولن يستمعوا لصوتنا ونحن نستجديهم ونمد أيدينا إليهم.

الدنيا لا تسمع إلا صوت الأقوياء، ولن تستجيب إلا لأصحاب الإرادة والعزم والتصميم، ولن تحترم إلا الغنى عنها، ولن يتم ذلك كله والمصانع معطلة والمزارع متروكة، والجامعات مغلقة،والناس في الشوارع يتظاهرون ويطالبون بحقوقهم، والسؤال هو مَنْ يطلب مِنْ؟ من السائل ومن المسؤول؟

نحن الثوار ونحن الشعب ونحن الوزارة الجديدة ونحن قواتنا المسلحة ونحن العامل والفلاح، ونحن التاجر والصانع ونحن المنتج والمستهلك، نحن أصحاب الثورة فلا يجوز أن نكون سببا في فشل ثورتنا المباركة ولو بحسن نية.

الوزارة الجديدة لن تستطيع أن تفعل شيئا مالم يتلاحم الشعب معها ويساعدها على ممارسة دورها والقيام به.

قواتنا المسلحة فعلت إلى الآن ما هو أكثر من واجبها، وكانت مواقفها أكثر من رائعة، وقد انحازت من اللحظة الأولى لثورة أبناء شعبها، وتحاول قدر استطاعتها تحقيق مطالبهم، لكنها لا تستطيع وحدها أن تقوم بكل شئ مالم يتعاون الشعب معها، مالم تعمل المصانع بأقصى طاقتها لتعوض النقص المفقود في الأيام الماضية.

اقتصادنا في حاجة إلى إنعاش حتى يتعافى، وفلول النظام المخلوع تنتظر اللحظة المواتية لانهيار الاقتصاد حتى تنقض على الثورة المباركة ولترتد بنا إلى الوراء وهذا هو الجحيم بعينه، فليكن كل منا جزءا من الحل وليس جزءا من المشكلة، وليمارس كل منا عبادته وجهاده في المصانع وفى المزارع وفى المعامل وفي كل ميادين الحياة في المدائن والقرى.

ليحاول كل منا أن يكون عنصر إضافة إيجابية تساهم بقدر جهده وبأقصى طاقته الممكنة في حماية ثورته بالعمل الجاد والكفاح الدؤوب، فالإنسان يبقى هو المرتكز الأساس في بناء كل حضارة، وأكبر ثروة في مصر هم أبناؤها، هم شعبها الأصيل الطيب والمتحضر، هم هؤلاء الناس الذين خرجوا بصدورهم العارية ليسقطوا أعتى ما وصلت إليه كل أدوات القمع والترويع، هم هذا الشعب الذى تلاقت إرادته بكل أطياف أبنائه

في هدف موحد هو الحرية والكرامة وإسقاط كل مظاهر الكبرياء الأجوف لطاغية من طغاة العصر الحديث بجذوره وحزبه والمنتفعين من وجوده.

إرادة الشعب أسقطت وتسقط كل طاغية وكل جبار عنيد.

فليكف المتظاهرون عن التظاهر، وعندما تتعافى مصر سيأخذ كل واحد حقه، ولن يكون هناك مظلوم مهضوم الحق لا يجد من ينصره ويأخذ بيده ويعينه على استرداد حقه.

عندما تتعافى مصر وتتخلص من عللها السابقة سيجد كل منا بغيته وسيحقق كل منا هدفه، وستعود شمس الأصيل بدفئها وحرارتها، وضوء القمر بنوره وضيائه، وسيعود نسيم الفجر ينبض بالحرية الموعودة.

عندما يتعافى الوطن وتصحو مصر من طعنات اللئام ستعود إلى الدنيا أحلام الصبا وسينعم الصبايا برحيق الورود ونسمات الربيع وأحلام المساء

فلتتوجه الإرادة الحرة لشعبنا الأبي إلى البناء حتى تقف مصر مرة أخرى على قدميها، وحتى تبقى مصر شامخة أبية لا تنحنى لظالم ولا تستكين لمستبد.

وليُصَلّ كل منا من أجل مصر، ولَيَدْعُ ربه في تسابيح السحر أن يحفظها لنا وطنا حرا وآمنا، وأن يحقق فيها وفينا دعاء نبي الله يوسف عندما "آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ".

المستثنى بإلا (*)

متن وحاشية:

هذا القلم ومنذ أن تعلم صاحبه القراءة والكتابة لم يكتب ولو لمرة واحدة كلمة ثناء أو مدح لحاكم مهما كان، رئيسا كان أو ملكا؛لأن صاحبه قد عاهد الله ورسوله والوطن ومنذ سنوات وعيه الأولى ألا يكتب مدحا وثناء لغير الله ورسوله والوطن.

هذا القلم كتب كثيرا ناقدا نقدا بناء هادئا حينا وحينا آخر صارخا وهادرا ومدويا، تناول كبار المسئولين في عالمنا العربي كله، وقد تسببت الكتابة لصاحبها في متاعب ومشقات كثيرة، كانت تبدأ عادة بحظر النشر والتضييق، وأحيانا بالمنغصات في السفر ذهابا وعودة، ومن ثم فليس في هذا المقال ما يوجب الحرج أو يدفع إلى سوء الظن بكاتبه. ذلك هو المتن وأما عن الحاشية فنقول:

إذا كان الاستبداد والطغيان والقهر يظهر أسوأ ما في الإنسان كفرد فيجعله يتصرف بغرائزه لا بعقله، وبسلوك الوحوش أحيانا لا بفطرته ولا بقيمه الأخلاقية، ويُخْرِج أسوأ ما في المجتمع من كائنات بشرية تحكمها وتسيطر عليها لغة المصالح، وتتصرف بمنطق العصابات كما حدث في أربعاء الغضب ٢ يناير حيث غزوة بنى جحش في ميدان التحرير، والمعروفة إعلاميا بموقعة الجمل، إذا كان الاستبداد والطغيان والظلم والقهر يفعل كل ذلك، فإن نفس القانون السئ الذى يسود على مستوى الفرد هو ذاته القانون الذى يحكم حركة المجتمع، فتبدو الدنيا وكأنها غابة، يتكرس فيها منطق تقوية الأقوى وإضعاف الأضعف، فليس وجود الفقراء فيها إلا ليستكثر الأغنياء من الخدم، كما أن وجود الضعفاء في الغابة ليس إلا وسيلة ليكونوا طعاما للأقوياء.

وصدق الماوردى حين قال "البلد السوء يجمع السفل ويورث العلل، والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف، والسلطان السوء يخيف البرئ ويصطنع الدنئ"، ولعلى أضيف أيضا "ويقرب المنافق ويمنح الموافق والمرافق"

هذه بعض الثمار المرة للاستبداد ومؤسساته وأجهزة أمنه التى تساعده وتحمى نظامه، يتجرعها الناس قهرا وإذلالا، وتجسسا عليهم وانتهاكا لخصوصياتهم.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٤ – ٠٣ – ٢٠١١م

فإذا هبت رياح الثورة المحملة بنسيم الحرية والكرامة والعدالة واحترام الإنسان، سكنت ريح الخماسين المحملة بجراثيم الوضاعة والنفاق والكذب والمعصية وفقدان المناعة.

نسيم الحرية يعيد التوازن المفقود، ورحيق العدل والمساواة يستدعيان أجمل ما فى الإنسان من قيم، هذه القيم تمثل في عالم البشر عماد الحياة قبل الاقتصاد والثروة ومصادر الدخل القومى وبخاصة في الأمم ذات التاريخ الحضارى.

الأمم ذات التاريخ الحضاري يَكمُن في وجدانها الجمعى هذه القيم الثمينة والغالية، فتنضح في السلوك الراقى طيبة وتواضعا وهدوءا يملأ نفس صاحبه، فيعيش متصالحا مع ذاته ومع الآخرين، ويسلم فكره وتصرفاته من الشذوذ والعلة، ومن ثم لا تسمو فقط التصرفات في الإنسان المهذب ذى الطباع السوية والتربية السليمة المستقيمة على السقوط والإسفاف والتنكر لأقدار الرجال، وإنما تتحلى بأعلى قيم التواضع والخلق الكريم لدرجة أنها تعتذر عن فعل مشين لم ترتكبه، وتطلب السماح والعفو عن ذنب لم تقترفه، وتطيب خاطر رجل جريح من أجل بلده قال فلم يسمع له، وصرخ منبها للمخاطر فلم يلتفت إليه أحد.

مجرد وجود الرجل الشريف ضمن غابة من اللصوص يجعله في نظر البعض عرضة لأن يصيبه دخانهم الذى يحجب الرؤية ويزكم الأنوف، ومن ثم فقد تتناوله أقلام غير مسؤولة تقذف الاتهام مجازفة وبغير دليل.

اللغة والطريقة التى يتحدث بها بعض الشرفاء تبدو وكأنها جديدة علينا، صحيح أننا كنا نعرفها من قبل يوم أن كنا كبارا، يعرف كل منا لأخيه حقه وقدره ومكانته، لكننا هجرناها بعدما قزَّم الاستبداد كل شيئ بما فيها قيم الناس وأخلاقهم.

اللغة الممزوجة بالخلق والتى تنضح بتواضع الكبير تعيد إلينا مصر بفطرتها وعقلها وخلقها.

تعيد إلينا مصر الحضارة والتاريخ والإنسان المبدع.

مصر الفلاح والعامل، والإنسان الطيب والبسيط.

مصر العقل والفكر والثقافة.

مصر الرشد والطيبة والخلق.

مصر الشباب العفي والعفيف والطاهر.

لا أدرى لماذا خانتنى عيونى فانهمرت دموعها وقلما يحدث ذلك؟

هل كان هذا حنينا للغائب الذى عاد إلينا؟

هل كانت الدموع تعبيرا عن فضاء في الوجدان ظل فارغا لمدة ثلاثين سنة ثم امتلأ فجأة بطريقة تخاطب الكبار المملوءة أدبا وخلقا وطهرا وحياء؟

أم أن الدموع كانت تعبيرا عن فرحة النفس بخُلُقٍ ظننا أنه ضاع ودفن بين ركام الخرائب الذى خلفها لنا النظام المخلوع؟

لَكَمْ تمنيت أن أحتضن كل كريم مهذب.

أن أحتضن في الناس القيم التى عادت إلينا.

أن أحتضن في مصر التى أحبها وتحبنى كل القيم التي غابت عنا.

أن أحتضن فيها القيمة والقامة.

القيمة التى تعادل ثراء الدنيا كلها وثروة العالم بأجمعه، والقامة التى لا تستذل ولا تستكين وتظل شامخة رغم الجراح وطول المعاناة.

أن أحتضن في الثوار إقدام البطل الذى ينطق بالحق دوما ولا يهادن الباطل مهما تضخم وانتفخ.

أن أحتضن في الثوار الكامن الحضارى العريق الذى يجعل مصر تُحَدِّثَ أخبارها بأنها قد عادت عفية، وأنها بأخلاق بنيها ورجالها قد أَذِنَ لها ربها بعد غياب طال وغفلة دامت أن تُحَدِّثَ عن نفسها.

جرت عادة العرب أنهم يقبلون الرجل في كتفه إذا كان كريما، فإذا كان جليلا ومهيبا وعظيما قبلوه في جبهته تقديرا له وعرفانا بفضله.

ولكم تمنيت أن ألتقي بشباب الثورة وأحتضنهم وأقبل أيديهم وجباههم لأنهم أعادوا إلينا غائبا كنا قد فقدناه.

أعادوا إلينا الحرية التى سُلِبَتْ منا، وأعادوا إلينا قيم الأصالة والأخلاق التى تاهت وضاعت وانداست تحت أحذية العصابات التى حكمت مصر فشوهت جمالها الأخاذ وجثمت على صدرها حينا من الدهر فأطفأت إشراقة وجهها الألاق وعزلتها وحبستها عن الدنيا ثلاثين سنة فأخرجت أسوأ ما فيها.

أبشرو أيها الأحرار في مصر والعالم، فأشد الناس عذابًا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه.

واعلموا وأنتم العلماء القيمة والقامة، أنه ليس للجائر جار، ولا تعمر له دار.

وأن أقرب الأشياء صرعةُ الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم.

كنت أخاف على مصر من ثورة مضادة، فأعداؤها أغنياء وخبثاء، ولهم في الدهاء والتزوير والتدليس باع طويل.

لكنى بعد سماع بعض رجالها ونسائها أدركت أن مصر عادت إلينا.

صحيح أنها جريحة لكثرة ما فعلوه بها من تشويه، لكنها ستظل محمية ومحروسة بعين الله أولا، ثم بفضل أبنائها الشرفاء، الذين يمثلون القيمة والقامة، والذين يحملون في وجدانهم هذا الرصيد الحضارى المستكن والكامن، والذى يطوى في جنباته عراقة حضارة اختزنها التاريخ في نفسية المصرى آلاف السنين.

وعلى غير عادتى صمت نهارى وأسهرت ليلتى أتوسل لربي ومعى أهل بيتى أن يحفظ الوطن، وأن يحفظ له أعظم ثروة فيه، وهم أولئك الرجال الشرفاء، هم كثيرون لا أعرفهم، لكن سيدى ومولاي يعرفهم، وأن يحفظ لمصر هؤلاء الشباب الذين أعادوا البسمة المخطوفة والفرحة الغائبة لشفاه وقلوب قرابة تسعين مليونا هم كل سكان المحروسة.

وأبشرى يامصر... فلك السلامة دائما.... وأبدًا يا أمى.... لن تستكينى.

النافذة الخامسة

الديني والسياسي.. مَنْ يقود مَنْ

التقسيم بين ما هو دينى وما هو سياسي أو دنيوى تقسيم حادِّي في المسيحية، عانت منه مجتمعات كثيرة، وبسببه نشأ صراع كبير بين العقل والنص، أو بين العلم والدين، غير أنه في الإسلام لا وجود له، وإذا وجد فهو غريب مستورد، جاء معلبا من ثقافات أخرى وافدة؛ لأن الدنيا بكل ما تحتويه أو تتضمنه من أنواع النشاط الإنسانى إنما هى قسم من الدين وليست قسيمة له، ومن ثم فلم يُعْرَفْ هذا التقسيم في عصور الازدهار الإسلامي أولا،لا لأن الدين يشكل الإطار والمرجعية فقط، وإنما لأنه يشكل المنهج الذى يصوغ فكر الناس ووجدانهم، ويصنع رؤيتهم ورؤاهم وتصوراتهم، وينظم علاقتهم أفرادا وأسرا ومجتمعا ودولة، وبه تحققت القيم السيادية في حياتهم "الإيمان والعدل والكرامة والحرية"

بين السياسي والديني (*)

مَن يَتْبِعُ مَن؟ ومَنْ يَسْتَعْمِلُ مَنْ؟

تاريخنا الإسلامى منذ عصر النبوة يلتقى فيه الرمز السياسي بالرمز الدينى وكلاهما يكمل الآخر، وهما معا وجهان لحقيقة واحدة هى الدولة الإسلامية.

والتقسيم بين ما هو دينى وما هو سياسي أو دنيوى تقسيم حادِّي في المسيحية، عانت منه مجتمعات كثيرة، وبسببه نشأ صراع كبير بين العقل والنص أو بين العلم والدين، غير أنه في الإسلام لا وجود له، وإذا وجد فهو غريب مستورد جاء معلبا من ثقافات أخرى وافدة؛ لأن الدنيا بكل ما تحتويه أو تتضمنه من أنواع النشاط الإنسانى إنما هى قسم من الدين وليست قسيمة له، ومن ثم فلم يُعْرَفْ هذا التقسيم في عصور الازدهار الإسلامي أولا،لا لأن الدين يشكل الإطار والمرجعية فقط،وإنما لأنه يشكل المنهج الذى يصوغ فكر الناس ووجدانهم، ويصنع رؤيتهم ورؤاهم وتصوراتهم، وينظم علاقتهم أفرادا وأسرا ومجتمعا ودولة، باختصار شديد كان الإسلام هو مصدر التشريع والتوجيه والتعليم والفن والأدب والثقافة، وهو الضابط لكل سلوك والحكم في كل تصرف، والناس يتعاملون معه كأنه إكسير الحياة، ففيه وجدوا أنفسهم وعرفوا طريقهم وحددوا هدفهم ووجهتهم، وبه تحققت القيم السيادية في حياتهم "الإيمان والعدل والكرامة والحرية" ومن مبادئه وأخلاقه صاغ الناس أنموذجا حضاريا جديدا لم تألفه الدول الكبرى في ذلك الزمان، فتطلعت إليه بإعجاب جماهير الشعوب التى عانت من القهر والقمع والاستبداد،وهفت إليه قلوب الباحثين عن الحقيقة من كل الأجناس، ورأت فيه خلاصها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد،ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن ظلم الناس إلى عدل الإسلام الرحيب، رسالة العزة والعدل والحرية والكرامة لخصها لسان أعرابي صاغه الإسلام عقلا وفكرا ووجدانا هو ربعي بن عامر أمام رستم إمبراطور الفرس.

الإسلام العظيم الذى أثمر رسالة العزة والعدل والحرية والكرامة أحبته وأمنت به وعشقته وتفانت في خدمته شعوب وأمم، كذلك خشيته دول وإمبراطوريات ودكتاتوريات

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٦ – ٠٥ – ٢٠١١م

مستبدة، فقد رأت فيه تهديدا جادا وخطيرا لوجودها،ورأت في مبادئه تحريضا على استرداد الكرامة والحقوق ورفض الدنية. ومن ثم كان العداء والمكر والكيد ومؤامرات الليل.

الأعرابي ربعي بن عامر كان أعلى قدرا وأكثر احتراما من زعامات لها لحى وشوارب لا تجرؤ هاماتهم أن ترتفع حين يتلقون الأوامر والتعليمات أمام مادلين أولبرايت أو كوندا ليزا رايس أو هيلارى كلينتون.

الرجل الأول حرره الإسلام فمارس عزته وحريته ولم يسمح لأكبر إمبراطور في ذلك الوقت أن يجرح من دينه قلامة ظفر، فتحدث معتزا بدينه شارحا لرسالته، بينما زعامات اليوم تتحرج من انتمائها لدينها بعد أن انخلعت منه وتحولت إلى موالى وعبيد، ومن ثم فلم يؤبه لها، ولو جلست على بحار من الثروة، فبعد أن هانت على الله فقد هانت حتى على كلاب الأرض قال الشاعر:

ومن يهن يسهل الهوان عليه   ماالجرح بميت إيلام

فالإسلام بما يمثله من منهج ورسالة ورموز ومرجعيات كان يقود السياسي ويرسم له على الطريق خطاه، والسياسي كان تابعا للدين وكان يشكل السلطة التنفيذية للدولة، بينما الإسلام يشكل المرجعية والإطار العام.

ظل الأمر كذلك فترة من الزمن فكان السياسي لا يستمد شرعيته إلا من الدين، وكان للرمز الإسلامي من النفوذ وسلطات الرقابة ما يمكنه من محاسبة السياسي وربما عزله إن تجاوز أو أساء، والمسافة بين رجل السياسة ممثلا في الحاكم وبين الرمز الدينى ممثلا في العالم أو الإمام لم تكن شاسعة ولم تحمل ثنائية التناقض والتضاد؛ لأن الحاكم في ذلك الوقت لم يكن أكثر من خادم منفذ لإرادة الأمة، ومرآة تعكس وعيها وولايتها عن طريق الشورى وبعيدا عن أية غطرسة بما يقدمه، وبغير مَّنٍّ ولا أذى.

والسياسي لم تكن تحركه المصالح الخاصة لنفسه أو لحزبه وطائفته وإنما تحكمه المصالح العليا للأمة وقد يغلب عليه الدهاء والمكر، ولكن ليس له أكثر من وجه، ولا يتقلب مع الأحداث، والرمز السياسي في الإسلام يحكمه منهج وقيم وأخلاق،ولديه رسالة يُسْأَلُ عنها ويُحَاسَبُ عليها، كما أن رجل الساسة ليس معصوما، ومن ثم فآراؤه لا تستعلي على الحوار والمناقشة والأخذ والرد، وكل مايمتاز به أنه يستمد قوته من الشورى وولاية الأمة.

ومن ثم كان الرمز السياسي ممثلا في الحاكم يَنْظُرُ إليك على أنك مخلوق لسيده فيرعى فيك حق من خلقك، فأنت أخوه في العقيدة، فإن لم تكن، فأخوه في الوطن، فإن لم تكن فأخوه في الإنسانية، وحركته وسلوكه وفعله وتأثيره يجب أن يرتبط في الوعي العام والخاص بمبدأين اثنين هما: الشورى وولاية الأمة، ومن ثم فهو يترفع عن النفعية والشللية، ولايراك وسيلة لدعمه حين يحتاج إليك في الانتخابات، ولا يبيع لك الوهم بمعسول القول، ولا يخدعك بوعود وعهود لا وفاء فيها ولا احترام لها، ولا ينظر إليك على أنه هو الصياد وأنت الفريسة.

في عصور الطغيان السياسي ينفصل الدين عن الدنيا بما فيها السياسة، وتصاب المجتمعات بحالات أشبه ما تكون بالتصحر الروحى والوجدانى، ويعانى الناس من جفاف في الطباع وخشونة في المعاملة وجفوة في العلاقات، ويصبح الرمز الدينى تابعا والسياسي متبوعا.

خسارة المجتمع كبيرة ومضنية ومكلفة حين يكون الدينى تابعا والسياسي متبوعا.وتؤكد لنا حقائق التاريخ أنه ومنذ انفصلت دفة الحكم عن الإسلام ظهر بين الرمز الدينى والسياسي جفوة وخصومة لامبرر لها، وبخاصة في بلاد العرب الأجاويد، فرجل السياسة "رضى الله عنه" ينظر إلى الدينى غفر الله له نظرة استخفاف وانتقاص، ولا يرى السياسى في الدينى إلا تكملة للديكور التى تحتاجه الدولة من حيث الشكل فقط، ومن ثم فالسياسي لا يلجأ إلى الدينى ولا يسأل فيه ولا يسأل عنه ما دامت عجلة الحياة تجرى بشكل طبيعي، فهو يصدر ما شاء من قرارات، ويوجه بما شاء من توجيهات وتعليمات، ويسن ما شاء من قوانين محرمة وظالمة، ومجافية للعقل والصواب والمنطق دون أن يلجأ إلى الرمز الدينى ليسأله فيما يجوز وما لا يجوز.

وجود الرمز الدينى هنا ليس وجودا حقيقيا، فهو ليس ركنا من أركان الدولة في العصر الحديث، ولكنه مجرد رمز لتجميل الديكور فقط حتى لا تبدو صورة الفسيفساء السياسية ناقصة، وصورة الفسيفساء الدينية قلما يتذكرها النظام أو يلتفت إليها أو حتى تخطر له على بال، إلا عندما يفقد النظام عزيزا يريد أن يواريه التراب، أو أن يطل على شعبه بطلعته البهية في مناسبة من المناسبات الدينية.

وظيفة الدينى هنا ليست في الحقيقة للمجتمع، ولا يتمكن الدينى من ناصية التوجيه لا في التربية ولا في التعليم ولا في الإعلام إلا في حالات محصورة ومحددة باستخدام معين. فنظام الطاغية لا يتذكر تلك الفسيفساء الدينية إلا عندما تقوم أجهزته بتفجير ما

للخروج من موقف محرج وصرف أبصار الناس وإلهائهم بحدث كبير، وتريد الدولة الدفع بتوجيه الاتهام لجهة معينة، كما حدث بداية عام ٢٠١١م في كنيسة القديسين بمدينة الإسكندرية، حينئذ يأتى دور الفسيفساء الدينية لتذكر الناس بالوحدة الوطنية،وبأن الدين برئ ممن يرتدون ثوبه ويتاجرون به ويهددون أمن البلاد ويفسدون في الأرض، وتجتهد تلك الفسيفساء في استخراج النصوص للتدليل على ما تقول، ومن ثم تستعمل هنا في تكريس الهدف الذى يريده النظام من حيث لا تدرى.

حالة أخرى كذلك يكون للفسيفساء الدينية دور كبير فيها وتحتاج إليها الدولة لتقول كلمتها، وهى عندما يكفهر الجو السياسي، وتتلبد سماء الوطن بغيوم الغضب الشعبي، حينئذ يكون لتلك الفسيفساء أو الرمز الدينى كلمته في تهدئة الخواطر وتسكين الغضب العام، هنا أيضا تُسْتَخْرَجُ النصوص بعملية انتقاء خبيث ومدلس لتوظف التوظيف المطلوب فى تدعيم الحاكم الطاغية، وتخفيف الضغط عليه بحديث عن حرمة الخروج على الحاكم، وإن جلد الظهور وأكل الأموال وأفسد البلاد وأهان العباد، وأن هذه المظاهرات ما هي إلا فتن والخروج منها لا يكون بالمشاركة فيها، وإنما بتجنبها والعزلة عنها وترك الميادين والعودة إلى البيوت والدعاء إلى الله أن يقبض المرء إليه غير فاتن ولا مفتون.

وهكذا الطاغية السياسي يستعمل ويستغفل الرمز الدينى في خدمة طغيانه وتكريس نظامه وتدعيم دولة الظلم، والرمز الدينى . مسكين . يظن أنه يؤدى واجبه الوطنى، وأنه من أهل الحظوة، وأنه من السلطان جد قريب.

سكوت الرمز الدينى على المدى الطويل وعدم اعتراضه على المظالم التى تقع بالناس، وغيابه عن نقد القوانين الجائرة والمقيدة للحريات ولحقوق الإنسان، ومنها حق المشاركة السياسية في التعبير عن الرأي وتداول الثروة والسلطة، ووضع الضوابط العادلة على تصرفات السلطان وعائلته وحاشيته، واكتفاء الرمز الدينى بحديث عن حق الزوج على الزوجة، وحق الجار على جاره، هذا السكوت يُغَيِّبُه عن ساحة الواقع، ويفقده التأثير على الناس باعتباره المرجعية، كما يُفْقِد حديثه الأثر،ويُفَرِّغُه من صدق التوجه الصحيح وصدق الإخلاص، لأنه يُلْقِى بالنصيحة . وإنْ كانت صوابا . في الموقع الخطأ حين يتوجه للمظلومين، بينما لا يعاتب الظالم على ظلمه، ولو بمجرد عتاب ناعم.

النماذج لذلك الغياب أو إن شئت قل الحضور المهمش كثيرة ومتعددة ومؤلمة أيضا، فبعد نجاح الثورتين في مصر وتونس بدأت جهات خفية في الاستعباط بتحريك

جهات ظاهرة لها في فقه الاستعباد قدم راسخة. ومع انطلاق الصرخة في كل من اليمن وليبيا، وبداية الشرارة من بعدهم في سورية وبوادر في الأردن ارتفعت أصوات تتحدث عن ضرورة الابتعاد عن الفتن وحرمة الخروج على الحاكم، وعدم الانصياع والخداع والجري وراء الفئات المندسة والتى تتحرك بتمويل من الخارج.

هنا بدأ السياسي يلعب بالدينى ويسخره لصالحه في توطيد وتثبيت حكمه المهتز وعرشه الذى أوشك أن يتزلزل، ومن ثم بدأ حديث التخدير في التحذير من فتن القاعد فيها خير من الواقف والنائم فيها خير من الجالس اليقظان... وهكذا.

وكلما هبت الشعوب تطالب بحريتها وتدافع عن حقوقها المسلوبة، وتضغط على الحاكم ليلغي قوانين الطوارئ سيئة السمعة التى يحكم بها، علت أصوات (نشاز) لبعض المنتسبين إلى الدين تشوه وتتهم بأن هؤلاء فئة مندسة وأن وراءهم يد خارجية تمول وتدفع وتخطط،وأنهم يثيرون الفتن، وأن خروجهم على الحاكم لا يجوز.

ودخل بعض الكبار من أهل الدين على الخط، وصدرت تصريحات تحرم التظاهر ضد الأنظمة المستبدة، وتتحدث عن حرمة الخروج على الحاكم،حتى وإن أخذ الأموال وجلد الظهور وأهدر دماء الأبرياء والمسالمين. ثم تطورت الحملة بتطور الأحداث لتتحدث عن مؤامرة ضد الإسلام يقصد منها تفتيت وحدة المسلمين، وكأن حكام المسلمين هم حماة الإسلام ورعاته ودعاته،وكأن البلاد الإسلامية موحدة وعلى قلب رجل واحد فجاء من يفتتها بتلك المظاهرات.

الغريب أن هؤلاء الذين سكتوا دهرا لم تتحرك شفاههم من قبل أمام كل أنواع المظالم التى تمت في العالم الإسلامي وعلى أيدى هؤلاء الحكام.

لم تنطق ألسنتهم بكلمة واحدة عندما صادر هؤلاء الحكام كل مظاهر التدين وسخروا من المتدينين الشرفاء وسجنوهم وصادروا ممتلكاتهم الخاصة.

فقهاء الاستعباط والاستعباد لم ينسوا أن يذكرونا بالفتن التى ستكون كقطع الليل المظلم، ولكنهم لم يشيروا إلى أن كل الفتن التى تعانيها مجتمعات المسلمين جميعا والعرب بشكل مخصوص جلبها وأتى بها واستوردها ووظف لها فرقا ومجموعات وأنشأ لها وزارات هم هؤلاء الحكام؟

المنهج العلمى هنا يقتضينا تحرير محل النزاع بلغة أهل الأصول حتى يتحدد لنا ويتضح معنى ومفهوم الخروج على الحاكم.

النصوص التى تتحدث عن الخروج على الحاكم يجب أن تؤخذ في إطارها ولا تعزل عن سياقها العام، كما لا يجوز أن نستدل بها بعيدا عن النصوص الأخرى المقيدة لها والمكملة لصورتها ومعناها، ومن ثم فلا بد من تحديد من هو الحاكم الذى تجب طاعته ولا يجوز الخروج عليه، وما شروطه،وما هو المدى الممنوح له في السمع والطاعة؟ ثم هناك من خرجوا على الحاكم من أهل السلف، ماذا تقولون فيهم؟ منهم عبد الله بن الزبير وسعيد بن المسيب،ومن قبل هؤلاء خرج الإمام الحسين بن على رضى الله عنه على يزيد بن معاوية فهل كان خروجه محرما؟.

بل إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو نفسه خرج على الدولة العثمانية فهل كان خروجه محرما؟... السادة الذين ارتفعت أصواتهم بتحريم الخروج على الحاكم لم يحددوا للناس من هو الحاكم الذى لا يجوز الخروج عليه، وهل ينطبق على حاكم جاء به الاستعمار أو حاكم جاء بانقلاب أزاح فيه أباه أو أخاه؟... وهل ينطبق حكم حرمة الخروج أيضا على حاكم جاءت به أمه؟ أو ورث البلد أرضا وشعبا وإبل وغنمات وعنزات عن أبيه وأجداده؟

الحاكم الذى لا يجوز الخروج عليه هو من جاء ببيعة صحيحة وعن طريق انتخاب حر من كل الشعب أو من أهل الحل والعقد المؤتمنين على دين الله ومصلحة الوطن.

الحاكم الذى لا يجوز الخروج عليه هو من يقيم العدل ويطبق أحكام الإسلام ويحرص على مصالح الناس، ويشترط فيه أن يكون طائعا لله قبل أن يكون مطاعا. والخروج الممنوع هو الخروج المسلح، أما الاعتراضات السلمية التى تطالب بالقضاء على الفساد، ومحاكمة لصوص المال العام ومن ينتهكون حرمات الناس، فلا يجوز أن تقابل بخراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع والرصاص الحي والمطاطى والضرب في مقتل. وعلى الرموز الدينية أن تنأى بنفسها عن السقوط أو السكوت، وألا يجعلوا من أنفسهم مطية لحاكم ظالم، وأن يدركوا أن ما يحملونه من علم هو أعلى وأغلى من كل ما تمتلئ به خزائن الحاكم الطاغية من مال مسروق ومغصوب ومهرب في خزائن البنوك الأجنبية.

الفرصة الآن مواتية ليباشر الأزهر مهمته دورا وموقفا ورسالة، ومصر الآن في حاجة ماسة لموقف من أبنائها الشرفاء حيث تتعرض لعملية استلاب دينا وحضارة وهوية،فهناك من يحاول أن يقطعها عن دينها وهويتها ويخلعها عن ثقافتها وتراثها الإسلامي ويعبث بمقدراتها ويحاول العبث بتفجيرها من الداخل تحت حجج ومسميات متعددة.

وأنا على ثقة ويقين أن شعب مصر بكل طوائفه وأطيافه مسلمين ونصارى سيقفون خلف شيخ الأزهر والمفتى عندما تعلو أصواتهما مطالبة بتحقيق العدالة بدلا من التمييز والطبطبة.

مصر الآن في حاجة ماسة لدور الأزهر في مواجهة عملية الاستلاب التى يسعى إليها ويقوم بها بعض التيارات التى تمثل قلة في المجتمع، لكنها تمددت في الفراغ الذى تركه الأزهر في العقود الأربعة الماضية، واستفادت من النظام السابق بعد أن تحالفت معه على التوريث، ومن ثم فقد تضخمت وتعاظم دورها لتصبح وكأنها دولة داخل الدولة فراحت تستعرض عضلاتها وتستفز الأغلبية استفزازا واضحا وخطيرا، وتحاول فرض إرادتها على الأغلبية الساحقة.

سكوت الأزهر في تلك الظروف غير مقبول؛ لأنه يجب أن يكون صاحب أول صوت يطالب بتحكيم العدالة وتطبيق القانون، ويتحتم أن يكون شيخ الأزهر أول من ينادى بألا يكون هنالك استثناء لأحد من الرموز الدينية أو السياسية مهما كانت مكانته ومهما علا كعبه؛ لأن الوطن يجب أن يكون فوق الأشخاص.

بعد نجاح ثورتى تونس ومصر أصبحت الظروف مواتية لتباشر المؤسسة الدينية بضلعيها مشيخة الأزهر ودار الفتوى دورها الرائد في قيادة العالم الإسلامي روحيًّا وأخلاقيًّا وحضاريًّا. التاريخ يحدثنا يا سادة أن العز بن عبد السلام باع الحكام المماليك ووضع قيمتهم في بيت مال المسلمين، فتقدموا أصحابَ الفضيلة ولا ترددوا.

فتنة التحذير من ميادين التحرير (٢/١)

عتاب لا حساب (*)

علاقة "الاستعباط" بالاستعباد:

في قواميس لغتنا العربية الجميلة من مفردات الظرف والاستلطاف والفكاهة الساخرة والساحرة معا ألفاظ كثيرة.

وهذه الألفاظ عند العامة تُنَزَّلُ أحيانا مع بعض التحريف على بعض الحالات تنزيلا دقيقا يلبس المصطلح ثوبا من الفكاهة الساخرة أو الاستظراف اللطيف.

هذا الإسقاط اللغوي الجميل فضلا عن كونه يغنى الباحث في كثير من الأحيان عن شرح طويل، فهو أيضا يصيب الهدف المطلوب من أقصر طريق وبأقوى السهام.

من هذه المفردات الرائعة "من الرَوْع بفتح الراء وتسكين الواو، وهو الخوف"، مصطلح "جمعيات الختان" ويقابله مصطلح "ثقافة الذكورة"

جمعيات الختان مصطلح يطلق ويراد به مجموعة من النساء العاطلات فكرا وثقافة، بعضهن يعملن مذيعات، أو بالتمثيل، أو بالغناء، وأغلبهن متخصصات في النكد، نشاطهن يتركز على إثارة كل أسباب كيد النساء، والاضطراب في البيوت المستقرة، ومحاصرة ومطاردة الرجال في كل فج وشق حتى يهربوا إلى قمة إفرست أو سفوح الهيمالايا.

هذه الجمعيات المدعومة من منظمات دولية في الخارج وكانت تحت رعاية السيدة الأولى في الداخل من أهم أنشطتها الإصرارعلى حق المرأة في قضية "الخُلع"، والخَلع بضم الخاء مِنْ خَلَعَ يَخْلَعُ فهو مَخْلُوعٌ، وفتحها مِنْ خَلَعَ تَخْلَعُ فهى عُرْيانَة، مع ملاحظة الفروق الكثيرة بين من مخلوع خلعته امرأة، وبين مخلوع آخر خلعته الأمة كلها، وعلى نفسها جنت براقش.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٥ - ٠٥ - ٢٠١١م

أما ثقافة الذكورة فهو مصطلح يطلقه أيضا بعض النسوة المترجلات بالاتفاق مع بعض أشباه الرجال "الذين لا خوف منهم" ممن ينتسبن ويتقربن ويتوافقن مع النسوة المترجلات في كثير من الخصائص الخاصة والأفكار والأشكال.

الوزير المهلبي أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون كان رجلا "عفريتا" رأى مرة واحدا (فافى) من هؤلاء وكانوا قد كلفوه بما يكلف به الرجال عادة عند وقوع الشدائد فقال متندرا وساخرا:

طفل يرق الماء في وجناته ويرف عوده ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده

ناطوا بمعقد خصره سيفا ومنطقة تؤوده جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

من هذه المفردات ذات الدلالة الساخرة في العامية أيضا لفظ "عبيط"

وهو في العربية الفصحى بمعنى اللحم الطري غير النضيج، وثوب عَبِيطٌ أَي مَشْقوقٌ؛ والعبيط في العامية كالسفيه هو من لايحسن التصرف عادة. ومنه في العامية أيضا الاستعباط، وهذه المفردة تستعمل في العامية كثيرا وتطلق عادة على من يريد التنكر لشئ معروف.

أما المستعبط بكسر الباء أو فتحها فهو من يستغفل غيره ويدعى العبط لنفسه أو لغيره ويعتبره طريا وغير ناضج ويريد الضحك عليه في موضوع معين ".

وبالبحث والتحرى الجنائي –وليس اللغوي كما يفعل خبراء أمن الدولة سابقا– وجدنا أن بين الاستعباط والاستعباد صلة وقرابة نسب لغوية ومعنوية لكنها علاقة غير مشروعة في عالم الحروف المستقيمة.

فحرف الطاء هنا وحرف الدال هناك يتبادلان ارتباطا مشكوكا فيه، ويمارسان انحرافا مشبوها وعلاقة غير شريفة وغير مسبوقة في دلالة الكلمتين.

هذه مقدمة أردت بها الربط بين اللفظ المستعمل في العامية وبين أصله اللغوي لكي أدخل منها إلى موضوعنا وهو العلاقة غير البريئة بين "الاستعباط والاستعباد".

موقف بعض شيوخ الفضائيات في أحداث الثورة المصرية ٢٥ يناير كان يتسم بالاستعباط الذى يُخَدِّم على الاستبداد والاستعباد، ومن ثم فقد كان مؤلما وجارحا ومحبطا، ولم أكن أنوى الحديث عنه أو الكتابة فيه، وإن كانت الجراح منه غائرة ولم تلتئم

بعد، لكننا نحمد الله أننا قد تجاوزناه، وإن كان من الصعب على ذاكرة الناس أن تتناساه وبخاصة في زمن التوثيق الإلكترونى عن طريق الفيديو واليوتيوب.

جزء كبير من أعضاء جمعيات الختان وأصحاب ثقافة الذكورة وبعض شيوخ الفضائيات تسمعهم في مناقشة القضايا العامة والخاصة فتجدهم يتحدثون بلسان واحد ومفردات واحدة، وكأنهم أعضاء في الحزب الوطنى المنحل، ملقنون بالتعليمات التى يجب أن يلتزموا بها، وألا يحيدوا عنها،وإلا تعرضوا للعقاب والفصل من التنظيم،

مواقفهم قبل الثورة متشابهة حتى لتكاد تجزم أنها متحدة حتى في الألفاظ، ومواقفهم من الثورة تحمل نفس الصفات من التشابه في كثير منها، فبعضهم وصف الثوار بأنهم طائفة مندسة، وبعضهم اتهم جهات أجنبية باستعمال الشباب، وبعضهم وصف بعض قيادات الثورة بالماسونية، والبعض الآخر استعمل فزاعة الإخوان وطالب بعزلهم وحصارهم وتجويعهم ومنع الماء والدواء عنهم، بل إن البعض طالب بحرقهم أو إطلاق الرصاص عليهم في ميدان التحرير.

ونجحت الثورة رغم أنوف جمعيات الختان وأصحاب ثقافة الذكورة وشيوخ الفضائيات وأثبتت مصر بحق أنها عظيمة بأبنائها وحمدنا الله وسكتنا.

انتهى الموقف بحمد الله في ميدان تحرير مصر بانتصار الثورة وخلع الطاغية، غير أن الكلام في موضوع المظاهرات والخروج على الحاكم تكرر في ميادين تحرير أخرى خصوصا بعد أحداث سوريا واليمن حيث مواقف صادمة من بعض العلماء تمثل أقلية تابعة للأنظمة أصدرت بيانات أشبه ما تكون ببيانات الشرطة في الأزمات الأمنية، ثم جاء بيان الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين المشرف ليرد الاعتبار لكل العلماء الأحرار والصادقين والذى أصدره سماحة الدكتور يوسف القرضاوى في هذا الشأن وما أعقب ذلك من بيانات صدرت من مرجعيات أخرى بعضها في اليمن ثم في سوريا، حيث أضحى الموقف بين مؤيدين كثر لبيان الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وبين أقلية تمارس الاستعباط وتُخَدِّمُ بمواقفها على الاستبداد.

ثم ظهر على الخط شيخ عجيب وغريب ينتمى للجماعة السلفية، قالوا بأنه مطرود منها لأنه كان يعمل لصالح الحزب الوطنى، وأنه كان بوقا ووسيلة من وسائل أمن الدولة في التحرش بالعلماء والزعماء، وبكل من كان يعارض النظام السابق، ومن ثم فقد

قيل عنه أنه أهدر دم الدكتور القرضاوى وكذلك الدكتور البرادعى باعتبار الأول وهو د. القرضاوى محرضا في الخروج على النظام، وباعتبار الثانى وهو د. البرادعي خارجا عليه بالفعل.

الشيخ ذاته استضافته السيدة منى الشاذلى مع الأستاذ وائل قنديل والأستاذ عماد جاد وكان الشيخ المثير للجدل قد كرر القول الخطأ بعدم شرعية المظاهرات وعدم جواز الخروج على الحاكم.

كلام الشيخ (الغريب والعجيب) أثار حفيظة الكاتب والسناريست السينمائى الأستاذ بلال فضل فتدخل في الحوار عبر الهاتف ورد كلام الشيخ ونفى عنه أهلية الحديث في الموضوع باعتباره غير متخصص، ووصفه ومن على شاكلته بأنهم ألغام وضعها مبارك في طريق الثورة، وساق له من المراجع والمصادر الموثقة لعدد من كبار المفكرين والعلماء والتى ناقشت هذا الموضوع وأفادت كلها بغير ما يقوله هذا الشيخ الذى يبحث عن دور في المسرح الإعلامي عبر الفضائيات.

الشيخ "اللغم" بطرحه المنقوص وظهوره على الشاشة بأنه غير قادر على الدفاع عن وجهة نظره ووجوده بهيئته وسمته وعجزه وقصور رؤيته قد يولد لدى السادة المشاهدين انطباعا غير مريح عن التوجه الإسلامي برمته وأن أهل هذا التوجه غائبون عن الزمان والمكان والناس.والجماهير لا تفرق بين عالم شرطة أو عالم سلطة وبين العالم الربانى الذى يدور مع الحق حيث دار.

برنامج العاشرة مساء كان يحظى بمصداقية كبيرة بين المشاهدين، كما كانت تحظى مقدمته السيدة منى الشاذلى بقدر كبير من الاحترام شخصيةً وثقافةً ومهنيةً، لكن الإصرار على استضافة هذا الشيخ وأمثاله يعطى رسالة قد تكون خاطئة عن مدى جدية البرنامج وسياساته.

وإذا كان هدف البرنامج هو كشف الحقيقة وتوضيحها وإرسال رسالة صحيحة للسادة المشاهدين ففى مصر مئات المفكرين والعلماء المتخصصين والقادرين على شرح الفكرة وتوصيل الرسالة، ومن ثم يكون انتقاء ضيوف بذواتهم ليسوا أهلا للحديث عن الموضوع لا يخدم إلا فكرة التشويه أوالتشويش على التيار الإسلامى، وإظهارعجز رموزه في التعبير عن فكرتهم وغياب منطق العقل والمصلحة عن أذهانهم، ووقوفهم بانحياز

للطاغية والاستبداد ضد مطالب الناس المشروعة. وهذا بالضبط ماالتفت إليه الأخ الأستاذ بلال فضل حين نزع عن الشيخ الضيف أهلية الحديث في الموضوع وأظهر بأدب جم محدودية فكره وقصور رأيه ورؤيته.

فهل كان المطلوب أن يظهر جانب التمثيل الإسلامي فى البرنامج وأمام ملايين المشاهدين بقصور وعجز في الرؤية، وانفصال عن الواقع وتنكر لمطالب الناس المشروعة؟

المهنية هنا تحتم البحث عن الجودة في الفكرة وحسن العرض لها واختيار المتخصص المناسب لتوصيلها إلى الناس، وتقديم الأقدر والأكثر علما وكفاءة. ونحن على ثقة أن السيدة منى الشاذلى تتمتع بقدر كبير من المسؤولية وأن حسها الوطنى لا يخطئ الاختيار، ومن ثم فليست في حاجة لمن يذكرها بأن مصر ليست في حاجة إلى هدامين، وإنما تحتاج اليوم لكل أبنائها الشرفاء ليعيدوا بناء ما تهدم، وترميم ما هو آيل للسقوط وترتيب البيت من جديد، من هنا يكون الاستغراب في استضافة مثل هذا الشيخ العجيب.

وبعيدا عن حالة هذا الشيخ الملغم، نقر جميعا ونعترف أنه حين ينحاز العالم إلى النظام في مواجهة الأفراد، فإنه بمواقفه هذه يكرس تقوية الأقوى "الظالم" وهو الدولة في مواجهة إضعاف الأضعف وهو المظلوم، سواء كان شخصا أو شعبا في مواجهة النظام وبخاصة عندما يقول لنا التاريخ إنه لم يسبق لهذا العالم أن انتقد النظام أو أنكر عليه بعض المواقف الخطأ وما أكثرها أو انحاز إلى مظلوم من مظاليم الشعب في مواجهة الدولة.

عندما يكون الأمر كذلك فإنه لا يقبل من العالم أن يصور مطالب الناس المشروعة والعادلة وبطريقة سلمية، فيقابلها الحاكم بالقمع عن طريق القنابل المسيلة للدموع والرصاص المطاطي والحى واتهام أصحابها بأنهم طائفة مندسة وعملاء للخارج، حين يكون الأمر كذلك فإنه لا يجوز للعالم أن يصور تلك المطالب على أنها فتنة، بينما هى تشكل في البعدين الدينى والإنسانى أبسط حقوق المواطن.

الواجب الدينى يحتم على العالم هنا أن يقف بجانب المظلوم، وأن يحض الحاكم على رفع الظلم والاستجابة لمطالب الناس المشروعة والعادلة، وأن يذكر الحاكم بقول عمر بن

الخطاب " ألا تضربوا المسلمين فتذلوهم،، ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الحياض فتهلكوهم "

عندما يتقاعس العالم ولا يتخذ الموقف الصواب، يصاب عموم الناس بنوعٍ من خيبة الأمل في المرجعيات الدينية، وينصرفون عنها ويستشعرون أن قضاياهم وإن كانت عادلة لا تعني تلك المرجعيات، وأن جل اهتمام المرجعيات ينصب على إرضاء الحاكم والاستجابة لأهوائه ولو كانت خاطئة؛ لأن بقاءها في الموقع مرهون برضاه وغضبه وليس بنصرة الحق وإرضاء الله.

لم أكن أنوى الحديث عن الموضوع أو حتى الإشارة إليه من قريب أو من بعيد، لولا أن الموقف المخجل والمعيب قد تكرر في مواطن أخرى، وأصبح العلماء الشرفاء يذكرون ضمن هؤلاء، ويُعَيَّرُون بأقوالهم ومواقفهم ويصفهم البعض بالمصطلح الكريه " وعاظ السلاطين" والناس تعمم في كثير من الأحيان، وقليل منهم من يعرف الفرق بين عالم الشرطة أو عالم السلطة، أو عالم الجماهير والشهرة، وبين العالم الربانى.

خطورة هذا الخلط تنعكس على عموم الأمة بكاملها فتصبح أمة بلا رأس ولا رمز ولا مرجعية، ومن ثم تجد المقولة الخاطئة "الديون أفيون الشعوب" بيئة مواتية ومساعدة على تحقيق ما تحتويه تلك المقولة من أخطاء، ومواقف بعض العلماء في الواقع تؤكدها وتضفى عليها شيئا من المصداقية،

في الجانب الآخر فإن تناول النصوص باجتزاء وتأويلاتها على طريقة الانتقاء لتخدم الطاغية، بينما هنالك نصوص أخرى تطالب بتقييد تصرفات الحاكم ومحاسبته وعدم طاعته إن تجاوز وتعدى، السكوت عن هذه النصوص والإعراض عنها يتسبب في حالة من فقدان الثقة والمصداقية، ومن ثم يصبح من حق العامة أن ينصرفوا عن العلماء، وأن يقرنوا بشكل فكاهي وساخر بين معنيين كلاهما كريه وممقوت وهما "الاستعباط والاستعباد".

فتنة التحذير من ميادين التحرير (٢/٢)

عتاب لا حساب (*)

"المؤمن هو قدر الله الغالب وقضاؤه الذى لا يرد" عبارة قالها المفكر الإسلامي محمد إقبال، الرجل الكبير يقصد أن المؤمن يحقق بسلوكه مراد الله في خلقه، فبوجوده تتحقق الخلافة في الأرض، وبإيمانه تتحقق العبودية، وبتطبيق منهجه تتحق الحرية والكرامة والعدل بين الناس.

غير أن ما هو كائن ليس بالضرورة هو ما يجب أن يكون، فالواقع قد يغاير الحلم، وقد يختلف عنه بل ويتناقض معه أحيانا.

والدعوة إلى الله هى أرقى الوظائف وأعلاها قدرا وأجلها وأعظمها عند الله مكانة، ويكفيها شرفا أنها وظيفة السادة المصطفَيْن الأخيار من أنبياء الله ورسله إلى خلقه.

غير أن الباحث في عالم الدعوة يجد عجبا، فقد يتسلل إليها من ليس أهلا لحمل أمانتها، وقد يدخل فيها من لا يحمل خصائص أصحابها، من طهارة في النفس وسعة في الفكر، ورحابة في الصدر وقوة في الهمة والعزم، وقدرة على الصبر والجلد في العمل والأمل.

وعلى طريقة المثل المعروف "الصيِّت ولا الغِنَى" قد يلتحق بها من لا يقصدها أصلا، لكنه يبحث عن دور فلم يجد غيرها وسيلة لتحقيق حضوره بين الناس.

يقول الشيخ الغزالى رحمة الله عليه:

"أعرف ناسا فاتتهم الوجاهة في ميدان الحياة، فالتحقوا بميدان الدعوة، فتحول الميدان الطهور بهم إلى ساحة يتهارش فيها فرسان الكلام وطلاب الرياسة وعشاق الظهور، ولطالما بحثت عن الإخلاص المحض لله ولرسوله لآنس به وأستمتع، أو لألوذ به وأستجير، فكانت سوءات الهوى المستور تفجعنى فتردنى محزونا لا ألوى على شئ، ولم أعرف نفاسة قوله صلى الله عليه وسلم: "الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة" إلا بعد أن خالطت المئات والألوف فوجدت في سيرهم الأعاجيب" انتهى كلام الشيخ الجليل.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٢ – ٠٥ – ٢٠١١م

هنالك فرق كبير بين مَنْ يعيشون على الإسلام، ومَنْ يعيشون في الإسلام، ومَنْ يعيشون للإسلام ويعيش الإسلام فيهم.

الطائفة الأولى يحملهم الإسلام ولا يحملونه، يُحْسَبُون عليه، بينما هم عبء عليه، يعطلون سيره ويقيدون حركته يأخذون منه ولا يعطونه، وأغلب سلوكهم يحسب بالطرح منه، وليس بالإضافة إليه، وأهل هذه الفئة يتعاملون معه على أنه ضيف وليس رب البيت في أغلب الأحوال.

الطائفة الثانية طائفة تخضع للتقاليد وتنقاد، تمارس الإسلام شكلا وطقوسا وتقاليد وعادات، ولكنها لا ترتفع لمستوى إدراك ما فيه من القيم الرفيعة، والمعانى الجميلة، والتعاليم النافعة، والسمت العام في الشكل والمظهر هنا هو الغالب في شكله الجاف، وهو معيار التدين، ومِنْ ثم فأهل هذه البيئة يعانون من الجفاف الروحى؛ لأنهم يخضعون له كعرف عام أكثر مما يخضعون له فهما وتعبدا وتطبيقا.

الطائفة الأولى والثانية الإسلام لديها أزياء وتقاليد وعادات، ومن ثم فهي تخضع للتقاليد وتنقاد، ومن الطائفة الأولى والثانية يكون عَالِمُ الشرطة الذى يحدثك بمنطق رجال الأمن، وعالم السلطة الذى يحدثك بلغة أعضاء الحزب.

من هذين الطائفتين أيضا يكون عالم الجماهير والشهرة الذى يستهدف رضا الجماهير ويحرص دائما على أن يبقى في دائرة الضوء، كما يحرص إعلام الإثارة والضجيج على استضافته وفرضه على المشاهدين والمستمعين والقراء ليأتي بالعجائب، ويقدمها للناس على أنها اجتهاد جديد. ومن ثم فهو يُستعمل من حيث لا يدرى كأداة ووسيلة لخلق بؤرالخلاف وإثارة الجدل وتحويل الاهتمام من القضايا الكبرى إلى معارك جانبية ومن ثم يتم تفريغ الطاقة وتبديد الجهد.

الطائفة الثالثة طائفة تعيش له ويعيش فيها، تستعلى به على كل ما في الوجود، وتضحي في سبيله بكل ما في الحياة، بل بالحياة نفسها، تراه في الشدة وحده وسيلة الإغاثة والإنقاذ، كما تراه في الرخاء وحده سبيل النجاة والسعادة والتقدم، فهى له تحيا ومنه تستنشق إكسير الحياة، وإليه تنتمى وتتشرف بالولاء والانتساب، ومن هذه الطائفة يكون العالم الربانى الذى حسم أمره من البداية، فلا تعنيه الشهرة ولا الأضواء ولا الحسابات ولا المساومات الخاصة، فالجناب الإلهى حاضر دائما في حياته، وأمامه

يتضاءل كل الوجود، وشعاره المشرق الألأَّق الذى لا تغيب شمسه أبدا هو موقف سيد الخلق صلى الله عليه وسلم حين استعلى بدينه على كل عوامل الرغبة والرهبة وقال لعمه أبي طالب " والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته أبدا "

العالم الربانى يعيش مع الحق بلا خَلْق، كما يعيش مع الخَلْقِ بلا نَفْس، هو يتمثل دائما قول الشاعر:

الله قل وذر الوجود وما حوى   إن كنْتَ مرتادا بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حقّقْتَهُ   عدم على التفصيل والإجمال

من لاوجود لذاته من ذاته   فوجوده في العقل محض خيال

ومن ثم فهذا العالم لا يخضع للتقاليد ولا ينقاد، وإنما ينطلق من دينه مفكرا ويقود.

التقسيم والتصنيف السابق ينطبق في الواقع والحقيقة على كثيرين، ويمكنك أن تجد عينات لكل فريق من هؤلاء، غير أنك لا تستطيع أن تميز بينهم بوضوح إلا في أيام الفتن حيث الشدائد والمحن والأحداث الكبيرة والكثيرة والمفصلية في حياة الأمة. بعض هؤلاء يعجبك حديثه ويغرك مظهره، لكن مخبره ينبئك عن ذئب، أو عن إمعة. بعضهم يمسك بالعصا من المنتصف ويريد أن يحتفظ بكل الخيوط، فتجده سيالا عائما لا تجد له موقفا مُمَيّزًا ومن ثم فهو ليس له لون ولا طعم ولا رائحة.

بعضهم تحركه أطماع هي في أغلب الأحيان أكبر من قدراته وإمكانياته الشخصية، وفى أحيان أقل تجده مدفوعا لمواقفه الخائبة بدافع تافه أو رغبة رخيصة لا تستحق أن تُعِرضَ المبادئ والقيم الكبرى من أجلها للاهتزاز أو الاضطراب ولو في شكلها الظاهري.

أمثال هؤلاء في الحياة العادية يملأ الأفق الفضائي عبر السموات المفتوحة بحديث عن الحب والرحمة والتسامح.

أما في أيام المحن فتفتح لهم قنوات كانت بالأمس محرمة عليهم، ينطلق صياحهم فيها بحديث يذلل الرقاب للطاغية، ويقضى على ما تبقى في الأمة من رجولة، ويصور دين الله بين الناس وكأنه ظهير للمجرمين ونصير للطغاة والمستبدين.

ورغم أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، ومن ثم فالسكوت في هذا الظرف بالذات جريمة لأنه يساهم بلا شك في إخماد ثورة شعبية مبدعة، أصحابها طلاب حق مغصوب منذ نصف قرن ويزيد، فلما هب أصحابها ليطالبوا بحقهم المغتصب جاءهم من يحدثهم باسم الدين أن يعودوا وأن يستعيضوا عن التظاهر بالجلوس في البيوت ليصلُّوا على النبي لأن التظاهر بدعة؟

كان الأفضل لقائل هذا الكلام الفارغ أن يؤثر الصمت، رغم أنه يحول صاحبه وفي هذا الوقت بالذات إلى شيطان أخرس، لكنه على كل حال وتطبيقا لقاعدة ارتكاب أخف الضررين يكون أقل سوءا وهوانا من شيطان ناعق، ترتفع عقيرته ويعلو صياحه بتحريم المظاهرات وتحريم الخروج على الحاكم.

الشيخ المسكين لم يكن وحده الذى سقط في شباك تلفزيون حزب خيبة الأمل راكبة جمل، ولكن شاركه أيضا ظهور بعض الشيوخ على شاشات التلفزيون الرسمى ليقولوا هذا الكلام الهابط.

شيوخ آخرون في بلاد عربية يشغلون موقع الإفتاء استيقظوا فجأة واستشعروا الخطر على الإسلام فنقل عنهم أن ما حدث في تونس وبعدها في مصر وما يحدث الآن في بلدان أخرى إنما هو مؤامرة خارجية ضد الإسلام.....؟ سبحان الله؟

كأن نظام مبارك في مصر، وابن على في تونس والقذافى في ليبيا وعلى صالح في اليمن والأسد في سوريا، وغيرهم في بلاد العرب الأجاويد كانوا هم الذين يحمون حمى الإسلام ويذودون عنه؟

تصريح هؤلاء الشيوخ النائمين في العسل يصب أيضا في خدمة الطغاة والمستبدين، ويؤكد رسالة الخطيئة الكبرى التى يرددها الماركسيون ويروج لها ويبعث بها الكارهون لدين الله بأن "الدين أفيون الشعوب" وأن بعض المتحدثين في الدين الذين يمثلون وعاظ السلاطين على استعداد للبيع لمن يدفع، وأنه يمكنهم توريد فتاوى التخدير والذل إلى تليفزيونات الطغاة.

هذا الموقف المشين ذكرنا برجال الدين في النظام الكنسي خلال القرون الوسطى وقبل عصور الثورات.

ذكرنا أيضا بمواقف راسبوتين في خدمته ومشاركته لأعتى الفاسدين في عصور القياصرة.

جناية هؤلاء أن مواقفهم تسقط مهابة الأجلاء من العلماء لدى العامة والخاصة ومن ثم فليست فقط على أنفسهم، وإنما هي جناية على الدين ذاته، وعلى رموزه المخلصين والأحرار، وكان الأولى بهؤلاء أن يحترموا أنفسهم وأن يكفوا عن معاونة الظالم والفت من عضد الشرفاء الذين يطالبون بحرية وكرامة شعوبهم.

لقد كان هؤلاء الدعاة البؤساء يحظون بقدر من احترام البسطاء ممن يستمعون إليهم، فإذا بهم يسقطون هذا السقوط المدوي.

الناس تتساءل: ما الفرق بين البلطجية الذين جاءوا بأسلحتهم البيضاء ومعهم الخيل والبغال والإبل، وبين من يحملون أشرف رسالة ليجعلوها في خدمة أنجس الأنظمة وأكثرها قذارة وأشدها بالناس فتكا وتنكيلا، وفي تليفزيون كان يصف هذا الشيخ ومن على شاكلته ومنذ شهور قليلة بأنهم ظلاميون متعصبون ومنغلقون ودعاة للفتنة.

ترى أيها الشيخ، ما علاقة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبول الخنوع والمذلة وترك الاعتصام طلبا لنهاية عصر المظالم وسقوط الطاغية؟

وهل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لا تجوز وسط المعتصمين في ميدان التحرير؟

كنا نظن وبعض الظن إثم أن تكون معهم وأن تشاركهم ما يقومون به باعتباره لونا من ألوان الجهاد.

الشيوخ الآخرون الذين تحدثوا عن وجوب طاعة الحاكم وإن جار وأخذ الأموال وجلد الظهور نسوا أن يذكروا النصوص الأُخرى التى تدعو إلى الأخذ على يد الظالم حتى يكف عن ظلمه وإذا خافوا أن يقولوها أو يفعلوها فتلك علامة على نهاية الأمة،

أحدهم جزم بأنه لا يوجد نص لا في القرآن ولا في السنة يدعو للخروج على الحاكم الظالم ونسى شيخ أمن الدولة وخادم النظام تلك النصوص"

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٩)

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤١)

وقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (إذا رأيتَ أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودِّع منهم) (رواه أحمد).

وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمّهم الله بعقاب منه" (رواه أحمد)، وقوله: "أعجزتم إذ بعثت رجلاً فلم يمض لأمري، أن تجعلوا مكانه من يمضي لأمري" (رواه أبو داود)، (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء: ٩٧)

وقوله أيضا: "ما من نبي بعثه الله قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل" (رواه مسلم).

لست هنا بصدد التأصيل لرسالة في موضوع الخروج على الحاكم،وإنما فقط أعرض عينات من عمليات التدليس والغش الذى يمارسه إعلام الأنظمة الاستبدادية والبرامج الحوارية حين ينتقى متحدثين ممن لا ينتمون لأهل العلم بقدر انتمائهم للشرطة والسلطة.

لا أدرى سر الخصومة بين هؤلاء وبين كلمات الحرية والتحرير وميدانه،ألأن ميادين التحرير تكشف أميتهم السياسية وثقافتهم الهشة وسذاجة فكرهم، فيستخدمهم إعلام الصنم السياسي في تبرير وجوده وشره وعدوانه وتجاوزاته.

لقد كانت آمال الشباب ومعها امال الشعوب معقودة بأصحاب الفضيلة والسماحة بعد الله تعالى ليأخذوا بأيديهم إلى بر الأمان، وشاطئ الحرية، وساحة العدالة، ولكنهم خيبوا آمالهم.

تراهم، فترى الأطماع والصغار والقلة والذلة والخيبة.

في الفتنة تفتح لهم أبواب فضائيات كانت ممنوعة عليهم، بل كانت تصفهم بالظلاميين وترمز لهم بقوى التخلف والرجعية وتصفهم بتجار الدين، وتغمزهم وتلمزهم.

وعند المحن وفجأة وبغير مقدمات تتم استضافتهم ويتم استخدامهم للتخديم على الطاغية وحاشيته.

قليل ماهم ألئك الذين يستعصون على السقوط ويقاومون ويتقدمون في الواجهة عند الكريهة.

قليل ماهم، من يدركون أنهم ورثة الأنبياء، وأن ما تمتلئ به صدورهم من علم أعلى وأغلى وأثمن وأجلُّ من كل خزائن الطغاة المملوءة بالمال الحرام.

نذكرهم فنذكر العز والوقار والهيبة.

كانوا أجل من الملوك جلالة وأعز سلطانا وأفخم مظهرا

أولئك هم الرجال حقا، هؤلاء من يعيشون للإسلام ويعيش الإسلام فيهم، ولن تفقدهم دنيا الناس في ساعات الضيق العسر، ولن تخلو أبدا أرض الله منهم.

هؤلاء بحق هم من قال الله فيهم (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا) (الأحزاب: ٣٩).

لعيون مصر ومن أجلها..

رسالة إلى شيخ الأزهر والأنبا شنودة (*)

بحمد الله وفضله خرجت مصر من مخاضها بولادة طبيعية، صحيح أننا يجب أن نتذكر الشهداء دائما، وأن نتذكر الضحايا الجرحى والمصابين بالرعاية والعناية الدائمة، حتى يشعروا أن لتضحياتهم ثمنا، وأن ما قدموه من تضحيات قد أنتج وأثمر في البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، لكننا أيضا يجب ألا ننسى أن هناك من يتربص بالأم والمولود الجديد.

المولود الجديد فاجأ الدنيا كلها بتلاحم نسيجه وخلاياه مسلمين ونصارى، كما فاجأ الدنيا أيضا بوعيه وتحضره وأخلاقه، واستدعى إلى الوجود في الذاكرة الإنسانية حضارة سبعة آلاف سنة، كانت مستكنة في وجدان مصر.

وظهر أن كل مؤمرات الليل الأسود التى دبرتها دوائر الشر هنا وهناك رغم شراستها قد أثرت في السطح فقط وإن تركت على الجلد بعض البثور، لكنها لم تتخلل إلى الأعماق أو تتسرب إلى القلب، على الأقل حتى الآن.

غير أن عدوها لا يَكُفُّ ولا يَكِلُّ ولا يَمل، فهو مرة يستهدف الأم، وأخرى يستهدف المولود الجديد.

المفكر الفرنسي المعروف (جارودي) كشف في كتابه (الخرافات المؤسسة للسياسة الصهيونية) وهو الكتاب الذي أحدث ضجة وهلعاً في أوساط الصهيونية العالمية لأنه كشف خطتهم وما يخبؤونه للمستقبل العربي، وقدم فيه شهادات دقيقة اعتمدت على مراجع صهيونية كان أخطرها ما نقله عن مجلة تصدر في القدس وتنطق باسم المنظمة الصهيونية العالمية حيث نشرت المجلة دراسة عن الخطط الاستراتيجية لإسرائيل ابتداء من الثمانينات وجاء ذلك في عددها رقم (١٤) بتاريخ فبراير/ شباط سنة ١٩٨٢م صفحة ٤٩-٥٠ جاء فيها:

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٩ - ٠٥ - ٢٠١١م

إن مصر باعتبارها جسم مركزي قد أصبحت (جثة) هامدة لا سيما إذا أخذنا في اعتبارنا المواجهة المتزايدة عنفاً بين المسلمين والمسيحيين حيناً، وبين المسلمين والسلطة حيناً آخر، وتقسيمها إلى كيانات جغرافية متميزة يجب أن يكون هدفنا في التسعينات.

وعلى الجبهة الغربية بعد تفكيك مصر بهذه الطريقة وحرمانها من أية سلطة مركزية فإن بلاداً مثل ليبيا والسودان وبلدانًا أخرى أكثر بعدًا ستغرق في نفس التفكك والتحلل، فتشكيل دولة قبطية في صعيد مصر وتكوين هويات صغيرة قليلة الأهمية هما مفتاح نمو تاريخي لآمال إسرائيل، وهذا النمو يتأخر حالياً بسبب السلام ولكنه حتمي على المدى البعيد.

ورغم المظاهر فإن الجبهة الغربية لا تحتوي على مشكلات كبيرة مثلما هو الأمر بالنسبة للجبهة الشرقية.

إن تقسيم لبنان إلى خمس كيانات هو مقدمة لما سيحدث على هذه الجبهة.

تلك هي خطة إسرائيل كما ذكرها المفكر الفرنسي جارودى.

المتربصون بالوطن يستغلون طيبة الكثيرين من أبناء هذا الشعب الكريم مسلمين ونصارى، كما يستغلون أيضا خبث الأقلية القليلة من المسلمين والنصارى.

وهى أقلية تفتقد التبصر بالمصير المشؤوم الذى ينتظر الجميع في حالة نجاح المؤامرة لا قدر الله.

الخطة تُجرّبُ منذ سنوات في العراق واستطاعت أن تُثِير فيه وتُهِّيجَ كل النعرات.

الخطة أيضا نجحت في السودان الشقيق، وكانت ثمرتها مرة، انقسام الوطن لدولتين شمال وجنوب.

سند المتربصين ووسيلتهم في تفجير البيت المصرى وتمزيق جسد مصر، هو تغذية الأطماع التوسعية لدى البعض في الداخل والخارج ووعودها وإغرائها ببناء إمبراطوريات الوهم في الخيال المريض.

ما معنى أن يقف قس أمام ماسبيرو يرفض أمر البابا ويستعدى الأجنبي على وطنه ويطالب بالتدخل؟

من قبله أيضا أحد المغتربين والموجود الآن في مصر لإشعال الفتيل طالب بتدخل إسرائيل وناشد وزير الخارجية الإسرائيلية أن يتدخل لحماية أقباط مصر.

ما معنى هذا العبث غير الخيانة، خيانة الوطن وخيانة الضمير وخيانة الأهل.

الاستجابة المستمرة لمطالب هؤلاء تغرى بمزيد من الضغط، ومزيد من الاحتقان ومزيد من التطاول على الوطن وتعريضه للمخاطر التى يدبرها العدو.

بقاء هؤلاء المعتصمين لأكثر من عشرة أيام يفرض مجموعة من الأسئلة عمن وراءهم ومن يمدهم بالطعام والشراب والغطاء، وحكاية القس الذى يطلب حماية الدول الأجنبية ويستقوى بها على وطنه؟، وشاحنات الأسلحة التى ضبطت مهربة من هنا وهناك ومَنْ وراء تهريبها؟ ولمن كانت ستذهب؟، وما هو حكم هؤلاء في القانون الجنائي؟ وماذا كانوا ينوون العمل بها؟

أسئلة كثيرة حائرة تشير إلى مخطط كبير يجر مصر وأبنائها إلى حمام من الدم وحريق مدمر، و يفجر فتيله هؤلاء المتعصبون أمام التليفزيون في ماسبيرو ومَنْ وراءهم.

الوطن كله وفي مقدمته الأنبا شنودة يجب أن يكون له موقف من هؤلاء.

الاستجابة الخبيثة أوالغوغائية للمخطط الصهيونى لا تعبر عن مطالب أو عن حرية رأي كما أشار إلى ذلك الأنبا شنودة نفسه في رسالته إلى المعتصمين، وإنما تمثل خيانة للوطن وللضمير المصرى الشريف إن كانت مقصودة، وإن لم تكن مقصودة فهي نوع من البلطجة التى يمارسها قطاع الطريق، وتشكل عدوانا على أمن الوطن والمواطن، وتعطيلا للحياة في كل صورها، ومن ثم فهى تصنف قانونيا في باب جرائم العدوان على المجتمع وعلى المال العام.

التسامح في الجريمتين خيانة الوطن أو العدوان عليه لا تجوز الشفاعة فيها لأي رمز من الرموز أو لأي مسؤول مهما علا كعبه؛ لأن الوطن يجب أن يكون في كل الاعتبارات فوق الجميع.

سياسة المواءمات أو الاسترضاء والطبطبة جُربت ولم تجد نفعا.

الاحتماء بالدين ورفع شعاراته يعنى التطهر من الأحقاد والكراهية وإثارة الفتن، ويعنى أيضا إضافة خير جديد للمجتمع والناس، يحقق لهم مصالحهم ولا يعطل شؤونهم ويسد طرقهم ويقوم بتفتيشهم تفتيشا ذاتيا.

البعض من ذوى الخبرة بالشأن الكنسي يقولون: إن الكنيسة تمددت في الفراغ الذى تركه لها النظام السابق في العقود الأربعة الماضية، واستفادت من النظام بعد أن تحالفت معه على التوريث، ومن ثم فقد تضخمت وتعاظم دورها لتصبح وكأنها دولة داخل الدولة، فراحت تستعرض عضلاتها وتستفز الأغلبية استفزازا واضحا وخطيرا، وتحاول فرض إرادتها على الأغلبية الساحقة، ومن ثم فإن الكنيسة برموزها وخاصة الحرس القديم تَحِنُّ إلى ممارسة دورها في الضغط كما كانت تفعل مع النظام السابق المتحالف معها، والمشهد الحالي ليس إلا مسرحية تتوزع فيها الأدوار لجس نبض القوات المسلحة والضغط على المجلس الأعلى ولى ذراعه كى يلجأ إلى طلب توسط الكنيسة في فض الاعتصام لتأكيد دورها كدولة داخل الدولة كما كانت تفعل أيام النظام السابق.

لكننا نرفض هذا التصور لثقتنا في وطنية الأنبا شنودة وقدرته على تغليب الصالح العام، وإدراكه بأن ذلك يشكل خسارة كبيرة ويحسب بالخصم من الرصيد الوطنى لشخصه.

البعض أيضا يقول بأن هنالك انقساما حادا تجاه موقف الكنيسة من الثورة، وأن تيارا من الحرس القديم لا يزال على ولائه للنظام البائد، ومن ثم يشجع على التمرد والثورة المضادة،بينما الجيل الجديد يرفض التقوقع ويريد أن ينفتح على المجتمع، كما يريد أن يبقى دور الكنيسة في التوجيه والإرشاد الدينى والعمل على الخلاص الروحى دون الدخول في وحل السياسة والتورط في تحالفاتها المريبة.

عجز الكنيسة عن ضبط أبنائها وظهورهم في صورة المتمردين الرافضين لسلطة البابا الروحية، ثم اعتداؤهم على الناس وعلى جنود القوات المسلحة،وقيامهم بتفتيش الأهالى من سكان المنطقة، وإغلاق الطريق وتعطيل المرور، وما نشرته الصحف عن ضرب بعض الصحفيين ومندوبي القنوات الفضائية واختطاف بعض الفتيات المسلمات وحلق شعورهن يستفز الجميع، الدولة والقوات المسلحة والشعب كله وقد أوشك الصبر أن ينفذ، وتلك كارثة لا يعلم مداها غير الله.

الخبر الذى تسرب أن وزير الداخلية اللواء منصور العيسوى استأذن البابا في فض الاعتصام بالقوة بعدما رفض المعتصمون نداءه في فض الاعتصام، إن صح هذا الخبر فإنه يبعث برسالة خاطئة بأن الدولة تكون فعلا قد وقعت في الفخ؛ لأنها بهذا الفعل تكرس المفهوم الخطأ وهو أن الكنيسة تمارس دور الدولة وتسلبها حقها في بسط نفوذها على جزء من رعاياها وتمنع تطبيق القانون.

ونحن أيضا نرفض هذا التحليل لخبرتنا بالإخوة أقباط مصر، وإدراكنا لوطنيتهم وحبهم لمصر، وأن ما يراه البعض انقساما ليس إلا وجهات نظر يتبناها البعض أو يتمنونها، وأن قلة قليلة من أقباط المهجر هم الذين يحاولون الوقيعة والفتنة لحساب أجندات خاصة.

مصر الآن في حاجة ماسة لموقف من أبنائها الشرفاء حيث تتعرض لعملية استلاب دينا وحضارة وهوية فهناك من يحاول أن يقطعها عن دينها وهويتها ويخلعها عن ثقافتها وتراثها الإسلامي ويعبث بمقدراتها ويحاول العبث بتفجيرها من الداخل تحت حجج ومسميات متعددة.

المؤسسة الدينية الإسلامية بضلعيها مشيخة الأزهر ودار الإفتاء كانت تصريحاتها ومواقفها من الثورة حذرة ومحسوبة، وإنْ شابها بعض الخلط،ومن ثم فلم تسقط في الفتنة كما فعل غيرها أفرادا ومؤسسات في مصر والدول الإسلامية.

الفرصة الآن مواتية ليباشر الأزهر مهمته دورا وموقفا ورسالة، وبخاصة أن على رأس مؤسستيه المشيخة ودار الفتوى عالمين جليلين لكل منهما القدرة على التغيير والنهضة، ولكل منهما أيضا قبول في الأوساط العلمية وبين الجماهير.

وأنا على ثقة ويقين أن شعب مصر بكل طوائفه وأطيافه مسلمين ونصارى سيقفون خلف شيخ الأزهر والمفتى والأنبا شنودة عندما تعلو أصواتهم مطالبة بتحقيق العدالة بدلا من التمييز والطبطبة؟.

الوطن في خطر كبير ويجب على كل الرموز الدينية والسياسية والفكرية أن تستشعر هذا، وإلا فإن عليها أن تراجع مواقفها ووطنيتها.

زيارة الأمس التى قام بها أكبر الرموز الإسلامية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتورأحمد الطيب لرأس الكنيسة الأنبا شنودة يجب أن تتمخض عن أمر مهم ينتظره شعب مصر بكل أطيافه وطوائفه.

الشعب يريد من الرموز الثلاثة صاحب الفضيلة سماحة شيخ الأزهر وصاحب الفضيلة سماحة مفتى الديار المصرية ونيافة الأنبا شنودة أن يقفوا موقفا صارما ويعلنوا جميعا وأمام كل المصريين والعالم أن مصر الجديدة، مصر ما بعد الثورة بشعبها مسلمين ومسيحيين شبابها وشيوخها عامتها وخاصتها رموزها ومثقفيها تعلن أنه لا أحد فوق القانون ولا أحد بعيدا عن المؤاخذة والعقاب مهما كانت مكانته أو موقعه إذا أساء أو أخطأ، وأن ثقافة العبث التى تعتمد الشحن الطائفى وتفرق بين أبناء الوطن تشكل جريمة دينية وأخلاقية، وستقابل بكل حزم وصرامة.

ويجب أن يعلم الجميع مسلمين ونصارى أن الاحتماء بالدين ورفع شعاراته يجب أن يكون دعما للمجتمع وحماية لأمنه وليس خروجا عليه.

والقوات المسلحة بعد مواقفها العظيمة في حماية الثورة ومكتسباتها وبعدما أوشك صبرها على النفاد، في حاجة الآن إلى دعم ومساندة شعبية لتمارس دورها في محاسبة من يعبثون بقدر الوطن وأمنه، محاسبة لا تخضع إلا لعدالة القانون ودون حساسية مهما كان الرمز الخاطئ ودون اعتبار لملياراته أو لموقعه في هرم المؤسسة الدينية مسجدا وكنيسة وأزهرا وكاتدرائية.

مصر الآن في حاجة ماسة لذلك الدور في مواجهة عملية الاستلاب التى يسعى إليها ويقوم بها بعض التيارات التى تمثل قلة في المجتمع.

سكوت الأزهر والكنيسة في تلك الظروف، والاكتفاء بزيارات المجاملة وتجميل الصورة غير كاف وغير مقبول، لأنه سيفسر على أنه تخاذل واستمرار للدور السلبي في مرحلة ما قبل الثورة، بل يثبت أنهم شركاء في الجناية بالسكوت عليها، وهذا ما لا يرتضيه الشعب لأزهره العظيم ولكاتدرائيته المعروفة بوطنيتها وهو أيضا ما لا يغفره التاريخ لهاتين المؤسستين العريقتين.

بعض الفئات من الطرفين مسلمين ونصارى تتصرف من منطلق أنها بمنأى عن المؤاخذة والعقاب مهما فعلت، وأنها تحت حماية رموز كبرى ومرجعيات عظيمة تتدخل

عند اللزوم لدى أعلى السلطات في المحروسة لتخرجهم من ظلمات السجن وتعفيهم من العقاب.

لذلك يجب أن يكون الرموز الثلاثة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية والأنبا شنودة أول من يطالب بتحكيم العدالة وتطبيق القانون، وألا يكون هنالك استثناء لأحد الرموز الدينية مهما كانت مكانته ومهما علا كعبه، حتى لو كان شيخا للأزهر أو رأسا للكنيسة؛ لأن الوطن يجب أن يكون فوق الأشخاص.

القوات المسلحة والمجلس الأعلى في حاجة الآن إلى أن يبعثوا برسالة إلى الشعب تطمئنه فيها أن صبرهم لم ينفد بعد، وأنه لا أحد فوق القانون مهما كانت مكانته ومكانه.

وانطلاقا من المسؤلية الأخلاقية والوطنية والدينية، ودرءًا للفتنة أيضا، فإنه يجب على شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية ورأس الكنيسة الأنبا شنودة أن يعلنوا ذلك لعيون مصر ومن أجلها.

النافذة السادسة

المحظورة والمحظور .. وتبادل المواقع

الإسلام بدعوته وعقيدته وشريعته وقيمه ومبادئه وأخلاقه أكبر من أن يُحْصَرَ في جماعة بعينها مهما كانت صفة وعدد المنتسبين إليها، ومن ثم فلا يقبل من جماعة أن تحتكر تفسيره وتدعى أنها تملك الصواب المطلق وما عداها خطأ، غير أن ذلك لا يمنع أن تتخذه جماعة "ما" شارة لها وعنوانا لنشاطها وحركتها.

التميز بالشارة والشعار وحتى بالشعيرة، لا يجب أن يَغْضَبَ منه آخرون لم يفعلوا ذلك؛ لأن الساحة مفتوحة والتسابق في الخيرات والمسارعة إليها مطلوب ومحمود ولم يُوصد له باب ولم يُمْنَعْ منه أحد.

ووجود فرقة أو جماعة تحمل هذا الشعار وتريد أن تتميز به لا يصح أن يفسر على أنه تقسيم للأمة وفرز طائفي لأبنائها في الشارع العام.

المحظورة والمحظور (٣/١) (*)

لعل من نافلة القول أن نُذَكِّر بعضنا أن الإسلام رسالة عامة وعالمية، وهو رحمة الله للعالمين، ومن ثم فلا يجوز لجماعة بعينها أن تحتكره لنفسها فقط وتنفيه عما عداها.

ويقيني القاطع وما تعلمته من ديني أن الإسلام بدعوته وعقيدته وشريعته وقيمه ومبادئه وأخلاقه أكبر من أن يُحْصَرَ في جماعة بعينها مهما كانت صفة وعدد المنتسبين إليها، ومن ثم فلا يقبل من جماعة أن تحتكر تفسيره وتدعى أنها تملك الصواب المطلق وما عداها خطأ، ونحمد الله سبحانه أن كل الجماعات الموجودة على ساحة العمل الإسلامي لم تَدَّعِ ذلك وتعتبر هذا الادعاء عيبا يقدح في صدق انتمائها وتنفيه عن نفسها.

غير أن ذلك لا يمنع أن تتخذه جماعة ما شارة لها وعنوانا لنشاطها وحركتها.

التميز بالشارة والشعار وحتى بالشعيرة، لا يجب أن يَغْضَبَ منه آخرون لم يفعلوا ذلك؛ لأن الساحة مفتوحة والتسابق في الخيرات والمسارعة إليها مطلوب ومحمود ولم يُوصد له باب ولم يُمْنَعْ منه أحد.

وجود فرقة أو جماعة تحمل هذا الشعار وتريد أن تتميز به لا يصح أن يفسر على أنه تقسيم للأمة وفرز طائفي لأبنائها في الشارع العام وقد قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً، فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

في الفترة الماضية كان تنظيم الإخوان تحت السطح يتلقى الضربات الاستباقية المتتالية على فترات متقاربة

والمحظورة، هو المصطلح الذى أطلقته صحافة وتلفزيون وأجهزة أمن وإعلام النظام على جماعة الإخوان المسلمين خلال حكم النظام المخلوع.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٢ - ٠٦ - ٢٠١١م

كان النظام يعتمد عمليات الإجهاض والإجهاد المستمرة اقتصاديا واجتماعيا في سياسته لقمع تلك الجماعة النشطة والحركية

عيون الأفراد والمجتمع كانت تراقب الصراع متأثرة دون شك بحجم الدعاية التى يقوم بها النظام وأجهزته في تشويه السيرة والصورة للجماعة أعضاء وفكرا وقيادة وتنظيما.

مسلسل الكذب والتشويه ليس جديدا، وأتذكر ونحن صغار في المرحلة الإعدادية كانت توزع علينا نشرات في صورة كتيبات صغيرة صادرة عن جهة تسمى لجنة التثقيف.

واحد من هذه النشرات كان عنوانه (إخوان الشياطين) وكان الكتيب مليئا بالجمل والألفاظ الحماسية في سب الإخوان المسلمين وإظهار فاشيتهم وخيانتهم لمصر ومحاولاتهم تحطيم إنجازات ثورة ٢٣ يولو وتدمير البلاد.

الكتيب كان يحتوى اتهامات تثير الكراهية وتثير الاشمئزاز أيضا حيث كان إخوان الشياطين يدبرون لتفجير الكبارى ولقتل عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة والفنانة شادية والست أم كلثوم.

كان بعضنا يحفظ ما جاء في الكتيب عن ظهر قلب لنتفاصح بما جاء فيه أمام الطلاب في إذاعة المعهد الصباحية.

وقتها تم اختيارى ضمن فريق أشبال نادى كفر الزيات لكرة القدم تحت ١٦ سنة، زملائي وأصحابى في القرية يفخرون بى فقد كانوا يتوقعون أن يكون زميلهم وابن قريتهم نجما في سماء الرياضة، وكان المدرب كلما رأى كتابا في يدى يقول لى "مستقبلك في الكرة أفضل من مستقبلك في التعليم"

أغلب الناس ساعتها لا يعرفون اسم رئيس الوزراء، ولكن لا يوجد أحد لم يسمع اسم رفعت الفناجيلى وصالح سليم ويكن وحمادة إمام وشحته ورضا وريعو والشاذلى ومصطفى رياض والشيخ طه إسماعيل.

بعبارة أوضح الرياضة عموما والكرة بالتحديد هى الهوية والوطنية والقضية والفكرة والمبدأ وحديث الأمس واليوم وهى الحاضر والمستقبل، ولكي تكون نجما لابد أن يكون عقلك في رجليك وليس في رأسك أو حتى في رأس البر أو رأس غارب.

كان المشرف على النادى بكل أنشطته رجل وقور ومهذب ومهاب، يتميز بذوق رفيع في اختياره لملابسه، ويبدو أنه من عائلة عريقة النسب حيث يظهر الرقي والخلق والأدب العالى والحزم في تصرفاته كلها.

محمود المهندس، وهذا هو إسمه، كان يُعَدُّ في الترتيب الوظيفي الشخصية الثانية بعد رئيس مجلس إدارة الشركة المالية والصناعية المصرية التى كان النادى تابعا لها.

عندما يأتى إلى النادى يلتف الناس حوله وخصوصا المدربون والإداريون وكبار اللاعبين، وكان يغمرنا الفرح حين يسألنا نحن فريق الأشبال عن أحوالنا ودراستنا ويتباسط معنا، وعندما يجلس ليشاهد تدريباتنا كان كل منا يحرص على إظهار كفاءته وقدراته وأدائه العالى وكأننا نتودد إلى لفت نظره وإرضائه، وعندما تحل صلاة العصر كنا نراه في ساحة الملعب يقطع ما يقوم به من عمل ليقف ليؤدى صلاته.

في إحدى غارات أجهزة الأمن على إخوان الشياطين قبض على الرجل وغاب عن النادى وغابت أخباره.

ما يدور حولنا لم نكن نعى منه شيئا ولم يكن لنا به أي اهتمام، فقط كانت مهمتنا أن نذاكر ونتدرب ونردد دائما "ناصر ياحرية ناصر يااشتراكية ناصر ياحبيب الكل ياناصر، وكانت اذاعة صوت العرب وهى الأشهر في ذلك الوقت تردد دائما على أسماعنا قصيدة الشاعر محمد مصطفى الماحى ما لم تخنى ذاكرتى والتى يقول فيها:

من أطلعَ الفجر الجديد

على رُبَى تلك الربوع الناضرة؟

في القاهرة

في كل أوطان الشعوب الثائرة؟

هو صانعُ التاريخ في أيامنا

هو مَشرقُ الآمال في أحلامنا

هذي خطاه على الطريق تقودنا، هذي خطاهْ

لم تعطِنا الدنيا سواه ولا نريد لها سواهْ

شدّتْ يداهُ لنا الصباحَ من الدّجى، سلمتْ يداهْ
يا مصرُ، يا وطنَ العروبة، يا منارَ السائرينْ
يا مهدَ كل حضارة، يا دارَ كل الصادقين
فجرُ الحقيقة أطلقيهِ وقبّليهِ وعانقيهْ
وخذي فتاكِ إلى حماكِ، إلى عُلاكِ وسائليهْ
كيف استفاق الدهرُ ينشر في حِمى كفّيْكِ سَعدَهْ؟
كيف التقى الوطنُ الكبير بوحدةٍ أنسْته بُعدَه؟
كيف استطاع فتاكِ أن يُلقي بقلب الظلمِ رعدَهْ؟
كانت حياتُكِ بالوعودِ فكيف أنجز فيكِ وعدهْ؟
وفتاكِ عبدُ الناصرِ
بطلُ الكفاحِ الظافرِ
لم تعطِنا الدنيا سواه ولا نريد لها سواهْ
شدّتْ يداهُ لنا الصباحَ من الدّجى، سلمتْ يداهْ
يا موطني في موكب الذكرى نعود فنلتقي يا موطني
ترنيمةُ العيدِ ابتهالاتٌ لشعبٍ مؤمنِ
العيدُ عادكِ يا بلادي، غرّدي
والنيلُ زغرد شاطئاهُ فزغردي
هذا فتاكِ وحولهُ جُنْدٌ رفاقٌ في الكفاحْ
رفعوا ستارَ الليلِ فانطلقتْ تباشيرُ الصباحْ
وفتاكِ عبدُ الناصرِ
بطلُ الكفاحِ الصابرِ

لم تعطِنا الدنيا سواه ولا نريد لها سواهْ

شدّتْ يداهُ لنا الصباحَ من الدّجى، سلمتْ يداهْ

الأخبار المحزنة والممزوجة بالإشاعات الكاذبة حملت إلينا فجيعة في الرجل الوقور المهاب محمود المهندس والذى كان محل تقدير وإعجاب من الجميع، فقد تفاجأنا بأن الرجل كان ضليعا في مؤامرة كبرى لقتل عدد من قيادات الثورة وقتل أم كلثوم وتفجير كوبرى كفر الزيات وتفجير مخزن كبير في الشركة يحتوى مادة "مية النار "مادة الأسيد" تكفى لحرق خمسين كيلو متر مربع، وأنه أيضا كان عربيدا وعنده خدامة سرير.

الرجل الوقور والمصلى والمهذب كان إذًا يدبر لحرقنا وحرق قريتنا والقرى المجاورة لها، بل كان يدبر لحرق المحافظة بكاملها.

وكبرنا وانتقلنا للمرحلة الثانوية، وكبرت معنا رؤيتنا لهؤلاء الناس على أنهم خطر ماحق على الدولة وعلى المجتمع، وقتها لم تكن هنالك إلا رؤية ثقافية أحادية ورأي واحد يصدر إلى الناس من أعلى إلى أسفل وكأنك تعيش في معسكر للتدريب على الامتثال والطاعة.

وفجأة مات الزعيم، واسودت الدنيا، وخرجت مصر كلها عن بكرة أبيها وأمها وعمتها وخالتها وجدودها وجدود جدودها باكية متوشحة بالسواد حدادا على الزعيم الخالد.

قصائد الشعراء كانت تلهب مشاعر الناس وتفيض بمعانى الحزن العميق.

وفي قاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر كان الصديق والزميل والمبدع والرائع الطالب صابر عبد الدايم يونس ساحرا وفارسا في ذلك اليوم، فقد رسم بكلماته البليغة والرقيقة والمؤثرة لوحة مصرية تشكل مرثية جماعية حفرت حفرا وفرضت لنفسها مساحة في الذاكرة الإنسانية، ومن ثم فقلما تنسى، اللوحة التى رسمها شعرا د. صابر عبد الدايم وهو حاليا عميد كلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع الزقازيق مزج فيها بخطوط البلاغة والبيان بين ظلال التشبيه والاستعارة والأوزان الشعرية بإيقاع آلاق ومجسد وشديد التأثير على النفس بين صورة العامل الكادح والفلاح الفصيح والطالب الذى يحمل دفترا وقد تقلد علما مجانيا بلا إنفاق.

المرثية المؤثرة بدأت بقوله:

ذابت معانى الحزن في أعماقى   واسودت الآفاق في أحداقى

وتمزق الوجدان شر ممزق   في يوم توديع الزعيم البـاقى

الحشد الجماهيرى كان على أشده في تلك الأيام، فمصر بعد أن كانت تعانى جرحا واحدا أصبحت تعانى جرحين اثنين كلاهما غائر ومؤلم في وجدان أبنائها.

الجرح الأول كان مرارة الهزيمة التى تلقتها الأمة بالرفض المطلق ورفضت حتى أن تفرط في رأس رموزها وكأنها قررت بإباء البطل وبعناد المقاتل الشريف الذي يفضل الإصرار على القتال لآخر قطرة دم على أن يسلم سلاحه رغم الحصار.

أما الجرح الثانى: فقد كان موت الزعيم نفسه والذى شكل صدمة لأمة قررت أن ترد الهزيمة وأن تسترد كرامتها وبيد من كان سببا في هزيمتها بنظامه ورجاله ولكنه مات.

بعد موت الزعيم دخلت مصرعصرا جديدا، واستطاع الرئيس السادات والذى نظر إليه الجميع بسخرية واستخفاف أن يتخلص من مراكز القوى التى كانت تدير البلاد بالحديد والنار،وبدأت الحياة تتنفس شيئا من نسيم الحرية.

ومن باب الفضول وعلى حذر شديد قرأنا شيئا من كتابات لإخوان الشياطين، واكتشفنا أننا تعرضنا لأكبر عمليات تزييف للوعى في العصر الحديث.

المحظورة والمحظور؟ (٣/٢) (*)

لماذا اخترت المحظورة؟

بعد صدور المقال الأول المحظورة والمحظور يوم الخميس الماضى لفت نظرى صديق عزيز برسالة بعث بها إليَّ متسائلا: لماذا اخترتَ المحظورة؟

وهل هذه المقالات تأريخا أو تقييما لأداء الإخوان في السنوات الستين الماضية؟

ووجدت أن من حق القارئ بعد هذا التساؤل أن يعرف أن هذه المقالات ليست تأريخا لحركة الإخوان وليست تقييما لأدائهم بقدر ما هى رصد ومتابعة مختصرة لحركة الحرية ومساحتها خلال فترات الحكم التى مرت بها مصر منذ ثورة **٢٣** يوليو **١٩٥٢**م وحتى ثورة **٢٥** يناير **٢٠١١**م.

أؤكد هنا أن المقالات ليست تأريخا للأحداث التى مرت بها الجماعة، فلست مؤرخا وليس لدى في تلك الأحداث تفاصيل، ولا أدعي العلم بها، كما أنها ليست تقويما لأداء الجماعة، فذلك ميدان له أهله، وقد كتب فيه آخرون أجاد بعضهم وأساء كثيرون، ومن ثم فقد كفانا غيرنا مؤنة هذين الميدانين.

الكتابة هنا هى مجرد رصد لعصور ثلاثة عاشتها مصر المحروسة بين أفراح وأتراح، ومد وجزر وانتصارات وانكسارات، ومن ثم فالعرض هنا سيكون فقط مجرد عناوين رأيتها أساسية في رسم ملامح الحرية المتاحة ومساحتها، وربما كانت جماعة الإخوان المسلمين هي التنظيم الوحيد الذى حظي بأكبر قدر من الأذى بالإضافة إلى ما دار حول الجماعة من جدل، الأمر الذي يجعلها النموذج الأكثر تأثرا بهذه الحرية منحا ومنعا، إتاحة وحجبا.

جماعات أخرى كثيرة عانت وسجنت وربما عذبت لكن جماعة الإخوان تحديدا هى أكثر الجماعات تضررا ومعاناة ودفعا للثمن الباهظ في غياب الحرية، ثم هى لا زالت تدفع ثمن نشاطها وحضورها وحركيتها وقدرتها على التنظيم والحشد حتى هذه اللحظة،

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٩ - ٠٦ - ٢٠١١م

الأمر الذى يجعلها هى النموذج والمعيار لقياس حركة الحرية نضجا وإثارة،وتعسرا في الممارسة، ونجاحا باهرا في مواقف مدروسة.

مصانع الكذب ومنظومته تستغل تلقائية بعض القيادات في مواقف حماسية وتختطفها وتطير بها لتكون منها مادة التشويه والتشويش وتخويف الناس، وتسوق تلك المواقف لتكون دليل الإدانة، لدرجة أن إشاعة قد انتشرت ووصلت إلينا رغم بعد الديار وتنائى المسافات فحواها أن واحدا من قيادات الإخوان البارزين نسب إليه تحريم زواج شباب الإخوان إلا من الفتيات الإخوانيات فقط،وأن الأخريات بنات شوارع، وهكذا تدفع الجماعة ثمن انتمائها الإسلامي والوطنى وتعرض على الناس بأقصى درجات الإثارة والاستفزاز على أنها "جماعة إخوان الشياطين".

أخلاقيا ودينيا وإنسانيا لابد للقلم الشريف والرأي الحر أن يسجل موقفا كي لا يقع تحت وصف الشيطان الأخرص، لكل هذه الأسباب كانت هذه السلسلة من المقالات التى اختارت المحظورة والمحظور عنوانا وموضوعا.

في بداية عصر الرئيس السادات كانت مؤسسة الحكم منقسمة على نفسها، فبعض رفاق الزعيم السابق رأوا في القادم الجديد لرئاسة الجمهورية أنه لايمكن أن يملأ الفراغ الذى تركه الزعيم، وأن بعضهم أولى وأحق بموقع الرئاسة منه، وبعضهم نظر إليه باستخفاف شديد وكان لا يعير أوامره أي اهتمام، ورأي آخرون منهم أنه خرج عن مسار الزعيم جمال عبد الناصر، في ذلك الوقت كانت مفاصل الدولة كلها في أيديهم،الاتحاد الاشتراكي بتنظيماته وتشكيلاته وما تفرع منه بداية بالتنظيم الطليعي واللجنة المركزية واللجنة التنفيذية العليا، ومنها تقريبا كل الوزراء والمسؤولين بما فيها وزارة الداخلية وأجهزة المخابرات وأجهزة الأمن العام بكل شعبه وأقسامه.

رئيس الجمهورية لم يكن له من سند شعبي غير الشرعية الدستورية، لكن الرجل لم يكن سهلا فقد ودكته الأحداث والمحن، وهو يعرف جيدا كيف يتخلص من المواقف الحرجة، بل ويعرف أيضا كيف يُجَيِّرُها لصالحه،

في مجلس الأمة كانت الترتيبات أن يهتف كل الحاضرين بجمال عبد الناصر والناصرية، وأن يقاطعوا كل جملة من حديثه بهذا الهتاف، الغريب أنه اندمج مع الهتيفة قائلا: "كلنا جمال عبد الناصر، وإذا كان جمال عبد الناصر قد مات فإن أربعين مليون

مصرى كلهم جمال عبد الناصر، عبد الناصر لم يكن –ملكا لأحد وإنما هو ملك– لكل المصريين ولن نسمح لجهة مهما كانت أن تسلب المصريين حقهم في جمال عبد الناصر وتحتكره لنفسها"

بهذه الكلمات سحب البساط من تحت خصومه وتغير الموقف تماما وأصيب خصومه الحاضرون بالدهشة والذهول.

بداية العصر الثانى لثورة ٢٣ يوليو كانت مليئة بالمتاعب، فهزيمة يونيو ٦٧ فجرت سيلا من الأسئلة المعرفية وسيلا من الأسئلة الأيديولوجية،الأسئلة المعرفية لم تجد إجابة شافية رغم براعة الكاهن الأكبر وولائه للفرعون، غير أن كل مبرراته لم تجد صدى شعبي كما كان من قبل، فالشعب لم يعد يعير سمعه لألئك الذين خدعوه وزيفوا وعيه وأوهموه أننا قادرون على سحق العدو، وأن صناعتنا بدأت من الإبرة حتى الصاروخ، وأن لدينا القاهر والظافر، ولما وقعت الواقعة تعرى الوطن حتى في ضرورات طعامه وشرابه ووجدنا أننا لسنا أمام أزمة واحدة، وإنما نحن أمام أزمات.

كان أكبر هذه الأزمات التى واجهت مصر هى أزمة جيش شريف طعن في كرامته وشرفه وتلقى هزيمة منكرة لم يكن هو سبب فيها ولا مسؤول عنها حيث زُجَّ به لأرض معركة حسبتها قيادته مباراة لكرة القدم ثم كانت الفجيعة أن لحقت به هزيمة دون أن يدخل معركة أصلا، كان الأصعب في هذا الأمر هو كيف تجعل هذا الجيش يلتقط أنفاسه ليستعيد نفسه و يدرك ما جرى.

ومع اكتشافنا أننا تعرضنا لأكبر عمليات تزييف للوعى في العصر الحديث اكتشفنا أيضا أن الوطن يمكن توزيع سكانه على فئات أربعة، ثلاثة منها فاعلة والفئة الأخيرة مفعول بها.

جزء هو الاتحاد الاشتراكي.

والجزء الثانى هو التنظيم الطليعى.

والجزء الثالث هو الأجهزة الأمنية وكان عددها يتجاوز ١٥ جهازا.

اما الجزء الأخير فهو المفعول به، وهم الضحايا أي بقية الشعب.

ومن ثم فسؤال المعرفة وسؤال الأيديولوجية لم يكن لهما في الأصل والأساس معنى مقبول أو معقول،؟ فحيث لا معرفة بأي شئ، ولا وجود لأي شئ، فمن يسأل من؟ حتى الشعب لا يعرف ماذا يفعل،فقد وضع ثقته وولاءه لقيادته ولم يأخذ في مقابل ذلك غير الهزيمة والهوان. ولما أصر هذا الشعب على أن يسترد كرامته ويحرر أرضه بأيدى أبنائه وبخاصة الزعيم رأس النظام والذى كان سببا في الهزيمة جاءت الأقدار بيومه المحدود فمات الزعيم.

وبرغم مرارة الواقع وقسوة الظروف وضغط الداخل فقد استطاع الرئيس الجديد والمجرد من أي سلاح والذى نظر إليه الجميع بسخرية واستخفاف أن يتخلص من مراكز القوى التى كانت تدير البلاد بالحديد والنار،وبدأت الحياة تتنفس شيئا من نسيم الحرية.

لكن مقاليد الأمور في الصحافة والإعلام كانت لاتزال في قبضة الماركسيين ومنتسبى الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعى وأتباع مراكز القوى، وكان الاحتلال على الضفة الأخرى من قناة السويس يشكل ضغطا نفسيا على الشعب وعلى القيادة معا ومن ثم فالماركسيون وبقايا مراكز القوى اتخذت منه قميص عثمان في إحراج الرئيس والضغط عليه.

تفتق ذهن الرئيس والمحيطين به عن فكرة أن تضرب قوة بقوة، أن تضرب القوى المتناقضة بعضها ببعض، قوة الماركسيين في الجامعات وقطاع الإعلام والثقافة بقوة الإسلاميين وتفتح لهم المجال وتتيح لهم الفرصة، وبالفعل ظهر الإسلاميون على السطح وبدا نشاطهم واعيا ومنسقا ومتميزا فالتف الشباب حولهم في الجامعات والنقابات وفي الشارع العام، وأصبحوا يشكلون رقما قويا في معادلة التوازن السياسية، النظام من جهته لم يسمح بتكوين أحزاب على أساس دينى، لكنه كون لجانا لتطبيق الشريعة في محاولة لاسترضاء الشعب المصري المسلم، بالطبع تكوين اللجان لا يعنى شيئا في مجتمعاتنا، فإذا أردت أن تقتل شيئا أو تُودِعه مخازن النسيان فَكَوِّنْ له لجانا، والسادات هو أول من يعرف ذلك.

الأنبا شنودة أغضبته بعض مواقف السادات فجرب أن يمارس ضغطا في الداخل والخارج لكن رد السادات كان حازما وصارما فقد أعلنها لكل المصريين قائلا " "مصر

دولة مسلمة، وأنا رئيس مسلم لدولة مسلمة" ثم أصدر قرارا بإلغاء تنصيب الأنبا شنودة وعزله وتجريده من منصبه الكنسى كرأس للكنيسة.

والحقيقة أن الرجل كان شخصية محيرة لها مذاق خاص في عيون الشعب، نظرة الشعب إليه تمتزج فيها السخرية بالإعجاب من بساطة الرجل وقدرته على الحزم وتفوقه في التمويه والمراوغة، فقد استطاع أن يخدع الصهاينة ووجه إليهم ضربة مفاجئة ومفجعة سببت شلالا وذهولا لكل قيادتهم وأجهزتهم، وأعادت للشعب المصري الجريح كرامته واعتباره وأرضه.

في بداية عصره كان صدره رحبا، يُوَجَّهُ إليه النقد اللاذع لكنه لا يعتقل الناقد، بل كان يستمع إلى الإهانات وقلما ينفعل، وكثيرا ما كان يستغل ذلك ليدلل به على الحرية الجديدة التى يتمتع بها المواطن في التعبير عن رأيه ولو كان نقدا جارحا لشخص رئيس الجمهورية، من هذا الباب مثلا لم يعتقل طالب الطب عبد المنعم أبو الفتوح عندما وقف أمامه في شجاعة ليقول له " أنت لا تُقَرِّبُ إلا المنافقين يا ريس " انفعل السادات ساعتها لكنه لم يعتقل أبو الفتوح وتركه حرا.

شكاه إلى الله على الملأ زعيم الإخوان الراحل الأستاذ عمر التلمسانى رحمة الله عليه، لكنه أيضا لم يعتقل ولم يعذب.

في ظنى أن حجم الحرية المتاحة في هذا العصر لا تقارن بالعصر الذى قبله ولا بالذى بعده، لكن الخطيئة الكبرى لهذا العصر لم تكن في الانتفاح أو حتى في كامب ديفيد، وإنما كانت في اختياره للمخلوع نائبا عنه ليتسلط على حكم مصر وليذكرنا السادات دائما بقول الشاعر:

ستعلم إن جربت غيرى بأننى لك كنت كنزا

وهذا ما يجعلنا بالفم المليان نردد دائما وبمرارة، "رحمة الله عليك يا سادات، وسامحك الله يا كبير العائلة".

المحظورة.. والمحظور (٣/٣) (*)

يقولون في المثل الشعبي "الخير على قدوم الواردين"

قُتل الرئيس السادات، ومع مجئ الوارد الجديد لكرسي الرئاسة جاء قانون الطوارئ، وهو قانون يُخَوِّل لأي مخبر من مخبري مباحث أمن الدولة أن يقبض على أتخن تخين ويضعه في المعتقل دون أن يسأل عن أسباب الاعتقال، وهذا القانون سئ السمعة ظل مرافقا للرئيس مبارك ومرتبطا به، وعندما تم إلغاؤه جاء هو هو ولكن تحت اسم آخر ليظل توأما للرئيس حتى انخلعا معا.

الرئيس بدأ عهده بكلام لطيف ينبئ عن نزاهة ونظافة يد وكراهية للمحسوبية، قال أيضا "الكفن ليس له جيوب" غير أن نهاية عهده كشفت لنا أن للكفن جيوبا كثيرة وسراديب للتهريب والسلب والنهب لا حصر لها، وأن الكفن الوحيد الذى ليس له جيوب هو كفن الشعب، لأنه أصر هو وأبناؤه وحاشيته أن يأخذ كل التركة والشعب لا يزال على قيد الحياة.

المحظورة تحظى باهتمام كبير لدى الرئيس، والتفكير فيها يحتل مساحة ضخمة من ذاكرته، وكانت أجهزة أمنه مُسْتنفَرة ضد تلك الجماعة المحظورة تمارس معهم أبشع أنواع القهر والقمع والإذلال في ضربات إجهاضية واستباقية، حتى تعود الناس قُبيل كل انتخابات في النقابات أو المجالس المحلية فضلا عن البرلمان، أن ينشئ النظام من أجل المحظورة محاكم عسكرية لا تخضع لقانون، مهمة تلك المحاكم محددة في تغييبهم في المجهول الذى لا يدرى أحد عنه شيئا لا مكانا ولا زمانا ولا جهة تسألها عنهم.

قربك من المحظورة أو الانتساب إليها كان وصفا كافيا ليس فقط لاستبعادك من أي موقع قيادى مهما كانت كفاءتك، بل لاستبعادك من أي وظيفة ولو كانت وظيفة خباز في فرن أو فراش في مسجد أو عامل نظافة في مدرسة، ولما كان العقاب الجماعي هو الأصل عادة لمن يعترض أو يعارض لدى النظام المستبد،فقد كان يطول أهلهم ومصالحهم وشركائهم وكل من يمت لهم بصلة قرابة أو صداقة.

كان النظام لا يكتفى في حربه للجماعة بكتائب أمن الدولة أو الأمن المركزى أو حتى كل قوى الداخلية، وإنما يطلق أيضا كل كتائبه الإعلامية في الصحف والإذاعات

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٦ – ٠٦ – ٢٠١١م.

والمجلات والتلفزيون الرسمى وحتى في الفضائيات الخاصة مجاملة له في تشويههم والنيل منهم وفض الناس عنهم.

لكن الغريب العجيب أن هذه الجماعة تحملت وصبرت وتميزت بقدرة فائقة على الحضور الاجتماعي والتأثير في الشرائح المختلفة من الناس، وحتى من لا يتفقون معهم في الطرح والرؤية كان يكن لهم التقدير ويختارهم إذا أتيحت له الفرصة في صناديق الانتخاب.

النظام حدد حركتهم ولكنه لم يستطع أن يقضي عليهم، حاربهم فصمدوا ولم ينتصر هو، فرقهم فتجمعوا أكثر، سجنهم فخرجوا من سجونه أكثر إصرارا وأصلب عودا، عذبهم وأطلق عليهم زبانيته، فسخروا منه وأهانوه بشموخهم، حاول استذلالهم فسموا وارتفعوا عليه، فلم يستطع النيل من أرواحهم وإن أدمى منهم الأجساد.

حَرَّش خدمه وحرسه والمُنَظِّرين له ليتحرشوا بهم فكرا وثقافة ومناظرات، فهتكت المحظورة ستار التزييف وأظهروا عوار ثقافة المتشدقين، وقصور فكر المتطاولين عليهم، وكانت لياقتهم الفكرية والثقافية رغم المحن أوضح من شمس النهار وأعلى من نجوم السماء.

في أدنى مساحة أتيحت للحرية هزموه وهزموا رموزه ومرغوا رؤوس حزبه في الطين، وفازوا بثلث أعضاء البرلمان، ومع كل ذلك كانت أجهزته تطلق عليهم مصطلح "المحظورة" كان النظام متناقضا مع نفسه وتكوينه وسياساته كلها، لكنه كان يحرس هذا التناقض بالحديد والنار.

النظام المخلوع عندما فشل في تسويق نفسه كعميل بعد أن انتهت مدة صلاحيته راح يفزع الغرب بفزاعة الإخوان. ويحذر من ثورة تشبه الثورة الإيرانية تهدد مصالحه وتستعصى على الإغواء والإغراء.

تذكرت هذا الكلام وأنا أتابع أحداث الثورة الليبية وما جاء على لسان القذافى حين وصف الثوار بأنهم خلايا كانت نائمةتابعة لتنظيم القاعدة.

الغريب أن على صالح في اليمن وبشار الأسد في سورية يسلكان نفس المسلك ويستعملان نفس المصطلح طوائف "مندسة" بينما مؤسسات القرار في الغرب والذى أراد القذافى وصاحباه أن يحذروهم من هذه الخلايا النائمة سخرت منهم وردت عليهم بأنهم طغاة مستبدون قد انتهى حكمهم ويجب أن يرحلوا.

قامت الثورة في مصر وساهمت المحظورة بجهد كبير في نجاحها فأبيحت المحظورة وحظر النظام البائد.

فى تصورى أن نجاح الثورة سيضيف إلى الجماعة عبئا جديدا، فقد كان الكثيرون في السابق يلتمسون لها الأعذار على اعتبار أنها ضحية قمع واستبداد النظام.

الفترة القادمة تحمل حساسية من نوع خاص يجب أن تؤخذ في الحسبان وتوضع في الاعتبار بالنسبة لكل من ينتمى لهذه الجماعة وبخاصة رموزها، وعلى الجماعة أن تتعامل مع كل دعوة للحوار على أنها فخ معد ومنصوب بعناية لانتظار الهفوات واصطياد الرموز.

في فترة ما قبل ثورة ٢٥ يناير كانت وسائل النظام متاحة لجماعات قطاع الطريق الثقافي في الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات الفضائية، ثم بعد قيام الثورة زاد شعور جماعات قطاع الطريق الثقافي بالخطر أكثر، وانضم إليهم بلطجية العلمانيين والليبرليين والماركسيين وازداد هذا الشعور حتى وصل إلى حد الهوس والهلوسة واللوثة الثقافية بعد نتائج الاستفتاء فراحوا يقلبون الحقائق ويشوهون كل ما هو إسلامي ويتحدثون عن ردة ثقافية ويحذرون من قصاص بقطع الأذن والأنف وخطف لغير المحجبات وتهديد لهن.

حفلات الزعر التى قامت وتقوم بها بقايا وسائل النظام المخلوع وآلياته وانضم إليها جهد صحافة وإعلام رأس المال الطائفي والمشبوه ليشكلان معا منظومة عدائية ازدادت زخما وتنسيقا وفق مخطط تخويف الشعب من شبح الإسلام القادم ليقطع الأيدى والأرجل ويمارس الجلد والقمع والإقصاء ضد المخالفين في الرأي والمختلفين في الرؤية، وكأن عفريت الظلامية قادم لينتقم من الناس وليطفئ أنوار الحياة.

الجهد المبذول في حملات التشويه والتنفير لا يستهان بتأثيره في دعم الباطل وتجميل صورته ومخاصمة الحقائق وتشويه صورتها في أذهان الناس عامة وخاصة.

ومن مصلحة الجماعة والوطن كله أن يرى الشعب المصري والعالم معه الأداء الحضاري المتميز بالعطاء والتفوق الأخلاقي، وخدمة الناس دون منٍّ ولا أذى وتلك وسيلة وغاية في آن معا.

وسيلة لدحر شبهات المغرضين وما أكثرها، وأيضا هي فرصة ذهبية سانحة لإزالة ركام الغبار الفكرى لدى الكثيرين من الضحايا، والذين ساءت وتسوء ظنونهم بكل ما

هو إسلامي نتيجة الحملات السابقة والحالية وكلها مغرضة، وهى حملات استعملت كل وسائل التأثير ابتداء بالإشاعات الكاذبة وانتهاء بثقافة الصوت والصورة، وممارسة التكرار لتثبيت وتكريس سوء الفهم وسوء الظن، والتركيز على الجانب السلبي بحديث عن أجندات خاصة لا تتناقض فقط مع مطالب االقوى الوطنية الموجودة على الساحة، ولا تحمل مشروعا حضاريا أو قوميا يعبر عن إرادة المصريين بقدر ما تحمل مشروعا إقصائيا يريد إعادة التاريخ ويفصلنا عن الواقع ولا يلتفت لمشاكل الجماهير أو يضع اعتبارا لمعاناتهم. بالتأكيد هذا الادعاء لا ينطوي على كل الناس، ولكنه يلقى صدى لدى كثيرين من ضحايا الثقافة المغشوشة والتدليس ذى النفس الطويل، والذى استمر عقودا وربما قرونا من الزمان ولا يزال يمارس حتى الآن.

في المقابل وخلال تلك العقود البائسة ظل المتهم البرئ وهو الإسلام غائبا لا يدافع عن نفسه ومبعدا عن الواقع العملى في حياة المجتمع وغريبا حتى بين الناس

الهدف المطلوب تحقيقه من هذه الحملات معروف ومحدد مسبقا وهو صرف الناس عن كل دعوة لتحرير الإرادة واستقلال القرار، واستبعاد أي مشروع حضارى لنهضة الأمة وخروجها من حالة الاستلاب الحضارى التى تعانى منها، وتعطيلها عن استرداد دورها ومكانتها في المحيطين الإقليمي والدولي.

وفي هذا الجو تزداد مسؤولية الجماعة لأنها ارتبطت في الوعي العام لجماهير الناس بالإسلام هوية ومرجعية وفكرة ومنهاجا، ومن ثم فأي تقصير أو أي سلوك سلبي سينسحب بالطبع على المبدأ والفكرة وسيحسب خصما من رصيد الإسلام لا من رصيد الجماعة.

القاعدة ذاتها تنطبق على كل تيار إسلامي يدخل الساحة السياسية في المرحلة القادمة ومن ثم فلا بد من معرفة قواعد اللعبة السياسية، ولا بد أيضا من التزود بالخبرة والاستعداد لدفع ثمن استحقاقات المرحلة تفاديا لأخطار مهلكة.

الهدف الكبير هنا ليس فقط مشروعا سياسيا يرد الاعتبار للجماعة المظلومة وينفي عنها تهما هي منها براء، ولكنه بالدرجة الأولى يجب أن يتجاوز ذلك، يتجاوز الجماعة بأفرادها وتنظيماتها وقواعدها وقياداتها ورموزها ليحمل رد الاعتبار لدين مظلوم، الناس أحوج ما يكونون إليه، وهو أنفع وأصلح ما يكون لوجودهم وحياتهم ودنياهم وأخراهم. الجماعة هنا ببساطة شديدة لا بد أن تبرهن أنها لا تحمل برنامجا انتخابيا تخوض به معركة سياسية تحقق به أغلبية برلمانية فقط، بقدر ما تحمل رحمة الله للعالمين، ولكي يحدث ذلك

وتبرهن عليه لا بد أن تؤسس الجماعة لمشروع حضارى كبير يحمل حلم الأمة وتلتقى عنده إرادة أبناء الوطن تلاقيا حرا وتصب في مجرى تحقيقه كل الجهود العلمية والمعرفية الاقتصادي منها والاجتماعي والسياسي، ليعرف العالم كله حجم ما تحمله هذه الجماعة من قيم تشكل وسيلة الإغاثة والإنقاذ للإنسان والكون والحياة؛ لأنها ببساطة كما قلنا تحمل رحمة الله للعالمين.

أعرف أن العبء ثقيل، وأن المسؤولية كبيرة، وأن الرؤي المخلصة التى تطرح هنا أو هناك لم تغب عن وعي الجماعة وإدراكها، فالرصيد المعرفي لأبنائها كبير، والخبرة تراكمت لديهم عبر عشرات السنين، غير أن الظرف المتاح بقدر ما يحمل من فرص بقدر ما يحمل أيضا من مخاطر، وفي مقدمة تلك المخاطر الشعور بالاكتفاء الذاتى فكريا وعدم الرغبة في قراءة الآخر ورفض الاندماج وهو شعور خطير، ومكلف قد يؤدي للتقوقع على الذات، أو للصدام مع الآخر والخروج عليه، ما دام سوء الفهم وسوء الظن هو سيد الموقف. الجماعة اليوم تحت المجهر والكل ينتظر، والبعض يترصد وكأنه عداد الخطأ، ينتظر هفوة ليطير بها مُشَوّهًا ومُشَوّشاً ومُجَسّمًا.

التصريحات التى تصدر من البعض في لحظات النشوة بالفرحة وأمام الجموع الغفيرة قد لا تكون منضبطة بضوابط اللعبة السياسية، وتحت تأثير الحماس قد تفلت بعض العبارات الموهمة، وهى توثق بالتأكيد، ومع سوء النية المبيتة تقدم في أوقات معينة على أنها دليل الإدانة على الاستعلاء والإقصاء ورفض الآخر، ومن ليس من الجماعة فهو من الشيطان، فليحذر، الكبار والشباب من الجولات القادمة، فأعداؤكم أغنياء وأذكياء وخبثاء، ولديهم من وسائل التشويه والتشويش ما يكفى لتعكير المحيط.

يطاردنا ثم نطارده (*)

في كل بلاد الدنيا تتحدد العلاقة بين الحاكم والشعب على أساس من الثقة المتبادلة، فالشعب يختار من يرى أنه أصلح الناس للقيام بالمسؤولية ومن يرى فيه القدرة على خدمته أكثر وتحقيق مصالحه ومطالبه وأمانيه.

الشعب ينظر في برنامج المرشح فإذا رأى فيه ما يحقق أمانيه اختاره وصوت له، والحاكم من ناحيته يلتزم بوعوده ويحقق لشعبه ما عرضه عليهم خلال فترة الانتخابات.

فالحاكم إذًا هو رجل من أبناء هذه الدولة، التقت عليه إرادة الأمة تلاقيا حرا، واختاره الناس بإرادتهم ليكون حارسا لقيمهم وثوابتهم، قائما على خدمتهم أمينا على مصالحهم، نظير أجر محدد ولمدة محددة. بعيدا عن التزوير والتضليل والتدليس، وإضافة أصوات الموتى الذين فارقوا الحياة منذ نصف قرن.

معنى ذلك أن هنالك عقدا يحكم العلاقة بين طرفين، طرف أول وهو الشعب الذى يمنح المرشح ثقته ويعطيه صوته ويختاره ومن ثم يمكنه من أداء وظيفته التى جاء من أجلها. طرف ثان وهو الحاكم،يقدم الخدمة وينوب عن الشعب في تحقيق مصالحه، وقد قبض الثمن ثقة وتأييدا واختيارا له دون غيره ممن كانوا على استعداد لتولى زمام المسؤولية.

ضوابط العقد بين الشعب والحاكم واضحة المعالم بينة الحدود لا لبس فيها أو غموض. فلا يجوز له أن يستغل موقعه ليحقق مصالح خاصة لنفسه أو لعائلته وأقاربه وحاشيته وأهل حظوته.

المدة المتفق عليها لبقاء الحاكم حاكما ليست مطلقة ولا هى مؤبدة، وإنما مؤقتة بتوقيت معين يعرفه الطرفان الشعب والحاكم معا، وهذه المدة تجدد إن أحسن الحاكم وأجاد، ويعزل إن قصر وأساء، ومن ثم ينفسخ العقد بين الدولة والحاكم.

بفسخ العقد بين الدولة والحاكم يفقد الحاكم شرعيته كحاكم، وبعد أن يحاسب على تقصيره وإساءته يعود لصفوف المواطنين يمارس دوره العادى.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٤ – ٠٤ – ٢٠١١م

بقاء الحاكم في الحكم مستمد من إرادة الشعب ورغبته من ناحية، ومن ناحية أخرى مرتبط بقدرته على القيام بمهامه المحددة ومنوط بتحقيقه لمصالح شعبه.

وهو في موقعه نائب عن الشعب في تنفيذ برنامج معلوم ومحدد، وكل أجهزة الدولة تعينه وتساعده على تنفيذ هذا البرنامج في توافق وتعاون وانسجام، وعيون الشعب عليه تراقبه وتحاسبه ولا تحابيه.

ذلك هو النظام المعمول به في كل الدول التى تحترم نفسها وتحرص على حريتها وكرامة أبنائها.

هذا النظام يسود أغلب بلاد العالم المتحضر، وهو نظام يقوم على الشفافية المطلقة، ويظهر مصدر كل جديد يطرأ في حياة الحاكم من ثروة وممتلكات، ومن ثم يرفع عنه هواجس اللبس وسوء الظن، ويحقق القدر المطلوب من الثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم.

من ناحية أخرى هذه الشفافية تجعل من الشعب سيدا وقاضيا عادلا يدافع عن حاكمه، ويحقق المكانة اللائقة به كمواطن شريف سواء خلال فترة وجوده في موقع المسؤولية أو بعد اعتزاله وتركه لها.

وهذا أمر مطلوب وحيوي جدا لأنه يساعد على تنمية شعور المواطن بمسؤولياته، ويزيد من حجم ولائه وانتمائه لهذا الوطن الذى يسود فيه العدل والكرامة والحرية، ويتساوى في ظله الجميع، ولا يزيد فيه نصيب مؤيد على نصيب معارض، الأمر الذى يظهر التميز الحضارى في الأداء العام وينعكس بالإيجاب على الأمة حكاما ومحكومين، وطنا ومواطنين.

أما في بلاد المسلمين عموما وبلاد العرب الأجاويد على وجه مخصوص فالأمر يختلف.

علاقة الشعب والحاكم عندنا يحيطها حالة من الارتياب الدائم والشك المتبادل، فالثقة مفقودة لأن الحاكم لم يأت إلى الحكم باختيار الشعب، وإنما جاء بطرق ملتوية.

بعض الحكام أخذ الحكم والشعب ميراثا، وغُيِّرتْ له القوانين، وبعضهم أزاح من الطريق أخاه أو أباه، وبعضهم جاءت به أمه، والبعض الآخر جاء به الاستعمار. ومن ثم

فالحاكم مستريب في كل من حوله، في الشعب وفي الحاشية، وفي المحيطين به، ولذلك تعمل أجهزته دائما على الوقيعة بين الجميع حتى ينشغل الكل ببعضهم ويلجأ الكل إليه ليحتكموا إليه وليحتموا فيه، من هنا يتحول الحاكم إلى خط أحمر عند الجميع فلا يجرؤ أحد على انتقاده أو توجيه اللوم إليه.

عندما يأتى الحاكم إلى الحكم غصبا وبلا إرادة من الشعب وبإحدى هذه الطرق الملتوية، تصبح العلاقة بينه وبين الشعب محددة في خيارين اثنين لاثالث لهما،

إما أن يطارد الحاكم شعبه، فيسلط على الشعب زبانيته وأجهزته تروعه وتفزعه، وتتجسس فتحصى عليه هواجسه وخواطر عقله وفكره، وتحسب عليه حركاته وسكناته وتعد عليه أنفاسه، وتملؤه قهرا وقمعا واستذلالا.

جماهير الشعب في الحالة الأولى ليست آمنة في سربها، وليست في عافية من أبدانها، وأغلبها لا يملك قوت يومه.

فقد سرق الحكام وحاشيتهم أقوات كل شعوبهم، ولم يتركوا لهم غير الفتات.

تركوهم في العشوائيات وفي الفقر وفي المرض.

تركوهم للجوع ليفترسهم ويذلهم ويكسر كرامتهم.

تركوهم للحاجة وبلا مأوى.

٧٠٪ من سكان بعض البلاد الغنية لا يملكون بيوتا وإنما يعيشون في بيوت مستأجرة يملكها الأثرياء من رجال الحاشية وأهل الحظوة.

تركوهم يسكنون المقابر.

تركوهم ينحشرون في وسائل المواصلات بشكل يفقدهم آدميتهم.

تركوهم تخنقهم أزمات المساكن والمواصلات وبطالة الشباب والعنوسة والسكر والزيت ومواد التموين المختلفة.

تركوهم لأجهزة الأمن لتمارس معهم أبشع وسائل سلب الآدمية.

تركوهم فريسة لفيروسات الكبد الوبائي والفشل الكلوى والمياه الملوثة والنباتات المسرطنة، وصفقات الدم الملوث التى خرج أصحابها من القضية، كما تخرج الشعرة من العجين.

مارس النظام وحاشيته باستفزاز شديد لا مثيل له أعلى مستويات الجرائم الوطنية والتى تمثلت في اختلاسات النخبة، وصفقات لرجال أعمال مقربين من النظام طالت ثروة الشعب في البترول والغاز وبيع المصانع والقطاع العام وأراضى الدولة، وقد بلغت آلاف المليارات ليتحول كل ذلك إلى جيوب قلة قليلة أصبحت نتيجة تزاوج السلطة ورأس المال تمسك بمقدرات الأمة وتتحكم في حاضرها ومستقبلها.

فإذا سنحت الفرصة وهبَّت رياح الحرية وتمكن الشعب من استرداد كرامته وحريته وإرادته المسلوبة، فإن الشعب يأخذ دوره فيطارد حاكمه انتقاما وثأرا واستردادا لما اغتصب من أموال، وما نهب من ثروة، وما ارتكب من جرائم.

ولنا أن نتصور حاكما يعيش خائفا من شعبه فلا يستطيع أن يتحرك بينهم إلا بحراسة مشددة وبعد تفريغ الشوارع من المارة.

بعضهم يخاف من عشرة ملايين مواطن، وبعضهم يخاف من عشرين مليونا، وبعضهم يخاف من ثمانين مليونا من البشر كلهم يريد أن يفتك به ويتشفى فيه.

تصور حاكما تتعلق بعنقه مظالم لثمانين مليونا من البشر؟ كيف ينام؟

حكامنا ليسوا آمنين في سربهم، مهما اشتدت حولهم الحراسات، فهم خائفون دائما.

ولأنهم لم يكتفوا بقوت اليوم ولا حتى بقوت مائة سنة، وإنما سرقوا أقوات الشعوب كلها.

ومهما قدم له اللصوص الآخرون من وسائل الحماية والتغطية والتمويه وغسيل الأموال، فلن يستطيعوا أن يهنأو بما سرقوا، ولا أن يستمتعوا بما نهبوا، وسيعيشون حياتهم خائفين، تطاردهم أشباح الفقراء الذين أكلوا أرزاقهم، والمرضى الذين تسببوا في إيذائهم ومنعوهم من حقهم في العلاج، وأهل العشوائيات وسكان المقابر، ومهما استطاع هذا الحاكم أن يُهِّربَ كل المليارات التى سرقها من شعبه ومهما استطاع هذا

الحاكم أن يجد تخريجة قانونية يهرب بها من عدالة الأرض، فماذا سيقول لربه يوم يلقاه؟ وكيف سيهرب من عدالة الله؟

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما نام ملء جفونه تحت شجرة بغير حراسة فرآه رسول كسرى وقد جاء إليه برسالة فقال " حكمت فعدلت فنمت ياعمر".

الواقعة وثقت في مصادر التاريخ وصورها شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته الجميلة حين قال:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا	بين الرعية عطلا و هو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها	سورا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقا في نومه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا	ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره	من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنْتَ لما أقمْت العدل بينهم	فنمْتَ نوم قرير العين هانيها

ما حدث ويحدث إنما هو عبرة للناس تكررت في التاريخ وتتكرر، فهل يستفيد بها الطغاة؟ أم أنهم يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٦).

إننا نأسف لما يحدث عندنا، فقد كنا نتمنى ألا ينتظرهم هذا المصير الأسود.

محاكمة عبد الجدار العازل (٣/١)

موظف بدرجة رئيس جمهورية(*)

الجدار العازل الذى شرع الرئيس المخلوع في بنائه لم يكن هو جدارالعار الوحيد، وإنما سبقه جدر كثيرة نال الشعب المصري منها حظه ونصيبه، فكانت تمثل على حائط الوطن لوحات العار التى تشهد بفرعنة النظام واستبداد حاشيته وفساد مؤسساته، بالطبع الفساد موجود في كل الأنظمة العالمية بدرجات متفاوتة، ولكنه استثناء وليس قاعدة، بينما نظام المخلوع كان الفساد فيه هو القاعدة وليس الاستثناء، فقد استطاع المخلوع أن يصنع فسادا تحت كل طوبة في بناء الوطن، ومن ثم فعبد الجدار لقب يستحقه الرئيس المخلوع بجدارة، فالرجل طوال ثلاثين سنة عجاف لم يصنع للشعب المصري جدارا واحدا وإنما بنى جدرا من الفساد والاستبداد تَحُول بين الشعب وبين الحرية،وتحبسه خلف متاريس التخلف في كل المجالات، فلا تعليم ولا صحة ولا مياه نقية ولا طعاما صحيا ولا مستشفيات تعمل بكفاءة، ولا وزراء من ذوى الكفاءات، ولا حرية ولا كرامة، حتى ماتت واختفت تماما كل أنواع الإبداع. كثيرة هى تلك الجدر التى جرَّتْ مصر جَرًّا من مقدمة الصفوف لتكون في ذيل القائمة.

جدر الفساد التى أرهقتنا وعطلت مداركنا وأحالت مصر من دولة رائدة في المنطقة إلى دولة بوليسية بالدرجة الأولى في الداخل، بينما في الخارج فقدت دورها وتعيش على هامش المحيط الدولى والإقليمي، الأمرالذى جعله يتحول من رئيس دولة محترمة إلى مجرد موظف في الوكالة اليهودية بدرجة رئيس جمهورية. يستحق عن جدارة لقب الكنز الاستراتيجى بلغتهم، أوعبد الجدار العازل الحامي بلغتنا.

المستبد الجاهل هو الذى يأكل من خيرها ويرتفع فوق أعناق أبنائها ولا يعرف طبيعتها ولا طبيعتهم، يظنهم هملا، لكنهم بفطرتهم أذكى من كل مؤسسات التضليل والتدليس التى تساعده.

أبناؤها يختلفون فيما بينهم وتتباين وجهات نظرهم، لكنهم في اللحظة الحاسمة يتفقون على حماية القضايا الكبرى ويلفظون كل دعى يثير الفتن ويدعو للقطيعة ويعمل

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٤ – ٧ – ٢٠١١م

وفق أجندات خارجية، وغْيُهم كامِنٌ في فطرتهم يظهر في اللحظة الحرجة وإنْ شاعت بينهم الأمية.

مصر المحروسة "كوطن" عودتنا على المقاومة، هى تمرض لكنها لا تموت، تفتقر إلى حد العشوائيات، لكنها لا تفرط في كرامتها، ربما يجوع بعض أبنائها ويعتدى بعضهم على بعض، لكنها تصبر وتتماسك عند الشدائد وتتحامل على جراحها، وعندما تستشعر أن حاكما يريد إذلالها فإنها تثور عليه، وتعود عفية قوية تثأر لأبنائها وتحطمه وتحطم معه جدر التخلف التى أراد أن يحبسها خلفها.

وبرغم كم الجرائم التى ارتكبت في حق هذا الوطن فقد ظل حيا يقاوم، صابرا على لأواء الجراح، مدخرا غضبه للوقت المناسب، وقد ثار وغضب عندما جاوز الظالمون المدى.

حجم الفضائح المتاحة حتى الآن خصوصا بعد الثورة على عبد الجدار المخلوع، يحتاج إلى تدوين ليعرف الناس حجم مصر الحقيقي في طاقتها وقدرة أبنائها وإمكانياتها التى سرقت، وثرواتها التى تبددت، ومع ذلك ظلت مصر على قيد الحياة، رغم كل محاولات القتل العمد التى رسمها أعداؤها ونفذها بالأمس وينفذها اليوم البازار الجديد، وهم بعض رجال الأعمال ممَنْ منحتهم مصر خيراتها ورفعتهم من وضاعة.

الذين يملأون الآن مزرعة طرة، هم رواد الفساد ورؤوسه ورموزه، ورؤساء فرقه وتنظيماته وشعبه، ولهم خارج السجن صبيان لم تصل إليهم يد القانون بعد، ولكن دورهم قادم، هؤلاء الصبيان يجب أن نعرفهم بلحن القول ونعرفهم بسيماهم، وهم طوائف.

طائفة منهم تجيد اللعب على كل الحبال، تقول في العلن ما تبطن عكسه، تدعى المحبة وهى تكرس الكراهية، وتتحدث عن حب مصر وهى تخطط للفتنة والتقسيم، بعض هؤلاء الصبيان لا يزال طليقا يمارس العبث السياسي والطائفي، ويتآمر ليُدْخِل البلد كلها في نفق مظلم، ويلعب بإرادة الشعب، يتحدث عن الحرية وهو الذى يفصل دستور الاستبداد، يلعن الطغيان وهو يؤصل له ويضع له القواعد، يتحدث عن احترام إرادة الأمة وهو يغتالها، ويسب الطائفية وهو مع صديقه يخطط ويفنن لها.

طائفة أُخرى تُخَدِّمُ على أهداف الطائفة الأولى بالمال والإعلام الطائفي فتستأجر من سوق الثقافة تاجرا بالكلمة والقلم في الصحف الطائفية، وبائعا متجولا للقنوات

الفضائية، وسمسارا يعمل وسيطا بين جهات التمويل الخارجية "والتى أشارت إليها السفيرة الأمريكية الجديدة" ومنظمات "الخداع المدنى" والديمقراطى.

البازار الجديد يشكل أضلاعه مجموعة من أصحاب رأس المال المرتبطة مصالحهم بالنظام القديم، والذين يخشون من استمرار نجاح الثورة، ويرعبهم أن تأتى الانتخابات القادمة برئيس جديد يمثل إرادة الشعب حقيقة، وبرلمان حر يفتح الملفات القديمة ويكشف بقية شبكات الفساد التى سرقت ثروة الشعب واغتنت على حساب الفقراء وأهل العشوائيات، ومن ثم فهم يغررون ببعض الشباب الطاهر أصحاب النوايا الطيبة والمقاصد النبيلة ممن لا خبرة لهم ليشوهوا بهم وجه الثورة الناصع، ويجندون أيضا فلول البلطجية القديمة التى كانت أجهزة أمن الدولة تستعملهم من قبل.

هدف واحد فقط يعمل من أجله هذا البازار، هو تعطيل العملية الديمقراطية وتأجيل الانتخابات والقفز على إرادة الشعب، وبصحفه وقنواته الفضائية ومليشياته وبلطجياته القديمة التى كانت تعمل مع الداخلية وجهاز أمن الدولة في عصر عبد الجدار المخلوع يخطط لإثارة القلاقل وإظهار البلد في حالة من الفوضى العارمة، ويجتهد في إجهاد الرأى العام، وإشغاله بالهجوم على القوات المسلحة والمجلس الأعلى ورئاسة الوزراء، ويهدد ويُخَوِّفُ باحتلال بعض المنشآت العامة حينا، وحينا آخر يستعمل فزاعة التخويف من الإسلاميين،الإخوان والسلف القادمين بلياليهم السود، حيث سيفرضون النقاب على المرأة، واللحية الطويلة والجلباب القصيرة على الرجال، ويضربون الجزية على النصارى، ويغلقون النوادى والبنوك ويحرمون الرياضة ويطبقون حد قطع الأذن وقص الشارب على عم جرجس، ويعودون بنا إلى عصر الحرملك من جديد. النغمة التى يمارسها أصحاب البازار الجديد، هى هى التى مارسها سابقا هؤلاء الذين كانوا سببا في فرعنة عبد الجدار المخلوع حيث حرثوا له أرض الاستبداد ومهدوا له بيئة الفساد وأحنوا له رؤوس العباد فطغى وبغى واستبد وتفرعن.

شباب الثورة الحقيقيون متحضرون ويرفضون التخريب وتعطيل الحياة، وهم الذين كانوا يحمون المنشآت العامة ولا يحتلونها، وعندما أراد بلطجية النظام أن ينهبوا مقتنيات المتحف المصري وأن يحرقوه تصدى لهم شباب الثورة وردوهم على أعقابهم، ولم يكونوا تابعين لا لساويرس ولا ممدوح حمزة ولا غيرهم،، ولم يلتحم الشعب معهم ولم يلتف حولهم إلا لهذه الأسباب، وفكرهم لا يحمل أبدا ثقافة العبث بتخريب المنشآت ولا احتلال الميادين العامة ولا تعطيل مترو الأنفاق ولا السيطرة على قناة السويس؛ لأن

هذه المنشآت ملك للشعب المصري الفقير، وأي إضرار بها يعد جريمة إرهاب وعدوان صارخ على ممتلكات الشعب وماله العام.

شباب الثورة ظهر في أخلاقهم أجمل وأنبل ما استقر في الوجدان المصرى من عناصر الأخلاق الكريمة والسلوك الحضارى، إنهم لا يمكن أن يبيعوا أنفسهم أبدا، ولن يتحولوا إلى بلطجية تابعين لبعض المرضى بحب الظهور من رجال الأعمال الفاسدين الذين يتعشقون الصدارة ليفرضوا أنفسهم ويتجاوزون إرادة شعب بكامله ويبحثون عن دور. الثوار الحقيقيون لن يكونوا أبدا مطية ودمى تنفذ الإرادة الشريرة لمن يملكون المال ولا يملكون معه الضميرالوطنى والخلق.

شباب الثورة الحقيقيون يدركون جيدا أن أي تأخير للعملية الديمقراطية إنما يعنى مزيدا من الفوضى ومزيدا من معاناة الشعب ويمنح فلول النظام المخلوع الفرصة لثورة مضادة وما يحتاجونه من وقت لينقضوا على الثورة والثوار. الثوار الحقيقيون لن يشاركوا في تخريب الثورة، ولا في تعطيل المسيرة الوطنية للديمقراطية، ولا يهددون مصالح البلاد والعباد، البازار الجديد هو الذى يريد ذلك ويسعى إليه ليترحم الناس على عهد الرئيس المخلوع ويتمنون عودته.

ما معنى أن يجتهد البازار الجديد في استبقاء نظام عبد الجدار المخلوع وإثارة الفوضى وتعطيل مسيرة الديمقراطية رغم قيام الثورة واختيار الشعب؟!

كل الدلائل تشير إلى أن القناعات الزائفة لدى الرئيس المخلوع كانت كفيلة بتحديد موقفه الرافض والمعادى شخصيا،وكذلك موقف منظومته من كل اتجاه شريف يرفض التبعية ويتبنى استقلال الإرادة، ومؤسسة الرئاسة لم تكن سوى وكالة تابعة لتل أبيب، أو مكتب لقيادة مصر برئاسة موظف كبير بدرجة رئيس جمهورية، مهمته الأساسية حماية الشخصية الإسرائيلية حيثما حلت أو ارتحلت؛ لذلك فالشعب يريد من المجلس الأعلى للقوات المسلحة أن يظل على وفائه للثورة التى احتضنها منذ البداية، وأن يعمل وبسرعة على محاكمة كل رموز عبد الجدار الحارس الحامي. ومطاردة أهل البازار الفاسد الجانى الذين يثيرون الفوضى ويخططون لثورة مضادة؛ لأنهم ببساطة امتداد لعبد الجدار المخلوع، وأذناب لنظامه الفاسد.

محاكمة عبد الجدار العازل (٣/٢) (*)

مصر اليوم تتعرض لأشد حالات المعاناة، ومركب الوطن تتقاذفها أمواج الانتهازية السياسية المدعومة بالمال الطائفي والخارجي

ومن ثم فالمشهد السياسي في مصر ليس حراكا صحيا يدعو للطمأنينة، وليس ممارسات فجة ومستفزة على طريقة الحزب الوطنى تَعَوَّدَ الناس عليها تحت مسمى الديمقراطية، ما يحدث هو نوع من البلطجة السياسية جديدة على المجتمع المصري، تحمل في أحشائها جنينا للفوضى غير شرعى، ينبئ بخطر قادم وكبير قد لا تتحمله الظروف الوطنية.

وبالطبع المجلس العسكري يدرك حساسية دوره وعظم مهمته، وهو المكلف بحماية الثورة وحماية مسارها العام من عمليات اللصوصية السياسية وألاعيب الصبيانية التى يمارسها المصابون بعشق الذات وجنون العظمة، وأعتقد أن أعضاء المجلس العسكرى على دراية بعمليات العبث التى تهدد أمن البلاد، وعليهم ألا يخضعوا لكل عمليات الابتزاز التى يمارسها عشاق الظهور الذين يحاولون أن يرتدوا ثوب الزعامة معتمدين على الإعلام الطائفي والدعم المالى القادم من الخارج لشراء الضمائر والذمم.

التسريبات التى توحى بالاستجابة لضغوط الأقلية يجب أن تتوقف؛ لأنها انحياز ضد الدستور وإرادة الأمة، وفرض لوصاية الأقلية على الأغلبية، وكأننا من السطر الأول في هذا الدستور نزرع فيه كل عوامل بطلانه وتفجيره من الداخل، والحديث عن مبادئ حاكمة للدستور مهزلة لم تحدث لأي دستور في العالم وأنها تشكل التفافا على إرادة الشعب وعائقا يحول دون تنفيذ إرادته في إجراء الانتخابات في موعدها المحدد وإقامة حياة ديمقراطية وهذه الأمور يجب أن يكون لها أسبقية باعتبارها المهمة الأولى في مهام المجلس العسكرى. الأمر الآخر الذى يجلب لمصر الاستقرار ويدفع الناس إلى الانصراف إلى العمل هو الاستجابة لمحاكمة الرئيس المخلوع عبد الجدار العازل حيث تبعث هذه المحاكمة برسالة تطمين داخلية تشعر الناس أن الثورة في أمان وأن المجلس الأعلى للقوات المسلحة يسهر على تحقيق العدالة وفي مقدمتها هذا الأمر الذى يتماس مع مشاعر الغضب التى تسيطر على الناس من تباطؤ العدالة في محاسبة من قتلوا أبناءه، بالطبع

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢١ – ٠٧ – ٢٠١١م

نحن لسنا قضاة ولكن من حقنا كمواطنين أضيروا في أموالهم وأبنائهم وسمعة وطنهم أن نحدد على الأقل ميادين الخسائر التى حلت ببلادنا وأطاحت بآمال الكثيرين من أبنائها وحولتنا من دولة محترمة إلى وطن مشوه مثخن بجراح غائرة في كرامته تبدأ بحرمانه من النهضة وحرمان أبنائه من أبسط حقوقهم الإنسانية في التعليم والصحة والحماية والأمن.

التهم التي يمكن أن توجه لعبد الجدار المخلوع كثيرة وأضرارها وآثارها القبيحة شملت كل ميادين الحياة. ما معنى أن تفجر طائرة مصرية في الأجواء الأمريكية وعلى متنها ٢٠٠ راكب وفيهم ٢٣ من خيرة شباب مصر، ومن أعلى كفاءات القوات المسلحة، ثم لا ينطق رئيس الجمهورية بكلمة واحدة، ولا يحدد القاتل جنائيا حتى الآن؟! ما معنى أن يفسد مصر بكاملها وأن يصيبها بحالات من القحط السياسي والاقتصادى والعلمى والأدبي والخلقي، وأن يحولها من دولة رائدة إلى دولة معاقة تعيش على المعونات وتنتظر الأصدقاء والأشقاء الصغار منهم والكبار ليعطوها ويمنوا عليها ويفرضوا شروطهم! وعندما تثور الأمة عليه وتخلعه يجلس بدلا من السجن في مستشفى ٧ نجوم بحجة المرض؟!

بالمناسبة نحن لا ننكر عليه حقه في العلاج، ولكن لماذا لا يعالج في مستشفى الدمرداش أو مستشفي القصر العينى أو مستشفي الخانكة ويجلس في طابور الانتظار كما يفعل الناس، ويدخل غرفة الطبيب فيطلبون منه أن يشترى القطن والشاش والميكركروم وسرنجة الحقنة ومادة التخدير ليتذوق هو وحاشيته طعم المعاناة والمآسى والكوارث الصحية التى سببوها لشعب بكامله سرقوا قوته وثروته وأذلوا كرامته وفرطوا في دوره وأضاعوا هيبته في المحافل الدولية؟!

الأموال التى كانت تنفق على حاشيته في الإعلام والصحافة وأجهزة الأمن كانت تكفي لبناء أحدث المستشفيات وتشييد المصانع للإنتاج وتطوير الجامعات وإحداث النهضة؟ ما معنى أن تبلغ عمولة أحد رؤساء مجلس إدارة صحيفة يومية من الصحف التى تسمى قومية ١٨ مليون جنيه في السنة، فضلا عن المرتب والبدلات، أي أن هذا الصحفي المداح يتقاضى يوميا ٣٦ ألف جنيه كل صباح ما معنى هذا؟!

ما معنى أن يكون مرتب خريج الجامعة لا يزيد عن أربعمائة جنيه شهريا بينما يتقاضى مذيع أو مقدم برامج في تلفزيون النظام ١٢ مليون جنيه سنويا بمعدل مليون في الشهر من جهاز يحقق خسائر تفوق ١١ مليار سنويا،؟!

الأموال التى نهبها هو وحاشيته حرمت فقراء مصر وهم الأغلبية الساحقة من أبسط حقوق العلاج والتعليم ومياه الشرب النقية، فكيف يتميز عليهم وهو اللص الكبير وحتى بعد خلعه؟!

ما معنى أن يتدخل جهاز أمن الدولة السابق في مصر لقمع أي محاولة جادة لزراعة القمح الذى يكفينا ذاتيا؟ لقد حدث ذلك فعلا ومع أكثر من باحث وأكثر من مؤسسة علمية قامت بتجارب ناجحة ومذهلة، كان الإنتاج فيها أضعاف أضعاف الإنتاج العادى ثم تم تجميدها كما تم تشريد الباحثين، فلصالح مَنْ كان يحدث ذلك..؟! ما معنى أن تكتشف الدنيا كلها فساد المواد الزراعية المستوردة من إسرائيل وأنها مسرطنة، وقد سببت كوارث صحية للشعب المصرى ثم لا يحاسب الوزير الذى كان سببا فيها ولا يمس له طرف خلال حكم المخلوع؟! وهل يمكن أن يكون المخلوع شريكا في المسؤولية؟!

ما معنى أن يُصَدِّرَ الغاز إلى إسرائيل بثلث الثمن الذى يدفعه المواطن المصري؟!

ما معنى أن تُصْدِرَ المحاكم المصرية حكما ببطلان صفقة تصدير الغاز لإسرائيل ثم لا تنفذ الأحكام، وتستأنف الحكومة، وهل هى حكومة مصر أم حكومة تل أبيب؟!

ما معنى أن يهين الجاسوس الإسرائيلي عزام عزام الشعب المصري في ساحة القضاء وأثناء المحاكمة، ويتحدى الهيئة القضائية بأنه سيطلق صراحه مهما فعلوا، ثم يتم ذلك فعلا وبقرار سيادى؟!

وهل لذلك معنى آخر غير أن مؤسسة الرئاسة في آواخر عهدها ببساطة شديدة لم تكن سوى وكالة تابعة لتل أبيب، أو مكتب لقيادة مصر برئاسة موظف كبير بدرجة رئيس جمهورية؟! على أن تكون مهمته الأساسية حماية الشخصية الإسرائيلية حيثما حلت أو ارتحلت، بجانب أن يكون عبد الجدار الحارس الحامي.؟!.

محاكمة عبدَ الجدار العازل (٣/٣) (*)

المجتمع المصري في عهد عبد الجدار العازل (الرئيس المخلوع) أصيب في جسده السياسي بمجموعة من البثور تحولت بفعل الاستمرار ولمدة ثلاثين سنة إلى عُقَدٍ وعاهات شوهت الحياة في كل ميادينها وبخاصة الحياة السياسية، حيث حولتها إلى ساحة للبلطجية تنال من كرامة الناس وتغتال حقوقهم وتصادر حرياتهم

المسرح السياسي خلا تماما من اللاعبين، ولم يبق فيه إلا النجل وحاشيته وخدمه وأتباعه

الإعلام العام والخاص ومعه سيد قراره كان يتحرى إيقاع طبلة أحمد عز ورقصة أنس الفقى ليخدم على المطلوب ويقدم في جسارة وقحة نخب تزوير إرادة شعب بكامله.

في ظل هذه الفوضى تتقدم المصالح الخاصة ويغيب الوطن عن الواجهة ويحتكر مفهوم المواطنة إلا على منتسبى الحزب الوطنى ولجنة السياسات، وقد لعبت مؤسسة الرئاسة ومعها أجهزة أمن الدولة دورا خسيسا في إبعاد الشرفاء عن الفعل السياسي، ولم تكتف بإقصائهم فقط، وإنما عزلت واعتقلت وسجنت وعذبت، وخلقت شروخا وجراحا في الشخصية المصرية، حتى أضحى الانتساب إلى السياسة يعنى غياب الضمير وبيع الذمم والفساد الخلقى والاجتماعي، وأغلب أهل الكفاءات والشرفاء من أبناء الوطن إما مطاردون فيه أو مبعدون عنه.

سقوط المجتمعات والحضارات لا يتأتى عادة إلا عند ظهور هذه الفوضى حيث يُوسَّد الأمر لغير أهله فيؤخر أهل الكفاءة ويقدم أهل الولاء ويبرز الأقزام ويصعد الهلافيت ويسطع نجم من لا نور له ولا خير فيه.

حالة الانكسار النفسي هذه تصيب الناس بإحباط يشل الإرادة ويشيع روح العجز واليأس والهزيمة، والكلمة هنا كسلاح للمقاومة قد تخرج كطلقة المدفع مدوية لاتبالى برد فعل الطاغية، لكن كهنة الإعلام وزبانية النظام سرعان ما يتجهون إليها ليفرغوها من محتواها ويقللوا من شأن صاحبها، وكثيرا ما يلصقون به تهم التطرف أو

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٨ - ٠٧ - ٢٠١١م

يلحقونه بأحد التيارات ليصنف، ومن ثم يتم التصرف معه بالاعتقال أو الاغتيال المادى أو المعنوى، ولأجهزة النظام في ذلك المجال باع طويل، وشهود الإثبات حاضرون والملف مملوء بالتهم وهى مكيفة أمن دولة عليا وكل شئ جائز وكل شئ جاهز. المستبد عادة لا يتمتع بإمكانيات فذة وليس لديه "كاريزما" معينة، وإنما هو يجد ظهورا منحنية فيمتطيها.

مستبدنا عبد الجدار المخلوع إمكانياته العقلية والإدارية وحتى أقصى طموحاته كانت متواضعة، وكان هو شخصيا يعرف ذلك جيدا، وقد سمعت بأذني ممن كانوا يعرفونه ويخالطونه ويعملون معه، أن أقصى ما كان يتطلع إليه أمله أن يكون وكيلا لوزارة الشباب أو سفيرا في لندن.

محدودية المطامح ليست ذنبا وإن كانت عيبا، لكن عبد الجدار العازل الحامي لم يكن فقط محدود المواهب، وإنما كان يمارس سياسة التقزيم والتأزيم لمصر شعبا ووطنا، ومن ثم فلا يعنيه أمر الوطن ولا تؤرقه قضاياه، لا من قريب ولا من بعيد.

أستاذنا الدكتورعبد الغفارعزيز كان عميدا لكلية الدعوة جامعة الأزهر وعضوا في مجلس الشعب، وكان يكتب عمودا في صحيفة الوفد تحت عنوان " رسالة من شيخ معمم إلى رئيس الجمهورية، وكانت أجهزة الأمن قد اختارته ضمن العلماء الذين يحاورون شباب الجماعات الإسلامية في المعتقلات.

نظرة الشباب إلى ألئك العلماء الذين يستجلبون إلي السجن ليتحاوروا معهم كانت نظرة استخفاف وانتقاص، فهم في نظرهم علماء شرطة وعلماء سلطة، ومن ثم فلن يكون للحقيقة مكان فيما يقولون.

طبيعة الدكتورعبد الغفار عزيز رحمة الله عليه كانت قريبة إلى النفس فهو ودود وبسيط ومثقف جدا وابن بلد كما يقولون، ذهب الرجل ولأول مرة ليحاور الشباب في المعتقل، لكن بعضهم جلسوا وأداروا له ظهورهم، ومع ذلك تحدث الرجل إليهم واستمع لهم وناقشهم وأقر لهم بكثير من النقاط وخالفهم في غيرها فاستمعوا وأنصتوا وتفاعلوا معه، لكن أجهزة أمن الدولة لم تكن راضية عن هذا الأسلوب المنطقي، فإما أن تتحدث بلسان النظام وتتبنى رؤيته، وإما القطيعة والعزل، فقاطعوا الدكتور عبد الغفار وقطعوا عنه كل خطوط الهواتف.

ظل الهاتف شهورا معطلا ولم تجد نفعا كل محاولات هيئة التليفونات، ورغم عضويته في مجلس الشعب فقد كان التليفون يشتغل ساعة ثم يعطل بقية الأيام، وفى يوم ما وعلى غير العادة دق جرس التليفون، وكان على الخط من الجهة الأخرى مكتب الرئيس، حيث أبلغ د. عزيز بأنه مطلوب لمقابلة الرئيس وحدد له التاريخ والساعة ومدة اللقاء، وستأتى سيارة مع مرافق تنقله إلى قصر الرئاسة.

في الموعد كان كل شئ على مايرام، التقى الدكتور عبد الغفار بالرئيس وامتد اللقاء عن الموعد المحدد أربعين دقيقة إضافية، الرئيس ناقش د. عزيز في كثير من الأمور التى كتبها في عموده، وفي نهاية اللقاء اشتكى له من ضغوط الإسلاميين وإصرارهم على الحديث عن تطبيق الشريعة. ونصحه د. عزيز أن يعلن عن تكوين لجان لتطبيق الشريعة ليتخلص من هذه الضغوط، وبذلك يكون قد سحب البساط من تحت أرجلهم.

الفكرة لاقت صدى واستحسانا في نظر الرئيس وكانت رائعة، وتعجب هو نفسه كيف لم تخطر له على بال ولم تخطر حتى على بال أولاد ال......... الذين معه، وودع الدكتور عزيز وانتهى اللقاء وركب الضيف سيارته عائدا إلى بيته، غير أن الحرس على بوابة القصر طلبوا من السائق العودة مرة أخرى لأن الرئيس يريد الضيف ثانية.

وعند باب المكتب كان الرئيس في الانتظار ليقول للدكتور عبد الغفار عزيز جملة واحدة:" يا دكتورعزيز نَسِينا شيئا مهما، نسينا أمريكا، لو أمرت بتكوين لجان لتطبيق الشريعة ولو صورية كانت أمريكا تخرب بيتى "، د. عزيز لم يعلق بغير كلمة واحدة "سلامة بيتك من الخراب يا ريس" الواقعة سمعتها من لسان أستاذى والمشرف على رسالتى للدكتوراه د. عبد الغفار رحمه الله. وهى تكشف مدى العجز والارتعاش الذى كانت تعيشه عقلية الرئيس حين وقعت أسيرة الخوف من الأمريكان.

والمواءمات السياسية وحسابات التوازن شئ آخر غير الوقوع في أسر الخوف والعجز المعيب وتسليم مفاتيح الوطن لقوى خارجية مهما كانت صداقتها.

قُرب موعد المحاكمات يدفعنا أن نطرح بقية الأسئلة الحرجة وهى أسئلة العار الذى كسي بها المخلوع وجوهنا جميعا يوم أن كان قابعا على صدور كل المصريين.

ما معنى أن يبتلع الرئيس شخصيا إهانة توجه إليه خلال مشادة مع وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسبي ليفنى دون أن ينطق ببنت شفه ثم يشكوها إلى أولمرت قائلا بأنها

تجاوزت جميع الخطوط الحمراء معى ولكنى حريص على العلاقات مع إسرائيل،! فيقول له أولمرت "ربنا يطول عمرك ياريس والله ما نعرف من غيرك حنعمل إيه"؟! ما معنى أن تعلن تسيبي ليفنى أنها ستضرب غزة أثناء وجودها معه في القاهرة؟! ما معنى أن يقول الرئيس المخلوع أثناء حرب غزة للرئيس الفرنسى "يجب ألا نسمح للمقاومة بأن تنتصر"! وقد ذكرها الأخير ثلاث مرات ولم يصدر تكذيب من مصر؟! ما معنى أن يُلْصِق بمصر عار بناء الجدار الفولاذي العازل لحصار الفلسطينيين الشرفاء وأن تغلق المعابر وأن تدمر لهم أنفاق التنفس الذى تمثل لهم شريان الحياة الوحيد؟! ما معنى أن يبعث الرئيس برسالة ليطمئن فيها على صديقه الوزير الإسرائيلي السابق إليعازر بنيامين الذى خالف القانون الدولى وأمر بقتل الأسرى المصريين في حرب ١٩٦٧م؟! الرجل العنيد جدا تجاه شعبه، كان لَيِّن العريكة جدا ومستجيبا للغاية بالنسبة لأمريكا وإسرائيل، وكانت لديه قناعة أن الطريق إلى قلب أمريكا والحصول على كامل رضاها لابد أن يمر بتل أبيب.

لم يكن الأمر مجرد أفكار تراوده، وإنما كان منهجا وثقافة له ولمساعديه ولكل مؤسسة الرئاسة، فالناس على دين ملوكهم.ومن ثم فقد كان الرجل كطين الصلصال يشكلونه وفق ما يريدون، أو كالماء السائل يلونونه باللون المطلوب لهم، ويملأون به أي إناء فارغ. روح العداء كانت تبدو واضحة من الرئيس المخلوع وكذلك حاشيته لكل اتجاه شريف يرفض التبعية ويتبنى استقلال الإرادة، لأن مؤسسة الرئاسة لم تكن سوى وكالة تابعة لتل أبيب أو مكتب لقيادة مصر، برئاسة موظف كبير بدرجة رئيس جمهورية مهمته الأساسية تحقيق مصالح إسرائيل وحماية الشخصية الإسرائيلية حيثما حلت أو ارتحلت ولذلك كان يمثل الكنز الاستراتيجي في نظرهم بينما هو عند المصريين عبد الجدار الحارس الحامي.

سيادة الرئيس المخلوع.. هل يؤلمك ذنبك؟ (*)

تابعت كما تابع الملايين غيرى أولى جلسات محاكمتك يا سيادة الرئيس المخلوع. وأحسست بملكة التمثيل تظهر في تمارضك وأنت تحاول استدرار عطف الملايين كما نصحك محاموك.

الاتهامات التى وجهت إليك يا سيادة الرئيس وأنكرتها جملة وتفصيلا هى جزء من مئات الجرائم في حق هذا الشعب الذى أولاك ثقته فخنت أمانته.

ربما استطاع محاموك بالحيل الخادعة أن يبتعدوا بعنقك عن حبله المشنقة، وربما استطاعوا ببراعتهم وألاعيبهم أيضا أن يفلتوا بك من نصوص العقاب.

وربما استطاع مساعدك وحامل أسرارك زكريا عزمى أن يعدم كل الأدلة التى تدينك وتدينه وخاصة أنه ظل يداوم في مكتبك لمدة أربعة أشهر بعد القبض عليك وقبل القبض عليه.

وربما كانت قصور النصوص في قوانين البشر لا تستطيع ملاحقتك لما فيها من خلل؛ لأنها في نهاية الأمر فكر بشرى يخضع مهما سما وارتقى لعوامل الزمان والمكان، ومن ثم فهو يحمل بالضرورة طابع الأرض، وطابع الأرض هو العجز والنقص والمحدودية، ومن ثم فهيئة المحكمة التى تستعرض جرائمك وفسادك مهما بلغت دقتها لن تحيط بكل ذنوبك وجرائمك، فهل تترك لقلبك العنان ليفضى بأسرار جناياته لربك قبل أن تغرب شمس العمر وتنفد أنفاس الحياة..؟ هل سيعود إليك ضمير فطرتك ليذكرك بموقف ينتظرك في محاكمة قاضيها حكم عدل وصحائف الجنايات فيها ليست ملفقة أو مزورة كما كان يفعل جهاز أمن دولتك وحزبك الوطنى، فهل أعددت العدة لذلك الموقف...؟ أم أنك وأبناؤك وحاشيتك لم تستوعبوا الدرس بعد.

محاكمة اليوم –وإن أطلقوا عليها محاكمة العصر– ستنتهى قطعا، وحتى لو حاكموك بما تستحق وبما أنت أهله فسينتهى عقابها إما بالموت أو بانقضاء المدة أي الأجلين أقرب؟

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٤ – ٠٨ – ٢٠١١م

لكن ماذا ستقول لربك غدا عندما يقف ملايين من الفقراء والأرامل والأيتام ومرضى المواد المسرطنة والفشل الكلوى والتهاب الكبد وملايين الضحايا الآخرين من شعب مصر ممن لا يجدون لهم مأوى ترتفع أصواتهم منادية: "يامن لا يزول ملكه اقتص لنا ممن نزعت الملك منه فزال ملكه،

فماذا ستفعل وماذا ستقول....؟ وهل ستنكر الجرائم أيضا جملة وتفصيلا كما فعلت بالأمس؟ أم أن ذنبك يؤلمك...؟ محبس الغد يا أبا علاء يختلف عن محبسك في شرم الشيخ أو في مستشفى القاهرة الكبرى.

المحبس هناك مؤبد بلا نهاية ولا موت فيه، وهو ليس محبسا يدلل فيه الكبراء كما يحدث لك ولأبنائك وحاشيتك. المحبس هناك تضيق فيه أنفاس المجرمين،ويتوالى عذابهم بلا توقف،ويتمنون الموت فلا يجدونه، وإن كنت لا تعرفه فنذكرك به حتى لا تخدع في الحياة مرتين:

مرة هنا بزهو السلطان الذى نزع منك، وألاعيب هيئة الدفاع التى تتولى أمرك الآن؟ ومرة أخرى بنسيان الآخرة وغياب المصيرالمشؤوم عن وعيك وذاكرتك.

وهناك يا أبا علاء لا دفاع يتلاعب ولا تقارير تُزَوَّر ولا ثغرات في نصوص القانون يفلت بها المجرمون من العقاب.

اقرأ إن كنت تقرأ، وإلا فليقرأ لك ولدك جمال الذى ظهرت عليه ظاهرة استشعار التدين فجأة،فظهر في محبسه يحمل مصحفا. في المصحف آيات تتلى تقول: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ. وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ. أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ. أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف ٧٥-٨٠). أتمنى أن تتلى على مسامعك، فلعلها تعيد إليك ضميرك الغائب فتتذكر ربك وتتوب إليه وترد على الأقل أموال المصريين التى نهبتها وهربتها، ولعل ذلك يخفف عنك ذل الموقف هناك ويعفيك من بعض التبعات، لكن ذلك كله مرهون بتوبتك قبل أن تلفك أكفان الرحيل.

الأبوة السياسية بين العرب وبلاد الملايو (٢/١) (*)

الرئيس والتصالح مع الذات:

* لا يعرف قيمة الأمن في البلد إلا مَن تعرضوا للكوارث الطبيعية، أو لكوارث الحروب أو من اختلفوا مع الحاكم في بلاد العرب الأجاويد فعاشوا وراء الشمس إما في ظلمات السجون، أو مشردين ومطرودين من بلادهم ومُفزَّعِين.

ولا يعرف قيمة العافية في البدن إلا من عانوا من المرض ولم يجدوا إلى الاستشفاء سبيلا، أو وجدوا ولم يكن لديهم القدرة على دفع تكاليف العلاج ففقدوا بعض مظاهر العافية.

ولا يعرف قيمة الاستغناء بما عنده من القوت ولو ليوم واحد، إلا من أصابتهم الجوائح ونالت من كرامتهم الحاجة فاضطروا لسؤال الناس.

من هنا ندرك نفاسة معنى قوله صلى الله عليه وسلم "من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها "

ولأهل الوجدان والذوق في هذا الحقل المعرفي كلام جميل في معناه رفيع في مستواه، حين يتأمله المرء ويفكر فيه ينقله إلى عالم من الطمأنينة والسعادة، وينتشل النفس من أوحال مادتها وغرائزها إلى عالم من الجمال الأعلى يجعل الإنسان يعيش فوق الحياة لا فيها، فتشعر أن بعض رياح الجنة هبت عليك بنسيمها الأخاذ، وأن نافذة منها فتحت لك لتطل من خلالها على أهل النعيم الذين استجابت الأقدار لكل أمانيهم وأحلامهم، فانتقلوا بقلوبهم وأرواحهم وأنفسهم من هنا إلى هناك، وإن كانوا لا يزالون معنا، وملكوا كل أسباب السعادة، وإن خلت أيديهم من متاع الدنيا الرخيص.

كلام هؤلاء السادة يعبر عن مكنون النفس حين تئوب إلى ربها وتعيش في كنف رعايته وحبه، وتستغني به سبحانه عمن سواه، فتتحول من نفس مطمئنة إلى نفس راضية مرضية.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢١ – ٠٤ – ٢٠١١م

وربما كان هذا الإحساس هو الذى دفع رجلا في حجم إبراهيم بن أدهم ليقول وهو يتناول مجرد كسرة خبز مبللة ببعض مياه دجلة: "نحن في نعمة لو علِمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف".

كلمات الرجل الكبير تعنى أنه يعيش متصالحا مع نفسه فلا تتعلق بعنقه مظالم الملايين، وحين يعيش المرء وعنقه خالية من المظالم، وماله حلال ولو كان قليلا،إلا أنه من كد يمينه، وبعرق جبينه قد اكتسبه.

وحين تعيش بحالة من الصفاء النفسى وراحة البال فأنت في الجنة إذن.

هذه مقدمة أسوقها تمهيدا للحديث عن نموذجين مختلفين ومتناقضين كل التناقض

النموذج الأول متصالح مع نفسه ومع الوجود من حوله، بينما النموذج النقيض في خصومة مع نفسه ومع كل شئ حوله.

النموذج الأول متصالح مع نفسه راض بقسمة الله له في الأزل، يستشعر أنه قد أدى رسالته ومن ثم فهو يعيش حياة العز كله والطمأنينة كلها، ويستعد جاهدا في الطاعة لربه رغبة في عفوه ونيل رضاه، وتمهيدا للقائه واستعدادا لنيل مغفرته ورضوانه.

هذا النموذج أدرك سر الحياة وقرر أن يتعامل معها بقدر قراره فيها، فرغبته في نعيمها محدودة وجل سعيه للدار الآخرة، فهناك تكتمل فيها آماله وتتحقق فيها أمانيه بنعيم لا انقطاع له وخلود لا فناء فيه وسعادة لاشقاء معها.

هذا النموذج التقيت به على مدى خمسة أعوام في كل عام مرة ولا زلت ألتقى به كلما ذهبت في زيارة لماليزيا في كل عام.

هو من أصول عربية عريقة الأصل، واشتهر أهله بأنهم أهل علم وثقافة، ومن ثم فلم يحمل تكوينه جينات الاستبداد والطغيان كما هى عادة بعض الحكام العرب.

يحظى بحب الناس لدرجة أنه كان يفوز في الانتخابات بنسبة تفوق عالية بعيدا عن التزوير والتضليل والتدليس، وإضافة أصوات الموتى الذين فارقوا الحياة منذ نصف قرن كما يفعل بعض القادة في بلاد العرب الأجاويد.

خلال مسيرته السياسية تولى العديد من المناصب الكبرى بدأت بوزارة بمجلس الوزراء، ثم تولى وزارة التعليم ثم الداخلية ثم الدفاع ثم وزارة الخارجية ثم نائبا لرئيس

الوزراء ثم تولى رئاسة الوزراء في سنة ٢٠٠٣م واستقال واعتزل الحياة السياسية في ٢٠٠٩م.

قدم الكثير لوطنه ولا زال يقدم ولكنه لم يمن على بلده بما قدم، لم يتحدث عن بطولة ولا عن ضربة معلم، ولا عن الضربة الأولى ولا عن الضربة القاضية كما يمن مبارك على شعبه ويذكرنا دائما ببطولته. بل يستشعر دائما أن لوطنه ولمواطنيه فضلا عليه.

أذكر أنه منذ ثلاث سنوات استضافنى وآخرين معى في مسكنه، وكان المسكن هو مقر إقامة رئيس الوزراء عندهم.

بعد الفراغ من صلاة العشاء في المسجد الملحق ببيت الرئيس بمبنى مقر مجلس الوزراء دعانا للانتقال إلى صالة الطعام لتناول العشاء.

قلت له يومها ونحن على مائدة العشاء يا دولة الرئيس: لك بصمات جميلة على أرض ماليزيا، لكن سماء ماليزيا تخلو من بصماتك فلماذا....؟

قال الرجل متعجبا ومستفهما كيف ذلك؟ قلت له: نحن في استراليا جالية صغيرة، وقد استطعنا بفضل الله أن ننشئ إذاعة للقرآن الكريم بينما لا توجد في ماليزيا إذاعة للقرآن الكريم علما أن ماليزيا بلد يفخر ويعتز بها كل مسلم في العالم.

أجابنى السيد النظيف كما يسميه أهل الملايو التلفزيون في ماليزيا يقدم الكثير من البرامج الإسلامية والمتصلة بالقرآن الكريم. قلت له: لا يا سيدى هذا لا يكفى، لابد من إذاعة خاصة للقرآن الكريم،ولتكن هذه بصمتك في سماء ماليزيا، ونحن في استراليا على استعداد أن نمدكم بخلاصة تجربتنا وأن نقدم لكم ما نستطيعه وما لدينا من برامج وخبرات وإمكانات.

شكرنى الرجل ولم يَعِدْ بشئ

وفي العام الذى يليه كنت في زيارة لماليزيا وكنا على موعد مع الرجل في بيته، ونحن في الطريق إلى بيت السيد النظيف سمعت من راديو السيارة التى تنقلنا أذان العشاء بصوت لم أسمع لنظير له من قبل في جماله وأدائه وتأثيره، وسألت السائق هل هذا الآذان صادر من راديو أم هو تسجيل؟

قال السائق: هذه إذاعة جديدة خاصة بالقرآن الكريم اسمها (I CAM FM) يشرف عليها تون عبد الله بدوى شخصيا.

وفي الأسبوع قبل الماضى وتحديداً مساء الأحد الموافق ١١-٤-٢٠١١م كنا في زيارة لرئيس الوزراء السابق عبد الله أحمد بدوى.

بيت الرجل جمع حشدا من أرباب القلوب كان على رأسهم عدد من العارفين بالله منهم العلامة سماحة السيد الشيخ عمر الجيلانى وكذلك سماحة السيد الشيخ عفيف الجيلانى وسماحة الدكتور عبد الإله العرفج وهو من أنبه الباحثين الشباب في المملكة العربية السعودية.

اللقاء كان داخل مسجد البيت الجديد والذى أهدته له الدولة بعد أن اكتشفوا أن رئيسهم لا يملك بيتا ولا حتى شقة في العاصمة، وبعد صلاة المغرب والعشاء ضم المجلس عددا من الشخصيات السياسية والعلمية وبعد محاورات ومناقشات عن الإسلامفوبيا في أمريكا وأوروبا انتقلنا من المسجد إلى مأدبة عشاء أعدتها صاحبة البيت حرم الرئيس لضيوفه.

سيدة البيت كانت تشرف على الطعام بنفسها تكريما للعلماء الضيوف.

كبار الشخصيات الماليزية تسلم على الرجل وتقبل يديه، وفقراؤهم يودونه ويلتقون به، والرجل يبادلهم حبا بحب ويتصرف معهم بعطف غريب وعجيب، يقترب أحدهم من أذنه ويفضى له بسره وحاجته فيربت على كتفه بحنو الأبوة ويبتسم له ويقول إن شاء الله.

يجلس طالب الحاجة على طاولة طعام قريبة منا فإذا جاء وقت الطعام رأينا رئيس الوزراء يقوم من مكانه ويختار بنفسه أنواعا من الطعام ويقدمها إلى صاحبنا طالب الحاجة، وينصحه أن يجربها.

السيد عبد الله بدوى تجاوز السبعين من عمره ويعيش الآن حالة من الرضى والتصالح مع الذات مليئة بالسكينة والهدوء النفسى وراحة البال، ورباط من التواصل الروحي يجمع بين الرجل وبين الناس بشكل غريب وعجيب.

عدت من اللقاء وأنا أردد: كم هى جميلة ومبهرة ومبهجة تلك الحياة المملوءة بالإيمان وما يضفيه هذا الإيمان ويسكبه في النفس من سكينة وراحة بال.

ثم تساءلت حزينا ومتحسرا: كم كنا نحن العرب ولا زلنا في حاجة إلى حاكم يكون قد ترك المكان بإرادته غير مخلوع أو مقلوع أو مغضوب عليه، وغير مأسوف على ذهابه، ولم تهتف ملايين الحناجر مطالبة برحيله في نفس واحد الشعب يريد إسقاط النظام،الشعب يريد محاكمة النظام.

كم كنا في حاجة إلى أبوة سياسية مخضرمة اعتزلت الحياة السياسية وجلست ترشد وتوجه، يطلب الجميع ودها، وتستقبل أبناءها وهى تشعر في اللقاء بحرارة حبهم لها وتقديرهم لمكانتها وما قدمته للوطن، ونحن نقبل عليها وأحضاننا مفتوحة بشوق إليها نضع قُبْلةً على جبهتها ويديها الطاهرتين النظيفتين كما يُقَبِّل كل ابن بار يَدَيْ والديه، وتسبقنا أيدينا تلتف حولهم فرحة بهم ومحتضنة لهم ومعها قلوبنا وأرواحنا.

كم كنا في حاجة إلى أبوة سياسية نجلس إليها فنستشعر معها بالأنس لا بالخوف كما يفعل أهل الملايو، وبالأبوة والأستاذية وخبرة السنين، بدلا من الإحساس بأننا أمام فرعون يفرض إرادته ويخرج لسانه وألسنة أجهزته الطويلة ويقول للأمة كلها ما أريكم إلا ما أرى.

تذكرت النموذج المختلف والنقيض للصورة الأولى وتساءلت:كم تساوى الحياة حين تمتلئ بالقلق والخوف وملايين المظالم.

وكم تساوى تلك المليارات المسروقة والمهربة إذا عرضت أصحابها لسوء الخاتمة وسوء المنقلب والمآب فتذيقهم الذل بعد عز، والهوان بعد أن كان لهم الأمر وحدهم، وتجعل الفضائح تلاحقهم لدرجة أن ترفضهم وتلفظهم المستشفيات والسجون. ويُعَيِّرهم نزلاء السجن بزفة الفضيحة وهم يهتفون قائلين " الحرامية وصلوا، الحرامية وصلوا، السجن يريد ترحيل النظام.

لا أعرف بالضبط لماذا يصر أغلب حكام العرب تحديدا على الفضائح في أخريات حياتهم السياسية، فلا يخرج أحدهم من الحكم إلا مقتولا أو مخلوعا أو مقلوعا تلاحقه اللعنات والاتهامات وآلاف الفضائح، وملايين الجماهير تهتف بسقوطهم وتطلب منهم أن يغيبوا عن عيونها وأن يتواروْا عن الأنظار بأشكالهم القبيحة.

فهل منعتهم المليارات المهربة من الفضائح؟ وهل حمتهم من المطاردة القانونية؟

وهل نفعهم أهلوهم وأبناؤهم الذين سرقوا البلاد وأكثروا فيها الفساد؟

الإجابة معروفة وواضحة ويجسدها حكم إلهي لا نقض فيه ولا معقب عليه: (لن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المجادلة: ١٧).

لقد علمنا ديننا أن الظلم ظلمات يوم القيامة، ولابد للظالم أن يتجرع بعض عقابه هنا عقوبة معجلة،وأن يتجرع مرارة العار والخزي هنا في الدنيا قبل الآخرة، حتى لا تكون فتنة ويتشكك الناس في عدالة السماء، ثم لينفذ القانون على الأرض، وليعود ميزان الحياة إلى الاستقامة والاعتدال، ومن سنن الله في هذا الشأن أن يجعل من كبرياء الظالم وغبائه سببا مباشرا يقطع كل عذر، ويدفعه وأعوانه وحاشيته دفعا إلى ساحة العدالة في هذه الدنيا بعد أن تكون السماء قد قالت كلمتها فيهم ونطقت بحكم الحكم العدل سبحانه (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة: ٤١).

الأبوة السياسية بين العرب وبلاد الملايو (٢/٢) (*)

الرئيس والخصومة مع كل شئ:

نعرف أنه لا يخلو مجتمع في الأرض كلها من الجرائم، غير أن النظم والقوانين تطارد المجرمين وتحاول أن تقلص من وجودهم، وتطور وسائلها وهى تكافح إجرامهم.

أمَّا أن يتحول نظام بالكامل إلى لصوص يسرقون أموال الشعب ويبددونها، ويسطون على أرزاق الناس ويأكلونها، ويحولون ثروة الوطن كله ليملأوا بها خزائنهم في الخارج فتلك سرقات لم تحدث أبدًا على مدار التاريخ.

وعندما تسرق مال غيرك فأنت مجرد لص، لكن عندما تؤتمن على أرزاق شعب ثم تأكله فأنت حرامى من نوع خطير.

وعندما تطالب بتأمين ثمانين مليونا من البشر ثم تظلمهم فتخيفهم وتتجسس عليهم فأنت طاغية من نوع خسيس.

وبدلا من أن تعد لكل منهم بيتا يسكنه، وتعد لكل طفل من أطفالهم مكانا في مدرسة يتعلم فيها، ولكل خريج من أبنائهم عملا شريفا يغنيه عن المغامرات المميتة والقاتلة التى يضطر إليها في الهجرة بحثا عن عمل يغنيه عن مد اليدين، وتعد لكل فتاة مسكنا صغيرا تتستر فيه مع ابن الحلال لتكوِّن أسرة وتمارس حقها في الأمومة، وتعد لكل مريض منهم سريرا في مستشفى ليعالج فيه،بدلا من أن تفعل ذلك كله تستجلب لهم النباتات المسرطنة والدم الملوث وتتآمر على ثروتهم فتسرقها وعلى مصادر أرزاقهم فتبيعها وبعقود مشبوهة وباطلة، وتحولهم إلى عاطلين متسولين ومشردين في المقابر والعشوائيات، بينما أنت وأولادك وحاشيتك تستأثرون بكل مصادر الثروة في البلد وتقومون بتهريبها، وتسجن وتعذب كل معترض، حين تفعل ذلك فأنت قد تجردت من كل معنى يمت للإنسانية بصلة، ولست منا ولا نحن منك، لست من أهلنا ولا من حينا، ولا من بنى جلدتنا، وإنما أنت فرعون، وعدو، ولكن من نوع غريب، يأكل ولا يشبع، ويسرق ولا يشعر بذنب أو تأنيب لضمير، ويرى الضحايا من أبناء شعبه في ضنك ولا يحرك ساكنا، ويتصرف وكأنه سادى يتلذذ بإيذاء الآخرين فيسعد ويسخر ويستظرف.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٨ - ٠٤ - ٢٠١١م

مصر العامرة بلد العجائب، حولها المخلوع فتحولت في عهده إلى مزرعة خاصة له ولحاشيته. مصر هذه لبعض الكبار فيها وهم قلة قليلة قصور مشيدة تفوق حد الخيال، في تلك القصور حدائق ذات بهجة تجتمع فيها كل ورود العالم،وبها ملاعب للتنس، وبها حمامات للسباحة تصلح لإقامة الأولمبياد، وبها أيضا مطارات خاصة وطائرات جاهزة لأهل الوجاهات، وفيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ومن الخدم والحشم والحراسات أشكال وألوان.

السادة الكبار الذين سرقوا مصر العظيمة بمعرفة المخلوع وفي عهده، وسرقوا المصريين الغلابة لم يقنعوا بقصورهم المشيدة هنا، وإنما اشتروا أيضا في لندن، وعلى شواطئ الريفيرا في فرنسا، وفى بيفيرلى هيلز بالولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم فقد ملأوا خزائن الغرب وتفوقوا على أمراء البترول وأمراء الحرب في تخزين الذهب واقتناء التحف الثمينة وشراء أغلى القصور.

وفي المحروسة أيضا بضعة ملايين من البشر شغبوا على الأموات فشاركوهم سكنى المقابر؛ لأنهم لا يجدون مأوى، ومثلهم أو يزيد بضعة ملايين من الأطفال يسمون بأطفال الشوارع، أيضا لا يجدون أهلا ولا مأوى، وبضعة ملايين يعيشون في العشوائيات (والعشوائيات لمن لا يعرفها وقاكم الله شرها هي عشش من الصفيح القديم ليس فيها ماء ولا كهرباء ولا مجارى) وهذا الصفيح أدى دوره وأحيل على المعاش منذ زمن، ووضعت عليه الأيام قبلة الوداع فخرمته خرما وجعلته كغربال مفتوق العيون فلا ينقى دقيقا ولا يمسك ماء، ومن ثم فالمستغطى به عريان، لأن حوائطه لا تستر ولا تقى حرا ولا بردا، باختصار شديد وبدون وجع قلب هذه العشوائيات لا تصلح أبدا لسكنى البشر، والعيش فيها نوع من العقوبة، والسجن مقارنة بها جنة، لأنها عقوبة تصل إلى درجة الإعدام المغلظ حيث المرء فيها يعدم في كل يوم مرة وهو على قيد الحياة، يتحرك ويذهب ويجئ.

الملايين الذين يسكنون المقابر ومثلهم من يعيشون في الشوارع والعشوائيات بالتأكيد خلقهم الله وخلق لهم أرزاقهم قبل أن يأتوا إلى هذا الوجود، غير أن المخلوع الذى يضغط البعض على مصر لإعفائه من العقوبة، إئتمن على تلك الأرزاق فنهبها وسرقها، وحولها إلى رصيد في خزائن الدول الكبرى بعيدا عن عيون الحساد والحاقدين.

د. منال عثمان كانت إحدى المعلقات على مقال سابق قالت: يبدو أن الضربة الجوية الأولى التى قام بها مبارك في حرب ٧٣ ويَمُنّ بها علينا ويذكرنا دائما بها، يبدو أنها كانت ضربة في قلب مصر وليست في إسرائيل.

شواهد أفعال الرجل تؤكد صحة هذا القول بما فعله في مصر من فساد وسرقات وسلب ونهب، وما فعله لإسرائيل هو ونظامه، والإصرار على تصدير الغاز لإسرائيل بثلث الثمن الذى يدفعه المواطن المصرى رغم الأحكام القضائية التى صدرت ببطلان هذا الأمر، كل ذلك يجعلنا نوقن أن الرجل إن كان قد ساهم في أول طلعة جوية في حرب اكتوبر فقد كَفَّرَ عنها لصالح إسرائيل بارتكاب جنايات في حق الشعب المصري، وإن كان قد وجه ضربة واحدة لإسرائيل فقد وجه بعدها آلاف الضربات لقلب الشعب المصرى، وتحول من حاكم لمصر ليكون هو المخزون الاستراتيجى لإسرائيل كما صرح بذلك قادتها لدرجة أن حاخامات إسرائيل كانوا يدعون له عندما مرض ويصلون من أجله.

ولقد أثبتت أحداث ثورة ٢٥ يناير أن مصر أمة مكينة ومليئة بالرجال الشرفاء، وهي غنية بثرواتها البشرية أولا، ومواهب شعبها وبمواردها وثقافة أبنائها ورصيدها الحضارى ثانيا ومن ثم فهي لا تعانى أزمات اقتصادية بقدر ما تعانى من أزمات في رؤوس وضمائر النظام وأخلاقه، إن كانت له أخلاق، ومن ثم فتعليق المشكلات كلها على شماعة زيادة السكان وضرورة تحديد النسل كما كان يدعى النظام وأجهزته كلام لا معنى له؛ لأن في مصر من الثراء والثروة ما يكفيها ويسد حاجتها ويغنيها عن المعونات المذلة، ولو حسبنا المليارات المسروقة والمهربة لعلمنا كم هى غنية أم الدنيا فعلا، والمطلوب الحقيقى هو تحديد النشل ومعاقبة لصوص المليارات الذين تفتح لهم خزائن البنوك ثم يهربون بقدرة ظالم متنفذ لم نكن نعرف من هو؟ وعرفناه الآن.

مرت تلك الوقائع بصورها القبيحة والفضيحة في ذاكرتى، ثم دارت خواطر أخرى في رأسى ذكرتنى بالنموذج النقيض لهذه الصور الشائهة والمشوهة.

النموذج النقيض كان صورة للشرف ونظافة اليد وطهارة السلوك والخلق، إنه السيد النظيف اللطيف عبد الله بدوى رئيس وزراء ماليزيا السابق الذى ترك رئاسة

الوزراء بإرادته، بينما مبارك خرج ثمانون مليونا من البشر يهتفون بسقوطه ومع ذلك ظل متمسكا بالكرسي إلى آخر لحظة.

هذا يعيش حالة من الصفاء النفسي والتصالح مع الذات، بينما الآخر يعيش حالة من الشقاء والتمزق والوحل وبخاصة مع آخر العمر.

هذا ستره الله فخرج ولديه رصيد من حب أغلب الجماهير، بينما الآخر كانت فضائحه مدوية مابين سرقات واستبداد ومظالم وتزوير لإرادة الأمة طوال سنوات حكمه، ومحاكم عسكرية وقوانين الطوارئ فلم يحكم يوما واحدا بقانون عادي، وكان قد دخل الحياة السياسية باعتبار أنه من أبطال حرب اكتوبر بينما قد تم خلعه وقلعه من الحياة السياسية لصا سرق كل أموال شعبه في أكبر عملية تخريب لوطن وشعب بأكمله.

عبد الله بدوى أكرمته بلده وأمته فلم يكن يملك بيتا فبنت له الدولة بعدما ترك الحكم قصرا مشيدا، بينما الآخر اغتصب بعض القصور أثناء حكمه، وأرغم أصحابها على بيعها بأرخص الأسعار وأبخسها ودفع ثمنها من أموال الشعب الفقير.

هذا تجلس معه فتحس أنك أمام أب حانى مملوء بالعاطفة والهدوء وسكينة النفس وراحة الفؤاد الممزوجة بتجارب السنين وخبرة الأيام، فتشعر أنك أمام منجم من الرشد والحكمة والرصيد الثقافي والحضاري، بينما الآخر كان يمثل الكنز الاستراتيجى لا لبلده وإنما لإسرائيل كما صرح قادتها بذلك.

عبد الله بدوى تراه فتشعر بسكينة النفس وهدوء الروح وسلامة القلب، بينما مبارك تراه فتشعر بالغضب لكثرة ما نهب من مال، وما ارتكب من جرائم، وما عذب من بشر، وما أهان من أبناء شعبه، وما فرط في كرامة وطن كان في مقدمة أمم الأرض رقيا وحضارة، فجعله وطنا متسولا عالة على غيره يرهن إرادته نظير حفنة من المعونات تصور شعبه وكأنه مجموعة من الشحاذين.

هذا قد ارتقى ببلده وطورها وارتفع بها لتكون في مقدمة دول النمور الآسيوية وجعلها منافسا حضاريا واقتصاديا بارعا، بينما الآخر هبط ببلده وبشعبه وأهان كرامة مواطنيه حتى كرهه الوطن بشرا وأرضا وسماء وحجرا وشجرا.

هذا يحبه شعبه فيمشى غير خائف من شئ،بينما الآخر يتربص به ثمانون مليونا كلهم يريد منه القصاص العادل.

هذا أبناؤه يمارسون حياتهم كمواطنين عاديين شرفاء أحرارا، بينما الآخر أبناؤه وأقاربه وحاشيته كلهم متهمون قيد الحبس في قضايا قتل وإفساد للحياة السياسية واختلاس أموال وتربح غير مشروع واستغلال للنفوذ والسلطة.

هذا يعيش آمنا في سربه معافًى في بدنه عنده قوت يومه ولديه من القناعة ما يغنيه ويزيده ويرفع قدره، بينما الآخر غير آمن في سربه فقد سرق كل أموال الشعب وأكل كل أرزاق الفقراء وحول كل مليارات الوطن في حساب خاص له ولأولاده وحاشيته وأهل حظوته، فهو ليس آمنا في سربه، فقد امتلأت السجون بسربه واستقبلوا في ليمان طره يذوقون كؤوس المذلة والمهانة جزاء ما اقترفوه وليجربوا بعض ما أذاقوه لأبرياء لمجرد أن خالفوهم الرأى ولم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا في الركاب مع القطيع.

عبد الله بدوى لم يكن يملك شقة أوبيتا فقد فوجئ مهاتير محمد عندما كان رئيسا للوزراء ورئيسا للحزب بأن نائبه الذى تولى وزارة التعليم ثم وزارة الداخلية ثم وزارة الدفاع ثم وزارة الخارجية يسكن في بيت مستأجر لأنه لايملك بيتا ولا شقة في العاصمة؛ ولذلك يلقبونه بالسيد النظيف اللطيف فثوبه طاهر ويداه نظيفتان لم تمتد لرشوة ولم تأخذ ما ليس من حقها فقد تعود صاحبها على العطاء وليس على الأخذ. ولذلك يعتبر المحللون أن نظافة الرجل ونزاهته وطهر ذمته هو سر قوته.

بينما الآخر يداه ملطختان بدماء الأبرياء وبسرقة الأموال وإفساد الحياة السياسية، وبإصدار القرارت الظالمة التى تحابى حاشيته بينما تسلب أبناء شعبه كل حقوقهم.

وكنت قد تساءلت من قبل:كم تساوى الحياة حين تمتلئ بالقلق والخوف وملايين المظالم، وكم تساوى تلك المليارات المسروقة والمهربة إذا عرضت أصحابها لسوء الخاتمة وسوء المنقلب والمآب فتذيقهم الذل بعد عز، وتلاحقهم اللعنات والاتهامات وآلاف الفضائح، وملايين الجماهير تهتف بسقوطهم وتطلب منهم أن يغيبوا عن عيونها وأن يتواروا عن الأنظار بأشكالهم القبيحة، وهم يهتفون قائلين" الحرامية وصلوا، الحرامية وصلوا "

لا أعرف السر وراء رغبة حكامنا في مزيد من الفضائح ومزيد من سفك الدماء ومزيد من ملايين المظالم؟

ألا يكفيهم ما سودوه في صحائفهم وما يمتلئ به تاريخهم من كوارث سببوها لشعوبهم؟

كل واحد منهم على استعداد أن يبيد كل شعبه ولآخر قطرة دم في مواطنيه ليبقي متربعا على سدة الحكم.

لا أعرف لماذا يصر هؤلاء الحكام على تلطيخ تاريخهم بالعمالة الخسيسة التى تقدم فروض الولاء والطاعة لأعداء الأمة، وتقدم مصالحهم على مصالح شعوبهم، وكأنهم ليسوا حكاما لبلادنا ولا من أبناء جلدتنا، وإنما هم مندوبون عن المستعمر الذى يركلهم بقدميه عندما تحين ساعة الرحيل.

أجهزة الطاغية تتبعت عورات الناس وتلصصت على خلق الله،وأعدت ملفا لكل مواطن جمعت فيه كل خصوصياته ليتم ترويضه وإذلاله متى أراد الطاغية، ففضح الله الطاغية وحاشيته وأجهزته في عموم الدنيا وعلى رؤوس الأشهاد.

هؤلاء الحكام لم يحترموا شعوبهم،ولم يحترموا أنفسهم، ولم يتركوا لنا فرصة واحدة لنحترمهم. فقد استعملوا كل الوسائل لتخويفنا منهم، وفعلوا كل ما من شأنه أن يجعلنا لا نكرههم فقط،بل ونحتقرهم أيضا.

ماذا نقول في ذلك إلا بقول الله تعالى: (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: ٢٦).

نعم سيدى بيدك الخير، نعم سيدى تنزع الملك ممن تشاء فنزع ملك الأشرار خير للبلاد وللعباد، نزع ملك الأشرار خير للمظلومين والمقهورين والمغيبين داخل ظلمات السجون والمعتقلات بغير ذنب أو جريرة.

نزع ملك الظالمين خير للأبرياء الذين لفقت لهم التهم تلفيقا وأخذوا من عائلاتهم في ظلمات الليالى وعقدت لهم محاكم عسكرية وهم لا يعرفون جرائمهم، إنما فقط أرادوا أن يتمسكوا بدينهم وكرامتهم، وأهينوا في أرزاقهم عندما أراد الطاغية أن يشردهم وعائلاتهم.

قطع دابر الظالمين نعمة يشكر عليها رب العالمين،وتنظيف الأرض من الحشرات الضارة والكلاب الضالة والسباع الضواري الذين يأكلون ولا يشبعون، وتمتلئ خزائنهم بالمال المغصوب ولا يكتفون، وتمتد أيديهم بسرقة الوطن كله ولا يستنكفون أو يتحرجون أو يتوبون، ويحولون أحرار الناس إلى عبيد نظير الحصول على القوت الضروري،نزع الملك من هؤلاء خير ونعمة يشكر عليها رب العالمين مالك الملك الذى يمنح ويمنع ويعطى وينزع جل جلاله.

لقد كان الطاغية وأعوانه يتصرفون وكأن الأقدار بأيديهم، ولطالموا ذُكِّرُوا فنسوا ولم يَذْكُرُوا، ووُعِظُوا فلم يتعظوا، وخططوا ودبروا وفرحوا بما فعلوا وكأنهم أنجزوا، وقبل أن تكتمل فرحتهم جاءت ضربة الأقدار قاصمة (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام:٤٤-٤٥).

النافذة السابعة

بين الربيع العربي والقمع العربي

بين الربيع العربي والقمع العربي علاقة تناقض وتنافر وصدام.

فالربيع نسمات وبسمات وتغريد وزهور تتفتح، وقلوب تعشق وتحب. بينما القمع عفن وكبت وقهر وإذلال وخنق وقتل لكل قيم الحب والعدل والكرامة. الربيع نغم جميل في الوجود، وطرب في الكون، وطهر في النفس، وفرحة تملأ الروح، وفسحة وسعة في الزمان والمكان وقلوب الناس.

بينما القمع أقبية وأبنية مغلقة النوافذ والمنافذ، وبشر بوجوه كالحة، لا قلوب لهم ولا ضمائر، وحشر للأنفاس، وعد وإحصاء لدقات القلب وخلجات النفس، ومراقبة لكل حركة ولو كانت من قبيل الشهيق والزفير داخل الرئتين وفي صدر الإنسان.

باختصار شديد الربيع هو العافية والحرية، بينما القمع هو المرض واغتيال العافية والكرامة وهو شتى أنواع العلل (وزنقة زنقة).

ومن هنا كان سر كراهية الأنظمة للربيع العربي، لأنهم يرون فيه خريف حياتهم وغروب شمسهم، وزوال حكمهم.

الدم العربي والصمت العربي (*)

من مزايا التعليم أنه يهذب الطباع ويُلينُ الخشونة، ويفتح أفاقا أمام العقل الإنسانى ليفكر بشكل صحيح، كما أنه يعتق العقل من كل موروث فاسد، ويفك أسر الأبناء من ضغوط المظالم التى قد يمارسها بعض الآباء الظلمة.

ومن مزاياه أيضا أنه يحرر صاحبه من النظرة الضيقة فيجعله يرى الحقيقة كلها، ولا يكتفى بمنظور جزئى ينقله له عن عمد بعض مَنْ يعاونه بينما يُخْفون عنه بقية صور الحقيقة.

والرئيس بشار الأسد شاب متعلم، وكان يفترض فيه أنه استفاد من التعليم كل المزايا السابقة التى أشرنا إليها، وهو كشاب قد تربى في أحضان الوطن السورى واستنشق عبير الشام، ونشأ وترعرع في خيره، وكنا نظن أن ولاء الإبن المتعلم للوطن لا للكرسي والمنصب، وأنه مختلف عن أبيه بحكم ثقافته واطلاعه وتخصصه وانفتاحه على ما يدور في العالم، غير أننا كنا مخطئين حين تصورنا أن شجرة العلقم يمكن أن تثمر غير العلقم، ولو سقيناها بالعسل المصفى.

فموقف الرئيس الشاب يذكرنا بقصة الذئب الذى فقد أمه عقب ولادته، فعطفت عليه إمراة وأخذته وربته بين أغنامها فرضع من لبنها وتغذى معها، فلما اشتد عوده واكتمل نموه عادت إليه طباعه فافترس الشاة التى أرضعته وفتك بها، فلما رأت المرأة هذا المنظر الغادر قالت أبياتها المشهورة:

أكلت شُوَيْهَتِي وفجعتَ قلبى	وأنت لشاتنا ولد ربيب
شَرِبْتَ لبانها ورُبِيتَ فينا	فمن أنبأك أن أباك ذئب
إذا كان الطباع طباع سوء	فلا أدب يفيد ولا أديب

الرئيس المتعلم والمتحضر جدا يرد على كل مبادرة تدعو لحقن الدماء بمزيد من القتل، وإطلاق يد الشبيحة والأجهزة الأمنية وفي حماية الدبابات والأسلحة الثقيلة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١١ / ٨ /٢٠١١م

المشهد واحد في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن، فكل من يعارض الحاكم أو يطالب بحقه في الحرية والكرامة مندس وخارج على القانون، ولو كان الشعب كله، وإذا كان الشعب كله ثائرا فهو كله مندسا فمن ياترى بقي من الناس ليس مندسا.....؟

الجينات واحدة وإن اختلفت أشكال السرقات وأحجام النهب والتهليب، فإذا تململ الشعب أو اشتكى أو عبر عن رغبته في مقاومة الفساد تولت أجهزة أمن النظام تأديبه ولو وصل الأمر إلى جريمة القتل الجماعى،وارتكاب المجازر وطحن وتدمير المدن بدبابات ومدافع دفعت الشعوب ثمنها لتحرس الوطن وتدافع عن أرضه، فإذا بها ذاتها تكون آلة القتل للعزل من أبناء الشعب،وهى التى تستبيح الوطن مدنا وديارا وشعبا، وتتحول تلك الأسلحة من أن تكون موجهة لعدو يتربص بالبلاد إلى أدوات قمع وقتل وترويع وتفجيع لكل من يخالف النظام ويختلف معه وينادى بحقه في الحرية والحياة الكريمة.

وإذا كانت كل المدن السورية ترفض الحكم الاستبدادى وتنادى برحيل الحاكم الظالم فهل هؤلاء جميعا مندسون؟

ما يحدث في ليبيا يتكرر في سورية ولكنه يتكرر بشكل أكثر بشاعة وأشد خبثا ودهاء، فالرئيس يتحدث عن الإصلاح بينما يطلق العنان للمفسدين من الشبيحة وقادة أمنه ليخوضوا في دماء الأبرياء من المدنيين العزل، فيقتلون ويخطفون ويسحلون الناس في شوارع المدن السورية،ويركلون ويدوسون بأحذيتهم الغليظة على أجساد الضحايا في منظرمملوء بالبشاعة والقبح،وقلما تجد له نظيرا إلا في بلاد العرب الأجاويد.

المتأمل فى المشهد السورى أصبح يلحظ نوعين من العار في العالمين العربي والإسلامي.

العار الأول: عار العجز المذل الذى يضن على الضحية حتى بكلمة مواساة تجبر القلب الحزين بثقل الفقد ومرارة المظالم والشعور بالقهر.

والعار الثانى: عار الصمت الذى يطفح بالخزى على وجوه الأنظمة الدكتاتورية التى تشارك القاتل بصمتها وتتسلط على شعوبها وتقبع على كراسيها والكل لها كاره وعليها ساخط.

وقد يتساءل المرء عن سر الصمت لأنظمة تُعْرفُ وتُعَرَّفُ بأنها ظاهرة صوتية فلماذا كان العكس هنا وقد صمتت الأنظمة صمت القبور فلم تنطق وعلى مدى خمسة شهور؟! إن لهذه الأنظمة في التفاهة ضجيجا يقرع الأذان ويلوث البيئة ويعكر دائما صفو الحياة، فلماذا هى صامتة الآن؟.

سر الصمت هنا ليس الخوف من نظام بشار الأسد، وإنما الخوف من انتشار ظاهرة اليقظة الشعبية التى تدفع بالشعوب للمطالبة بحقها من أنظمة ترى أنها أولى بالناس من انفسهم ومن ثم تستبيح كل أموالهم وأعراضهم وأجسادهم وكل حقوقهم. وهم يدركون جيدا أن الشعوب إذا غضبت هزت أقوى العروش وأكثرها ثباتا واستقرارا.

لذلك تمتلئ سجون تلك الأنظمة بآلاف الأحرار والمظلومين ومن تجرأوا وخالفوا وعارضوا وعبروا بشكل طبيعي عن رغبتهم في الحرية والكرامة والعدل.

نظام بشار الأسد واحد من تلك الأنظمة وهم جميعا في الظلم سواء

الأنظمة العربية صامتة لا تنطق ولا تشير، وبعد خمسة شهور اكتفت ببيان هزيل واستدعاء بعض السفراء للتشاور،وكان رد النظام السورى الحليف مزيدا من حصار المدن السورية واقتحام البيوت واعتقال الناس وإطلاق المدافع والدبابات على المدنيين العزل.

منظومة الدكتاتورية في العالم العربي تجمعها خيوط واحدة وهوايات موحدة تتطورت من مفهوم الهواية لتصل إلى درجة الاحتراف وبجدارة.

خيوط القهر والاستبداد واستعباد الشعوب والانفراد بالثروة والسلطة تربط بين أركان المنظومة ما سقط منها وما بقي آيلا للسقوط ولكن بعد حين.

الهوايات الموحدة والتى تطورت لتصل إلى درجة الاحتراف وبجدارة تتمثل في ترويع الشعوب وإرهابها، وسرقة ثروتها وتهريبها للخارج،واستغلال واحتكار مصادرها،وتوزيع ما تبقى من فتاتها على الحاشية والمحاسيب وذلك ديدنهم جميعا على اختلاف توجهاتهم.

الشراكة في العار والخسة بلغت مداها عندما ربطت تلك الأنظمة موقفها بالطرف الأمريكى، وانتظرت لترى كيف يتصرف لتكون مواقفها متماهية معه، تابعة له في كل شئ وإن لم يكن على شئ، تسير خلفه وتترسم خطاه حذو النعل بالنعل.

المشهد يذكرنا بقصيدة للشاعر نزار قبانى ينعى فيها العرب وعروبتهم قالها قبل ٣٠ عاما وألقاها عام ١٩٨٠ وقد جاء فيها:

أنا ياصديقة متعب بعروبتي	فهل العروبة لعنة وعقاب؟
أمشي على ورق الخريطة خائفآ	فعلى الخريطة كلنا أغراب
أتكلم الفصحى أمام عشيرتي	وأعيد لكن ماهناك جواب
لولا العباءات التي ألتفوا بها	ماكنت أحسب أنهم أعراب
وخريطة الوطن الكبير فضيحة	فحواجز –ومخافر– وكلاب
والعالم العربي.. أما نعجة	مذبوحة أو حاكم قصاب
والعالم العربي يرهن سيفه	فحكاية الشرف الرفيع سراب
والعالم العربي يخزن نفطه	في خصيتيه... وربك الوهاب
والناس قبل النفط أو من بعده	مستنزفون.. فسادة ودواب
وإذا قسوت على العروبة مرة	فلقد تضيق بكحلها الأهداب
فلربما تجد العروبة نفسها	ويضيئ في قلب الظلام شهاب
ولقد تطير من العقال حمامة	ومن العباءة تطلع الأعشاب

الجيش السورى يرتكب أكبر الحماقات حين يوجه قدراته لقمع ثورة شعب أبيٍّ يجعل الموت هو الخيار الأفضل في سبيل الحرية والخلاص من القهر.

الرئيس ومؤسساته يفتقد الرؤية المستبصرة لتطورات الأحداث وأحوال الزمان ولم يلتفت إلى زلزال المنطقة بشكل صحيح، وظن خطأ أن طلقات الدبابات والمدافع الثقيلة يمكن أن تنال من عزيمة الشعب ولم يدرك أنه كلما سالت الدماء الزاكية على أرض الوطن كلما ازداد الشعب إصرارا على سقوط النظام.

عندما يسقط النظام يتهاوى هيكل المنتفعين كما تتساقط حبات العقد المنفرط،وسيكونون هم أول من يضحى بالرئيس ويشهد عليه بل وينسب كل الجرائم لأوامره وتوجيهاته في ساحات القضاء.

فكرة التعامل مع الشعب بعقلية ضابط الأمن لم تعد مجدية في ظل وَعْيِ الشعوب وما حدث من متغيرات كثيرة، فمدينة حماة اليوم ليست هي حماة قبل ثلاثين سنة، ومهما كانت قدرات النظام فلن تستطيع أن تبيد شعبا بكامله ولا أن تخفى حجم الجرائم وإن أخفت وجوه الشبيحة ورجال الأمن، وستبقى سورية ويسقط النظام ويبقى الشعب ويزول الطاغية.

الرئيس الأسد لم يقرأ مطالب شعبه ولم يقرأ الواقع العالمي قراءة صحيحة، ومن ثم فقد وقع في الأخطاء الكبرى التى وقع فيها مبارك والقذافى. ومصير الرجلين ينتظره على عجل.

ولنتذكر جميعا أن دوام الحال من المحال، وأن الشاعر يقول:

رِحَابُ الظُّلم حَتماً سَوفَ تَفْنَى فعين الله حاشا أن تنام.

نيرون سورية.. حين يفقد البصر (*)

في منظر مهيب نقلته وكالات الأنباء من سوريا، على قبور الشهداء وقف المشيعون لشهدائهم وهم يؤدون قسم الولاء لسلمية الثورة.

النماذج التى شاركت في هذا القسم تمثل كل الشرائح السورية شيوخا ورجالا وشبابا وأطفالا.

ومضمون القسم (سلمية الثورة) يمثل نموذجا لوعي الثوار السوريين وتحضرهم وضبط رؤيتهم في مواجهة نظام همجى فقد كل قيمه الأخلاقية والإنسانية تجاه شعبه وأمته.

النظام السورى حاز كل السبق في ساحات الخزى والعار، وتفوق على نيرون حين جلس ضاحكا يستمتع بالنيران وهى تحرق روما.

حماة الديار هم أدوات هذا العار الذين عرف تاريخهم بالسكوت المطلق على عربدة إسرائيل واحتلالها للجولان وعبثها بالسماء السورية وفوق بيت الرئيس ذاته وفي نفس المدينة (اللاذقية).

الاحتلال في الجولان لم تطلق عليه طلقة واحدة من جيش زعيم الممانعة، ولم يعترض حماة الديار طيران إسرائيل حين حلق فوق قصر الرئاسة ليبعث برسالة إلى زعيم الممانعة كما كان يدعى، لكنهم قذفوا اللاذقية ببوارج حربية، فهل اندست اللاذقية في اللاذقية لتضرب بقذائف البوارج الحربية التى لم تجرب طقلة واحدة في اتجاه العدو؟ أم أنها ضربت ليثبت النظام للشعب السورى الصامد أن حماة الديار ليسوا منه ولا هو منهم، وأن الثوار ليسوا إخوة الجنود ولا هم أباؤه، فهل هذا ما يريده زعيم الممانعة؟! أن يقطع الجيش السورى عن أهله وناسه، وأن يغرس بين الإثنين كل عوامل الكراهية والانقسام والفرقة ليلعب هو وحاشيته على وتر الطائفية؟

يقيننا أن الجيش السورى لا يمكن أن يخلو من شرفاء يرفضون أن يختزل دور القوات المسلحة في حماية الرئيس وعائلته، وأن مهمته الأساسية حماية الوطن شعبا

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٨ / ٨ /٢٠١١م

وأرضا وديارا، وليس قتل الشعب وتدمير مدنه وقراه، وقذف مآذنه وإغلاق مساجده، وقطع الماء والكهرباء عن أبنائه، ودفعهم إلى النزوح الجماعي، وإلا فما الفرق بين حماة الديار وبين الجيش الإسرائيلي في الأرض المحتلة.؟

الشعب السورى أكثر وعيا من الرئيس وحاشيته ومعاونيه، وهو يدرك بوعيه السياسي والأخلاقي والثورى أن وحدته تظل هى الرصيد الاستراتيجي في مواجهة الطائفية الدينية وأنه لا يجوز تصنيف الناس على أساس طائفى، وأن عملية تحشيد الناس على الهوية خوفا مما هو قادم إنما هى جريمة وطنية كبرى، ومن ثم فعلى النظام أن يلعب غيرها.

والشعب السورى يدرك بوعيه الثورى أن رفض التدخل الأجنبى هو الذى يحمى شرف وبهاء ثورته، وأن سلمية الثورة هى الخيار الحضارى والأخلاقى والإنسانى أمام همجية النظام وتعطشه للدماء ورغبته في التوحش وعمليات القتل الجماعى، وأنه مهما ضغط وحاول لن تستجيب القوى الشعبية لنزقه، وستظل تفضح مخططاته بصمودها وصبرها ورصيدها الثقافي والحضارى الذى يمتد في عمق التاريخ ليؤكد أصالة السوريين وشجاعتهم منذ كانت دمشق عاصمة الخلافة لدولة الأمويين.

الرئيس السورى وحاشيته لا يعنيه إنْ كان التاريخ سيلوث بفعله الفاضح حين ينتهك حرية شعبه، ويقذف بلده بكل أدوات القتل والتدمير، ولا يعنيه وحاشيته بأية أوصاف سيتحدث عنه التاريخ وكأن المدن السورية ما عرفته يوما وما عرفها، فهو عنها غريب فلم يشرب من مائها ولا تربى بين شبابها ولم يستنشق عبير تاريخها المشرق الألاق.

الرئيس تقمص شخصية القاتل الأول "قابيل" فطوعت له نفسه أن يبقى هو،وليذهب شعبه، وأن يعيش هو وحاشيته وليموت كل أطفال سورية.

الثورة السورية كشفت القناع عن أمرين متناقضين:

الأول: إصرار الشعب السورى على الحرية، وأنه لن يتخلى عن معركته الرئيسة وهى المطالبة بالديموقراطية والتى يتحقق فيها الحرية والعدالة ورفض الاستذلال.

رهان النظام على الخيار الأمنى لن يعمر ولن يستمر طويلا، وسوابق الثورات في مصر وتونس وحتى في اليمن وليبيا خير دليل على ذلك.

والثانى أن مراوغة الرئيس، ومحاولات خداع العالم بكلام عن الإصلاح ليس إلا محاولات تخدير للرأي العام ليفلت صاحبنا من محكمة الجنايات الدولية.

بِنْيَةُ الاستبداد أيلة للسقوط والإصرار على المطالبات العادالة بالحقوق واستمرار التظاهر سيسقطها حتما.

تركيبة الطغيان متهالكة من داخلها في النظام السورى وهى في طريقها للتفكك لامحالة وأن الأمر أمر وقت وصمود وصبر،

صمود الثوار وصبرهم وطول نفسهم سيؤدى في نهاية الأمر إلى تآكل وتفكيك الاستبداد وسقوط الطاغية. لذا فيمكننا أن نشير بتلخيص إلى الضمانات الأساسية لاستمرار الثورة السورية وأن انتصارها يتوقف في نظر أغلب المحللين على تحقيق مجموعة من الضمانات أعتقد أنها واضحة في وعي الشعب السورى وهذه الضمانات يمكن أن نجملها في المبادئ الأساسية التالية:

صمود وصبر الشعب السورى، فكلما زاد الصمود واستمر كلما قصر عمر النظام.

سلمية الثورة، حيث تفضح وتسقط كل دعاوى النظام وحججه ومن ثم فلا يجوز أن ينجر الشعب لمواجهات مسلحة مهما كانت دوافعها.

ورفض التدخل الأجنبى، وهذا الرفض يؤكد وطنية المبادئ الثورية ويحفظ وجه الثورة من التلوث بالأجندات الأجنبية، كما انه يسقط مبررات النظام في الحديث عن مؤامرات خارجية.

سلامة وحدة الشعب الداخلية ورفض الطائفية، والطائفية دينية أو عرقية هى السلاح الذى يحرص كل طاغية على استعماله وتنمية دوافعه بين أبناء الشعب الواحد ويعزف على وتره باستمرار ليخلق سوء النية والتوجس وخوف كل طرف من الطرف الاخر وليظل النظام هو الملاذ لكل فئة في مواجهة بقية الفئات ومن ثم فرفض الطائفية ينزع السكين التى يغتال بها الطاغية وحدة الأمة.

التجمع الشعبي حول وحدة التصور لأهداف الثورة حتى وإن اختلفت جماعات المعارضة، فيجب أن يكون اختلافها اختلاف روافد تصب في نهر واحد. غير أن كل رافد يأتى من طريق.

المتأمل في المشهد السورى يلحظ أن المبادئ الخمسة متحققة حتى هذه اللحظة في المشهد السورى، كما يلحظ أيضا ان هناك سورية جديدة تولد اليوم، ويمكنك أن تراها في الحشود المتراصة، وفي لغة خطاب الثوار، وفي إصرار الشعب على التضحية، وفي تحديه لكل أدوات القمع التى يملكها النظام، فقد تخطاها بصدره العاري وتخلص من الخوف وكسر كل حواجزه وقفز فوق كل حدوده.

سورية الجديدة يمكنك أن تراها أيضا في وجه كل مواطن سورى، وفي بريق عيونه، لكن نيرون الجديد يريد أن يحرقها، ويستمتع بدخان حريقها الأسود.

منظر الثكالى وأنَّات الجرحى لن تزيد الوجدان السورى إلا غضبا عليك وكراهية لك يا سيادة الرئيس.

قلوب السوريين وأفئدتهم ملئت لا بالكراهية فقط، وإنما بالاحتقار أيضا لشاب أمَّلُوا فيه خيرا، فإذا به يحمل جينات نيرون الذى أحرق روما بعدما خرب ديارها.

عبر التاريخ هنا يجب النظر إليها والاستفادة منها لأنها تستحضر سنن الله في الناس والأوطان والأشياء.

الفرق بين نيرون الجديد والقديم أن عيون القديم كانت مبصرة، بينما عيون طبيب العيون نيرون الجديد أصابها العَشَى الليلي ومن ثم فقد أخطأت الرؤية ولم تعد ترى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الارْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦).

سورية

بين الربيع العربي والقمع العربي (*)

يذكر لنا التاريخ أن عرب الجاهلية رغم قسوتهم وشدتهم كانت فيهم رجولة، وكانت فيهم نخوة وشهامة.

ويقال إن ملك الحيرة (عمرو بن هند) كان مزهواً بنفسه وقد قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم عمرو بن كلثوم، قال: ولم ذلك؟ قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وبعلها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد من هو منه، فأرسل الملك إلى عمرو بن كلثوم يطلب منه أن يأتيه زائرا وطلب أن ترافقه أمه لتزور أم الملك....فلما كانت أمه عند أم الملك، وأم الملك هي هند عمة امرئ القيس الشاعر المعروف، قالت أم الملك لها: يا ليلى ناوليني ذلك الطبق، فردت عليها: (لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها) فلما ألحت عليها صاحت ليلى: وا ذلاّه يا تغلب، فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه، فقام إلى سيف معلق في الرواق فأخذه وضرب به رأس الملك ثم عاد نحو الجزيرة، وعندها قال معلقته التى جاء فيها:

إذا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً ... أَبَيْنا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينا

لنَا الدُّنْيَا ومَنْ أمْسَى عَلَيْها ... ونَبْطِشُ حَيِنَ نَبْطِشُ قَادِرِينا

بُغَاةٌ ظَالَمِينَ وَمَا ظُلِمْنَا ... وَلكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

ونَشْرَبُ إنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْواً ... ويَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وطِينا

إلا أن التاريخ يذكر لنا أن عرب الجاهلية أنشأوا حلفا لينصروا به المظلوم وليقفوا فيه متكاتفين ومتعاونين ضد كل ظالم جهول، وهذا الحلف يسمى تاريخيا بحلف الفضول، لكن يبدو أن هناك فرقا كبيرا بين عرب الأمس وعرب اليوم، ويبدو أن مرض الاستبداد مرض عربي الأصل، جيناته تستوطن المنطقة العربية وحدها دون غيرها من كل مناطق العالم، وبعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو الزعماء والحكام العرب قد

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٥/ ٩/ ٢٠١١م

تربوا على الاستبداد والدكتاتورية، وتتحكم جينات الاستبداد في تصرفاتهم وبشكل خطير.

فهم يكرهون الربيع العربي، لأنهم يرون فيه خريف حياتهم، وغروب شمسهم، وزوال حكمهم.

وبين الربيع العربي والقمع العربي علاقة تناقض وتنافر وصدام.

فالربيع نسمات وبسمات وتغريد وزهور تتفتح، وقلوب تعشق وتحب.

بينما القمع عفن وكبت وقهر وإذلال وخنق وقتل لكل قيم الحب والعدل والكرامة.

الربيع نغم جميل في الوجود، وطرب في الكون، وطهر في النفس، وفرحة تملأ الروح،وفسحة وسعة في الزمان والمكان وقلوب الناس.

بينما القمع أقبية وأبنية مغلقة النوافذ والمنافذ، وبشر بوجوه كالحة، لا قلوب لهم ولا ضمائر،وحشر للأنفاس، وعد وإحصاء لدقات القلب وخلجات النفس، ومراقبة لكل حركة ولو كانت من قبيل الشهيق والزفير داخل الرئتين وفي صدر الإنسان.

باختصار شديد الربيع هو العافية والحرية، بينما القمع هو المرض واغتيال العافية والكرامة والحرية، وهو شتى أنواع العلل (وزنقة زنقة).

وفي لغتنا العربية وتحديدا في علم الصرف العربي باب يسمى باب الإعلال والإبدال.

والإعلال مصدر تشتق منه العلل،والعلل جمع علة، والعلة ليست قاصرة على الحروف الثلاثة المعروفة في اللغة (الألف والواو والياء) فقد تكون في الحروف وتكون في البشر وتكون أيضا في الأوطان والأمم.

وعلل وطننا العربي كثيرة ومتنوعة،وأكثرها في المال شراهة وطمعا وسرقة ونهبا وتهريبا ويقوم بها بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو الزعماء والحكام.

وبعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو الزعماء والحكام هم أيضا الأكثر تأثيرا والأشد فتكا وتشريدا للقدرات والكفاءات الوطنية.

وبعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو الزعماء والحكام حازوا . بغير منافس . مقام الاستبداد والدكتاتورية والفرعنة، وكانوا الأكثر قمعا والأعظم استبدادا وتحطيما وتدميرا لمقدرات شعوبهم وأمتهم، فقد خنقوها خنقا و بما يكفي لموتها مائة مرة، لكنها لم تمت لأنها أُمَّةٌ بسبعة أرواح كما يقولون.

حكموها دهرا وقهرا ولم يفهموا خصائصها الدفينة وطبيعتها الظاهرة، وطول صبرها وقدرتها على ضبط ذاتها وتجديد نفسها ونفض غبار النوم والكسل والوهن والاستضعاف عن كواهلها.

أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو الزعماء والحكام تعاملوا مع شعوبهم كأنهم أرقام حسابية يمكنهم قسمتها أو طرحها أو حذفها نهائيا أو إبقاؤها، رغم أن بعضهم لا يزال عاجزا عن عد وإحصاء ثروته المسروقة ومقتنياته المنهوبة من عرق أبنائها والموضوعة سرا في مصارف السادة الكبار.

غريبة هذه الأمة، وبسبعة أرواح هى، لكن الأكثر غرابة منها والأشد عجبا هم زعماؤها من بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو، فهم خارج سياق التاريخ والجغرافيا، وخارج نطاق العقل والمنطق، وحتى خارج حدود الخيال في كل ما يفعلونه.

خارج نطاق العقل والخيال في استبدادهم، وخارج نطاق العقل والخيال في سرقاتهم للشعوب.وخارج نطاق العقل والخيال في الكذب على شعوبهم،وخارج نطاق العقل والخيال في محابات أعداء هذه الأمة على حساب وهدر مقدرات الشعوب، وخارج نطاق العقل والخيال في تعذيبهم للشعوب، وخارج نطاق العقل والخيال في عزلتهم عن هموم الناس وحركة التارخ وطبائع الأشياء.

وإذا استعرضت حياة وسلوك كل واحد من هؤلاء الزعماء تجد نفسك أمام شخصية معقدة ومركبة من كل أنواع النواقص والتناقضات، الخوف الشديد، والبطش الشديد، والقهر الشديد، والظلم الشديد، والصلف الشديد، والكذب الشديد.

يظهرون للناس أنهم باقون في أماكنهم استجابة لرغبة الشعب وليكونوا في خدمة الشعب، (لقد أفنيت عمرى في خدمة الشعب التونسي)، (وقد قضيت عمرا في خدمة هذا الوطن وحاربت من أجله، ولم اكن أنتوى الترشح لفترة رئاسية قادمة) (أنا معمر

القذافى عميد الحكام العرب، وملك ملوك إفرقية وأنا الثورة أنا التاريخ! من أنتم؟) (الله، بشار، سورية وبس) تلك هي شعاراتهم بينما يطيحون بكل رغبة للشعب في زوالهم.

بعضهم قارب نصف قرن في التسلط على الناس، فلما طالبه الناس بالتغيير وترك الحكم قال لهم أنا التاريخ وأنا العزة وأنا المجد ولولاى مارعرفتم عزة ولا كرامة ولا سمعت بكم الدنيا.

هؤلاء الزعماء يحار العقل في تحليل شخصياتهم الممجوجة والكريهة والسخيفة.

الشعوب استنفدت كل رصيدها التاريخي من الهتاف ضدهم، واستنفدت أيضا في تفهيمهم كل وسائل الإيضاح وبكل الإشارات الساخرة، وبكل اللغات حتى يفهموا، ارحل، اذهب، تنح، خلصنا، إرحل يعنى إمش، إمش يعنى غُور Go Game Over

معاناة الشعوب بدأت في ظلال بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو ولن تنتهي إلا بازالتهم، فصاحب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو وحده هو الذى أحياهم، وهو وحده الذى يمدهم بالطعام والشراب وأنفاس الحياة، وهو وحده الذى يرعى لهم السلام والأمن.

وصاحب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو هو وحده الذى من حقه أن يستثمر لهم ثروة البلاد في حسابات سرية وباسمه الخاص وفى بنوك يختارها هو.

وصاحب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو هو وحده الذى يستنزف خيراتهم متى شاء ويحتل عقولهم وأفكارهم متى شاء، ويسجنهم أو يعفو عنهم متى شاء، وكل ثرواتهم ملك له وحده، يصادرها متى شاء، وله وحده أن يعطي منها بعض الفتات مِنَّةً ومكرمة لمن شاء.

ومن حق أعوانه ومساعديه أن يعاملوا الشعوب وكأنهم أبقار يحلبونهم متى شاؤا، ويذبحون منهم متى شاؤا،وعصاهم دائما جاهزة لمعاقبة المخالف وتأديب كل بقرة شاردة أو ثور يتمرد.

بعض الطغاة والفراعنة من أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو سقطوا بالفعل، وبقية الطغاة والفراعنة ينتظرون الآن دورهم، ويشعرون بدوار شديد، وتقض مضاجعهم بأكبر الكوابيس وأخطرها مهما كان حجم الجنود والخدم، ولن تتنفعهم

أموالهم ولا أولادهم، وهم من شدة الفزع مع كل طلعة شمس يتحسسون رؤوسهم ليتأكدوا أنهم لا زالوا على قيد الحياة.

حكام لا قلوب لهم وليسوا من جنس البشر، إنهم نوع غريب وعجيب من القوارض يتمتع بأنواع من الأسلحة القذرة شديدة الفتك والتقطيع.

بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو يخافون الشعوب ويخيفونها لأنهم جاروا عليها، ويخشون غضبها لأنهم أذلوها وأهانوا كرامتها.

ويقمعون كل صوت ينادي بالتغيير والإصلاح لأنهم أفسدوها.

ويقربون كل دنيئ ويبعدون كل طاهر برئ وشريف لأنهم سرقوها ونهبوا ثرواتها.

وقد يتساءل المرء هل كان عرب الجاهلية أرقَّ شعورا وأكثرَ نخوة ورجولة وفهما، وأعلى همة وأبعد نظرا من بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو ممن يرتدون الغترة والعقال أو من أصحاب الياقات المنشاة والبدلة الفورمال.

هل كانت قلوبهم أقل قذارة من بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو عرب اليوم؟

هل كان للعِرْضِ والشرف قداسة ومكانة ليست لدى بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو عرب اليوم.

ما الذى جرى حتى لا يتذكر بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو حلف الفضول الذى أنشأه أهل الجاهلية لينصروا به المظلوم وليقفوا فيه ضد كل ظالم جهول؟

ما الذى يُخْرِسُ ألسنتهم ليدينوا بشدة عمليات القتل الجماعية التى يمارسها زميل كفاحهم صاحب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو بشار الأسد بأجهزة أمنه وجيشه والشبيحة في المدن والقرى السورية؟

إلى هذا الحد يزعجهم صوت الشعوب حين تنادى بالحرية؟

إلى هذا الحد يؤرقهم أن تقول لهم الشعوب كفوا عن السرقات والسلب والنهب، واغربوا عن عيوننا لا نريد رؤيتكم؟

إلى هذا الحد تجمعهم غريزة الوحوش في التعامل مع شعوبهم، وتتحكم جينات الاستبداد في تصرفاتهم؟

نظرية المندسين والعصابات المسلحة والقوى الخارجية ثقافة تشبع بها بعض أصحاب الفخامة والسيادة والجلالة والسمو من حكامنا في المنطقة العربية وحدها دون غيرها من مناطق العالم.

نيرون لم يكن عربي الأصل، ولذلك اكتفى بحريق روما دون أن يقتل شعبها، أما نيارين العرب جمع "نيرون" كالأسد والقذافي وعلى صالح وبقية الوجوه الكريهة فهم يريدون حرق الإثنين معا،المدينة والشعب والوقوف على أطلالهما.

غير أن سلاحا جديدا اكتشفته شعوب أمتنا وبدأ يدخل الخدمة الآن "اسمه الشعب يريد" وهو سلاح تبدأ به ساعة الصفر في خريفهم حيث يقضى على كل أسلحتهم وألغامهم وأحلامهم في البقاء أو التجديد أو التوريث ومن ثم تغرب شمسهم ويزول ملكهم وتغرب عنا وجوههم الكريهة، وحينئذ ينقشع الظلام ويبدأ فجر الأمة، ومعه تستمع الأذن بزقزقة العصافير حفاوة بطلول النهار واحتفالا بنسمات الربيع العربي بعد غياب طال انتظاره واستحق انتصاره.

يبقى الشعب ويسقط النظام (*)

في لحظات الشعور بانكسار الإرادة يفقد الإنسان قدرته في السيطرة على ذاته فيتصرف في غيبة الوعى الذاتى بسلوك الحيوان حيث تسيطر عليه غريزة الوحش، ومن ثم يرتكب أكبر الفظائع والفضائح ولا يعبأ بلوم أو عتاب.

الشعور بانكسار الإرادة مؤلم من غير شك، إلا انه لا يمكن أن يكون مسوغا لجرائم قتل عشوائية يستعمل فيها النظام أقذر أساليب الإبادة، كما تستعمل في تسويغها وتبريرها أحط درجات الكذب وأقلها وأسخفها سذاجة واستغفالا.

الإعلام السورى حتى هذه اللحظة يردد أكذوبة المندسين والعصابات المسلحة، وفي صفاقة مَنْ فقد الحياء يحاول استغفال الجماهير، فيصور سورية ساكنة مستقرة، شوارعها هادئة وكأن شيئا لم يكن، تماما كما كان يفعل الإعلام المصرى أيام ثورة ٢٥ يناير حيث كان ميدان التحرير في القاهرة يمتلئ بأكثر من خمسة ملايين يهتفون بسقوط النظام بينما كان التلفزيون الرسمى يظهر ميدان التحرير خاليا من الناس إلا بعض العشاق وهم يتبادلون نظرات الهيام ويتطارحون الغرام.

الصور التى بثها التلفزيون المصرى لميدان التحرير أيام الثورة، كانت لمدينة القاهرة وميدان التحرير في ثلاثينات القرن الماضى حين كان الحنطور هو وسيلة الانتقال وكان اليشمك هو زي المرأة المصرية ومن ثم فلم تنطلى حتى على الأطفال.

النظام السورى يمارس نفس الحيل الساذجة التى أفقدت أصحابها المصداقية والاحترام وقذفت بهم في نهاية الأمر خلف قضبان السجون.

من قبيل الحيل الخادعة أيضا حديث النظام السورى عن الإصلاح والتغيير، وإذا كان النظام جادا في الإصلاح والتغير فلابد للناس أن تشعر بأن تغييرا حقيقيا قد بدأ، وعلى الحزب الحاكم أن يدرك أن الحيل الكاذبة لا يمكن أن تطيل عمر النظام ولا حتى تُجمِّل وجهه القبيح.

أيام الخروج المعهودة بين السورين وشعاراتها رغم تعداد القتلى كل يوم دليل على الإصرار والاستمرار، وإرادة الشعوب لابد أن تحمل على محمل الجد من الأنظمة

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٠١١/٩/٨م

الحاكمة، وعليها أن تستوعب وتستجيب في الوقت المناسب، غير أن الملاحظ أن ردود فعل الأنظمة الدكتاتورية تأتى دائما بعد فوات الآوان.

الغباء السياسي لا يجعل أصحابه يقدرون الوقت بشكل صحيح، ومن ثم كانت استجابتهم لمطالب الشعوب المشروعة قد تخطاها الزمن وتجاوزتها الظروف.

المبادرات الأمنية والحلول عن طريق القوة والشبيحة أو البلطجية هى وسائل الطاغية المستبد في حل المشكلات، وهو لا يمكن أن يفهم أن حاجز الخوف يسقط كلما زاد القهر والقمع الغبي، وأن حجم وكثافة القوة المستعملة تفقد خاصيتها عندما تستعمل في غير موضعها وتتجاوز الحد.

وأن ردود الفعل لهذا الغباء السياسي والقمعى يدفع الوطن للوحدة على اختلاف شرائحه كما أنه محفز لإرادة التحدى ويجعل من الموت هو الخيار الأفضل والأقرب بدلا من المذلة، ومن ثم كان اختيار الشعب لجمعة "الموت ولا المذلة" عنوانا لمظاهراته.

الرئيس الشاب لم يفهم مواطنيه السوريين بعد، ويبدو أن فهمه سيكون متأخرا كما كان أعمامه زين العابدين بن على وحسنى مبارك وعلى صالح والقذافى في ليبيا.

إرادة الشعوب لا يمكن التعامل معها بهذا السخف الأمنى القذر الذى يقتات دماء المواطنين كل يوم، ويقود الوطن لكارثة محققة.

على ضوء الحقائق السابقة يمكن أن نفهم الوضع في سورية، وأن ندرك سر إصرار الشعب السورى على التخلص من حكم الطاغية.

النظام البعثى في سورية له سجل حافل في عالم الفساد السياسي والاستبداد، وخرافة التصدى والممانعة إنما هي مجرد أكذوبة يُسَوِّقُ النظام بها نفسه ويقتات منها، فالجبهة الوحيدة التى ظلت أربعين سنة هادئة وساكنة لا تنطلق منها رصاصة واحدة تجاه إسرائيل، إنما هي الجبهة السورية رغم عبث إسرائيل في السماء السورية وتحليق طائراتها الحربية فوق قصر الرئيس.

وكل مراقب لتاريخ العالم والمنطقة يعرف أن سجل إسرائيل في الجرائم وقتل الشعب الفلسطينى يفوق كل الحدود.

وأن الجهة الوحيدة التى فاقت النازية في تعاملها مع العرب عموما والشعب الفلسطينى بشكل مخصوص إنما هى إسرائيل.

لم يدن منها في سجل جرائم الإبادة الإنسانية إلا سلوبودان ميلوسيفيتش، ورادوفان كاراديتش في يوغسلافيا السابقة (صربيا والجبل الأسود).

في السباق غير المشرف ضرب الرئيس السابق حافظ الأسد للعرب فيه بسهم كبيرفي الإبادة الجماعية، ففعل بمدينة حماه مثلما فعل الصرب في البوسنة والهرسك.

ما يقع الان في سورية مفزع ومروع بكل المعايير الإنسانية والقانونية، ولكنه ليس جديدا، ويبدو أن السادة السوريين تعودوا عليه من تلك الأسرة التى حكمتهم قرابة ٦٠ سنة ومن ثم فقد أعدوا أنفسهم له، ولن تنكسر بإذن الله إرادتهم.

الأسد الأب له سجل حافل في عالم الإجرام والإبادة فقد ارتكب عدة مجاذر

منها مجزرة تدمر (١٩٨٠) حيث فتحت نيران الرشاشات على السجناء في تدمر، وقتل فيها أكثر من ألف مواطن سوري من خيرة المواطنين نزاهة ونظافة يد، وخبرة وتأهيلا وعلماً، ومنها مجزرة جسر الشغور، ومجزرة هنانو ومجازر ريف إدلب وغيرها كثير، ثم مجزرة حماة حيث بدأت في ٢ فبراير ١٩٨٢ م، وقد تم فيها تدمير مدينة حماة حتى بلغ عدد الضحايا مايقرب من خمسين ألف نسمة وتدمير ٨٨ مسجدا.

الصمت العربي في حينه على جرائم الأسد في حماه شكل في جبين الأنظمة العربية عارا مخزيا، فقد اعتبرته أغلب دول العرب الأجاويد شأنا داخليا لا يجوز التدخل فيه أو الاعتراض عليه.

الموقف العربي من تلك الجريمة في ذلك الوقت دفع مناحيم بيجين ليقول لمن يعترض على قتله للفلسطينيين: "هذا شأن داخلى لا علاقة لكم به، وعلى مقربة منا مدينة أسمها حماة أبيدت ودمرت فلماذا لم يسمع أحد لكم صوتا".

جرائم الداخل وانتهاك حرمات الوطن شعبا ومصالح يغري الآخرين في الخارج بأن يفعلوا بشعوبنا ما يفعله بعض حكامنا بنا في الداخل "وما يهن يسهل الهوان عليه"

على نفس خطى الجريمة صار سلفه بشار وكان الناس يتوقعون منه أن يكون على عكس أبيه، فهو قد تعلم طب العيون وسافر واحتك بالناس ورأى كيف تتمتع شعوب الغرب بحرياتها وكيف تتعدد الأحزاب وكيف تتم عمليات تداول السلطات بشكل ديموقراطي يكون الحكم فيه لصوت المواطن واختياراته، وكيف يتقاسم الحكام وشعوبهم متاعب الحياة اليومية؟

لكن الرئيس الإبن سار على نهج أبيه ليثبت أن شجرة العلقم لا تثمر إلا علقما ولو سقيناها بالعسل المصفى.

التوازنات السياسية التى تخضع لحساب المصالح وتحالفات الصفقات الاقتصادية والتى تجعل أصحابها يلوذون بالصمت الآن تجاه تلك المجاذر اليومية تصبح قذرة الوسيلة والغاية حين يكون ثمنها إذلال شعب كريم وإراقة دماء أبنائه الأبرياء.

ميزان المصالح ومفهوم المنفعة في حضارة الغرب المادية لا يجوز أن يكون هو المعيار الضابط لسلوك من ينتمون إلى أمتنا الإسلامية من حكامنا لأن المنطلق مختلف في المنهج والرؤية والتصورات، فنحن أمة للدماء والأعراض والأموال وكرامة الإنسان قداسة خاصة في ديننا، ومن ثم فالأنظمة العربية ترتكب الجرم الأكبر حين لا تهب لنصرة شعب يباد.

كما أنها تقع في المحظور الأكبر حين ترهن مواقفها وردود أفعالها بما يصدر في العاصمة الأمريكية انتظارا لمعرفة اتجاه الرياح.

ودمشق كانت في يوم من الأيام عاصمة الخلافة الأموية التى تهب لنصرة المظلوم، ومن ثم فلها في أعناق الشعوب حقوق يجب أن تؤدى، ولها في وجدان الأمة شرف يجب أن يصان.

والشعوب لن تغفر لحكامها هذا التخاذل.

أما الشهداء الذين يسقطون كل يوم على أيدى رجال الجيش والأمن وشبيحة النظام فهم الوقود الطاهر الذى يمد الثورة بالاصرار والاستمرار.

ودماؤهم لن تذهب هدرا وإنما في مقابل كل قطرة منها ترتعش أيدى النظام وتتقلص مساحة نفوذه ويتآكل يوما بعد يوم، وستستمر الانتفاضة ويبقى الشعب ويسقط النظام.

زهرة المجذوب فى حديقة الثورة (*)

حدائق الحرية فى ثورة الشعب السورى الأبى ترتوى كل يوم بالدماء الزكية، والأسر السورية تقدم كل يوم عشرات الشهداء لتروى تلك الحدائق التى يصر النظام الفاشى على حرقها، ولن يتمكن بإذن الله أبدًا.

ومن صفات الطاغية الدكتاتور أنه فى لحظات الشعور بانكسار الإرادة يغيب وعيه، فيفقد قدرته فى السيطرة على ذاته، فيتصرف بسلوك الحيوان حين تسيطر عليه غريزة الوحش، ومن ثم يرتكب أكبر الفظائع والفضائح، ولا يعبأ بلوم أو عتاب.

الشعور بانكسار الإرادة مؤلم من غير شك، إلا أنه لا يمكن أن يكون مسوغًا لجرائم قتل عشوائية يستعمل فيها النظام أقذر أساليب الإبادة، كما تستعمل فى تسويغها وتبريرها أحط درجات الكذب وأقلها وأسخفها سذاجة واستغفالاً.

الرئيس الابن بشار الأسد سار على نهج أبيه، ليثبت للدنيا كلها أن شجرة العلقم لا تثمر إلا علقمًا، ولو سقيناها بالعسل المصفى.

التوازنات السياسية التى تخضع لحساب المصالح وتحالفات الصفقات الاقتصادية والتى تجعل أصحابها يلوذون بالصمت الآن تجاه تلك المجازر اليومية تصبح قذرة فى الوسيلة والغاية حين يكون ثمنها إذلال شعب كريم، وإراقة دماء أبنائه الأبرياء.

ميزان المصالح ومفهوم المنفعة فى حضارة الغرب المادية لا يجوز أن يكون هو المعيار الضابط لسلوك من ينتمون إلى أمتنا الإسلامية من حكامنا؛ لأن المنطلق مختلف فى المنهج والرؤية والتصورات، فنحن أمة للدماء والأعراض والأموال وكرامة الإنسان قداسة خاصة فى ديننا، ومن ثم فالأنظمة العربية ترتكب الجرم الأكبر حين لا تهب لنصرة شعب كريم يباد.

كما أنها تقع فى المحظور الأكبر حين ترهن مواقفها وردود أفعالها بما يصدر فى العاصمة الأمريكية وعواصم الغرب انتظارًا لمعرفة اتجاه الرياح.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٢ – ٠٨ – ٢٠١٢م

ودمشق كانت فى يوم من الأيام عاصمة الخلافة الأموية التى تهب لنصرة المظلوم، ومن ثم فلها فى أعناق الشعوب حقوق يجب أن تؤدى، ولها فى وجدان الأمة شرف يجب أن يصان، والشعوب لن تغفر لحكامها هذا التخاذل، خصوصًا بعدما أضحت سورية الآن عاصمة التضحيات والبطولة والإصرار بجدارة.

الداعية الشاب مصطفى المجذوب كان آخر من وصلنا نبأ استشهاده فى ثانى أيام العيد ممن ضحوا من الشهداء الذين سقطوا ويسقطون كل يوم على أيدى رجال الجيش والأمن وشبيحة النظام.

دماء مصطفى المجذوب وبقية الشهداء هى الوقود الطاهر الذى يمد الثورة بالإصرار والاستمرار.

أما أسرة الشاب الشهيد فقد رفضت عبارات التعازى والمواساة، وأصرت على التهنئة والمباركة، ومن ثم فقد أعادت لذاكرة الجميع دروسًا كنا قد نسيناها فى طمأنينة النفس والسكينة والقدرة على التسامى فوق الأحزان فى أشد الخطوب.

دماء الشهداء لن تذهب هدرًا،وإنما فى مقابل كل قطرة منها ترتعش أيدى النظام وتتقلص مساحة نفوذه ويتآكل يومًا بعد يوم، وستستمر الثورة ويبقى الشعب ويسقط النظام.

روعة التضحية وسكينة القلب وجلال المشهد كانت السمات التى تخللت حفل تهنئة آل المجذوب وهم يزرعون شجرة جديدة للحرية في أرض سورية،ويروونها بدماء ابنهم الشاب مصطفى.

الأخ الأكبر للشهيد د. فداء لم يكن معنا هنا، وإنما كان هناك فى الميدان أيضا، وقد شاركنا الفرحة والتهانى عبر الهاتف، وبعبارات أدبية متهدجة أوضح الزميل الفاضل أن الشهداء ليسوا فقط زهورًا تفتحت في حدائق الوطن، إنما هم نخيل زرعت فى مدنه وميادينه وشوارعه وقراه، نخيل تحمل الثمار لتطعم الجائع وتظلل العامل والفلاح، وتعلو كل عام في سماء الحرية لتحقق الكرامة لأبناء سورية.

الهاتف لم يسعفنا ولم يسعف العالم الشاب والزميل المترع بالوطنية ليقول كل ما يريد، ولنسمع نحن أيضًا منه كل ما نريد. ولأنى أعرفه وأعرف ما يدور بخاطره وما يجول فى نفسه الكبيرة والشجاعة أبيح لنفسى أن أقول نيابة عنه نعم.

نعم دماء الشهداء نخيل ترتفع هاماتها لا بعناقيد الرطب الجنى،وإنما بعناقيد الشجاعة لتعيد لسوريا مجدًا فى البطولة غاب زمنًا طويلاً، ولتضيف لهذا المجد سبقًا للشام كله فى عالم العزة والكرامة والحرية.

أرواح الشهداء هى ينابيع الماء التى تروى حقول الوطن وتحول صحراءه إلى روضات وجنات، ودماء الشهداء هى الأشجار الطيبة التى تظلل سماء الوطن فتحميها من تصحر الطغيان والاستبداد والدكتاتورية.

وهى قطرات الندى التى تبلل أوراق الحدائق فى الصباح الباكر وعند المساء لتحميها من حر الهجير ورمضاء القيظ.

وهى الجذور القوية التى تساعد على مقاومة العواصف وتحمى من السقوط.

وهى القواعد المتينة التى تحمى بناء المجتمع الجديد، مجتمع ثورة الشام التى ضربت المثل فى التضحيات والإصرار على إسقاط نيرون سورية وطُغمَتُه الذين فقدوا أبصارهم وبصيرتهم.

دماء الشهداء هى الترياق الذى يحمى الشام وأبناءه وأجياله المقبلة من سموم القهر والذل والحرمان والفساد.

وهى روعة التضحية وسكينة القلب وجلال المشهد، ليس فى ميادين دمشق وحدها، وإنما فى كل مدن سورية الأبية التى تستعصى على كسر الإرادة أمام كل قوافل الجبن والعار الذين استأجرهم النظام لقتل الشعب السورى الأبى.

دماء الشهداء هى الأمل القادم من رحم الحرية ليحيى نفوسًا كادت تموت كمدًا وغيظًا، ويوقظ عقولاً نامت حتى غابت عن الوعى، ويفجر وجدانًا مليئًا بقيم الحب والإخوة والتسامح الذى فقدناه زمنًا طويلاً.

هى شعلة الضوء الأولى التى توقظ بالنور أجفان الحياة فى الشام كله، فينبثق من جذوتها وحرارتها طاقات وأنوار السوريين حين تتجلى وتتلألأ عظمة وتضحية ونبلاً لتبدد ظلمات قرون كاملة.

هى شمس سطعت من أعماق الشهيد المتألقة لتحكى قصة الإصرار على مقاومة الظلم والاستخفاف بالدكتاتور وقوته ولو بصدور عارية.

هى قمر أضاء فى سماوات الشام فحوَّل ليلها نهارًا، وظلمتها ضوءًا، وظلمها عدلاً وكرامة، وليؤكد قدرة الشعب السورى الأبى على المقاومة، ولو من بين رفات المقابر.

دماء الشهداء تزرع فى أرض الحرية زهرة جميلة لا تذبل أطرافها ولا تتغير رائحتها ولا تجف عصارتها الحية، هى حلم جميل ترددت كلماته ورسمت حروفه على الوجوه السمر، وتحقق فى خطانا.

هى إيمان بأنه إنسان وله رسالة، وعليه واجبات وله حقوق.

هى إرادة شعب أراد،وقوة أمة تحركت، وعزيمة ثورة عرفت طريقها وحددت هدفها والويل لمن يعوق حركتها أو يعطل مسيرتها.

هى نسمة حب هبت بعفوية على قلوب الصبايا فخفقت، وعلى عقول الشباب فتحرر، وعلى مشاعر الأم فتحركت بأولادها فى كل ميادين الشام لتساهم.

دماء الشهداء هى نبض جديد فى الجسد السورى أمده بإكسير الشجاعة، فكسر كل حواجز الخوف، وحطم كل أسوار القهر والذل وقرر أن يعيش حرًّا.

الشاب السورى النحيل الصامت عرف طريقه وأبان عن قدراته حين قرر أن يساعد الضحايا وأن يغيث المقهورين، رغم خطورة المجازفة وسقوط القذائف واصطياد الأبرياء بنيران طاغية الشام.

جسارة وسواعد ابن المجذوب الذى تربى فى بيت النضال والعلم هى رمز للمقاومة الشريفة حين تتحدى وتتصدى ولو بصدور عارية أحدث ما أنتجته مصانع القهر من وسائل التخويف والرعب.

كان الشاب مصطفى يمثل ريحانة فواحة الرائحة، جميلة المظهر فى أسرة المجذوب، لكنه قرر أن يكتب بدمائه كلمات الحرية والكرامة والعزة فى ميدان الشرف، وأن يموت

شهيدًا، وليرفض أبوه وأمه كلمات المواساة، ويطالبان بدلاً منها بالتهنئة؛ لأن الأسرة قدمت بعض واجبها ونالت ذلك الشرف العظيم.

الشاب مصطفى المجذوب كان لوحة تحركت فيها كل أمواج النهر السورى الساكن منذ العصور فأفاض على شطآنه ليكرر كتابة البيت المشهور:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

إصرار الشاب على الواجب كان جزءًا من روض الأسرة الريان، سقطت بعض ثماره فى ميدان الواجب، لتبقى جذوره فى الشام أصيلة الأعماق، تستعصى على الطاغية وابن الطاغية. تستمع إليه فى دروسه فتشعر أنه قلم التاريخ حين يتوهج غبطة وسرورًا وهو يكتب حروف الحرية، ويخيل إليك أنه دفتر أشعار عتية، لا تكفى صحائفه كل أنواع البطولة، كل دواوين الشعراء تعجز قصائدها عن الوفاء بحق الأرواح الطاهرة التى ذهبت لنبقى، وضحت لنعيش،وغابت لتكون الشام كلها حاضرة وفاعلة.

الشاب مصطفى المجذوب وغيره من الضحايا يصنعون بتضحياتهم ودمائهم عبير الحب يستنشقه أهل الشام كله، بعدما حاول الاستبداد أن يرضعهم كؤوس الكراهية.

ونزولاً على رغبة أسرة الشهيد وامتثالاً لأمرهم أقول لهم: نحتسبه عند الله شهيدًا ولا نزكى على الله أحدًا، تهنئة من القلب فقد فاز وسبق إلى الفردوس فارسكم.

النافذة الثامنة

أزمة الدستور

أم أزمة في الصدور والجذور؟

القضية المثارة هذه الأيام ليست قضية دستور بقدر ما هى قضية جذور، وهى قضية قديمة بدأت جذورها فى أرض أمتنا بعد حلقات من الصراع، السياسى بينها وبين أعدائها منذ زمن قديم، انتهت بثلاثة أنواع من الإقصاء:

الأول: سياسى تم بسقوط الخليفة.

والثانى: تشريعى تم باستبعاد أحكام الشريعة الإسلامية، واستبدال منظومتها التشريعية بمنظومة أخرى مستوردة ومعلبة فرضت قسرًا وقهرًا وهى لا تناسب البيئة.

والثالث: ثقافى تم بمحاولات هدم اللغة والسخرية منها واستباحة الخطأ فيها، وكان هو الأخطر لأنه يحفر خنادق من التجهيل تحول بين المسلم وفهم كتابه، والقدرة على استيعابه، ومعرفة مقاصده وأهدافه، واستلهام نصوصه وأحكامه وتنزيلها على واقعه وتحكيمها فى كل المجالات.

أول أعراس الحرية..
الاستفتاء على تعديل الدستور (*)

ليعذرني القارئ الكريم هذا الأسبوع مرة أخرى عن مواصلة الكتابة في سلسلة "الثورة بين تحليل الخبراء ومفاجآت الأقدار"، إذ لا يجوز أن تحتفل مصر بـ"أول أعراس الحرية وأن يغفل مثلى عن هذه المناسبة العظيمة وأنا المتيم بها، فتمر دون أن أكتب عنها وأن أكتب لها، ولأنى أعرف أن وعي القارئ الكريم لن يسامحنى إذا غفلت، وأنه سيعاتبنى غاضبا إذا مرت المناسبة العظيمة دون أن أكتب عنها؛ لأنها بالنسبة لنا جميعا الكاتب والقارئ معا تمثل أول عرس من أعراس الحرية، في أول موسم من مواسم فرح الوطن بتحرير إرادة أبنائه.

المتابع للحوار الذى يجرى الآن في الوطن الحبيب يجد عجبا.

فبعد سنوات عزلة الشعب عن الحرية في اتخاذ قراره بنفسه، ومصادرة كل رأى لا يوافق الهوى الملوث للحزب الأوحد والرئيس الأوحد والقرار الأوحد، وبعد تزوير إرادة الشعب في انتخابات شهدت الدنيا كلها بشفافيتها في التدليس والتزوير الفاجر والصريح.

وبعد تكميم الأفواه الحرة وشراء الأقلام التى كانت وما زالت للبيع سادت حالة من الإحباط العام في كل المجالات ومن ثم أصيب الكثير من أبناء شعب الكنانة بما يمكن أن نطلق عليه بالاكتئاب الوطنى.

والاكتئاب نوعان سلبى وإيجابي.

ومن خصائص الاكتئاب السلبي أنه يعزل صاحبه عن الأحداث ويجعله مترددا ومتراجعا ومنسحبا،فلا شئ يستحق ولا شئ يهم ولا شئ يتغير.

يقابل هذا النوع من الاكتئاب نوع آخر هو الاكتئاب الإيجابي وهو اكتئاب يعكس في سلوكيات صاحبه صفات مناقضة، فيجعله سريع الحركة، جسورا في اقتحام المخاطر ولو كانت مؤذية وخطيرة، ومندفعا لما يخطر على باله ولو للوهلة الأولى وبدون تفكير.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٧ – ٣ – ٢٠١١م

هذه الصفات جعلت بعض كبار ولاة الأمر في العهد المخلوع يتخذون منها ذريعة ليقولوا عنا في وسائل الإعلام العالمية بأننا لسنا مؤهلين لممارسة الديمقراطية، ولا نملك نضوجا في استعمالها، ومن ثم فلابد من أن نكون تحت الوصاية، وهذه الوصاية لابد أن تكون من السادة الكبار مباشرة، أو يتولاها وكلاء من بنى جلدتنا ينوبون عنهم ولا ينوبون عنا في إدارة شؤون البلاد وقيادة الدولة، ولربما كان هذا المسؤول بهذا التصريح يرشح نفسه ويعرض خدماته ليكون وكيلا عنهم في إدارة شؤوننا السياسية.

التصريحات المذكورة شكلت نهاية سياسية لصاحبها، وأصابت أغلب الشعب بخيبة أمل، وكانت ردات الفعل رفضا مطلقا للتصريحات ومن صرح بها.

الشعب المحروم من حقه في إدارة شؤون بلده بحرية وعدالة وعن طريق الديمقراطية الصحيحة تُمَارسُ عليه تلك الوصاية الآن ليقول: لا للتعديلات الدستورية المقترحة.

التعديلات الدستورية في الحقيقة جاءت ملبية لمطالب المرحلة، وهي في حقيقتها تشكل بموادها المعدلة آلية الوصل بين مرحلتين:

مرحلة الشرعية الثورية التى بها وعن طريقها تسقط كل مؤسسات الدولة القائمة، وبين الشرعية الدستورية التى تؤسس لبداية مرحلة جديدة وبناء مؤسسات جديدة ودستور جديد ومجالس نيابية جديدة ورئيس جديد بسلطة محدودة ولفترة زمنية محدودة وبعيدا عن أي تزوير وتحت حراسة وإشراف القضاء بداية من إعداد الكشوف الانتخابية وحتى إعلان النتائج، ومن ثم فهذه التعديلات تمثل قنطرة ينتقل بها المجتمع من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية وفي مدى زمنى أقصاه ستة أشهر وهذا هو السقف الزمنى الذى يجب خلاله أن يكون كل شئ قد اكتمل، انتخابات برلمانية لمجلسي الشعب والشورى، ثم انتخاب للرئيس ومن ثم الدعوة لجمعية تأسيسية لصياغة دستور جديد للبلاد.

اللجنة التى تولت صياغة النصوص المعدلة ليست في حاجة لشهادة صلاحية من أحد لا منى ولا من غيرى لأن أعضاءها رجال ثقاة، وهم محل إجماع وطنى ومشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والتجرد، وقد كانت اللجنة على درجة من الوعي والإحاطة والإدراك وكانت دقيقة في صياغتها للتعديلات المطلوبة بما لا يترك مجالا للتأويلات الفاسدة أو الاستغلال للهوى السياسي.

الاعتراضات التى وجهت إلى التعديلات لم تتناول نصوص التعديلات ولا معناها ولا حتى روحها، وإنما تحدثت عن عموميات ومطلقات لا تصلح دليلا يقدح في تلك التعديلات، بمعنى أن أصحابها يقولون مثلا: "شهداء ثورة ٢٥ يناير يستحقون دستورا جديدا"، "المدة ليست كافية لاستعدادات الأحزاب لخوض الانتخابات "، "لا مانع من بقاء المجلس العسكرى مدة أخرى"، "التعديلات الجديدة معناها هيمنة الإخوان والحزب الوطنى على مقاليد الأمور في الدولة"، وكلام كثير من هذا النوع العائم الذي يشبه قطرات الماء في غربال بحيث لا يمكنك الإمساك بها.وهكذا يتم التشويه وطمس الحقائق على طريقة سمك لبن تمر هندى.

ونحن هنا لا نناقش أشخاصا ولا تيارات بعينها كما أننا لا ننحاز لفريق على حساب فريق آخر ولا نرجح كفة تيار على تيار فلست منتسبا إلا إلى الشعب المصري العظيم، ومن هنا أناقش أفكارا طرحت وتطرح تحدث ضبابا حول الحقيقة وتتسبب في بلبلة وتردد لدى عامة الشعب لا تجوز أصلا بمقتضى أمانة الكلمة في أية مرحلة من مراحل الحياة السياسية وبخاصة هذه المرحلة بالذات لما لها من حساسية ولما يتسبب فيه ذلك الطرح من انقسام بين فئات الشعب في وقت نحتاج فيه إلى كل ما يجمع الصف ويوحد الكلمة ويزيل كل أسباب الشك بين فئات وشرائح الشعب المصرى، والقضية هنا لا تتصل بحرية الرأي بقدر ما تتصل بالتأثير على المصالح العليا للوطن.

الحجج التى طرحت كاعتراض على التعديلات هي في الحقيقة شهادة لهذه التعديلات عند النظر المتأمل، فالمعترضون يقولون لك: لا نريد ترقيعا وإنما نريد دستورا جديدا.

المطلب منطقي وهو يعبر عن رغبة الجميع وأمانيهم في الحصول على أكبر قدر ممكن من الحقوق والحريات التى حرمنا منها فترة طويلة، لكن ترك المتاح ورفض التعديلات والإصرار أولا على دستور جديد يضيع الممكن المتاح الآن بكل ما فيه من حماية لحقوق الشعب في انتخاب برلمان عن طريق التصويت الحر والمنضبط بقواعد الرقابة والديمقراطية النزيهة ثم انتخاب رئيس بسلطات محددة في المدة والتصرفات، وضبط أجهزة الرقابة بأن تكون عيون الشعب عليه، كل ذلك يضيع عندما نقول لا للتعديلات الدستورية، عندما نقول لا للتعديلات الدستورية ونطالب بانتخاب الرئيس أولا فذلك يعنى استبدال طاغية بفرعون له سلطات غير محدودة، ومن ثم فهو الذى

يصيغ الدستور ويفصل مواده وفق الرغبة والهوى وبما يضمن له سلطات مطلقة، ثم يكون من حقه أن يختار حاشيته وأن يختار نيابة عنا المجلس الذى يتعاون معه، وسيجد ترزية القوانين فرص عمل جديدة، ومعنى ذلك أننا نكون قد رجعنا إلى الخلف سنوات، ويتكرر في حياتنا السياسية ما فعله الحزب الوطنى ومعه أحمد عز وحاشيته.

التيارات التى تنادى بعدم الموافقة على التعديلات الدستورية لا تفعل ذلك من أجل الديمقراطية، وإنما هى مدفوعة لهذا الخيار خوفا من الديمقراطية نفسها، ولأن عدم الموافقة على تعديل الدستور تعنى تأجيل كل شئ لحين انتخاب رئيس جديد، وهذه المدة كافية للحزب الوطنى، إذ إننا بهذا التأجيل نكون قد أعطيناه فرصة الزمن الذهبية التى يستعيد فيها أنفاسه للعودة بثوب جديد، فرجاله طلقاء، وهم أغنياء، وكوادره موجودة ومنتشرة في المحليات كلها، ويمكنه أن يلملم عقده ويعود مرة أخرى،ورموزه ورؤوسه لا زالوا يمارسون دورهم، وبعضهم في قمة هرم السلطة ويمارس عمله من القصر الجمهورى، ثم إن الرئيس المخلوع ووريث عرشه وعائلته لا زالوا في مصر وعلى بعد أميال من القاهرة، فهل تريدون التأجيل لتمنحوهم فرصة العودة بثوب جديد وتغيير في بعض الوجوه؟

أو يكون بقاء الحكم العسكرى هو الحل الآخر؟ ومع ثقتنا الكاملة في قواتنا المسلحة، إلا أن سيناريو ثورة سنة ١٩٥٢م يمكن أن يتكرر مرة اخرى حيث للسلطة بريقها وإغراؤها وجاذبيتها والعسكر بشر، والبشر هم البشر في كل العصور.

حجم المجازفة هنا خطير ومكلف، والذين يقفون ضد التعديلات الدستورية يدفعون بنا لهذا الخيار المر، وإذا كانت التعديلات الدستورية تعديلات مؤقتة تعبر بنا مرحلة الاهتزاز والاضطراب والفوران الوطنى الذى نعيشه اليوم ثم يتم الدعوة بعد استقرار الأمور لتأسيس جمعية وطنية تضم أهل الخبرة والاختصاص لصياغة دستور جديد يطرح على الشعب في وجود برلمان منتخب بإرادة الشعب، ورئيس جاء إلى الحكم أيضا بإرادة الشعب، فلماذا كل هذا الضجيج حول المواد المعدلة؟ ولماذا نجعل من الموافقة على التعديل أو الاعتراض عليه قضية يتخاصم المجتمع حولها.

هل لأن هناك من يخاف من الديمقراطية أن تأتى بخصوم له في الفكر والتوجه؟

هل لأن هناك كما يقولون تيارا جاهزا وله حضوره وتأثيره في الشارع المصري وسيفوز حتما في الانتخابات المقبلة؟ وما العيب في ذلك؟ ثم ألا يكون طرح القضية بهذا

الشكل هو نوع من تكرار استعمال الفزاعة التى لوح بها الرئيس المخلوع ثلاثين سنة ليحكم بقانون الطوارئ.؟

وإذا كان التيار الجاهز وهم يقصدون تيار "الإخوان" قد أعلن أكثر من مرة وعلى لسان قادته وبكلام قاطع أنهم لا ينون المنافسة على موقع الرئيس، ولا يريدون أن يشكلوا أغلبية في البرلمان، وسيكتفون بثلث الأعضاء ليشركوا ويشاركوا الأحزاب الأخرى، وهذه في الحقيقة حنكة سياسية، وهم لا يمكنهم نقض هذه الوعود لسبب بسيط وهو أنهم لا يريدون أن يحققوا ظنون خصومهم السياسيين، كما أن نقضهم لما قطعوه على أنفسهم يفقدهم المصداقية تماما ويخرجهم من الساحة السياسية، وهم بغير شك أذكى وأنضج من أن يقعوا في هذا الخطأ الفادح، وقد بعثوا بتلك الرسالة داخليا وخارجيا، وقد تغيرت وجهات نظر الكثيرين من أبناء الشعب تجاههم بعد الثورة، وزاد رصيدهم الشعبى لمواقفهم التى ترفعت عن الحزبية والفئوية بينما الآخرون لا يتمتعون بحضور في الشارع المصرى وليسوا جاهزين لخوض الانتخابات ومن ثم فقد ينكشف غطاؤهم الشعبي؟

وإذا كان التيار الذى يحظى بالقبول والحضور ويتمتع بالجهوزية وقد كان ولمدة طويلة محظورا عليه كل أنواع النشاط السياسي وغير السياسي، بل كانت توجه إليه الضربات الإجهاضية والاستباقية بين الحين والآخر ومع ذلك ظل صامدا وحاضرا ومؤثرا فهذه شهادة له وإدانة لموقفكم من جوانب متعددة نلخصها في الآتى:

أولا: أن تيارهم كان محظور النشاط، والانتساب إليه يشكل لصاحبه مشكلة تزج به في غياهب السجون والمعتقلات وتحرمه من كل الوظائف وتسبب له قيودا غير معدودة في الحركة، بينما لم يجر عليكم أنتم هذا الحظر ولم تتعرضوا لما تعرض له هذا التيار ومع ذلك انتظمت صفوفه وأصبح جاهزا بينما لم تنتظم صفوفكم، ولم يكن لكم في الشارع حضور أو تأثير ومن ثم فكيف يثق بكم الشعب في إدارة البلاد بطريقة ديمقراطية؟

وهل الهروب من القصور والتقصير يكون برفض التعديلات الدستورية وطلب تأجيل الانتخابات وحرمان الشعب المحروم من ممارسة حقوقه؟

إن كان الأمر كذلك فهذا يعنى أن ركوبكم لموجة الدعوة إلى الديمقراطية يفتقد المصداقية، وأنكم لا تؤمنون إلا بديمقراطية الإقصاء على طريقة ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨).

ثانيا: إذا كانت دوافع رفض التعديلات الدستورية نابعة من حالة الاكتئاب الوطنى الذى عشناه جميعا نتيجة العزلة السياسية فنحن نتفهم هذه الدوافع لأنها نتيجة طبيعية لتمرد المكتئب حتى على الدواء الذى يساعده على الخروج من أزمته النفسية، لكن هذا الرفض بقدر ما يمثل حقا لأصحابه في ممارسة الحرية التى غابت عنا زمنا طويلا، إلا أن القبول به يشكل في الوقت ذاته استمرارا للأزمة، ويعنى أن بعضنا يساعد البعض الآخر لا في الشفاء وإنما في استمرار المرض، وهذا غير مقبول في فقه المصلحة، كما أنه غير معقول في منطق العقل والحكمة.

ثم إنه تكريس لدعوى عدم النضوج السياسي، وأننا لا يناسبنا إلا الاستبداد، وأننا يجب أن نظل دائما تحت وصاية الآخرين أو وكلائهم ومن ينوبون عنهم، وهذا ما لا يقبله كل مصرى شريف ولا يرتضيه مواطن حر، وإلا فلماذا كانت الثورة بكل تضحياتها؟

ثالثا: إذا كان الرفض في باطنه يستهدف محاولات تغيير المادة الثانية من الدستور بينما يرتدى في ظاهره رفض الترقيع والمطالبة بدستور جديد، فإننا نذكركم بأن كل أمم الأرض لها ثوابت لا تسمح لأحد أن يعبث بها أو يتجاوزها ويتعدى عليها ودون ذلك عندهم لا قرط القتات كما يقولون، وإنما قطع الرقاب. فهل عقائدنا وثوابتنا أقل في الحماية والتقديرو القداسة من عقائد الآخرين؟.

نقول لكم وبملئ الفم والعقل والفؤاد: مصر دولة مسلمة، دينها الرسمي هو الإسلام،تحمى وتحفظ كل حقوق مواطنيها من غير المسلمين وتعتبرهم إخوة لكل أبنائها وشركاء في الوطن، ولن تسمح لأحد مهما علا كعبه أن يتلاعب بهويتها الإسلامية، أو أن يقطعها عن دينها أبدا ومن ثم فالمادة الثانية من الدستور مادة سيادية لا يجوز المساس بها، والكلام عنها تصريحا أو تلميحا خط أحمر، ومع التعديلات أو حتى مع الدستور الجديد سنواجه معا نفس الموقف وسيكون الشعب المصري بغالبيته الساحقة ضد من يريدون أن يغتالوا هويته وسيكون سيف الديمقراطية ذاتها والذى تخافون منه الآن هو الوسيلة والسبيل لكشفهم وإبعادهم عن الساحة السياسية وستجربون ذلك بأنفسكم.

أما إذا كان رفض التعديلات والمطالبة بانتخابات رئاسية واختيار رئيس لديه القابلية

لوجود شللية جديدة، فإن ميدان التحرير مفتوح وجموع الشعب الهادرة والتى ضحت وحشدت من أجل تغيير النظام لن ترضى أبدا باستبدال طاغية بطاغية واستبدال شلة الحزب الوطنى التى عانينا منها بشلة أخرى تريد أن تعيد الزمن والتاريخ إلى الوراء.

ومن ثم نقول للجميع تعالوا إلى كلمة سواء لصالح الوطن، وليختار الشعب بحريته وإرادته من يقود السفينة الوطنية،وليسمو كل منا عن المصالح الخاصة والانتماءات الفئوية الضيقة، ولنتعلم جميعا،الموافقون على التعديل والمعترضون عليه، أن النجاة لسفينة الوطن نجاة لنا جميعا موافقون ومعترضون، وأن الخروق التى يحدثها البعض اليوم في سفينة الوطن ستسبب غرق السفينة ونغرق معها جميعا،موافقون ومعترضون لا قدر الله، ولنأخذ الآن ما هو متاح فنقول نعم للتعديلات الدستورية، ثم نطالب ببقية الاستحقاقات. وإلا فإن لا للتعديلات الدستورية... تعنى نعم للتبعية والاستبداد.

وفى أول عرس للحرية، ومع أول مواسم فرح الوطن بتحرير إرادة أبنائه،أزف من كل قلبى خالص التهانى لمن يقولون لا؛ لأنهم يمارسون حقهم في الحرية،وخالص التهانى والشكر لمن يقولون نعم؛ لأنهم يمارسون حقهم ويؤدون واجبهم وأستغفرالله لمن قال لا،وأدعوه سبحانه لمن قال نعم، وأقول قولى هذا ولست وكيلا عن أحد.

مصر والسعودية.. بعدما هدأت العاصفة (*)

قانون المصالح هو القانون السائد عادة في العلاقات الدولية، وكل كلام غير ذلك هو من قبيل المجاملة التى تقال أحيانا على ألسنة الدوبلوماسيين.

هذا القانون ينظم القواعد الثابتة التى تحكم كل العلاقات بين الدول، غير أن بلدا واحدا يستثنى من هذه الأحكام إذا اعتبرناها قوانين حاكمة للعلاقات الدولية، وهذا البلد هو المملكة العربية السعودية في علاقتها بالدول الإسلامية كلها، ذلك لأن الرباط هنا ليس فقط رباط المصالح المادية، وإنما هو رباط روحى صاغه الله قانونا يحكم وجدان المسلمين في كل مكان ويتقدم على كل قانون من صياغة البشر، فيجعل أفئدة من الناس تهوى إلى مقدسات هذا البلد وتَحِنُّ إليه، وكانت تلك دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام حين ترك الزوجة والولد في رعاية ربه، ثم توجه القلب المعنَّى داعيا: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

القانون الحاكم للوجدان الدينى أيضا طالب كل مسلم في صلواته بأن يولى وجهه شطر المسجد الحرام من أي مكان هو فيه على أرض الله فقال ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٠).

القانون السائد إذًا في تلك العلاقة يقنن ارتباطات أخرى في الزمان والمكان تتجاوز حدود الجغرافيا الاقتصادية، كما تتعدى وتتجاوز حدود التفسير المادى للتاريخ إرسالا واستقبالا بين البلدين –المملكة العربية السعودية ومصر– بشكل مخصوص أو في علاقات الأمم ببعضها بشكل عام.

التمويل الروحى الذي صدر ويصدر من هذا البلد أكبر بكثير من كل المعونات التى تدخل مصر ولو كانت مليارات الدولارات أو اليورو عبر شروط البنك الدولى وصندوق النقد، وقد يقول قائل: وهل تقتات الشعوب من ذلك التمويل الروحي..؟

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٠١٢/٥/١٧م

المصريون يريدون مزارع تكفيهم من القمح، ومصانع تصنع ما يحتاجون إليه، ومصادر إنتاج تستوعب البطالة وتحولها إلى أدوات إنتاج، كل ذلك وارد ومبرر ومعقول، ولكن من قال إن الأشقاء في السعودية مقصرون في هذا المجال..؟ الحقائق والأرقام تثبت أن واجب الأخوة لم يهمل، وأن نخوة الكرم لم تتوقف، وأن النفط تحول إلى سلاح اقتصادي فعال لصالح مصر عندما واجهت أزمة حرب حقيقية، وأن الملك الفيصل . رحمة الله عليه .كان سباقا . بجانب كل زعماء الخليج . للتضحية بثروة بلاده من أجل أشقائه في مصر، وتوقف ضخ النفط فعلا لعواصم الغرب في موقف غير مسبوق، كل ذلك موثق وتعيه ذاكرة تاريخ العلاقة بين البلدين ونحن لا ننساه، وعلي الأجيال القادمة ألا تنساه أبدا لأنه يعكس عمق العلاقة بين أبناء الأمة في لحظات الخطر الحقيقية وإن تعددت أوطانها، لكننا هنا نتحدث عن قيم أخري أعلى وأغلى وأبقي وأخلد، ولا يمكن أن تتأثر تلك القيم بأزمة عابرة أو موقف مسيئ صدر من أحد الأشخاص في مصر أو في السعودية.

الملفات المهملة هى مواقف عادية جدا، قد تتكرر كل يوم، لكنها تفرزن وتجمد في الأدراج وتختزن لتخرج في وقت معين ليصنع البعض منها أزمة، وتستعمل عن طريق الإعلام كذريعة للضغط في موقف محدد لتوجيه الرأي العام وإشغاله وصرف اهتماماته من قضية لقضية أخرى، وتفريغ شحنة غضبه في الاتجاه المراد.

درجة استجابة الجماهير وتفاعلها تتوقف على حجم الوعي لدى الناس بألاعيب الأدوات الناقلة للخبر.

الإعلام لعب دورا سلبيا في تلك القضية عن طريق صياغة الخبر وتحويله من خبر عابر وعادى إلى خبر مستفز لعقلية القاري أو المستمع أو المشاهد المتلقى لذلك الخبر بإضاف صفة معينة على الخبر تزيد من درجة قبوله للاشتعال وإثارة الرأي العام،،وذلك عن طريق الحبكة في الصياغة وخلط الخبر بالهوى الشخصي أو الرغبة السياسية في تحقيق الهدف المطلوب.

من هذا القبيل كانت الأزمة الأخيرة بين مصر والسعودية، والذين يحرصون أن يصطادوا في الماء العكر قد حاولوا ولم يصلوا، وباءت محاولاتهم بالفشل، لأنهم أصلا لم يستطيعوا أن يعكروا محيط العلاقة بين البلدين أو يدركوا عمقها في ذاكرة التاريخ.

الأزمة العابرة التى حدثت فجأة أزمة مصنعة، ملفاتها جاهزة في الأدراج تطفو على السطح عند اللزوم،استغلت فيها ظروف مجتمع يعيش ثورة من أجل كرامته فأراد البعض أن يؤجج المشاعر فلعب على وتر العواطف الهائجة، واستغل تعصب الشباب لثورتهم، وبدلا من أن يصنع من الطهر الثوري حقا يضيئ صنع منه حماسا يشتعل، مستغلا حادثة (الجيزاوي) ليصنع منها قضية كرامة مواطن وإهانة وطن.

اللعبة لم تنطو على أهل العقل في البلدين، ومن ثم كان سحب السفير لمدة أيام لتفويت الفرصة وحتى تهدأ رياح الخماسين التى هبت في غير زمانها وغير مكانها، غير أن الصيادين في الماء العكرعزعليهم أن تخرج شباكهم خاوية الوفاض، فقذفوا بفرية أخرى مفادها أن الأمير سعود الفيصل طلب من رجال أمن السفارة السعودية في مصر أن يضربوا المتظاهرين في المليان وبالرصاص الحي.

الكذبة أيضا لم تنطو على أحد لأن الدنيا كلها تعرف عن الرجل هدوءه ودبلوماسيته وخبرة السنين المتراكمة لدية كوزير خارجية، بالإضافة إلى ثقافته لا كأمير فقط، وإنما كمثقف عربي يعرف قدر روابط الأخوة، كما يعرف أيضا كيف يطفئ نيران الفتنة ويصفي الأجواء بين أبناء الوطن الواحد.

المهم أن الأزمة العابرة كشفت حجم الرصيد الروحى والقيم المستفادة منه بين البلدين، وكشفت أيضا قدرة ومهارة ووعي المعنيين بشأن هذه العلاقة بين البلدين، وفي هذا الإطار جاءت تصريحات السفير القطان حين قال: " لو يعرف هؤلاء المتظاهرون حول السفارة حجم المحبة والتقدير الذي تكنه السعودية والسعوديون لمصر ما فعلوا ذلك أبدا"

وصدق السفير القطان حين قرر نصف الحقيقة، غير أن نصفها الآخر "أن الشعب السعودى لو يعلم ما يكنه له الشعب المصري من حب، وحجم ما يربط شعب المحروسة بأشقائهم في المملكة لأحاط اليأس بالصيادين في الماء العكر، ولأدركوا أنهم مهما حاولوا فلن يفلحوا إذًا أبدا.

أزمة الدستور أم أزمة فى الصدور والجذور؟ (*)

الحديث عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان حلو المذاق، تستطيبه الأذن وتطرب له النفس وتهفو إليه أفئدة من ذاقوا مرارة الاستبداد والقهر والقمع واستباحة كرامة البشر.

وهذا الحديث يجيد عرضه وتسويقه بعض البشر، فلهم باع طويل فى فنون عرضه والإغراء به وتحبيب الناس فيه.

فريق من هؤلاء الناس تنطلق حرارة حديثه عن الموضوع من حجم الحرمان الذى عاشه فى ظل حكم مستبد لا يعرف للرعية عدلاً ولا فضلاً، وبعضهم ينطلق فى الحديث عن ذات الموضوع من أجندة خاصة تعمل ب"رموت كنترول" يمسك به آخرون، فكأنه آلة تسجيل يضغط صاحبها بزر فتعمل أو يضغط أيضًا ليوقفه.

الأجندة لدى هؤلاء تنطلق من رؤية الممول لا من رؤيتهم هم، فهم ليس لهم رؤية ولا رأى، وإذا جاءت الديمقراطية بمن يخالف أجندة الممول يكفرون بها، وربما يستبيحون عرضها ودمها، خصوصا إذا جاءت بالإسلاميين.

عمليات النواح والولولة والتشبيح والبلطجة الثقافية التى يمارسها هؤلاء فى الصحف والفضائيات من لوازمها استعمال مصطلحات من نوع "الاستفراد، التوحش، الاستحواذ، الاستقطاب" إلى غير ذلك من مصطلحات فحش القول المخزَّنة والجاهزة للاستعمال عند تشويه الخصوم.

جذور المشكلة لدى هؤلاء ثقافية تعود فى أصلها لقضية الهوية الفكرية والثقافية، ومن ثم فالقضية المثارة هذه الأيام ليست قضية دستور بقدر ما هى قضية جذور، وهى قضية قديمة بدأت جذورها فى أرض أمتنا بعد حلقات من الصراع السياسى بينها وبين أعدائها منذ زمن قديم، انتهت بثلاثة أنواع من الإقصاء:

الأول: سياسى تم بسقوط الخليفة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٩ – ٠٣ – ٢٠١٢م

والثانى: تشريعى تم باستبعاد أحكام الشريعة الإسلامية، واستبدال منظومتها التشريعية بمنظومة أخرى مستوردة ومعلبة فرضت قسرًا وقهرًا وهى لا تناسب البيئة.

والثالث: ثقافى تم بمحاولات هدم اللغة والسخرية منها واستباحة الخطأ فيها، صاحب ذلك دعوات صريحة حينا ومغلفة أحيانا إلى التمرد على قيمنا الإسلامية، والتحريض بالخروج عليها، وتجاوز كل ما يتصل بها وبأكثر من وسيلة وتحت عناوين شتى، ومن هنا كانت عمليات التهجين والعجمة التى انتشرت حتى فى أكبر المستويات الثقافية.

الإقصاء الثالث كان هو الأخطر لأنه يحفر خنادق من التجهيل تحول بين المسلم وفهم كتابه، والقدرة على استيعابه، ومعرفة مقاصده وأهدافه، واستلهام نصوصه وأحكامه وتنزيلها على واقعه وتحكيمها فى كل المجالات.

معرفة البعد التاريخى تكشف لنا أطوار الصراع والتحولات التى طرأت عليه، وآليات العدو التى استعملها لكسر شوكة الأمة وتحويلها إلى أمة تابعة بعدما كانت متبوعة.

فبعد أن عاد لويس التاسع من أسره فى دار القاضى ابن لقمان بمدينة المنصورة فى مصر أدرك الرجل بعد خبرة طويلة أن هزيمة الأمة الإسلامية لا بد أن تبدأ أولاً بزلزلة ثقافتها، فكتب الرجل وصيته لمن يأتى بعده لاحتلال تلك المنطقة، وكان فى مقدمة ما ذكره لويس التاسع:

أن الجيوش الثقافية أولاً قبل الجيوش العسكرية، وقد تغنيهم الأولى عن الثانية.

وأن تحدد إقامة الدين، فيسجن فى المساجد فقط بعيدًا عن شئون الحياة حتى يخبو ضوؤه وتخمد أنفاسه بين الجاهلين به والمنكرين له، أو بين الوحشة والضياع.

أن يُحَجَّمَ تأثير العلماء المخلصين، إما بمطاردتهم داخل البلاد أو بإبعادهم عنها.

الخطة تطورت كثيرًا وأضيف إليها بعد لويس التاسع إضافات أخرى حيث دخلت هندسة الرأى العام فى تطويرها.

إبعاد الإسلام تم فعلا فى ثلاثة مستويات الأول سياسى والثانى تشريعى أما الثالث فكان ثقافيًا وتم بامتياز.

الإقصاء السياسى بدأ بضرب الخلافة وتشويه تاريخها، والعبث بحقائقه وتصويره بأنه كان فترة استعمار، درسوا لنا ونحن صغار مساوئه. وأذكِّر مرة أخرى بما قلته فى المقال السابق: إن خطر الهزيمة الثقافية بشقيها أنها تنزل بأجهزة الإنسان ذاته، وتحول أهم كيان فيه وهو "العقل" إلى مساحة محتلة، أو معتلة وعندما تحتل العقول ستحتل تبعًا لها كل الحقول، سواء كانت حقولاً زراعية أو حقولاً بترولية أو حقولاً معرفية.

ولأنها فى عمق الهوية، فهى تغترب بالأجيال عن أوطانها وتاريخها، وتفضى فى نهاية الأمر إلى وجدان مفرغ من محتواه القيمى، بينما هو فى الوقت نفسه قد شُحِنَ وامتلأ بقيم الآخرين، ومن ثم فلا مشكلة لديه أن يترك مقود القيادة وبوصلة التوجيه والتأثير، ومراكز النفوذ لغيره، ممن جاء مستشارًا ومعارًا من طرف الممول.

قلت أيضًا "إن القواعد الثقافية والفكرية التابعة للغرب فى بلادنا أغنته فعلا عن حاملات الطائرات والبوارج العسكرية، وكانت بمثابة الأذرع الطويلة والقوية للسيطرة على مراكز التوجيه وصناعة الرأى العام، وهى فى أيام السلم تشكل وسائل للضغط والسيطرة وضمان التبعية، بينما تشكل فى أيام الصراع وتحديات الإرادة برامج "التدمير الخفية".

الإقصاء التشريعى تم باستجلاب منظومة قوانين يمكن أن يشترك فيها القانون الرومانى والقانونى الإنجليزى والقانون الفرنسى وحتى قوانين الهكسوس، واستبعاد ما قاله الله وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ما يقوله بونابرت أحب لأتباع هذا التوجه من قول الإمام الشافعى العربى القرشى، أو الإمام الليث بن سعد المصرى موطنًا وميلادًا.

نعرف أن الحكمة ضالة المؤمن لكن ما معنى أن تهمل ما عندك وبين يديك، وهو مفيد ونافع ومستوعب لكل ما تحتاج إليه، ثم تتسول من الآخرين لتكون تابعًا لهم وملتحقًا بهم، بل منسحقًا فيهم؟

أعرف أيضاً أن الآخرين لن يرفضوا أن ينضم إلى خدمهم خدم جدد.

الحقل المصرى شكل بيئة مناسبة لاستقبال بذور الخلل الذى سبب للأمة ترنحًا وإعياءً على مدار سنوات طويلة.

المنظمات إياها وشخصيات بعينها كانت هى الوسائل الفعالة فى هذا الاختراق، وكانت تمثل للمستعمر الوجود الآمن على أرض الوطن حيث وجوده بجنوده الحقيقيين يثير حمية الشعب ويدفع إلى المقاومة مهما كانت حالة ضعفنا وقوته، أما هؤلاء فهم من بنى جلدتنا ويتحدثون لغتنا، ومن ثم فلا مشكلة تهدد وجوده الآمن فلا مقاومة أو إزعاج من أى نوع.

تسويق هذه المنظمات وشخصياتها داخل المجتمع المسلم وتهيئة الرأى العام لقبولها وربما احتضانها أحيانًا يجب أن يبدأ بإضفاء "هالة" لخلق "حالة".

إضفاء هالة من التعظيم والمبالغة لخلق حالة تتجاوز مرحلة القبول لتصل لمرحلة الترحيب المصحوب بالاحترام، والشعور بالامتنان لهذه الشخصيات باعتبارها رموزًا تناضل وتدافع من أجل قضايا الشعوب وحريتها وكرامتها.

مقتضيات التسويق يا سادة تتطلب عند تقديم هذه الشخصيات، أن يكون الاسم مقرونًا بلقب يتضمن "الهالة" إياها لخلق "الحالة" المقصودة، فيقول من يقدمه مثلا: المفكر السياسى الكبير، الإعلامى المرموق، الفقيه الدستورى، وهكذا تحمل أسماء هذه الشخصيات بما لم تحتمله وما لا تطيقه من ألقاب التعظيم والتقدير، الأمر الذى يزيد من الاحترام لهذه المنظمات وتلك الشخصيات ويبعد عنها شبهة التواطؤ.

من ناحية الشكل يجب أن تحمل هذه المنظمات فى مبادئها أيضًا ألفاظًا براقة تغرى بالتعاون وتشد الاهتمام، وتظهر حرصًا على الديمقراطية ومصالح الوطن.

لكن الديمقراطية الغبية، والحرية الملعونة ومعهما الشعب "العبيط" خانوا العهود وخيبوا ظن الكثيرين. فجلبوا لنا الصداع ووجع الرأس حين اختاروا الإسلاميين.. مالهم والسياسة، إن عليهم وحدهم أن يتفرغوا لتلقى الطعنات والضربات، والسجن والطرد والتشريد، ومصادرة الحريات والأموال.

وعلى مجلس شعبهم أن يُجفّفَ ويُجمَّد، والويل له إن مارس حقه المشروع الذى فوضه فيه واختاره له الشعب العبيط،، وعلى كل الأحرار من الليبراليين والعلمانيين والماركسيين أن يُكَوِّنوا ائتلافات ليضعوا فى طريقهم كل العوائق والعراقيل حتى يفشلوا، ولكى لا تتكرر أبدًا مقولة "الإسلام هو الحل"... وهكذا تكون العدالة والديمقراطية؟ وتبًّا للديمقراطية حين تكون حرة، وتبًّا للشعب "العبيط" حين تكون له إرادة يمارسها

بحرية فيهيِّج الخلايا الكامنة، ويثير أعشاش الدبابير، ويغضب المشير الكبير، والفريق الكبير، والسياسى المخضرم، والإعلامى المرموق، والفقيه الدستورى.

ألم أقل لك عزيزى القارئ إن لحن القول الذى نسمعه الآن من "المفكر الكبير، والإعلامى المرموق، والفقيه الدستورى هو ثمرة مرة لعمليات الإقصاء لكل ما هو إسلامى بمراحله المتعددة؟.

وهل تبين لك أن الأزمة الحالية ليست أزمة فى اختيار تأسيسية الدستور، بقدر ما هى أزمة فى الجذور والصدور، وليست أزمة مع العسكرى أو الجنزورى؟.

ساعات الخطر وهستيريا الدستور (*)

ساعات قليلة وينكشف المستور ويتبين لكل مصرى إنْ كانت ثورته تتعرض يقينًا لمؤامرة إجهاد وإرهاق قانونى ودستوري تمهيدًا لتصفيتها أم لا..؟.

الساعات القليلة القادمة ستحدد إنْ كان صحيحًا أن هناك محاولات جادة لإشاعة حالات هستيريا دستورية تحدث فوضى وفراغًا يمهد لإعادة إنتاج نظام مبارك من جديد....؟

قديمًا أراد فرعون أن يبرر قتل نبي الله موسى متهمًا إياه بأنه يبدل دين الناس ويظهر في الأرض الفساد، والقصة ساقها القرآن لتكون نموذجًا للتزوير في سنوات الاستبداد العجاف ولتوضيح طريقة الطغاة في التخلص من معارضيهم الذين يكشفون أساليبهم وخداعهم وألاعيبهم الرخيصة في تخدير الجماهير وسلب حقوقهم وتنويمهم، وما سلكه فرعون موسى هو نفس سلوك فراعنة العصر، الكبار منهم والخدم، في تخويف الجماهير واستعمال الفزاعات وإثارة الكراهية لهم عن طريق التشويه وقلب الحقائق، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦).

وبالقطع كان خلف فرعون من خدم الدعاية السوداء والرمادية كثيرون يتلقون أوامره ويقومون على تنفيذها بإضافة وسائل جديدة يمتزج فيها التشويق بالتشويه والشوشرة والتزوير والكذب وبطرق ربما لا يعرفها الفرعون نفسه.

وفي زمن الردة الأخلاقية يتهاوي الوفاء وتصبح الخيانة هى قاعدة التعامل، ويسود قانون المصلحة الشخصية على حساب المصلحة الوطنية العليا، ولو كانت المصلحة الشخصية ملطخة بالفضائح وملوثة بدماء العفة، ومن ثَمَّ يصبح الطهر الثوري رجاسة، وتتحول البطولة إلى جريمة يستدعي صاحبها ليدافع عن نفسه في ساحات العدالة المزيفة.

ومع يقيننا القاطع أن عصور الانحطاط لا يخلو منها تاريخ الأمم والشعوب، وأن الثورات إنما تقوم لتستعيد الشعوب ذاتيتها وكرامتها وتبحث بالثورة عن العدالة المفقودة والحقوق الغائبة والكرامة المستباحة والشرف الذي أوشك أن يضيع وسط خراب الذمم

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٣ – ٠٦ – ٢٠١٢م

الثقافية والسياسية وحطام الوطنية والمواطنة التى تداس كل صباح بأحذية الطغاة والفراعنة، كبارهم وصغارهم.

عهود القهر وأزمنة الطغيان هى البيئة المواتية لصناعة العفن الاجتماعي والأخلاقي والسياسي وهى تلون أطياف الحياة بألوان دماء الكرامة المستباحة والحريات المقتولة وثروات الشعوب المنهوبة.

وقد عاشت مصر المحروسة تلك العصور المظلمة والظالمة، وعانت من تلك البيئة الملعونة قرابة ستة عقود، ودفعت الجماهير المصرية ثمنًا باهظًا في الزنازين والمعتقلات، فضلا عما عانته من قهر وظلم وتعذيب حتى الموت في الأقبية المظلمة والسجون السرية لأجهزة أمن الدولة التى خرج زبانيتها براءة من قتل المتظاهرين في الثورة بعدما أعدمت كل أدلة الإدانة.

الأغرب أن زمن الدعارة السياسية والإعلامية لا يكتفى بطمس الحقائق وخيانتها فقط، بل يعكسها أيضًا فيحول الحارس الأمين إلى قاتل، بينما القاتل يتحول إلى منقذ ومخلص، وربما رئيس للجمهورية...!

الردة الأخلاقية تتكرر في ظرفنا الراهن، فالدنيا كلها تعرف وتعترف أن كوادر الإخوان وشبابهم كانوا هم قلب الثورة، وكانوا في مقدمة شهدائها وهم الذين دافعوا عن الثورة باعتراف خصومهم، وهم الذين التحموا بالقوى الوطنية في كل مدن مصر، وكونوا اللجان الشعبية لحماية الوطن من عبث مؤامرات التخريب والحرق والسلب والنهب التى كانت تقوم بها فلول النظام السابق،وبلطجية الحزب الوطنى وجيوش وعتاة مجرمي وزارة الداخلية الذين جندتهم أجهزة أمن الدولة لتنفيذ الخطة (١٠٠) التى أعدها كبيرهم حبيب العادلى ومساعدوه لقمع وسحق كل مظاهرة شعبية وقطع كل لسان يهتف بالحرية لمصر، ولكنهم في زمن الدعارة الإعلامية والسياسية يتحولون بقدرة عسكري قادر إلى قتلة للثوار...! أرأيتم استخفافًا بالعقول يصل إلي هذا المدى..؟.

ما يحدث الآن يفسر بوضوح تحويل مجلس الشعب إلى كيان مشلول، لا قدرة له على فعل أى شيء، وكان هذا هو المطلب الأول لتشويه صورة التيار الإسلامى وإظهارهم بمظهر العجز المطلق والفشل الكامل.

ومن هذا الباب أيضًا يجب أن يحل مجلس الشعب، وأن يسقط مرشح الثورة، وأن يشوه تنظيم الإخوان والتيار الإسلامي بكامله..؟.

أدوات التنفيذ جاهزة والقوارض المستأجرة للثورة المضادة بأموال الفلول يمكنها أن تستدعي أصحاب المهارات الخاصة في التزوير والتشويه للقيام بالحملة وأداء المهمة باستضافة خدم النظام السابق وعملاء أمن الدولة الذين أوصت تسيبي ليفني، وزيرة خارجية إسرائيل السابقة، بوضع كتاباتهم على صفحة وزارة الخارجية الإسرائيلية؛ لأنها تمثل وجهة النظر الإسرائيلية أصدق تمثيل، بينما قرأ الرئيس الإسرائيلي السابق شيمون بيريز مقالاً لواحد من هؤلاء فهبَّ واقفًا وقال بانفعال شديد: "هذا الكاتب يستحق أعلى وسام في إسرائيل".

الصحف والفضائيات الممولة بأموال الفلول ومعها التليفزيون الرسمي تمثل الذراع الطويلة للعبث في عقول الجماهير، حيث يقومون بما أطلق عليه نعوم تشومسكى هندسة الرأي العام، وتحويل الوطن الآمن إلى ساحة للصراعات بتكرار النغمة الشاذة، وما لوثوا به أسماعنا من قبل عن الإمارة الإسلامية في غزة، وعن طالبان المصرية، وعن ليلة قندهار في القاهرة. كما يدعى ويكرر عبد الرحيم وأديب والهواري والدقاق ومن على شاكلته.

مجىء شفيق وظهور عبد الرحيم على مروجًا لحملته يعنى أن جهاز أمن الدولة يعمل بكامل قدراته وأنه يخدم على المرشح العسكري، وأن الثورة قد انتهت وأن مَن يحاول الخروج عليه لن يكون أمامه إلا الصدام مع الدبابات؛ لأن ذلك هو الشرعية والخروج عليها ليس له إلا الإعدام.

الكاتب الأمريكي العجوز البروفيسور "نيكوس ريتسوس" أستاذ العلوم السياسية المخضرم في شيكاغو يدعى في مقال له نشرته صحيفتا "تليجراف" البريطانية، و"ديلي ستار" اللبنانية باللغة الإنجليزية، بوجود شراكة بين المجلس العسكري من جهة، وأمريكا وإسرائيل فى إعادة إنتاج نظام مبارك من جهة أخرى، وأن أحمد شفيق هو الخيار الاستراتيجي الجديد لأمريكا وإسرائيل بالشراكة مع المجلس العسكري؟.

الكاتب يؤكد أن فرس الرهان أحمد شفيق الذى اشترك في إعداده وتأهيله للسباق قوى داخلية بالشراكة مع قوى أخرى خارجية فقدت بخلع مبارك كنزها الاستراتيجي وتبحث عن كنز استراتيجي جديد فوجدت فيه ضالتها هو الذى يجب أن يمهد أمامه الطريق للوصول إلى كرسي الرئاسة وبالشكل الديمقراطي؟

الكاتب تحدث أيضًا عن استحضار معارك الماضي، بهدف إعادة إنتاج النظام القديم.. ودور أمريكا في شيطنة الثورة وإجهاضها، وإثارة التشكيك والتخوين بين القوي الثورية، وعن دور المخابرات الغربية بالمصريين من خلال حرب نفسية تهدف لتشتيت الإرادة والوحدة، وتثير الفزاعات.

الكاتب العجوز "نيكوس ريتسوس" أكد أنه بعد سقوط مبارك، كان أحمد شفيق، آخر رؤساء وزرائه، هو الخيار المفضل لدي أمريكا وإسرائيل والمجلس العسكري. ويراهن على استمرار عهد مبارك، وأنه لم ينتهِ وجارٍ إعادة صياغته وتشكيله ليتلاءم مع سياسات إسرائيل وأمريكا. وتساءل الكاتب مؤكدًا مسؤولية شفيق عن قتل الثوار قائلا: "يبقي سؤال راودني: إذا كان قد حكم على مبارك واتهم فى قتل (٩٠٠) شهيد فلماذا لم يتم الحكم علي رئيس وزرائه في ذاك الوقت "أحمد شفيق"، أليس هو الآخر مسئول وبدرجة مماثلة..؟!.

لكن إلى الآن قلوبنا ترفض قبول تلك الوقيعة بين الثورة والمجلس العسكري، وأن جيش مصر منحاز لثورته، لكن أمام عقولنا إرهاصات مخيفة تراها العين ولا تخطئها أبدا، إذ كان ظننا الساذج أن زمن الزيف الثقافي والدعارة الإعلامية قد انتهى بقيام الثورة وبخلع المخلوع؟

في هذه الساعات الصعبة والتى يمكن أن تصيب مصر هستيريا دستورية تعيدنا إلى نقطة الصفر نتذكر حكمة قديمة تقول: "علينا ألا نخون الحقيقة، ولو كان ثمن الخيانة تاجًا أو عرشًا، أو حتى كرسي الرئاسة في قاهرة المعز الجريحة".

وما زالت ألسنة الخلق في مصر المحروسة تستعيذ بالله من أن يعود زمن الدعارة الإعلامية الذى يتم فيه اغتيال الحقيقة وخيانة المبادئ وتسويق البهتان والزور واستغفال الشعوب.

القرصنة الدستورية (١/٢) (*)

فى نظر المنظرين فى الغرف السوداء، لا يجوز لهذا الشعب أن ينعم باستقرار، وكذلك الرئيس الجديد؛ لأن الاستقرار يعنى فتح كل ملفات الفساد، ولذلك وجب على اللهو الخفى أن يجعلهم خائفين طول الوقت، لأنه إذا لم تتم إخافتهم من كل أنواع العفاريت والجن، التى ستقضى عليهم سيلتفتون إليه وسيفتحون ملفات فساد ثلاثين سنة، ومن المهم تهميشهم وتشتيتهم وإشاعة ثقافة العبث الطائفى بينهم بالحديث المستمر عن الأقباط والمرأة، وتفجير المواقف وانتقاء صور وبرامج الإثارة المرعبة.

التحرش الدستورى بمجلس الشعب كان باديًا وظاهرًا للعيان فى تصرف المحكمة الدستورية وبخاصة السيدة المستشارة، وهو الأمر الذى أغضب كثيرا من الغيورين القانونيين من كبار قضاة مصر الشرفاء على سمعة القضاء وشرف العدالة، ومن ثم كانت تصريحاتهم واضحة فى إظهار عوار حكم المحكمة الدستورية وتجاوزها لاختصاصها فى القضية موضوع الدعوى المقامة.

السماوات المحتلة بفضائيات الفلول صورت الإسلاميين بأنهم كائنات غريبة، جاءت لغزو الأرض من كوكب آخر، فهم ليسوا منا ولا نحن منهم، وقد خلفت نوعًا من الهيستيريا دفع البعض إلى المطالبة بمنع قوى الثورة من إدارة شئون البلاد بحجة أن الإسلاميين سيكوشون على كل شىء، والمحكمة الدستورية التى رفعها البعض إلى حد القداسة أغلب أعضائها صناعة النظام المخلوع؛ ومواقف بعض أعضائها من الثورة والثوار واضح جلى ولا يحتاج إلى شرح، يشهد بذلك قنوات الفلول التى تستعين ببعضهم للمساهمة فى تأزيم المواقف وخلق البؤر القانونية التى تعطل الحياة السياسية، وهم يعلمون أن هذه القنوات تتبنى تصنيع الإجماع على الخوف من الإسلام وبأساليب عجز عنها عتاة المجرمين من عرب قريش فى عصر الجاهلية.

البراعة فى خلق الذعر من العدو الأخضر وهو الإسلام ليست جديدة، غير أنها هذه المرة بلغت من الوقاحة والتطاول على شخص الرئيس حدا لا يطاق.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١١ – ٠٧ – ٢٠١٢م

الذين يلعبون على إثارة الذعر وإشعار الناس بالخوف الدائم، نسوا أن الشعب المصرى الأصيل كسر حاجز الخوف، وداعب الموت كثيرًا فى ميدان التحرير وفى كل ميادين مصر، وأضحى الكثير من أبنائه يخرجون إلى الميادين بعضهم يحملون أكفانهم والبعض الآخر يستثقل الأكفان فى رحلة البحث عن الموت ويكتفى فى الإشارة إلى مراده ومطلوبه بلافتات تقول: "شهيد تحت الطلب".

خطة الذين يلعبون بالنار لا مانع فيها أن تطعم بقلة من القضاة المحسوبين على النظام المخلوع على اعتبار أنهم حماة الدستور وحراس لمدنية الدولة فى مواجهة الظلاميين.

القلة المستخدمة لا يمكن أن تقدح فى ولاء وعدالة كل القضاة الشرفاء لوطنهم، غير أن الأمر يحتاج إلى فرز وغربلة حتى لا يصل رذاذ عدوى الكراهية الظاهرة والاستخدام لدى بقايا الفلول للثورة والثوار فى المؤسسة القضائية.

كل القضاة على العين والرأس ولكن اتصال القاضى بأحد أطراف النزاع وتقديم النصيحة له ينفى عنه صفة الحيادية ويعد انحيازًا من القاضى يجرح فى عدالته.

وأمر آخر يتصل بالموضوع فعندما يتناول نص الحكم موضوع الدعوى المقامة لا يجوز للقاضى أن يتوسع فى الحيثيات بحيث يرتب عليها وفق الهوى السياسى ما هو خارج الدعوى.

القاضية نقلت عنها بعض الصحف الأجنبية أنها حرضت أيضًا على عدم تسليم السلطة وبقاء حكم العسكر، ولا أدرى إن كان ذلك يدخل فى اختصاص وواجبات القضاة فى أعلى محكمة دستورية، أم أنه من قبيل الهوى السياسى فى تغليب سلطة عسكرية على سلطة شرعية منتخبة وبإرادة ملايين المصريين.

القاضية ذاتها ومع احترامنا الكامل لشخصها وموقعها وحقها فى إبداء الرأى، إلا أن ذلك كله يكون فى موضوعات عامة كغلاء الأسعار أو أزمة البوتاجاز أو مناقشة مشروع وطنى كبير، أما إبداء الرأى وتوجيه النصائح لأحد أطراف النزاع فى قضية مطروحة وأمام نفس القاضية فذلك ما لم يقل به قاض على وجه الأرض.

القضاة الشرفاء نعرف منهم من اقتنع بموقف أحد الأطراف ورأى أن الحق معه لكن ينقصه الدليل والدفاع الواعى فاستقال وترك منصة القضاء لينتقل إلى موقع المحامى ليدافع عن القضية موضع قناعته.

فعل ذلك قضاة كثيرون أعلوا من مكانة القاضى وشرف القضاة ونزاهة المحكمة.

أما أن يعلن القاضى انحيازًا وبهذه الصورة الفجة لأحد الأطراف فذلك مالا يعرف إلا فى محاكم أمن الدولة عندما كانت الأحكام تصدر مسبقًا، وحتى بغير مناقشة لا للمتهم ولا للدفاع، وذلك ما تخلصت منه مصر الثورة بحمد الله بعد أن دفعت ثمنا غاليا من دماء أبنائها الشرفاء بين شهداء وجرحى.

القاضى العادل يعوض النقص فى بنود القانون بضمير العدالة فى داخل وجدانه الحى.

القاضى العادل لا يحرض طرفا على طرف ولا تتدخل نزعاته السياسية أو عواطفه فى تحريك العدالة عن مسارها العادل.

القاضى العادل لا يعرض العدالة ونزاهة القضاة للقيل والقال.

القاضى العادل لا يقف بباب السلطان ولا يذهب لبيته إلا فى جمع من زملائه القضاة ليدفع عن العدالة شبهة الانحياز ولو كانت لحاكم.

أغلب قضاة مصر والحمد لله من هذا الطراز الرفيع من الرجال ومن شذَّ سقطت مهابته وقلَّت قيمته.

قبل النوم بالأمس استمعت لوصلة مدح مضحكة ومثيرة للغثيان بين طرفين أحدهما قاض سكت دهرًا على تزوير انتخابات النظام المخلوع ولم تسمع له كلمة اعتراض واحدة فى كل ما تم من انتهاك لحقوق الإنسان والشعب المصرى على مدار ثلاثين سنة، وكان جزءا من منظومة ترزية قوانين السلطان وبين مذيع من طراز "إلعق وبوس" لأيدى السلطان وأعوانه.

كلا الطرفين كان يشيد بشجاعة الآخر ويضفى عليه صفات الغضنفر، وأنه وحيد عصره وفريد زمانه.

الحوار ذكرنى بالمسرحيات الهزلية التى كانت فارغة من المضمون والمحتوى، والذى يتولى كتابتها سيناريست نص كم "ويقوم بإخراجها مخرج من الهواة يبحث عن شىء يشغله، غير أنها كانت مضحكة لأنها كما يقولون: "سمك لبن تمر هندىً".

الحوار الذى دار بين الشخصين أنصح كل مهموم بأن يشاهده، لأنه سيضحك من كل قلبه، ولا يتفوق عليه من الأموات فى فن الهزل إلا مواقف المرحوم شكوكو، كما لا يفوقه من الأحياء إلا حلقات محمد باكوس حين تقدم للترشيح لمنصب الرئاسة.

على الشاطئ الآخر ذكرنى موقف الكثير من القضاة الشرفاء بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "هل تدرون من السابقون إلى ظل عرش الله يوم القيامة، قالوا الله ورسوله أعلم قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سألوه بذلوه، وإذا حكموا للمسلمين حكموا كحكمهم لأنفسهم" سبل السلام جزء ٤ ص ١٢٢

تحية لقضاة مصر الشرفاء الذين يقفون الآن مع جماهير الشعب فى الصف الأول من جبهة المواجهة لحماية الشرعية الثورية، التى تجلت إرادتها فى اختيار الرئيس مرسى.

الرئيس الجديد فى حاجة إلى دعم شعبى هادر فى الداخل والخارج لينهى هذا الصراع السياسى الذى تستعمل فيه المحكمة الدستورية كمسمار جحا، وليحرر مصر من جذور وفروع الدولة العميقة وبقايا النظام المخلوع، وذلك هو واجب الوقت لكل الشرفاء من المثقفين والجامعيين والمجمعيين إذا أرادوا أن يحموا الثورة وشرعيتها من قراصنة باسم الدستور فقدوا حيادهم وعدالتهم، وفقدوا أيضًا حياءهم ومعه حمرة الخجل.

القرصنة الدستورية (٢/٢) (*)

يفترض فى الهيئة القضائية بما تمثله من شرف، وما تقوم به من دور فى حماية العدالة أن تكون دعامة أمن واستقرار يطمئن المواطن إليها، إن وقع عليه جور من رئيس له فى العمل، أو نظير له فى المجتمع.

المؤسسة القضائية هنا بمثابة رمانة الميزان التى تضبط مسار العدالة بين المؤسسات المختلفة داخل نظام المجتمع من جهة وفى الشارع العام من جهة أخرى، فهى بالقانون تحمى الضعيف من ظلم القوى، وتحمى المؤسسات من تغول بعضها على بعض.. ومن ثم يفترض فى رجالها بجانب الكفاءة العلمية والتفوق فى التخصص الدقيق أن يكونوا أمثلة للنزاهة والشرف والحيادية والتجرد فى تطبيق القانون، ولقد وعت الذاكرة للسابقين كلامًا أغلى من الذهب الخالص فى هذا المجال فهم يقولون "لا يقيم العدالة إلا من لا يصانع ولا يضارع – يرائى–، ولا يتبع المطامع، يكف عن عزة ولا يكتم فى الحق على حدته.

قوانين الطغاة والمستبدين تختلف عما نقرره هنا، فهم حين يبحثون عمن يخدمهم لا ينظرون عادة إلى الكفاءات والقدرات، ولا إلى التفوق فى التخصص المطلوب، وشرف الإنسان لديهم هو آخر ما يمكن النظر إليه أو الاعتبار به فى شروط الوظائف القيادية، كما تفعل الأنظمة والمؤسسات المحترمة فى العالم المتحضر كله، وإنما ينظرون إلى ليونة الذمة والقدرة على التجاوب فيما يطلب من المستخدِم أن يؤديه بصرف النظر عن الصواب والخطأ فيما هو مطلوب، المهم أن يُنفِّذ المستخدِم رغبة سيده الطاغية، ولو كانت ضد كل قوانين البشر والطبيعة والأخلاق، ومن ثم فهنالك مواقع كثيرة فى قمة السلم الوظيفى جىء لها بأشخاص لم تحملهم كفاءتهم أو قدراتهم، وإنما حملهم إلى قمة هذا المكان شيئان.

أولهما: انحراف مسجل بالصوت والصورة لمن يراد ترشيحهم للمواقع القيادية عن طريق أجهزة الأمن يمارسون به الضغط والابتزاز بتهديد الموظف بحيث يتحول بموجبه فى موقعه الحالى أو الجديد، الذى يتولاه إلى مجرد أسير أو خادم ينفذ المطلوب بدقة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٨ – ٠٧ – ٢٠١٢م

وثانيهما: رغبة الطاغية أو أحد أسرته أو معاونيه فى رفع خسيسة واحد ممن يعرفون بموت ضمائرهم وجمود مشاعرهم وانعدام التمييز لديهم بين ما هو حق وما هو باطل، بين ما يجوز فعله وما لا يجوز الاقتراب منه، ومن ثم تجد فى كثير من المواقع أناسًا تولوا مناصبهم برغبة من "الهانم" سيدة القصر، أو بأمر من الوريث المنتظر، أو بتوصية من سكرتير الطاغية.

جناية هؤلاء على المكان كجناية أعتى المجرمين حين يتولى رئاسة عصابة لقطع الطريق وترويع الناس، وحجم فسادهم يكون بحجم موقع المسئولية لديهم وتأثير وخطورة المكان الذى يتولون قيادته، فكلما ارتقى الموقع هبط من يقوده وظهر ضلاله وانتشر فساده، رأينا ذلك فى مواقع كثيرة وحتى فى المناصب الوزارية الكبرى.

هذا الأمر الخطير تحول فى خلال العقود الثلاثة الماضية إلى ظاهرة، وكانت نتيجته أن الفساد أصبح هو الأصل والقاعدة، بينما الاستقامة والطهر ونظافة اليد أصبح هو الشذوذ المستنكر.

ظاهرة الفساد هذه، طالت كل مؤسسات الدولة تقريبا ومنها مؤسسة العدالة، ومن ثم فقد فرضت أسماء بذاتها على مؤسسة القضاء لم تكن معروفة بكفاءة ولم يكن لها وجود أصيل فى عالم القضاء، ولم تكن حتى فى ذيل القائمة.

بعد هذا التهجين لمؤسسة العدالة، أصبحت سيادة القانون فى المرتبة الثانية أو الثالثة عند البعض من أصحاب المطامع فى هذه المؤسسة العريقة، ولم يكن تحقيق العدالة هو الغاية، وإنما أصبحت الغاية هى إرضاء من يسكنون القصر الجمهورى ولو بذبح العدالة واغتيال القانون، وربما الدستور ذاته بتفسيرات تستبيح كل محظور، وغابت دولة القانون لتسود دولة القهر والتعسف وشتى أنواع المظالم، ومن ثم فقد اشتهرت فى كبريات المواقع أسماء تافهة ارتفعت فجأة، كما ترتفع الفقاقيع، ورسبت أسماء أخرى بمواقفها الشائنة كما يرسب الطين، وبقى وسط الهيئة رجال يعشقون العدالة العمياء ويبحثون عن الحق فى محيط الحق، سلم ضمير العدالة فى نفوسهم من الإصابة بعدوى هذا الإيدز القانونى؛ لأن تربيتهم وكرم أصولهم حصنتهم ضد هذا الرسوب فاستعصوا على الانحراف، وظلوا يسبحون ضد التيار طوال ثلاثين سنة، لكنهم وبصمودهم استطاعوا أن يكونوا تيارا آخر من القضاة الشرفاء الذين استعصوا على ذهب المخلوع وسيفه،

فاستعادوا بمواقفهم فى حماية العدالة والانحياز للقانون ثقة الناس فى عدالة الأرض بعدما غطاها وغيَّبها أفعال شائنة ارتكبها من جاءت بهم الهانم أو الطاغية أو ولده أو حاشيته.

نعم تحتاج الهيئة القضائية إلى عملية تطهير لتستعيد وقارها ودورها فى استقرار المجتمع، لكن وجود هؤلاء الشرفاء من رجال العدالة داخل المؤسسة القضائية يحفظ لها ما تبقى من هيبة، ويجعل حكم التعميم بفساد الهيئة القضائية ليس دقيقًا.

الرئيس المنتخب بإرادة الشعب يحتاج فى بناء مصر الحديثة إلى هؤلاء الرجال.. والشعب كله يجب أن يكون مسانداً له ضد محاولات الثورة المضادة التى تستعمل بقايا هؤلاء الذين جاء بهم عهد النحس المخلوع ومازالوا فى مواقعهم داخل مفاصل الدولة وفى كل القطاعات رغم قيام الثورة، وهم قابلون للاستخدام من جديد كما تعودوا، لكن أشدهم خطورة وأكثرهم دهاءً هم من يُدخِلون مصر وباسم القانون فى النفق المظلم، وقد أقدم بعضهم على تقديم خدمات للمجلس العسكرى تنتهك القانون من باب إظهار المواهب والمؤهلات طلبا للاستمرار فى الخدمة، وكأن التاريخ يعيد نفسه.

بعض أعضاء هذه الهيئة ممن جاء بهم عهد النحس المخلوع وهجن بهم مؤسسة العدالة ليزوروا له الانتخابات ويهندسوا له عملية التوريث ما زالوا يعرضون خدماتهم وبعضهم لم يتب من أوزاره، وهو يستعمل قفازًا دستوريًّا لخنق الشرعية واغتيالها مستغلا تحصين حكم القضاء، بينما هو يورط الوطن كله فى صراع أسود يفرض عليه نسخة رئاسية من النظام المخلوع، والدستور والقانون هو الآلة الناعمة لدى هؤلاء ومن وراءهم فى إعادة النظام القديم وفرض الفرعونية السياسية مرة أخرى.

الجهات التى تعمل على تعطيل الحياة السياسية فى مصر وتحاول تجفيف وتجميد الثورة بالتعاون مع كل الفلول وأركان الدولة الخفية أضحت معروفة ولم تعد خافية، وهذا التعاون الخلاق لكل المصاعب والمشاكل التى تظهر مؤسسة الرئاسة الجديدة ومعها الرئيس المنتخب بالعجز والفشل وقلة الحيلة لتصرف الناس عنه وعن الاستجابة لمطالب الشعب العادلة بتسليم السلطة باستعمال المحكمة الدستورية كأداة فى تأزيم المشهد السياسى كل يوم بإضافة وخلق مشكلة جديدة تحول بين الشعب وبين ممارسة حقه فى التغيير والانتقال أضحت ظاهرة للعيان.

وأرجو أن يعذرنى سيادة المشير، إن كانت تحيتى لك لا تليق بمقامك، فلست عسكريًا ولا أفهم فى تقاليد العسكر، فقط يا سيدى نعرف شرف العسكرية، ولكن لا نعرف تقاليدها، ومن ثم فربما لم تكن تحيتى لك ولزملائك ومن هم تحت إمرتك فى المجلس العسكرى ليست فى مستوى الضبط والربط.

أقدم لك ولزملائك تعظيم سلام لأنكم فعلا استطعتم خداعنا على مدى عام ونصف. ولأنكم كنتم أكثر نعومة فى استغلال القضاء الذى أضاع هيبته أولئك الذين انحازوا لمشروعكم فى إعادة النظام القديم.

وأقر وأعترف أنكم تستحقون أعلى الأوسمة التى يمنحها المخلوع لأحب من يخلفه ويطبق وصاياه، واسمح لنا هذه المرة يا سيادة المشير، وبعد أن نقدم لك تعظيم سلام أن نعصى أوامرك وأن نذهب إلى الميدان لنقول كلمتنا بدلا من العودة إلى البيوت وتعليق الاعتصامات.. وتأكد يا سيادة المشير أن الشهادة فى سبيل الحرية تداعب أحلام ملايين المصريين، وأن ميادين مصر ستمتلئ بملايين الشباب والشيوخ والنساء، وحتى الأطفال وهم يحملون على صدورهم شارات وشعارات "شهيد تحت الطلب" وهى عبارات تهزأ بالخوف وتزهو بالمنية.

سيادة المشير تعظيم سلام، وإلى السادة أصحاب "دستور يا سيادى" كل قرصنة دستورية وأنتم بخير.

النافذة التاسعة

شغب النخبة.. وإعلام الغواية

شغب النخبة ومعهم إعلام الغواية السياسية يحاولون جر الإسلاميين جميعا إلى معركة ليسوا أهلا لها ولا هم قادرون عليها.

الإسلاميون ليسوا أهلا لها لأن أدواتها وآلياتها تتسم بالقذارة المطلقة، وفيها يستعمل الكذب والتدليس والافتراء والتحريض والتخويف واستغلال حاجة الناس إلى الحرية وتهديدهم بمنعها عنهم إذا جاء الإسلاميون وملكوا زمام الأمور، ولو عن طريق الديمقراطية والانتخابات الحرة.

والإسلاميون ليسوا قادرين عليها لأنها معركة ليست شريفة، وفي المعارك غير الشريفة وعلى المدى القصير يكون الفارس الشريف هو الخاسر؛ لأن رجولته وصدقه مع مبادئه تمنعه من استعمال نفس الوسائل والرد بنفس الطرق الخسيسة.

مصر الثورة.. ومصانع الكذب (*)

بعد الثورات عادة ما تحدث بعض الأخطاء، وذلك شئ طبيعي لأن الناس كانوا كالمسجون الذى لا يرى نور النهار ولا يدرى أين مكان سجنه، فإذا به يخرج فجأة إلى الحياة يرى شمس الأصيل ويتنسم عبير الحرية بعد غياب طويل.

من الطبيعي في هذه الحالة أن تتعثر خطاه وأن تزل قدمه وأن تضيع منه لبعض الوقت بوصلة التوجيه ومعالم الطريق، ومن ثم فالتجاوزات التى تتم عبر الحوارات على صفحات الجرائد وفي الفضائيات يمكن مع حسن الظن أن تحمل على هذا الوجه، وأن نتأول لها هذا التأويل الذى يعفي أصحابها من الوقوع تحت طائلة القانون الذى تنص بنوده على عقوبة السجن لمن يتعرض للآخرين بتشويه السمعة أو النيل من المروءة أو إشاعة الفوضى حول شخص بعينه، أو جماعة بذاتها بالتحريض عليها وتعريض حياة المنتسبين إليها لخطر محقق أو حتى لخطر محتمل.

لكن عين الباحث المتابع لاتخطئ التقدير أن الحملة التى يتعرض لها التيار السلفي الآن في مصر ليست تمهيدا لعملية إقصاء تيار بعينه أو حتى محاولة للنيل من رؤوسه ورموزه، وإنما تجاوزت هذا البعد لتتناول الإسلام ذاته بالتشويه عليه وتخويف جموع الأمة منه وفض الناس من حوله، وذلك بعملية خلط متعمدة بين رموز التيار السلفي وبين الإسلام ذاته، واختصار الإسلام كله في هذا التيار وتقديمه للناس بحسبانه بعبعا سيطفئ أنوار الحياة ويصادر الأفكار ويقتل الإبداع ويلزم رجال مصر بلبس الجلباب كما يلزم نساءها بالنقاب والويل لمن خالف.

ما يتم تسويقه والترويج له في هذه الأيام يحاول جر مصر بفئاتها وتياراتها لمعارك داخلية تستنفد الجهد والطاقة وتجعل عامة الناس يترحمون على أيام الرئيس المخلوع حسنى مبارك.

الحملة الشرسة التى يتعرض لها التيار السلفي تخبرك أن المقصود هو الإسلام وكل ما يمت له بصلة، ولا ينبؤك مثل خبير.

يريدون أن يغرسوا في الناس فزاعة جديدة ليس من الإخوان المسلمين كما كان يفعل النظام السابق فقط، وإنما من الإسلام ذاته.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٧ – ٠٤– ٢٠١١م

لقد اكتشفوا بعد الاستفتاء الأخير أن وجودهم في الشارع المصري مرهون بغياب الإسلاميين كلهم ودون استثناء، فمع وجود الإسلاميين لا حضور لهم ولا تأثير لديهم، ولذلك فهم يحرصون على تشويه الصورة بكل ما يملكون من أدوات الدس والتدليس والكذب.

ومن ثم يستبعد أن يحمل ما يحدث على محمل حسن أو أن نتأول له أنه رد فعل طبيعي لحالة الحرمان الطويلة التى عاشها الشعب المصري وعانى فيها كثيرا حيث حرم من حقه الطبيعي في التعبير عن نفسه بحرية.

هنالك كلام يشاع عن تطبيق حدود وقطع أذان وهدم أضرحة وتهديد بخطف النساء السافرات من الشوارع وتشويه وجوههن بمياه النار.

هم يريدون أن يتساءل الناس ماذا سيكون عليه الحال إذا آلت أمور مصر في الحلال والحرام وما يجوز وما لا يجوز إلى هؤلاء الناس؟

إن الحياة ستتحول إلى سجن وسجان، السجن هو مصر بكل شوارعها وميادينها.

والسجان هم هؤلاء الإسلاميون المتطرفون المتعصبون.

والسجين هو هذا الشعب العادى المسكين. هكذا يريدون تسويق الفكرة، ويحاولون جر الإسلاميين جميعا إلى معركة ليسوا أهلا لها ولا هم قادرون عليها.

الإسلاميون ليسوا أهلا لها لأن أدواتها وآلياتها تتسم بالقذارة المطلقة، وفيها يستعمل الكذب والتدليس والافتراء والتحريض والتخويف واستغلال حاجة الناس إلى الحرية وتهديدهم بمنعها عنهم إذا جاء الإسلاميون وملكوا زمام الأمور،ولو عن طريق الديمقراطية والانتخابات الحرة.

والإسلاميون ليسوا قادرين عليها لأنها معركة ليست شريفة، وفي المعارك غير الشريفة وعلى المدى القصير يكون الفارس الشريف هو الخاسر؛ لأن رجولته وصدقه مع مبادئه تمنعه من استعمال نفس الوسائل والرد بنفس الطرق الخسيسة.

أعرف أن هناك صبية متهورين يملؤهم التعصب في كل تيار، وأعرف كذلك أنه لايجوز أن نخلط بين الفكرة والأتباع، وأعرف أيضا أنه من الصعوبة بمكان أن يجرد المرء نفسه من مشاعر الغضب مهما التزم الحياد كباحث حين يرى تيارا يتم اغتياله ظلما، وتشويهه كذبا وافتراء حتى لو كنت مختلفا معه.

الحزب الوطنى وفلوله وبقايا جهاز أمن الدولة وطوائف أخرى تعتبر أن الإسلام والمسلمين هم الخصم اللدود لن يتقبلوا الهزيمة بسهولة.

فلول النظام السابق وبقايا جهاز أمن الدولة، ومعهم جماعات العلمانيين وطوائف أخرى معروفة لايريدون خيرا بمصر.

الحملة الشرسة والسوداء على الإسلام وتياراته وفصائله كانت لها ضحايا وحققت إصابات في أفكار كثير من عوام الناس، بل إن بعض الخواص من المتعلمين والمثقفين الحياديين أصابهم شئ من الهلع نتيجة الإلحاح في تكريس المفاهيم السلبية لدى الإسلاميين عموما والسلفيين بشكل مخصوص.

التيار السلفي ككل التيارات تتفق معه وتختلف، لكنك لا تملك إلا أن تحترم أصحابه لعفتهم ونظافة أيديهم وبعدهم عن كل ما يخدش المروءة أو يشين السيرة.

قد تلتقى معهم في الأصول وتختلف في أقل القليل من الفروع، لكنك لا تستطيع أن تنكر حضورهم المميز ولا أن تتنكر لدروهم كرافد هام ومؤثر من روافد الدعوة إلى الله.

كنا منذ زمن نعمل في دولة الإمارت وعرفت بعضهم عن قرب، واختلفت معهم في كثير من الرؤى والطروحات، ولكنى لا أنكر فضلهم وهمتهم، وما رأيت في سيرتهم إلا ما يشهد لهم بالفضل وحسن الأخلاق والأدب.

بعض تصريحات الرموز السلفية والتى تأتى أحيانا بتلقائية غير مفتعلة، تُسْتَغَلُّ وتُفَعَّلُ وتُحَمَّل بأكثر مما تحتمل وتُسَوَّقُ على أنها الدليل والحجة للأطراف الأخرى على صدق ما تدعيه.

الأطراف الأخرى غنية وذكية، ولديها في التشويش والتشويه سوابق وخبرات، ومن ثم فهي تجيد اختراق الصفوف باستئجار بعض العناصر لِتُقْدِمَ على عمل أهوج وهدام، فيكون ثمنه ارتباك في المشهد الوطنى كله ينزع الثقة عن أهلها ويبذر بذور الشك والحذر بين التيار الإسلامي وبين شرائح المجتمع المختلفة والتى توليه ثقتها وتطمئن إليه. هنالك خسارة من نوع آخر تصيب مصر كلها حيث يستبعد الشرفاء من المشهد كله لَيَحِلَّ محلهم مَنْ باع الأرض والزيت وخرَّب البيت ولا يزال متربصا ينتظر إشارة العودة.

كتب إليَّ من عمق الريف المصرى شاب قريب لى معروف بشرفه وعدالته ووعيه الثقافي وحبه لمصر يرجونى أن اكتب محذرا من السلفيين حتى لا تصاب مصر بانتكاسة الثورة.

اتصلت أيضا هاتفيا من أهل القاهرة قريبة لزوجتى تحمل ماجستيرا في علم الاجتماع وتُعْرَفُ بين معارفها بالتزامها الدينى، وطلبت أن ندعو لمصر وأن يجنبها ربنا فتنة السلفيين وما يفعلونه.

أدركت ساعتها أن الدعاية السوداء والرمادية عبر الحملة البغيضة التى يطلقها الإعلام المتصهين في بلادنا وحتى بعد الثورة، حققت بعض أهدافها وأصابت بعض الشرائح، وأشاعت بين الناس دخانا يحجب رؤية الحقيقة ويزكم الأنوف.

أظن أيضا،وبعض الظن حق أن مصر الثورة مقبلة على مؤامرة من نوع خطير، فمصانع الكذب فيها فاقت نظراءها لدى عصابات شيكاغو وجماعات هوليود.

تساءلت في نفسى، أمام هذه التحديات كلها هل تدرك التيارات الإسلامية حجم الخطر الذى تتعرض له وتُعَرِّضَ له مصر؟

أم أن أولوياتنا ستظل يعبث بها بعض الصبية الصغار في تلك التيارات وبعض المستأجرين من خارجها؟

الموقف يحتاج لبصيرة الحكماء ونحمد الله أنهم كثر في التيارات الإسلامية.

بعض الطوائف هنا في مجتمع المهجر ممن حققوا حضورا اقتصاديا هائلا ونجاحا إعلاميا مسيطرا لو مررت عليهم بيتا بيتا أو زنقة زنقة كما قال غير المأسوف عليه أو حتى فردا فردا لن يدخل واحد منهم أبدا معك في حوار ينشر أو يذاع، وإنما سيحيلك لرجل واحد عندهم محدد ومعروف: إذهب إلى فلان، فلان هو المخول بالحديث والتصريحات، رغم أنك قد تحسبهم جميعا، بينما قلوبهم شتى.

فهل نستفيد من خبرات الآخرين ولو كانوا مختلفين معنا ومختلفين عنا؟.

النخبة والهياج السياسي (*)

من علامات سوء طالع الإنسان أن يتعرض لما لا يُطيق. ومن يفعل ذلك يُذِلّ نفسه ويدفع الآخرين لِيُذِلُّوه أيضا.

التصريحات الجديدة التى تملأ أفق المحروسة بحديث عن ضرورة بقاء العسكر في الحكم من علامات سوء الطالع، ليس لأصحابها فقط،وإنما لمصر كلها إن سكتت وتركت الحبل على الغارب. بعض أصحاب هذه الدعوة طَالِعُه معروف من قديم، ولا يحتاج لذكاء حتى يتم كشفه أو حتى يتم فقسه كما يقول أولاد البلد الأصلاء، فهو مفقوس من زمان. الشعب الذى خلع بإصرار وعناد وكبرياء طاغية العصر، وقدم التضحيات من الشهداء والجرحى قال كلمته في استفتاء ١٩ مارس، ولأول مرة في التاريخ الحديث يمارس الشعب إرادته بحرية غير مسبوقة.

أصحاب سوء الطالع الذين كانوا خدما وأعوانا في بلاط الطاغية المخلوع، عَزَّ عليهم أن يفرح الشعب المصري بممارسة حقه في الحرية والديمقراطية، فراحوا يكيلون له تهم السب والشتم والتبكيت؛ لأن اختياره جاء على غير هواهم.

أحدهم بالحيل الخادعة يحاول الالتفاف على تلك الإرادة الشعبية بجمع توقيعات لإعادة الاستفتاء على الاستفتاء السابق، ويساعده المال الطائفي حيث يلعب دورا كبيرا جدا في تسويق المحاولة عن طريق صحف خاصة وقنوات فضائية مملوكة لأصحاب هذا المال. صاحبنا المفقوس منذ زمن، يبدو أنه استصاغ واستمرأ أن يُذْكَر اسمه وأن يكون ضيفا دائما لبعض قنوات رأس المال الطائفي، وأن تتناوله وسائل الإعلام مدحا أو قدحا لا فرق، فهو "مفقوس مفقوس ولو علقوا على رأسه فانوس"، وكما يقولون في المثل الشعبي "ضربوا الأعور على عينه فقال: خربانة خربانة"

وبما أن الوزراة القائمة وزارة لتصريف الأعمال فهى بعد ثلاثة شهور مقبلة على السقوط القهرى أو السقوط التلقائي بحكم القانون، ومن ثم فصاحبنا المفقوس جدا يعمل بالمثل القائل "ياللى انت رايح كتر من الفضايح"

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٣ - ٠٦ - ٢٠١١م

المحاولة مضحكة ومبكية أيضا، فبقدر مافيها من سخف وهراء بقدر ما تحمل من خبث يُدْخِلُ البلد إلى نفق مظلم ويدفعها إلى شر مستطير.

وبما أن الشعب المصري يعانى من حالة جفاف وكبت سياسي وصلت إلى حد القهر بتزوير إرادته في آخر انتخابات قادها المسجون أحمد عز، وأنه ظل محروما من حقوقه عامة ومن حقه السياسي في ممارسة حريته في الاختيار لمدة ثلاثين سنة، فإن المرء يمكن أن يتفهم أن حالة الهياج السياسي التى تمت خلال الشهور الماضية بعد ثورة ٢٥ يناير كانت بمثابة تفريغ للطاقة المكبوتة،وأنها أيضا نوع من الاكتئاب الوطنى الإيجابي الذى يدفع بالناس أحيانا إلى حركات سريعة ومتنوعة وغير محسوبة، مثلها تماما مثل سجين عقوبته مؤبدة وفقد الأمل في الخروج من زنزاته، ثم فجأة وبلا مقدمات وجد نفسه حرا طليقا سقط عنه كل شئ ولم يعد مسؤولا عن أي جرم، فراح ينظر يمنة ويسرة ويتحرك مذهولا في كل اتجاه وهو غير مصدق لما حدث.

هذه الحالة يمكن أن نتفهم على ضوئها حالة الهياج السياسي التى تمت في الشهور الماضية، وخلالها حاولت فلول النظام المخلوع أن تتحرك بسرعة، فبذرت بذور الفتن هنا وهناك، ومن ثم كان من الحكمة أن تنتقل الأمة بشكل طبيعي من حالة الشرعية الثورية التى أطاحت بالرئيس المخلوع وأحدثت هذا الذهول، إلى حالة الشرعية الدستورية التى يبدأ معها الاستقرار والتفرغ لإعادة بناء وهيكلة الدولة، حتى يتم قطع الطريق أمام فلول النظام التى بدأت في استغلال الأوضاع وتوظيفها لثورة مضادة، ولذلك كان الاستفتاء على الدستور في ١٩ مارس هو القنطرة التى حملتنا إلى بداية الشرعية الدستورية، وقد تمت هذه المرحلة بنجاح باهر، الغريب أن فئة قليلة تريد الآن أن تنسف كل ما تم إنجازه لنبدأ من نقطة الصفر مرة أخرى، فلصالح من؟

وبدلا من أن يتفرغ الجميع لتوجيه طاقة الناس إلى زيادة الإنتاج وإثارة التحدى وتحفيز إرادتهم لكى تُقبل على تشغيل المصانع وزراعة الأرض وإدارة الآلات في شتى القطاعات حتى تكتفى مصر ذاتيا فيما تحتاج إليه من غذاء ودواء وغير ذلك، إذا بنا ندخل من جديد في هذا اللغط المثار حاليا حول إعادة الاستفتاء على الاستفتاء، والذى يعد تجاهلا لإرادة الأغلبية الشعبية الساحقة من أبناء هذا الوطن؟

ثم ألا يحق للمرء أن يتساءل عن الفرق بين الجريمة الأخلاقية التى ارتكبها أحمد عز بتزوير إرادة الشعب وتجاهل الأغلبية الساحقة وبين ما يقوم به يحيي الجمل وشلته هذه الأيام؟ وهل يا ترى خرجت مصر بثورتها المباركة والعظيمة من تحت سيطرة الرئيس المخلوع لتدخل تحت وصاية يحيى الجمل ونخبته؟

وهل كلما اختار الشعب أمرا وأجمع عليه ولم يوافق هوى النخبة المحترمة سيعاد النظر فيه ولو كان استفتاء ساهمت فيه كل مصر بكل أطيافها؟

هل ستتحول مصر الحرة إلى رهينة لألئك الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب كما يقول المثل المصرى، فيعترضون على كل شئ وبأي شئ وليس من أجل شئ إلا إعاقة الحياة السياسية وتعطيل مسيرة الديمقراطية وصناعة صنم سياسي جديد؟

ثم أليس ما يحدث الآن هو نفسه ما فعله أحمد عز في آخر انتحابات تمت قبل قيام الثورة؟ ألا يُعد ذلك في عرف (فقهاء الدستور) انقلابا على الشرعية والتفافا على إرادة الشعب وهو الوجه الآخر للفساد السياسي القبيح الذى قام به أحمد عز ويحاكم عليه الآن؟ السخف الذى يحدث هو نوع من الثورة المضادة بالقفز على إرادة الشعب ومصادرة حقه في الاختيار، وهو أمر يثير فتنة ضد إرادة الأغلبية التى قالت كلمتها في استفتاء ١٩ مارس.

خطورة استمرار هذا العبث أنه يدفع المصريين إلى فقدان المصداقية في الحكومة وفي القوات المسلحة إذا هى سكتت عليه، وهذا هو الفساد السياسي بعينه الذى مارسه النظام المخلوع والذى كان يهدد أمن مصر واستقرارها، ومن أجل القضاء عليه قامت الثورة، ووضعت كُهّانِه ومُنَظِّريه ورموزه ورؤوسه نزلاء الآن في سجن طرة.

المشهد يحمل في رَحِمِه شرا كبيرا قد لا يتحمله الوطن في ظرفه الراهن، حيث لا مجال للمقامرات ولا يجوز أن يُسْمَح بها في ظروف مصر الحالية.

المجلس العسكري كممثل عن القوات المسلحة التى حمت الثورة وكانت بحق درعها الواقى ويحمل له المصريون كل التقدير والإجلال والاحترام، في حاجة الآن أن يُبْدِى غضبه ولا يكتفى بالتلميحات ولا حتى بالتصريحات.

عصام شرف ويحيي الجمل ومن معهم من داخل الحكومة ليس من حقهم أن يفعلوا ذلك؛ لأنهم ببساطة شديدة في مواقعهم نواب عن الشعب في تنفيذ إرادته وليسوا أوصياء عليه، وعندما يقول الشعب كلمته فلا يجوز أبدا أن يلتف أحد لمصالح خاصة على إرادة الشعب خصوصا إذا كان عضوا في حكومة تمثله.

الأمر محير ومربك ويدعو للضيق ولا يبشر بخير، فالثورة قد قامت لتحرر إرادة الشعب فما بال هؤلاء يكبلونها من جديد.

والثورة قد قامت لتخلص مصر من الاستبداد فما بال هؤلاء يكرسونه من جديد.

والثورة قد قامت لتقرر مبادئ الديمقراطية فما بال هؤلاء يعيدونها فرعونية جديدة تقول للناس "ما أريكم إلا ما أرى"؟

ليس من حق المال الطائفي مهما بلغت ملياراته أن يلغي إرادة شعب بكامله، ولا يجوز له أن يلعب بالنار في مصير وطن كبير كمصر.

كما لا يحق ليحيى الجمل ولا عصام شرف، ولا مَنْ معهم حتى لو كانوا ثمانين حزبا -كما يَدَّعى الجمل ويروج- أن يفرضوا إرادتهم على وطن تعداده ثمانون مليونا من البشر.

القوات المسلحة هنا مطالبة أخلاقيا وقانونيا بأن تفك هذا الاشتباك المشين والمهين، وأن تُسْكِتَ هذه الأصوات النشاز، وتحزم الأمر باعتبارها درعا للوطن وحامية لمكتسبات الشعب، وأول هذه المكتسبات احترام إرادته وحماية حقه في الاختيار الحر.

الدعوة لإلغاء إرادة الشعب والاستفتاء على الاستفاء لو اقتصرت على زعماء الأحزاب في الساحة السياسية لكانت الفضيحة مخففة، ولقال الناس: حُرقَةُ حِرمان أصابت حناجر بعض الرؤوس المتطاولة والمتطلعة لأكبر من إمكانياتها، فراحت تصرخ بإساءة النطق بعد إساءة الحال، ويجب أن نسامحهم.

أما وأن يكون المتحدثون في الفتنة والمطالبون بإلغاء إرادة الشعب وإعادة الاستفتاء على الاستفتاء هم من رؤوس الحكومة التى تعمل تحت ولاية المجلس العسكرى فتلك عورة مغلظة وفضيحة مركبة، تهين مصر شعبا وإرادة وثورة وثوارًا، وظروف الوطن

لا تتحمل مثل هذه المقامرات العبثية والفجة والخبيثة التى تعرض أمن مصر وكرامة شعبها لأخطار كبيرة.

الجديد والمحزن في الأمر أن ينضم د. عصام شرف إلى هذه الفئة، فقد كانت النفس وما زالت تحمل له قدرا كبيرا من الاحترام، وكذلك الشعب أيضا، وليت ما صرح به يكون زلة لسان غير مقصودة يمكن الرجوع فيها أو الاعتذار عنها، وبخاصة أنه على رأس حكومة تنوب عن الشعب في تنفيذ إرادته وليس في تجاهلها أو القفز عليها. وعندما يتصل الأمر بأمن مصر واستقرارها وكرامة شعبها واحترام إرادته فلا بد هنا من الحزم ونزع الفتيل قبل إشعال الحريق، وذلك هو دور المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

شخصيات فقدت شراعها (٢/١) (*)

إذا أردت أن تعرف إنسانا على حقيقته دون مكياج أو رتوش أو أقنعة، فلا يمكن أن تعرفه إلا إذا أخذ حريته كاملة، وتصرف على طبيعته دون خوف من قيود أو حدود، لأن جو الحرية يجعل الإنسان يبدو على طبيعته دون تزويق أو تَصَنُّع، وفي هذا الجو أيضا تتجلى درجة التحضر الإنساني الحقيقية إن كان متحضرا، كما تتجلى حيوانيته ووحشيته أيضا إن كان وحشيًّا.

في جو الحرية تحترق الأقنعة المزيفة التي تخفي حقيقة الطبع، وتختفي وتتوارى من النفس البشرية كل أشكال الخداع الاجتماعي في السلام والكلام والمجاملات.

والتحضر لم يكن ولن يكون يوما أزياء يرتديها ويتزين بها الإنسان، البدلة على آخر مودة ورابطة العنق أصلية أو مزيفة، لا دخل لها في تحضر الإنسان مهما ارتدى المرء من ملابس بسيطة أو فخمة.

هذه الحقيقة أدركها ابن الوردي منذ زمن بعيد فقال بيته المشهور:

ثوب الرياء يَشِفُ عما تحته ... فإذا اكْتَسَيْتَ به فإنك عاري

والمشهد في مصر الثورة بعد الانتخابات أضحى عجيبا وغريبا، فالإسلاميون عموما أجارك الله والإخوان بشكل خاص يرحمك الله والسلفيون بشكل أخص أعاذك الله، رغم وجودهم وحضورهم المكثف لم يكن يلتفت إليهم أحد من الإعلاميين قبل الثورة، فلم يكونوا في العير ولا في النفير، اللهم إلا إذا قررت بعض الصحف أو بعض البرامج الفضائية أن توجد مادة للهجوم والسخرية وإثارة الجدل، وكان لدى النظام كتائب لتصفية الإسلاميين ثقافيا واغتيالهم معنويا ومحو كل ما يتصل بهم في ذاكرة الأمة.

الأخبار وما أدراك ما الأخبار وما آفة الأخبار إلا رواتها كانت تَنْقُلُ عنهم غيابيا وتنتقي منهم مَنْ يدلي بحديث جاف وغليظ، ومليء بالفجوات والثغرات وإثارة الجدل عن الديمقراطية والحرية والمرأة والأقباط وحقوق المواطنة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٣٠ - ٠٦ - ٢٠١١م

والقوم "مساكين" ليس لهم إلا وجه واحد، ولا يحسنون تزويق الحديث، ولا تحلية المر، ولا لعب الثلاث ورقات . غَشَمْ بعيد عنك وعن السامعين . ومن ثم فالكل شاك ويتشكّك ومتشكك فيهم، وهات ماشئت من مشتقات الفعل البغيض" شك يشك فهو مشكوك فيه"، مهما أقسم ولو كان بارا في قسمه وقسمته، فالكل يتشكك فيه، بينما السادة الليبراليون والماركسيون والعلمانيون قبل الثورة وبعدها كان حديثهم عن الحرية هو الأحلى مذاقا، والأكثر إغراء، والأبهى ثوبا، والأجمل تنميقا، وبالطبع هو الأعلى صوتا والأكثر ضجيجا وحضورا في الصحافة والقنوات الفضائية.

ويبدو أن الثورة أحدثت انقلابا في الأفكار وأعادت الطباع إلى حقيقتها، وأن جو الحرية الجديد أتاح للناس أن يظهروا على طبيعتهم دون تكلف أو مصانعة، وأن يتجلى في أخلاقهم وسلوكهم نصيب كل امرئ من تجليات التحضر الإنسانى، ولذلك يفاجؤنا المشهد اليوم في مصر بكثير من المفاجآت المذهلة.

فأصحاب خشونة الطبع وغلظة القول تغيرت لهجتهم وأضحت أكثر اعتدالا وواقعية واتساقا مع مبادئهم في رعاية حال الزمان والمكان والناس، وبرهنوا على أنهم بشر طبيعيون لهم طباع البشر ويفكرون مثل كل الناس، وتتجلى فيهم رغم طول لحاهم وغرابة أثوابهم أعلى درجات التحضر في السلوك والقول، ويمكنك أيضا أن تجد فيهم الأنس والأدب والذوق الرفيع، وتستشعر في حديثهم منطق، وفي رؤيتهم عمق وواقعية.

بينما الإخوة الليبراليون أصحاب الياقات المنشاة وأربطة العنق الأنيقة، والبدلة آخر موديل ومعهم العلمانيون والماركسيون وبعض رجال المال الطائفي وغير الطائفي الذين كانوا يتباهون بأنهم دعاة الدولة المدنية والديمقراطية وحقوق الإنسان تخلوْا تماما عن كل هذه المبادئ، وتنكروا لها وانقلبوا عليها في أول اختبار حقيقي للممارسة الديمقراطية، وأصبحوا يدعون إلى إلغاء أول انتخابات حرة في تاريخ مصر الحديث، ويطالبون باستمرار الحكم العسكرى وإبقاء البلاد تحت وصاية الجيش؛ لأن صناديق الانتخابات جاءت على غير هواهم.

الدعوة إلى وضع الدستور وانتخاب الرئيس أولا التى يتولاها الوتد والمسمار والحبل وكل أركان خيمة دستور يا سيادى، اتضح أنها ليست لله ولا حتى للوطن، وليست لحماية الحريات التى جاءت بها الثورة، ولا دعما لديمقراطية مرتقبة، وإنما هى

محاولة لصناعة دكتاتور جديد يحمى مصالح رجال المال والأعمال، ويغطى مخالفات كثيرة لو كشفت في ظل حكومة حرة ومنتخبة من الشعب فلربما كان أغلبهم موضع مساءلة قانونية، وهذا هو السر وراء تمسكهم بإلغاء الاستفتاء الأخير وتأجيل الانتخابات.

الفزاعة القديمة "فزاعة الخوف من الإسلاميين" أعيد تشغيلها بموظفين جدد لهم طولة لسان، ولكن ليست لهم كفاءة المحترفين في التخويف والتزوير وتزويق القول، ولعل وعي الثورة ساعد على كشف بدائية الأدوات وعدة النصب المستعملة.

وصل الجنون بأحد رجال المال الطائفي أن وضع على صفحته في الفيس بوك صورا ساخرة من اللحية والنقاب شعر المسلمون فيها بالإهانة، وسببت غضبا كبيرا في أوساطهم وبخاصة أنها لم تكن المرة الأولى، فقد تكررت السخرية من هذا الشخص نفسه أكثر من مرة، وصدرت على لسانه في بعض الحوارات ألفاظ سوقية مثل (حتطلع دينه). شخص آخر ديموقراطى جدا من جماعة خيمة دستور يا سيادى أعلن في نقابة الصحفيين أنه سيحمل السلاح إذا جاءت صناديق الانتخابات بالإسلاميين؟؟.

نتذكر جميعا بأن النظام السابق كان قد فرغ وخصص بعض كتبته في فلسفة تشويه الجماعة وإشاعة الغبار حول أفكارها وربطها حينا بإيران وحزب الله، وحينا آخر بجماعة طالبان في أفغانستان، وطبيعى أن تنال منظمة حماس نصيبها من الشتم والتشويه باعتبارها الإمارة الإسلامية لتلك الجماعة في الأرض المحتلة، كما كان يحلو دائما للسادة الهوارى والدقاق وعبد الرحيم على أن يصفوها.

كتبة الأهرام وروز اليوسف أيضا ساهموا بزخم كبير في الافتراء على الجماعة وإلحاق كل شريف يريدون اغتياله بنسبته إليهم.

في فترة من الفترات كانت وطنيتك لا تثبت إلا باعتراضك على الجماعة المحظورة والتخويف منها، وكان البعض من البهلوانات ممن يجيدون لعبة القفز على الحبال ينصب من نفسه مفكرا في نقد الجماعة ومظهرا لعيوبها الفاحشة في رفض الآخر وموقفها من المرأة والأقباط ونظام الحكم في نيكاراجوا وبوركينا فاسو.

تستمع إليهم فيخيل إليك أنك أمام نوع غريب من "العته" السكافي يجعل صاحبه يهذى ويهرف بما لا يعلم ويتفلسف على طريقة سمك لبن تمر هندى.

بعض العقلاء قال لى مرة ونحن نتحدث عن تلك الجماعة إن النظام يهين نفسه حين يستأجر هؤلاء ويقدمهم على أنهم لسان حاله في تشويه الجماعة: ومهاجمتهم وبالمناسبة –والكلام لا يزال لصديقي– هؤلاء الناس بطريقتهم الممجوجة يشكلون دعاية بغير أجر لتلك الجماعة.

المواقف المتناقضة لجماعة خيمة دستور يا سيادى تكرر نفس النغمة القديمة، وبقدر ما تشكل ردة عن المبادئ بقدر أيضا ما تشكل فضيحة أخلاقية وثقافية تتجلى فيها أخلاق النخبة المثقفة ودركات سقوطها، وهى النخبة التى صدعت رؤوسنا وخدعتنا لسنوات طويلة.

الردة والفضيحة الأخلاقية أفقدتهم أية مصداقية وحولتهم في نظر الآخرين إلى مجرد تجار انتهازيين في سوق المساومات السياسية من أجل مصالحهم، وكشفت أيضا بأن كل حديث لاكته ألسنتهم عن الديمقراطية إنما كان مجرد سبوبة لتلقى المعونات من الاتحاد الأوروبي وبقية دوائر الغرب ومعاهده.

النغمة القديمة التى كانت سائدة في الإعلام أيام عهد الرئيس المخلوع عن الإسلاميين عادت كما كانت، وعادت ريمة لعادتها القديمة، لا بإعادة إنتاج فكرة التشويه والتدليس وتزييف الوعي، وإنما بإعادة إنتاج المتحدثين، لكنهم هذه المرة أقل قدرة وأهبط كفاءة وأرخص ثمنا وأخس خلقا وأحقر ضميرا، حتى وإن أطلق عليهم البعض لقب "أتباع دستور يا سيادى"

الشلل التى قبضت وتبوأت مواقع كبرى في الصحف والقنوات الفضائية من أجل تلك المهمة في عهد الرئيس المخلوع باشرت الهجوم مرة أخرى دون أن تضع في اعتبارها أن هناك ثورة قامت، وأن للناس عقولا تُمَيِّزُ وتفرز.

أجهزة إعلام خيمة فقهاء دستور يا سيادي عادت لتمارس المهمة القديمة، ولتتفنن في سب وشتم الإسلاميين وبخاصة الإخوان والسلفيين وإلصاق أبشع التهم بهم.

نفس هذه الشلل الآن تعير مواهبها لطائفي يريد أن يفرض رؤيته على شعب بكامله ويرفض نتائج الاستفتاء ويطالب بتشكيل مجلس رئاسى وتأجيل الانتخابات، ويلوح دائما بدفتر الشيكات قبل أن يدلى بأي اقتراح سخيف.

إصرار خيمة دستور يا سيادى على إشغال المجتمع المصري حاليا بالدستور أولا أم الانتخابات أولا أتاح الفرصة لأنجال الرئيس المخلوع "علاء وجمال" ليبعثا برسالة من داخل السجن إلى الزواوى مستشار السلطان قابوس يتهمون الثورة والشعب بالغوغائية ويطالبون بتدخل خارجى، الرسالة نشرتها كبريات الصحف الأجنبية وتحدثت عنها.

كيف خرجت تلك الرسالة؟ ومَنْ تولَّى توصيلها؟ وهل هنالك صلة بين جماعات دستور ياسيادى التى تشغل الشعب والثورة بالفرخة أولا أم البيضة أولا ليتحرك نزلاء سجن طرة على راحتهم ويفاجئون الشعب المصري بانقلاب مروع؟

ألم أقل لك عزيزى القارئ إن: جو الحرية كشف لنا عن شخصيات فقدت شراعها...ثم ضاعت مراسيها...؟.

شخصيات فقدت شراعها (٢/٢) (*)

اللغط الذى أثاره من يسمون أنفسهم بالنخبة في الفترة الأخيرة لم يعكر سماء القاهرة فقط، وإنما عكر وجدان كل مصري شريف يحب بلده ويخاف عليها، ولم يملأ سحب المحروسة بدخان يحجب الرؤية وينبئ أن تحت الرماد اللهيب فقط، وإنما كشف لنا بيقين أن المرحلة المقبلة من أخطر المراحل على الثورة والشواهد على ذلك كثيرة:

منها ما يثار في الداخل من إشاعات وبلبلة ومحاولات جر الوطن بكامله لصراع داخلى بين أغلبية قالت رأيها واختارت بحرية، وبين أقلية تفرض وصايتها وتتسلط وتستبد، وتريد أن تجهض أول تجربة ديمقراطية تمارسها مصر، وتنسف أول اختيار حر للشعب المصري ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث.

ومنها محاولات إشغال الناس وانقسامهم بين مؤيد ومعارض، ومحاولات جر أجهزة الأمن لمعارك جانبية، والتهجم على المجلس العسكرى والقوات المسلحة وإشغال الرأي العام بكل تلك الأمور.

منها أيضا إصرار كبيرهم الفقيه الدستورى المثير للجدل مع بعض أعوانه على إشعال الفتيل، ومنطقه وردوده على خصومه ومنتقديه، ووصفه لهم بأنهم روث بهائم، كأنه يراهم ليسوا إخوة في الوطن ولا شركاء في المواطنة وإن اختلفوا معه في الرأي وإنما يراهم مواشى في حظيرة بهائم هكذا قال..؟

منها أيضا ما حملته الأخبار إلينا أن رئيس الوزراء أدان بشدة كل محاولات التدخل من أية جهة خارجية في الشؤون الداخلية أو الخارجية السيادية لمصر، كما حذرت لجنة القوات المسلحة المنبثقة عن مؤتمر الوفاق القومى من محاولات الولايات المتحدة اختراق شباب الثورة من خلال تقديم تمويل لهم يقدر بملايين الدولارات عبر مواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك) كما كشفت الناشطة إيناس الجابي عضو ائتلاف الثوار الأحرار أنها تلقت عبر صفحتها على الفيسبوك مليونا وخمسمائة ألف دولار، وأكدت أن هناك معونات أرسلت لبعض الثوار وقوى أخرى سياسية دون أن تسميهم. لكنها قالت: إن العديد من الشرفاء رفضوا تلقى هذه المعونات.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٧ – ٧ – ٢٠١١م

يذكر أيضا أن السفيرة الأمريكية الجديدة في القاهرة صرحت بأن أمريكا صرفت من بداية الثورة حتى الآن ما يقرب من ٢٤٠ مليون جنيه على ٦٠٠ منظمة مصرية منذ ثورة ٢٥ يناير حتى الآن وما صاحب هذا الخبر من ظهور قنوات فضائية هبطت على السموات المفتوحة فجأة دون أن يعرف لأموالها مصدر.

الأمر إذاً جد لا هزل، وأن قوى داخلية تُمَوَّل من الخارج تحاول تعكير الماء لتتمكن من الصيد.

الولايات المتحدة ليست مؤسسة خيرية تدفع لوجه الله، ولسنا في حاجة أن نذكر السادة أعضاء المجلس العسكرى والسيد رئيس الوزراء والسادة القراء وعموم الشعب المصري بأن المنظمات التى تلقت هذه الأموال تخضع بالطبع لشروط الممول وأجندته، وتربط نشاطها بأولويات مَنْ يدفع.

تعكير الجو وتعطيل الإنتاج وإشغال الناس وإثارة الجدل وخلق بؤر للصراع وتمكين البلطجية مقاصد أساسية للثورة المضادة وهي أهداف ممنهجة وممرحلة ومعدة سلفا ويتم تنفيذها وفقا للظروف المتاحة.

المناخ الذى يساعد على تنفيذ ذلك المخطط هو مناخ التشكيك وفقدان الثقة وتغييب الوعى في الوجدان العام للأمة عن طريق استجابة الشعب لتهييج الإعلام الجديد والقديم المسكون بهواجس الخوف من التغيير والمريض بفوبيا الإسلاميين.

ما يحدث في مصر الآن لا يمكن أن يكون وليد الصدفة، والواجب الوطنى يفرض على من يعنيهم الأمر من أعضاء المجلس العسكرى وحكومة عصام شرف بضرورة اليقظة والتحقيق في مصادر تمويل تلك المنظمات وطريقة صرفها أولا.

وثانيا: لابد من حماية جبهتنا الداخلية من كل عوامل التشويش والبلبلة وتحريض بعض التيارات على بعض، وتشديد العقوبة على من يهددون أمن المجتمع من البلطجية أو من يقصرون في حمايته من رجال الأمن.

ثالثا: لابد أيضا من التنبيه لخطورة البلطجية الفكرية والثقافية التى يمارسها بعض المثقفين وتقوم على نشرها وإذاعتها الصحف والقنوات الفضائية المرتبطة بالتمويل الطائفي أو الخارجي؛ لأن ذلك كله يؤثر على هوية الوطن وانتماء أبنائه.

بعض الطروحات ربطت بين الرسائل التى تخرج من سجن طرة موجهة إلى مساندى وأتباع النظام المخلوع في الداخل والخارج، وبين دعوى المطالبة بالدستور أولا، وهذا

الطرح الذي يربط بين الاتجاهين له ما يبرره حيث يمنح المخططون للثورة المضادة فرصتهم في ترتيب أنفسهم وتنظيم أمورهم والخروج في الوقت المناسب.

مصر الجريحة والمنهوبة كانت تستحق من أبنائها أن يساعدوها على الخروج من كوارث الفساد الكثيرة والمتنوعة والمؤلمة التى سببها استبداد النظام المخلوع ورموزه، وبدلا من الدعوة إلى النهوض وزيادة الإنتاج واستغلال القدرات واستثمار الكفاءات المتاحة واستنهاض الأمة، تشغلنا النخبة بجدل لا طائل تحته ولا فائدة فيه ولا ثمرة منه إلا تعطيل الحياة وشل حركة الثورة عن الانطلاق إلى تحقيق أهدافها.

من حق المراقب أن يتوسم سوء الفهم وسوء النية في الذين يصرون على القفز فوق إرادة الشعب ورفض قرار الأغلبية واتهامها بالسذاجة والتخلف وعدم النضوج.

هذا الكلام يشكل عورة ثقافية تهبط بصاحبه وتنزع عن المثقف صفة الالتزام لأنه يرتد عن المبادئ التى يرفعها شعارا لنضاله ويدعى أنه يضحي من أجلها.

ثم هي لا تنزع عنه صفة الالتزام فقط بل تضيف إليه صفة المغرور المتكبر؛ لأنه يمارس الإقصاء النخبوى في أدنى درجات انحطاطه حين يُدْلي بما لديه من حصيلة كلمات منمقة يسفه بها اختيارات الآخرين ولو كانوا أغلبية، ولا يرى صوابا لرأي آخر يخالف هواه السياسي أو لا يلتقى ومصالح النخبة من أصحاب رأس المال الذين ارتبطت مصالحهم بالنظام السابق وتربوا في أحضانه وكونوا ثرواتهم في ظل فساده.

في الداخل التزم الإسلاميون حتى الآن على الأقل بما وعدوا به وأكدوا في تصريحات على ألسنة قياداتهم وفى أكثر من لقاء أنهم يريدون دولة مدنية لدرجة أن واحدا من قيادات الإخوان وعضو مكتب الإرشاد د.غزلان وعلى صفحات المصريون خاطب العلمانيين والليبراليين بقوله: "نحلف لكم بالله وبالمصحف على أن الإخوان عايزين دولة مدنية".

بعض النماذج الأخرى غير الإسلامية كان لها في النضال الوطنى مواقف مبهرة ومحل إعجاب في الثبات على المبدأ والصمود في وجه الاستبداد، لكن غالبية رجال النخبة خيبت الآمال وشوهت الصورة وسقطت في أول اختبارات الحرية ورفعت من نفسها لتكون وصية على الشعب وتعاملت مع الإرادة الشعبية باستعلاء، وسفهت من اختيارات الناس، الأمر الذى جعلنى وغيرى من الناس نتساءل: هل نستبدل استبداد الطاغية وحزبه الوطنى وحاشيته بدكتاتورية النخبة والقلة؟

هل نحطم قيود الاستبداد بثورة دفعت ثمن نضالها ما يقرب من ألف شهيد وأكثر من ثمانية آلاف جريح لنستبدل بها قيودا وأغلالا أشد وأعتى؟

وإذا كان هذا هو رأى النخبة القليلة في شعب عظيم كان هو سناد الثورة وقلبها وشرايينها، فكيف يكون موقفها إذا آلت إليهم شؤون الناس وتمكنوا من مقاليد الأمور في الوطن كله؟

وإذا كان هذا هو تصورهم للشعب ووصفهم له بأنه "شعب جاهل" مشكلتنا ثقافية "غياب الوعي" كما رددوا ولا زالوا يرددون، فهل هذا الجهل يرتفع عن كاهل هذا الشعب إذا اختارهم هم؟. فإذا اختار غيرهم فهو شعب جاهل؟،

وهل مشكلتنا الثقافية ستنتهى عندما نتخلى عن إرادتنا وحقنا في الاختيار ونرتفع إلى مستوى ثقافة السادة الليبراليين والماركسيين وبعض فلول النظام السابق.؟

وهل غياب الوعى الذى نعانى منه في نظر النخبة سيرتفع عنا ويعود إلينا رشدنا الغائب ووعينا المفقود عندما نكف عن المطالبة بحقنا في الحرية والاختيار؟ وبالمرة نتخلى عن ديننا وهويتنا ليكون رضاهم كاملا عن هذا الشعب القاصر والجاهل؟

المجلس العسكري هو الآخر نال حظه ونصيبه من دخان الإخوة؛ لأنه لم يستجب لصناعة الأصنام السياسية وأصر على احترام إرادة الأمة التى تعتز به كركن من أركانها لا يتحقق لها أمن أو استقلال بدونه.

هذا الجيش كان الأمل الواقى للثورة ولولاه لدخلت مصر مستنقع العنف كما حدث في بلاد أخرى كليبيا واليمن وسورية، ومن ثم فهو خط أحمر لا يجوز التشكيك فيه أو التعامل معه بغير مسؤولية أو تقدير..

جماعة الإخوان المسلمين أو الجماعة المحظورة كما كان يحلو لبعضهم أن يسميها عبَّرت وتُعبر عن نفسها بوضوح، وتبين للقاصى والدانى أنها جماعة وطنية ومسؤولة، تريد كبقية التيارات السياسية أن تساهم في بناء وطنها ونهضته وتحرير حاضره ورسم ملامح مستقبله، فما العيب في ذلك؟ وما الداعي للتخويف منها واستعمالها فزاعة في الداخل والخارج؟

عقدة العلمانيين والليبراليين والماركسيين يجب أن تنحل، فكل التيارات قد انفتحت على بعضها ولغة الحوار العاقل الحر يجب أن تكون هى الأساس في تعامل

الأحزاب بعضها مع بعض، والساحة الوطنية تتسع للجميع، وإرادة الشعب وصناديق الانتخاب هى الحكم.

الإخوة الذين صدعوا رؤوسنا بكثرة حديثهم عن الديمقراطية وكانوا يلوون ألسنتهم بكلام طويل عريض عن ضرورة احترام إرادة الشعب، يجب أن يطبقوا وعودهم ويحترموا كلامهم ويكفوا عن الخداع ومحاولات فرض إرادتهم على شعب بكامله.

السقوط في أول تجربة ديمقراطية مارس الشعب فيها حرية اختياره ليس عيبا،حتى برغم الحشد الكبير الذى حاولوا أن يحشدوه، وبرغم الإمكانيات التى توفرت لدعايتهم في صرف الناس عن الموافقة على التعديلات الدستورية وحضهم وتحريضهم للناس أن يقولوا لا،واستعمالهم لأغلب الفضائيات المملوكة لهم أو لأغلب من انضموا إليه وانضم هو إليهم.

هذا السقوط ليس عيبا، وإنما هو بعض ثمن الديمقراطية.

إنما العيب كل العيب إذا جاءت نتائجها على غير هواهم السياسي أن يكيلوا للشعب التهم ويصفوه بأنه شعب همجى ومتخلف ويستحق ما حدث له في عهد مبارك، وكل ذلك لأنه خالف هواهم وسخر من غرورهم وادعاءاتهم واستعلائهم ونفختهم على الفاضى.

وهكذا عرَّفتنا الثورة الجديدة على مخلوقات تحمل فوق أجسادها رؤوسا لها أكثر من وجه وفي فمها أكثر من لسان.

تجربة الحرية في أول انتخاباتٍ حرة في مصر بعد الثورة جعلت البعض يظهر على طبيعته، فيتجلى في قوله وخلقه وسلوكه درجات التحضر الإنسانى، كما أزالت أقنعة الخداع وكشفت درجات التدنى والسقوط الخلقى والسلوكى، وفضحت الوحشية التى تخفيها البدلة آخر موديل والمدفوع ثمنها من التمويل الأجنبي والياقات المنشاة ورابطة العنق المزيفة.

إنها فعلا تجربة سقطت فيها شخصيات فقدت شراعها.... ثم ضاعت مراسيها.

الصديق المثقف.. والعمى الإرادى (١/٢) (*)

نقطة أولى على حرف مضيئ:

ترددت كثيرا في نشر هذا المقال بعدما استأذنت طرفه الآخر، لكنى تذكرت أن القرآن الكريم يورد شبه المخالفين كما هى مهما كانت تفاهتها، ثم يكر عليها فيبطلها

قال الصديق المثقف مبادرا بسؤال هل علمت ما فعل أصحابك في مصر؟

قلت: خيرا، خبرنى فأنت متابع جيد. قال: بدأوا في تشغيل محاكمهم قلت من تقصد بأصحابي ومحاكمهم؟ قال: وهل هناك على الحِجْر غيرهم اليوم؟ ثم استأنف حديثه، لقد بدأت محاكم التفتيش في القلوب والمشاعر والبحث في عقائد الناس، هيئات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدأت تفعل، قلت لصاحبي وأردت غيظه، ليت ذلك يكون صحيحا، ففريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غابت عن مجتمعاتنا منذ زمن طويل، فقال مستنكرا كأنك تؤيدهم؟ قلت له عمن تتحدث؟ قال ومن غيرهم؟ إنهم السلفيون؟ واستطرد صديقى شارحا ومحللا، أبشر يا أخاهم، فقد بدأ موكب النهضة وانطلق قطار التقدم، فتبسمت ضاحكا وقلت له بَشِّرْ بشرك الله بالخير. وهنا انطلق صاحبنا على سجيته قائلا:

الحديث عن تفاصيل قص الشارب وطول اللحية وقصر الثوب سيطغى بالطبع على فرائض إصلاح الاقتصاد وإصلاح التعليم في المدارس والجامعات، وعلى فرائض إصلاح نظام القضاء لينعم المجتمع بالعدل والمساواة أمام القانون، وعلى فرائض العمل بزراعة الأرض وتشغيل المصانع والمعامل واستصلاح الأراضى البور، وتمكين الخبرات المصرية من خدمة بلادها والاكتفاء الذاتى حتى لا يتسول الوطن ويرهن إرادته لمن يقرضونه، وأضاف: الدخول في حوارات تأكل الجهد والطاقة وتستنفد كل ما يتبقى لدى الإنسان ستكون أهم برامج التيار الإسلامي في المرحلة القادمة، والاشتباكات ستدور على أشدها حول حكم اللحية والنقاب وتقصير الثوب وتطويل اللسان وتدويل الأحداث ليشمت فينا العدو والصديق.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٥ - ١ - ٢٠١٢م

يتوقع البعض أن تشن حملات ضد الأهرامات باعتبارها أصناما وضد الأضرحة باعتبارها قبورا يعبدها البعض، وضد التصوف باعتباره انحرافا عن العقيدة الصحيحة، وضد الأشاعرة باعتبارهم من أصحاب العقائد المنحرفة، ولن يسلم الأزهر باعتباره من بقايا الفاطميين الرافضة.

وكذلك دار الفتوى وهيئة الإفتاء وعلى رأسها المفتى باعتباره شيخا صوفيا، وستغلق مصانع الخمور وستشهد مصر نهضة كبرى في صناعة الخمار والعباءات السوداء والجلاليب القصيرة.

وسيكون من حق كل مواطن الحصول على خمار لزوجته وجلباب قصير له هو، وعدبة وغطاء رأس.

ستنتشر بكثرة صناعة العطور الشرعية الخالية من الكحول والملابس والشورطات الشرعية وستستبدل غرف العمليات الجراحية بعمليات الحجامة، وتزرع أرض الكنانة بالحبة السوداء حتى نكتفى ذاتيا وقد بدأت بالفعل حملة الإعلان عن المؤهلين شرعيا للرقية والحجامة، وطرد الجن والوسواس الخناس.

المراجع المعتمدة عندهم تعد العدة الآن وليس غداً لاستخراج صكوك المؤهلين لكل ذلك وسيجرم من يزاول كل هذه المهن الشريفة بدون ترخيص معتمد.

إصلاح الجامعات يقتضى أن ندرس العقيدة الطحاوية والمبادئ الإصلاحية لمولانا المصلح الدينى محمد بن عبد الوهاب، وأن نخلص جامعاتنا من توهان الفلسفة وهرطقات المنطق وجدليات الإغريق، وأن نكتفي بمبادئ وكتب ابن تيمية وابن العثيمين ونترك الفارابى وابن سينا وابن رشد والغزالى والبيرونى وابن خلدون وابن الهيثم لنعيش مع العلامة ريحانة الشام محمد ابن ناصر الدين الألبانى وابن العثيمين وابن جبرين، ومبادئ ربيع المدخلى.

وسكت صاحبى منتظرا تعليقى عليه، قلت متهكما وساخرا: يا صديقى بشرك الله بكل خير،نسيتَ أمرا مهما،قال ما هو؟ قلت تطبيق الحدود وقطع أذن عم جرجس، وحلق الشعر الطويل للأولاد الخنافس، وتفتيش القلوب والعقول والبحث في البيوت والشقق عن بقايا أصنام وصور، وتحريم لبس البنطال الجينس على الفتاة والشاب معا، قال نعم هو كذلك، قلت: وستصادر الحريات وتفرض الجزية على الأقباط وتعود المرأة

الى قعر دارها ولا تخرج من بيتها إلا مرتين الأولى عند الزواج والأخرى لا ثالثة لها حيث تودع الحياة إلى مثواها الأخير.

قال بحماس شديد نعم نعم وهذا ما نخشاه، وأضاف: وهنالك كلام يشاع عن هدم أضرحة وتهديد بخطف النساء السافرات من الشوارع وتشويه وجوههن بمياه النار.

فسألته وأنا أريد إحراجه.. ترى ما هو سر ظهور التيار السلفي بهذه السرعة وكيف حاز على ثقة الناس وتقدم على تيارات أخرى ليبرالية وعلمانية لها في الحياة السياسية خبرات طويلة؟ وما توقعاتك لمستقبل البرلمان القادم؟

ففكر صاحبنا ثم عاود الحديث بلغة المتمنى قائلا:

ظهور التيار السلفي بالصورة السريعة وخصوصا أن قادتهم كان لهم موقف من الثورة والانتخابات ينبئ أن دولا خليجية تريد أن تُفْشِل التجربة الديمقراطية في مصر حتى لا تنتقل عدوى الثورة إليهم.

والتيارالسلفي دوره ينحصر في تعطيل القوى السياسية الإسلامية من حرية الحركة في البرلمان، والشوط القادم سيكون سيرك أو مهرجان تجلس فيه القوى السياسية غير الإسلامية في موقع المتفرج على القوى الإسلامية وهى تتصارع فيما بينها.

بعدما انتهى حديث صاحبنا أدركت أن الثقافة لا تعصم صاحبها عن السقوط ولا تحميه من أن يقع ضحية التدليس والكذب، وأنه يمكن أن يساهم في انتشاره ولو من حيث لا يدرى.

أدركت أيضا لماذا تتقدم فكرة التوطيد للشر والتمكين له في النفوس، والإغراء بممارسته والإقبال عليه، ولماذا هي أسبق عند البعض وأهم من انتصار الخير في نهاية المطاف.

هذا المنطلق تبنته السينما المصرية ومعها تلفزيون النظام قبل ثورة ٢٥ يناير، فكان البطل يظل طوال الفيلم أو المسلسل يسرح ويمرح ويتمتع بكل أنواع المتعة الحرام والمغرية جدا ثم في الدقائق الخمسة الأخيرة أو في الحلقة الأخيرة يلقى مصيره المحتوم.

فلسفة السادة القائمين على الصناعة إياها بما فيهم المؤلف والسيناريست ومعهم المخرج يدركون طبعا أن الخير لابد أن ينتصر في النهاية، ولكنهم يحرصون على تقديم

الشر في الصورة الأكثر إغراء والأبهى منظرا والأفضل رونقا وجمالا حيث عبرة النهاية في نظرهم قلما تنظر إليها نفس المشاهد أو حتى تنتظرها بعدما تكون قد تشبعت بكل أفكار الفيلم وما فيه من قيم سلبية.

النقطة الثانية على الحرف المضيئ.

أدركت أيضا أن التيار الإسلامى لا مانع أن ينجح في تونس ويستقر، ولا مانع أن ينجح في المغرب ويستقر، فالأطراف لا مانع أن تتحرك بحرية ولو كانت خارج حدود السيطرة، أما القلب فلا يجوز له أن يخرج عن نطاق السيطرة، ومصر هي القلب ومن ثم فالقوى السياسية في مصر تتحالف كلها ضد التيار الإسلامى بما في ذلك المجلس العسكري.

الحملة شرسة ورخيصة ولا تلتزم بقواعد الأخلاق ولا بآداب الاختلاف ولا حتى بآداب القيم المتعارف عليها في الشارع المصرى.

لاحظت أن بعض الليبراليين إذا ذكر التيار الإسلامي إخوان أو سلفيون تصيبه حالة من الوسوساس القهرى مصحوبة أيضا بحالة من العمى الإرادي،ذكرتنى بشطر بيت من الشعر للخنساء كنا ندرسه في شواهد النحو قالت فيه:

قذًى بعينكِ أمْ بالعينِ عوَّارُ...؟.

الصديق المثقف والعمى الإرادي (٢/٢) (*)

يقولون: إن العقول الصغيرة تناقش الأشخاص، والعقول المتوسطة تناقش الأشياء، والعقول الكبيرة تناقش الأفكار، وبعض المثقفين يفضل أن يسمع عنك لا أن يسمع منك أو يستمع إليك.

وبعض الناس يستمد حجته لا من العقل والمنطق والمنهج العلمى، وإنما من قوة موقعه، وذلك شأن الطغاة والمستبدين الذين قامت الثورات لتخلص الشعوب من شر أفكارهم وممارساتهم الفجة.

والجهل إذا تحدث به كبار الناس لا يتحول إلى علم، الجهل جهل،مهما كانت شخصية قائله.

والانتخابات الأخيرة بقدرما أظهرت حجم التيارات والقوى السياسية في الشارع المصرى بقدر ما أحدثت لدى البعض نوعا من الهياج يشبه اللوثة ويحار المرء في توصيفه حسبما يقول علماء النفس، وهل هو نوع من ازدواج الشخصية "الشيزوفرينيا" أو هو مرض الوسواس القهرى.

السقوط المدوى لهم ليس فقط في صناديق الانتخابات التى طالبونا أن نحتكم إليها،وإنما في مصداقية مبادئهم وأفكارهم وما صدعوا به رؤوسنا على مدارالسنين، فعندما اختار الشعب غيرهم شتموه وسبوه وعيروه بالجهل والأمية، وطالبوا بإلغاء الانتخابات. ولأنهم اكتشفوا أن وجودهم في الشارع المصري لا تأثير له، وأن حضورهم مرهون بغياب الإسلاميين كلهم ودون استثناء، فهم يحرصون على تشويه الصورة بكل ما يملكون من أدوات الدس والتدليس، ومن ثم فحديثهم عن التيار السلفى لا يحكمه عقل أو منطق، ولا يدخل في باب التحليلات السياسية، ولا يندرج تحت مسمى الرؤى الثقافية، وليس له إلا اسم واحد هو الهراء والسخافات.

ومن ثم فمصر -في نظر صاحبنا وصديقنا المثقف "جدا"- إذا حكمها السلفيون فلن تكون وطنا يصلح لحياة الناس، وإنما ستكون مجرد سجن كبير وسجين وسجان، السجن هو مصر بكل شوارعها وميادينها، والسجان هم هؤلاء الإسلاميون المتطرفون

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٠١٢/١/١٢م

المتعصبون، والسجين هو هذا الشعب العادى المسكين. وقد منحنا رؤيته وخبرته في الجزء الأول من هذا المقال

وأتذكر اننى كتبت في مقال سابق بعنوان " مصر الثورة ومصانع الكذب نشر في جريدة المصريون وكان ذلك بتاريخ ٠٧-٠٤-٢٠١١ قلت فيه" إنهم يحاولون جر الإسلاميين جميعا إلى معركة ليسوا أهلا لها ولا هم قادرون عليها.

الإسلاميون ليسوا أهلا لها لأن أدواتها وآلياتها تتسم بالقذارة المطلقة، وفيها يستعمل الكذب والتدليس والافتراء والتحريض والتخويف.

والإسلاميون ليسوا قادرين عليها لأنها معركة ليست شريفة، وفي المعارك غير الشريفة وعلى المدى القصير يكون الفارس الشريف هو الخاسر، لأن رجولته وصدقه مع مبادئه تمنعه من استعمال نفس الوسائل والرد بنفس الطرق الخسيسة." أ.هـ

والرهان على وعى الشارع وحده لا يكفى، وإنما لابد من القيام بعمليات دعاية مضادة تكشف الجهات التى لم تراع في الناس إلاً ولا ذمة.

بعدما أفرغ الصديق المثقف كل ما في كنانته من السهام ونفد كل ما في جعبته من وسائل التشويه والاتهام، قلت له هل جاء دورى يا صديقى للتعليق والرد؟ أم أنه لا زال عندك مخزون من الكراهية والصد؟

قال: ابدأ من غير سخرية ولا تبكيت، فأنتم لا يغلبكم جن ولا عفريت:

فقلت –مستعيذا– برب الفلق.....من شر حاسد إذا حسد.

أيها الصديق المثقف: طبعا أنت بَنَيْتَ رؤيتك السابقة عن السلفين والتيارات الإسلامية،بعدما قرأتَ فكرهم وتحاوَرْت معهم وخبرْت منهجهم. قال: لا..

قلت: إذًا فقد اختلطْت بهم وخبرتهم ثم رأيْتَ منهم ما يزعجك ويخيفك. قال لا!.

قلت: أنت بالتأكيد قرأت عنهم في مجلة روزا اليوسف والمصري اليوم،واليوم السابع،وسمعْتَ عنهم في الفضائيات، قال نعم، قلت: الغريب أنكم تحتكمون إلى المنهج العلمى في بحث الظواهر المختلفة، إلا أمام الظاهرة الإسلامية، فإنكم تُحَكِّمُون أهواءكم السياسية، ومن ثم تأتى الأحكام مُجَانِبَةً للصواب ومُجَافِيَةً للحقيقة. يا صديقي الحكم على الشئ فرع عن تصوره، وأنتم لا تتصورون التيار الإسلامي أصلا ولا تطيقون

رؤيته ومن ثم فثقافتكم عنه معيبة ومنقوصة وشهادتكم فيه مجروحة، ولا يجوز لمثلك أن تكون ثقافتك من مصادر ليست نقية ولا تعرف الحيادية ولا تؤمن إلا بالتحيز، وخطيئتكم أنكم أمام الظاهرة الإسلامية لا تبحثون أصلا،وتلجاؤن الي مصادر تريح هواكم السياسي وتلبي رغبتكم في التشويه والتدليس والغش، فغضب الصديق وظهر أثر الغضب تلعثما في نطقه وقال بحشرجة: إنْ كانت هذه أخطاؤنا فما هي أحطاؤكم؟

قلت: خطؤنا أننا صدقناكم طوال السنين الماضية،وكنا نظن . وبعض الظن إثم . أن احتلافكم معنا إنما كان اختلاف وجهات نظر اجتهدت فأخطات وأصابت، وتُحَاِول تصحيح نفسها بنفسها، غير أننا اكتشفنا أن المسالة ليست اجتهادات، وإنما هي أجندات تجند كتابا وصحافيين ومثقفين.

قال تتهم بغير دليل. قلت: راجع تصريحات السفيرة الامريكية في القاهرة والاتحاد الاوروبي ومعهد الديموقراطيين والجمهوريين ووثائق ويكليكس وما تحدثت عنه من الفضائح، والتى أصابت النخب بزلزال، لم يجرؤ أحد علي تكذيبها، وأردفت متسائلا:

لماذا يا صديقى يرتفع ضغطكم وتصل حرارتكم إلى حد الالتهاب الحارق كلما ارتفعت أسهم التيارات الإسلامية وسط الجماهير؟

ولماذا تصرون أن يُسْتَبْعَدَ الشرفاء من المشهد كله لَيَحِلَ محلهم مَنْ باع الأرض والزيت وخرَّب البيت ولا يزال متربصا ينتظر إشارة العودة؟

قال صاحبي ما رأيك في السيد القمني؟ قلت وما دخله في موضوعنا؟ قال هل تكرهه؟ قلت: وهل تحبه أنت؟ فقال وكأنه أراد أن يغير مجرى الحوار ليهرب من الأسئلة المخجلة . لِمَ لا تقرأ له؟ قلت: قرأته يا صديقي لأني لا أحب أن أحكم علي شئ لست أعرفه قال: هل تأثرت أو أقتنعت بشي مما كتب؟ قلت: أغناني الله عنه بالثقافة الصحيحة والجادة، ولكتاب معروفين بالنزاهة والفكر الرصين، قال: مثل من؟ قلت: منهم "الجويني والشاطبي وابن تيمية وابن حزم وابن القيم والغزالي وابن رشد والنظام والسيوطى والقرطبى والماوردى ورشيد رضا والإمام محمد عبده، ومن المحدثين العقاد والرافعي والمنفلوطى والعلامة الشيخ محمد الغزالي وسيد قطب وعبد القادرعودة والعلامة القرضاوي وعلامة العلوم السياسية حامد ربيع وحسن إبراهيم ومنى أبو الفضل وسيف الدين عبد الفتاح والعظيم محمد عمارة والعبقري عبد الوهاب المسيري

وغيرهم، فهل يكفي هؤلاء ليكون المرء مثقفا في نظرك؟ أم أنه لابد من قراءة جابر عصفور وعبد المعطي حجازي وفؤاد زكريا ولطفي الخولي وفرج فودة وحامد نصر أبو زيد وبقية الحداثيين؟ ومع ذلك فقد قرأناهم أيضا وخبرناهم وتحاورنا مع بعضهم وعرفنا أهدافهم.

سكت صديقي برهة وكأنه يلتقط أنفاسه،وبعدما أدرك أن حملات التشويه لم تُجْد نفعا ولم تزد الناس من الإسلاميين إلا قربا منهم وقناعة بهم، ثم قال: علي كل حال الأيام ستثبت إن كان الإسلاميون علي قدر المسؤولية أم أن الناس انخدعوا فيهم؟ قلت يا صديقي تفاءل بالخير تجده، واعلم أن التاريخ الآن يتوهج فرحا، ويستعد لكتابة البداية في دورة حضارية جديدة.

صديقي المثقف جدا لا زال في ليله، فلم يدركه الصباح بعد،ولكنه فجأة سكت عن كل الكلام،(المحظور منه والمباح)، وآثر أن يعود من رحلته في الحوار معى بغير تين الشام أو عنب اليمن.

هل يفعلها سعد..؟ (٢/١) (*)

إلى رئيس البرلمان والسادة الأعضاء:

بداية أهنئكم بثقة الأعضاء في اختياركم رئيسا لأول برلمان مصرى حر جاء بإرادة شعب أراد الحياة.

وأُذَكِّر بأن الثقة التى أولاها لكم شعب مصر إنما هى جزء من استحقاقات السنة الإلهية في التمكين، وأنها في البداية تقتضى الشكر في الحاضر، وطلب العون من الله في المستقبل.

رصيد الخبرة لديكم ربما يجعل حديثى إليكم ليس جديدا على أسماعكم، وأعلم أنكم تتسلمون مسؤولية بلد ضرب الفساد بجذوره في كل ركن من أركانه. وكم تحمل الإسلاميون عموما والإخوان خاصة من المعاناة والطرد والإقصاء والسجن، لكنها سنة الله في التمكين الذى لا يأتى إلا بعد الابتلاء، وموقف المُبْتَلَى ومدى صبره وتماسكه ومحافظته على مبادئه هى التى تقرب زمن التمكين وتنهى بسرعة عملية الصراع مع الباطل.

وأعلم كم تحملت البيوت والأسر الشريفة من اقتحامات الليالى المظلمة عندما كان يشن النظام السابق ضرباته الاستباقية أو الوقائية قبل كل عملية انتخابية، ولو في اتحاد الطلاب أو حتى على مستوى جمعية تعاونية صغيرة، أو ناد للشباب في قرية نائية.

أعلم ذلك جيدا، وكم كانت الأعياد والمناسبات تمر ورب البيت خلف أسوار الشقاء. وأعلم أن بعض الأسر ربما تربى أبناؤها وبناتها وتزوجوا وهم لم يتعرفوا على ملامح والدهم إلا من خلال الصور المعلقة على جدران الحوائط،، وكم جند النظام السابق من كتائبه في وسائل الإعلام للتشويه والتدليس والتلبيس واغتيال السمعة والشرف، وكم امتلأت سجونه بقيادات التنظيم، وجنح جنونه في التنكيل بهم حتى أضحى من شروط التعيين في أصغر الوظائف وأقلها قدرا ألا يكتفى طالب الوظيفة بالتبرؤ من الإخوان فقط،، وإنما عليه أن يسبهم ليثبت صدق وطنيته، وأنه برئ في دمه وخلاياه وجيناته من أي أثر لهم.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٦-٠١-٢٠١٢م

أعلم حجم المعاناة حين يغيب رب الأسرة، والأسرة لا تعرف أين مكانه، فقد كان النظام البائد يمعن في الإذلال والتعذيب، ويضن على أفرادها حتى بمعرفة المكان.

وإذا كان التمكين هو بعض إرادة الحق فعلى الممكن له أن يفهم كل قوانين السنة الإلهية حتى يتعامل معها بالوعي الواجب.

الوعى الواجب يقتضى كسر الغرور الذى يصحب حال المنتصرعادة ويرد أسباب الانتصار إلى أصلها الأول. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥).

والوعى الواجب يحتم على المنتصر أن يُعِدَ عُدته ببذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة لخدمة خلق الله جميعا، منْ أيَّدَ منهم ومنْ عارض.

والناس عادة لا تفرق كما تعلم يا سيدى بين الفكرة والأتباع، بل يميلون في كثير من الأحيان إلى شخصنة الفكرة في أتباعها، فإذا أساء الأتباع انسحبت الإساءة إلى الفكرة ذاتها وبشكل تلقائي، ونحن نعرف أن هذا خطأ في المنهج ولكنه موجود في الواقع المشاهد والمحسوس، وبرنامجكم كان ولا يزال يحمل في العقل الجمعى لدى المصريين وفي الوجدان العام شعار " الإسلام هو الحل " والوعى الواجب يحتم على من رفع هذا الشعار أن يحميه وأن يحتمى فيه، وذلك لا يتم إلا بخدمة الناس وحل مشكلاتهم والتواضع لهم والتعايش مع أحلامهم وأمانيهم في حياة كريمة.

والشخصية المصرية تنتظر منكم ألا يسحق المواطن تحت وطأة الحاجة، وألا يفقد كرامته أمام طوابير الخبز وفي أقسام الشرطة، وألا يسحل في الميادين العامة كما حدث، وألا يكون هناك استثناء في تطبيق القانون، حينئذ تعطيك هذه الشخصية ما في يديها ولو كانت لا تملك غيره؛ لأنها تستشعر صدق التوجه وشرف القصد وسمو الغاية.

سنة التمكين تقتضى أن نتذكره صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة فاتحا، وأن نقتدى به عفوا وسماحة، وأن نزداد تواضعا كلما زادنا الله رفعة، وأن ندرك أن مكانة المرء ومقامه عند الله أولا، ثم في قلوب الناس بخدمتهم والحرص علي مصالحهم، وليس في كرسي السلطة نيابة أو وزارة أو حتى في الرئاسة العامة.

سنة التمكين تقتضى أن نذكر ونشكر، أن نذكر أيام القلة والذلة والاستضعاف والخوف. وأن نشكر لله منته بالإيواء في كنفه والتأييد بنصره وإقباله بقلوب العباد علينا

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٦).

العقل الجمعي في مصر والوجدان العام للأمة كلاهما يعلق بصره وبصيرته بما يستجد في الأيام القادمة، واعلموا أن قلوب البعض ترتجف خوفا فأمنوها، وقلوبا أخرى تتوقع الفشل وتتعجله فخيبوها.

وهنالك آخرون وهم غالبية عظمى ينتظرون ولا يتعجلون، فلا تضيعوهم، وسمعة الإسلام محليا وعالميا ترتبط الآن بكم،وبما أنتم قادمون عليه، فتذكروا ذلك جيدا.

وإذا كان الموت في سبيل الله هو أغلى أمانينا، إلا أن الأعظم منه هو الحياة في سبيل الله، ويجب أن تكون أعلى أمانينا؛ لأن الموت في سبيل الله يقتضى لحظة واحدة تنتصر فيها إرادة المرء في الاختيار بين الدنيا والآخرة، بين أداء الواجب والعيش بكرامة أوالموت في سبيل الله حرا، فتلك لحظة واحدة من الزمن، بينما الحياة في سبيل الله تقتضى عمرا كاملا تظل فيه الإرادة يقظة حية متألقة رغم المتاعب ولأواء الحياة. ومن ثم تكون الحياة في سبيل الله أعظم، حيث مشقاتها أكثر، ومعاناتها أشد وأخطر. وآثارها أنفع وأبقى.

عمارة الأرض كما تعلم "يا سعد" جزء من رسالتنا، وإقامة عدل الله فيها غاية ومقصد من مقاصد شريعتنا، وذلك لا يتم بالتصريحات العنترية ولا بجهاد الحناجر، وإنما بالتحول إلى الجهاد الزراعى والجهاد الصناعى والجهاد الاقتصادى والجهاد التربوى والجهاد العلمى، فلن يبقى دين لا دنيا له، والناس لن يحترموننا ونحن عالة عليهم، ولن يستمعوا إلينا ونحن نتلقى منهم المعونات، ولن يحترموا إرادتنا ونحن نرهنها مقابل حفنة من القمح، ولن يضعوا اعتبارا لنا ونحن مهمشون وضعفاء.

في رصيد الشخصية المصرية من القناعة والشرف والإيثار ما ينجح مشروعكم إن أحسنتم التعامل معها، وأنا واثق أن لديكم الخبرة الكافية والذكاء المطلوب في تحريك مشاعرها، وإيقاظ إرادتها،وتوجيه بوصلتها وهمتها لتحقيق النهضة، وذلك لا يتم إلا من خلال القرب من أنفاسها، والبحث في كوامنها واهتماماتها، والاستجابة الذكية لطبيعتها في التعاطى مع الأحداث، فافعلها يا "سعد" والشعب معك،وروح القدس يؤيدك والله يحفظك ويرشدك ويسدد خطاك.

نعم.. يفعلها سعد (٢/٢) (*)

إلى رئيس البرلمان والسادة النواب:

الثقة التى أولاها شعب المحروسة لكم ليست بسبب القدرة على الحشد، وإنما تنطلق أصلا من إيمانهم بقدرة الإسلام على إصلاح الحال فى الاجتماع والاقتصاد وسياسة المجتمع والناس، واستمرار هذه الثقة مرتبط بمدى ما يحققه الحزب فى البلاد من تقدم ومدى رعايته للنهضة، وتحقيقه لمطالب العدالة الأساسية، ومن ثم وجب تحريك العقول لتخطط وتبرمج، وتحريك الهمم لبناء مصر، أشعلها يا "سعد" ثورة فى الأفكار والتصورات والرؤى، واجعل من وطنك واحة للحرية والكرامة والأمان، اشعلها ثورة اقتصادية وصناعية وزراعية فى المعامل والحقول والجامعات، حول –يا سعد– سجون مصر إلى مزارع ومصانع ومعابد لإقامة الصلوات.

افتح المجال لرأس المال الشريف ليؤدى واجبه، علِّم أثرياء مصر أن الله وضع أقوات الفقراء فى أموال الأغنياء، فما جاع فقير إلا بتخمة غنى، ذكِّرهم . يا سعد . بأن العشوائيات عورة وعار فى جبين كل المصريين عليهم أن يستروها، وأنه ليس من الدين ولا من المروءة ولا من الخلق الشريف أن يأكل الإنسان ملء بطنه، وأن يفرح ملء جوانحه وبجواره إنسان آخر يئن من الجوع ويفرط فى كرامته من أجل وجبة طعام أو أنبوب غاز.

حَدِّث أبناء مصر، وأطلق ألسنة الفقهاء والدعاة وأهل الفكر والرأى وكل الشرفاء فى مجال التوجيه وصياغة الرأى العام ليتحدثوا عن واجب الوقت ويفجروا طاقات الخير الكامنة فى أبناء مصر، وستجد العجب العجاب، ستجد الإيثار والتضحية والمرحمة تفيض بها أنهار مصر، وشواطئها وشوارعها وحتى نجوعها وقراها، فشعبنا طيب الأعراق.

علِّمهم يا "سعد" أن المسلمين والمسيحيين إخوان، وأن المصريين والعرب إخوان، وأن العرب و شعوب الإنسانية إخوان، وأن سقف الأخوة أعلى وأعظم وأكثر عمقا واتساعا من أي حزب، وحتى من سقف المواطنة التى يتغنى بها البعض.

(*) نُشر في صحيفة "المصريون"، يوم ٠٢ – ٠٢ – ٢٠١٢م

جدد فى الناس قيم المحبة والتسامى والتسامح والمرحمة، وعلمهم أن الإخوان عدل ممدود الظلال ولا يزيد فيه نصيب قريب أو حسيب على نصيب غريب أو بعيد، كما لا يتميز فيه نصيب مؤيد على نصيب معارض.

علمهم –يا سعد– أن الإخوان خلق عظيم، ومبادئ تنفع الناس، وتقاوم الشر وتكافح الاستبداد،وتكون فى المقدمة من مواكب التضحيات، وأنهم ليسوا فقط تنظيم سياسى أو دينى، إنما هم تنظيم أخلاقى يرعى الحقوق ويعرف الواجبات ويقدر الكفاءات،ويحب مصر ويضحى فى سبيلها، علمهم . يا سعد . أن الاختلاف من أجل الوطن محمدة، وأن وحدة الحقيقة لا تمنع من تعدد وجهة النظر إليها، وأن "الشاطر الحقيقي" هو من ضحى ويضحى، وأن مغانمه الأخلاقية أعظم من كل متاع الحياة، وأن السعيد الحق هو من يعيش فوق الحياة لا فيها، فيتسامى بتضحياته ونبله وعطائه وشرف مبادئه.

ابدأ بشرفاء مصر، وفى مقدمتهم كل الشطار فى مصر، وستجد روح الله فى فطرة الإنسان أسبق منك إليك، ستلحظها فى كل البسطاء والخيرين من أهل مصر،وسيقدمون لك أقواتهم ولو كانوا لا يمكلون غيرها إن احتاجت مصر إليها.

ضع يدك فى يد شيخ الأزهر ومفتى مصر، والشرفاء من الأقباط ومن قساوسة الكنيسة، واصنعوا لمصر ميثاق شرف وطنى لا تضيع معه الحقوق، ولا يبتز فيه طرف طرفًا آخر، ولا يخضع للمساومات،ولا يستعدى الخارج على مصر، افعلها يا "سعد" لتُخْرِس كل الألسنة النشاز التى تتاجر بما يسمى حقوق الأقليات.

حفزْ يا "سعد" إرادة الناس تجاه العمل حتى تكتفى مصر ذاتيا وتنعتق من رق المعونات التى تخضع بسببها الإرادة لشروط الممول.

أنت تعلم . يا سعد . أن مصر بلد غنى، لكن موارده منهوبة ومجهدة، وفى مقدمة الموارد مواهب الإنسان فاستثمرها يا "سعد" وأطلق شعارك أن مصر تعيش اللحظة الحضارية الفارقة بين عصرين، وأنها تجاوزت بحمد الله لحظة الانكسار النفسى، ولن تعيش الإحساس بالاستلاب الحضارى ولن تعود بعد اليوم لما كانت تعانيه من قهر وظلم واستبداد.

ذَكِّرهم يا "سعد" بأن الليل قد انشق فجره، وأن الظلام قد ولى وراح، وذكرهم بطبيعة العلاقة بين المركز والأطراف، وأن مصر هى مضغة القلب فإذا صلحت صلح الجسد العربى والإسلامى كله، وإذا -لا قدر الله فسدت- فسد الجسد العربى والإسلامى كله.

ارسم خطتك لتستعيد المواهب المبعدة والقدرات المهدرة والطاقات المعطلة، واجمعها كلها فى مشروع حضارى تتلاقى فيه وعنده كل إرادات الخير، تلاقيا حرا من أجل مصر لتبدأ مرحلة الصعود التلقائى.

اثبت لهم بوعيك ومواقفك أن الولاء للوطن قبل الولاء للحزب، وأنه أشمل وأعم من الانتماء الحزبى أو المذهبى.

تذكر يا "سعد" وذكر إخوانك فى المجلس وفى مصر كلها، بأن فى المحروسة أيضا من التيارات التى لا تحب الله ورسوله، ولا تكن للإسلام خيرا، وهى تنتظر الفشل وتراهن عليه لتنطلق مرجفة فى المدن والقرى بما لا يجوز أن يقال، ولتعلن شماتتها فى الشعب الذى اتهمته من قبل بالجهل والعبط وسوء الاختيار، والوعى الواجب يستلزم ألا يكون هناك خيارغير النجاح والإصرار عليه مهما كان الثمن، وسيساعدكم على ذلك الكامن الحضارى فى الشخصية المصرية، فهى شخصية لديها من مكنون الإرادة ما يمكنها من تحدى الصعاب وتجاوزها إن وجدت من يستفزها، ويوجه إرادتها ويستثمرها الاستثمار الأمثل، وتذكر يا "سعد" ولا تنس أن هذه الإرادة بنت الأهرامات قديما، وأنجبت من الأبطال أحمس قاهر الهكسوس ومينا موحد القطرين، والليث بن سعد وأحمد عرابى والعقاد والرافعى وحسن البنا ومكرم عبيد ومحمد الغزالى ومتولى الشعراوى وأحمد زويل وفاروق الباز ومجدى يعقوب وعبد الوهاب المسيرى ومحمد عمارة، وأنها شخصية تستخرج اللقمة من فيها لتعطيها لآخرين إن شعرت أن الأثرة والشح قد اختفى، وأن للإيثار مكانا فى النفوس.

تذكر يا "سعد" أن فى المحروسة من تجرع رغم أنفه مرارة فوزكم، وكان طعمه علقما فى حلقه، ولولا الملامة لكفر بالديمقراطية وبأبيها وأمها لأنها جاءت بكم، وقد أعلن ذلك صراحة، والوعى الواجب يقتضى أن نفوت عليه الفرصة وأن نستل حقده، وألا نتركه حتى يموت غيظا وكمدا، وتذكر يا سعد أن فرح المؤمنين بنصرالله لن يكون إلا إذا

أكل المجتمع من زرعه،وتداوى بدواء صنع فى مصانعه، وشعر الناس بالحرية والكرامة وحصلوا على شربة الماء النظيفة، ولقمة الخبز الحلال من غير رشوة ولا غش.

ومن ثم وجب أن تكون هنالك خطط وبرامج معدة وإلا فإن الناس لن تصدق شعاراتكم إذا فشلت التجربة الحالية وسيتجرءون على إخراج ألسنتهم للإسلاميين شماتة وسخرية. فسدد يا سعد رميتك وسد ثغرتك، واشدد همتك واحزم رباطك، واحذر أن يؤتى الإسلام من قبلك، واصبر يا "سعد" ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ (الروم: ٦٠). ولك من أخيك خالص الدعاء.

رجل الأعمال والنائحة المستأجرة (*)

العرس المصري نال إعجاب الدنيا وتحدث عنه العالم المتحضر لدرجة جعلت روبرت فيسك وهو الباحث المتزن والذى له وزنه بين المثقفين في الشرق والغرب معا يقول: "إن ما يحدث في مصر كعرس للحرية يجعل الغرب يشعر بالخزي" كلمات الرجل شهادة حق نطق بها منصف، والعرس الديموقراطى أسهم فيه كل مواطن مصرى أدلى بصوته، وكان هذا العرس واحدا من ثمرات الحرية.

ملايين المصريين وملايين البشر خارج مصر شاهدوا هذا العرس وشهدوا له بالشفافية وصفقوا للشعب المصري وباركوا له اختياراته.

الكل نجح في هذا الحفل الكبير حتى مَنْ لم يوافقه الحظ في الدخول إلى البرلمان.

غير أن عيون المتابع لهذا العرس الرائع رصدت بعض من ينوح على هامشه.

فعلى هامش الفرح وفي ناحية مظلمة من جوانبه كانت هنالك نائحة ثكلى وأخرى مستأجرة. النائحة الثكلى -وليعذرني القارئ في وصف التأنيث- هم أؤلئك الذين يؤذيهم استقرار مصر وانتقالها الآمن إلى حياة دستورية تتحق فيها العدالة والتنمية وكرامة المواطن.

النائحة الثكلى هم أذناب النظام الزائل وفلول حزبه والمنتفعون من وجوده والذين تكونت ثروتهم الحرام من أموال الشعب عن طريق النهب المنظم والذى يسميه النظام بالخصخصة.

أما النائحة المستأجرة فهى تلك الفضائيات التابعة للنائحة الثكلى بمذيعيها ومقدمي برامجها.

تستمع إليهم فتجدهم يستنطقون الضيف أو المتصل بحثا عن خلل ولو في الشكليات ليشككوا به في نزاهة الانتخابات ولينالوا به من التيار الإسلامي.

هؤلاء لا يعجبهم أن يقال لهم صندوق الانتخابات هو الحكم، لأن الشعب في نظرهم جاهل، أمي، ولم يمارس السياسة من قبل، ولم يتعرف على المرشحين.

(*) نُشر في صحيفة "المصريون"، يوم ٢٠١١/١٢/٨م

وإذا حاججتهم بكثرة الإقبال وإصرار الناس على الإدلاء بأصواتهم قالوا لك هذا نتيجة الحشد الديني وخوف الناس من غرامة التخلف عن الإدلاء بالصوت.

شاهدت خلال تلك الفترة مذيعتين اثنتين في واحدة من تلك القنوات فشعرت بالغضب من الاستخفاف بالشعب واتهامه بقصور النظر وكأننا كان يجب في نظرهم أن نظل تحت الحكم العسكرى ولو عقدا من الزمن حتى ندرب الشعب ونعطيه دورات فى التوعية السياسية حتى يتعلم كيف يختار مرشحيه.

بعضهم كان يحاول أن يبحث عن خلل ولو شكلى ليعكر به صفو هذا الحفل الذي يقيمه هذا الشعب العظيم.

أما في الخارج فقد كان هناك من يستعدى الاخرين وخصوصا أمريكا على بلده ويريدهم أن يتدخلوا ليصادروا حرية شعب بكامله ويحولوا بينه وبين اختيار بعض أبنائه وبعض شرائحه وبخاصة إذا كانوا من الإسلاميين.

لا أعرف بالضبط التكييف القانونى لهذه التصريحات وهل تدخل في باب الخيانة العظمى أم أنها تصنف كغباء سياسي يعيش صدمة الثورة ويرتد بخيال صاحبه وتصوراته إلى الماضى، ومن ثم فهو ينعزل عن الحاضر ويتجاهل الواقع الجديد ثم تكون تصرفاته استمرارا لما كان يمارسه النظام السابق وأذنابه من استباحة الوطن بأرضه وسمائه وحرية أبنائه.

الذنب الطائفي والرأسمالى الكبير الذى كون ثروته من خير مصر يدعو الاخرين للتدخل في شؤونها وفرض الوصاية عليها لأن نتائج الانتخابات جاءت بمن يكرههم ويعتبرهم خطرا على مصر.

إحساس هذا الكائن بالقلق ليس من الإسلام السياسي كما يتصور البعض، وإنما إحاسه نابع من خوفه الشديد أن تاتى حكومة حرة تحرص على ان تستعيد مصر حقها ممن سرقوها ونهبوا ثروتها وأن تفتح كل ملفات الفساد وأن يتم التحقيق فيها.

الكائن المذكور كان قريبا من بلاط السلطان الزائل وكان ذنبا من أذنابه الذين يعتبرون الشجاعة تهورا،والجبن حنكة سياسية والخضوع المذل علاقات عامة، والخيانة للأمة مجدا وشرفا.

الكائن القلق والذى -إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث- لم يستعد الآخرين على بلده فقط، وإنما اتهم أغلب القوى الإسلامية بالتمويل الخارجى.

من حق هذه القوى بالطبع أن تدافع عن نفسها ولها القدرة على ذلك، لكن السؤال المطروح هو كيف يقبل الشعب المصرى بنواب جاءت بهم أموال البترو دولار كما زعم هذا الكائن؟

تصريحات السيد الملياردير توجه طعنة لكل شريف في مصر ومن ثم فلدى كمواطن مصرى سؤالا وجب توجيهه للمجلس العسكري وللمتخصصين في القانون من أعضائه وعلى وجه التحديد اللواء ممدوح شاهين، والسؤال هو: ما هو التكييف القانونى لهذه التصريحات؟

وإلى أي درجة من درجات الخيانة الوطنية هبطت تلك التصريحات في استعدائها واستدعائها لقوى خارجية لتتدخل في شؤون مصر وتنتقص من سيادتها؟

وإذا كان الأمر كذلك فمن هو صاحب الحق في رفع دعوى رد الاعتبار للوطن شعبا ونظاما؟

وثمة سؤال ثالث: إذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز دعوة مثل هذا المتهم بتلك الأوصاف ليجلس بين صفوف القوى الوطنية في اجتماع مع المجلس العسكرى الذى يمثل شرعية الدولة وشرعية الثورة؟

في ظنى أن الموقف يحتاج إلى توضيح للمواقف حتى لا تدور الظنون برأس المواطن المطعون في وطنيته والمتهم بالجهل والغباء والاستغفال والمستعمل من القوى والتيارات الإسلامية ليكون مطية الدخول إلى البرلمان الجديد كما يدعى ذلك الكائن، ثم إن ملايين الناخبين تنتظر توضيحا للغموض في موقف المجلس العسكرى من تلك الاتهامات التى وردت في تصريحات هذا الكائن؟ ولماذا لم يتخد ضده الإجراء القانونى اللازم؟كما أن القوى الوطنية باختلاف توجهاتها مطالبة أخلاقيا ووطنيا ببيان موقفها من تلك التصريحات المؤلمة والمشؤومة والتى تؤذى مشاعر كل أبناء الوطن.

الكائن صاحب التصريحات المشؤومة معروف بعلاقته الوثيقة مع الجناح المتطرف من رجال الكنيسة وقد دأب هذا الجناح على النيل من عقائد المسلمين قبيل الثورة وكان له الكثير من المواقف المستفزة والصادمة لشعور الأغلبية.

معروف للجميع أن الجناح نفسه كان حليفا قويا لنظام المخلوع وكان ضليعا وبوقا مهما في الدعوة لتوريث نجل الرئيس، وعندما جاءت الرياح بما يشتهي ربان الكنيسة وقامت الثورة أوصى رأس الكنيسة بعدم المشاركة فيها وبكى عندما تم خلع الرئيس مبارك، فهل الكائن صاحب التصريحات المشؤومة أصبح بعد ركوب موجة الثورة يمثل الناطق السياسي باسم الجناح المتطرف في الكنيسة الأرثوذكسية بعد الثورة؟

الحشد الكنسي كان يدعم حزبه بشدة ويقف خلف كتلته وبشكل لافت للنظر فهل أخذ المذكور دور الأنبا بيشوى في الهجوم على الإسلاميين؟؟

إن كان الأمر كذلك فقد أخطأت الكنيسة في حق كل الأقباط الشرفاء لأنها لم توفق في اختياراتها، وإنما هبطت في الاختيار لدرجة أنها اختارت رجلا يتمتع بغباء وسذاجة وتفاهة زكريا بطرس في هجومه على الإسلام والمسلمين.

ضجة عبد السميع.. والمرجفون في الصحف والفضائيات (*)

المشهد السياسى فى مصر ما بعد ثورة ٢٥ يناير يعكس مجموعة من الحقائق يلحظها الباحث كالتالى:

الشعور بالخطر لدى الذين اعتادوا أن يكون زادهم الإعلامى وبضاعتهم من الكتابة محصورة فى نقطتين اثنتين لا تتجاوزهما أبدًا:

الأولى: إنجازات الرئيس والإشادة بحكمته وما قدمه ويقدمه من تضحيات من أجل الوطن حتى تحولت كتاباتهم فيما يسمى بالصحف القومية وكأنها عقوبة ثقيلة الدم على المرء أن يتجرعها يوميًّا.

الثانية: الهجوم على الإسلاميين باعتبارهم الفزاعة التى يخافها ويخشاها النظام ويخيف بها كل من يضغط عليه فى قضية الإصلاح والديمقراطية.

تعود هؤلاء أن تكون الساحة الإعلامية لهم وحدهم فى عهد الرئيس المخلوع، ولأن الهجوم على الإسلام والإسلاميين سلم يرتقى به البعض إلى الدرجة الأعلى بنيل الرضا السامى من أجهزة أمن الدولة، فلا مانع لدى بعض هذه الفئات أن تقتات يوميا على دماء وشرف الإسلاميين حيث كان الهجوم عليهم هو علامة الولاء الوطنى ودليل على صحة المواطنة وسبيل إلى الصعود والظهور الإعلامى.

الرابعة: الحالة النفسية هذه خلقت جرأة غير مسبوقة على الادعاء وجسارة على الافتراء وتشويه الحقائق.

الخامسة: المدمنون للكذب استمرأوا تلك الحالة فمارسوا دورهم الهدام تحت سقف من حماية النظام دون أن يتعرض أحد منهم لعقاب أو لوم ولو مرة، وسمعنا وقرأنا ورأينا على الشاشات الصغيرة والكبيرة عورات ثقافية يخجل المرء من النطق بها تنشر على نفقة وزارة الثقافة، ومن أموال الشعب المصرى الفقير على أنها إبداع.

السادسة: بعض الإسلاميين دخل الساحة السياسية مؤخراً وهو غير مزود بالخبرة اللازمة لإدارة الصراعات والأزمات والخروج من المآزق إلى يرسمها له ويضعه فيها محترفو

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢ – ٥ – ٢٠١٢م

السياسة وكهنة الصيد الإعلامى، غير أن الملاحظ أن الخبرة والحنكة السياسية تتراكم لديهم وبشكل مذهل، وأن قدرتهم على استيعاب الأحداث والاستفادة من دروسها مبهرة ومدهشة أيضًا.

السابعة: هذا الوضع الجديد يبدو أنه غَيَّر قواعد اللعبة السياسية فى مصر ما بعد الثورة، فلم تعد الساحة مقصورة على أولئك الذين تعودوا أن يلعبوا وحدهم، فهم الفريق وهم الفريق الآخر، وهم الحكم ومساعدوه، وهم الجمهور الذى يشاهد أيضًا.

العوامل الجديدة بعد الثورة غيرت قواعد اللعبة وأصبح ضمان الفوز والانفراد بالساحة صعب المنال، ولم تعد النتائج محسومة كما كان من قبل، فقد ظهر على الساحة لاعب جديد، يخطئ نعم، بدأ الدخول إلى ساحة الملعب دون تدريب نعم، يمكن اصطياده مرة أو مرتين نعم، لكنه بدأ يستوعب فنون اللعبة، ويتدرب بشرف على الاقتدار فيها، وقدرته على استيعاب قوانينها وإجادة فنونها فائقة، ومن ثم فقد ظهر أنه منافس خطير، وخطورته لا تكمن فى قدرته على استيعاب فنون اللعبة ومعرفة قوانينها فقط، وإنما خطورته تكمن فى شرفه ومصداقيته، وثقة الجماهير فيه، ورصيده الضخم من التضحيات الكبيرة فى السجون والمعتقلات.

الساحة إذًا لم تعد كما كانت، ولا بد من العمل على إرباك اللاعب الجديد وإجهاده سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا وبأسلوب ممنهج ليظل دائماً فى حالة عجز عن الفعل، وليأخذ مكانه فى موقع المتهم الذى عليه أن ينشغل برد الفعل ليستغفر من ذنب لم يرتكبه وليعتذر عن قول لم يقله، وكلما برر موقفا ظهرت مواقف، وكلما استطاع أن يجهض إشاعة ظهرت إشاعات، وهكذا الخطة ليظل هذا التيار فى حالة ارتباك مستمرة نتيجة إجهاده سياسيا وثقافيا وإعلاميا.

آخر هذه المحاولات هى مقالة عبد السميع، تلك التى طارت بها الدنيا وكذبها أصحاب الشأن بداية من السفيرة ميرفت التلاوى والدكتورة درية شرف الدين، غير أن الخيال المريض الذى تعود على اغتيال الحقيقة دون مساءلة عندما يختلط بالدخان الأزرق يولد حالة من الجنوح الفكرى تشبه جنوح الأحداث حين يرتكبون جرائم كبرى، ويحميهم من المؤاخذة والعقاب قصورهم دون سن البلوغ والمسئولية.

الكلمات التى وردت فى مقالة السيد عمرو عبد السميع بجريدة الأهرام فى عددها ٤٥٧٩٥ يوم الثلاثاء الموافق ٢٣/ ٤ /٢٠١٢م وردت فى مقال له بعنوان: وا إعلاماه قال فيه:

"بتنا نسمع فى هذه الأيام السعيدة من يتحدث عن ضرورة صدور تشريع يسمح للبنت بالزواج فى سن الرابعة عشرة، أو قانون آخر يقر ما سماه البعض (مضاجعة الوداع)، التى تسمح للزوج بمواقعة زوجته خلال الساعات الست التى تلت وفاتها!، هذا إلى جوار المنظومة التقليدية التى ترمى إلى سلب النساء حقوقهن فى العمل والتعليم، ومحاصرتهن بأكثر التفسيرات رجعية وجهلا" ا.هـ

طبيعى لم يكن هنالك مشروع ولا تقدم أحد بشىء، لكن العبارات غير المسئولة طارت بها الدنيا، وأصابنا هنا فى أستراليا رذاذها الملوث بجراثيم الدهاء فى صياغة الكلمة التى تكونت منها الإشاعة، ومن ثم الفضيحة، فوسائل الإعلام ظلت وإلى الآن وحتى بعد أن تبين الكذب تتخذ من مقولة عمرو عبد السميع مادة للسخرية من الإسلام وكيل الاتهامات لكل المسلمين باعتبارهم حيوانات لا تحكمهم إلا غرائزهم التى لا تتوقف حتى بعد إعلان الوفاة.

أحد المذيعين هنا فى أستراليا واسمه: **David Oldfield** فى إذاعة ٢**ue**

ظل يبدئ ويعيد لمدة ثلاث ساعات، ذلك فضلاً عن وكالات الأنباء الكبرى، التى تبنت الخبر وأضافت إليه حبكتها المثيرة لينتشر بين أكبر عدد من الناس، فهل كان يدرى من أطلق تلك الكلمة أنها ستصيبنا بكل هذا الأذى..؟ وأنها تتجاوزنا إلى المساس بديننا وعقائدنا والنيل من رسالتنا...؟

هل يعلم ذلك الذى أطلق هذه الكلمة وأراد بها أن يصيب تيارًا معينا فى مصر أنه أصاب قلوب كل المغتربين، وأن حجم الصداع الذى سببه لنا يشبه حجم حمى انتشرت دون القدرة على وقف انتشارها.

آلاف المكالمات الهاتفية وآلاف الاتصالات التى تستفسر وتستنكر هذا المشروع الهمجى الموهوم.

كثير من المكالمات تعرضت حتى للنيل من مقدساتنا وجرحت مشاعرنا فى أخص ما نحبه ونعتز به وهو ديننا.

كاتب هذه العبارة التى هيجت علينا كل الدنيا كان قد كتب مقالاً فى الأهرام بتاريخ ٢٧ إبريل ٢٠١٠ تحت عنوان "الشوارعيزم والسبق الصحفى"، تبرع فيه أن يعطى دروسًا لزملاء المهنة فى الصدق والموضوعية والتزام الدقة، وأن الصحافة لا يجوز أن تتحول منابرها إلى أدوات لتسميم الحياة العامة وترويع الناس قال ذلك طبعًا بعدما منح نفسه حق التوجيه وأنه بلغ عتبة فى ساحة الصحافة المصرية تسمح له بالتوجيه والتعليم، وقال ما نصه "إننا نلمح بوادر أخطار كبيرة، تكتنف طبيعة الأدوار، التى تقوم بها الصحافة الخاصة تدفعنا إلى القيام بواجبنا فى التنبيه، وأظننى بلغت عتبة فى ساحة الصحافة المصرية تسمح لى بالتوجيه والتعليم، ولن أتكلم اليوم عن السلبيات التقليدية للصحافة الخاصة التى تحدثت عنها غير مرة مثل: (الإغراق فى المحلية)، أو (اهتزاز الدقة)، أو (خلط الرأى بالخبر)، أو (المبالغة)، أو (التحريف)أ.هـ

وبرغم أن لدينا ما يشغلنا ويستغرق كل أوقاتنا، إلا أن من حقنا بعد هذا الهياج الذى سببته كلمات السيد عمرو عبد السميع أن نسأل سؤالا مشروعا وهو: إلى أى مصطلح ينتمى مقالك الأخير (اهتزاز الدقة).. أو (خلط الرأى بالخبر).. أو (المبالغة).. أو (التحريف).. أم أنه مقال ينتمى لفصيل جديد من (الكذب تيزم).

لا تحزني يا مصر.. فهم ليسوا أبناءك (*)

أبناء قابيل يتحركون من جديد لإحراق مصر وشيطنة الثورة، يتحركون ليغتالوا أخلاقها وطهرها، وليسلبوا منها بعدها الحضارى والأخلاقى الذى تجلى في أعلى صور الضبط الإرادى حين واجه شباب مصر أعتى وأشرس ما انتجته تكنولوجيا القهر والظلم والاستبداد وبصدور عارية وهم يهتفون سلمية سلمية.

ومن الواضح أن التواصل من داخل السجن بين أبناء قابيل وبين فلولهم خارجه كان مستمرا، وأن الأحداث الأخيرة التى تُوِّجتْ باليوم الدامي في بورسعيد كان التخطيط لها على قدم وساق، والمرء يحار كيف لثورة تجمع أعداءها في مكان واحد وبأي حجة كان يتم هذا التواطؤ، وهل كان المقصود هو تسهيل مهمتهم في التخطيط للانقضاض على الثورة والعودة لحكم مصر من جديد؟

كل العقلاء والمخلصين طالبوا بفصلهم وقطع الاتصالات بينهم ومعاملاتهم بالقانون ودون استثناء ككل المساجين المتهمين بالإجرام، لكن التراخى في تطبيق القانون وقبول الحكمة قد يتسبب في كوارث ويوقع الوطن كله في قبضتهم من جديد.

حماس بعض المتظاهرين الذى يفتقد إلى الوعى ممن يسعون إلى البحث عن دور ويريدون أن يلتحقوا بقطار الثورة يساعد في تنفيذ مخططهم بحرق البلد من حيث لا يقصدون، ومحاولات الترويع واقتحام الداخلية وإثارة الفوضي والرعب بين الجماهير ومنع أعضاء مجلس الشعب من الدخول وإغلاق البوابات الرئسية حتى اضطر الكتاتنى أن يدخل من باب الحرس بينما دخل الأعضاء من الجراج دليل على ذلك، فلصالح منْ نعطل مجلسا انتخب انتخابا حرا ليحمى مصالح الشعب عن أداء مهامه وفي أخطر ظرف تارخى. وما المقصود بذلك، ولصالح من نهدم مؤسسات الدولة ونبدأ بوزارة الداخلية؟.

في الجانب الآخر لصالح من يحول لواءات الداخلية المتورطون والمتهمون إلى دواوين الوزارة ليتمموا مؤامراتهم ومن مواقعهم بدلا من محاكمتهم؟ ولا نريد أن نسبق الأحداث فهناك جهات محترمة دخلت على الخط لأول مرة لتحرى الحقائق وفي مقدمتها مجلس الشعب، وهناك في الوقت نفسه جهات أخرى -نحترمها ونجل دورها في حماية أمن

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٩-٠٢-٢٠١٢م

مصر– لديها معلومات ولا تريد أن تفصح عنها، لكنها ستضطر إلى ذلك إذا تحلى الشعب بوعيه الذى فاجأنا وتخلى أصحاب الحماس الأجوف عن النزق والهياج الذى نراه أمام وزارة الداخلية.

ما يميز ثورة ٢٥ أن تجليات الضبط الإرادى كانت في أعلى صورها، وأن الأخلاق المتحضرة كانت في قمة تجلياتها، وكان السلوك فوق ما يعرف الجميع، وكان الإيثار هو القانون السائد، وكانت الأخوة هى الضامن والحارس وصمام الأمان رغم انعدام الأمن وغياب رجال الشرطة، وما قام به المصريون في ثورتهم يدرس الآن في مناهج الغرب ليتعلم منها أبناؤهم في معاهدهم وجامعاتهم، فاحذروا أيها المصريون أن تسلب ثورتكم وأن ترتدوا إلى الوراء مرة أخرى.

فمصر اليوم تمر بأخطر مراحلها، وفلول النظام القديم في الفضائيات والصحف تهيج الجماهير ليقوموا بمظاهرات ويعطلوا مصادر الانتاج وليوقفوا عجلة الحياة حتى يضج الناس في مصر وليعود المخلوع . ولو في صورة جديدة الذى سرق ثروتنا، وباع أرضنا وقامر بمصيرنا الدولى، ليسرق ما تبقى لنا من أرض، ويبيع ما تبقى في أرضنا من غاز، ويقامر بما تبقى لنا من إرادة،، فهل يكون وعيكم أسبق من تدبيرهم، وإقبالكم على الأعمال وزيادة الإنتاج سيفشل مؤامراتهم؟، فكونوا على حذر.

اقتصادنا في حاجة إلى إنعاش حتى يتعافى، وأطراف كثيرة في الداخل والخارج تنتظر اللحظة المواتية لانهياره لتنقض على الثورة ولترتد بنا إلى الوراء وهذا هو الجحيم بعينه، ومن ثم فمصر اليوم في حاجة ماسة إلى وعيكم، وفطرتكم النقية، ومشاعركم الوطنية المتدفقة، مصر جريحة في اقتصادها ومصانعها ومزارعها ومعاملها وجامعاتها وكل ميادين الحياة فيها، لكنها شامخة بعزتها وستتعافى بتوكلها على الله أولا، ثم باعتمادها على سواعد أبنائها، ولن تفرط في حريتها وكرامتها، ولن تسمح لمن سرقوها من قبل أن يعودوا ليسرقوها مرة أخرى، فهى واعية ومدركة ولن تلدغ من جحر الحية مرتين.

مصر اليوم في حاجة إلى المصانع لتعمل بأقصى قدرة لها حتى نكتفى ذاتيا ولا نمد أيدينا، وفي حاجة إلى فلاحيها ليزرعوا أرضها ويستخرجوا خيراتها ويستنبتوا نباتها الطيب ليأكل أبناؤها بكرامة. فليكن كل منا جزءا من الحل وليس جزءا من المشكلة، وليمارس كل منا عبادته وجهاده في المصانع وفى المزارع وفى المعامل وفي كل ميادين الحياة في المدائن والقرى، وهناك رهان على صبركم وقدرتكم على التحمل وتوقعات بأن القادم أسوأ فلا تستجيبوا وخيبوا ظنونهم

نعرف أن لكل فئة مطالب تجاهلها النظام السابق ولم يستمع إليها،، لكنكم أيضا تعرفون أن الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها، وأن الإنسان الأصيل لن يستدفئ بأصنام العهد البائد مهما كان ظلام الليل وشدة الأزمات. فليحاول كل منا أن يكون عنصر إضافة إيجابية تساهم بقدر جهده وبأقصى طاقتة الممكنة في حماية ثورته بالعمل الجاد والكفاح الدؤوب، فالإنسان يبقى هو المرتكز الأساس في بناء كل حضارة، وأكبرثروة في مصرهم شعبها الأصيل الطيب والذى تلاقت إرادته بكل أطياف أبنائه في هدف موحد هو الحرية والكرامة، ومن ثم يجب أن نتحامل على جراحنا وأن نصبر، وأن نعمل لنكفي أنفسنا وأهلينا.

إن الثورة ليست ثورة فئة بعينها، وهذا أروع ما فيها، صحيح أن الشباب هم أول من أوقد شرارتها، ولكنهم هم أنفسهم يقولون إنها ثورة الشعب كله بأطيافه وفئاته كلها، ومن ثم فكلنا مسؤول عنها وعن استمرارها وعن حمايتها وتحقيق كل أهدافها. ولا يجوز أن نكون سببا في فشل ثورتنا ولو بحسن نية.

فليكف المتظاهرون عن التظاهر، وعندما تتعافى مصر ويتخلص الوطن من علله السابقة سيجد كل منا بغيته وسيحقق كل منا هدفه، وستعود شمس الحرية بدفئها وحرارتها، وأنوار الكرامة بضيائها وعزتها، وسيعود نسيم الفجر ينبض بالأمال الموعودة، وسيأخذ كل واحد حقه، ولن يكون هناك مظلوم مهضوم الحقوق.

عندما يتعافى الوطن وتصحو مصر من طعنات اللئام ستعود إلى الدنيا أحلام الصبا وسينعم الصبايا برحيق الورود ونسمات الربيع وشمس الأصيل وهمسات المساء، وستخفق قلوب كل المصرين والعرب بالحب والتقدير لمصر أم الدنيا

فلتتوجه الإرادة الحرة لشعبنا الأبي إلى البناء حتى تقف مصر مرة أخرى على قدميها، وحتى تبقى شامخة أبية لا تنحنى لظالم ولا تستكين لمستبد.

وليُصَلِ كل منا من أجل مصر، ولَيَدْعُ ربه في تسابيح السحر أن يحفظها لنا وطنا حرا وأمنا، وأن يحقق فيها وفينا دعاء نبي الله يوسف عندما (آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ).

النخبة والدور السلبي (*)

الظروف التى تمر بها مصر تحتاج لتضافر الجهود، وقبل ذلك تحتاج للترفع عن الهوى السياسى والطموحات الشخصية.

القوى الوطنية يجب أن تترفع على المناورات والهوى والكيد السياسى والتربص الحزبي؛ لأن الخاسر فى تلك المعارك هو الوطن والمواطن بصرف النظر عن انتمائه الحزبى حتى ولو كان من حزب الكنبة كما يقولون.

الطفيليات الثقافية لعبت فى العصر البائد دورا خسيسا فى تشويه الحركة الإسلامية على اختلاف تياراتها حتى صنعت منها بعبعا مخيفا يثير القلق فى الملتقى بمجرد ذكرهم، صحيح أن مصر بعد الثورة أغلقت أسواق النفاق وسدت نوافذ التملق وأطلقت ألسنة الرعية وإرادتهم فى مصير النهابين الظالمين وسرّاق المستقبل، إلا أنها لم تقض بعد على الدولة العميقة، وما حدث أخيرا لا يكاد يصدق، والغرابة فيه قدرة الفلول على التجمع وسهولة الاتصال فيما بينهم، والتنسيق الإعلامى بين فضائيات تتبنى وجهة نظر واحدة وتختار ضيوفا لهم لون واحد، وهذا يكشف أن الدولة العميقة ما زالت لها القدرة على التجميع والتأثير وتحاول استقطاب بعض القوى الشريفة فى المجتمع والتى يجب أن تكون على الحياد فى الصراع السياسى كمؤسسة القضاء ورجال العدالة.

قضاة مصر معروفون بشموخهم وعزتهم ونزاهة مواقفهم، وبعضهم كان له فى مواجهة الاستبداد والفساد أيام المخلوع مواقف مشرفة، غير أن الفساد الذى طال كل شيء فى مصر تسلل أيضاً إلى مؤسسة القضاء كغيرها من المؤسسات حتى جند جهاز أمن الدولة قلة قليلة منهم وجعلها تقتات على حساب العدالة، وأحيل بعض القضاة للتحقيقات ودخل بعضهم السجن فى قضايا رشوة، وكان ذلك هو الاستثناء وليس القاعدة فى مؤسسة العدالة الشامخة. ولقد تعودنا من هذه المؤسسة المحترمة مؤسسة العدالة أن تنأى بنفسها عن الدخول فى حومة الصراع السياسى فى خضم التجاذبات السياسية القائمة، وألا تستجيب لنزق القلة المعروفة بولائها للنظام المخلوع ممن كانوا أداة للحكم السابق فى القهر وكبت الحريات، ولم ينطقوا ببنت شفه عندما سحل القضاة الشرفاء فى شوارع القاهرة واعتدى عليهم جنود الأمن المركزى وضباط أمن الدولة وشحنوهم فى سيارات الشرطة من أمام دار القضاء العالى، بل إن بعض هؤلاء القلة لم

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٧ – ١٠ – ٢٠١٢م

يكتفِ بالسكوت وإنما لام الشرفاء من القضاة على مواقفهم التى خلدها تاريخ القضاة فى العصر الحديث، وكان مساندا لرموز القهر ضد زملائه وفى مقدمتهم حبيب العادلى.

نفس الأشخاص الآن يرتدون ثوب البطولة وتعلو أصواتهم التى سكتت دهرا وتستأسد على نظام يحترم أهل القضاء ويعمل من أول يوم على دعم استقلالهم.

مؤسسة العدالة أيضا مطالبة بتفهم غضب الشعب كله، وبخاصة أهل الضحايا الذين مات أبناؤهم فى ميادين مصر برصاص أمن النظام السابق وجرح بعضهم وأصيب بعجز وإعاقة وعجزت أجهزة القضاء نيابة ومحاكم عن تحقيق العدالة لهم والأخذ بثأرهم، هؤلاء ومعهم كل المصريين طلاب العدالة، ومن حقهم أن يروا أيدى القانون وهى تكبل القتلة والمجرمين وتودعهم السجون جراء ما ارتكبوه من جرائم فى حق مصر وأبناء مصر، لكن مهرجانات البراءة الجماعية التى شكلت مهزلة فى الفترة الأخيرة أصابت المجتمع كله بصدمات عنيفة وصدعت إحساس الناس بأن ثورة قد قامت، وأن الأوضاع قد تغيرت، وقوت شكوكهم أن سدنة الفرعون السابق وترزية قوانينه ما زالت بأيديهم أزمة الأمور كلها فى مصر المحروسة، وأن بأيديهم أن يلغوا إرادة الشعب إذا اختار من لا يروقون لهم، ومن ثم فهم يستطيعون فعل الشىء ونقيضه فى نفس الوقت، وأن القانون ما هو إلا حمار يركبه البعض فيوجهه يمينا أو يوجهه يسارا وفق رياح الهوى، وتلك حالة تدعو إلى اليأس. وتعكس حالة من المرارة بغياب العدالة، ودافع اليأس بغياب العدالة ربما يدفع البعض من أهل الضحايا ليأخذوا حقوقهم بأيديهم، وهذا يعنى سقوط الدولة من عدة وجوه.

الأول: أنها لم تستطع أن تحمى حقوق الشهداء ولم تستطع أن تنتصر على بقايا الدولة العميقة، وأن هذه الدولة العميقة ما زالت تعشش فى أخطر مفاصل مؤسسات الدولة وهى المؤسسة القضائية، وبناء عليه فأين هو التغيير؟

الثانى: أن مجموعة الهتيفة فى نادى القضاة يسيئون لكل الهيئة القضائية حين يصورون الأمر على أنه انتصار على مؤسسة الرئاسة ولى لذراعها وفرض لإرادتهم على قرارات الرئيس.

الثالث: أن هناك انتخابات حدثت وكانت شفافة إلى أقصى حد، وأشرف عليها رجال القضاء وشكلت عرسا ديمقراطيا شهد له وأشاد به العالم، ثم حدثت انتخابات الرئاسة وكانت على ذات المستوى وشكل الحدثان رصيدا أوليا يتراكم به تاريخ مصر

ويعتز وهو على عتبات الديمقراطية، ووثقت نتائجه فى ضمير الدنيا كلها المؤيدين والمعارضين، ومن ثم يجب أن يكون ملزما للجميع.

ومن هنا يكون الانقلاب على هذه الشرعية شىء خطير، ويشكل سابقة تفتح بابا للانفلات السياسى يحول بين الدولة وبين الاستقرار، الأمر الذى ينعكس سلبا على كل ميادين الحياة ويغرى المتربصين بمصر ثورة وشعبا وحاضرا ومستقبلا بمزيد من العبث واللعب بمستقبل ومصير الوطن كله.

الرابع: تصرفات النخبة بمحاولات إعاقة وعرقلة الحياة السياسية وجرجرة القضاة ليكونوا طرفا فى الصراع وأداة من أدوات تنحية الرئيس وإبعاد الإسلاميين تصب فى تحقيق أهداف المتربصين بالثورة، وتمنحهم فرصة مجانية لضرب مؤسسات الدولة ببعضها وخلق ألوان من الصراع الذى يتعدى حدود السياسة ليفجر السلم الاجتماعى ويقسم المجتمع إلى فئات متناقضة ومتصارعة لا يعنيها إلا تحقيق أهدافها فقط بصرف النظر عما يحتاجه الوطن من تماسك فى مواجهة قوى متعددة فى الداخل والخارج، وكلها لا تحب مصر ولا تكن خيرا لأهلها.

يجب أن يكون معروفا أنه ليس من صالح مصر ولا من صالح القوى الوطنية أن يفشل الرئيس فى تنفيذ خطته سواء كنا مؤيدين أو معارضين؛ لأن الرجل أولا لم يأخذ فرصته بعد.

وثانيا: لأن التركة ثقيلة ومؤلمة بل وكارثية على مدى ستين سنة.

وثالثا: لأن الخسارة الوطنية ستلحق بكل الشعب وبكل الوطن ولن تكون خسارة للإخوان وحدهم.

المراهقة السياسية ربما تصور لبعض القوى أنها تنجح فى الانتقام من تيار الإخوان وتفرح بنشوة الانتصار، لكن الحقيقة أن هذا الفرح سيعقبه ندم شديد إن ظلت ضمائر هؤلاء على قيد الحياة.

المجتمعات الحديثة لديها قيم ضابطة وحاكمة لموضوع الخلاف السياسى تحدد سقفه وطرق تناوله وآلياته الأخلاقية قبل الضوابط القانونية، كما أن لدينا فى مجتمعاتنا قِيمًا وثَّقها المجتمع فى ضميره التاريخى ونالت رضاه وتوافق المجتمع عليها، هذه القيم يخرج عليها الآن أولئك الذين صدعوا رءوسنا بالحديث عن الديمقراطية واحترام صناديق الانتخابات، فلما جاءت رياح التغيير على غير ما يشتهون كانت الفجيعة باتهام الشعب بأنه جاهل وأنه لا يحسن الاختيار وأن حضرات النخب أصحاب الياقات المنشاة يجب

أن يكون لهم الوصاية على إرادة هذا الشعب المسكين وكأنه كتب على أهل المحروسة أن يظلوا تحت الوصاية والحماية أبدا.

شيء آخر خطير وممل ويشكل عوارا ظاهرا فى ثقافة النخبة، وهو أن أفكارهم عن الإسلام محملة بكثير من الرواسب التى تحتاج للمراجعة، ولن أقول للتنظيف أو التطهير، فهم فى كل مناسبة وبغير مناسبة يذكروننا بما لا علاقة لنا به ويعيروننا بما هو ضد ديننا أصلا وينسبوه إلينا علما بأن ديننا رفضه واعتبره من كبائر الآثام.

الضجيج الذى يحدث الآن يعكس حالة التردى التى سقطت فيها التيارات الليبرالية كما يعكس حجم مسافة البعد بين الطهر الثورى وبين حالة الوحل التى يتخوض فيها عبدو مشتاق، ذلك الرمز البذيء الذى لا مانع لديه أن يحرق الوطن كله مقابل الجلوس على كرسى الزعامة ولو لساعة واحدة.

المأساة أن هذا النوع من الكائنات تمتلئ به الآن ساحات مصر السياسية، كما أن ضجيجه وصياحه على الفضائيات يلوث الهواء ويفسد البيئة السياسية ويقدم للدنيا صورة مشوهة عن أم الدنيا بعدما خطت خطواتها الأولى فى طريق التغيير الصحيح.

الذين لا يعجبهم العجب فى مصر ولا يرضون من الرئيس مرسى أو يرضون عليه إلا إذا تخلى عن أصوات كل الذين اختاروه وترك مكانه لهم، القصة كلها عندهم ليست الوطن، القصة هى الموقع والمنصب ولو لم يكونوا أهلا له، هم إذا أُعْطُوا منها رضُوا وإن لم يعطوْا منها إذا هم يسخطون.

بيئة الجدل العقيم أو الديالكتيك كما يسميها إخواننا الماركسيون، يضاف إليها الانتهازية السياسية التى تصنع الأزمات لتحصل على المغانم وإن غرم الوطن وهرم أبناؤه فى طلب الحرية والعدالة والعيش بكرامة تساعد على ذلك وتخلق ظروفا مواتية للثورة المضادة لكى تنجح، فاحذروا هؤلاء، فهم ليسوا أبناء الوطن ولا هم أهله، ولو كانوا كذلك ما عطلوا مسيرته وعثروا خطواته وحاولوا شل حركته وإعادته لنقطة الصفر الكبير.

النافذة العاشرة

المجلس العسكري.. ومأزق السياسة

يا سيادة المشير: أولاد البلد لهم لغة أخرى ليست كلغة أصحاب الياقات المنشاة من أهل الدبلوماسية، لغتهم فيها طعم الأنفة الحرة، طعم العزة التى لا تهون، طعم الكرامة التى تموت واقفة ولا تقبل الدنية والمهانة.

لغتهم هى، لغة أبنائك ممن يرتدون البزات العسكرية ويعرفون قيمة الشرف وغلاوة الدماء حين تراق غدرا وبيد عدو، وإن كان حليفا لكنزه الاستراتيجى الذى زال وغار.

لغتهم يا سيادة المشير لغةُ مَنْ لا يفرط في الحقوق، لغةٌ لا تعرف إلا صون كرامة الوطن والموت فخرا وعزا على ثراه وحماية ترابه من أن يتدنس.

لغةُ مَنْ يموت جوعا ولا يتناول طعاما من صنع عدوه، ويرتعد بردا ولا يستدفئ بحضن عدوه، ويلفظ بكرامة آخر أنفاس حياته ولا يركع لصنم.

رسالة إلى المشير (*)

ضوابط قبل الحوار:

بداية أرجو أن يسمح لي السيد المشير محمد حسين طنطاوى رئيس المجلس العسكرى والسيد الفريق سامى عنان وبقية المجلس الموقر والمحترم أن أبدي إعجابي بهم وتقديري لمواهبهم ورشاقتهم وقدرتهم الفائقة على الصمت، للتخلص من كثير من الموضوعات التى لا يرغبون في الحديث عنها وفي المواقف التى لا يريدونها.

فالحدث الأخير في مصر (مليونية ٣٠ سبتمبر) حمل لي الشيء الكثير وفتح آفاقا تغري الإنسان بالحوار حول مطالب الشعب الثائر بعد ما يزيد عن ٨ شهور من بداية الثورة.

وفي حوار من هذا النوع الذي يتم بين من يحملون مسؤولية الدولة ويقفون على رأس السلطة ويملكون اتخاذ القرار وإصدار القانون، وبين مواطن من رعاياهم لا يملك إلا عقله ويراعه، يبحث بالأول عن الحقيقة وبالثاني يجليها ويوضحها، حوار من هذا النوع لا بد أن تتوفر له أولا مساحة من الحرية تتيح لمن يملك القول أن يقول، كما تتيح لرأس السلطة أن يستمع وأن يتأمل فيما يقال، فلا خير فيمن يعرف الحق ولا يقول، ولا خير فيمن يستهين بهذا الحق ولا يستمع إليه، ولستم أنتم أيها السادة ولا أنا من هذين الفريقين.

ثانيا: حوار من هذا النوع حول مطالب الشعب لابد أن تكون آثاره نافعة وثمرته مزيدا من الفهم وتوضيح الرؤى، والحوار كما تعلمون سيادتكم أول مراحل الفهم.

ثالثا: من المهم جدا بين الراعي والرعية أن يكون الطرفان على موجة واحدة لتسهل عملية الفهم، وتوحيد الموجة هنا يتطلب أن يقترب كل طرف من الآخر، بمعنى أن يقترب الراعي من رعيته لتكون مواقفه صدى ونبضا حيا لأفكار أمته واحتياجاتها دون تفريق بين تيار وتيار ولو كان أحدها يوافق الهوى السياسي والآخر يعارضه.فهل تسمح لنا يا سيادة المشير ومعك المجلس العسكرى الموقر بأن نتحاور لنفهم وليقترب كل منا من الآخر؟.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٦ - ١٠ - ٢٠١١م

صحيح أنني لن انتخبك إذا رشحت لمنصب الرئاسة، ولن أمنح صوتى لعسكرى مهما كانت كفاءته لكن ذلك لا يمنعني من الإعجاب بكم والتقدير لمواقفكم من الثورة وسماعكم لكل رأي حر حتى ولو لم يوافق الهوى السياسي، مما يجعلني أفخر بأن بلدي تحظى بقيادة مرحلية رائعة، اتفقت معهم أو اختلفت ذلك شأن آخر.

تلك هي الضوابط قبل الحوار، أردت أن تكون مدخلا لحسن النية والبحث عن المشترك بيننا كمواطنين مصريين يحبون بلدهم كل على طريقته. والآن اسمح لي يا سيادة المشير أن نتحاور لنفهم ولنقترب أكثر.

سيادة المشير محمد حسين طنطاوى والسادة أعضاء المجلس العسكرى

تحية لكم من كاتب يحبكم ويحترمكم وإن لم يتشرف برؤيتكم، رغم أننا جيران في المسكن مع سيادة المشير.

سُمْعَتُكم الطيبة ونظافة أيديكم وشرفكم العسكرى كل ذلك يشجعنى أن أخاطبكم بروح الأخوة والمواطنة رغم الفارق الكبير اليوم بيننا، فأنا مواطن لايملك إلا قلمه ويراعه، بينما أنتم قد آلت إليكم مقاليد مصر المحروسة بتاريخها وعراقة شعبها وفي مرحلة من أخطر مراحل تاريخها.

كل الشعب أيها السادة وأنا منهم ذخر لكم وسندكم ورصيدكم الاستراتيجى، ويكنون لكم ولمجلسكم الموقر وقواتنا المسلحة كل التقدير والحب، وبرغم عدم وضوح الرؤية وغموض الموقف في الفترة الماضية حول موعد الانتخابات وتحقيق طموحات شعبنا في نظام ديمقراطي، ورغم وعودكم التى قطعتموها للشعب بتسليم السلطة، إلا أن قلوبنا لا تطاوعنا أن نكرهكم بل تجبرنا أن نحبكم، فاحرصوا أرجوكم على هذا الرصيد.

حديثى إليكم سيادة المشير ومن معك ليس عن الانتخابات وموعدها، فتلك رسائلها كثيرة وقد وصلتكم حتما وقررتم فيها قراركم.

لكن حديثى حول التحامكم بالشعب وتلبيتكم لرغبته في تطهير الحياة السياسية، هذا العمل يبعث برسالة صحية وصحيحة إلى الداخل والخارج مفادها:أن مصر تغيرت وأن عصور المهانة وارتهان الشعب رهينة لحماقة العدو وصلفه في مقابل رغبة الرئيس في البقاء أو توريث الحكم لواحد من أبنائه، هذا الزمن قد ولى وراح

وذهب كما ذهب الحمار بأم عمر فلا رجعت ولا رجع الحمار

الشارع المصرى الآن يا سيادة المشير دخل على الخط، وهذه فرصتكم لتتصرفوا بحضارة وحرية، وترفضوا كل ضغوط تمارس ضدكم كقيادة ومجلس عسكرى، أو كشعب ووطن.

أعرف أن لديكم من مصادر المعلومات والمعرفة الموثقة ما يغنيكم عن نصيحة مثلى، لكن مثلكم يا سادة لا يستعلى على النقد والتوجيه، ولا يترفع عن السماع وإن كان القول معادا ومكررا، ومثلى لا يسكت عن نصيحة من أحبهم ورأى في عنقه دينا لهم انطلاقا من أمور ثلاثة:

الأول وهو أهمها: احتضانكم لثورة ٢٥ يناير وموقفكم منها.

الثانى أننا جيران في المسكن للرجل الأول في مجلسكم الموقر وهو السيد المشير، وللجار حق إن أحسن، وحقوق أخرى كثيرة، وإن جار وأساء، ونحمد الله ونشهد أنكم حتى الآن ما أسأتم وما جرتم، ونعيذكم بالله من الإساءة والجور.

والثالث أننى أعرف أنكم أبناء مصر أصلا وفروعا ومن ثم فبالقطع لا أملى عليكم، لكننى تعلمت من دينى أن الدين النصيحة، وأنها لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وولاة أمورهم، وأنتم منهم.

المواطنون الذين خرجوا في ٣٠ سبتمبر فعلوها من أجل مصر، ومن أجلها يا سيادة المشير حاربت أنت ومن معك.

الذين فعلوها، فعلوها غضبا من استمرار واستفزاز بقايا نظام طالما عبث وتعدى وتجاوز ومارس القتل ولم يرع في عربي أو مصرى إلا ولا ذمة.

ربما حمل بعضهم بعض اللوحات المسيئة لشخصكم وربما كان هذا من من فلول الحزب الوطنى، ليحدث القطيعة بيننا، لكن الأغلبية بالقطع لا ينتمون إلا لمصر، ربما استغلت فلول الحزب الوطنى ذلك الحدث العظيم لتخلق نوعا من الفوضى، لكن ذلك لا يستدعى إعلان قانون الطوارئ، لأننا باستدعاء هذا القانون نكون قد عالجنا ذلك الخطأ بخطيئة، ومراد فلول الحزب الوطنى وبقايا النظام السابق أن تعود البلاد لما كانت عليه قبل الثورة، وليس هنالك من الردة أبشع من هذا القانون.

ربما كان أذناب الحزب الوطنى يريدون خلط كل الأوراق حتى تتأجل الانتخابات تحت حجة الحالة الأمنية، وهذا تماما ما ردده الرئيس المخلوع في خطاب التهديد حين

خير الشعب بقبول الدنية ببقاء الاستبداد والطغيان ممثلا في شخصه ونظامه أو الفوضى وتقسيم البلاد، لعلك تذكر ذلك جيدا يا سيادة المشير فذلك أمر لا ينسى وتأجيل الانتخابات وبقاء الأوضاع على ما هي عليه الآن هى أغلى أمانيهم حتى لا تنعم مصر بحياة ديمقراطية صحيحة.

الفعل الحضارى لمليونية ٣٠ سبتمبر وإن خالفت الهوى الشخصي لبعضنا إلا أنه يشكل بكل المعايير رسالة يعرف العالم المتحضر قيمتها وسيساعدكم هذا الفعل الذى يراه البعض عبئا ضاغطا فى مفاوضاتكم على الإصرار على استرداد حقوقنا التى غيبتها اتفاقية كامب ديفيد.

الرسالة تغير من لغة الضغط ومفردات الغرور التى تعود عليها الآخرون في مفاوضاتهم مع القيادات المصرية وتجعل للمفاوض المصري في كل المجالات أرضية صلبة ينطلق منها دون خضوع لقيادات الكيان الإسرائيلى وغيره،

والرسالة تعنى أيضا أن مصر الثورة التى احتضنتموها والشعب شاكر لكم ومُثمِّن لموقفكم مصر الثورة تشكل نقطة فاصلة في علاقات كانت مختلة وتفتقد أبسط احترام الحقوق بين دولتين.

دعك يا سيدى من التلويح بقطع المعونات الأمريكية، فالعرب يقولون "تموت الحرة ولا تأكل بثدييها" ومصر حرة بأبنائها وبكم، ويمكنها أن تستغنى عن المليارات الثلاثة التى بها تُرْهَنُ إرادتنا

صحيح أننا لسنا كأمريكا في القوة والتكنولوجيا والعتاد العسكرى، لكنهم يجب أن يفهموا أننا شركاء في الحق وإن لم نكن شركاء في القوة.

المتهمون باقتحام "السفارة" لا يجوز أن يجرموا وإن أحرجونا دبلوماسيا، فالعدو حتى الآن لم يحاكم من قتلوا الأسرى المصريين، بل كافأهم وولاهم وزارات ومواقع قيادية، والعدو في كل لجان تحقيقه التى ارتكب فيها جنوده حماقات القتل العمد وبدم بارد ما أدان جنديا أبدا، بل كان حريصا دائما على تبرئة جنوده "وهم مجرمون".

روعة العمل وإن كان مدانا من الناحية الدبلوماسية إلا أنه أرسل برقية صحيحة المضمون أن مصر عادت لذاتها واستعادت نفسها، وأن المحروسة بعون الله، ثم بسواعد رجالها، لن تفرط في دماء أبنائها، ولن تسمح أن تذهب هباء تلك الدماء الطاهرة، وأن

من يحاول النيل منهم أو يتطاول عليهم سينال جزاءه، وعليه أن يفكر ألف مرة قبل أن يقوده نزقه إلى حماقة.

الرسالة تضمنت أيضا أن قيادة مصر حريصة على مصالحها وليست مفوضة بالتفريط أو التهاون مع من يستهينون بها أو يعتدون عليها كما كان يحدث من قبل، وأن ٨٠ مليونا يتحولون إلى إعصار ونار إذا حاول أحد أن يخدش كرامتها أو ينال من عزة أبنائها.

الرسالة صحيحة يا سيدى في عنوانها ومضمونها، وإن احتوت بعض البنود الخطأ في العرف الدبلوماسى.

أولاد البلد يا سيادة المشير لهم لغة أخرى ليست كلغة أصحاب الياقات المنشاة من أهل الدبلوماسية، لغتهم فيها طعم الأنفة الحرة، طعم العزة التى لا تهون، طعم الكرامة التى تموت واقفة ولا تقبل الدنية والمهانة.

لغتهم هى لغتك أنت يا سيادة المشير، لغة أبنائك ممن يرتدون البزات العسكرية ويعرفون قيمة الشرف وغلاوة الدماء حين تراق غدرا وبيد عدو وإن كان حليفا لكنزه الاستراتيجى الذى زال وغار.

لغتهم يا سيادة المشير لغةُ مَنْ لا يفرط في الحقوق، لغةٌ لا تعرف إلا صون كرامة الوطن والموت فخرا وعزا على ثراه وحماية ترابه من أن يتدنس.

لغةُ مَنْ يموت جوعا ولا يتناول طعاما من صنع عدوه، ويرتعد بردا ولا يستدفئ بحضن عدوه، ويلفظ بكرامة آخر أنفاس حياته ولا يركع لصنم.

فرصتك يا سيادة المشير لتدخل التاريخ ومعك أصحابك ورجالك من قواتنا المسلحة، لتؤكدوا للدنيا كلها أن جيش مصر هو جيش مصر ولم يكن، ولن يكون يوما جيش الحاكم مهما كان الفرعون.

ولتعلم وأنت بالضرورة تعلم أن الذين خانوا مصر هم اليوم في قفص الاتهام وأن سيادتكم أحد الشهود في قضية العصر.

الواقعة "اقتحام السفارة" لا نشجع على مثلها أبدا، لكنها جاءت بعد اغتيال غادر لستة من شباب مصر على أرضهم وتحت سمائهم، والفاعل طليق لم يحاسب، وقيادته لم تعتذر بشكل رسمى.

أرجوك يا سيادة المشير لا تعكر علينا لحظة الشعور بالعزة ولا تعيدنا مرة آخرى لقانون الطوارئ، ولا تطلق وزيرا يتوعد ويصادر مصادر الأخبار وينتهك حرية المواطن في الحصول على معلومة حرة وصادقة وبعيدة عن فبركة الصحف والقنوات القومية، فتلك لحظة غابت عنا سنوات وانتظرناها ثلاثة عقود عجاف.

الشعب المصرى عن بكرة أبيه يقدر موقفكم ولكنه يشعر بالفخار والعز؛ لأن بعض أبنائه ثأر من عدو قتل بعض أبنائه.

أهل التخصص يا سيادة المشير في علم الاجتماع البشرى ومعهم علماء الأجناس يعرفون أن هؤلاء القوم في إسرائيل لن يفهموا إلا هذه اللغة فسلهم إن شئت.

وتجارب التاريخ الإنسانى والعسكرى أيضا وأنت بها خبير تؤكد أن أيديهم الآثمة لن تُغَلّ عن الجرائم إلا إذا أدركوا أن رد الفعل سيكون حادا وموجعا، وأن تجاوزاتهم لن تقف عند حد ما لم يدركوا أن من يتعاملون معه قادر على الرد وبشكل عاصف، وأن ذراعهم التى يقولون عنها بأنها طويلة لن تكف عن الأذى إلا إذا أدرك أصحابها أن الطرف المقابل يستطيع قطعها إن تعدت أو تجاوزت.

تأكد يا سيادة المشير أن هؤلاء الشباب الذين فعلوا ذلك سيدافع عنهم كل أحرار العالم ولو كانوا من فلول الحزب الوطنى، وأن ساحات القضاء المصرى مدني أو عسكرى لن تتسع للحشود التى ستأتى إلى مصر من كل بلاد الدنيا لتدافع عن هؤلاء، وسيذكر تاريخ الأمجاد أن أبناء المحروسة فعلوها غير مترددين ولا خائفين، وأن نصيبهم من الصبر على المهانة والسكوت على الظلم وضبط النفس قد استنفد، وأن ثمانين مليونا من المصريين بل مئات الملايين من العرب والمسلمين في كل البقاع يتمنون لو أنهم سبقوا إليها وفعلوها قبل غيرهم، وأنهم يغبطون هؤلاء على هذا الفعل الذى استرد الكرامة المسلوبة، وأيقظ من نوم الغرور والصلف ذلك العدو المتغطرس.

لا تستبعد يا سيادة المشير أن قتل العدو لأبنائنا الستة كان بمثابة اختبار لقياس رد فعل مصر الثورة بعد غياب كنزهم المفقود لا رده الله، فتجاربنا مع ذلك العدو تثبت كل يوم أن هذا ديدنه وتلك طبيعته، وأنه يتسلى بإراقة دماء الأبرياء ليغرس في حسه وضميره الميت شعوره بالتفوق أبدا، وأنه المنتصر أبدا، والقاهر أبدا، وليؤكد للطرف الآخر قدرته دائما على الردع المروع.

النفسية المعقدة والمركبة من كل نواقص الوجود لهؤلاء الناس تنبئ بذلك دائما وتجعلهم يقتاتون على دماء الشعوب بشكل مباشر أو عن طريق الفساد الاقتصادى والاجتماعى.

صدقنى يا سيادة المشير، هم أرادوا أن يختبروا مصر، وهل انهزمت داخليا بعد حروب المواد الزراعية المسرطنة والفساد السياسي والأخلاقى الذى أحدثه نظام الكنز الاستراتيجى وإخوة يوسف في قطاعات الشعب المختلفة؟

وهل لا يزال ذلك الشعب صلب الإرادة أم تراخت إرادته وفسدت قيادته ونام أبناؤه..؟

أم أنهم لا زالوا أحياء يرفضون الدنية،وأن الثورة أيقظت فيهم حب الوطن الذى هجرهم فهجروه، وغَيَّبَهم فغابوا عنه وكادوا أن يكرهوه.

كان جس نبض خسيس، أرادوا به أن يقيسوا درجات الولاء للوطن شعبا وقيادة بعد الثورة الميمونة، وهل لا زالت إرادتهم تستعصى على الإغراء والإغواء؟ أم أن كنزهم المفقود لا رده الله قد أدى مهمته في تقطيع الأواصر وفك اللحمة الحضارية للمصريين ولعب لعبته في نسيجهم الوطنى والاجتماعى فلم يعودوا يشعرون بكرامة، وأن يومهم يتساوى مع أمسهم ولا فرق، وأنه يمكنهم أن يواصلوا سعيهم غير المشكور في صياغة مستقبلنا وعلى الطريقة التى يريدونها من النيل إلى الفرات والكل خدم لهم؟.

تنبه يا سيادة المشير وأنت نبيه وشريف، واعلم أن هؤلاء لا يستطيعون العيش بين البشر إلا بحبل من الله وقد انقطع عنهم من كثرة خيانتهم وفسادهم، وحبل من الناس وقد وهنت خيوطه وبلى نسيجه، فهو واه وضعيف، وتقطعه في لحظات الحسم أقدار الله، فلا يغرنك وعود الأمريكان لهم وعهود أوباما لزعمائهم، فتصرف وأنت حر، وإياك أن تكبلك قيود السياسة وحسابات التوازنات الدولية المنحازة والعدالة العرجاء والعوراء في مجلس الأمن، تلك التى تسوى في جور واضح وانحياز مخل بين الضحية والقاتل، واعتبرت حصار المليون ونصف المليون من البشر المظلومين في غزة حصارا مشروعا.

لا تخضع يا سيدى لحسابات المادة الرقمية فقط، ففوق قدرة المخلوق قدرة الخالق الذى ما لجأ إليه مظلوم بضعف قواه إلا نصره وأيده، فقدرته تقذف بحجارة من سجيل أعتى جيوش الظالمين فترديها، وترسل بالرياح العواصف فتدمر كل شئ بأمر ربها، وتبعث

بالطير الأبابيل على أعظم الجيوش عدة وعتادا فتدمره وتجعله حصيدا كأن لم يغن بالأمس.

كن حرا، وأنت كذلك، فمصر اليوم حرة بشعبها وبكم، ومصر بإيمانها لن تهزم أبدا، ومصر بهويتها الإسلامية لن تتراجع أبدا.

ومصر بالإيمان واليقين الذى يملأ قلوب أبنائها ويتشبث بترابها لن تهون بعد اليوم.

وتأكد يا سيادة المشير أن هؤلاء ليسوا أعداءنا فقط، وإنما هم أعداء كل الوجود، وفي لحظة من أقدار الله المكنونة ستحاربهم السموات والأرض والبشر والشجر والحجر، وحتى من في المقابر،

الفرصة الآن مواتية تماما يا سيادة المشير لتُثبت لهم أن مصر تغيرت، وأنها مقبلة على عهد من الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، إعلنها يا سيادة المشير أن السلطة للشعب، وأنه هو الذي يختار نوابه ورئيسه وقيادته، إعلنها وبلا تسويف أو خضوع للضغوط.

قلها لشعبك وحدد موعد الانتخابات في بيان رسمى لتطمئن قلوب ٨٠ مليونا ولتبقى قلوبهم مع قواتهم المسلحة وثقتهم فيها بغير حدود.

السكوت الآن يا سيدى يولد ريبة ويعطى الآخرين فرص الضغط بالتأجيل وتحويل مسار الثورة والالتفاف حول إرادة الجماهير التى قالت كلمتها ولن تتراجع، إعلنها صراحة يا سيادة المشير.

قلها لكل الدنيا أن مصر تغيرت، وأن رياحها تجرى بما لا يشتهيه أعداؤها، فتصرف يا سيادة المشير..... وأنت حر.

مصر ومحاولات الردة (*)

من طبيعة الطغيان ومساوئه أنه يخفى أجمل ما في الإنسان ويحاول محوه من السلوك ومنعه من الحركة لكن بعض الأمم الحية لها من الخصائص ما يحمى وجدانها على الأقل من الاستبداد والدكتاتورية وطغيان الحاكم.

الحاكم بجبروته وقهره قد يؤثر على الظاهر بينما يبقى المكون الحضارى الأصيل مستكنا في الوجدان العام، وكامنا في باطن العقل الجمعى يتجلى في الظهور أوقات الحرج وفى لحظات الحسم التاريخى حين تجتمع وتتراكم لدى أبناء الشعب عوامل تراكم الغضب ومن ثم تلتقى إرادتهم تلاقيا حرا على ضرورة التغيير.

في اللحظة الحرجة تجتمع وتتكامل كل عوامل الغضب، وتحطم الجماهير حاجز الخوف والصمت ويخرج الناس عن الكلام المباح إلى محظور السياسة، ومن ثم يبدأ انكسار الطغيان، وهذا بالضبط ما حدث في مصر.

مصر بثورتها أذهلت العالم كله، وشهد لها بالرصيد الحضارى والأخلاقي الذى ظهر واضحا في أخلاق أبنائها في ميدان التحرير.

وتحدثت الدنيا عن مصر حين تحدثت مصر عن نفسها وبلغة أبنائها، وقالت الدنيا ها هى مصر بتاريخها وحضارتها، بأخلاقها وانضباطها رغم العشوائيات، والفقر والحرمان والحاجة في مظاهرات سلمية متحضرة ومنضبطة ولم تحدث حالة تحرش واحدة، أو حالة خروج عن قانون الدين والأخلاق رغم انعدام الأمن

ظهر الكامن الحضارى في روح هذا الشعب العظيم وفى وجدانه العام وعقله الجمعى، فتصرف الناس بتحضر ليس له في التاريخ مثيل أو شبيه.

كانت تجليات الضبط الإرادى في أعلى صورها، وكانت الأخلاق المتحضرة في قمة تجلياتها، كان السلوك فوق ما يعرف الجميع وفوق ما ينتظره الجميع، كان الإيثار هو القانون السائد، وكانت الأخوة هى الضامن والحارس، وكان إحساس الواحد بالكل وإحساس الكل بالواحد هو صمام الأمان رغم غياب الرقيب وانعدام الأمن وغياب رجال الشرطة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٢ – ١٢ – ٢٠١١م

وسقط النظام وبقيت ذيوله وأذنابه، وجاء وقت حصاد الحرية فكان لابد لأبناء مصر من المنافسة أيهم أكثر تأهيلا وأكثر اهتماما بشعبها وأكثر قدرة على قيادة المرحلة، ولم يكن الحكم في تلك المنافسة إلا لصناديق الانتخابات فتلك هى الديموقراطية وهذه هى شروطها واستحقاقاتها.

ونجح الشعب بعماله وفلاحيه وفئاته المختلفة مسلمين ومسيحيين وثواره وقواته المسلحة، نجحت الأمة المصرية في أشد وأصعب اختباراتها على مدار التاريخ، وتعجب العالم وانبهرت الدنيا، وقال الجميع أي شعب هذا؟ أي ثورة هذه؟ أي بشر أولئك الناس؟

واشترك الجميع في العرس، الشباب الذى خطط للثورة، والشعب الذى ساند وعبأ وحشد لها والقوات المسلحة التى حمت ووقفت شامخة بجانب أبنائها وشعبها.

لكن مصر ظلت مستهدفة من فلول النظام وقوى أخرى داخلية وخارجية راحت تدفع بها نحو الصراع لتبقى في مكانها دون حراك.

تتأخر نعم، ولكن دون تقدمها القتل والحرق والتخريب وتدميرالممتلكات العامة.

الإنتاج يتوقف والشارع يتوقف ومصالح الناس تتعطل لا بأس، بينما عوامل الإعاقة للتحول الديمقراطى تعمل وبكفاءة عالية، ويزداد زخمها بعد كل جولة انتخابية يقترب فيها الإسلاميون من أبواب مجلس الشعب.

تصريح من هنا وتصريح من هناك كلها تسلب الشعب المحروم حقه في اختيار ممثليه وتنفى عن التيار الفائز أهليته في إدارة البلاد بحجة أن مصر أكبر من أن يحكمها تيار واحد. سبحان الله،كانت مصر ومنذ أقل من عام محكومة برجل واحد وبحزب واحد ولم يشارك الشعب ولا مرة في اختيارهم، ولما سنحت الفرصة جاء من يحرم أصحاب الحق حقوقهم، رعاية لحلفاء في الخارج أو أصدقاء خارج الحدود لا تعنيهم إلا مصالحهم، وهم أول من يفرط في حلفائهم إذا الشعب يوما أراد الحياة.

التصريحات المشينة والمعيبة التى صدرت من بعض أعضاء المجلس العسكرى سببت التباسا وارتباكا في المشهد المصري أشاع جوا من الشك وقَوَّى ظنون المواطن حول ما يقال عن المجلس العسكرى وحرصه على تنفيذ وصية الأمريكان بالبقاء في السلطة وعدم تسليمها للإسلاميين.

تصريحات الداخل كان قد سبقها تصريحات في الخارج من أحد رجال الأعمال المثيرين للجدل والفتنة معا طالب فيها أمريكا بالتدخل لمنع الإسلاميين من الوصول إلى السلطة.

على الخط ذاته صدرت تصريحات في تل أبيب وأمريكا أيضا وبشكل متواز تتحدث عن ضرورة إبعاد الإسلاميين حتى لو فازوا في السباق الديمقراطي الذى شهد به وشهد له العالم كله.

بعد سقوط محاولات الجمل البائسة للالتفاف على إرادة الشعب وبعدها سقطت أيضا محاولات السلمى، والرجلان جاء بهما المجلس العسكرى طلع علينا بعدها ببدعة جديدة أطلق عليها المجلس الاستشارى والناس لا تعرف حتى الآن وظيفته؟ وما هو دوره وما طبيعة العلاقة بينه وبين مجلس الشعب المنتخب، صحيح أنه يضم شخصيات محترمة، لكنه أيضا يضم آخرين ولاؤهم ليس لمصر، بعضهم متهم في قضايا تتصل بالأمن القومى المصرى ومع ذلك اختاره العسكر ضمن مجلسهم الاستشارى.

الأمر محير ومربك، والهدف ليس واضحا والمجلس العسكرى مع كل يوم يفقد مساحة جديدة من الوجدان المصري، وبدأ المواطن العادى بفطرته يتوجس منهم خيفة ويشعر بشئ من سوء النية المبيتة. بعض أصحاب الياقات المنشاة ورابطة العنق آخر موديل ومعهم بعض اللواءات من أعضاء المجلس العسكرى يتعاملون مع الإسلاميين على أنهم مستوطنون جاءوا من إسرائيل أو كائنات غريبة هبطت علينا من العالم الآخر؟.

القنوات الفضائية تبدى وتعيد وبطريقة تشبه الإسهال في الحديث عن نية الإسلاميين في الإقصاء والضغط والطرد والإكراه، ويجتهد السادة الضيوف في التلبيس والتدليس عن التمييز ضد المرأة والأقباط وكأن هذا الشعب المصري لا يعرف المواطنة ولم يتعايش معا نصارى ومسلمين ولمدة عشرة قرون من قبل.

الفيديو الفضيحة الذى نشرته القوات المسلحة وأظهر بعض المتظاهرين وهم يحرقون المبانى والمؤسسات العامة ويخربونها، هؤلاء ليسوا منا ولا نحن منهم، وهم يرتكبون جريمة تشوه وجه مصر الحضارى ويجب أن يعرف الشعب من هم....؟ ومن وراءهم..؟ كما يجب إحالتهم إلى محكمة الجنايات فورا.

والفيديو الآخر الذى أظهر بعض الجنود وهم يضربون إحدى النساء يشكل هو الآخر فضيحة في جبين مصر، وهؤلاء أيضا قد ارتكبوا جريمة عار كبرى تتصل بشرف

مصر وتشوه صورتها ويجب التحقيق فيها فورا وأن يحال مرتكبوها إلى محكمة عسكرية وتعرض نتائجها على الشعب ليستريح.

أما الشهداء الذين سقطوا بالرصاص الحي، والجرحى الذين تأذوا في تلك الموقعة فقضيتهم قضية وطن بكامله،ويجب أن يكون التحقيق على مرأى ومسمع من الرأي العام أولا بأول، وأن يعرف القتلة،وأن يقدموا لمحاكمات عادلة حتى لا تتكرر المأساة ويعرف الجميع أن مصر تغيرت وأنه لا حصانة لأحد مهما كان موقعه.

الوطن كله في حاجة إلى رد الاعتبار من كل الأطراف وفي مقدمتهم المجلس العسكرى لتظل ثورة مصر نموذجا لإنسان الحضارة.

المجلس العسكرى مطالب أيضا أن يصم أذنيه عن نصائح الجارة البغيضة، وألا يصغي أيضا لإملاءات أبناء العم سام، والتصريح الأخير لنائب وزير الدفاع ونفيه المطلق لحدوث عنف من جهة الجيش ووصفه ذلك بأنه أكذوبة، هذا النفى يفقد المجلس العسكرى صفة المصداقية؛ لأنه يتنافى مع كل ما يتداول في العالم اليوم من صور مسجلة، وحديثه عن جهات تريد تدمير مصر وبشكل ممنهج يزيد الطين بلة ولا يشفى الغليل، فمن هى هذه الجهات؟ ولماذا لا تقدم للمحاكمة وبشكل عاجل...؟.

الطريق الصحيح لبقاء مصر حرة مستقلة هو الكف عن محاولات الإعاقة الديموقراطية والإسراع في التحول الديمقراطي وقطع الطريق على أذناب النظام المخلوع في الداخل والخارج. وعلى الذين يعيشون أسرى للماضى البغيض أن يستفيقوا، فمصر قد تغيرت ومبارك قد ولى وراح.

فيا أعضاء المجلس العسكرى حقوق الشعوب لا تسقط بالتقادم، فلا تضربوا المصريين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقهم الديمقراطى فتكفروهم بوطنهم، واعلم أيها المشير ومن معك أن من تضربوهم اليوم هم آباء وأمهات وأبناء وبنات وأهل جيشك جنودا وضباطا، فحذار من التجاوز، فتحت الرماد اللهيب ومن يزرع الشوك يجنى الجراح.

الخسارة فادحة (*)

من شروط البحث العلمى أن يتجرد الباحث من عواطفه الخاصة ليكون حكمه على الحالة أو الظاهرة موضوع البحث صحيحا مستقيما ومطابقا لمقتضيات البحث العلمى. ولقد حاولت أن أتحرى الحقيقة وأن أبحث عن التفاصيل في مصاب الوطن يوم أحداث مجلس الوزراء ذلك اليوم الدامى الذى جُرِحَ فيه قلب الوطن وبأيدى أبنائه، لكنى إنسانيا لم أنجح في الفصل بين الأمرين، ولم أستطع أن أفصل مشاعرى كإنسان عن مهنيتى كباحث، فالصور التى نقلت عبر فضائيات العالم لم تظهر جريمة فقط بقدر ما أظهرت وطنا ينتحر، فالفتاة التى سحلت هى بنت مصر، والجنود الذين سحلوها هم أبناء مصر، وبصرف النظر عن التحليلات التى تناولت الاستفزازات والبحث عن مبررات، إلا أن مصاب مصر كبير وجلل، وخسارتها فادحة، والفضيحة لاكتها عيون وألسنة العالم، وتحدث عنها هنا في استراليا كما في العالم كله سياسيون ووزراء كانت عيوننا تتحاشاهم وهم ينظرون إلينا، كما كنا نتجنب الحوار معهم ونحاول الهروب منه خجلا وعجزا.

مندبة الفضائيات تولت البواكى المستأجرة تأجيج نيرانها بصب الزيت على النار وتكرار الحدث بالصوت والصورة في مقصد لإيذاء المشاعر وجرح النفوس، وكأنه لا يجوز لنا كمشاهدين ألا نرى إلا تلك الصورة الكريهة عن بلادنا.

قسوة المشهد السادي التى رآها العالم ونقلتها كل الكاميرات وقدمها وبالمجان أولئك الذين فعلوها في ميدان التحرير جعلت البعض يطنطن في محاولة لتشويه صورة مصر تاريخا وخلقا وحضارة بأنها فضحت كل مخبوء وكشفت نوايا المجلس وارتباطه فكرا وثقافة وممارسة بنفس منهج الاستبداد في نظام المخلوع ويحاول البعض أن يبحث لها عن مبرر. حرق المجمع العلمى بغير شك هو الآخر يشكل جريمة علمية وتاريخية، ولكنها لا ترتفع لمستوى حرق الكرامة لمواطنة أمام جيش بلادها وبأيدى من يفترض فيهم حمايتها.

ضياع الكتب التى احترقت خسارة كبرى ولا شك، ولكن لا خير في كتاب لا يهذب أصحابه ولا خير في وطن يهين أبناءه.

في تصورى أن الفعل اللا أخلاقى الذي حدث يشكل حماقة كبرى كونت بعناصرها الثلاثة في الصوت والصورة وتكرار المشهد المسيئ لأكثر من شخص، كونت القاتل

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٩ - ١٢ - ٢٠١١م

الإعلامى لكل تجليات الأخلاق والتحضر التى ظهرت في ثورة ٢٥ يناير وتحدث عنها رؤساء العالم وطالبوا شعوبهم أن يتعلموا منها، وكأن قدرنا أن نعيش حالة الاستلاب الحضارى وبشكل دائم ولا يجوز أن يكون لنا ما نعتز ونفخر ونرفع به رؤسنا كمصريين.

تصرفات العسكر في الأحداث الأخيرة نزعت عن جيش مصر ما كنا نعتز به، فقد كان قبل الأحداث الأخيرة واحدا من خمس جيوش في العالم تتحلى بأعلى درجات الأخلاق القتالية والانضباط.

النائحة في المندبة ومعها ضيوفها تحرص على أن تذكرنا في مصر بممارسات البوليس الحربى أيام حمزة البسيونى وصلاح نصر وجمال سالم واقتحام قرية كمشيش، لذلك علي المجلس أن يتطهر من أفكاره، وأن يغتسل من ممارساته سبع مرات إحداهن بإعلان التوبة على رؤوس الأشهاد، وأن يبرأ إلي الله من علاقته بالرئيس المخلوع، وأن يعتذر للشعب المصري عن الفضيحة التى شوهت وجه مصر.

التصرفات المخزية تمنح العدو الإسرائيلي مبررات حرب الإبادة وانتهاك الحقوق التى يمارسها ضد الشعب الفلسطيني وتسكت كل أصوات العرب في الاعتراض على ممارساته. الكل يجمع بأنه كانت هناك فرصة سانحة ليدخل المجلس العسكرى التاريخ من أجمل وأوسع أبوابه، لكن بعض المحللين يقولون بأنه ضيعها بتباطئه وتواطئه.

بتباطئه في الاستجابة لمطالب الثوار في التغيير وسرعة محاكمات من أفسدوا مصر ونهبوا خيراتها وأذلوا شعبها.

وتواطئه مع من قتل الثوار وأصاب بقناصته بعضهم بعاهات مستديمة ولا زال الفاعل مجهولا.

الرجال الذين يتحدثون باسمه يتعاملون مع الناس على أنهم تلاميذ في الروضة وهذا أمر معيب؛ لأنه يُظهر جيش مصر في صورة العاجز المستبد الذى لا يستند إلا لبطش جنوده وقدرتهم على القمع والترويع.

من هنا تكون الأولوية لتضميد الجراح وسد الفتق الذي حدث وبالسرعة الممكنة

الشعب يريد أن يري صور الجناة في قفص الاتهام وأمام النيابة والقضاء، ويريد أن يعرف الطرف المندس من هو؟.

تعليق كل مصيبة على شماعة ما أطلق عليه اسم الفلول أو اللهو الخفى ستظل تخلق بلبلة وتوحى بسوء الظن وتقوى كل عوامل الشك وتجعل لإشاعات اللهو الخفى محلا من القبول لدى الناس عامتهم وخاصتهم.

اللهو الخفى تصدر منه إشارات وإشاعات بأن المجلس العسكرى هم رجال مبارك وأن ولاءهم له وأنه هو الذي جاء بهم ومكن لهم، ولا يمكن أن يفرطوا فيه.

اللهو الخفي يدعى أيضا بأن المجلس يماطل ويتباطأ ويحاول تجفيف منابع الثورة حتى لا تفتح ملفات قديمة تسيئ لبعض رجاله وتنزع عنهم صفة الحيادية.

يقال أيضا بأن اللهو الخفى فعلا ساهم خلال المدة الأخيرة في خروج ٩ مليار دولار من مصر المنهوبة؟

هنالك أسئلة كثيرة حول اللهو الخفي تتطلب إجابات صريحة وحاسمة فهل يجيب المجلس العسكرى ويشفى غليل المواطن المصرى ويطمئنه على بلده وثورته؟

الشعب يحتاج الى إعادة الشعور بأن قواته المسلحة لازالت له، وأنها منحازة إليه وليست حامية لنظام المخلوع ولا متواطئة مع فلوله المخربة،

الأفعال وليس الأقوال هى التى تثبت ذلك وعلى الكبار أن يتصرفوا.

أهالى الشهداء والجرحى يحتاجون إلى لمسات إنسانية تتضمن تكريما للشهداء، وتضميدا لجراح أهليهم ومداواة لجراح الثوار الذين ضحوا من أجل حرية الوطن.

في داخل مصر أقامت فضائيات رأس المال المشبوه للحدث مأدبة ومندبة يأكل عليها أولئك الذين يريدون إسقاط المهابة لجيش خاض المعارك من أجل مصر وقدم التضحيات من أجل كرامتها ورفع بين أمم الارض رأسها وأعلامها، وانتزع باقتدار وتفوق وجسارة شهادة التقديرفي التضحية والبطولة والعزة حتى من ألسنة أعدائه.

مصر اليوم في حاجة لتضميد جراحها ولم شمل أبنائها وجمع لحمتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وقبل ذلك وبعده لحمتها الإنسانية وهى التى قامت من أجلها ثورة ٢٥ يناير.

أيها السادة الجنرالات: لا خير فينا إن لم نقلها صريحة وعلنية، ولا خير فيكم إن لم تفعلوا، فتصرفوا بسرعة من أجل مصر، وتجنبوا الحروق التى تدمى جسد المواطن، والخروق التى تغرق سفينة الوطن.

عيون على الوطن (*)

المصرى مهما تباعدت به المسافات وتناءت به الديار فإنه يحمل هموم وطنه حيثما حل، وإذا سافرت ومعك الوطن فأنت مقيم لم تبرح.

بالأمس كنت فى سفر وعدت فى ساعة متأخرة من الليل ولم استطع النوم قبل أن أعرف سير الانتخابات فى مصرالمحروسة.

بر مصر كما كان يطلق عليه قديما بعض المؤرخين عاش يومه إقبالا على أداء واجبه الانتخابى، كما عاش ليلته انتظارا لنهار جديد قادم.

الفضائيات والإذاعات والصحف والإنترنت والفيسبوك كلها تابعت الحدث العظيم وأشادت بما تم،

التجاوزات البسيطة فى الإجراءت الشكلية لا تمثل خروقا فى جوهر العملية الانتخابية بقدر ما تمثل استثناءات ضرورية فرضتها الظروف فى بعض اللجان كتنازل أحد المرشحين عن الترشيح وسحب أوراق ترشيحه، أو تأخر رؤساء بعض اللجان عن الوصول فى الموعد المحدد مما أخر البدء فى عمل اللجنة ساعة أو بعض ساعة.

المنظمات الدولية أشادت بحجم الشفافية وبوعى الشعب فى ممارسة حقه الديموقراطى

غير أن بعض الفضائيات التى تمددت فى الساحة الثقافية وبالمال الطائفى حاولت قدر طاقتها أن تصور التيار الإسلامى كبديل عن الحزب الوطنى فى محاولة لتشويه صورته، المحاولة اتسمت بالسذاجة وعدم المصداقية وكانت مكشوفة يستطيع المشاهد ببساطة أن يكتشفها وأن يعرف مغزاها ببساطة.

الفزاعة القديمة "فزاعة الخوف من الإسلاميين" أعيد تشغيلها بموظفين جدد لهم لسان طويل، ولكن ليست لهم كفاءة المحترفين فى التخويف والتزوير وتزويق القول، ولعل وعى الثورة ساعد على كشف بدائية الأدوات وعدة النصب المستعملة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠١ – ١٢ – ٢٠١١م

وصل الجنون بأحد رجال المال الطائفى إلى أن شن هجوما على الإسلاميين من داخل أمريكا وادعى أنه لن يسمح لهم بتحقيق انتصارات فى الانتخابات الحالية، تصريحات رجل الأعمال المعروف بتعصبه وصلته ببعض الرموز المتطرفة من قيادات أقباط مصر سببت غضبا كبيرا فى أوساط المصريين جميعا مسلمين ومسيحيين معا

الليبرالى المعروف بطائفيته يتحدث عادة بلكنة أبناء الشوارع وقد تطوع بالهجوم على العلامة القرضاوى مدعيا أنه أفتى بتحريم انتخاب المسيحيين فى مصر، علما بأن الأمر عكس ذلك تماما

الكائن الناطق فى أمريكا والذى إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث يستمد قوته عادة من التلويح بدفتر الشيكات كلما تحدث، وحديثه دائما يشكل عورة ثقافية تهبط بصاحبه وتنزع عنه صفة المثقف

الفضائيات والصحف المموله منه تسير على نفس النهج وتصور إقبال الناخبين ورغبتهم فى أداء واجبهم الانتخابى على أنه نوع من الحشد وراءه قوى إسلامية لها قدرة على الحشد والتنظيم ولديها طاقة مالية ضخمة تستطيع بها أن تستأثر بالتأثير على الساحة المصرية.

على نفس القناه استضافت مذيعة أخرى عبر الهاتف المسئول الإعلامى لحزب العدالة والحرية د. ياسر وتحدث الرجل بعقلانية عالية الأداء والكفاءة والمنطقية وقدم العزاء لأسر الشهداء وقال لولا تضحياتهم ما وصلت مصر لهذه المرحلة من الحرية، وقال إننا نقبل بأى اعتراض قانونى ونحترم أى قرار يصدر فى ذلك المجال لكن كان هنالك فى الاستوديو ناشط سياسى وحقوقى غاضب رفض تقديم العزاء واتهم الإسلاميين بخيانة من كانوا فى ميدان التحرير الناشط المذكور عجز عن تقديم دليل قانونى لما ادعى أنها مخالفات قانونية شابت عمليات الانتخابات وقال بإنها مخالفات أخلاقية وليست قانونية. المرء يعجب من هذا الكم الهائل من الكراهية لكل ما هو إسلامى من قبل العلمانيين والليبراليين فهم يفضلون أن يحكم مصر قانون نابليون بونابرت ولا تحكم مصر بفكر وفقه الإمام الشافعى أو الليث بن سعد الفقيه المصرى المعروف.

عشاق التلوث.. وجرثومة الاستبداد (*)

مصيبة الاستبداد الذى انكوت الشعوب بناره وانطوت وانزوت البلاد مغلقة تحت تأثيره أنه خلق نمطًا من التفكير لدى بعض من عاشوه وساهموا فيه أن السلطة قادرة على كل شىء، بداية من تزوير الانتخابات، وانتهاء بصناعة الزعيم وتزوير التاريخ.

أصحاب هذا التفكير يحتاجون إلى إعادة تأهيل تعلمهم أن الثورات كالطوفان تغسل الأرض من أدرانها وتعيد تشكيل جغرافيتها من جديد ولا تسمح للنباتات الضارة بمكان لها على سطح الأرض الجديدة.

المشهد المتأزم اليوم بين كل التيارات السياسية، والذى وصلت درجة الاحتقان فيه إلى الالتهاب، وتطاير شرره من قبل فى أحداث ماسبيرو، ومحمد محمود ١،٢، ومجلس الوزراء وما يسمى بموقعة الجمل الثانية فى العباسية يدفعنا إلى استدعاء مجموعة من الحقائق أشرنا إليها من قبل، ولكن تكرار المشهد والأحداث وبذات السيناريو يوجب استحضارها فى الذهن، والتذكير بها إن كان البعض قد أصابه الزهايمر السياسى وأغراه الموقع وتحصن بمشروعية وجوده فى مجلس الشعب أو اللجنة العليا للانتخابات أو كرسى إدارة البلاد فى المرحلة الانتقالية، وهذه الحقائق هى:

أن جيش مصر وشعب مصر مزيج متحد فى خلاياه ونسيجه العام، ولا يستطيع أحد أن يفصل تلك الخلايا أو يمزق ذلك النسيج الحى وبخاصة بعد ثورة ٢٥ يناير.

إن إقحام جيش مصر فى إهانة شعبه جريمة أخلاقية تمنح فرصة مجانية فى داخل مصر وخارجها لجهات مشبوهة تتطاول وتريد إسقاط مهابة مصر وجيشها، وهو الذى خاض المعارك من أجل مصر وقدم التضحيات من أجل كرامتها ورفع بين أمم الأرض رأسها وأعلامها، وانتزع باقتدار وتفوق وجسارة شهادة التقدير فى التضحية والبطولة والعزة حتى من ألسنة أعدائه.

إن المجلس العسكرى ليس هو الجيش المصرى، وإن كان يمثله فى قيادة البلاد خلال المرحلة الانتقالية، فالجيش المصرى هو جيش مصر ورجاله هم أبناء الفلاح والعامل والموظف والمهندس والطبيب والسياسى وإمام المسجد وكاهن الكنيسة، جيش مصر هو

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٩ – ٠٥ – ٢٠١٢م

أبناء هؤلاء جميعًا وولائه حتى تحت الانضباط العسكرى ليس لأشخاص وإنما للوطن، وإذا استشعر يومًا أن أحدا يعبث بمصير مصر فسيكون أول من يتصدى له مهما علا كعبه.

الدعوة لاقتحام مقر وزارة الدفاع إن كانت قد حدثت وليس التظاهر أو حتى الاعتصام تشكل بغير شك جريمة، ولكنها لا ترتفع لمستوى استباحة دماء شباب مصر واستباحة كرامتهم بأيدى فصيل من جيش بلادهم الذين يفترض فيه حمايتهم.

التظاهر أمام وزارة الدفاع كالتظاهر أمام وزارة القوى العاملة، أو وزارة الزراعة، أو وزارة الشئون الاجتماعية لا فرق، فكلها أماكن مصرية وكلها ملك للمصريين، والقول بأنه انتهاك لسيادة المكان عبث لا معنى له، لأنه تكريس لا لطبقية البزة الميرى على غيرها فقط،، وإنما هو تكريس أيضًا لطبقية المكان وإضفاء نوع من القدسية المزيفة على بعض الأماكن، لا باعتبار ذاتها، وإنما باعتبار القاطنين فيها، والسؤال الأولى بالإجابة والعناية هو: لماذا اقتحم الجنود مسجد النور بالعباسية وهم يرتدون البيادة العسكرية؟ وكيف جرؤ الجنود على ذلك؟ ومن أعطاهم ذلك الأمر المنكر باقتحام أقدس الأماكن حقيقة على الأرض والقبض على المصلين فيه؟

فى تصورى أن الفعل اللا أخلاقى الذى حدث وتكرر يشكل حماقة كبرى كونت بعناصرها الثلاثة فى الصوت والصورة وتكرار المشهد المسىء فى ماسبيرو ومحمد محمود ١، ٢ ومجلس الوزراء وموقعة الجمل الثانية فى العباسية، تكرار الحدث المسىء كون القاتل الإعلامى الحقيقى لكل تجليات الفعل الأخلاقى والتحضر، الذى ظهر فى ثورة ٢٥ يناير وتحدث عنه رؤساء العالم وطالبوا شعوبهم بأن يتعلموا منه، وكأن قدرنا أن نعيش حالة الاستلاب الحضارى وبشكل دائم، ولا يجوز أن يكون لنا ما نعتز ونفخر ونرفع به رءوسنا كمصريين.

المشهد فى العباسية وقبلها فى محمد محمود وزوار الفجر الذين بدأوا يعودون بعد منتصف الليل يذكرنا فى مصر بممارسات البوليس الحربى أيام حمزة البسيونى وصلاح نصر وجمال سالم واقتحام قرية كمشيش، وتصرفات المجلس تخلق البيئة التى تساعد على تصديق ذلك.

كل المصريين يكنون لجيشهم كل التقدير، لكن رقصات الجنود بعد فض اعتصام العباسية ولدت لدى الناس سوء الظن والتوجس، والشك فى الثوابت الثقافية لديه تجاه جيشه وقواته المسلحة، ومن أكبر الكوارث أن يفقد الشعب ثقته فى جيشه، ومن أكبر الكبائر أيضًا أن يكون الجيش هو المسئول عن هذه الحالة، ومن ثم يجب بسرعة أن تسترد القوات المسلحة مكانتها فى قلوب المصريين.

التصرفات المخزية تمنح العدو الإسرائيلى مبررات حرب الإبادة وانتهاك الحقوق التى يمارسها ضد الشعب الفلسطينى، وتسكت كل أصوات العرب فى الاعتراض على ممارساته.

على الجميع أن يعلم أن شعب مصر كسر حاجز الخوف وانتصر على الخطة رقم (١٠٠) التى أعدها حبيب العادلى ليقمع بها أى تمرد أو اعتراض على توريث جمال مبارك، واستطاع هذا الشعب بثورته السلمية أن يجمع رءوس الفلول فى سجن طره، وعقارب الساعة لا تعود إلى الوراء أبدًا، ولن تعود مصر لما قبل الثورة، والشعب والجيش قادر على سحق كل الرءوس التى تتآمر عليه إذا تيقن من ذلك، فحذار أن تغضبوه.

بعض الجنرالات عليهم أن يعلموا وأن يدركوا أنه من المستحيل أن يعود زكريا عزمى وحبيب العادلى وأنس الفقى مرة أخرى.

زيارة المشير للجندى المصاب من أفراد القوات الخاصة فى أحداث العباسية كشفت جانبًا من غموض اللهو الخفى حيث ظهر الجندى بلحية طويلة، بينما لا تسمح العسكرية المصرية لجنديها بتربية لحاهم، فماذا يعنى ذلك...؟ وهل دفعت أجهزة الأمن ببعض الجنود إلى ميدان العباسية وموهت بتربية لحاهم حتى يتمكنوا من شيطنة المتظاهرين سلميا ويتحقق المطلوب...؟

وهل يتصور العسكر أن شعب مصر قابل للاستغلال أو للاستغفال مرة أخرى...؟

أعرف أن هندسة الرأى العام يمكن أن تخدع بعض الناس عن طريق الصحف والفضائيات، لكن شيئًا جديدًا طرأ على خريطة الرأى العام المصرى بعد ثورة ٢٥ يناير، وهو عدم الرغبة فى تصديق الإعلام صحفًا وفضائيات، بل الشك فيما يتداوله فضائيات بعينها وصحف بذاتها، يصفها بأنها فضائيات الفلول الممولة بالمال الحرام.

الشعب الآن لديه خريطة وعى جديدة تستعصى على الخداع والتمويه، ومصادرة فى الحصول على الحقيقة أضحت متعددة، وقد انفكت قبضة النظم فى السيطرة على المعلومة، ولم يعد احتكار الخبر مجديًا فى وقف انتشاره أو وقف زحف العقول فى التعرف عليه وكشف جوانب الخداع والتدليس فيه بسهولة، وما كذبة عمرو عبد السميع فى مضاجعة الوداع عن الناس ببعيدة.

الشعب يحتاج إلى إعادة الشعور بأن قواته المسلحة مازالت له، وأنها منحازة إليه وليست حامية لنظام المخلوع ولا متواطئة مع فلوله المخربة.

مصر اليوم فى حاجة لتضميد جراحها ولم شمل أبنائها وجمع لحمتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وقبل ذلك وبعده لحمتها الإنسانية، وهى التى قامت من أجلها ثورة ٢٥ يناير.

عامل الزمن مهم فى استعادة ثقة الشعب فى جيشه، ولذلك فمن المهم سرعة التصرف والتعامل بإحساس كامل بالمسئولية وعلى الجهاز الحاكم أن يدرك حساسية المرحلة وحاجة الشعب إلى رسالة تطمين واستعادة الثقة.

من هنا تكون الأولوية لتضميد الجراح وسد الفتق الذى حدث وبالسرعة الممكنة، فالدنيا تغيرت يا سادة فغيروا من نمط تفكيركم وإلا تجاوزكم الزمن وتخطاكم بسرعة تطوره، الذى يجرى بها وهى سرعة مذهلة ولا تنتظر أحدا لتستأذن منه.

حين نصنع الحُطَيْئَةَ.. فنحن نصنع الخَطِيئةَ (*)

صناعة الحُطَيْئة تعنى صناعة الخَطِيئة، مبدأ فى الضبط الاجتماعى أسوقه على مسئوليتى الخاصة وأتحمل كل تبعاته.

والحطَيْئة لمَن يعرفونه ومَن لا يعرفونه، هو من فحول الشعراء أَسلم فى عهد أبى بكر الصدّيق واسمه جرول بن أوس بن مالك العَبسى، وبين الحطَيئة والخَطِيئة مجرد نقطة على حرف، و الحُطَيْئة كان هَجَّاءً، لم يسلم من هجائه أحد، فقد هجا أهله وهجا أمه وعندما خلت جعبته من خَصم يهجوه نظر فى المرآة، فرأى نفسه على حقيقتها، فهجا نفسه قائلاً:

أبت شفتاىَ اليومَ إلا تكلُّمًا بِشَرٍّ   فما أدرِى لِمَن أنا قائلهْ

أرَى لِىَ اليومَ وجهاً قبّحَ اللهُ شكلَه   فقُبّحَ مِن وجهٍ وقُبّحَ حامِلُهْ

سلوك الحطَيئة فى استعمال موهبته يدل على انحراف نفسى من الصعب تقويمه؛ فالرجل يريد أن يكون موضع اهتمام الآخرين وفى قلب بؤرة الأحداث ولو بمصيبة يقذف فيها بشَرّه وأذاه على الآخرين، هذا السلوك هنا يُدرج فى باب المرض النفسى أكثر منه فى باب الأدب، وكثيرون هم أولئك الذين يحملون نفسية الحُطَيْئة، وإن غطوها ببَذلةٍ آخر "موديل"، ورابطة عُنق من نوع أنيق!

والواقعة الأخيرة التى تحظى بتغطية إعلامية كبيرة لعضو مجلس الشعب الذى أساء لرمزين، هما: الشيخ محمد حسان، والمشير طنطاوى، إذا أُضيفت لمواقف أخرى وممارسات شبيهة قام بها بعض الشباب تعكس أزمتين خطيرتين، إحداهما أزمة أخلاقية والأخرى أزمة قِيَمية.

الأولى تشير إلى تفكيك منظومة الأخلاق فى الأسرة المصرية، وكيف أثَّر الاستبداد سلبًا، وساعد على تفكيك تلك المنظومة، فقد كان البيت المصرى بمختلف مستوياته الاجتماعية تحكمه قيم أخلاقية، تقف بكل أعضاء الأسرة فيه عند حدود الأدب ولا

(*) نُشر في صحيفة "المصريون"، يوم ٢٣ - ٠٢ - ٢٠١٢م

تعرف التجاوز، وعُلو الصوت على الكبير، وإذا حدث ذلك ولو كان مع أخ شقيق فهو يشكل شذوذًا ونشازًا يُثْبت قاعدة الأدب العامة المتعارف عليها ولا ينفيها.

وللكبير فى العائلة المصرية مكانتُه ولو كان مسيئًا، والعُرف العام حاكم فى تلك القضية، وينظر بعيون الاستهجان واللوم لكل مَن يتجاوزها، والمتجاوز فى حق الكبير يطلقون عليه لقب "عاق".

أما الأزمة الأخرى فهى تتصل بمجموعة القيم التى تَنَحَّتْ فى مجتمعاتنا على مدار ٣٠ سنة وسادت مكانَها قِيمٌ أخرى فى عصر الرئيس المخلوع.

بالتأكيد المشير طنطاوى ليس معصومًا، وكذلك المجلس العسكرى قد وجَّه له كثيرون كثيرًا من الانتقادات اللاذعة، ومنهم كاتب هذه السطور، غير أن النقد لا يعنى التجاوز ولا السخرية ولا النيل من رمز الدولة، ولا سقوط مهابة الجيش الذى نُكنُّ له جميعًا كل التقدير والحب.

منظومة القيم الإيجابية التى تَنَحَّتْ وحل محلها قيم أخرى سلبية، كانت تتضمن الإيثار والمحبة والرحمة والأُخوَّة والشعور بالآخرين واحترام الأكبر سنًّا، وإجلال أهل العلم ورعاية الضعفاء والعطف على الفقراء وذوى الحاجات، وغير ذلك من القيم التى تنفع الناس وترقّق الوجدان العام وتستبقى فى البشر إنسانيتهم، مهما كان طغيان الحياة المادية، بينما حلَّت محلَّها الأَثَرَة والأنانية وعشق الذات وجنون العظمة وشهوة الظهور والشهرة.

وعندما تخلو ساحات الحياة من القيم الإيجابية ينقلب كل شىء رأسًا على عقب، ويتحول الشأن العام هنا إلى كَلأ مباح يغيب فيه أهل الاختصاص، بينما يتحدث الرُّوَيْبِضة فى أعقد القضايا وأكثرها تشابكًا وتداخلاً وإن لم يدرِ شيئًا.

عشق الظهور وشهوة التصدُّر والرغبة الجامحة فى أن يكون الإنسان تحت الضوء دائمًا، وفى بؤرة الشعور بشكل مستمر، وموضع حديث العامة والخاصة تتحول إلى مرض عند أغلب الناس ما لم تتداركْهم رحمة الله، وقد يستفحل هذا المرض فيجعل صاحبه مجازفًا فى سبيل الشهرة بكل شىء، فهو يريد أن يكون فى بؤرة الاهتمام ولو بمصيبة!، وقد يتحول عاشق الظهور والشهرة إلى حُطَيْئَة هجاء من نوع جديد.

وإذا كنتُ قد طالبت كما طالب غيرى بضرورة إعادة هيكلة الإعلام؛ فلأنه يمارس دوره فى استمرار الثرثرة واللغط وإثارة الفتن، ويعمل بفوضى متعمدة ناشئة بسبب غياب المنظومة الاجتماعية التى يُفترض فيها ضبط المسار العام، واحترام العقل والكِيان الإنسانى وحماية الفكر من توغّل رأس المال وسيطرته على أقلام الكُتاب وتوجيهه لهم، بالإضافة إلى غياب الإطار القانونى العام أو السقف الاجتماعى الذى يحدد بوضوح حق الكاتب والمواطن فى التعبير عن رأيه بعيدًا عن الإسفاف والسباب والشتم، ويحميه من جور أصحاب النفوذ والسلطان الذين يملِكون المال والقوة، ولا يملكون معهما الضمير والخلق.

وهذه إحدى سَوءات رأس المال غير الشريف، حين يتمدد فى المساحات الثقافية والفكرية مستعينًا بزواجه مع السلطة ونفوذه فى السيطرة على المؤسسات الإعلامية وصياغة الرأى العام.

يلاحظ فى المشهد العام أن أصحاب الخبرة المتواضعة هم الأعلى صوتًا والأكثر ضجيجًا، وأن حجم الغرور الجامح لدى بعضهم لا يعكس حجم عطائهم الوطنى، كما أنه ينفى عن صاحبه صفة الثائر من أجل شعبه.

بعضهم أيضًا يتعامل مع الأكبر سنًّا وربما الأعظم قدرًا ومكانة بكثير من الاستخفاف والاستهتار، ودلالهم بموضوع الثورة ولقب "ثائر" دلال المنَّان الذى يُتْبِعُ صدقاته بالمنّ والأذى، ويلاحق الآخرين وكأنه هو وحده صانع الثورة والتغيير، بينما كان الشعب المصرى كلُّه يغلق عليه بابه، ولا يشارك فى الأحداث.

تصرفات بعض مَن يطلقون على أنفسهم لقب "ثائر" تُحْدِثُ ما أسميه "الاستفزاز الثقافى" والتحرش الوطنى، وتساهم فى رفع ضغط دم المشاهد وتسبب له شيئًا من القرف الاجتماعى، تجعله يزهد حتى فى متابعة المشهد السخيف الذى يعزلنا عن قيم ديننا وأخلاقنا كمصريين.

مواقف هؤلاء بالإضافة إلى موقف النائب المحترم الذى سَبّ المشير، نتفق معه أو نختلف، وتناول الشيخ محمد حسان بما لا يليق، جعلت ذاكرتى تستدعى مرة أخرى مقولة الأديب الكبير عباس محمود العقّاد حين قال: "لما جاءت الديموقراطية أساء بعض الناس فَهمها، كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين، فظنوا أن حرية الصغير تجعله فى

صف الكبير، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية، وأن الثورة على كل مستبد معناها الثورة على كل عظيم، حتى فشَت فى الناس بدعة الاستخفاف والزِّراية، وأوشك التوقير لمَن يستحق التوقير أن يُعاب، ومن ثَم كان العظماء فى حاجة إلى ما يسمى برد الاعتبار فى لغة القانون".

بالتأكيد نحن جميعًا نتفق على أن الصدْع بكلمة الحق يمثل فعلاً إيجابيًّا، يرقّى الحياة ويحمى الحقوق ومن ثَم يستفيد به ويستفيد منه المجتمع والناس، وهذا هو معنى الحديث الشريف: "إذا خَشِيَتْ أمتى أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُوُدِّعَ منها"، فنصرة الحق هنا موقف لا يقبل التمييع ولا الحياد البارد، لكن هذا شىء، وسب الناس واتهامهم بلا دليل شىء آخر، ومن ثَم نحن نصنع الخَطِيئةَ حين نصنع الحُطَيْئَةَ.

من دروس العمالقة (*)

عند قراءة عدد الثلاثاء الماضى من جريدتى المفضلة "المصريون"، وقعت عينى على مقال لأخى الكاتب النابه الدكتور محمد العربى عن الشيخ الداعية العابد الزاهد العلامة الشيخ محمد الغزالى، يذكر الناس بقيمته وقامته وعقله الكبير الذى ملأ الدنيا ضوءًا وملأ قلوب مئات الآلاف من المثقفين حرارة وحماسًا.

كاتب المقال لم أشرف بلقائه إلا عبر أريج كلماته التى لا تصدر إلا عن عقل صاف وقلب طاهر، وقلم شريف يعرف كيف يختار موضوعه ليقدم لقرائه علمًا من أعلام الأصالة والفكر الرصين فى القرن العشرين.

المقال أنعش ذاكرتى وأغرانى بالكتابة عن بعض مواقف الشيخ التى لا يعلمها كثير من الناس، لذا أستأذن القارئ أن أضيف باقة أخرى من زهور الفكر على قبر الراحل العظيم، تُذَكِّرُ الناس بفضيلة العدل وإنصاف الغير ولو كانوا خصومًا. وكثير من الرجال لا نعرف قيمتهم وقامتهم ومقامهم إلا بعد أن يغادرونا إلى الطرف الآخر من شاطئ الحياة، ومن هؤلاء، العلامة الشيخ محمد الغزالى، رحمة الله عليه. فى المرحلة الجامعية كنت أراه مدرسة وحده، وكانت كلماته تستهوينى بشدة، ومواقفه تعلمنى الكثير، ولذا كنت أستعيض عن الدراسة بمرافقته فى المكتب، وكان يذهب إلى عمله فى السابعة صباحاً، ويقوم بتوصيله ولده الأكبر المهندس ضياء، وفى مكتبه بالدور الأول فى وزارة الأوقاف، حيث كان مديرًا عامًا للدعوة ينتظره يوميًا شيخ كبير من حفظة القرآن الكريم، يجلس على الكرسى المخصص للشيخ الغزالى، بينما يخلع الشيخ الغزالى جبته وعمامته ويدور فى الغرفة ليتلو جزءًا من القرآن على مسامع ذلك الشيخ المسن.. يتكرر هذا الأمر كل يوم من السابعة حتى الثامنة، ثم ينصرف الرجل، ويبدأ الشيخ فى ممارسة عمله.

كان الشيخ يؤْثِر العودة إلى بيته مشيًا على الأقدام، رغم بعد المسافة من مبنى الوزارة فى باب اللوق إلى بيته فى شارع قمبيز بحى الدقى، رحلة عودته المعتادة كنت أراها مغنمًا أتحدث فيها مع الرجل دون أن يكون لى شريك يشغله عنى.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٥ /٣/ ٢٠١٢م

لم أكن المحب الوحيد للشيخ العظيم من طلاب جامعة الأزهر الشريف، فقد كنا شلة من الشباب ليست لنا خبرة بمعرفة الرجال ولا دراية بمواقفهم ومواقعهم، كل ما نعرفه أن هذا الشيخ الغزالى عالم جليل نتعلم منه ومن مواقفه وآرائه أكثر مما نستفيده من حضور الدراسة فى الجامعة، وكانت عواطفنا وعقولنا تنحاز إليه بشدة، وأحيانًا تتعصب له.

المفكر المعروف الدكتور محمد البهى، وقبل أن يتولى الوزارة، كان مديرًا للثقافة بالأزهر الشريف فى عهد عبد الناصر، وقد حدث خلاف بينه وبين الشيخ الغزالى، أصدر على أثره قرار بمنع الشيخ الغزالى من خطبة الجمعة واعتلاء المنابر، ثم تغير الحال وخرج البهى من الوزارة، وعاد الشيخ الغزالى مرة أخرى للمنابر التى افتقدته واشتاقت إليه، وكانت البداية من مسجد عمرو بن العاص.

أذكر مرة ونحن فى مكتب الشيخ، أننا تطرقنا لموقف الدكتور البهى من شيخنا وكيف جرؤ على منعه من الخطابة، ساعتها كان الشيخ فى مكتب الوزير بالدور العلوى، وأثناء الحوار تطرق أحدنا بلفظ جارح للدكتور البهى، وإذا بالشيخ الغزالى يعود ويدخل علينا وقد التقطت أذناه ذلك اللفظ النابى الذى تفوه به زميلنا، فسألنا الشيخ: عمن تتحدثون يا أولاد؟

فأجاب زميلنا –باستهتار– عن ذلك الفيلسوف المسمى بالبهى، فرد الشيخ بانفعال وغضب، قائلاً: أيها الحمقى، هل أنتم أبناء الأزهر حقًا؟ ما لكم وعظماء الناس؟ ولماذا تخوضون فى قضية لا تعرفون أبعادها؟ الرجل الذى تتناولونه بسخرية واستهتار هو الدكتور البهى من عظماء الناس، وهو عالم جليل، ومن أعظم العقليات العلمية فى العصر الحديث، وهو علم فى عالم الثقافة والمعرفة وملء السمع والبصر، وكان الأولى والأجدر بكم أن تقرأوا له وأن تتعلموا وتستفيدوا من كتاباته، واختفت ابتسامة الشيخ التى كنا نراها . والله . كأنها ابتسامة القمر، وتغير المزاج العام، أما صاحبنا قائل الكلمة فكان يتمتع ببسطة كبيرة فى الجسم، ولكنه تحول أمام غضب الشيخ إلى فأر يبحث لنفسه تحت الأرض عن جحر يختبئ فيه، ومن خلف الشيخ بدأت ملامحه وقسماته والإشارات التى تصدر منه بيديه ورموشه وكأنها تتوسل إلىَّ أن أغير الموضوع حتى لا يستمر غضب الشيخ، ومن خلال خبرتى البسيطة بالشيخ الغزالى أعلم أنه عندما يقول ذلك عن رجل فهذا يعنى أن الرجل من طراز فريد، والتقطْتُ إشارة التوسل

الصادرة من الزميل لأبدأ فى تغيير الموضوع وإنقاذ الزميل المسىء، فسألت الشيخ بسرعة، وكأننى حصلت على كنز: "ماذا نقرأ له يا مولانا..؟" فذكر لنا مجموعة من العناوين، فى مقدمتها كتاب الدكتور البهى"المجتمع الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى".

لكن الدهشة لم تذهب عن وجوهنا، وتساءلنا فى حيرة، أكل هذا الغضب من أجل كلمة قالها طالب محب لشيخه فى شخص هو خصم لذلك الشيخ وقد أساء إليه ومنع علمه عن الناس؟

درْس الشيخ لنا كان حازمًا وحادًا، وبدا عليه الغضب، والمثير فى القصة أن خصومة فكرية كبيرة بين الرجلين فى الماضى، وأن الدكتور البهى كان بعيدًا عن الأضواء، ومع ذلك كان هذا هو رد فعل الشيخ عندما ذكر د.البهى بسوء على لسان أحد تلامذة الغزالى.

فى تصورى المتواضع أن موقف الشيخ الجليل لم يكن مجرد رد لغيبة عالم على لسان بعض الطلاب الصغار، وإنما كان إرساءً لمنهج أخلاقى يقرر العدل، مع الآخر ولو كان خصمًا، ويرد عن أهل الكفاءة، تطاول ونزق واستهتار شباب يقبلون على حياتهم وهم يفتقدون الخبرة الاجتماعية بأقدار الرجال، وفى نفس الوقت يصون حمى العلماء الأجلاء مهما كان اختلافهم معنا أو مواقفهم منا، فما يجوز للأتباع مهما كانت مكانتهم من شيخهم أو قربهم منه أن يتناولوا خصوم شيوخهم بألسنة حداد.

المنهج ذاته يرسى فى نفوس الأتباع ميزان الحق فى التعامل مع الأكبر وهو ميزان يجعل الحق فوق القوة، والعدل فوق الخصومة، والالتزام الأخلاقى فوق المزاج الشخصى، فلا يحيف مع الهوى ولا يجور مع الشنآن.

من دروس الموقف أيضًا، أن اختلاف الكبار لا يبيح للصغار أن يتطاولوا أو يتجاوزوا، ويجب أن تكون مواقفهم صدى خلقى رفيع يعكس أخلاق شيوخهم وعدالتهم وأثرهم فى التربية والذوق وضبط السلوك، وعلى الأتباع أن يعرفوا مكانهم ولا يتجاوزونه، وعلاقتهم بالشيخ لا تخول لهم الطعن فى الآخرين المختلفين معنا فى المنهج الفكرى أو المشرب، وهذا ما أراد العالم الجليل الغزالى أن يلقنه لطلابه المقربين إليه، وأن يعلمهم أن خلاف الرأى لا ينتقص من قدر أهل العلم، وأن الصغير لا يمكن أن يرتفع إلى مكانة الكبير أو مكانه بمجرد السب أو الشتم، وأن المؤمن ليس سبابًا ولا فاحشًا.

الدروس فى حياة العمالقة كثيرة وثرية وسارة فى مشاهدها، وهى تربى بالقدوة قبل الكلمة وبالفعل والسلوك قبل التنظير وتشقيق القول.

تذكرت وأنا أستحضر تلك الذكريات أن شابا صغيرا كان عضوا في مجلس الشعب تحدث عن المشير طنطاوى بحديث لا يليق وأننى كتبت المقال السابق بعنوان حين نصنع الخطيئة فنحن نصنع الخطيئة تعليقا على ذلك ثم تذكرت خلافًا آخر وقع بين شيخين جليلين منذ عدة شهور لكل منهما أتباعه ومريدوه، وفى ال"يوتيوب"، رأيت ما يندى له الجبين تابع لواحد من هؤلاء لا يترك مفرده من مفردات البذاءة فى اللغة الساقطة إلا ويصف بها ذلك العالم الجليل انتقاصًا منه وانتصارًا لشيخه، وحزنت كثيرًا وعلمت ساعتها أن سوء الخلق يحرم أصحابه من ثمرة العلم، ويحولهم إلى مجرد قرص مدمج يحوى داخله ما لا يعيه ولا ينتفع منه، فهل يعى ذلك بعض من يصدعون رءو سنا كل يوم بحديث فارغ عن التزامهم الدينى المزعوم، وبأنهم الطائفة الناجية، وهل يردعهم شيوخهم عن السقوط فى عرض الآخرين؟

أم المصريين.. وأم ريكا (*)

الهموم جمع هم، والغموم جمع غم، وقاكم الله شر الاثنين معًا، ومع انتشار الاثنين، بالإضافة إلى الثالث وهو عموم الإحباط بين جماهير أم المصريين يحتاج المرء إلى استراحة ليستعيد فيها نفسه ويرتب أوراقه المبعثرة، ويجمع فيها شتات ذاكرته، التى تشرذمت بين عزة أم المصريين وكبريائها، وبين صلف أمريكا وغرورها واختراقها لعمق كيان سيادتنا. منذ بداية موقعة بنى جحش التى تسمى بموقعة الجمل زورًا وبهتانًا، حيث كان الجمل فيها ضحية الحمار وأبنائه الجحوش الذين تآمروا وخططوا ودبروا، واستعملوا الجمال والخيول والبغال، ومرورًا بأحداث ماسبيرو، ثم محمد محمود، ومجلس الوزراء، ومذبحة بورسعيد، وانتهاء بفضيحة تهريب المتهمين فى قضية التمويل الخارجى، منذ تلك اللحظة التاريخية العابثة وحتى آخر تلك المخازى يزداد كل يوم قلق أبناء أم المصريين على بلدهم وثورتهم ودماء شهدائهم، وبين ما يراه أبناء أم المصريين من عبث فى الداخل وتربص فى الخارج يعيش المصرى مؤرقًا فى ليله متوترًا فى نهاره.

على مدى عام كامل وأعصاب أبناء أم المصريين مشدودة بين زخم الثورة والخوف عليها، بعض أبناء أم المصريين وهم القلة المنتفعة من فلول النظام السابق يخافون منها أيضًا.

على مدى عام كامل والمشاعر تختلط فيها العزة برجفة الخوف، والفرحة برعشة القلق، والتطلع إلى المستقبل بوعكة الحاضر وعثراته المتعددة.تجمع على المرء كل عوامل الإحباط حين يرى أم المصريين، وقد أضحت ذليلة بعدما أوهمت أولادها بأنها عزيزة، وأنها حرة، وأنها أبدًا لن تفرط فى كرامتها، ولن تسمح لأحد باختراق سيادتها، وكانت تضرب المثل لأولادها دائما بأن الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها. وبين أم المصريين وأم ريكا حكايات وروايات، بعضها مؤلم وبعضها مضحك وبعضها مخز. بعضها تختلط فيه السياسة بالكرامة، والديمقراطية بالتجسس، والاقتصاد بالاستغلال والاستهبال والمعونات بالفتن ما ظهر منها وما بطن.

أم ريكا خبيثة لكنها غنية وقوية، تهتم بأبنائها وتختار بدقة من يتولى المسئوليات الحساسة فى ديارها، وكبير العائلة فيها يخضع للمراقبة والمحاسبة، ولا أحد من أبنائها فوق القانون مهما كان موقعه.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٨ – ٠٣ – ٢٠١٢م

أما الست أم المصريين فهى أيضا غنية، لكنها مجهدة صحيًّا واقتصاديًّا؛ لأنها منهوبة ومسروقة، تتميز بطيبة القلب وتسرف كثيرًا فى تدليل أبنائها، وتتغاضى عن أخطائهم وجرائمهم فى حقها، وتختار من أبنائها كبيرا للعائلة، وتستشير أم ريكا بالطبع، وتأخذ رضاها باعتبارهما صديقتين، والأخيرة تشير عليها عادة بأن تختار أكثرهم إعجابًا بأم ريكا وارتباطا بتوجيهاتها وتقديرًا لدورها، وغالبا ما يكون هذا المختار هو أكثر أبناء أم المصريين عقوقا لها ونكرانا لفضلها ونهابا لخيراتها، يفضل عصابته على إخوانه، ويقدم زملاءه من اللصوص على بقية الشرفاء من أسرته، وهكذا هو الحال فى أم المصريين وتلك مصيبتها فى ذريتها وأحفادها.

وجع أم المصريين من أم ريكا مؤلم، فالأخيرة تدعى صداقة الأولى، والأولى تصدق هذا الادعاء وينطلى عليها الكلام المعسول عن أهمية أم المصريين ضمن العائلة الإقليمية والكونية، بينما الثانية لا تعرف إلا مصالحها فقط، وتستعمل كل وسائل الخداع مع كل أصدقائها وكلهم ضحاياها، ولا تخلص لأى صديق أو صديقة باستثناء عشيق واحد، هذا العشيق لا يعيش إلا بها، ومع ذلك له حق الدخول فى أخص أسرارها، والتدخل فى أخص خصائصها، وحياته لا تستمر إلا بمددها، ومع ذلك له حق الاطلاع حتى على عوراتها وتهديد أكبر أبنائها إذا هم بمخالفة أو ركب رأسه عنادًا لرغبته، وهو وحده الذى يستعملها لصالحه ويحرضها على مخالفيه ويدفعها لمعاقبته وتأديبه ويوبخها إذا قصرت فى خدمته ويركلها بحذائه أحيانا إذا غضب منها أو غضب عليها.

عجيبة تلك العلاقة التى تربط بين أم ريكا وأصدقائها، فكلهم يرتمون فى أحضانها، ويأتمرون بأمرها بينما هى لا تسمع إلا لعشيق واحد، ولا ترتمى بكل إمكانياتها إلا تحت قدمى ذلك العشيق المحظوظ.

بعض أبناء أم المصريين معجب جدا بالست أم ريكا وأبنائها ونظامها فى بيتها، ويرى فيها النموذج والمثال، بينما يرى أمه ضعيفة قد هدَّها الزمن، وهزيلة قد ذهبت قوتها وذهب ريحها، وجاهلة متخلفة لا سبيل لنهضتها إلا إذا التحقت بركب الست أم ريكا وتعلمت منها وأخذت عنها، ولو أدى ذلك أن تعمل خادمة لها ولأولادها حتى ولو كانت الخدمة مباشرة وغير مباشرة.الخدمة المباشرة وتكون بالعمل الصريح فى بيت أم ريكا، والخدمة غير المباشرة أن تظل فى بيتك وبين أهلك من أبناء أم المصريين وتعمل لحسابها، أى أن الخدمة نوعان، خدمة فى منازلهم، وخدمة من منازلكم. بالتأكيد أجرة الخدمتين تختلف وكل على قدر مجهوده سواء فى منازلها أو من منازلهم، والست أم ريكا تقدر جهود من يخدموها، فهى غنية والأشياء عندها معدن وليس لديها أزمة موارد،

فأبناؤها لا يجرؤون على سرقتها كما يفعل أبناء أم المصريين، ومن ثم فلا مشكلة فى مسألة توفير المال، فالمال كثير ويمكن به أن تشترى الست أم ريكا كل شىء.. كل شىء.. حتى الأفكار والأقلام والمواقع والمنظمات والمؤسسات والضمائر أيضًا.

الست أم ريكا لها خبرة طويلة بالسوق العالمية لعمالة البشر، ويمكنها أن تجند لخدمتها عمالا من كل مكان، وبخاصة إذا كانوا من بيوت على قد حالها مثل بيت الست أم المصريين، وهى تعرف كيف تغريهم، وكيف تربطهم بمصالحها، وتوهمهم أيضًا أنها تعرف كيف تحميهم من غدر الزمن وبطش الأخوة وغضب الأم عليهم، ولذلك تطمئنهم دائمًا أنهم فى حمايتها، وأن نفوذها يمتد ليحمى عقوقهم وخيانتهم حتى من عقاب الأم وغضبها عليهم. طبيعى ليست الست أم المصريين فقط هى الضحية لأم ريكا وأبنائها، فهناك أمهات كثيرات يقعن أيضًا ضحية أحابيل الست أم ريكا. منهم الست أم الخليج، وأم خلفان، وأم دجلة والفرات، وأم زين وأمهات كثيرات. الست أم ريكا لا تفرق عادة بين خدامها وأصدقائها، ومن طبعها وطبيعتها أنها تتخلى فى اللحظة الحرجة عن خدامها وأصدقائها معا، وتتركهم لألسنة الجحيم الشعبية تشوى جلودهم، أما منْ حالفه الحظ منهم وسبق له الفرار ونجا بعنقه من حبل المشنقة فسيدخل ضمن العشرة المبشرين بجدة. وإذا كانت قلة قليلة من أبناء أم المصريين تفضل أن تعمل خادمة من منازلهم، فإن أكثر أبنائها يفضلون أن يموتوا جوعا من أن يستخدموا عند أم ريكا فى منازلها أو من منازلهم، لكن الحدث الفضيحة المتصل بالتمويل الأجنبى وتهريب المتهمين فيه كان بمثابة إعلان عالمى عن استخدام كل المصريين للست أم ريكا من منازلهم.

الإعلان الفضيحة تم قطعا بواسطة قلة من أبناء أم المصريين، لكنه بالقطع لم يتم بتفويض من أم المصريين وأبنائها، ولم يستشر فيه أحد من كل أبناء أم المصريين؟ فمن هو يا ترى ذلك الذى فعل تلك الفضيحة نيابة عن أم المصريين وأبنائها...؟ وكيف تجرأ أن يفتئت على إرادة كل المصريين، وأن يُقْدِمَ دون تفويض على تلك الفضيحة.

النافذة الحادية عشرة

انتخابات الرئاسة.. وتمزيق الرحم الوطني

الشرائح التى ثارت وفجرت فى الشعب المصرى الكامن الحضارى والأخلاقى خبا وهجها، وغاب صوتها وتفتت قواها، وتحولت إلى أيديولوجيات وأحزاب متنافرة، ظن كل منها أنه يقف على أرضية ثابتة وشعبية وحشد جماهيرى يمكنه حده من الامتداد والسيطرة على الأرض، وبين هذه الأيديولوجيات والأحزاب غاب الرحم الوطنى وتقطعت أوصاله فانكشف سقف الثورة، وأضحت قواها فى العراء بفعل أبنائها البررة، الأمر الذى أغرى قوى الغدر بتوجيه ضربتها المفاجئة للقضاء على الثورة أو على الأقل تشتيت قواها وتمزيق لُحمتها.

الخطأ هنا –وبغض النظر عن تحليله وحجمه ونصيب كل فصيل منه– كان قاسمًا مشتركًا بين كل التيارات الوطنية، بينما الحنكة وخبرة الخبث الطويلة والمتراكمة فى إدارة عمليات التزييف والتزوير كانت أيضًا قاسمًا مشتركًا بين كل الفصائل الخائفة من الثورة.

عزف جماعي في عرس الوطن (*)

يوم الأحد الماضى جمعتنا في العاصمة الأسترالية "كانبرا" مائدة السفير المصرى الأستاذ عمر متولى، اللقاء غمرنا فيه كرم الرجل وعقيلته، وبهرتنا بشاشته وأدبه وتواضعه الجم، وصدق توصيفه للأمور، وصراحته غير العادية في الوسط الدبلوماسى في التعبير عن الرأى، الأمر الذى يجعل قدرته فائقة في جذب قلبك إليه.

الجلسة كان لها طعم خاص حيث ضمت مجموعة مختارة بعناية من المثقفين الدبلوماسيين والسياسيين من ذوى الكفاءة والخبرة والدراية بما يدور خلف الكواليس، وقد كان للحديث بيننا عن الربيع العربي وآثاره وتوابعه النصيب الأكبر من الوقت، كما تناول الحديث أيضا شخصيات المرشحين للرئاسة في مصر، ومزايا كل منهم، ومن هو صاحب الحظ الموفور في هذا السباق.

تذكرت وأنا أتحدث، أو أتابع . مستفيدا . من حديث السادة الحضور أن إعلام النظام السابق والذى كان يخضع لأمن الدولة، لم يمنح فرصة لأي شريف محب لبلده أن يظهر، أو يأخذ فرصته حتى في مجال خبرته، وكأن مصر عقمت أن تلد إلا أعضاء لجنة السياسات الذين يتحلقون حول الوريث ومعه أحمد عز، وكأنهم تلاميذ في روضة يتلقون دروسهم في أدب.

تذكرت أيضا حجم التسطيح وغسيل الأدمغة الذى تعرض له الشعب والذى جعل البعض يردد أحيانا وببلاهة عجيبة "جمال أحسن من غيره" على الأقل سرق وشبع سرقة، لكن غيره سيبدأ السرقة من جديد، وكأنه مكتوب علينا ألا يحكمنا إلا اللصوص.

ساعتها تجدد إحساسي بنعمة الحرية، وشعرت بدفء قيمتها،وحمدت الله ومعى كل الحاضرين أننا لم نكن نحلم أن نكون يوما في موقع الاختيار الحر والمفاضلة بين مرشح وآخر، وأنهم جميعا يطلبون أصواتنا ونحن نختار بتمنع ودلال.

للحروف في لغتنا العربية معان يعرفها الدارسون ويعرفها بتوسع أهل الاختصاص، فمثلا حرف الجر "مِنْ " يفيد ابتداء الغاية المكانية والزمانية، ويفيد معنى التبعيض وهو اقتطاع جزء من كل، كما تفيد السببية والتعليل، وتفيد أيضا بيان الجنس، أما "على"

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٦ – ٢ – ٢٠١٢م

فمن أشهر معانيها أنها تفيد الاستعلاء الحقيقي والمجازي، الحسى منه والمعنوي، كما تفيد السببية والتعليل، وتفيد الاستدراك أيضا.

وحين نتناول شأن ثورتنا المباركة فمن الأصح لغة أن نقول مضى عام من الثورة، وليس مضى عام على الثورة، لأن "من" تفيد التبعيض وكأن ما مضى يشكل بعض الثورة، ويعنى أنها مستمرة حتى تتحقق أهدافها.

هذا المعنى الدقيق تنبه إليه "سيف المقاصد" . علامة العلوم السياسية . الدكتور سيف الدين عبد الفتاح في لقاء له ببرنامج تلفزيونى فعدل صيغة السؤال لمقدمة البرنامج حين قالت له "مضى عام على الثورة" ليقول لها مضى عام من الثورة، وليس مضى عام على الثورة.

مضى عام على الثورة يحمل معنى الانتهاء والفراغ منها، بينما مضى عام من الثورة يعنى أنها لازالت مستمرة، وإن تحقق بعض أهدافها.

بعض الفضائيات تمارس ضد المشاهد ما أسميه ب "الاستفزاز الثقافي" والتحرش الوطنى حين تفرض عليه زبائنها الدائمين ماركة "ثائر" وهو لقب يستطيع الحصول عليه من ذهب إلى ميدان التحرير أو أي ميدان آخر ولو على سبيل الترفيه والفرجة.

بعض هؤلاء يتعاملون مع الأكبر سنا وربما الأعظم قدرا ومكانة بكثير من الغرور الجامح، الذى يتنافى مع تواضع خبرته، وينفى عنه صفة الثائر من أجل شعبه.

مواقف هؤلاء في جلسة البرلمان الطارئة وتذكير ومراجعة الدكتور الكتاتنى لهم ذكرتنى بمقولة الأديب الكبير عباس محمود العقاد قال فيها:

"لما جاءت الديموقراطية أساء بعض الناس فهمها، كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين، فظنوا أن حرية الصغير تجعله في صف الكبير، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية، وأن الثورة على كل مستبد معناها الثورة على كل عظيم، حتى فشت في الناس بدعة الاستخفاف والزراية، وأوشك التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب، ومن ثم كان العظماء في حاجة إلى ما يسمى برد الاعتبار في لغة القانون.

تقلقنى أزمة مصر الاقتصادية والسياسية، ولكن يقلقنى أكثر أزماتها الأخلاقية والقيمية، بعض الشباب يتحدثون وكأن بينهم وبين لغتنا الجميلة خصومة وجفاء، فضلا

عن خصومتهم مع التواضع والمنطق ومصلحة الوطن العليا، إنهم ثائرون على كل شئ حتى على الشعب نفسه، ففى . نظرهم . قد مضى عام على الثورة ولم يتغير شئ، ويريدون بضغطة على ذر أن يتغير كل شئ.

في الجانب الآخر فإن الثورة المصرية بقدر ما كشفت عن حجم مخزون القيم في الشخصية المصرية، بقدر ما كشفت أيضا عن حجم المواهب والقدرات والكفاءات العظيمة التى كانت مدفونة تحت ضغط النظام وعفونة مؤسساته الأمنية.

من الصعوبة بمكان أن تحدث البطون الجائعة عن الحرية، وأن تحدث أهل العشوائيات عن بهو القصور الفارهة، ومن ثم يجب البدء بقائمة أولويات في مقدمتها تحقيق الأمن في الشارع العام وتحقيق الاستقرار الاقتصادى في المجتمع كله.

وإذا كنا نستشعر ضرورة إعادة هيكلة الداخلية فإن إعادة هيكلة الإعلام تصبح ضرورة لضبط الإيقاع الوطنى وحمايته من شذوذ الأفكار التى يطرحها البعض.

أثق تماما في قدرة المصريين على تجاوز كل المحن وخروجهم من التحديات الصعبة بانتصارات هائلة. التاريخ يؤكد لنا ذلك، ويؤكد لنا أيضا أن المصريين في مجموعهم يفضلون أن يموتوا بردا من أن يستدفئ بعضهم بأصنام المعونات التى تُخْضِعُ أعناق الشعب لإرادة الممول الذى يمن دائما ويلوح بقطع تلك المعونات دائما، ويريد أن نتحول إلى موالى عنده ليصبح من حقه أن يخترق حدودنا السياسية والاجتماعية، وأن يتدخل في شؤوننا فيطلب ألغاء المحاكمات لمن يتعاونون معه ويعملون له لمجرد أنه يعطينا حفنة من القمح أو حزمة من المعونات؟

المخزون القيمى عندنا يمكن أن يفجر عملية تنمية واسعة المعالم بينة القسمات، يعرف أصحابها ماذا يريد الشعب هذا العام،وما هو المطلوب بعد خمسة أو عشرة أعوام. فهل نوجه الناس كتابا ومرشدين وباحثين وإعلاميين لتحقيق اقتصاد قيمى لا رقمى؟؟ يعتمد قاعدة الحلال والحرام في الكسب والانفاق وعدالة التوزيع؟، وتعديل التصور السائد للربح والخسارة بما يتعدى الأبعاد المحدودة لزمن الحياة الدنيا، ويحمى مواردنا كلها بما فيها البشرية ويعتبر تعطيلها جريمة، ويرى أن الإسراف والاستخدام غير الرشيد في الاستهلاك من الكبائر المهلكة التى تبدد ثروة الأمة وتتعدى على حقوق الناس أفرادا ومجتمعا وأمة...؟

هل نفى لأرواح الشهداء بالتحرر من سيطرة أبناء العم سام والاعتماد على الذات؟ وأن نتعامل مع الآخرين لا من موقع المهزوم المأزوم، وإنما من موقع الثائر الجرئ الذى يفاوض من أجل مصلحة شعبه،ولا يفرط في قيم دينه ووطنيته؟

هل نستطيع أن ننتصر على شهوة إثبات الذات الثورية بأن نكف عن الحديث المتشنج؟ وأن ننصرف إلى العطاء بتشغيل المصانع وزراعة الأرض وزيادة الانتاج؟ وأن ندرك أنها فرائض يجب الإسراع في أدائها بدلا من الثرثرة الفارغة والاستعراضات الباهتة والتلويح الدائم بدماء الشهداء الأبرار الذين ضحوا بأرواحهم لتبقى مصر حرة أبية.

منصب الرئيس والرحم الوطني (*)

قرار جماعة الإخوان بطرح اسم المهندس الشاطر لمنصب الرئيس حرك كل العلل وأثار غضب الليبراليين والعلمانيين وغيرهم.

منذ يومين قال السيد عمرو موسى في برنامج مصر الجديدة في سياق حديثه عن جماعة الإخوان المسلمين " كلنا بتوع ربنا " كلام السيد عمرو موسى يسعدنا طبعا، ويسعد كل مسلم أن يكون الجميع "بتوع ربنا" ذلك وصف يستطيع أن يدعيه كل أحد وليس في مقدور أحد أن ينفيه عمن يدعيه.

لكن اللافت للنظر هو الزخم الذى يمارس هذه الأيام في دولة إعلام الفلول، وبخاصة في الفضائيات، حيث يمتد ليشكل ظاهرة يجب أن تناقش بعيدا عن مؤثرات الهوى السياسي حتى لا نقع أسرى لإشكالية التحيز التي نعانى منها.

في مناقشة الظاهرة لا يجوز أن نكتفى بالعناوين الرئيسة، وإنما لابد من الغوص في عمقها لاستكشاف مكنون الخوف الذى يدفع النخبة لهذه المواقف الحادة، وهل هو الخوف من الإسلاميين فعلا أم هو الخوف من الإسلام ذاته؟ أم أنه شيء آخر مخجل لا يريد البعض الإفصاح عنه أو الإشارة إليه حتى لا يتسبب في غضب شعبي.

على كل حال ذلك موضوع آخر نرجو أن يتسع الوقت لدراسته ومحاولة تحليله كظاهرة قديمة تتجدد أسميها "ظاهرة الإسلام بين الكارهين له والخائفين عليه "

الحالة النفسية التي عاشها بعض إخواننا العلمانيين والليبراليين في ظل النظام السابق وسيطرتهم على الإعلام والثقافة ومصادر التوجيه وصياغة الرأي العام خلقت عندهم نوعا من إدمان التحرش السياسي والعدوان الآمن على التيار الإسلامي، فالعدوان والتجاوز واجتياح هذا التيار . دما ومالا وعرضا . مأمون العواقب مهما كان حجمه وآثاره، بل كانت ممارسته ضد التيار الإسلامي علامة على التزام الكاتب بثقافة أمن الدولة ودليل على وطنيته وولائه للنظام.

بعض الأخوة من العلمانيين والليبراليين استصحب بعد الثورة نفس هذه الحالة النفسية، ومن ثم كانت الهجمات الشرسة والحادة والتي استعملت فيها كل أسلحة

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٥ – ٤ – ٢٠١٢م

التخويف والتشويش والتشويه مثل الإقصاء والتخلف والحشد والاستقطاب، واستعمال ورقة الدين والدولة الدينية، والإمارة الإسلامية، وحملة قندهار والطمع في السلطة وعقد الصفقات، والجشع والاستحواذ والتكويش، وكان اختطاف المجتمع المصري كله هو آخر الأوصاف التي وصفهم بها الصحفي جمال فهمى في برنامج مصر الجديدة!.

التيار الإسلامي تعود أن تصنع دائما حوله حالة من الضباب يكون فيها عادة سوء النية وسوء الظن هو المسلك السائد، ومن ثم فكل تصرف ولو كان طبيعيا لابد أن يخضع للتحليل والتأويل، حتى ممارسة الحق المشروع تُسْتَكْثرُ على هذا التيار ويرى البغض البغيض أنه يجب العمل على حرمانهم من هذا الحق، ومن هنا رفعت قضايا للطعن ليس فقط في اللجنة التأسيسية لإعداد الدستور، وإنما في شرعية مجلس الشعب نفسه، رغم أن الانتخابات الأخيرة قد شهد لها العالم كله بالنزاهة والشفافية، وكانت هي المرة الأولى في التاريخ الحديث لمصر.

إدمان هذا التحرش . إذا اتفقنا على صحة ."المصطلح" يستوجب وقفة للتيار العلماني والليبرالي في ممارستهم للديموقراطية.

والمرء يحار في موقف هذه التيارات، فالترشيح وعدم الترشيح حق مكفول لكل حزب ولكل تيار سياسي، وحتى لكل مواطن ما دامت تنطبق عليه الشروط، وبلغ عدد من سحبوا استمارات الترشيح أكثر من ألف شخص، ولم نسمع مثل هذه الضجة، ولم يحدث مثل هذا الهياج السياسي والإعلامي لأن هذه هي الديموقراطية، وهذا وجه من وجوهها، وصناديق الانتخاب في النهاية هي الحكم.

وبصرف النظر عن تقييم "(والأصح تقويم)" قرار الجماعة في الدفع بمرشح لهم، إلا أن ضوابط السياسة في الأصل تحكمها المصالح، والإضافة الجديدة التي يجب أن يضيفها التيار الإسلامي بعمومه، وأن يحرص عليها ويجعلها بصمة ثابتة له في المجال السياسي، هي السقف الأخلاقي الذى يجب التحرك في إطاره ولا يجوز الخروج عليه.

المتغيرات التي تطرأ لابد أن تؤخذ في الاعتبار مع رعاية الضابط الأخلاقي طبعا، وهذه المتغيرات الطارئة ربما لا تتاح لنا معرفتها كلها مثلما تتاح لمن هو في الموقع، لكن بعضها ظاهر للعيان، فهناك أغلبية جاءت بإرادة شعب حاولت وتحاول قوى مؤثرة نزع صلاحياتها، وهناك وزارة شبه معطلة لم يستطع مجلس الشعب أن يسحب الثقة منها،

لأن المجلس العسكري مصر على بقائها، والشارع المصري يئن وينوء كاهله بمشكلات الأمن وطوابير البنزين وطوابير الخبز وأزمات الغاز، وربما هناك ما هو أخفى وأخطر، وما دام الأمر كذلك فتقدير المواقف يختلف من حين لآخر، ولابد للقوى الوطنية بكل شرائحها أن تكف عن ظاهرة تقطيع الرحم الوطني، وممارسة الإقصاء بأبغض تجلياته من قِبَلِ الأقلية في التعامل مع الأغلبية، كما أنه لأول مرة في التاريخ تمارس أقلية الاستبداد تجاه أغلبية جاءت إلى البرلمان بإرادة الشعب.

الانتقاء في ممارسة الديموقراطية وعدم القبول بكل شروطها خلل معيب يحسب بالخصم من حساب الليبراليين والعلمانيين وبقية التيارات الأخرى التي طالما صدعت رؤوسنا بالحديث عن الديموقراطية وحقوق الإنسان، ويبدو أن الجماعة الليبرالية والعلمانية والماركسيين لم يحسموا أمرهم بعد في مدلول الإنسان، وهل ينطبق الوصف على المسلم؟ أم انه خارج التعريف لديهم؟، ومن ثم فليس من حقه كفرد أو كجماعة أن يمارس هذا الحق المشروع؟ " حقه كإنسان في ممارسة الديموقراطية".

الكل يتبرع بحديث لا معنى له عن حقوق الأقباط، ويدخله أحيانا في السياق رغم أن التناول قد لا يمت له بصلة، والنخب المثقفة من الأقباط يعرفون جيدا أنهم لا يحظون بمساحة من الحرية ولا بحجم من الحقوق في أي نظام مثلما يحظون به كمواطنين في ظل الإسلام، كما أن الإسلاميين بالذات قد عبروا عن ذلك وأقروا بحقوقهم كمواطنين ورفضوا التصنيف أو التمييز على أساس ديني أو طائفي، لكن البعض مصر على تذكيرنا دائما بحقوق الأقباط، وكأنها حصة دراسية يجب على الجميع أن يحفظوها.

المرء يحار في تفسير هذه الظاهرة المتكررة، وهل يا ترى مردها لحالة هزيمة نفسية؟ أم أنها وسيلة اصطياد للإسلاميين يجب أن تتكرر في كل حديث لإظهارهم في مظهر من ينكر حقوق الآخرين؟

وإذا كانت صناديق الانتخابات هي الحكم في نهاية الأمر، وهى التي تقرر من سيفوز بمنصب الرئيس فلماذا الخوف من خيرت الشاطر؟

وهل هو خوف من خيرت الشاطر أم هو خوف من وعى شعب هواه إسلامي وهويته إسلامية ويتشبث الإيمان بأعماقه؟ ولذلك دأب إخواننا العلمانيون والليبراليون على شتمه واتهامه دائما بالجهل والأمية؟

يبدو أنه مكتوب على الإخوان أن يظلوا في دائرة الاتهام ويطالبون بالدفاع عن أنفسهم حتى لو جاء بهم الشعب وكانوا هم الأغلبية البرلمانية.

لكن السؤال الذى يتطلب إجابة هو: متى يكف إخواننا العلمانيون والليبراليون عن تقطيع وتمزيق الرحم الوطني بيننا؟

وهل هم لا يجدون حصاة ملح ليضعوها في عيونهم؟ وهل تعرف حمرة الخجل طريقها يوما إلى تلك الوجوه..؟

الكابوس وكامل الأوصاف (*)

هل يمكن أن تعود مصر لما كانت عليه قبل ٢٥ يناير؟

البعض ينظر لما حدث لا على أنه ثورة، وإنما هو فورة شباب ملىء بالحماس والعاطفة، لا تلبث أن تنطفئ؟

بعض الذين يعيشون فى الماضى بكل سلطانه ووجاهته ومزاياه التى أعطاها لهم النظام القديم لا يصدقون ولا يريدون أن يصدقوا أن مصر قامت فيها ثورة؟

الرجل نفسه التى جاءت كلمات التنحى على لسانه هو، وبلغها للشعب لا يصدق أن ثورة قامت، وأن الدنيا تغيرت، وأن نظامًا زال وانتهى، ولذلك يرشح نفسه من جديد وكأن ما مضى مجرد دورة رئاسية أو برلمانية، مما كان يحدث أثناء وجود المخلوع ولا شىء قد تغير!

البعض ينظر إلى الأمور بعد عام وشهور أن كل شىء كما هو، وأنه قادم ليمارس دوره القديم كما كان.

فهل يمكن أن يسلم شعب مصر الطيب كل مقاليد أموره لمن باعوه وخانوه بالأمس القريب؟

هل يمكن أن يعود لحكم مصر كنز استراتيجى آخر لإسرائيل ولكن باسم جديد؟

هل يمكن أن يعود ظلام عصر المخلوع بكل ما فيه من كبت وقهر واستعلاء وإهانة للمصريين بعدما استنشقوا عبير فجر الثورة..؟

هل يمكن أن يعود لحكم مصر من نهبوا ثروتها وأهانوا كرامتها وأضاعوا فى المجتمع الدولى مكانتها وقامتها.؟

هل يعود لصوص المال العام والعصابات التى حكمت وظلمت وسجنت وعذبت وحولت ثروة أبناء مصر للخارج ليحكموا مصر من جديد فيسرقوا ثورتها بعدما سرقوا ثروتها؟

هل يقبل شعب مصر أن يسلم قيادة لفرعون صنعه الفرعون المخلوع؟

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٢ – ٤ – ٢٠١٢م

هل يعود جهاز أمن الدولة ليمارس التعذيب وسحق البشر ويثأر من شعب مصر كما كان يفعل من قبل؟

فوز الإسلاميين استثار واستفز القطط السمان ومعهم كل القوى الكارهة لدين الله، والتى كانت كقطط الموائد تعيش على ماتبقى من فضلات طعام السلطان وحاشيته.

فوزهم أطفأ لهيب الطمع الذى كان يحدو غير الشرفاء للخدمة فى قصر الباب العالى، وقضى على نهب التطلع الكبير الذى كان يدفع أصحاب المليارات لمضاعفة أموالهم الحرام من دماء شعبنا حتى تمكنوا فى فترة من ملكية الأرض ومن يعيشون عليها.

هؤلاء يشقيهم العدل لأنهم تعودوا أن يأخذوا ما ليس من حقهم، وهم أيضًا يستثقلون الحرية بأعبائها ومسئولياتها لأنهم تعودوا أن يكونوا عبيدًا لشهواتهم، ومن ثم يجعلون لأنفسهم آلهة وأندادًا يحبونهم كحب الله.

ظهور الإسلاميين معناه كرامة الشعوب، وهؤلاء تعودوا على استباحة كرامة كل أحد ولا كرامة لأحد إلا لهم وحدهم.

ظهور الإسلاميين يعنى غروب نجم غير الشرفاء من العلمانيين والليبراليين والماركسيين، لا لأن الإسلاميين سيعدون عليهم، ولكن لأن ميزان القيم والمبادئ والأخلاق التى شابته كل علل الاختلال والاضطراب فترة سيطرتهم على الصحافة والإعلام ومصادر التوجيه وصياغة الرأى العام سيعود كما شاء الله له إلى الاستقامة والاعتدال، ومن ثم تنتهى من المجتمع جراثيم الوضاعة والمعصية وفقدان المناعة الأخلاقية، وهؤلاء لا يعيشون إلا على هذه الجراثيم، ومن ثم فالمعركة ستكون حامية الوطيس وستستعمل فيها كل الأدوات الممنوعة التى تحتويها قواميس الخسة والنذالة وسقوط الإنسان..

سمعت بالأمس أحدهم يصف الإسلاميين بالكوليرا كما يصف العسكر بالطاعون ويقول نحن مخيرون بين الكوليرا والطاعون.

الحالة النفسية التى عاشها غير الشرفاء من إخواننا العلمانيين والليبراليين فى ظل النظام السابق وسيطرتهم على الإعلام والثقافة ومصادر التوجيه وصياغة الرأى العام خلقت عندهم نوعا من إدمان التحرش السياسى والعدوان الآمن على التيار الإسلامى، فالعدوان والتجاوز واجتياح هذا التيار . دما ومالا وعرضا . مأمون العواقب مهما كان

حجمه وآثاره، بل كانت ممارسته ضد التيار الإسلامى علامة على التزام الكاتب بثقافة أمن الدولة ودليل على وطنيته وولائه للنظام.

بعض الأخوة من العلمانيين والليبراليين استصحب بعد الثورة نفس هذه الحالة النفسية، ومن ثم كانت الهجمات الشرسة والحادة، والتى استعملت فيها كل أسلحة التخويف والتشويش والتشويه مثل الإقصاء والتخلف والحشد والاستقطاب، واستعمال ورقة الدين والدولة الدينية والإمارة الإسلامية، وحملة قندهار والطمع فى السلطة وعقد الصفقات..والجشع والاستحواذ والتكويش، وكان اختطاف المجتمع المصرى كله هو آخر الأوصاف التى وصفهم بها الصحفى جمال فهمى فى برنامج مصر الجديدة!

التيار الإسلامى تعود أن تصنع دائمًا حوله حالة من الضباب يكون فيها عادة سوء النية وسوء الظن هو المسلك السائد، ومن ثم فكل تصرف ولو كان طبيعيا لابد أن يخضع للتحليل والتأويل، حتى ممارسة الحق المشروع تُسْتَكْثرُ على هذا التيار ويرى البغض البغيض أنه يجب العمل على حرمانهم من هذا الحق، ومن هنا رفعت قضايا للطعن ليس فقط فى اللجنة التأسيسية لإعداد الدستور، وإنما فى شرعية مجلس الشعب نفسه، رغم أن الانتخابات الأخيرة قد شهد لها العالم كله بالنزاهة والشفافية، وكانت هى المرة الأولى فى التاريخ الحديث لمصر.. واليوم وضح للعيان أن المطلوب ببساطة هو:

مطلوب إخلاء الساحة الوطنية من كل شريف يحب مصر.

مطلوب ضرب القوى الوطنية ببعضها وإشاعة الفتن بينها، حتى يفيض الكيل بالمواطن العادى ويصل إلى حد الإحباط وفقدان الثقة فى كل الذين يتصدرون المشهد الثورى.

مطلوب تصفية المرشحين الوطنيين معنويا الواحد تلو الآخر وفى اللحظات القاتلة، مثلما حدث للمبهر أبو إسماعيل.

مطلوب تشويه القوى المؤثرة والقادرة على الحشد الشعبى والتجييش حتى لا تتمكن من النزول لميدان التحرير.

مطلوب إطفاء جذوة الثورة ورد الاعتبار لكل المخلوعين وفلولهم.

مطلوب تزييف الوعى الشعبى والتأثير على الناس حتى يتم إحداث كل فجوات الثقة بين الشعب وبين من اختارهم ووثق فيهم وبايعهم بأصواته فى الانتخابات الأخيرة.

مطلوب قطع الإسلاميين عن محيطهم وعزل الوطنيين عن قواعدهم الشعبية وتشويه الجميع بكل وسائل التشويه والتدليس والغش، وبعد ذلك يتم قطع رقابهم أو عودتهم إلى أقبية السجون كما كانوا من قبل.

مطلوب ردع الشعب بشبابه وجماهيره عن التفكير فى ثورة جديدة.

مطلوب تمويت الهمة وتنويم الإرادة وإغراق المجتمع فى العبث والفوضى والأزمات، "وبالمناسبة "صناعة الأزمات أضحت تخصصا لخلق مواقف السب والشتم ولعن أيام الثورة، والترحم على أيام المخلوع.

الفاعل فى كل الأزمات ليس مجهولا، وإنما هو معروف كما يعرف أبو الهول، ومع ذلك لا يقدم للمحاكمة.

مطلوب أن تُخَدِّم كل الهيئات الأمنية والإعلامية وبقية قواعد الفلول فى كل الوطن على المرشح الذى يبدو أنه سيكون الأوحد بعد تصفية وخروج الجميع.

مطلوب أن يغمض ٨٥ مليون مصرى عيونهم وأن يتوقف نبض قلوبهم من الفرح ابتهاجًا بعودة الرئيس مبارك مرة أخرى وسبحان من يحيى العظام وهى رميم.

مطلوب استحياء واستنساخ تجربة رومانيا بمرارتها وعلقمها لتتكرر مرة أخرى فى مصر، ولتثبت التجربة أنها قابلة للتطبيق ولو بعد عشرات السنين.

مطلوب كنز استراتيجى جديد لإسرائيل فى قلب مصر بشرط أن يكون أكثر خبثًا ودهاء وولاء لها من الكنز السابق وباسم جديد.

مطلوب تنحية القوى المؤثرة فى الشارع المصرى (الإخوان) حتى يضمن من يريدون إطفاء جذوة الثورة فى الداخل والخارج، أنهم خارج السياق، ومن ثم تتفتت قوى الضغط الشعبى، وبالتالى فالميادين تصبح مأمونة ولن تملأ بالمليونيات، لأن القوى الأخرى لا تملك قدرة على الحشد، والوسيلة إلى ذلك تشويه صورتهم وصرف الناس من حولهم بشتى الوسائل، وإظهارهم بمظهر الفشل فى أول اختبار لهم فى إدارة المرحلة الانتقالية وعلى كل المستويات، فهل يسمح الشعب . الذى اكتشف نفسه وأدرك أنه عظيم ورائع ومبهر. وأنه أكثر وعيا من كل النخب الثقافية . بعودة الكابوس وانتخاب كامل الأوصاف وتحقيق المطلوب؟.

عاجل إلى الشعب المصري الأبيّ (*)

على مدى أسبوعين وأنا أتابع باهتمام الحملات الإعلامية لمرشحى الرئاسة وتغطية الإعلام لها.

الإعلام المصرى على وجه التحديد صحف وفضائيات لم يلتزم بالمهنية المطلوبة ولم يقف كما يجب أن يكون على مساحة محددة من كل المرشحين، فنزعة الحيادية المدعاة اختفت وحل محلها الانحياز الواضح.

المحاولات كانت مكشوفة، والتقارير المفبركة واستطلاعات الرأى المزيفة حاولت غش المواطن وتوجيه صوته فى اتجاه الفلول، ويبدو أن القوم لا تعنيهم فضيحة المهنة، ولا يهتمون بشرفها ولا يعبأون بأخلاقها.

حملات التشويه تجاوزت الأشخاص لتنال من دين الشعب والأمة، وتجرح أغلبية الشعب المصرى المتدين وتنتقص من قدر دينه، وتصنع الأكاذيب التى تتحول إلى مادة للسخرية منه والهزء به والتندر بحيوانية وهمجية المسلمين فى الصحف والإذاعات ولدى وكالات الأنباء العالمية، وهى حملات تجاوزت كل الحدود وانسحبت من الأتباع إلى الفكرة نفسها حتى طالت وحاولت النيل من الإسلام ذاته "وما فرية مضاجعة الوداع التى اختلقها الصحفى عمرو عبد السميع، ونشرتها الأهرام أقدم الصحف المصرية وأكثرها انتشارًا، وعيرتنا بها الغرب على مدى أسبوعين عن الناس ببعيدة.

بالقطع لا يستطيع أحد مهما كان، لا نحن ولا غيرنا أن يفرض على الناس أن يحبوا الإسلام أو أن يؤمنوا به، فهذا شأنهم وحدهم، وكيف تفرض الالتزام الخارجى على وعى فقد فى ذاته كل ضابط داخلى، ومع يقيننا القاطع بأن الخيار تجاه الإيمان بهذا الدين العظيم ليس خيار قبول أو رفض، وإنما هو خيار فى الوقت فقط، فقد آمن من هو أشد منهم بطشًا وقوة (فرعون) ولكن اختياره للوقت لم يكن مناسبا وإنما جاء بعد فوات الأوان.. قال تعالى: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٣ – ٠٥ – ٢٠١٢م

الْمُسْلِمِينَ. آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) (يونس: ٩٠-٩٢).

القصة باختصار تمنحنا فرصة التأمل فى أحوال إخواننا الإعلاميين الغافلين عن آيات الله فى الناس والكون والحياة، فبعضهم كان له من الثورة والثوار موقفًا معاديًا، وبكى بعضهم على سقوط المخلوع، ولكنهم وبسرعة لولبية تحولوا، وقال الشعب الثائر الجريح "لا مانع" فباب التوبة مفتوح لم يغلق، وكل ابن آدم خطاء، والله سبحانه يغفر الذنوب جميعًا، والثورة تطهر القلوب وتغسلها، وعفا الله عما سلف.

غير أن الداء القديم داء الخصومة للإسلام ولكل من يمثله غلبتهم علله فانكشف المخبوء فى الصدور.

نعلم أن البعض يريد أن ينحى الإسلام جانبا، وأن ينسلخ الشعب منه، وجريدة الأهرام نفسها تساهم فى ذلك، وخطتهم تبدأ بضرب رؤوس الإسلام ورموزه، وتشويه المنتسبين إليه والمتحمسين لعودته بقوة.

هذا الموقف يفسر لنا سر الحملة الشعواء التى يتعرض لها الإسلاميون كل يوم، وبصرف النظر عن تيارات الإسلاميين السياسية ومواقفهم مصيبة أو مخطئة، إلا أن الملاحظ أن الإعلام ينتهز فرصة انقسام التيار الإسلامى ليضرب الإسلاميين ببعضهم ثم يكر مجهزًا على الإسلام ذاته.

الكراهية المستكنة والظاهرة للإسلام ورموزه غريبة وعجيبة لدى هؤلاء، وهى تغلب أصحابها هذه الأيام، فيخرج الله أضغانهم، وتسمع لحن القول يستتر به أصحابه فى ادعاء مكشوف.

فالإسلاميون فى نظرهم هم رأس الفساد كله، وعلى رؤوس الإسلاميين تنزل مقامع التشويه، وعلى أعناقهم تُحَمَّلُ كل الأخطاء فى البر والبحر والفضاء الخارجى، فهم الانتهازيون وهم السبب فى تعطيل مسار الثورة، وهم من يريدون أن يكوشوا على كل شىء، وهم من يتحالف مع العسكر، وهم وهم، إلى آخر قوائم التشويه المتعمد فى فضائيات وصحف الفلول.

رئاسة مصر فى تلك المرحلة ليست مغنما سواء كان الفائز مرسى أو أبو الفتوح، وإنما هى مسؤولية كبرى بحجم الجبال وتنوء بحملها همم العظماء من أهل التضحيات، لأنها بلد منهوب على مدار نصف قرن ويزيد قليلا.

وكل مفاصل الدولة مفككة وهنالك إصرار على بقاء الفوضى واستمرار العبث واللعب بأقدار الوطن، الأمر الذى يحتم أن تكون عيون الشعب كله ساهرة يقظانة، فالقضية لم تعد قضية تيار إسلامى يريد أن يمارس دوره المشروع وحقه الطبيعى فى بناء وإنقاذ هذا البلد الذى أُنْهِك وأوشك القلب فيه أن يكف عن النبض والخفقان، إنما هى قضية أمة سقط نظامها السياسى نتيجة سوءات الحكام وسوء إدارتهم وسوء مصيرهم فتعكر الوجه الجميل، وتعفرت قيمه، لكن بقيت حضارته ونضارة الأخلاق فيه، وقد حاول البعض إسقاطها فلم يفلح، ولا يزال البعض يحاول.

قضية إيمان يجرى فى نفوس المصريين وكأنه العصارة الحية فى شجرة معطلة النمو بعوامل الفساد فى البيئة وتلوث المناخ، وتنتظر رياح التغيير لتكنس من الأرض كل معوقات النمو والنهضة والانطلاق.

ظهور الإسلاميين يُشكل لهذه الشجرة عملية التمثيل الكلوروفلي فى شكلها الصحيح لتنطلق فروعها نحو السماء بالزهور والثمر.

التحدى القادم كبير وخطير، ويحتاج لحشد همم الرجال من أهل الحق ولم الشمل وجمع حبات العقد الفريد قبل أن ينفرط.

القضية فى تصورى ليست قضية رياسة مصر رغم خطورتها، وإنما القضية قضية وطن يمثل مركز الدائرة لدين وأمة ورسالة بكاملها.

قضية نهضة تبدأ جذورها من أرض الحياة فى وطن الخيرات مصر المحروسة تحقق أحلام شعب عانى وصبر وتحمل، ثم تمتد من هبة النيل بثمار الخير إلى كل بلاد تتطلع إلى الكرامة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

قضية نموذج ومثال للحكم يعرض نفسه على الدنيا كلها، وبلغة أخلاقية تفهمها الدنيا كلها تتمثل فى حماية الوطن،وخدمة المواطن، وإقرار حقوقه، وتحقيق كرامته، ولا يكون ذلك إلا بالعدل والحرية،ونظافة اليد وطهارة القلب وتحرير الضمير، وإغلاق

أسواق النخاسة السياسية والإعلامية والاجتماعية التى مازالت تمارس دورها الخسيس فى استرقاق الإنسان.

وعلى التيار الإسلامى بكل فصائله أن يحذر أن تفوت الفرصة فى لم الشمل، واعلموا أن الوجدان الوطنى يشتاق لسماع ذلك النبأ السعيد، وأن العقل الجمعى فى الوطن كله ينتظر منكم الخطوة المتقدمة فتقدموا لها.

ارحموا شعب مصر من التمزق وتفتيت الأصوات، وانتشار الإشاعات، وأغلقوا أبواب الفتن،وسدوا على أعداء الله والوطن كل طرق الوشاية والتخريب، واتركوا الخير الذى عليه الشر يربو ويزيد.

وعلينا كشعب هو صاحب الثورة ومفجرها أن نظهر لهم أن مؤامراتهم لن تزيدنا إلا تماسكًا، وأننا سنرد إشاعاتهم الصفراء والحمراء والرمادية التى تبغى فرقتنا بمزيد من الوحدة، وسنرد حملاتهم الإعلامية بكشف الحقائق وفضح الأكاذيب ولن نتدنى أو نسقط، وأن وعينا أكبر من مؤامرات الليل الأسود وأن زمن الاستغفال قد ولى وراح.

علينا كشعب أن نظهر لهم أننا جميعًا مهما اختلفت مشاربنا إخوان، ولا فرق عندنا بين مرسى أو أبو الفتوح والعوا والأشعل وكل الشرفاء، وأنهم جميعا نقباء ونجباء وأجلاء.. ونعلم أن رغبتهم فى الخدمة ترتبط بالمغارم لا بالمغانم، وليست إلا مزيدا من العطاء والبذل، وأن الفوضى التى يصر البعض على إشاعتها وتصديرها لكل قطاع فى مصر ستقابل بمزيد من النظام والتخطيط من أجل مصر، وأن محاولات خلق الأزمات وصناعتها لن تقابل إلا بمزيد من الإيثار والتضحية وتقديم الواجب الوطنى على الشأن الخاص، وأن الزمن الحالى زمن الإيثار وليس الاستئثار.

علينا كشعب وقيادات أن نبين لهم أن الإسلام رحمة، وأن أريج رحمته يذهب فى كل اتجاه وحتى عكس الرياح، وسيصل حتما إليهم، رغم كل الكراهية والعنت ونظرات الاستعلاء والاستكبار.

علينا كشعب أن نظهر لهم أن مصر كلها إخوان، وأن المسلمين فيها والمسيحيين إخوان، وأن دعوات الطائفية لن تصادف إلا خيار الخروج لأصحابها من مصر، أو الموت غيظا وكمدا أمام رياح المحبة.

بيِّنوا لهم أن وحدتنا من أجل مصر، وأن العمل لإزالة هموم الوطن وحل مشكلاته هى عبادتنا ومسؤوليتنا، وواجبنا وقرباتنا إلى الله.

أظهروا لهم أننا خدام الشعب، وإن كنا سادة، وأن قلوبنا وأيدينا وعقولنا مع كل فقير ومظلوم، وأن من يعمل لله يمكن أن يخدم فى أى مكان، فى الساقة أو المقدمة لا يهم، المهم أن يكون العمل ضمن منظومة تعمل لله،وتخدم عباده من أهل مصر وكل الأمصار، وأننا وما نملك لله ثم للوطن، وأن الوطن عندنا أكبر من كل تنظيم أو حزب، وأنه أثير لدينا وأعلى وأغلى، وأن ولاءنا له، وأننا به أولى ممن سرقوه وأهانوه، ويحاولون اليوم أن يعيدوا الكرة من جديد.

فى لحظات الحسم التاريخية يقول الشعب كلمته ويتخذ قراره، فليقل شعب مصر كلمته وليتخذ اليوم قراره الذى هو جزء من قدر الله الغالب وقضاؤه الذى لا يرد.

انقذوا سفينة الوطن (*)

السنوات العجاف التى عاشتها مصر قبل ثورة ٢٥ يناير أحدثت انقلابًا فى المفاهيم والقيم وخلقت نوعًا من الطفيليات الثقافية أشبه ما تكون بالميكروبات الملوثة التى تنقل العدوى حين تنشط فتصيب كل من يتصل بها.

طبيعة الطفيليات الثقافية أنها تغتال عقول الناس ولكن بالتقسيط المريح، فتبدأ بتزييف الوعى وتكثف عملها فى التدليس والتشويه وخلط الأمور بإثارة الأكاذيب وتكرارها على مدار الساعة بحيث يتلقاها وعى المستمع ويتآلف معها من كثرة تكرارها، ثم يبدأ فى استقبالها دون أن يهتم ببحثها أو التأكد من صدقها وسلامة مصدرها وكأنها مسلمات.

الطفيليات الثقافية هذه لعبت فى العصر البائد دورًا خسيسًا فى تشويه الحركة الإسلامية على اختلاف تياراتها حتى صنعت منها بعبعًا مخيفًا يثير القلق فى الملتقى بمجرد ذكرهم.

هذه الطفيليات عادت للحياة من جديد فى بعض الصحف الممولة بأموال الفلول وفى برامج التوك شو على الفضائيات إياها، تقرأ أو تشاهد فيرتفع ضغط دمك من كثرة الأكاذيب التى تستمع إليها دون خجل أو حياء من أصحابها، وبعض هؤلاء مع شديد الأسف إعلاميون أكاديميون تفرضهم عليك بعض البرامج وبشكل مستمر، وكأنهم مقرر دراسى سخيف وثقيل الدم، على ألسنتهم تسمع كلامًا منسوبًا للتيار الإسلامى عن الخلافة والدولة الدينية و نفاه التيار الإسلامى ملايين المرات ورفضه بشدة، ومع ذلك هناك إصرار على تكراره والتخويف به.

الصحف والفضائيات المذكورة راحت تحاول إعادة صناعة أصنام سياسية وإعلامية جديدة لعل أيام الفلول بعزها وعزمها وشريفها وسرورها تعود من جديد فيرفل الخدم الثقافى بالنعم التى زالت بمجيء ٢٥ يناير وما أعقبه من أيام نحسات أغلقت أسواق النفاق وسدت نوافذ التملق وأطلقت ألسنة الرعية وإرادتهم فى مصير النهابين والظالمين وسراق المستقبل.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٣٠ – ٠٥ – ٢٠١٢م

الجوقة الجديدة تضم إعلاميين وسياسيين وقانونيين يربطهم جميعًا خيط واحد هو خيط المصالح التى زال بعضها بفعل الثورة والباقى فى طريقه إلى الزوال مع استمرارها، ومن ثم لا بد أن يتوقف قطار الثورة عن موالاة المسير حتى لا يحدث التغيير المطلوب من هذه الثورة.

الطوفان القادم من رحم النظام البائد اجتمعت كل شرائحه الخائفة من الثورة والتقت كل قواه الناعمة والخشنة، وتكتلت فى استماتة للدفاع عن مصالحها المهددة، ويبدو أنها على استعداد لحرق الوطن كله من أجل تلك المصالح، بينما الشرائح التى ثارت وفجرت فى الشعب المصرى الكامن الحضارى والأخلاقى خبا وهجها، وغاب صوتها وتفتت قواها، وتحولت إلى أيديولوجيات وأحزاب متنافرة، ظن كل منها أنه يقف على أرضية ثابتة وشعبية وحشد جماهيرى يمكنه وحده من الامتداد والسيطرة على الأرض، وبين هذه الأيديولوجيات والأحزاب غاب الرحم الوطنى وتقطعت أوصاله فانكشف سقف الثورة، وأضحت قواها فى العراء بفعل أبنائها البررة، الأمر الذى أغرى قوى الغدر بتوجيه ضربتها المفاجئة للقضاء على الثورة أو على الأقل تشتيت قواها وتمزيق لُحمتها.

الخطأ هنا –وبغض النظر عن تحليله وحجمه ونصيب كل فصيل منه– كان قاسمًا مشتركًا بين كل التيارات الوطنية، بينما الحنكة وخبرة الخبث الطويلة والمتراكمة فى إدارة عمليات التزييف والتزوير كانت أيضًا قاسمًا مشتركًا بين كل الفصائل الخائفة من الثورة.

صراع من هذا النوع يلتقى فيه حق أهله مختلفون فيما بينهم، وباطل يخدمه التخطيط والتنظيم والمال والإعلام لمن تكون الغلبة فيه ولو بشكل مرحلى؟ بالطبع ستكون للباطل وهذا ما حدث.

الضحية هنا هو هذا الشعب العظيم الصابر من آلاف السنين والمحروم والمحتسب لكل حقوقه المنهوبة على مدار القرون، وحين تراكم غضبه وتحول إلى ثورة حضارية وأخلاقية تحدث عنها العالم بتقدير وإعجاب وأسلم قيادها لأبنائه البررة، ممثلين فى كل التيارات الوطنية، لم يكن الجميع على قدر من الوعى بحجم المخاطر وتربص الأعداء فانشغل أبناء الوطن الأحرار ببعضهم، كل يتهم الآخر ويعيق حركته، ومن ثم تمددت الحزبية والأيديولوجية على حساب الوطن، وعلت مصلحة الحزب على مصالح الأمة

الأمر الذى يوشك أن يغرق سفينة الوطن فى مستنقع آسن، لن ينجو فيه ليبرالى أو إسلامى أو ماركسى أو سلفى أو مسلم حر أو قبطى حر.

نعم وبالفم المملوء بالمرارة والعلقم أخطأت كل التيارات وفى مقدمتها التيار الإسلامى إخوانًا وسلفيين، لكن البكاء على اللبن المسكوب لا يفيد، وجلد الذات لا يؤدى إلى تغيير الواقع، وإنما المهم أن يعلو الجميع على ذاته وأن نخرج حالاً والآن من أسر الحزبيات والأيديولوجيات، وأن يرتفع إدراكنا إلى حجم ما يحتاجه الوطن فى ثورته العظيمة من عمليات الإغاثة والإنقاذ.

لابد للجميع من أن يتحامل على جراحه وينسى ما فات، ويمد يديه ويفتح قلبه وعقله لكل التيارات الوطنية مع احترام الخصوصيات، وأن تعلو راية الوطن كل الرايات المرفوعة هنا وهناك، وألا تبقى فى سماء مصر على الأقل فى وقتها الراهن غير راية الوطن كما كنا جميعًا فى ميدان التحرير.

وليكف الجميع عن المهاترات التى تؤخرنا ولا تقدم شيئًا، ولنكن جميعًا جزءًا من الحل بدلاً من أن نكون نحن المشكلة.

هذا.... أو الطوفان القادم من رحم النظام البائد.

الرئيس.. والغرف السوداء (*)

يقولون: إن ذكر الجفاء فى وقت الصفاء جفاء، ومن ثم فلا يجوز أن نعكر صفو فرحتنا بحديث عن حزن الفلول وكراهية الفلول وحقد الفلول، والمراجل التى تغلى داخلهم بالحقد والضغينة على الثورة والثوار، فبالأمس اختنقت الفرحة بأعينهم وغشَّاها الوجوم.

وليأذن لى القارئ الكريم أن نطل بصحبته على مشهد الأحداث من منظور ثلاثي الأبعاد.

البعد الأول: ضمن هذا البعد يرى الناظر لأول مرة فى تاريخ مصر رجلاً يقدم نفسه فى بداية يومه الأول بأنه خادم لشعبه وأجير عنده، بينما خفافيش الظلام قد خرجت من جحورها وحاولت وتحاول تعكير الصفو وجس نبض الشعب بخبر ظاهره صادق وباطنه مكذوب، أما إن ظاهره صادق فلأن النتيجة النهائية لم تظهر رسميًا حتى كتابة هذا المقال، وإن توثقت بأيدى قضاة مصر الشرفاء لتقطع الطريق على أى تزوير.

وأما إن باطنه مكذوب، فلأنه ادعى فوز المرشح المهزوم ليشق به صفوف الجماهير الغفيرة فى ميادين مصر كلها، ولعله أراد أن يمهد بذلك لانقلاب آخر تدبر له خفافيش الظلام بإخراج كل ما فى جعبة الحواة من بنود دساتير الحظر والتوقيف والبطلان لتغتال بها الثوار والثورة، ولكن الشعب لها بالمرصاد هذه المرة.

محاولات الغش التى مورست طوال عشرات العقود انكمشت ولم تجد فرصة لتمارس جرائمها رغم توفر القصد الجنائي المتمثل فى سبق الإصرار والعمد، وحتى قبل الانتخابات بساعات قليلة.

يقظة الشعب أصابت الأيدى الآثمة التى طالما تطاولت على حقوق الشعب، واغتالت إرادته وفصَّلت تفصيلاً قوانين البهتان والزور، وكانت تحت طلب وإرادة المستبد والدكتاتور وحاشيته وطوع بنانه، إن شاء عاقب وحظر وعزل، وإن شاء نفى وسجن وحاكم محاكمات عسكرية.

هذه القوى الشيطانية أفقدت العدالة قيمتها وأهانت هيبتها، وربما تحاول خلال الساعات القليلة القادمة أن تلعب لعبتها، ولكن تعويذة الإرادة الشعبية هذه المرة فعالة،

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢١ – ٠٦ – ٢٠١٢م

وستغل يمينها وتشل لسانها وتكسر إرادة الشر فيها، وتجبرها أن تكف سمومها وتلملم أنيابها الملوثة بدماء العدالة واغتيال القانون وقتل الضمير.

قوى الشر لابد أن تكف أذاها عن شعب مصر، ولتستر عورتها ولتقل خيرًا أو لتصمت تمامًا، أو ستجرفها أمواج التيار الوطنى الأصيلة، وتقذف بها فى مزبلة التاريخ مكللة بالعار والخزى، ومكفنة بأكفان الباطل الذى يأتى يوم القيامة شاهد عار على أصحابه بأنهم كانوا خدمًا للفرعون الأكبر ثم صاروا سدنة لكل فرعون صغير.

بالأمس كان يوم العقاب لهم قبل العقاب، وكان يوم الفزع لهم قبل الفزع الأكبر.

بالأمس ارتجت قلوبهم وشخصت أبصارهم، وكانت أفئدتهم هواء.

بالأمس تحركت مراجل الحقد فى قلوبهم، فكان اليوم الأغر لمصر المحروسة ولشعب الكنانة هو اليوم الأسود فى حياتهم.

بالأمس كانت الأقدار تخط بداية جديدة لمصر، بداية تكرس الكرامة والعزة والحرية وحقوق الإنسان.

بالأمس كان ميلاد وطن جديد اكتشف فيه المواطن قدراته وعرف ذاته، وأدرك أنه لا غالب لإرادته ولا سالب لعزته وكرامته، ولا قاهر لقوته طالما كان فى كنف الله متمسكًا بوحدة مصيره وميادين تحريره.

خفافيش الظلام لم تنتهِ بعد، وستظل تحفر وتعبث وتعيث حتى تحفر قبرها بأيديها وأيدى المؤمنين بالله، ثم بهذا الوطن حرًا أبيًا.

ستظل تلك القوى تتجمع مرة أخرى كالأخطبوط لتخط بنفسها حكم التاريخ والأقدار عليها، ولتثبت للدنيا كلها أن دولة الباطل ساعة، وأن الظالم لا تعمر له دار ولا يستقر له قرار ولا يرضى به جار، وعليه يدعو سكان الأرض ويتنزل عليه غضب السماء ويبغضه كل شىء حتى رفاة المقابر.

آخر سموم الخفافيش، حاولت أن تنفثها باحثة إعلام جامعية قدمها مقدم البرنامج بأنها "خبيرة ومحللة إعلامية"

السيدة صدر منها تحت تأثير كراهيتها للتيار الإسلامي كلمات مثيرة للسخرية وللغثيان، وربما مبكية أيضًا لحجم ما فيها من هزل، وبما أنها "محللة" فعلينا نحن المحلَّلِ لهم أن نستمع إليها؛ لأنها مقررة يوميًّا علينا في برنامج السيد عاشق ذاته.

الضيف الآخر فى البرنامج وصف موقف المجلس العسكري من حل مجلس الشعب والإعلان الدستورى المكمل بأنه سلوك مشين، لكن فريدة عصرها ودرة زمانها رأته موقفًا مبررًا ومعقولاً، وأن الدوافع وراء موقف المجلس العسكري هو خشية العسكر على الأمن القومى المصري من الإخوان!

المرأة المحللة بجرة قلم حولت تيارًا إسلاميًّا وطنيًّا طاهرًا وشريفًا فاز مرشحه وبإرادة الشعب إلى عدو خطير يهدد الأمن القومى المصري! هكذا وبجرة قلم فاجر وأثيم!.

ثم أضافت الست الخبيرة أن "المجتمع المدنى والجيش يخشى من"أخونة" المجلس العسكري، وليعذرنى القارئ فلم أفهم هذه العبارة بالضبط!.

هل الجيش ومعه المجتمع المدنى فى نظر المحللة يخشى مثلاً من تحويل أعضاء المجلس العسكرى إلى إخوان مسلمين؟ بمعنى أن المشير طنطاوي يمكن أن يخلع البزة العسكرية ويلبس جلبابًا ويربي لحيته ويرتدي بدل الباريه عمامة وعدبة؟ أو سيذهب بكامل جنرالاته اللواء العصار وبدين وعتمان وعلى رأسهم الفريق عنان ويشكلون مثلا تنظيمًا كجماعة الدعوة والتبليغ ويذهبون إلى الناس فى بيوتهم ليدعوهم إلى الخروج فى سبيل الله ثلاثة أيام مثلا!!.

ألهذا الحد تدفع الكراهية أصحابها أن يشطحوا فى خيالاتهم ويهرفون بما لا يدركون؟، ما معنى أخونة المجلس العسكري؟.. هل يفهم أحد هذه العبارة؟.

وهل يرى ترزية القانون فى جعبتهم ما يجرم هذا الوصف الذى تخشاه المحللة لسادتهم؟

وهل في هذه الحالة "أخونة المجلس" لا قدر الله، كما وصفتهم المحللة ينطبق عليهم أيضًا وصف "المحظورة"..؟.

البعد الثانى: مصر لن تركع تحت بيادة العسكر يقولون في مصر "على عينك يبان يا مداغ اللبان"، بسرعة ظهر المخبوء في جعبة العسكر، هم يريدون شفيق وقد وظفوا كل إمكانات الدولة الباطنية والدولة الظاهرية لخدمة حملته، ولما تأكدوا أن التزوير مستحيل، وأنه يشكل فضيحة عالمية،راحوا يكسرون أصابع الرئيس الجديد، ويضعونه تحت الوصاية، وكأنهم يخرجون ألسنتهم لإرادة الشعب في التحول الديمقراطي ويقولون لنا "خلوا الديمقراطية تنفعكم" رئيسكم بلا مسؤولية، وسلطانكم بلا سلطات.

الخوف من فتح ملفات الفساد يخلق تحالفًا بين الفاسدين ويجعلهم يصرون على اغتيال الثورة وسرقة جثتها حتى قبل الدخول إلى المشرحة، ولكن هيهات، فالشعب قد عرف طريقه واكتشف ذاته وكسر كل حواجز الخوف، ولله سيوف يقطع بها رقاب الظالمين، منها أخطاؤهم.

اللعب الآن على المكشوف، وترزية الدساتير والباعة المتجولون للقوانين لن يجدوا طريقاً لفرض التزوير على مصر، فمن أجل عيون المحروسة كان تشكيل تنظيم "قضاة من أجل مصر" لحماية شرف القضاة حتى لا يعبث به هؤلاء الذين يعرفهم القاصى والداني، وتعرفهم الانتخابات السابقة في عصر المخلوع.

"قضاة من أجل مصر" يحمون شرف القضاء وشرف العدالة وشرف القاضى أيضًا.

"قضاة من أجل مصر" رجال يتعشقون العدالة ويتعبدون ربهم في محاربها، ولا يخافون سلطة العسكر، ولا ترهبهم قوى الشر التى تعمل فى الخفاء.

"قضاة من أجل مصر" لا يحمون العدالة فقط، وإنما يحمون كرامة الوطن من أن يعبث بها باعة الدساتير المتجولين على أبواب سلاطين الظلم في كل العصور.

"قضاة من أجل مصر" هم الذين يحمون ثورتها وثوارها وشهداءها.

"قضاة من أجل مصر" حركة شريفة تنفى عن العدالة خَبَثَها وتعزل عنها جراثيم الوضاعة والانحياز وتفصيل القوانين وبيعها في سوق النخاسة الدستورية الجديدة.

بدعة تفصيل القوانين ليست جديدة، وإن كانت ضد حركة التاريخ وإرادة الله وحرية الشعوب وكرامتها وعزتها، وقديمًا قال بائع دستوري متجول لحاكم ظالم.

ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار — فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنمـــا أنت النبي محمـد — وكأنما أنصارك الأنصار

لكن الشرفاء أسكتوه وقطعوا لسانه، وجعلوا تلك الفرية آخر أكاذيبه.

"قضاة من أجل مصر" هم بقايا الأمل لحماية شرف القانون الذي نحترمه جميعًا ونجل القائمين عليه، وننادى بتطهير حقله من نباتات اللبلاب المتسلل الذي يتخلى عن شرف المهنة ويأكل على مائدة السلطان الغاشم. ثورة مصر لن يعبث بها ترزية القوانين، فقد عانت منهم قرابة قرن من الزمان وكفى.

البعد الثالث: انتهى عصر استغلال الشعوب، انتهى عصر الطغاة وبدأ عصر جديد هو عصر إرادة الأمم، افهموا أيها الناس، وكيِّفوا أوضاعكم إن أردتم العيش في بلد كريم، وإلا فابحثوا لكم عن وطن آخر يباع فيه البشر وتقام فيه أسواق النخاسين وتجار الرقيق ولن تجدوا.

كفوا عن ممارسة العبث بأقدار الناس، واعلموا أن الشعوب الآن تعرف كيف تحاسب جلاديها، ولا يغرنكم بقاء المخلوع في مصحة طبية فلصبر الشعوب حدود، ولئن تعود شعب الكنانة على السماح والطيبة ونسيان الإساءة، فاعلموا أن غضبه إعصار ونار، وأنه قادر على سحق أكبر الرؤوس إذا امتلأت بالصلافة والغرور ونسيان التاريخ، وأن جيش الشعب سيكون بجانبه ولن يقف ضد إرادته ولن يخذله في ثورته إذا تعرض لها قطاع الطريق، وهكذا فعل من قبل فخذوا العبرة من التاريخ.

عواجيز الفرح الذين يحلمون بعودة النظام القديم عليهم أن يدركوا أن حركة التاريخ تمضى إلى الأمام وليس إلى الخلف، وأن بطر السلطة وإساءة التصرف بها نحو الشعوب لن يجلب لأصحابه غير المتاعب ولو كانوا فى آخر العمر، فاستفيقوا أيها الناس ولا يغرنكم سلطان القوة، فهناك من هو أقوى منكم وأكبر، وأشد منكم صلابة وأكثر إصرارًا على نيل كرامته وحريته ولو كان السبيل هو الموت.

اعلموا أيها الناس أن الشعوب، وشعب مصر بالذات وصل به الأمر أن استوى عنده الحياة والموت، وأن الموت الآن هو الخيار الأفضل بعدما سرقت ثروته واستبيحت كرامته ولن يسمح الآن أن تسرق ثورته مرة أخرى.

شعب مصر الأصيل ينسى الإساءة بسرعة فتعالوا نلتقى معًا، اليد في اليد، والكتف فى الكتف، والقلب على القلب لنصنع المستقبل من أجل مصر. تعالوا معاً ننسى الماضى ونفكر فقط فيما هو آتٍ فالمستقبل مليء بالتحديات الكبرى، فتعالوا نفتح فى التاريخ صفحة جديدة، ولنجعلها من أجل مصر مضيئة ومشرقة.

النافذة الثانية عشرة

دهاليز السياسة.. وكيد الزعامات

الناس فى مصر المحروسة تحتاج فى تضميد جراحها إلى رعاية من نوع خاص، لا يستطيع أن يقوم بها إلا حاكم يجمع بين خصائص رجل الدولة ورجل التوبة.

الموقف فى مصر يحتاج قدوة حانية تتسلل بطهر أخلاقها إلى قلوب الناس فتعالج حقدهم وجحودهم وأنانيتهم، كما تحتاج إلى حزم عدالتها لتعالج ظلمهم وجشعهم.

برقية من مفتي أستراليا إلى الرئيس الجديد (*)

سيدي الرئيس، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.. وبعد

فرحتنا بك لا يعدلها إلا أملنا فيك ورغبتنا فى توفيق الله لك.

سيدي الرئيس، الناس هنا ومن حولى يتضرعون إلى ربهم أن يسدد خطاك وأن ينقذ بكم شعب الكنانة، وأن تتجاوز بمصر المحروسة أزماتها.

قالت لى إحداهن هل تعرفه شخصيا؟ قلت لها، سمعت عنه ولكنى لم أره.. قالت ساعد المرسى يا ولدى... قلت لها كيف أساعده يا أمى وهو هناك فى مصر وأنا هنا فى أستراليا؟؟

قالت: بقلمك وقيام الليل وضراعات الأسحار، أدركت ساعتها أن المرأة موصولة ببارئها وأن من تهتم به وتدعونى لمساعدته هو رجل توبة ورجل دولة.

سيدي الرئيس لا أعرفك من قبل، ولكنى أحبك فى الله تعالى، وليست لى عندك حاجة حتى أطريك أو أثنى عليك، لكنه رباط المحبة فى الله، ثم مظلة الوطن التى نلتقى من أجله قلبا لقلب وعقلا لعقل وفكرا لفكر وعطاء بعطاء.

أعرف يا سيدي الرئيس أن حجم مسئولياتكم كبيرة وأدعو الله أن يعينك عليها وليس من حق مثلى أن يشغلك بإضافات، وأعرف أيضًا أن حجم الفساد الذى تعانيه مصر يضاعف من حجم التحديات الضخمة أمام الرئيس الجديد.

نعرف أيضا أن البكاء على اللبن المسكوب لا يفيد، ولا نستطيع به أن نسترد ما ضاع منا، لكننا يجب أن نستفيد من دروسه وعبره، وإذا كانت كل الدول تحتاج فى قيادتها إلى رجل دولة بالمفهوم السياسى، يملك من الخصائص النفسية والعقلية ما يمكنه من إدارة الأزمات والخروج بالأمة من مآزق شتى، فإن تطبيق هذه الشروط فى حالة مصر لا يكفى، فرجل الدولة فى الحالة المصرية يمكنه أن يقود البلاد بشيء من الحزم والشدة، لكن ذلك وحده لا يكفى لتضميد الجراح المصرية وسد الفتوق والخروق التى يعانى منها جسد الوطن طوال ستين سنة، هذا بالإضافة إلى البثور والقروح التى تتمثل فى

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٧ – ٠٦ – ٢٠١٢م

العشوائيات بشتى صنوفها المادية والثقافية، والتى شوهت صورة مصر ورجعت بها إلى الوراء، وجعلتها تتخلى بعجز مخز عن دورها العربى والإقليمى والدولى.

رجل الدولة هنا بكفاءته وقدراته يصبح عاجزًا عن تضميد الجراح النفسية والعطب الذى أصاب المجتمع المصرى فأفسد بعض النسيج فيه وشوه بعض خلاياه.

الناس هنا فى المحروسة تحتاج فى تضميد جراحها إلى رعاية من نوع خاص لا يستطيع أن يقوم بها إلا رجل يجمع بين خصائص رجل الدولة ورجل التوبة.

الموقف فى مصر يحتاج قدوة حانية تتسلل بطهر أخلاقها إلى قلوب الناس فتعالج حقدهم وجحودهم وأنانيتهم، كما تحتاج إلى حزم عدالتها لتعالج ظلمهم وجشعهم، القدوة هنا تغرس فيهم عن طريق المراقبة أو ما يسمى بالضبط الإرادى احترام القانون العام وحماية النظام العام وتولد لديهم الإحساس بالمسئولية الوطنية.. وتذكر يا سيدى الرئيس "أن الناس على دين ملوكهم" وقد استبشرنا خيرًا بقولك: "وليت عليكم ولست بخيركم".

العبارة تحمل من ظلال العدالة الوارفة معنى المساواة وأنه لن يزيد لديك نصيب مؤيد على نصيب معارض، ولن يتقدم عندك قريب على حساب بعيد، وتلك سمات رجل الدولة والتوبة.

رجل التوبة كلما زاد تمكين الله له كلما زاد عدلا وتواضعًا بين مواطنيه.

رجل التوبة ورجل الدولة ينظر بعيونه إلى الشعب، بينما يكون قلبه متعلقا برجاء الجناب الأعلى، فهو يرعى فى كل مخلوق حق من خلقه بصرف النظر عن دينه أو جنسه.

رجل التوبة كلما زاد تمكينا ابتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة، ومن ثم فهو لا ينسى نصيب شعبه من الدنيا تمكينا ونهضة وعلما وطهارة وأخلاقا.

رجل التوبة طبيعة تكوينه أنه يحسن إلى شعبه كما أحسن الله إليه، وضميره يذكره دائمًا بسيادة شعبه، وأنه صاحب السلطة العليا ومصدر التوجيه، وما الحاكم إلا أجيرًا وحارسا أمينا على مصالحه، ومستخلفا فى إدارة شئونه، فإن أحسن أطاعوه وساعدوه، وإن أساء عزلوه وحاسبوه، وشكرا لك سيدى الرئيس على طلب ذلك منا،ونعدك أن نكون على العهد والوعد.

رجل الدولة يكون مطاعا فى رعيته، بينما رجل الدولة والتوبة يجب أن يكون طائعا قبل أن يكون مطاعا، ونحمد الله تعالى أن اختارت لنا أقداره من تتوفر فيه تلك الصفات. نحسبك كذلك والله حسيبك ولا نزكى على الله أحدًا.

رجل الدولة يحسن شئون الدنيا ويحسن العمل فيها، بينما رجل الدولة والتوبة يحسن شئون الدنيا والآخرة، ويتكامل فى رؤيته عالم الغيب مع عالم الشهادة، عالم الدنيا مع عالم الآخرة، عالم المادة مع عالم الروح.

نظرة رجل الدولة إلى الدنيا نظرة تتسم بالشمولية وهو يحسب حساب رقابة شعبه، فالرقابة عليه أرضية المصدر، بينما رجل الدولة والتوبة ينظر إلى العالمين، عالم الدنيا وعالم الآخرة، ويحسب حساب مواطنيه ولكنه قبلهم يحسب حساب مولاه وسيده الذى ولاه فالرقابة عليه متعددة، وعليه وفوقه أكثر من سلطة وسلطان، سلطة شعبه ورقابته، وقبلها وبعدها رقابة الله ورسوله والمؤمنين ثم رجوعه إلى عالم الغيب والشهادة وحسابه بين يدى ربه ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة ١٠٥).

رجل الدولة حساباته مادية محضة، بينما رجل الدولة والتوبة يحسب حساباته مادية ومعنوية، فعنصر البركة هنا عامل حاسم فى توفيق النتائج وعموم الفائدة وتعميم الخير، ومن ثم فهو يعتمد الأسباب المادية، لكنه يرنو بأفقه البعيد إلى مسبب الأسباب يستغفره ويدعوه ضارعا ويرجوه متفائلا وآملا.﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ٥٢) ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(نوح: ١٠-١٢).

رجل الدولة له جنوده من أهل الأرض، بينما رجل التوبة له جنوده من أهل الأرض والسموات. الأفق أمام رجل الدولة محدود بمساحة الوطن وعدد السكان ومصادر الدخل وحجم ما يأتيه من مساعدات خارجية، بينما الأفق أمام رجل الدولة والتوبة يتجاوز مساحة الوطن، بل يتجاوز مساحة الأرض كلها ومصادر الدخل كلها ليُدخِل فى حساباته خزائن الله التى لا تنفد أبدًا، فالأفق هنا أوسع مدى وأعظم حجمًا وأكثر ثقة

فى حجم المساعدات، التى تأتيه من ربه ولا ترهن الإرادة أو تلوى الذراع ولا تهدد بقطع المعونة.

رجل الدولة مستقبله محدود بحدود هذه الحياة الدنيا، بينما رجل الدولة والتوبة شعاره: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

رجل الدولة مسئول أمام شعبه عن كل خلل يصيب أفراد مجتمعه بكل أطيافه بينما رجل الدولة والتوبة تتسع مسئولياته لتشمل مجموع أمته ويسأل حتى عن الحيوان الأعجم إذا عثر لِمَ لَمْ يمهد له الطريق ويرحمه من عثراتها.

مصر فعلا فى حاجة إلى رجل دولة ورجل توبة، رجل توبة يتقى الله فى شعبه فيكون مسئولا عن الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود فى عشوائيات لا يرضى الحيوان بسكناها، واليتيم المكسور الذى فقد من يرعاه ولا يرحمه أحد، والأرملة والشيخ الكبير وذى العيال الكثيرة والرزق القليل الذى يولى ظهره نحو الحياة ويقبل على الموت منتحرًا لأن آخرين قد سرقوا قوته وأخذوا حقه ومنعوه نصيبه فلم يعد قادرًا على تحمل أعباء أسرته فهرب من الدنيا إلى الموت منتحرًا.

مصر فى حاجة إلى رجل دولة ورجل توبة يوفر لشبابها عملا شريفا ومسكنا نظيفا وماء نقيا غير ملوث، ويحميهم من مغامرات الهجرة القاتلة التى تعرض حياتهم للغرق أو الضياع فى غابات إفريقيا.

لا نريد أن نعكر صفو فرحتنا بالحديث عن المطالب وهى كثيرة يا سيدى الرئيس والتحديات أكثر، ومصر يرعاها الله ويرعاكم فى حاجة إلى ترتيب أوضاعها من الداخل، وهى تحتاج إلى رجل له قلب وعقل، تحتاج إلى رجل دولة ورجل توبة فى نفس الوقت، فلتكن أنفاسك محملة بروح الحياة فى سبيل الله، ولتكن بين أهل السياسة رجل دولة، ولتكن بين يدى ربك رجل توبة فتجمع لشعبك خيرى الدنيا والآخرة، وحينئذ نفخر برئيس يكون سيدًا مطاعا لا بين عبيد وإماء، وإنما بين سادة أتباع، هم جميعا شعب مصر. ألف مبروك ومبارك لمصر عرسها الديمقراطى، ولك يا سيدي خالص تحيات المحب لكم.

جراح الوطن ونبات اللبلاب السياسي (*)

أعتذر بداية عن إرجاء الحديث فى سلسلة "رمضان الشهر والعام والعمر"، وأستأذن القارئ أن أنحاز إلى اهتمامه بجراح الوطن، وأن أشاركه مشاعر الحزن لفقد رجال كانوا يؤدون واجبهم وهم صائمون، فامتدت يد الغدر الخسيسة لتغتال حياتهم، وهم يتناولون فطورهم.

الأقدار علمتنا . وتعلمنا دومًا . أن الشهداء دائماً مستعدون، وهم تحت الطلب، كلما احتاجهم الوطن ليعيش بكرامة وحرية، وهذا هو قدرهم.

ومن مزايا ثورة ٢٥ يناير أنها كانت سلمية بامتياز، وأنها بهرت العالم بأدائها الثورى والحضارى، لكن هذه الميزة يمكن أيضاً أن تكون عيبًا، فالوضع فى مصر كان يحتاج إلى شىء من الحزم فى معالجة ظاهرة الفلول والثورة المضادة، وكان على ثورة مصر أن تضرب على أيديهم، وأن تكسر أصابعهم حتى لا يعبثوا بأمن مصر.

كل الثورات كانت تواجه أعداءها بحزم وقوة حتى لا تترك مجالا للردة.

الحالة المصرية بعد الثورة لم تكن مهيأة للتعامل بقوة القانون مع العابثين، ومضى عام ونصف والوضع فى مصر لا يسر، فلا أمان ولا استقرار ولا إنتاج، والقوى الوطنية لم تلتفت لخطورة الأوضاع، وإنما كانت مشغولة بتقسيم التورتة السياسية فى وطن يئن من الفوضى.

أظن أن الحدث المؤلم والمؤثم والمجرم، الذى وقع فى سيناء يكشف عن رغبة من يتمنون الشر لمصر أن لا يقر لها قرار، وألا تحظى بعملية تحول ديمقراطى يتم وفق الرؤية الإسلامية، وتسلم فيه السلطة بسهولة ويسر.

ما حدث قرب رفح يجب أن يدفع كل القوى الوطنية لتتخلى عن المطامع الخاصة، ولو كانت لصالح هذا الحزب أو ذاك، والقضايا العاجلة التى تهدد سلامة الوطن واستقراره يجب أن تحظى بكل الأولويات المطلقة.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٨ – ٨ – ٢٠١٢م

فما حدث ليس مصادفة، وإنما هى مؤامرة تستهدف تعطيل الحياة السياسية، وتنال من سيادة الوطن، وتنتقص من شخص الرئيس وهيبة مؤسسة الرئاسة، ولذلك وجب على كل شرائح الوطن وتياراته المختلفة أن تهب لدفع هذا العبث والضرب بيد من حديد على من وراءه فى الداخل والخارج، ولا يجب أن نسمح أن يكون مستقبل الوطن فى مهب الريح لأن مجموعة الفلول ليست راضية على الثورة ولا على مسار التحول الديمقراطى.

الصمت هنا يشكل مشاركة فيما يحدث، كما أنه يسقط مهابة الدولة، ويمنح العابثين فرصًا جديدة لاستمرار العبث بأمن مصر وسلامتها.

الأجهزة المعنية عليها أن تقدم الفاعل الحقيقى أو تستقيل وتعلن عجزها، فالموقف لا يحتمل التمييع، وقبل ذلك ضربت الطائرة المصرية القادمة من أمريكا، والتى كانت تحمل مجموعة من القادة الضباط المصريين وسكت النظام ولم يعلق ببنت شفة.

الناس كلهم والدنيا كلها لابد أن تعلم أن هذا العهد قد انتهى إلى غير رجعة، وذلك يكون بالفعل لا بالقول فقط.

الرجال الذين فقدتهم مصر فى ذلك الحادث الأليم هم رديف الثوار الذين ضحوا بحياتهم فى ثورة ٢٥ يناير لتعيش مصر وشعبها، وبعضهم فقد أعضاءه لِيَسلمَ الوطن، والبعض الآخر فقدوا عيونهم لترى وتفرح عين الوطن بأعلام الحرية ترتفع فى ميادينه وفوق أسطح منازله.

الحدث الجلل، الذى أصاب قلب الوطن لا يجوز أن يمر بغير مراجعة أو حساب.

البحث عن الجناة وتحديد الجهات، التى حرضت على الجريمة ليس فقط واجب الوقت، وإنما أضحى ضرورة مستقبلية لحماية أمن الوطن ممن يعبثون به ويستغلون حالة السيولة السياسية، وما يصاحبها من عدم الاستقرار لتهديد الوطن.

الدعوات التى حرضت على العنف والفوضى على فضائيات تبث من أرض مصر يجب أن يحاسب من أطلقها مهما كانت مكانته.

والتيارات السياسية كلها يجب أن تتوحد وأن تتوارى تماما كل الخلافات السياسية أمام التحدى الجديد.

نعرف أن البلد تعانى من حالة فوضى فى مجالات متعددة، ونعرف أن وراء هذه الفوضى قوى ارتبطت مصالحها بالنظام المخلوع، لكن التحدى الجديد بقتل جنودنا بدأ يأخذ منحى خطيرا يجب أن تحشد فى مواجهته كل الجهود حتى يتم القبض على الجناة ومعرفة من وراءهم.

الشعب المصرى لن يقبل بتصريحات طمأنةٍ من الأجهزة المعنية تفيد أن الموقف تحت السيطرة، وأن كل شىء على ما يرام، فزمن التصريحات المفبركة قد ولى وراح، والشعب الآن يتمتع بقدرة عالية على تمييز الكلام الجاد من كلام الليل المدهون بزبدة، فإذا طلعت عليه الشمس ذاب وتبخر، لأنه ليس إلا فبركة للاستهلاك المحلى والضحك على الذقون.

خصوم الوطن وأعداؤه فى الداخل والخارج يجب أن يعلموا . وبدروس عملية . أن مصر تغيرت، وأنها لن تفرط فى حق أبنائها، ولن تتسامح مع من يعبث بأمنها أبدًا.

أول الدروس العملية يبدأ من الشارع المصرى بالقضاء على كل مظاهر الفوضى السياسية والإعلامية، التى تسود الشارع المصرى ويقودها موتورون لا خلاق لهم ولا وطنية لديهم، ولا يجيدون فى الحياة إلا صراخ الحناجر والهذيان بكلام لا معنى له.

يجب أن يبدأ الحزم السريع الرادع ليدرك العابثون أن العقوبة تنتظرهم، وأنهم لن يفلتوا من العقاب، وأن العدالة لها أنياب ومخالب، وأنها ستجرح بالقصاص وبشدة قلوب من يغتالون أبناء مصر وجنودها البواسل، وعلى الجميع أن يدرك أن دماء المصريين لم تعد رخيصة كما كانت من قبل.

مصر اليوم لديها وزارة جديدة، ولديها وزير عدل نثق فى كفاءته ووطنيته ونزاهته وشرفه، ولديها أيضاً وزير داخلية ننتظر منه الكثير.

جهود كل المؤسسات الأمنية وبقية مؤسسات الدولة يجب أن تنتظم فى سلك واحد لمقاومة الفوضى، وفى مقدمتها البلطجة السياسية، التى يمارسها البعض، كما يجب أيضًا أن تتخلص مصر من النفايات الإعلامية قبل التخلص من نفايات الشوارع التى تحولت إلى حواجز إعاقة تزكم الأنوف وتعيق حركة سير الأشخاص والمركبات.

ننتظر من وزير الداخلية أن ينهى حالة الصياعة التى تمارس فى الشارع المصرى من قبل البعض وتتعدى على الأفراد ومرافق الدولة.

فريق الوزير يجب أن يكون جاهزًا، ومن ليس على استعداد عليه أن يتقاعد فورا ويذهب إلى بيته.

فوضى التحريض فى فضائيات الفلول وعلى لسان بعض العابثين ممن لهم أهداف وأجندات خارجية له صلة بذلك الحادث المؤلم، والنائب العام المدنى والعسكرى، يجب أن يبدأ التحقيق معهم فورا وهم معروفون جيدًا.

مصر اليوم فى حاجة إلى الحزم والحسم حتى تنتهى الفوضى.

نعلم أن الدموع تملأ عيون كل المصريين الآن، لكن الحزن لا ينسينا البحث الجاد عمن فعل الجريمة، ومن المستفيد منها؟ ولصالح من فى هذا الوقت بالذات؟

بشاعة الجرم تحتم على كل القوى أن تتوحد اليوم قبل الغد، وأن تنسى كل خلافاتها وتقف خلف قيادتها لتثأر وتنتقم.

نباتات اللبلاب السياسى، التى تتاجر بجراح الوطن ودماء الشهداء فى أسواق النخاسة الفضائية يجب أن تخرس وبالقانون، وإذا كان البعض لا يفهم لغة الأخلاق، فإن العقاب يجب أن يكون جاهزًا ورادعًا، وبعض الناس لا يفهم إلا هذه اللغة.

رحم الله الشهداء الضحايا، وعزاؤنا لأهليهم ولكل الوطن الجريح، وعلى أبنائه الشرفاء أن يتحاملوا على جراحهم، وأن يطهروا مصر من اللبلاب السياسى المتسلق، وأن يغسلوا سماءها وفضاءها من القمامة الإعلامية، التى دأبت على نشر نجاستها ورجاستها وفحش قولها فى ماخور الفضائيات المستأجرة، واللهم إنى صائم.

عزيز مصر.. وصناعة التاريخ (*)

ثورة ٢٥ يناير محصت الساحة الوطنية تمحيصا أفرز ثلاثة أنماط من الوطنيات المنقوصة،كلها كانت مثالا للانتهازية، وإثارة الضجيج واللغط بقصد إفساد الفرح وتحويل الاهتمام وإثارة الكآبة السياسية، كما أنها تزايد على الوطنية الحقيقية بهتاف الحناجر دون أن يكون لها على الأرض وجود حقيقى بين الجماهير.

النماذج الوطنية فى صورها الثلاثة الزائفة ليست لها قيمة. فالوطنية الصورية تلتزم شكلا لا موضوعا، ويدعيها كثيرون، فإذا جد الجد خلت الساحة من وجودهم.

والوطنية الجزئية التى تتعامل مع الوطن بما يسمى فى الفلسفة بنظرية الانتقاء، فتقبل بعض أحكامه الجزئية التى تتناسب ومصالحها الخاصة، بينما ترفض تحمل أعباء المواطنة،وتتخلى عنها اذا اصطدمت بالمصلحة.

والوطنية المشروطة التى تريد من الوطن كله أن يكون تابعا لهواها السياسى أو الأيديولوجى وإلا فلا، ومن ثم فهى تقبل بشروط الديمقراطية إذا لبّت رغباتها وجاءت بها، بينما تفضل عليها الدكتاتورية وتدعو العسكر مثلا للانقضاض والانقلاب عليها إذا جاءت بخصومها، وتتهم الشعب باللاوعى، وغير ذلك من الصفات التى جرت وتجرى على ألسنة الكثيرين ممن يسمون بالنخب الثقافية والسياسية فى التجربة المصرية الآن، الأمر الذى جعل باحثا ليبراليا مثل الدكتور وحيد عبد المجيد يستنكر هذا التصرف المشين ويعيب على أصحابه ويتهمهم بكل أشكال العوار السياسى والمنطقى الذى يصيب الفكر فيجعله معتلا ويصيب الفكرة فيجعلها مختلة ومن ثم يمكن وصف سلوكهم السياسى بالشذوذ والعلة، بالشذوذ فى السلوك، والعلة فى الفكرة التى أصابها الهوى فأحال بينها وبين المنطق السوى المقبول فى العرف السياسى والأخلاقى المعتبر.

النماذج التى تجمع كل أنماط الوطنية المنقوصة هم رجال المال المنهوب من ثروة الشعب، حيث صنعوا حول أنفسهم مجموعة من الصبيان هم أقرب إلى القوارض البشرية، كانوا هم الأدوات التى عكرت مسيرة التغيير وخلقت الكثير من النكد السياسي، كما كانت مواقفهم وممارساتهم أشبه بكوميديا يمارسها هاو غير محترف، ثقيل

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٥ – ٠٨ – ٢٠١٢م

الظل بارد الإحساس، يستقبل ما يقذفه به الجمهور من حبات الطماطم والبيض الفاسد على أنه هدية عيد الميلاد، ويظل مصرا فى البقاء على خشبة المسرح من باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

الانتخابات التى حدثت عرت ادعاء هذه الوطنية وكشفت أصحابها، وبدلا من أن يتجه أصحابها لبناء قواعد لهم بين الجماهير راحوا يتهمون الشعب بالغباء والجهل، وأنه شعب لا يعرف كيف يختار؟

نبرات الاستعلاء وهتاف الحناجر الخاسرة لم يجد نفعا لأصحابه، غير أنه عكر صفو العرس الديمقراطى التى مرت به البلاد وحاول الشغب على نتائجه بكلام فارغ.

وبينما كانت مصر بدعوات أبنائها وصلوات أهلها تعيش فجر قدرها، كانت خفافيش الظلام تسقط فى فجورها، وفى ردة عقلية وحضارية وأخلاقية تبنتها بعض الأفواه التى امتلأت جيوبها بالمال الحرام، وامتلأت أفئدتها بالبغض والكراهية للشرف والطهارة الثورية راحت تلك الخفافيش تقوم بعمليات التزييف وممارسة كل أنواع العار السياسى، وتجنيد الساقطين وصراخ الموتورين فى إثارة بعض الكنائس وإغرائها بالخروج ضد أول شرعية قانونية للدولة منذ ٧ سبعة آلاف سنة،

من باب التذكير وليس من باب سرد الحكاية، نتذكر جميعا بأنه وقبل أن يبدأ الرئيس أولى خطواته فى طريق التغيير كان المجلس العسكرى قد استبق الأمور وأصدر أوامره ليمسك بيده كل الخيوط،، الخفية منها والظاهرة، وليجد الرئيس نفسه مكبل اليدين والرجلين ممنوعا من الحركة ولو كانت مشاركة فى جنازة شهداء الوطن الذين ضحوا بأرواحهم ودمائهم، وماتوا بأخطاء وإهمال غيرهم ممن شغلوا عن واجبهم الأول وانفتحت شهيتهم للعب على أحبال السياسة.

أصحاب الوطنية المدعاة بدأوا فى تشويه صورة الرئيس الجديد والنيل من كرامته بأقذر الأساليب، وبشكل تجاوز كل الحدود ليصل حتى إلى حرمه وأبنائه.

التحرش لم يتوقف عند حدود السب العلنى الذى يعاقب عليه القانون عندما يوجه لمواطن عادى فضلا عن رئيس الدولة، بل تجاوز ذلك ليصل إلى التحريض على قتله وتأليب الشعب عليه والدعوة العلنية لمحاصرة مقره وإسقاطه.

حملات صحف وبرامج دورات المياه الفاسدة امتد تطاولهم على أهل بيته فى سخرية وقحة، لدرجة استفزت بعض الصحفيين الأجانب حتى كتبت إحداهن قائلة "لماذا تسخر الصحافة المصرية من زوجة الرئيس مرسى وهى تمثل نساء مصر الحقيقيين، السيدة أم أحمد هى رمز لكل امرأة مصرية شريفة، هى رمز لكل أم مصرية ولكل أخت ولكل زوجة فلماذا يسخرون منها...؟.

الصحفية التى كتبت ذلك لا تعلم أن أتباع الكاوبوى وتلاميذ مدرسة هوليود وشيكاغو فى مصر المحروسة لا تروق لهم قطعا المرأة المصرية؛ العفيفة لأنها فى عصمة من خيالهم المريض، وليست بين أيديهم كلما شاءوا وشاء لهم الشيطان والهوى وشهوات الحضارة الزائفة.

صنف النساء الطاهرات واللائى يمثلن ٩٩ فى المائة من نساء مصر، رؤيتهم قطعا لا تسر الناظرين من أصحاب الهوى الجامح والشهوات القبيحة، ولذلك يتحدثون بتندر عن العفيفات،! ويرون أنه لا يليق بسيدة القصر أن تكون من هذا النوع! وأنها لابد أن تكون ممن تمت هزيمتهم دينا ووجدانا وفكرا وثقافة، ولابد لسيدة القصر أن تكون من أميرات الكورسيه والمونوكير والباديكير وأن تكون رهينة لما يصدر عن كيرستانديور وأسيرة لجيفينشى. وَصَبَرَ الرئيس وتحمل، وصبر الشعب الحمول أيضا وتحمل.

المجلس العسكرى الذى تحمل مسئولية المرحلة الانتقالية تعثر فى أدائه فانحاز ووظف بعض مؤسسات الدولة كالمحكمة الدستورية لتُخَدِّم عليه، ومن ثم وقع فى خطأ مضاعف. صحيح أنه أشرف على أول انتخابات نزيهة، وقدم صورة حضارية لمصر وشعبها، لكنه لم يظل على حياديته، وزج بالجيش فى معترك سياسى متقلب وثائر، أمواجه عاتية ورياحه خماسينية، ومحيطه ملىء بأسماك القرش، وعواصفه كادت أن تغرق سفينة الوطن وتغتال حلم الثورة ورمز شرعيتها فى التغيير السلمى والتحول الديمقراطى وذلك هو الخطأ الأول.

أما الخطأ الثانى فقد تمثل فى سيطرة المجلس العسكرى على كل مقاليد الأمور فى البلد، والعمل على تكبيل وغل أيدى الرئيس الجديد بمجموعة الإجراءات التى كانت تحمل أقصى درجات التحدى المحملة باستفزاز وتجاهل لإرادة الشعب، الأمر الذى دفع الناس إلى الهتاف فى كل مناسبة "يسقط يسقط حكم العسكر".

غير أن المجلس العسكرى ليس هو الجيش، فجيش مصر جيش عريق يعرف جيدا حدود مهامه العسكرية فى حماية أرض وسماء الوطن، ويتناغم ويتكامل مع قيادته السياسية ليشكل ضمن منظومة الدولة صمام الأمان وحامى الثغور والحدود.

رسالة الجيش هنا يثمنها الوطن عاليا، ويعرف لرجاله قدرهم ومكانتهم، ويحمل لها المواطن كل التقدير والفخر.

أعرف أن شعب مصر الأصيل والذى تذوق طعم الحرية الحقيقية واستطاب مذاقها لن يفرط فيها، ولن يسمح لعبيد النظام السابق وفلوله وعشاق تلوثه أن يعكروا على الشعب فرحته بليلة قدره التى صدرت فيها قرارات خلاصه من حكم العسكر.

القرارات الجريئة والشجاعة كشفت عورات الدولة العميقة وتبجحها بعدما أعماها غرورها حين صور لها أن سكوت الرئيس الجديد ضعف، ولم تدرك أن الرجل من طراز فريد، وأنه يثير إعجابك رغم بساطته، ويثير انتباهك رغم تلقائيته، ويثير فضولك فى معرفة مكوناته الثقافية والفكرية والوجدانية. ومن الواضح فى تكوينه أنه لا تدنيه رغبة ولا تقصيه رهبة. وهذا النوع النادر من الرجال يشكل مشكلة كبيرة لخصومه فى المبادئ والسياسات، فهو لا يمكن إغواؤه بمنح مباهج الحياة له، وتلك مشكلة لدى الذين يعتقدون أن لكل ضمير ثمنا يمكن شراؤه به، ومن ثم فهم أمام شخصية تمثل حالة غير قابلة للتفريط فى مبادئها وثوابتها وليست للبيع بأى ثمن.

كما أنه لا يمكن تهديده بمنع الحياة عنه؛ لأن الحياة الدنيا بالنسبة له ليست غاية ومطلبا، وإنما ما بعد الحياة الدنيا هو المطلوب المرغوب فى نظره، ومن ثم يكون خصمه أمام نموذج عقائدى لم يسبق له التعامل معه.

الهمة العالية فعلتها فى ليلة من ليالى قدر مصر، وجعلت قلوبنا تخفق وتضطرب قلقا وخوفا عليه فى صدورنا.

فى صلاة التراويح عندنا فى استراليا وعلى بعد عشرات آلاف الكيلومترات من مصر سمعت هنا آلاف الألسنة فى ليلة القدر تلهج إلى ربها داعية وراجية أن يحفظ الله مصر وعزيزها المرسى، وأن يثبت على درب التطهير والإصلاح خطاه.

أعرف أيضاً أن شعب مصر يفرق بوعيه بين جيش مصرالباسل بجنوده وضباطه الذين هم خير أجناد الارض، وبين الذين صنعهم مبارك وكانوا أركانا لدولته.

ما فعله الرئيس مرسى كان بمثابة رد الاعتبار بلغة القانون لقواتنا المسلحة والعودة بها إلى الحقل الصحيح لدورها، والميدان الأول لرسالتها وهو حماية الوطن والذود عن شرفه وترابه بعيدا عن التجاذبات السياسية التى كثيرا ما تصاب بعمليات تحول وانتكاسات وردات غير محسوبة وما يجوز لدرع الوطن وصمام الأمان أن يدخل إلى تلك الدائرة التى تشبه رمال الصحراء المتحركة بغير ضمان أو أمان.

حفظ الله مصر، وحفظ عزيزها ليصنع بها من جديد حضارة وتاريخا.

العَشَرة الطيبة (*)

مصر تتطلع إلى استعادة ذاتها واستعادة وعيها واستعادة وطنية أبنائها من جديد، لا يمكن أن تكون هناك وحدة فى التصور بين كل التيارات السياسية فى كل الأمور، وإنما لابد أن يكون هناك اتفاق يمثل القاسم المشترك الأعظم بين كل القوى السياسية حول القضايا المصيرية التى تشكل الثوابت الوطنية لكل أبناء مصر، والظروف التى تمر بها مصر تحتاج للترفع عن الهوى السياسى والطموحات الشخصية وتضافر الجهود.

وجدير بنا ونحن مع كل الشرفاء الذين يتبنون الوعى وسيلة لتحديد أولويات العمل الوطنى، والحوار وسيلة للتفاهم والوفاق، والسعى وسيلة للتقدم والرقى، أن نتفق معًا على الحقائق العشرة التالية:

١- أن ثورة ٢٥ يناير هى ثورة الشعب المصرى كله، ولا يمكن لتيار سياسى واحد أن يحتكرها لنفسه أو أن يدعى أنه وحده من قام بها وخطط لها.

٢- أن من حق هذه الثورة أن تحمى نفسها ممن يعوق مسيرتها ويعرقل تحقيق أهدافها.

٣- أن من جاءت به الأقدار واختاره الشعب بانتخابات حرة وشفافة ليتولى قيادة المرحلة مهما كان هو، ومن أى فصيل سياسي، عليه أن يحمى هذه الثورة ولا يجوز له أن يفرط فيها أو يترك المجال لثورة مضادة حتى تقضى عليها أو تعبث بها.

٤- أن النظام الديمقراطى الذى اختارته مصر وتسعى إليه بخطوات مسددة عبر انتخابات ثلاثة لا يمكن أن يوطن السلطة فى يد فصيل واحد، وإنما يعمل على تداولها، وبالتالى فمن هو فى الرئاسة اليوم يمكن أن يكون فى المعارضة غدًا ومن هو فى المعارضة اليوم يمكن أن يكون فى موقع الرئاسة غدًا، وهذه هى شروط اللعبة الديمقراطية، دوام الحال فيها من المحال، ومن ثم على الجميع أن يعمل بطهارة قلب ونظافة يد واحترام لقوانين اللعبة الديمقراطية، وألا يلوث ممارساته تحت شهوة الطمع فى السلطة وموقع السلطان بالتحالف مع الفلول أو حتى مع قوى الشيطان فى سبيل إقصاء الخصم السياسى، ولو عن طريق الاحتيال والتضليل والتدليس وقلب الحقائق.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٨ - ١١ - ٢٠١٢م

٥- أن الشعب المصرى يتمتع رغم شيوع الأمية فيه بذكاء فطرى يستطيع به أن يميز بين الصادق والكذوب وأن يفرز أمراض النخبة وأن يكشف حيلها وكيدها السياسى وأن الكلام المعسول فى فضائيات الفلول هو الأكمة بعينها ولحمها وشحمها، ووراء الأكمة ما وراءها، كما جاء فى المثل.

٦- أن الممارسات على الأرض تؤكد أن الكثير من مفاصل الدولة ما زالت بأيدى الفلول وأن هناك استمرارًا لتمييع وتضييع القضايا واستنزاف الثورة بغياب العدالة وكثرة الاعتصامات والإضرابات وتعطيل الإنتاج.

٧- أن بعض مؤسسات القضاء وبخاصة المحكمة الدستورية مُسيَّسة وتلعب دورًا عكسيًا لمسار الثورة وتعرقل مسيرتها، وبعض أعضائها صرح بذلك وأبان عن توجهه السياسى وعن دوره فى تحريض العسكر على البقاء فى الحكم وعلى الإعلان الدستورى المكمل الذى خول للمجلس العسكرى أن يمسك بكل السلطات فى يديه، الأمر الذى حول مؤسسة الرئاسة والرئيس المنتخب إلى مجرد صورة وعلم ونشيد ومراسم دون أن تملك مجرد اتخاذ قرار بسيط حتى قيل عنه فى ذلك الوقت إنه رئيس منزوع السلطة، أو منزوع "الدسم"، كما كان يحلو لبعض ضيوف الفضائيات أن يتهكم عليه حين يصفه.

٨- أثبتت الحقائق فى اللجنة الدستورية لصياغة الدستور أن المواد التى اعترض الأعضاء عليها عدلت جميعها وحدث الوفاق حولها ووقعوا بإمضائهم عليها، ومن ثم كان انسحاب أكثر الذين انسحبوا من اللجنة الدستورية لم يكن إلا لمجرد تعطيل اللجنة وإعاقة عملها وإفشال مشروع الدستور. وأنها عندما اقتربت من الانتهاء من صياغة الدستور بدأ التنمر لها والتربص بها ورفعت دعاوى فى المحكمة الدستورية مطالبة ببطلانها وتسربت أخبار الحكم ببطلانها مسبقا قبل أن يصدر الحكم.

٩- أن الشعب المصرى يدرك بحسه الوطنى أن من أساءوا إلى القضاة وباعوا ضمائرهم لا يمثلون القضاء وليسوا ضمير العدالة ويجب أن تتوارى خجلاً أصواتهم القبيحة.

١٠- أن تحصين قرارات الرئيس والذى جاء فى الإعلان الدستورى وأثار جدلاً وغضبًا هذا التحصين تمتعت به اللجنة العليا للانتخابات، ويتمتع به المجلس الأعلى للقضاء، ويتمتع به النائب العام، ويتمتع به كل قضاة مصر كما يتمتع به أعضاء المحكمة

الدستورية العليا، فلماذا يستكثره البعض على رئيس الجمهورية ولمدة أربعة أشهر على أكثر مدى؟ وفى ظرف عصيب تتعرض فيه الشرعية للاغتيال السياسى ويتعرض فيه الوطن لمؤامرة من فلول الثورة المضادة والمتحالفين معها من بعض قضاة مصر وبعض الإعلاميين وبعض رموز القوى السياسية وكذلك أصحاب رأس المال المنهوب.

بعد هذه العشرة الطيبة بالتأكيد سأكون لطيفًا مع السادة القراء ولن أعكر مزاجهم بالإشارة إلى تفاصيل اللقاءات التى تمت خلال هذا الأسبوع واستمرت حتى الفجر بين جماعة "عبدو مشتاق" بعض رموز المعارضة وبين فلول النظام السابق من رجال أعمال وإعلاميين ومتخصصين فى توريد البلطجية لبدء عمليات الندب الإعلامى لتكون بالتزامن مع محاولات اقتحام وزارة الداخلية ومديريات الأمن وحرق مقرات حزب الحرية والعدالة وإثارة العنف والقتل والتدمير لإثارة الفوضى وإسقاط الرئيس المنتخب الذى يصر على استكمال الدستور وإعادة المحاكمات ومحاربة الفساد ورد الأموال والأراضى المنهوبة من الدولة، لن أتعرض لتفاصيل تلك اللقاءات حتى لا أساهم فى زيادة اليأس والإحباط من معارضة نخب فقدت مصداقيتها وحياءها، وفقدت معه حتى حمرة الخجل.

كيد النساء.. أم كيد السياسيين؟ (*)

عشق الظهور أمام الكاميرات يشكل عند بعض الناس نوعًا من الإدمان المرضى الذى يدفع صاحبه إلى البحث عن وسيلة للظهور ولو كانت بمصيبة. وبعض السياسيين حين يفشل وينصرف الناخبون عنه ويسقط فى الانتخابات أمام المنافس فإنه يعز عليه أن يتوارى بعيدًا عن الكاميرات والفضائيات التى أدمن الظهور عليها، فيلجأ إلى نوع من الكيد السياسى يغرينا بالمقارنة بينه وبين كيد النساء.

ومعلوم أن كيد النساء عظيم، لكنه من فرط ذكائه لا يفصح عن نفسه، ولا يظهر خطته، ومن ثم تقف أمامه حائرًا تضرب أخماسًا فى أسداس، وتُخَمِّن مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، وهو كيد يصحبه مع الذكاء الشديد بعض الحياء والخجل، أما كيد السياسيين فهو كيد مكشوف ويفتقد الحنكة ومن ثم يمكن أن تكتشفه بسهولة، وأن تبطله بشدة، وأن ترد عليه وتردعه بسرعة، وهو بعكس كيد النساء يفتقد الحياء والخجل ويتبجح بالقبح ويعلن حتى عن خيانته وخيبته فى كثير من تصريحاته وكلما تحدث أساء، وذلك من سوء الطالع بعيدًا عن السامعين.

كيد النساء تشعر به فجأة، دون أن تحصن نفسك ومن ثم تكون ضربته قوية وأثره مدوياً، بينما كيد السياسيين عبيط، تجده مصحوبًا بخفة العقل، يتخبط فى توجهه، ويعلن عن هدفه وتنكشف خطته ومن ثم يمكنك أن تتلاشاه وأن تهرب منه، وأن تتجاهله وتنظر إليه بسخرية، ويمكنك أيضًا أن تخرج لسانك له هزءًا به وتحقيرا لشأنه واستصغاراً لأهدافه المتدنية.

بعض كيد النساء يكون رد فعل لفشل المرأة وحرمانها من معشوق لم تستطع الحصول منه على ما تريد، ويكون هذا الكيد عن حب لا عن تكلف، وتكف المرأة عن كيدها إن حقق المعشوق لها ما تريد: (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ) (يوسف ٣٢)، بينما كيد السياسيين يكون عن تكلف للوطنية وعن بغض شديد لكل ما هو إسلامى ولا يتخلى عنه صاحبه ولو حققت له كل ما يريد. وغالبًا ما تكون دوافعه نتيجة الفشل فى حصول صاحبه على المنصب الذى كانت تتوق إليه نفسه فيتحول إلى ما يعرف فى

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٥ - ١٢ - ٢٠١٢م

الفكاهة الشعبية ب"عبدو مشتاق"، وعبدو مشتاق هو نموذج لنوع من البشر مستعد لبيع كل شيء والتنازل عن كل شيء حتى عن الوطن فى سبيل الحصول على ما يريد.

والأزمات عادة تكشف معادن الرجال، وبعض السياسيين قد تختلف معه فى الفكر والتوجه والأيديولوجية ولكنك لا يمكن أن تشكك فى وطنيته، واختلافك معه لا يمنعك من الإشادة به والتقدير لأدبه وحسن منطقه وعقلانيته فى الحوار وإن اختلف معك، من هؤلاء الدكتور أيمن نور.

بينما "عبدو مشتاق" يدفعه شبق الحرمان والحرص على الموقع والظهور المدمن أمام الكاميرات ليستعدى الأجنبى على بلده، فتفضحه مواقفه وتعرى وتكشف المخبوء فى صدره فتأتى تصريحاته فاضحة لنواياه ومفضوحة للجميع وإن حاول إخفاءها بستار الغضب من أجل الهولوكوست وخوفه على تحريم الموسيقى وحنانه الشديد لحقوق المرأة.

الأزمة الأخيرة كشفت أيضاً كثيرًا من رموز القوى الثورية وفضحت أحوال النخبة وأظهرت بعضهم وهم يمارسون دور "الست كيداهم" حين تعترض لمجرد الاعتراض لتكيد العوازل وتفرس خصومها. صبى آخر من صبيان الست كيداهم يعبر عن مطالبه على إحدى الفضائيات بضرورة إلغاء الإعلان الدستورى وإلغاء اللجنة التأسيسية فتقول له المذيعة: سينتهى الإعلان الدستورى بعد أسبوع واحد حيث يصوت الشعب على الدستور الجديد، واللجنة التأسيسية انتهى عملها بالفعل لأنها أنهت مهمتها، فيرد سيادته: لا بد من إلغائها حتى لو ألغيت!!

بدورها تسأله: ما هى المواد التى تعترض حضرتك عليها؟ فيقول: الدستور كله، سلقوه فى ساعات ووضع فى جنح الظلام فهو دستور نصف الليل، ترد عليه المذيعة: الدستور وضع فى ستة شهور ونوقشت مواده بعد المراجعة للمرة الرابعة والصياغة الأخيرة مادة مادة ونقل ذلك على شاشات التليفزيون وعلى مدار يوم وليلة بالكامل، فيرد سيادته: القوى الوطنية انسحبت منه وانسحبت الكنيسة، تقول له المذيعة الذين انسحبوا من التعديل الأخير فقط ١١ عضواً وتم دعوتهم للعودة للمناقشة أكثر من مرة وعندما أصروا على الانسحاب صعدت اللجنة بدائلهم حتى يتم الانتهاء من العمل فى الموعد المحدد. فيقول: لكن الكنيسة انسحبت! المذيعة: ممثلو الكنيسة أبدوا اعتراضهم على بعض المواد وتم تعديلها ووقع مندوبوها بالموافقة على المواد بعد تعديلها وبإمضائهم، فيقول صاحبنا: لكنها انسحبت. تقول المذيعة: الكنيسة استمرت فى

اللجنة ستة شهور فلماذا تنسحب فى اللحظات الأخيرة....؟ فلا يجيب صاحبنا ولا تجيب الكنيسة أيضًا.

هذا نموذج من الكيد السياسى الذى يحرض الناس على التظاهر فى الشارع والخروج للعصيان المدنى ويعمل على تعطيل مؤسسات الدولة والبقاء محلك سر حتى لا تنجح ثورة ٢٥ يناير. رمز آخر من رموز المعارضة يعلن أنه لن يتحالف مع الفلول فقط وإنما هو على استعداد أن يتحالف ولو مع الشيطان فى سبيل إسقاط حكم الإسلاميين. مبدأ إعادة المحاكمات هو سبب كل هذا السعار الذى أصابهم لأنه لن يكون أحد من الفاسدين وما أكثرهم بعيدًا عن أيدى العدالة، والخوف من محاسبة الفاسدين هو الدافع الأول لهذه الحروب السياسية. وليس صناعة الديكتاتورية كما يدعون.

واضح جدًّا أن القضية ليست الإعلان الدستورى ولا الخوف على مصر من الديكتاتورية، وإنما هى كراهية الإسلام ذاته فقد صرح أحد كتابهم "طارق الحجى" بأن الإسلام لا يناسب أحفاد الفراعنة، وسخر من الإسلاميين وسخر من الإسلام نفسه.

واضح أيضًا أن هناك إصرارًا على تعطيل مؤسسات الدولة والبقاء فى النفق المظلم بعد قرابة عامين من قيام الثورة والوسائل إلى ذلك هو تربص التيارات السياسية بالقوى الإسلامية، وأن الإعلان الدستورى ما هو إلا قميص عثمان الذى يرفعه الزند ومجموعته فى الهيئة القضائية ممن يتاجرون بقصة العدوان على القضاء اليوم، وهم أنفسهم قد أصابهم الخرس فلم ينطقوا حين تعرض بعض القضاة الشرفاء للضرب فى شوارع القاهرة على أيدى ضباط وجنود مباحث أمن الدولة المنحل وأمام دار القضاء العالى عندما خرجوا فى مظاهرة للاعتراض على تزوير الانتخابات. نفس الشخص اليوم الذى يملأ الدنيا ضجيجًا ويحرض القضاة على الامتناع عن العمل هو نفسه توجه باللوم لزملائه القضاة الذين تحدوا نظام المخلوع واعترضوا عليه قائلا: ما الذى أخرجهم! كلنا نعرف قصة الإعلان الدستورى المكمل والذى أصدره المجلس العسكرى بعد استشارة قاضية فى المحكمة الدستورية وكان هذا الإعلان يكرس كل السلطات فى أيدى العسكر ولم نسمع لصاحب الصوت العالى والضجيج الأعلى اعتراضًا على هذا الإعلان، ولم يجمع ناديه ليندد به، ولم نسمع له أى تهديد بتعليق العمل فى المحاكم كما نسمع اليوم، وعندما تقدم بعض المحامين برفع قضايا ضد الإعلان الدستورى المكمل الذى أصدره العسكر كان رد المحكمة الدستورية أن الإعلان الدستورى من أعمال السيادة، ولا يجوز لأى جهة قضائية الاعتراض عليه.

إذًا فحكاية التغول على سلطة القضاء قصة سمجة وثقيلة الدم يتاجر بها البعض ويتخذ منها وسيلة لتحقيق أغراض أخرى لا صلة لها لا بالقضاء ولا بالحريات.

فى هذا الجو من التربص بالثورة وبمؤسسات الدولة هل كان على الرئيس أن ينتظر لتصدر المحكمة الدستورية قرارًا بحل مجلس الشورى وإبطال اللجنة التأسيسية للدستور وتعود مصر لمرحلة الفراغ التشريعى ثم يبدأ الطعن فى شرعية الرئيس المنتخب وعودة الفريق الهارب وتدخل مصر فى نفق مظلم مرة أخرى..؟ أم كان من الواجب على الرئيس المنتخب بإرادة الشعب أن يحمى الثورة ممن يتربصون بها ويعطلون مسيرتها ويعملون على عودة النظام السابق بإحداث فراغ تشريعى وهدم مؤسسات الدولة وإلا كان مقصرًا فى أداء واجبه، ومن ثم كان لابد من حماية استقرار البلاد ولو بإعلان دستورى مؤقت ولمدة أيام إلى أن تستكمل الدولة دستورها الجديد وتتكون المؤسسة التشريعية المتمثلة فى مجلس الشعب، ومن ثم فبهذا الإعلان الدستورى تستكمل مؤسسة الرئاسة آليات السيادة التى تحمى بها مؤسسات الدولة من التفكك الذى يسعى إليه البعض، لكن أتباع "الست كيداهم" يقلدونها فى مواقفها حين تكيد العزال حزو النعل بالنعل حتى لو دخلت الست كيداهم فى جحر ضب فنظائرها وأشباهها فى قوى المعارضة السياسية فى مصر يأخذون نفس الموقف، حتى إن أحد زعمائهم حين يقول: إنه لن يعترف بالدستور حتى ولو وافق عليه الشعب فى الاستفتاء.

بقيت نقطة واحدة حتى تكتمل المقارنة بين كيد النساء وكيد السياسيين وهى أن كيد النساء أحيانًا يكون عن رغبة فى استئثار المرأة بقلب رجل تحبه وتحاول الحيلولة بينه وبين ضرة أخرى تشاركها نفس الرجل، فتصب كيدها على الأخرى، فإذا نجحت الأخرى فى الاحتفاظ بموقعها وتأبى الرجل ورفض القسمة الضيزى ويئست المرأة منه أو من ضرتها وفشلت فى إخضاعه لرغبتها، فإنها تكتفى ظاهريًّا بما لديها وما حصلت عليه، وتوقف حرب كيدها مؤقتاً حتى تسنح فرصة أخرى، بينما كيد السياسيين لا يكتفى بما حصل عليه ولا يقف عند حدود العدل الذى كان غائبًا عن المشهد وقد عاد إليه، ولا يقنع بأنه شريك فى العمل الوطنى من موقع المعارض ولا يكتفى بدعوة خصمه للحوار معه والوصول إلى حلول ولا حتى باستجابة خصمه السياسى لمطالبه، وإنما يحاول تصعيد المواقف وإخضاع الخصم وتدميره بشتى الأساليب، ومن ثم فكيد النساء فيه بعض الخلق ويعرف بعض الحياء ولديه شىء من الخجل، بينما كيد السياسيين فقد كل الحياء ولا يعرف الخلق وليس لديه شىء من حمرة الخجل.

أم الدنيا وعقوق النخبة (*)

بعض البسطاء من ذوى التجارب قال لى يومًا معلقًا على مواقف النخبة المتناقضة بأنهم: "أصْيَعُ من شلبى" لم أفهم العبارة وطلبت مزيدًا من الشرح فقلت له: ماذا تقصد ياعم بأنهم أصْيَعُ من شلبى؟ فشرح لى أن شلبى هذا واحد عاطل ليس له شغلة ولا مشغلة غير الحَكْى على الناس، هو يتردد على أبواب الأثرياء فى القرية، ويأخذ بعض فتاتهم، ويُسَلِّيهم بالحديث عن فلان وفلان وعلان، حتى أصبح مضربًا للمثل لكل عاطل لا يقدم شيئًا، لكنه فقط يجلس طول النهار والليل مشغولاً بنقد من يعملون".

شلبي، النموذج الذى ساقه لى أحد البسطاء يعكس أن شعب مصر أم الدنيا، و أم بناة الحضارة، قادر على السخرية ممن ينظرون إليه بغرور واستعلاء، كما يسخر من جلاديه والتهكم عليهم حتى فى أشد ظروف الدكتاتورية ظلامًا ووحشية.

والكل يعرف أن مصر أم الدنيا أكبر من أى تيار، ولن يستطيع تيار بعينه أن يحتويها كلها، ولأن خريطة الانتماءات متعددة الألوان والأطياف والرؤى والتوجهات، لذلك فهى أكبر من أن تنحصر فى جماعة واحدة سياسية أو ثقافية.

وفى العالم القديم كان يمكن قهر الآخر ونفيه والقضاء عليه، أما فى العالم الحديث فهناك حالة اضطرار حتى للأضداد لتتعايش معا، ولا يستطيع أحدنا مهما كان أن ينفى الآخر، كما لا يستطيع فصيل واحد أن يحتكر الوطنية وأن يختزل الوطن كله فى فكرته أو فى أيديولوجيته. وفى الديمقراطيات الحديثة يظل الصراع السياسى بضوابطه هو القانون السائد بين الحكومة والمعارضة، فالمعارضة لا تضيع فرصة إلا وتنتقد الحكومة، ونقد البرامج الحكومية وخططها وبيان قصورها واحد من آليات المعارضة فى استقطاب الناخب وتحويل انحيازه بالوسائل المتعددة، ومنها بالطبع السلوكيات الشخصية لأعضاء الحكومة إذا خرجت عن مألوف العادات والقيم المتعارف عليها، وقد يكون النقد لاذعًا ومكلفًا، وقد تخسر الحكومة بعض مواقعها جراء عمليات النقد هذه لتملأها المعارضة، ومن القيم المتعارف عليها فى أعرق المجتمعات الديمقراطية أن هنالك تقاليد فى الممارسة السياسية يجب أن تراعى، وحقول الحريات العامة بما فيها حقل التعبير عن الرأى تنضبط

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٣١ – ١٠ – ٢٠١٢م

بتلك التقاليد وتعرف حدودها، وتقف عندها ولا يمكن أن تتجاوزها، ومن يفعل ذلك يتعرض للمساءلة القانونية، يعرف ذلك جيدًا المتابعون والباحثون فى النظم السياسية.

ووسط هذه المساحة الضخمة من الحرية بضوابطها تدرك هذه المجتمعات أنه من مصلحة الوطن والمواطن أن تكون هناك معارضة قوية ومحترمة، تنتقد بأمانة، وتتصرف بمسئولية وتعلى مصلحة الوطن على المصلحة الخاصة.

والحاكم فى هذه المجتمعات ليس هو الدولة، ومن ثم فهم لا يعرفون صناعة الفرعون، صناعة الفرعون صناعة محلية لا توجد إلا فى شعوب العالم الثالث، وهى تعنى أن يختزل الوطن فى شخص الرئيس، فيكون بشخصه وسياساته وتصرفاته خطا أحمر، ويصبح له من القداسة المقننة وغير المقننة ما يجعل مجرد التعرض لسياساته جريمة تستوجب العقاب، فضلاً عن جريمة التعرض لذاته، ومن ثم عرفت بعض الدول مصطلح "العيب فى الذات الملكية"

ومع يقينى القاطع الذى يدعمه الدليل والواقع، وخبر التاريخ الموثق أن الإسلام هو أسبق النظم فى مجال الحريات الشخصية من كل النماذج السائدة، إلا أننى لن أتحدث عن نموذج منه حتى لا يتهمنا فصيح أسير لثقافتهم وسخافاتهم أيضًا بأننا نرغب فى العودة بهم إلى عصور الظلامية كما يرددون؛ لذلك سنأتى بنموذج من الغرب الذى هو قبلة هؤلاء وكعبتهم حتى يكون أقرب إلى فهمهم وأقطع لحجتهم.

أقول: ربما كان فى الغرب مَن يتطاول على شخص الرئيس، وقد حدث ذلك منذ شهر عندنا هنا فى أستراليا، عندما عرَّض مذيع مشهور برئيسة الوزراء السيدة "جوليا جيلارد" وقال: "إن والدها مات حسرة من كثرة كذبها"، ولكن الحادثة لم تمر هكذا بل أخذت امتدادًا هدد المحطة التى يعمل فيها المذيع بالإغلاق، وأحدث ارتباكًا عامًّا، وأثار سخط الجميع بمن فيهم المعارضون لسياسة جيلارد؛ لأن لديهم قواعد تضبط طريقة النقد وتنظم شؤون المجتمع وتمنح الحريات للجميع وتفرض مسؤوليات على من يسىء، وقد اضطر المذيع المشهور أن يقدم اعتذارًا، لكن رئيسة الوزراء لم تقبل الاعتذار.

والتجربة الديمقراطية فى مصر جديدة، ومن ثم فمن المقبول أن يختلف بعض شرائح الشعب المصرى العظيم على شخص الرئيس، وقد يختلف معه فى المنهج، وقد يعترض على بعض قراراته ويعارض سياساته، ولكن ذلك كله شىء وإهانة شخص الرئيس وتحقير رموز الدولة بأشخاصهم لمجرد أنه أو أنهم من تيار لا نرضى به أو لا نقبله شىء آخر.

إهانة شخص الرئيس أو أى رمز آخر من رموز الدولة تعنى خلط ما هو خاص بما هو عام، والأمر هنا لا يتصل من قريب أو من بعيد بصناعة الفرعون أو بإضفاء قداسة وحصانة على شخص حتى لو كان الرئيس؛ لأن الأصل فى المجتمعات التى تحترم نفسها أن شخصية الإنسان وكرامته مصانة بموجب الحقوق العامة للبشر بصرف النظر عن موقعه ومكانته، ومن ثم فالنقد يجب أن يتناول السلوك السياسى والخطط والبرامج، وليس خصوصيات الأشخاص، وأشكال أجسادهم وأقفيتهم، وقد كفانا مؤونة الكلام فى هذا الموضوع أستاذنا الكاتب الكبير الأستاذ محمد يوسف عدس بمقال ممتع بعنوان "نظرية الأقفية" نشر بتاريخ ٨ أكتوبر ٢٠١٢ بجريدة "المصريون" ويمكن للقارئ الكريم الرجوع إليه والاستفادة والاستمتاع بما جاء فيه.

والدولة بتعريف بسيط هى كل الأجهزة التى تدير شأن الوطن، وتحمى حقوق المواطن، وتحقق طموحاته، ونقدها فى سياستها وبرامجها وخططها شىء، غير التطاول والتجاوز وأسلوب الكذب، فهذا سقوط لا علاقة له بالنقد الصحيح ولا بالمعارضة، وإطلاق العنان لكل سفيه باسم الحرية ليسىء للآخرين جريمة فى حق المجتمع وطنا ومواطنين، وإلا كان الحطيئة وهو شر الناس زعيما عبقريا.

النقد البناء لأداء الوزراء أو حتى الرئيس شىء آخر غير ذلك السفه الموتور الذى يتناول شخص الرئيس، ويعرض بقفاه كما تحدث صاحب حمالة الحطب ورفيقه المغمور رسام الكاريكاتير.

الدولة بهذا المفهوم لابد لها من سياج يحمى مهابتها ويرد عنها تطاول الصغار والسفهاء، ويردع الموتورين الذين لا يعملون لا لصالح الوطن ولا لصالح المواطن.

ما نسمعه ونشاهده فى القنوات الفضائية ليس إلا سقوطا يجب حماية المجتمع منه، وبذاءات البعض ممن كان بالأمس يعمل خادمًا لنظام مبارك وأولاده ليست مقبولة، وليست حرية ولا جرأة، ولا شجاعة رأي، ولا يجب أن يسمح المجتمع بها، وأعتقد أن فى القانون ما يؤدب أصحابها ويقف بهم عند حدود اللياقة الاجتماعية والأخلاقية لمصر وشعبها ورئيسها وهيبة دولتها.

ونحن نفهم أن حديث رموز النخبة المتكرر ونقدها لجماعات الإسلام السياسى أضحى سبوبة وأكل عيش، لكنه حديث ممل ومحزن ومخجل أيضا، والغريب أنه نقد يرتد إلى أصحابه ومن أطلقوه، فهم دائمًا يحدثوك ويحذروك من جماعات الإسلام السياسى

وأنهم خطر على الحياة وعلى مدنية الدولة، وأنهم يسعون لإقامة خلافة إسلامية، وأنهم أكثر سيطرة على الشارع، وأكثر تأثيرًا على الناس، وأكثر حضورًا فى مشاكل المجتمع وقضاياه، وأنهم وأنهم وأنهم إلى آخر هذه القائمة المملة والمكرورة،

وهذا الذى يتردد على ألسنة خصوم جماعات الإسلام السياسى هو مدح فيهم من حيث إرادة الذم، وإشادة بقدرتهم وحضورهم وتأثيرهم وفاعليتهم، وإذا كان الأمر كذلك فهو فى ذات الوقت شهادة اعتراف بخيبة وفشل وعجز من ينقدون ويطيلون ألسنتهم فى تناول الآخرين.

الحقيقة أن النخبة تائهة وضائعة، وليس لها من رصيد غير الكلام التافه الذى يملؤون به فراغ الفضائيات الفارغة، وكأنهم ينتقمون من الشارع الفارغ من وجودهم، والذى فض يديه منهم وأدرك بفطرته الذكية رغم بساطته أنهم ليسوا إلا تجار شعارات، وأنهم لا حيلة لهم غير الكلام الذى يساهم فى إبقاء التخلف ويباعد بيننا وبين الاستقرار والانتقال إلى مرحلة البناء والتنمية لأنه يؤزم الحياة السياسية كل يوم بإضافة عقد جديدة.

شلبى هذا الذى بدأنا بالحديث عنه، له نظائر وأشباه، ربما ليسوا فى بساطة ملبسه ومطعمه ومأواه، وأيضًا ليسوا فى بساطة طموحاته وأطماعه، فأشباهه ونظراؤه يحسنون اختيار ملابسهم فى الشتاء والصيف، والصباح والمساء، ويحسنون اختيار أربطة العنق وعرض الكلام المنمق، لكنهم لا يحسنون اختيار مواقفهم من أجل الوطن.

شلبى أصدق لهجة منهم؛ لأنه لم يحظ بالقدر الثقافى الذى يجعله يستشعر الخجل مما يفعله، ولذلك فهو معذور عرفا وقانونا لأنه لا يعلم ولم يدع العلم، ولم يغضب؛ لأن أحدًا يتجاهله ولا يعده ضمن المثقفين، ولم يثر حين لم يقع عليه الاختيار ليكون عضو اللجنة التأسيسية لصياغة الدستور.

شلبى ربما يكون رغم تبطله وطول لسانه أصدق لهجة منهم فيما يفعله، لأنه يعرف حجم نفسه، بينما هم يفعلون ذلك فى الوقت الذى يقدمون أنفسهم على أنهم قادة الرأى وأصحاب الفعاليات الثقافية والسياسية، ومشاهير الأمة وحماة الثورة، والحريصون على تحقيق أهدافها.نعم شلبى أصدق لهجة منهم؛ لأنه على الأقل لم يحظ بالقدر الثقافى الذى يجعله محل الملام والعتاب والسخرية.

النفق المظلم.. أو الأفق العالي (*)

دهاليز السياسة تكشف لك كل يوم عن جديد في جعبتها، والفترة الأخيرة التى عاشتها مصر بقدر ما حملت من المعاناة والتوتر والضغط على الأعصاب، بقدر ما كشفت لنا وكأنها الأشعة المغناطيسية كيف يتحرك الفلول، وكيف يتحالف معهم رموز كان المجتمع ينظر إليهم بكثير من التقدير.

خطة الذين يلعبون بالنار لا مانع فيها أن تطعم بقلة من القضاة المحسوبين على النظام المخلوع على اعتبار أنهم حماة الدستور وحراس لمدنية الدولة فى مواجهة الظلاميين.

القلة المستخدمة والتى انكشفت لا يمكن أن تقدح فى ولاء وعدالة كل القضاة الشرفاء لوطنهم، وقد أثبتت مؤسسة القضاء بمواقفها الأخيرة أنها شامخة وأنها عصية وأنها أكبر وأجل من أن يمتطيها أحد ولو كان واحدًا منهم.

في الجناح الآخر من فيلق الهجوم على الثورة تعمل قنوات الفلول وقد وصل الهزل فيها إلى نهاية ما يمكن أن يصل إليه، ولا يمكنك كباحث أو مراقب أن تحكم عليها بالتحيز وعدم الحيادية أو الموضوعية، فالأمر قد تجاوز ذلك ووصل إلى حد العداء الصريح والعدوان الصارخ ليس فقط على الإخوان كتنظيم سياسي، وإنما على إرادة الشعب والشرعية ومؤسسة الرئاسة والرئيس ذاته.

إرادة شعب قد اختار ومارس إرادته بعد فترات استبداد استمرت عقودًا لا تعنيهم.

خروج المصريين في منظر مهيب وحتى من بلغت أعمارهم الثمانين ليدلوا بأصواتهم وليساهموا في بناء ديمقراطية جديدة ليس لها حساب عندهم.

الرجل الوحيد الذى جاء ليحكم مصر بشرعية انتخاب حر ونزيه يريدون أن يسقطوه.

الدستور الذى نوقشت بنوده على مدار ستة أشهر وعرضته اللجنة بندًا بندًا على شاشات التليفزيون يرونه دستورًا للعبيد.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٢ – ١٢ – ٢٠١٢م

إلغاء الإعلان الدستورى واتفاق أغلب القوى الوطنية على إعلان جديد ونزول الرئيس على رغبة المتحاورين لا تهمهم، المهم هو إذلال الشرعية ونزعها عن أصحابها وإثارة الفوضى وتشكيل مجلس رئاسي جديد.

الرجال المعروفون بنزاهتم ونظافة أيديهم وقلوبهم وعقولهم، وبعدما سهروا الليالي لِيُعِدُّوا لشعب مصر وثيقة دستور جديد يحمى كرامتهم وحقوقهم وحرياتهم هؤلاء الرجال الذين سهروا وبذلوا تطاول البعض عليهم، ونال السفهاء منهم، وتجرأ عليهم كل رويبضة لا يدرى من أمر نفسه شيئًا، فهل هناك إسفاف وسقوط أكبر من ذلك؟

تأمل شعارات بعضهم: "شعب جاهل وأمي لا يجوز له أن ينعم باستقرار" وقد وصل الأمر بواحد من كبرائهم أن طالب بحرمان الذين لا يقرأون ولا يكتبون من حق التصويت في الانتخابات!!! أرأيتم ديمقراطية أفضل من ذلك؟ أرأيتم حماية لحقوق الإنسان أكبر من ذلك؟

الرئيس فى نظرهم فاقد للشرعية لأنه في خمسة شهور لم يأمر النيل بالفيضان ولا السماء أن تمطر ذهبًا ولا الأرض لتخرج أثقالها.

إنه فرعون وإله جديد يجب أن يثور المصريون كلهم ضده؛ لأنه يحول المصريين السادة إلى أسرى وعبيد، جاء إلى الحكم بعد ثورة ضحت فيها مصر بأبنائها بعضهم ذهبوا شهداءً، والآخرون مصابون فلم يأخذ بثأرهم ولم يأت بحقوقهم، يريد أن يبيع قناة السويس ويعرض سيناء للإيجار مفروشة وربما الإسكندرية في الصيف أيضًا فلا تتركوه.

يريد أن يهدم السد العالى، وربما يفكر في هدم الهرم، وردم نهر النيل ونقل تمثال نهضة مصر إلى طرابورا، ويدعو إلى حشود قندهار في قلب القاهرة، وسيغير اسم ميدان التحرير ليكون ميدان الإمام النيسابورى،أما شارع بوليفار فسيصبح شارع بنت زمعة، أليس هو من فصيل الإسلام المتطرف... فاعزلوه وأسقطوه!!!

أما جماعته فحدث ولا حرج، إنهم لا يؤمنون بالديمقراطية، ولا يعتمدون إلا مبدأ القوة والإقصاء والإخصاء وختان الإناث ومضاجعة الوداع، ويريدون أخونة الدولة والداخل والخارج والخارجية والداخلية والشرطة والجيش وكمسارية الباصات وتحويل سائقى مترو الأنفاق والتوك توك إلى التنظيم السري لديهم، ويريدون هدم الكنائس

وطرد المسيحيين من مصر، كما يعملون على أخونة البيت الأبيض وموزمبيق ونيكاراجوا وبوركينافاسو والهواء والفضاء والسماء والأرض.

"تعرف يعنى إيه حكم الإخوان؟ يعنى الذل في كل مكان".

تلك هى شعارات السادة الذين ألقت بهم العناية الإلهية لينقذوا مصر وشعبها من هذا الفلاح الدكتاتور "الحاج محمد مرسي" الذى يدعي بأنه بتاع ربنا.

استعدوا يا أهل مصر للطوفان القادم من ظلام المجهول ستتحجب النساء، أما الفتيات فسيفرض عليهن النقاب وستلغي محلات الملابس النسائية والبدل الفخمة لتستبدل بها بيع الجلاليب البيضاء والغترة والسواك؟

وسيتم إغلاق صالونات الحلاقة لأن تربية اللحية عندهم واجب وستنتشر في مصر صناعة العطور الزيتية والعلاج بالطب النبوي والحجامة وستجد كثيرًا من الصيدليات في الفترة القادمة تهتم جدًّا ببول الجمل وربما بول الأرنب أيضًا وبيع الحبة السوداء، كما ستجد عيادات الأطباء مليئة بعناوين المشايخ الذين يعالجون الجن بالزار والتمائم.

بهذه الأساليب يجب تخويف الناس، وفي نظر الفلول ومن يعاونهم في الداخل والخارج لا يجوز لهذا الشعب أن ينعم باستقرار، وكذلك الرئيس الجديد المنتخب عليه أيضًا أن ينسى أنه جاء بإرادة شعبية وأنه يمثل الشرعية.

الغرف السوداء تعرضت لضوء كهربائي ساطع فانكشفت أركانها التى كانت مظلمة وظهر ما كان مخبوءًا فيها.

الآن الاستقرار مرفوض؛ لأنه يعنى ببساطة شديدة فتح كل ملفات الفساد، ولذلك وجب على رموز اللهو الخفى الذى انكشف أن يعملوا بسرعة، وأن يتخلصوا من كل أثر للجريمة فالوقت لم يعد في صالحهم وما يقال فى الغرف السوداء بدأ يتسرب وتفوح روائحه الكريهة.

الناس يجب أن يظلوا خائفين طول الوقت لأنه إذا لم تتم إخافتهم من كل أنواع العفاريت والجن سيلتفتون إلينا، وسيفتحون ملفات فساد ثلاثين سنة، ومن المهم تهميشهم وتشتيتهم وإشاعة ثقافة العبث الطائفى بينهم بالحديث المستمر عن الأقباط والمرأة، وتفجير المواقف وانتقاء صور وبرامج الإثارة المرعبة.

السماوات المحتلة بفضائيات الفلول صورت الإسلاميين بأنهم كائنات غريبة جاءت لغزو الأرض من كوكب آخر، فهم ليسوا منا ولا نحن منهم، وقد خلفت نوعًا من الهيستيريا دفع البعض إلى المطالبة بمنع قوى الثورة من إدارة شئون البلاد بحجة أن الإسلاميين سيكوشون على كل شيء، يشهد بذلك قنوات الفلول التي تستعين ببعضهم للإسهام في تأزيم المواقف وخلق البؤر القانونية التي تعطل الحياة السياسية، وهم يعلمون أن هذه القنوات تتبنى تصنيع الإجماع على الخوف من الإسلام وبأساليب عجز عنها عتاة المجرمين من عرب قريش فى عصر الجاهلية.

البراعة فى خلق الذعر من العدو الأخضر وهو الإسلام ورموزه ليست جديدة، غير أنها هذه المرة بلغت من الوقاحة والتطاول على شخص الرئيس حدًّا لا يطاق.

تحية لقضاة مصر الشرفاء الذين يقفون الآن مع جماهير الشعب فى الصف الأول من جبهة المواجهة لحماية الشرعية الثورية، وحماية مصر شعبًا وتاريخًا وحرية.

يوم السبت القادم هو يوم الخروج من النفق المظلم إذا صوت الشعب بنعم. لأن لا تعني البقاء في النفق المظلم بينما نعم تعني الخروج منه.

"لا" تعني بقاء البلاد بلا استقرار، وتعني بقاء المجتمع بلا دستور، وتعني بقاء اللصوص بلا عقاب وتعني بقاء المجرمين بلا محاكمة عادلة، وتعنى بقاء المزارع والمصانع وكل مصادر الاقتصاد معطلة وبلا إنتاج.

بينما "نعم" تعنى عكس ذلك تمامًا، إنها تعني أن يكون لدينا دستور يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين السلطات كلها بلا توغل، وتعنى أن تستقل مصر وأن تستقر، وتعني أن تعمل المصانع بلا توقف، وتعنى أن تبدأ مصر أول خطواتها نحو استقلال حاضرها وبناء مستقبلها تعنى أن يلتفت كل منا لأداء واجبه وتعنى أن يكف المتعطلون والفارغون والبلطجية عن تهديد الناس وترويعهم لأنه سيكون هناك قانون يحاكمهم.

"نعم" تعنى كشف الغطاء عن كل النخانيخ الذين اغتالوا الثوار وظلوا طلقاء بغير محاكمة، ولن يكون أمامهم إلا خيار واحد إما الاستقامة أو السجن؛ لأن غطاء الفلول والفوضى سينكشف عنهم، ولذلك أتوقع في فترة الانتخابات أن يقاوموا، وأن يروجوا الإشاعات، وأن يخيفوا الناس في الشارع.

من المتوقع أيضًا أن يتحرشوا بالقضاة حتى ينسحبوا من اللجان، ومن ثم تسقط العملية الانتخابية كلها، فليحرص الشعب ورجال الأمن على عزل هؤلاء عن التأثير فى الشارع. مصر الدولة والشعب، مصر الحضارة والتاريخ والشرعية فى حاجة إلى دعم شعبى هادر فى الداخل والخارج يقول "نعم" لينهى هذا الصراع السياسى المسموم والمحموم الذى تستعمل فيه الشعارات الكاذبة كمسمار جحا لتعطل عبورنا نحو الديمقراطية والاستقرار. نقول "نعم" بكامل استقلال إرادتنا، ودون خوف من قلة تريد أن تفرض وصايتها على شعب بكامله ونرفض أن يرهبونا في المدن والقرى والشوارع.

نقول "نعم" لمصر وللشرعية وبلا خوف، ولتتحرر مصر من جذور وفروع الدولة العميقة وبقايا النظام المخلوع، وذلك هو واجب الوقت لكل الشرفاء من المثقفين والجامعيين والمجمعيين وجموع الشعب كله إذا أرادوا أن يحموا الثورة وشرعيتها.

ونذكر الذين يلعبون بالنار ويعملون على إثارة الذعر وإشعار الناس بالخوف الدائم، نذكرهم إن كانوا قد نسْوا، أن الشعب المصرى الأصيل كسر حاجز الخوف، وأنه داعب الموت كثيرًا فى ميدان التحرير وفى كل ميادين مصر، وأضحى الكثير من أبنائه يخرجون إلى الميادين بعضهم يحملون أكفانهم والبعض الآخر يستثقل الأكفان فى رحلة البحث عن الموت ويكتفى فى الإشارة إلى مراده ومطلوبه في سبيل الكرامة والحرية بلافتات تقول: "شهيد تحت الطلب". وعليكم أن تتأكدوا أن مصر وبإذن الله بجيشها وشعبها وبحماية أبنائها الشرفاء لن تهبط ولن تسقط.

سموها للسماء ونازعتنا ... هواتفنا إلي الأفق البعيد

ومن عشق السماء فلا تلمه ... إذا كره النزول إلي الحضيض

النافذة الثالثة عشر

رؤية مستقبلية

مصر تستحق أن نهتم بها وأن نفكر من أجلها، والمصريون أهل إبداع وهمة، فهم من ناحية الإدراك يتميزون بالارتفاع إلى مستوى فهم المقاصد الوطنية العليا وبسرعة، ومن ناحية التطبيق العملى يستجيبون أيضا وبسرعة إلى مستوى روعة الأداء المتميز إذا جمعهم مشروع قومى تلتقى فيه إرادتهم تلاقيا حرا، فإذا ارتبط هذا المشروع بغاية كبرى هى الله والجنة، ثم النهوض والتحرر من الرق الثقافى. والأسر الحضارى فستكون النتائج مبهرة.

إدارة الذات برنامج عمل فكرى وثقافى للتغيير والتطوير،يبدأ بفقه الحياة كفريضة دينية، ويهدف إلى التأصيل والتحرر من الرق الثقافي والأسر الحضاري وهذا لا يعنى أن ننعزل وأن ننفصل وأن نغيب عن الساحة، فهناك فرق بين أن تكون أسيرا ورقيقا، تؤمر فتطيع، وتفكر بعقلية سيدك،وتربط تصرفك وترهن سلوكك باتجاه الرياح التى تهب من عواصمه، وبين أن تكون شريكا، أوحتى حليفا شريفا يحسب الشريك والحليف حسابك، ويضع رضاك وغضبك موضع اهتماماته وفي قائمة أولوياته، ومصر الثورة والموقع والتاريخ والحضارة تستحق هذا الدورالكبير، ودليلنا على ذلك حب المصريين لدينهم ولوطنهم وارتباطهم به، فتلك تربة يتشبث الإيمان بترابها، فإذا حافظنا على ما فيها من بذور الخير المتمثلة فى رصيد الفطرة وسقينا أشجارها بماء العمل الجاد فستحصد مصر والعالم كله خيرها وبرها.

الثورة.. ومنظومة العمل الوطني (٣/١) (*)

أعرف وكل العقلاء يعرفون أن الباحثين عن دور يحاولون الآن تعكير صفو المحروسة ومن ورائهم فلول النظام المخلوع، وهيهات أن ينجحوا، فالشعب قد كسر الشرنقة، وأصبح واعيًا وناضجًا.

وبعد "هيافة" ٢٤ أغسطس والشحن الإعلامى الذى سبقها، يجب أن يتفرغ الجميع للعمل والإنتاج بدلا من ضياع الوقت فى متابعة العاطلين فكريا وثقافيا، أولئك الذين يتعيشون من جيوب غيرهم.

وفى الحقيقة لا أرى سببًا للسخرية من "أبو حامد وعكاشة" وغيرهما فمن حقهم أن يتظاهروا بالزعامة والوطنية، وأن يتظاهروا أيضًا بأنهم مستقلون عن هبات رجال الأعمال الذين تسبق شيكاتهم أى كلام يقال، وصدق من قال الدولارات تبيح المحظورات، حتى فى أعراض رموز المجتمع المصرى.

ومظاهرات ٢٤ أغسطس تجعل العاقل يهتف "الجنون فنون، ولله فى خلقه شؤون" ولعلى أضيف أيضًا "وفى حلوق الناس من القوارض البشرية مرارة وشجون"

وليسمح لى القارئ أن أتساءل: "متى يكف البعض عن بيع أنفسهم وأقلامهم فى سوق النخاسة الثقافية؟؟ ومن باع نفسه كيف يلوم نفسه؟ وكيف يلومه غيره؟

وبقدر ما يفرح المصريون كل يوم بما يتحقق من إنجازات ثورية، بقدر ما تصيبك حالات القرف السياسى وأنت تتابع حوار النخب السياسية عبر الفضائيات.

وإذا كنا لا نوجه لوما لمن باعوا أنفسهم، فاللوم كله على النخب السياسية المثقفة التى ما زالت تعيش حالة غيبوبة ديماجوجية، حيث مجموعة الأساليب التى يتبعها السياسيون فى خداع الشعب وإيهامه بأنهم يدافعون عن مصالحه، بينما هم فى حقيقة الأمر يدافعون عن طموحاتهم هم، وآمالهم فى السلطة، التى خيبها صندوق الانتخابات، وأطاح بها وعى المواطن المصرى، الذى تحمل معاناة السنين، فلما جاء وقت الحصاد الديمقراطى الحقيقى أعطى صوته وثقته لمن خدموه فى الشدة، وتحملوا معه معاناة السنين، بينما لفظ تلك الفئة المخملية المرفهة التى أكلت على موائد السلطان، فلما أدركوا أن مركبه غارق لا محالة، قفزوا منه وأرادوا أن يمارسوا الخداع فكشفهم الشعب.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٢٩ – ٠٨ – ٢٠١٢م

برغم القفزات الثورية، التى قام بها الرئيس مرسى، والذى شهد بها وشهد لها العالم كله فإن متابعة أداء النخبة يصيبك بحالات من القرف السياسى لكثرة ما يحتويه من استخفاف بالعقول.

فبعضهم غاضب لأن الثورة لم تحقق كل أهدافها فى الشهور القليلة التى مضت!! وكأن الرئيس الجديد لديه عصا موسى يضرب بها البحر فيجف، ويضرب ضربة أخرى فيتحول ماؤه إلى قمح وأزهار وفواكه.

وبعضهم لا يزال يتحدث عن اختطاف الثورة والقفز عليها، وكأن هذا الشعب المبهر والمبدع لا يفهم شيئًا.

مصر اليوم ليست فى حاجة إلى مساجلات كلامية أو مظاهرات واحتجاجات يا سادة، مصر اليوم فى حاجة إلى بناء المصانع وزراعة الأرض ونظافة الصدور والقلوب قبل الشوارع، كل المطالب لا يمكن أن تلبى وخزينة الدولة فارغة، فلنملأها بالعمل والأمل والصبر على تكاليف الكرامة والحرية.

لكن النخبة لا تلتفت فقط إلا إلى ما لديها من مخزون الكراهية لتصبه على التيار الإسلامى بمنطق يخالف كل منطق ليس فى مصر المحروسة وحدها، وإنما فى الدنيا كلها، وبمنطق يخالف ما اتفقت عليه كل النظم الديمقراطية فى العالم تتصرف النخب السياسية عندنا.

ومن الواضح للمراقب أن هناك حالات مراهقة سياسية، وهناك حالات من التربص بالتيار الإسلامى،وإضفاء كل صفة كريهة بهذا التيار، ونحت مصطلحات لتخويف الناس منه، فمثلا يعلم كل متابع للشأن السياسى فى العالم كله أن الأغلبية الفائزة بالانتخابات فى كل بلاد العالم هى التى تشكل الحكومة، وحزبها يسمى بالحزب الحاكم فى الأعراف السياسية، ولا تلام فى توزيع مناصب الدولة وزارية أو غير وزارية على أعضائها، ولا غضاضة فى ذلك على الإطلاق، وعلى الأحزاب الأخرى المعارضة أن تطور من أساليبها وعلاقتها بالجماهير، وأن تبحث لماذا لم يأت بها صندوق الانتخابات، ولماذا انصرف الناس عنها.

وإذا جاز لنا أن تكون قبلتنا السياسية والنموذج المثالى لدينا هى مجتمعات الغرب، كما يدعى ويدعو إخواننا الليبراليون والعلمانيون والماركسيون أيضًا بعدما تغيرت

قبلتهم.. فإن هذا شأن أعرق الديمقراطيات فى كل الدنيا، بداية من الهند، ومرورا ببريطانيا، وانتهاء بالولايات المتحدة الأمريكية.

ولو فعل الإسلاميون عندنا ما يحدث فى كل ديمقراطيات العالم لكان ذلك حقا أصيلا وخالصًا لهم؛ لأنهم الأغلبية التى جاءت بها صناديق الانتخابات، لكن هذا لم يحدث ومع ذلك يُتّهمون بأخونة الدولة!!

ولو عدنا لمنطق الاستقراء الإحصائى لوجدنا هذا الادعاء عار تمامًا عن الصحة فبداية بالجذور الأولية للسلطة وانتهاء بالهرم الكبير لم نر لهذا الادعاء دليلا واحدا.

فمثلا بداية من الخفراء وشيخ الخفراء، ومرورا بالعمد ورؤساء المجالس المحلية فى القرى ورؤساء المدن والمحافظين وكبار رجال الشرطة والقوات المسلحة، وأجهزة أمن الدولة والمخابرات العامة لا يوجد بها إخوانى واحد، بل إن شهادة القبول والتأهيل للدخول فى هذه المجالات والانتساب إليها لا بد أن تكون البراءة التامة من أى علاقة بهذا التيار، ليس ذلك فقط، بل كان القبول فى أصغر الوظائف بداية من فراش فى مدرسة لا يتم إلا بعد ثبوت التحريات بأن طالب الوظيفة لا علاقة له بالإخوان لا من قريب ولا من بعيد، بل لا تبدو عليه أصلاً علامات التدين.

مقولة الأخونة إذًا عنوان كاذب لفكر هزيل لا يعتمد العقل ليناقش، وإنما وبمنطق اللامنطق يعتمد الإشاعة ليشاغب وينشر إفكها فى الإعلام والناس. وأرى أن النخب ترتكب فاحشة سياسية فى حق الوطن خلال المرحلة الحالية حين تصر على العراك والتشكيك والاتهام الكاذب؛ لأن الجهد المبذول فى العراك الكريه، وحرب طواحين الهواء، التى يقودها بعض الفارغين تعطل مسيرة الحياة فى مصر، لا على المستوى السياسى، فقط وإنما على كل المستويات.والناس لا بد أن تنصرف إلى أعمالها، ولابد أن تلتقى المعارضة مع الأغلبية على منطق المصلحة العليا للوطن، ولا بد من الكف عن المهاترات، التى تستهلك الجهد والوقت ولا تعود بفائدة. مصر لابد أن تنطلق فى مسيرتها الجديدة، وعلى كل أبنائها أن يكفوا عن الجدال الفارغ وأن ينتظموا فى خدمة الوطن إن كانوا حقيقة هم ضمير مصر، ويريدون تحقيق أهداف ثورتها.

الثورة.. ومنظومة العمل الوطنى (٣/٢) (*)

الإعلام والأوقاف.. وثقافة الثورة:

نقصد بمنظومة العمل الوطنى مجموعة القوى المؤثرة فى المجتمع المصرى كله، حكومة ومعارضة، وقوى أخرى شعبية ربما لا تنتمى لهؤلاء ولا لأولئك.

الإعلام الذى يقتات على الخلافات غير البريئة عليه أن يتحول إلى إعلام بناء للعقول بالمعرفة والعلم وإعلاء العطاء الوطنى، وتثمين دور الإنتاج ورفع كفاءة العاملين فى الدولة.

وإعلام الغواية السياسية عندنا لا يلتلفت لتلك القضايا ولا يعيرها أي اهتمام ومن ثم يجب أن ينتهى ليبدأ إعلام الهداية الوطنية، ومن المعروف في عالم الاقتصاد أن الناتج القومى لكل أمة هو مجموع عدد العاملين بها مضروب فى عدد ساعات العمل، ومسؤولية إعلام الهداية المعرفية تحتم عليه أن يجعل ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ساحات عبادة وصلاة ومناجاة،وأن يشرح ذلك للناس ويبدع فيه، ويبدئ ويعيد.

نريد أن نتعلم منه كيف نعبد ربنا فى المجالات المذكورة آنفاً.

فى المجالات الاجتماعية بتفجير الطاقات البشرية، وبالدعوة إلى تحقيق العدالة وصيانة الحريات والكرامات، وبصدق الخبر وتحرى الحقيقة، والموضوعية والمهنية التى تحمى عقول الناس ووجدانهم حين تنأى عن التحيز والإسفاف،،والهبوط بالكلمة والصورة والموقف.

وفى المجالات الاقتصادية برفع الهمم ويقظة العز،م والإقبال على استصلاح الأرض وزراعتها، واستنبات النبات، وتشغيل المصانع،وزيادة الإنتاج،والعمل على الاكتفاء الذاتى وتصدير الفائض.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ٠٥ – ٠٩ – ٢٠١٢م

وفى المجالات السياسية بتوفير المناخ للتحول الديمقراطى الصحيح ونضوج الأحزاب والبعد عن المراهقات والكيد السياسى، بنحت المصطلحات من نحو "أخونة الدولة" لتخويف الناس، وباستعمال نفس فزاعات الرئيس المخلوع "عبد الجدار العازل".

الثقافة السائدة يجب تغييرها لتتواكب مع تحقيق أهداف الثورة فى التغيير والتجديد والنهضة.

صياغة الرأى العام تقوم بها وزارتا الإعلام والأوقاف، ومن ثم تكون مسؤولية الوزيرين العزيزين الأستاذ صلاح عبد المقصود، والعالم الجليل الدكتور طلعت عفيفى، ويجب التنسيق بينهما على إدارة الذات المصرية وتفجير طاقاتها المبدعة فى المرحلة الراهنة، وإعلام الغواية السياسية والاجتماعية والاقتصادية يجب أن ينتهى ليبدأ إعلام التبصر والنهوض والخروج من عنق الزجاجة،كما أن المسجد أيضا يجب أن يستعيد دوره الرائد فى توجيه المواطن لتكون ذمة المجتمع واحدة،وفى إطار من الحرية الملتزمة، ويمكن هنا لوزارة الأوقاف أن تساهم بعلمائها فى وضع منظومة ثقافية جديدة لخطباء وأئمة المساجد، أستأذن القارئ أن أطلق عليها مصطلح "إدارة الذات".

وفى تصورى أن إدارة الذات تعنى التنسيق المتوازن بين الملكات المتنوعة والمكونة للذات الإنسانية وهى عقل وقلب، وجسد وروح ورغبات وشهوات،وإدارة الذات الجديدة هذه يمكن أن تدخل ضمن مصطلح إدارة الموارد البشرية أو التنمية، وتتناول إعادة تشكيل الملكات والقدرات الذاتية،وإعادة صياغة وعيها لتكون ضمن منظومة متناسقة تعمل معا على التنسيق بين عاطفة تتسع بالحب فتسع الناس والأحياء، أو تضيق بالكراهية والحقد فتكره كل شيء حتى نفسها.

وملكات المرء وقدراته حين لا تنتظم فى الاتجاه الصحيح تؤدى فى نهاية المطاف إلى كوارث فى شتى كل الميادين، ومن ثم يجب توجيه طاقاتها والتنسيق بينها لتشكل فكرا جديدا ينمي الحياة فيرقيها و يرقى بها، ويضيف إليها وتزدان به الدنيا، ويجنبها الفكر الشارد الذى يضل الحياة ويخزيها ويشقيها.

ولحماية الوجود من كل شطط فكري وثقافي وسلوكي كانت كل ميادين الحياة فى الرؤية الإسلامية مجالات طاعة وعبادة يمارسها المسلم باختياره الحر طاعة وامتثالا، والخطباء والأئمة يمكن أن يكون لهم دور فعال فى توجيه الناس ورفع هممهم بشرح هذه

الحقائق ودفع الناس إلى الإقبال على الحياة باعتبارها مجال الاستخلاف ودار طاعة وميدان عبادة بالتدبير والتعمير، كما يجب التركيز والتحذير من الكبائر الاقتصادية التى تتمثل فى نقص الإنتاج وتعطيله وتحويل المجتمع إلى مجتمع يعيش عالة على غيره وينتظر المعونات ويرهن إرادته نظير عدد من أطنان القمح أو حفنة ملايين من الدولارات كما يجب أن تصور تلك الكبائر على أنها تتساوى تماما مع الكبائر الدينية ولا تقل فى الجرم عنها.

وكذلك الأمر بالنسبة للكبائر الاجتماعية التى تتمثل فى السلوك الردىء بتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة وممارسة الأنانية فى صورها البشعة، وكأن الإنسان يعيش وحده فى هذه الدنيا وليس له شريك يراعيه ويحافظ على حقوقه،ويمارس حريته فى إطار حقوق المحافظة على حقوق الآخرين، ويدخل تحت هذه الكبائر أيضا قطع الطرق، وتعطيل وإرباك المرور، والتجاوز والتعدى على القوانين المنظمة للسير والحركة، والرمى بالمهملات فى غير أماكنها،واللامبالاة بما يحدث فى الشارع من بعض الأشخاص، وترك الحبل على الغارب لكل إنسان ليفعل ما يؤذى الآخرين ويسىء إليهم، وإهدار المال العام والتعدى المستمر على الممتلكات العامة وعلى حقوق الآخرين، كل هذه كبائر اجتماعية تعطل مسيرة النهضة وتسبب للمجتمع بعمومه ضررا بالغا، ومن ثم يجب أن تأخذ من الدعاة والأئمة وأجهزة الإعلام نصيبها من العناية والتوجيه، ولابد من الإشارة إليها هنا والتحذير من الوقوع فيها باعتبارها مساوية للكبائر الدينية.

الأمر نفسه بالنسبة للكبائر السياسية، ونعنى بها خطاب التخوين والتخويف والتجديف وتعدى الخصومة لتيار معين إلى خصومة مع المنهج والفكرة، فى محاولة لنفى ثوابت المجتمع المصرى، وكأننا أمة مفرغة من أى محتوى ومن ثم يجب ألا يكون لها دين يحترم ويعتبر، أو ليس لها قيم أخلاقية يجب أن تراعى، ويدخل تحت هذه الكبيرة أيضا تغليب مصلحة الحزب على مصلحة الوطن، والفجور فى الخصومة السياسية، واتباع أساليب الكيد السياسى والتحريض على التمرد والعنف والعدوان على مؤسسات الدولة وتعطيلها الأمر الذى لا يراعى فى الوطن ولا فى المواطن إلاًّ ولا ذمةً، فيختلق الأزمات ويطلق الإشاعات الكاذبة، و يتبنى خطاب التحريض المستمر، وكأننا يجب أن نظل مشغولين ببعضنا بدلا من أن ننشغل جميعا بقضايانا الوطنية ومشكلاتنا المزمنة،

والتحديات الكبرى التى تواجه وطنا يريد أن يستعيد ذاته بعد غياب طال، ويسعى ليعيد للمواطن حقه فى الحرية والعدالة الاجتماعية والعيش بكرامة، ذلك فضلا عن تطلعاته فى أن يمارس دوره الإقليمى والدولى ويعمل على الاستقلال عن التبعية للآخرين، فهلا بدأنا بتطبيق ثقافة الثورة بأولويات التغيير وصياغة الرأى العام من خلال الإعلام والأوقاف؟

وقبل أن ننهى، أستأذن القارئ الكريم باعتباره الشريك المرفوع فى المبدأ والقضية، "مبدأ التغيير والتنوير، وقضية التحرير والنهضة"، والرفيق الباحث عن خلاصة الربح فى الفكرة، أن موضوع "الثورة ومنظومة العمل الوطنى" يستحق مقالا ثالثا مضافا، أزعم أنه يحسب كخلاصة ونتيجة للموضوع المطروح ومن ثم أذكره بانتظار النتيجة فى المقال الثالث

الثورة.. ومنظومة العمل الوطنى (٣/٣) (*)

نتيجة وبرنامج عمل:

كنت قد نوهت فى المقال السابق أن القارئ الكريم هو الرفيق والشريك الباحث عن خلاصة ربح الفكرة فى المقال المكتوب، وأشرت إلى أن الموضوع المطروح يستحق مقالا ثالثا مضافا نظرا لأهميته، ومن ثم أزعم أنه يحسب كخلاصة ونتيجة للموضوع.

أشرت أيضا إلى أن إدارة الذات برنامج عمل فكرى وثقافى للتغيير والتطوير، وأن فقه الحياة فريضة دينية، ومصر تستحق أن نهتم بها وأن نفكر من أجلها، والمصريون أهل إبداع وهمة، فهم من ناحية الإدراك يتميزون بالارتفاع إلى مستوى فهم المقاصد الوطنية العليا وبسرعة، ومن ناحية التطبيق العملى يستجيبون أيضا وبسرعة إلى مستوى روعة الأداء المتميز إذا جمعهم مشروع قومى تلتقى فيه إرادتهم تلاقيا حرا، فإذا ارتبط هذا المشروع بغاية كبرى هى الله والجنة، ثم النهوض والتحرر من الرق الثقافى. والأسر الحضارى فستكون النتائج مبهرة، والتحرر من الرق الثقافي والأسر الحضاري لا يعنى أن ننعزل وأن ننفصل وأن نغيب عن الساحة، فهناك فرق بين أن تكون أسيرا ورقيقا، تؤمر فتطيع، وتفكر بعقلية سيدك، وتربط تصرفك وترهن سلوكك باتجاه الرياح التى تهب من عواصمه، وبين أن تكون شريكا، أوحتى حليفا شريفا يحسب الشريك والحليف حسابك، ويضع رضاك وغضبك موضع اهتماماته وفي قائمة أولوياته، ومصر الثورة والموقع والتاريخ والحضارة تستحق هذا الدورالكبير، ودليلنا على ذلك حب المصريين لدينهم ولوطنهم وارتباطهم به، فتلك تربة يتشبث الإيمان بترابها، فإذا حافظنا على ما فيها من بذور الخير المتمثلة فى رصيد الفطرة وسقينا أشجارها بماء العمل الجاد فستحصد مصر والعالم كله خيرها وبرها.

بداية المشروع تنطلق من العمل على الخروج من حالة الاستلاب الثقافى والعودة إلى الشهود الحضارى، وذلك يتطلب أن نتخلص من ثقافة النهب السائدة، والانتقال منها إلى ثقافة العدل والكرامة والعطاء الوطنى.

(*) نُشر في صحيفة (المصريون)، يوم ١٢ – ٠٩ – ٢٠١٢م

علينا أن نتخلص من ثقافة العبث والعجز المذل إلى ثقافة التخطيط والاقتدار والقوة، ولقد نادينا وما زلنا ننادى، وأفتينا ونفتى، وأفتى العلماء كذلك باتفاق، أن إقامة الحرف والصناعات التى لا يقوم المجتمع إلا بها، ولا تصح ولا تصلح حياة الناس إلا عليها فريضة دينية، وعلى الذين تخصصوا فيها وتفرغوا لها أن يتقنوها وأن يبدعوا فيها، ولكى يتم ذلك لابد من منظومة أو نسق معرفى جديد ينطلق أساسا من الفهم الصحيح لكتاب ربنا وسنة نبينا، والنسق المعرفى الذى نسعى أن نصبغ به مجتمع ما بعد الثورة يبدأ بعد التركيز على بناء الإنسان وتشييد عمارة قلبه وعقله ووجدانه، لأنه المرتكز الأساس لأى حضارة، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا دخلنا مرحلة ربيع الفكر الذى يبدأ من حقل الحرية وصياغة مفاهيم جديدة تُدْخِلُ الشأن الخاص فى الشأن العام وتمزج بينهما.

أدوات النقل وآلياته فى الدخول لهذه المرحلة هى المسجد والإعلام، والتربية والتعليم،ومؤسسات البحث العلمى، والمنطلق لابد أن يبدأ من الاستقامة، وإلا فلا فائدة فى كل جهد مبذول تصحبه نوايا شريرة، وكم من مشروعات لا ينقصها دقة التخطيط باءت بالفشل؛ لأن من تولاها لم يكن نظيف الأخلاق والضمير واليد، وكما يقول (د.عبد الرزاق السنهورى): "من حق الحياة علينا أن نؤمن بالاستقامة قبل أن نبدأ العمل، فما أثمر كفاح زاملته الخطايا"، لذلك فإعلام الغواية بمعناها العام سياسية واجتماعية واقتصادية لابد أن ينتقل لإعلام الهداية بمعناها العام أيضا، والنمط السائد فى خطب المساجد لابد أن يتغير، وكذلك برامج التعليم والتربية والفن لتكون ذمة المجتمع واحدة، تدور حول غاية واحدة، وإن تعددت وسائل الصياغة والتأثير، ومن ثم يجب أن يتضمن النسق المعرفى الجديد تصنيفا وتوصيفا وتفصيلا جديدا للفرائض الدنيوية التى تبدأ تفصيلا بالفرائض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ونقيضها يكون بالتقصير فى تلك الفرائض، ويصنف على أنه باب فى الكبائر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والمقصود من ذلك أن نُدْخِلُ الحياة بميادينها المختلفة لتكون جزءا من الدين ومجالا لتطبيقه تحقيقا وتصديقا لقوله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاى وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام: ١٦٢– ١٦٣)، ومن ثم يدخل الشأن الخاص فى الشأن العام ليكون جزءا من المشروع الوطنى الكبير وليشكلا معا رافعة من روافع التقدم والنمو والنهضة.

وقد قلت وكتبت أنه . إذا كان الله والجنة . هما الغاية الكبرى فعلينا أن ندرك أن الطريق إلى ذلك يبدأ من الدنيا دار التكليف والعمل، فلا يمكن الوصول إلى الآخرة الصالحة إلا من خلال الدنيا الصالحة، وصلاح الدنيا لا يكون بتركها للشياطين المهتاجة لتوجهها إلى الشر، وتستخدمها فى نصرة الباطل وحصار الحق وأهله، وإنما بعمارتها والسيطرة عليها، وترقية الوجود فيها باسم الله، وهنا نتذكر كم خسرت الدنيا حين غاب المسلم عن دوره ورسالته وحصر دينه فقط فى جنبات المسجد، وقد كانت هذه هى غاية الآخرين، إبن وافتح من المساجد ماشئت، لكن إياك أن تبنى الإنسان أو تشيد عمارة عقله وقلبه وأخلاقه،إياك أن تنمي وعيه أو تخرجه من غيبوبته.

تحدث في المسجد عن الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر والحيض والنفاس ماشئت، لكن إياك أن تتحدث عن طهارة المؤسسات من الفساد والرشوة، أو تتحدث عن طهارة المصانع من الكسل والبطالة والعجز، أو تتحدث عن طهارة الشارع من القذارة والفوضى واللاأخلاق، إياك أن تتحدث عن الطهارة السياسية والطهارة الإقتصادية والطهارة الإجتماعية وطهارة الإعلام،

انقد الخطاب الدينى وقل فيه ما قال مالك في الخمر، لكن إياك أن تتعرض للخطاب السياسي، أو الخطاب الاقتصادي الكسيح، أو الخطاب الإعلامي الفج والقبيح الذي يملأ الصحف والقنوات الفضائية بالتفاهات وبالنفاق والزور الممقوت وفحش القول.

تحدث في جنبات المسجد عن الموت وسكراته، وعن النار ودركاتها، وعن الجنة ودرجاتها، وعن الآخرة بكل مافيها، لكن إياك أن تتحدث عن الموت الأدبي والثقافي والحضاري للوطن أو الأمة، أيالك أن تذكر نار الأسعار والسلع، ونار المواصلات وأزمات التموين والسكن، إياك أن تتعرض لنار السلطة بكل أجهزتها التى تأكل حق المواطن وتسحق كرامته وتهدده في أخص حصوصياته وتسلبه كل حقوقه،وأولها حق الحياة بكرامة، وحق الحرية في أن يشارك بالرأي أو بالنشاط والحركة في اتجاه يخالف حركة النظام القائم حئنئذ تأكلك نيران أمن الدولة وتسحقك يد السلطة الغاشمة ويغضب عليك السلطان ويزج بك في ظلام المعتقلات ولا يدرى بك أحد أو يعرف أحدا عنك شيئا وكأنك نسيا منسيا.

أحسب الآن أن الفرصة مواتية لنغرس فى حس المسلم وضميره أنه ليس متدينا من يترك دنياه بحثا عن صلاح آخرته، فالأولى مزرعة الثانية، والصلاح فى الأولى مقدمة لبلوغ الصالحات فى الآخرة.

قائمة أولويات المسلم تحتاج إلى تعديل، ويفترض فيه أن يكون عنصرا مشعا بالخير الذى تحمله رسالته للناس، وهذا يتطلب منه أن يكون فاعلا ومؤثرا، وله حضوره المتميز بين الخلائق، وعلينا أن نعلم الناس أن المسلم عندما يتخلى عن أداء دوره يتمدد الشيطان فى المساحات الفارغة التى تركها المسلم، ومن ثم يفرض الشيطان على الدنيا رؤيته وقوانينه وتصوراته، وهنا تكون الطامة والخسارة الكبرى. ولقد أشار إلى ذلك العلامة الندوى بعنوان لكتاب كامل: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

المناهج الثقافية والفكرية التى استوردناها معلبة ثبت فشلها فى أكثر من تجربة، ولابد من الوعى بالفرق الكبير بين عالم الأشياء وعالم الأفكار، والتكنولوجيا من عالم الأشياء لا من عالم الأفكار، والرؤية الإسلامية أوسع وأعلى أفقا وأهدى سبيلا، فى التعامل مع الإنسان، وفى تحليل دوافعه وبواعثه ومعرفة مواطن القوة والضعف فيه من أى منهج آخر، وليست تتم هذه الرؤية بمجرد حفظ النصوص وترديدها، وإنما تتم بالغوص فيها والتعرف على مكنونها ومخزونها واستخراج كنوزها وإدراك مقاصدها وتوظيف ذلك كله فى تغيير السلوك والدفع تجاه التغيير والنهضة.

علينا أن نعلم الناس أن واجبات الحياة كواجبات الدين، وبهما معا تتحقق عمارة الأرض، وبهما معا يستطيع المسلم أن يحمى كرامته وإنسانيته وحتى قيمه الدينية والأخلاقية.

على الخطباء والأئمة والعلماء أن يعلموا الناس أن الحياة فى سبيل الله أشد تكلفة وأكثر عناء من الموت فى سبيل الله، فالأخير لا يحتاج إلا لحظة يكون الموت فيها هو الخيار الأفضل. بينما الحياة فى سبيل الله تحتاج إلى جهد وكد وصبر ومعاناة، ولو عاش المسلمون حياتهم فى سبيل الله لاستراحت الدنيا وهدأت كل عواصف الشر فى العالم.

الجامعات ودور البحث العلمى لهم أيضا دور كبير وعليهم أن يبدأوه، فالفرصة سانحة الآن ويجب أن نبدأ بالواجبات قبل المطالبة بالحقوق إذا كنا فعلا نريد أن ننهض.

ثقافة الواجب أولا يجب أن تسود وعلى كل المستويات.

وعي الشارع وإحساسه بالملكية العامة لابد أن ينمو ويتفاعل ويدرك الناس أن الشارع الذى نسلكه من بيوتنا لأعمالنا إنما هو نعمة يجب أن نحافظ عليها بنظافته والانتظام فيه، وألا نسمح لأى فئة من فئات المجتمع بقطعه أو تعطيل السير فيه.

المرافق التى نستعملها وسيلة لتيسير حياتنا وخدماتنا وتحقيق ما نريد، ينبغى أن نهتم بها ولا نكون سببا فى تعطيلها.

وأحسب أن مخزون الإرادة فى الشعب المصرى الأصيل يستطيع أن يستثمر ما هو متاح من ثروة مصر، وهو قادر أن يحول مصر وصحراءها إلى روضات وجنات إذا عرفنا كيف نستفزه ليتحرك، وكيف نوجهه ليعمر ويضيف ويبدع.

مخزون الإرادة فى هذا الشعب الأصيل بنى الأهرامات قديما، وصنع حضارة مازالت آثارها تحدث الدنيا عن مصر، وقام هذا الشعب بثورة بهرت عقول العالم حتى شهدت أن أم الدنيا ما شاخت إرادتها، ولا اهتزت يمينها، ولا اضطربت قواها، وأنها وإن قبضت على النار ثلاثين سنة، إلا أنها ما زالت ولادة، ولا يزال لها من أبنائها من يقود على طريق الخير خطاها، ويقبض على نيران مشكلاتها باقتدار وتحمل للمسئولية ويداه غير مرتعشة.

فهل يمكن أن نكف عن معارك طواحين الهواء ونستغنى عن الأدنى ونغلب مصلحة الوطن ونبدأ بالذى هو خير؟؟.

الخاتمة

وبعد: نعلم أن الثورة المصرية خلقت نوعًا من السيولة السياسية لم نتعوده في مصر، وهي سيولة تحدث عادة بعد الحروب وبعد الثورات. ومن غير شك أن من صالح الوطن أن تكون هناك معارضة قوية، بشرط أن تكون شريفة ووطنية وليست مستأجرة لإعاقة عمليات التحول الديموقراطي، غير أن الذين فاتهم قطار الوجاهة في ميدان الحياة، وجدوا في تلك السيولة فرصة ليفرضوا أنفسهم في ميدان السياسة –غصب عن عين الشعب– ولو بخيانة الثورة وحريق في الوطن كله.

والفوضى التي يشاهدها العالم ويضحك علينا من خلالها اليوم شاهد على ذلك وقد شوهت الصورة الجميلة التى رأتها الدنيا وانبهر بها الناس شرقا وغربا يوم أن عاد المصري لذاته في ٢٥ يناير، وتجلى عمقه الحضاري والأخلاقي في ميدان التحرير وفي كل ميادين مصر. ضبط إيقاع الشارع المصري يجب أن يتحقق ليكون في الاتجاه الصحيح. ومصر يجب أن تكون أكبر من القهر، وأكبر من الهزيمة، وأكبر من أن تكون سلعة في مزايدات السياسة التي نكبت بها بعدما انفجرت "ماسورة" الديموقراطية فيها، ولم نعد قادرين على الإمساك بمياهها التي سالت فعطلت السير في شوارع قاهرة المعز.

وهذا الكتاب سجل عامين من الثورة، كان القلم فيها يكتب ما يراه حقا، وأشاد بمداده بما رأي أنه في صالح الوطن ثورة وشعبا وثوارا، وقد تكون رؤية الكاتب قد صورت الوقائع بصورة ربما تتفق مع رؤية القارئ، وربما أيضا تغاير فكر القاري وتختلف معه أو تناقض رؤيته، ولا بأس، فتلك هي الديمقراطية، الثوب الجديد الذي حرمنا منه خلال عقود عجاف، فلا مانع أن نختلف فيه، ونختلف حوله، ونختلف في طريقة تناوله كما وكيفا، ونتعلم، كل ذلك لا بأس به، المهم أن يحرص كل منا على الآخر المتفق معه، أو المختلف معه في الحزب أو الفكر والانتماء والأيديولوجية، وليعلم كل منا أن جمال الصورة الوطنية لا يكتمل إلا بوجود الآخر فيها، وأن تقدم الوطن وتنميته وازدهاره لن يكون بفصيل واحد ولا باتجاه واحد، ولا برؤية واحدة، وحقيقة مصر لا تكون إلا بنا جميعا، وهي أيضا أكبر منا جميعا، وذلك دائما شأن الوطن، ولا وطن بغير وطنيين. ومن هنا كانت حاجة كل منا للآخر، وحاجة الوطن إلينا جميعا، ثم حاجتنا إلى الوطن. والثورة وسيلة لخدمة الوطن وتصحيح مساره وتحويل نعمه وعوائده وفضله إلى المواطن، والسبيل إلى ذلك أن نكون شركاء في حبه والعمل له، وأن يصر كل منا على نصرته، وإعلاء شأنه ورفع رايته.

أ. د إبراهيم أبو محمد

(..الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ...) (الأعراف: ٤٣)